

الدار المصرية للتأليف والترجمة

الفاخرة

تاريخها وأثارها

(١٨٤٥ - ١٩٦٩)

من جوهـر القناد
إلى الجبرني المؤرخ



تأليف

دكتور عبد الرحمن زكي

القاهرة

تاريخها وآثارها (٩٦٩ - ١٨٤٥)
من جوهر الفتاح إلى الجيدق المؤرخ

تأليف

الدكتور عبد الرحمن زكي

الدار المصرية للتأليف والترجمة

١٣٨٦ هـ - ١٩٦٦ م

دار الطباعة الحديثة
١٩٦٦ م - أول طبعة
١٩٦٦ م - ١٩٦٦ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مَقْدِمَةٌ

منذ انطلاق العرب من شبه الجزيرة العربية فاتحين ، لم يكتفوا بسكنى المدن الساسانية أو البيزنطية التي وقعت تحت أيديهم ، ولكنهم شيدوا مدناً جديدة ، اتخذوها قواعد عسكرية في عصر الحروب الإسلامية ، ليستقر فيها المقاتلون ، فلا يلبثون أن يلحق بهم أفراد أسرهم . ولما انتهى عصر الفتح وأخذ الخلفاء إلى الظمأ نينة والاستقرار ، لم تتجاوز رغبتهم تشييد القصور والمسكن لهم ولحاشيتهم في مكان خاص على مقربة من جامع المدينة ، وسرعان ما قامت حوالها مدينة كبيرة .

فمنذ صدر الإسلام رأينا العرب يخططون الأمصار والقصبات والمدن ، وينشئونها ، وقد اندثر بعضها أو قلت أهميته ، في حين ازدهر بعض آخر وتطور إلى مدن كبرى ، وأصبحت منائر إشعاع للحضارة الإسلامية . ففي غرب آسيا ، شيد عتبة بن غزوان في خلافة عمر بن الخطاب مدينة البصرة (١٤ / ٥١٤ م) ، ثم أسس أبو الهياج الأمدى مدينة الكوفة (١٧ / ٥١٧ م) ، كما بنى الحجاج الثقفي في أيام عبد الملك ابن مروان مدينة واسط (٨٣ / ٥٨٤ هـ - ٧٠٢ / ٧٠٣ م) ، ثم أسس أبو جعفر المنصور مدينة السلام أو بغداد (١٤٥ / ٧٦٢ هـ) ، فأصبحت أعظم مركز للحضارة العربية عرفه العالم حتى قضى المغول عليها .

أضف إلى ذلك ، عشرات المدن التي بناها العرب أو جددوها في إيران وشمال الهند ، كقزوين التي مصرها سعيد بن العاص (٢٩ / ٥٣٤ هـ - ٦٤٩ / ٦٥٤) في خلافة عثمان بن عفان ، وأسد أباد في نيسابور التي أسسها أسد بن عبد الله القشيري في أيام هشام بن عبد الملك (١٢٠ / ٧٣٨ م) ، والمنصورة بالهند التي بناها منصور بن جمهور الكلابي (١٢٦ / ٧٤٣ م) .

فإذا انتقلنا إلى شمال أفريقيا ، قابلتنا الفسطاط أولى المدن العربية الأفريقية ، وقد أسسها عمرو بن العاص (٢١ / ٥٦٤ م) بمعاونة بعض قادته الذين قاموا بتخطيطها . ثم بنى صالح بن علي العباسي على أيام السفاح « العسكر » في شمال الفسطاط (١٣٢ / ٧٥٠ م) ، وشيد أحمد بن طولون « القطائع » (٢٥٦ / ٨٧٠ م) ، ثم أنشأ جوهر القائد الفاطمي ، مدينة القاهرة (٣٥٨ / ٩٦٩ م) ، التي أصبحت منذ ذلك الحين قلب الديار الإسلامية .

إن المدن التي أسسها العرب في الشمال الإفريقي يضمها في الواقع ثبت ضخم ، نذكر منها القيروان بتونس التي شيدتها عقبة بن نافع (٥٠ / ٦٧٠ م) ، والمنصورة بالقرب منها (٣٣٧ / ٩٤٨ م) ، وراقدة ثم

(٤)

تونس التي شيدها حسان بن النعمان ، والمهدية الفاطمية (٣٠٣ هـ / ٩١٥) ، والمحمدية ، ثم فاس التي بناها الأدارسة (١٩٢ هـ / ٨٠٨ م) ، ووهران (٢٩٠ هـ / ٩٠٣ م) ، ومراكش التي شيدها يوسف بن تاشفين (٤٧٠ هـ / ١٠٧٧ م) ، والرباط التي أسسها السلطان الموحدي عبد المؤمن في القرن الثاني عشر .

أما ما شيده العرب والبربر في الأندلس من المدن ، فكثير ، ألم يستقروا هناك حوالي ثمانمائة سنة ؟ نشروا في خلالها دينهم ولغتهم وحضارتهم ؟ لقد أعادوا إنشاء قرطبة من جديد ، وبني عبد الرحمن الثالث مدينة الزهراء بالقرب منها (٣٢٥ هـ / ٩٣٦ م) ، وشيدت قلعة « أيوب » وتطيلة ، ومرسية والزاهرة وغيرها .

فالعرب إذن بنسأون . . نعم ابتنوا مسدنا كبيرة ، استقر فيها دينهم وحضارتهم على مر الزمن ، وما زالت تلك المدن حتى اليوم ، في طليعة مدن العالم الزاهرة ، تتحدث كلها عن ماض تليد وتراث علمي خالد ، وهي اليوم ذات حاضر مزدهر ، وترنو إلى مستقبل وضاء .

وشهر بين رجالات العرب ، علماء كثيرون ألقوا عن المدن : فكتب عن البصرة : ابن شبه ، وألف عن بغداد : طيلور (٨١٩—٨٩٣) وابنه والسرخسي والخطيب ، وألف عن الكوفة : الهيثم بن عدي ، وعن المدينة : الدائني وابن شبه وعبيد الله بن أبي سعيد الوراق ، وعن مكة : الواقدى والأزرقي ، وكتب ابن عساكر عن دمشق ، ولأحمد بن عيسى مصنف عن حمص ، وللزهراوى عن قرطبة ، وألف عن القيروان أبو العرب الصنهاجى ، وغيرهم كثيرون .

أما عن كتاب الخطط ، فحدث كثيراً ، ولاسيما بين علماء مصر ، نذكر منهم : ابن عبد الحكم « كتاب فتوح مصر وأخبارها » ، والكندى « الخطط » ، وابن زولاق « الخطط » ، والسبعى « أخبار مصر » ، والقضاعى « المختار في ذكر الخطط » ، وابن عبد الظاهر « الروضة البهية الزاهرة » ، وابن دقاق « الانتصار لواسطة عقد الأمصار » ، وعميد كتاب الخطط تقي الدين المقرئى « المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار » ؛ والسيوطى « حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة » ، وغير هؤلاء من المؤرخين والرحالة والجغرافيين العرب الذين تناولوا في مؤلفاتهم وصف المدن وخططها وأحوالها .



لقد سميت القاهرة منذ سنوات طويلة ، وجملت من دراسة تاريخ خططها ومبانيها وتطورها هوائى . فكنت أسمى إلى كل مسجد أو مدرسة أو وكالة أو سبيل برفقة زملائى أو بصحبة نفسى لأبحث نقشاً مكتوباً أو أصعد منقذة أو برجاً لأشاهد شيئاً قد يكون مستوراً خلف بيت قديم أو خان خرب . . وقد شعفتى هذا على أن أعنى بدراسة الآثار الإسلامية دراسة علمية صحيحة ، فرحلت إلى شتى المدن في العالم

(ه)

العربي لأرى بعيني ما خلقته تلك الحضارة الخالدة من عمائر وفنون ، جعلتني أقابل بينها وبين ما يوجد منها في بلدنا . . ودفعني هذا إلى مطالعة الكتب المتصلة بآثار المدن العربية وأقمتها . ثم حاولت أن أكتب عن القاهرة وتخطيطها وأسوارها وأبوابها وعمارتها ، فوفقت في بعضها . وصدر لي أول كتاب عن القاهرة بجزيئه (١٩٣٢ - ١٩٣٥) . ولما عزمت بعشيئة الله ، بعد أكثر من ثلاثين سنة ، على أن أكتب مرة أخرى تاريخ القاهرة ، وجدت نفسي مضطراً لأن أتبع نفس المنهج التاريخي الذي ألفته وألفه غيري من المؤلفين .

فإنني في هذا الكتاب ، أتابع تاريخ القاهرة منذ وضع القائد جوهر أساس أسوار المدينة العتيقة في ١٧ شعبان ٣٥٨ هـ . ثم أتبعها ببناء الجامع الأزهر (٤٤ جمادى الأولى ٣٥٩ هـ) ، الذي قدر له أن يشاطر المدينة العظيمة حياتها المديدة ، وأن يبقى أثراً خالداً في العالم الإسلامي . ومنذ ذلك العصر الفاطمي ، أصبحت القاهرة قاعدة امبراطورية واسعة ، ولا سيما بعد أن ضمت إليها العواصم الإسلامية الأولى : القسطنطينية والمسكر ، والقطن ، على أيام دولة صلاح الدين الأيوبي ، ذلك السلطان العظيم الذي جعل القاهرة عاصمة للبلاد بعد أن كانت مدينة لا يسكنها إلا الحكام ، ثم شيد حولها سوراً وتوجها بقلعته المنيعة فوق جبل المقطم ، ثم عني أحفاده ببناء مدارس العلم فيها .

وفي أيام حكم المماليك ، ازدهرت القاهرة وامتدت في اتجاه الشمال وإلى الغرب ، وتنافس الحكام والأمراء في بناء المساجد والمدارس ودور الكتب والقصور . والواقع أن ما نشاهده اليوم في القاهرة من الآثار الرائجة في جميع أحيائها الأصلية هو شاهد حق ، على ما اتسمت به المدينة من الازدهار والروعة وجمال الذوق في أثناء العصور الوسطى ، حينما وفد إليها طائفة من الرحالة العرب والأجانب ، فأجادوا صفة ما شاهدوه فيها . أما القاهرة في أيام العثمانيين ، فلم يطرأ عليها تغيير يذكر سواء في اتساعها أو امتدادها ، فلقد بقيت بمحدودها المملوكية . فكان باب الحديد أقصى حدود مبانها جهة الشمال الغربي ، والأزبكية وما حولها من مبان نهاية العمران في الغرب ، والطريق بينها وبين بولاق مقفرة . صحيح أنه شيدت بها بعض المساجد الصغيرة الخافتة بأروع النقوش والزخارف ، بيد أنه في الوقت نفسه تفشى الحراب بأحياء المدينة ، فدرست قصور السلاطين والأمراء فيما عدا القليل ، كما شيدت بعض التكايا والأسبلة ، وهي التي تتميز بها معظم مدن آل عثمان .

ثم جاءت مرحلة الحراب الأخيرة في أثناء الحملة الفرنسية ، وتكاد تكون هذه الفترة بالرغم عن قصرها أنعمس ما مر بالقاهرة خلال حياتها ، لكنها امتازت أيضاً بالمقاومة الوطنية العنيفة التي أبدتها القاهريون ضد ما ارتكبه الفرنسيون من المظالم البشعة في أحياء المدينة . فاضطروا إلى إخلاء القاهرة والانسحاب من وادي النيل ، وتنفست البلاد من نسيم الحرية .

(و)

هذه هي صفحات من تاريخ القاهرة ، فيها الزاهى وفيها أيضاً الداكن ! أحداثها موصولة تتعاقب ، منذ أسسها جوهر ، فما وقع حادث ضخم في الدنيا ، إلا كان له أثره فيها ، كما أن للقاهرة أيضاً أثرها الكبير في العالم العربى . بل في العالم الإسلامى قاطبة ، في شئون السياسة والعلوم والفنون . وقد أنجبت القاهرة جماعات لا يحصى عددها من الفقهاء والعلماء والساسة والأدباء ، تذكروهم حتى اليوم أعمالهم الخالدة ، تلك المنجزات التى أسهم فيها بقسط وفير ، أبناء كل خط من أخطائها ... الجمالية ، المغربلين ، الصليبية ، الدرب الأحمر والروضة ... وغيرها . ويشهد تراثها العظيم على حيوية أهلها الفيضة ، مع أصالة فى الإبداع ، وحب لكل ما هو رائع وجليل . ومن أجل ذلك عاشت القاهرة على مر الزمن .

عبد الرحمن زكى



الفصل الأول

عواصم مصر الإسلامية قبل الفاهرة

لما فتح العرب مصر (١٨ هـ - ٦٣٩ م) ، كانت الاسكندرية عاصمة البلاد ، ففكر عمرو بن العاص في أن يتخذها قاعدة ، إلا أن عمر بن الخطاب لم يوافق على ذلك ، بل أمره بإنشاء مدينة جديدة ، لا يفصله عن المسلمين فيها ماء في شتاء ولا في صيف . فلما عاد عمرو من فتح الاسكندرية ، قصد المسكن الفسيح الذى يقع شمال حصن بابليون ، حيث عسكرت قوات العرب حين قدومها ، وأمر بتأسيس القسطنطينية ليجعلها قاعدة البلاد ودار الامارة ، واختط عمرو الجامع العتيق ، ثم اختطت القبائل العربية من حوله . وكان عمرو قد ولى على الخطط أربعة من المسلمين للفصل بين القبائل في تنظيم خطة كل منها ، وهم : معاوية بن حديج التجيبي ، وشريك بن سمى العظيفي ، وعمرو بن قحزم الحولاني ، وجبريل ابن ناشرة المعافورى .

وقد ذكر البلاذرى أن الزبير هو الذى اختط القسطنطينية واتخذ لنفسه داراً ، وجعل فيها السلم الذى صعد عليه إلى سور حصن بابليون ، وبقي فيها ذلك السلم حتى احترق في حريق شاور . أما ياقوت ، فقد ذكر في معجم البلدان ما ذكرناه آنفاً منقولاً عن ابن دقاق . ويصف ابن عبد الحكم في كتابه فتوح مصر خطط القسطنطينية الأولى ، ويبين كثيراً من مواضع الدور والأمكنة التى بناها رؤساء الجند والزعماء . وقد أفاد المستشرقون مما كتبه ابن عبد الحكم ورسموا تخطيطات هامة في غاية الدقة لطبوغرافية القسطنطينية .

وقد حدد القرينى موقع القسطنطينية في خطته ، فقال :

« إعلم أن موقع القسطنطينية الذى يقال له اليوم مدينة مصر . كان فضاء ومزارع فيما بين النيل والجبل الشرقى الذى يعرف بجبل المقطم ، ليس فيه من البناء والعمارة سوى حصن يعرف اليوم بعضه بقصر الشمع وبالمعلقة . ينزل به شحنة الروم المتولى على مصر من قبل القياصرة ملوك الروم عند مسيره من الاسكندرية ، ويقم فيها ما يشاء ، ثم يعود إلى دار الامارة » .

وتاريخ إنشاء القسطنطينية مختلف فيه ، فالبلاذرى يقول انه كان بعد فتح بابليون ، في حين أن أكثر المؤرخين يجعله بعد فتح الإسكندرية . كما ذكرناه . ومن المحتمل أن يكون بناء المدينة قد بدأ بعد صلح الاسكندرية ، وأنها زادت فيما بعد حتى صارت مدينة ، وعاصمة ذات شأن كبير ، ثم نمت نمواً سريعاً بعد عام واحد من إنشائها . وقد قال المؤرخ أبو المحاسن أن « عمرو بنى القسطنطينية في سنة ٢١ هـ . بعد فتح الاسكندرية » .

وعما زاد في مكانة الفسطاط أذ، كانت تصل بابلون والبحر الأحمر عند القانم (السويس) قناة قديمة
 اسمها « أمينس تراجانوس » (ترعة طرايانوس) ، وكانت تمر بمدينة بليس وبحيرة التمساح ، لكنها
 أهملت في وقت ما ، فأعاد حفرها عمرو بن العاص ، وعادت لها أهميتها القديمة ، فكانت ترسل بوساطتها
 الغلال إلى بلاد العرب ، وسهلت بذلك المواصلات بين خليفة المؤمنين وواليه في مصر .

ولما انتهى عمرو بن العاص من بناء الفسطاط ، أنشأ الجامع العتيق ، أقدم المساجد في مصر ، وأول
 نواة للعمارة الإسلامية فيها . وقد اختار عمرو موضع بناءه في المسكان الذي كان فيه لواءه ، وقد عرف باسم
 مسجد أهل الراية ، وهم نخبة من الجند الأنصار والمهاجرين ، كانوا يؤلفون نواة الجيش ، وتلتف حولهم كل
 قبيلة رايته . وقد أورد ابن عبد الحكم في تاريخه ، خطبة عمرو التي قائلها في يوم الجمعة ، وجاء فيها :

« حدثني عمر أمير المؤمنين أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن الله سيفتح عليكم بعدي
 مصر ، فاستوصوا بقبطها خيراً . فان لهم فيكم صهراً وذمة فكفوا أيديكم وعفوا فروجكم وعضوا أبطركم ...
 وحدثني عمر أمير المؤمنين أنه سمع رسول الله (ص) يقول : إذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا فيها جنداً
 كثيراً ، فذلك الجند خير أجناد الأرض . فقال له أبو بكر : ولم يا رسول الله ؟ فقال لأنهم وأزواجهم في
 رباط إلى يوم القيامة ... إلخ » .

ولقد مرت مراحل كثيرة على « تاج الجوامع » كما أطلق عليه . ووصفه الرحالة الأندلسي ابن سعيد
 الذي زار مصر في منتصف القرن الثالث عشر ، قال :

« .. ثم دخلت إليه ، فعابنت جامعاً كبيراً ، قديم البناء غير مزخرف ، ولا محتفل في حصره التي تدور
 مع بعض حيطانه . وأبصرت العامة رجالاً ونساء ، قد جعلوه معبراً بأوطئة أقدامهم ، يجوزون فيه من باب
 إلى باب ليقترب عليهم الطريق ، والبياعون يبيعون فيه أصناف المكسرات والحلوى . والناس يأكلون منه
 في أمكنة عديدة غير محتشمين لجرى العادة عندهم . والمنكبوت قد عظم نسجه في السقوف والأركان
 والحيطان ، والصبيان يلعبون في صحنه وحيطانه مكتوبة بالفحم والحجرة بخطوط قبيحة مختلفة من كتب قراء
 العامة ... » .

ولما أقبل القرن الثامن عشر كتب الجبوتي في كتابه « عجائب الآثار في التراجم والأخبار » ...
 وانتشر الموسيقيون في فائه والقرديات والراقصات ، فذهب بهؤلاء القديم حتى هجره هؤلاء أيضاً ، ولولا
 إقدام مراد بك على إعادة تجديده لاندثر تاج الجوامع منذ قرنين » .

* * *

وفي الجهة البحرية من الجامع ، شيد عمرو داراً له ، وأخرى غربيها لابنه عبد الله ، عرفت بالدار
 الصغرى تمييزاً لها عن دار أبيه التي عرفت بالدار الكبرى . كذلك بنى الزبير بن العوام داراً بجوار دار عبد الله.

ولما رسخت أقدام المسلمين في مصر ، اتسعت وزادت عمارة الفسطاط ، وفاقَت البصرة والكوفة ، وبلغ امتدادها على ضفة النيل ثلاثة أميال ، كما ذكر ذلك ابن حوقل الجعرا في أواخر القرن العاشر . وقال القضاعي المؤرخ عن مقسدار عمارتها أنه كان في الفسطاط ٣٦٠٠ مسجداً و٨٠٠٠ شارع مسلوكة و١١٧٠٠ حمام (!) . ونقول وإن كان في هذه الأرقام مبالغة واضحة ، فلا شك أن الفسطاط قد بلغت درجة كبيرة من العمران . ثم ارتقت الفسطاط في أيام خلفاء الأمويين ، وصارت مقرآ لولاتهم . وشيد فيها عبد العزيز بن مروان أمير مصر من قبل أخيه الخليفة عبد الملك دارآ للإمارة ، عرفت بدار عبد العزيز ، كانت مطلة على النيل ، بلغ من سعتها وكثرة ساكنيها أنهم كانوا يصبون فيها أربعائة راوية ماء كل يوم . وقد علت هذه الدار قبة مذهبة ، شأن الأمويين في تفخيم بناياتهم حتى تبرز المباني البيزنطية التي خلفها الروم وراءهم في الأقطار التي انتزعها العرب منهم .

ولعل دار الإمارة تلك ، كانت أول بناية إسلامية كبيرة في مصر وصل إلينا بناؤها زخرفها .

مرت على الفسطاط كما قلنا ، مراحل عديدة . « فكانت في زمن من الأزمان نحو ثلث بغداد ومقدارها نحو فرسخ ، على غاية العماره والطيبة واللذة ذات رحاب ، فيها أسواق عظام ومتاجر فخام . ولها ظاهر أنيق وبساتين نضرة ومنتزهات خضرة » على قول ابن حوقل .

ولما زار الفسطاط ابن سعيد المغربي ، كانت قد تغيرت أحوالها ، وانقلبت محاسنها إلى أصدادها ، فقال فيها دونه :

« ولما أقبلت الفسطاط ، أدبرت عنى المسرة ، وتأملت أسواراً مثلمة سوداء وآفاقاً مغبرة ، ودخلت من بابها ، وهو دون معلق إلى خراب معمور بجان سيئة الوضع غير مستقيمة الشوارع ، قد بنيت من الطوب الأدكن والقصب والنخيل طبقة فوق طبقة وحول أبوابها من التراب الأسود والأزبال ما يقبض نفس النظيف ويعص طرف الطريف » .

ومنذ تأسست الفسطاط إلى أن بنى العسكر ، وليها تسعة وعشرون أميراً لمدة مائة وثلاثة عشر سنة وسبعة أشهر أولها يوم الجمعة مستهل المحرم سنة عشرين من الهجرة ، لما وليها القائد عمرو . وكان آخر أمراءها صالح بن علي بن عبد الله من قبل أمير المؤمنين أبي العباس بن محمد السفاح ، ومن بعده سكن أمراء مصر العسكر ، وكان أولهم أبو عون عبد الملك .

خاتمة الفسطاط

كان قد حدث للفسطاط في أثناء وجودها إعتلابان كبيران . هما قيام « العسكر » ثم « القطائع » . فان المرحلة النهائية للفسطاط جاءت عقب ذلك في مناسبتين ، كانت الأولى في أيام البدة العظمى في أثناء خلافة المستنصر بالله الفاطمي . وكانت الثانية حريق مصر في وزارة شاور أثناء خلافة العاضد . أما النامسة

الأولى ، فكانت حينئذٍ تمرّد الجند ، وساد الاضطراب وحلت بالبلاد المسغبة والمجاعة ، ولجأ المستنصر بالله إلى حاكم الشام بدر الجمالي . فكتب إليه سرّاً يستقدمه إلى مصر لتحسين الأحوال . فلما قدم بدر اهتم بتحسين القاهرة ، وعمل على إهمال الفسطاط بل وتخريبها . فقد أباح للجند وللقادرين على البناء ، أن يعمرُوا ماشاءوا في القاهرة وغيرها . فعمرت وسكنها الناس ، ولم يبقوا شيئاً في الفسطاط أو العسكر أو التّطائع ، وتركوا موقعها موحشاً مقفراً .

وكانت المناسبة الثانية ، حريق الفسطاط الهائل ، الذي أمر باضرامه شاور عام ٥٦٥ هـ / ١١٦٩ م ، حينما غزا عموري ملك بيت المقدس الديار المصرية ، لما عجز عن الدفاع عنها ، وأراد أن يتجنب سقوطها في أيدي الصليبيين . فقد أمر شاور بإخلاء الفسطاط وحرقتها ، ويقول المقرئ : « بعث شاور إلى مصر بمئتين ألف قارورة نطف وعشرة آلاف مشعل نار ، فرقت فيها فارتفع لهب النار ودخان الحريق إلى السماء ، فصار منظرًا مهولاً . واستمرت النار تأتي على مساكن مصر من اليوم التاسع والعشرين من شهر صفر لتمام أربعة وخمسين يوماً . ومن ثم تحولت مصر الفسطاط إلى الأطلال المعروفة الآن بكيمان مصر . . فلما حدث الحريق رحل عموري من بركة الحبش^(١) ، ونزل بظاهر القاهرة ، مما يلي باب البرقية ، وقاتل أهلها قتالاً عنيفاً » .

ولما جاء صلاح الدين الأيوبي لمصر ، أراد أن يجمع بين القاهرة وما بقي من الفسطاط بسور واحد . فانقلت النشاط التجاري إلى ساحل النيل حيث كانت ترسو السفن وتكثر المخازن والمصانع .

ولقد ترك لنا ابن دقاق ، والمقرئ ، والقلقشندي عن مدينة الفسطاط في القرن التاسع الهجري (١٥ الميلادي) معلومات دقيقة ، تتحدث عن أن تدهور المدينة كان يزداد قرناً بعد قرن . وفي العبارة الآتية لخص القلقشندي الحنن التي نزلت بالفسطاط ، فقال :

« ولم يزل الفسطاط زاهي البنيان ناحي السكان إلى أن كانت دولة الفاطميين بالديار المصرية ، وعمرت القاهرة ، فتهقر حاله وتناقص . وأخذ سكانه في الانتقال إلى القاهرة وما حولها ، فخلاً من أكثر سكانه ، وتتابع الخراب في بنيانه إلى أن بلغ الفرنج على أطراف الديار في أيام العاضد آخر الخلفاء الفاطميين » . ثم قال القلقشندي في موضع آخر : « وبعد حريق شاور تزايد الخراب فيه ، وكثر الخاو . ولم يزل الأمر على ذلك في تهقر أمره إلى أن كانت دولة الظاهريين ، فصرف الناس همتهم إلى هدم ما خلا من أخطائه وعفا رسمها ، واضمحلت مابقي منها وتغيرت معالمه » .

(١) كانت تقع بركة الحبش جنوب مدينة مصر فيما بين النيل وجبل المقطم ، وكانت تطلق على حوض من الأراضي الزراعية التي يغمرها ماء النيل وقت فيضانه السنوي . وكانت تشغل من الأراضي مساحة قدرها ١٥٠٠ فدانا - محمد رمزي في النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٨١ و ٣٨٢

وعلى هـ هذه الحال ، تحولت البناء النهرية والعاصمة الاسلامية الأولى إلى كيان من التراب وتلال من الأتقاض حتى أتاح الله للفسطاط العالم الأثرى الجليل المرحوم على بك بهجت فكشف فيما بين عامي ١٩١٢ ، ١٩١٣ أجزاء كبيرة من تلك المدينة البائدة التي لم يتخلف من بقاياها إلا جامع عمرو وأبراج قصر الشمع . ولا يزال متحف الفنون الاسلامية يزاوّل أعمال الحفر في تلك الأطلال تقيماً عن آثار المدينة الفاصلة .

العسكر

وحينما كانت الفسطاط عاصمة مصر (٧٥٠ م) . فر مروان بن محمد آخر خلفاء الأمويين إلى مصر لينجو بنفسه أمام منازعه أبو العباس أول خلفاء العباسيين . فلما وصل إلى مصر ، أشعل رجاله النار في الفسطاط ، وفي القنطرة التي تربطها بجزيرة الروضة ، واتجه إلى شاطئ النيل الغربي . بيد أن تدابيره ذهبت عبثاً لأن القائد العباسي ورجال خراسان ، علموا بوسائل عبوره ، وأدركوه في قرية بوصير وقتلوه . ثم حملوا رأسه ، وطافوا في المدن ليتأكد الناس أن الخلافة قد انتقلت من البيت الأموي إلى البيت العباسي .

وكأن رجال العباسيين ، لم يرضوا أن يسكنوا بيوت الفسطاط إما لرغبة في التجديد ، وإتخاذ عاصمة جديدة ، كما جرت العادة في الشرق منذ القدم ، وإما لأن مروان بن محمد كان قبل قتله قد أضرم ناراً في الفسطاط دمرت جزءاً كبيراً منها ، فأنشأوا حاضرة أخرى جديدة لدولتهم في مكان عرف في صدر الإسلام باسم الحمراء القصوى ، ويمتد إلى جبل يشكر الذي بنى ابن طولون على قمته مسجده الجامع .

وكان يمتد العسكر على شاطئ النيل ، وهو وقتئذ أقرب إلى الشرق من موضعه الحالي لأنه كان يجري بجانب المرتفع المشيد عليه جامع عمرو بن العاص ، ثم ابتعد عنه على توالي الزمن حوالي خمسمائة متر . وكان يحد العسكر جنوباً بكموم الجارح حيث تمتد الآن قناطر العيون ، وشمالاً شارع مراسينا إلى ميدان السيدة زينب حيث قناطر السباع أمام المشهد الزيني ، وغرباً بين شارعى السد والديورة ، وشرقاً خط تصورى يمتد من مسطبة فرعون بجوار مسجد الجولى بشارع مراسينا إلى جامع السيدة نفيسة (باب القدم) . وعلى أيام المقرئى لم يبق للعسكر ذكر ، بل كان اسم القطائع هو المعروف^(١) .

في ذلك المكان ، أقام العباسيون دورهم واتخذوا مساكنهم ، وبنى صالح بن على دار الإمارة وشككت الجند ، ثم شيد الفضل بن صالح مسجد العسكر . وبمرور الأيام اتصلت العسكر بالفسطاط وأصبحتا مدينة كبيرة ، خطت فيها الشوارع وشيدت المساجد والدور وأقيمت الأسواق والبساتين .

وقد ازدهر العسكر لكثرة ما شيد فيه من الأحياء العامرة . وقد سكنها الخمسة والستون والياً الذين حكموا مصر نائبين عن الخلفاء العباسيين مدة ١١٨ سنة . وصار حياً زاهراً لم يقلل من شأن الفسطاط

(١) من تعليقات الأستاذ محمد رمزى بالنجوم الزاهرة .

كتركز هام للتجارة أو كقاعدة ثانية لمصر. وعظمت العمارة فيها إلى أن قدم أحمد بن طولون من العراق إلى مصر ، فنزل بدار الإمارة في العسكر ، وكان لها باب إلى جامع العسكر ، ينزلها الأمراء منذ شيدها صالح ابن علي ، وما زال بها حتى شيد بن طولون قصره بالقطائع وترك العسكر .

وليس هناك اليوم أثر لهذه الضاحية . ولم يعن المؤرخون بتاريخ واف لحكامها ، فقد ساد عصرهم سوء الإدارة وفساد الحكم .

ظل أمراء مصر يقيمون في دار الامارة في العسكر ، حتى بنى جوهر قائد جيوش المعز مدينة القاهرة ، ثم خربت في أيام الخليفة المستنصر الفاطمي على أثر الشدة العظمى . ويمكن القول بأن العسكر ظلت قاعدة لمصر أكثر من قرن (١٣٣ - ٢٥٦ هـ) ، وقد وصف المقرئى بإسهاب ما كان فيها من الدور والبساتين والمساجد والأسواق ... الخ .

القطائع

فإذا انتقلنا إلى العصر الذي زاد فيه نفوذ الجند الأتراك في خدمة البلاط العباسي ، رأينا مقاليد الأمور أصبحت في أيديهم ، وأنهم استولوا على أكبر مناصب الدولة وصار منهم أكثر الولاة والعمال ... وقدم إلى وادى النيل سنة ٨٤٦ أول وال تركي الأصل ، ثم بدأ الخلفاء في اقطاع مصر أولياء عهدهم أو كبار القادة من الترك ، وكان هؤلاء يرغبون في الابتعاد عن العاصمة العباسية خشية الدسائس ، فكانوا يرسلون عمالاً من قبلهم إلى مصر . وكان من نصيبها أحد كبار الأتراك واسمه « باكباك » ، ولاء عليها الخليفة المعتز بن المتوكل ، ونظراً لما كان للشاب أحمد بن طولون من المكانة الطيبة ، انتخبه « باكباك » ليكون قائداً للحامية العسكرية في الفسطاط . وكان طموحاً ، فلم يمض على ولايته في مصر عامان حتى استقل بملكها .

رأى ابن طولون أن العسكر أصبحت لتوسع حاشيته وتضيق بمطامعه ، فأخذ يبحث عن موقع آخر قريب من الفسطاط ، فصعد إلى المقطم ونظر إلى ما حوله ، فرأى بين العسكر والمقطم بقعة من الأرض مساحتها نحو ميل مربع ، لاشيء فيه من العمارة إلا بعض مدافن المسيحيين واليهود ، فأمر بهدمها ليقم عليها عاصمته ، واختط في موضعها مدينته الجديدة « القطائع » ، ووضعت الخطط الأولى للقاعدة الجديدة في شعبان ٢٥٦ هـ (أغسطس ٨٧٠) .

كانت تمتد حدود القطائع بين حد الفسطاط الشمالي حيث جبل يشكر وبين سفح المقطم في مكان عرف آنذ بقبة الهواء ، وفيها بين الرميطة أسفل القلعة إلى مشهد الرأس الذي عرف بمشهد زين العابدين فيما بعد .

واختط أحمد ابن طولون قصره ، وأمر أصحابه ورجاله بأن يشيدوا بيوتهم ، فاتصل البناء بعمارة الفسطاط ، وأقطعت كل جماعة من الأتباع والجنود منطقة خاصة سميت كل قطعة بمن سكنها ، ثم عمرت

القطائع عمارة حسنة وتفرقت فيها السكك والأزقة . وشيدت فيها المساجد والطواحين والحمامات والأفران ..

ولما كثر أتباع ابن طولون وضايق بهم جامع العسكر ، التمسوا أن يشيد لهم جامعاً آخر أوسع من الجامع الأول ، فأجابهم إلى التماسهم . واحتفل بوضع أسامه على جبل يشكر عام ٢٦٣ هـ (٨٧٦) ، وانتهى تشييده بعد عامين . وقد بالغ في زخرفته الداخلية ، وعلق في سقفه القناديل الجميلة ونقش على أفرانه آيات من القرآن ، لا يزال بعضها ظاهراً إلى اليوم . ويعتبر الجامع من أروع آثار مصر ، بل وفي الآثار الإسلامية .

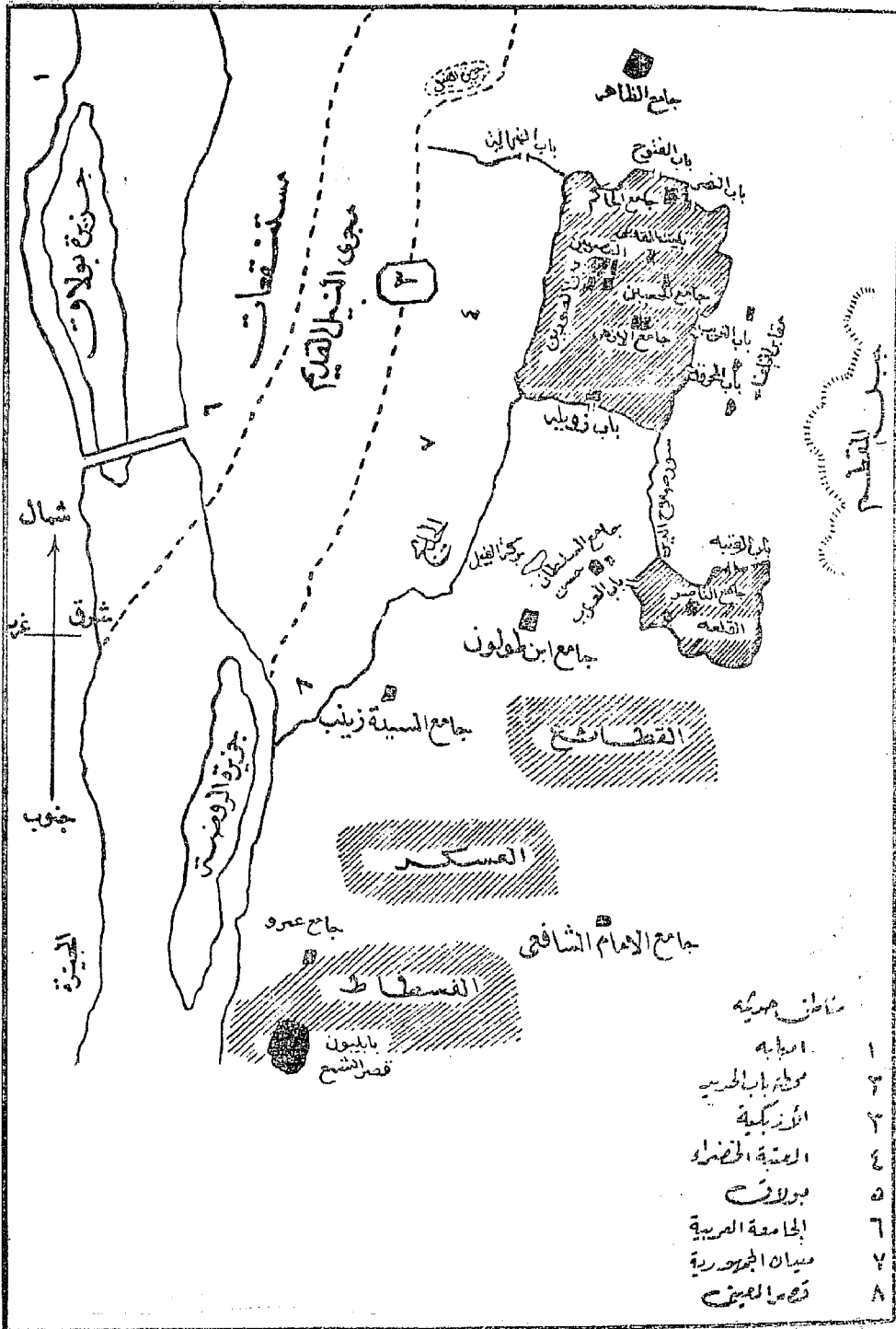
وتولى خمارويه بعد وفاة أبيه ، فنقل قاعدة حكمه إلى القطائع ، وأقبل على عمارة قصر أبيه وزاد فيه كثيراً ، وأخذ الميدان المجاور للجامع وحوله إلى بستان فينان وزرع فيه أنواع الرياحين وأنواع الشجر ، وكسا جذوع النخل نحاساً مذهباً أو مفضضاً . وأنشأ في وسط قصره بركة ملاًها بالزئبق وجعل في أركان البركة مسككاً من فضة ، وجعل في السكك زناجير من حرير محكمة الصنعة في حلق من فضة وعمل فرشاً من آدم يعشى بالريح حتى ينتفخ ، فيحك حينئذ شدته ويلقى على تلك البركة الزئبق ويشد بالزناجير التي في حلق الفضة المقدم ذكرها ، وينزل خمارويه فينام على هذا الفرش ، فلا يزال يرتج ويتحرك بحركة الزئبق ما دام عليه ، بينما يحرسه أسده الأزرق العينين .

ولما توفي خمارويه ، بدأ يهوى نجم الأسرة الطولونية ، وأقبل محمد بن سليمان القائد العباسي للاستيلاء على البلاد ، فبلغ حدود مصر وهزم أسطولها ثم انقض على القطائع (٩٠٤) ، وألقى النار فيها ، فالتهمت الدور والمساجد والحمامات ، ونهب أصحابه الفسطاظ . ثم عادت الفسطاظ مرة ثانية مقرراً للحكم . ولما أصيبت مصر بالجماعة في أيام المستنصر قضت على ما تبقى من مخلفاتها ، وأصبحت القطائع أثراً بعد عين ، ولم يبق فيها سوى الجامع .

لقد كانت القطائع أول مدينة في مصر ، روعي في إنشائها وتخطيطها القواعد الفنية التي اتبعت عند تأسيس مدينة سامراء ، وكانت أوجه الشبه متقاربة جداً بينهما . كانت كل منهما مقسمة إلى خطط أو قطائع ، تضم كل قطعة منها السكان الذين تجمعهم رابطة العرق أو رابطة العمل . وطرز العمارة والزخرفة الذي اتبع في بناء الدور الخاصة والعامة في سامراء كان قد انتقل مع ابن طولون إلى مصر قبل أن يعضى على بناء سامراء أكثر من أربع وثلاثين سنة ، وبما يشهد على ذلك ، تلك الزخارف الجصية التي عثر عليها في جدران دار طولونية كسقتها « دار الآثار العربية في عام ١٩٢٢ » .

والأثر الفريد الذي خلفته القطائع هو « الجامع الطولوني » ، وبنائه يوضح لنا بجلاء أثر فنون سامراء على تلك الضاحية المصرية التي لم تعمر وتزهر طويلاً ...

ثم جاءت بعد القطائع مدينة القاهرة



١ - مواقع عواصم مصر الاسلامية وأهم معالم القاهرة اليوم

الفصل الثاني

القاهرة في أيام الفاطميين

من ٩٦٩ إلى ١١٦٩

لله قاهرة المعز فانها بلد تخصص بالمسرة والهناء
أوما ترى في كل قطر منية من جانبها فهي مجتمع المنى

ننتقل إلى العاصمة الرابعة لمصر الإسلامية ، فرى أن الخليفة الفاطمي المعز لدين الله بعد أن نجح في تأسيس دولته الأفريقية ومد حدودها إلى ساحل المحيط الأطلسي عزم على فتح مصر ، وكان جده وأبوه قد حاولا الاستيلاء عليها فلم يفلحا . فلما تولى المعز الحكم أراد أن يحقق أمنيتهما . كانت مصر في ذلك الوقت عرضة للغزاة الفاتحين . فقد عمّت فيها الاضطرابات الداخلية والمجاعة التي سببها انخفاض النيل والطاعون . وكان المعز يعلم حالة البلاد بعد أن اتصل به يعقوب بن كلس اليهودي الذي هاجر من مصر ، وكان مقرباً من كافور الأحمدي : فطلب المعز إلى جوهر القائد أن يضع الخطط العسكرية ويجهز حملته فشد مائة ألف رجل مجهزين بالمعدات الكافية ، وأرسل معهم المؤونة وآلات القتال وكل ما يحتاجه الجيش الجرار . وبدأت الحملة تحركها من القيروان في ١٤ ربيع الأول سنة ٣٥٨ هـ (٥ فبراير سنة ٩٦٩ م) فوصل جوهر إلى الاسكندرية واستولى عليها ثم واصل زحفه إلى الجيزة فوَقعت في يده في ١٧ شعبان سنة ٣٥٨ هـ (٦ يوليو سنة ٩٦٩ م)^(١) وعبر النيل بالقرب من منية المشلقان وسحق الجيوش التي أعدت للدفاع عن الشاطئ الشرقي للنيل ، وعقب ذلك دخلت القوات الفاطمية بقيادة جوهر مدينة الفسطاط عند مغيب الشمس وعسكرت في السهل الرملي الواقع إلى الشمال ، وكان يحدها هذا السهل من الشرق جبل المقطم ومن الغرب الخليج^(٢) الذي يصل بين شمالي الفسطاط ومدينة هليوبوليس القديمة وينتهي عند القانم على البحر الأحمر ، وكان السهل المذكور خالياً من البناء إلا بضعة مباني ملحقة ببساتين كافور ودير فسيح اسمه دير العظام ، وكان يشغل مكان مسجد الأقر حصن صغير يسمى قصر الشوك .

(١) تذكر بعض المراجع هذا التاريخ ١١ شعبان عام ٣٥٨ هـ (أول يوليو ٩٦٩) .

(٢) ردم هذا الخليج في أواخر القرن التاسع عشر ويسمى الشارع الآن شارع

تأسيس القاهرة

وفي مساء ذلك اليوم^(١) اختط جوهر موقع القصر الذي قرر أن يستقبل فيه المعز تنفيذاً لأوامر سيده وحينما أتى أعيان الفسطاط في الصباح التالي لتنهئته وجدوا أن أسس البناء الجديد كانت قد حفرت . وبنى جوهر سورا خارجياً من اللبن على شكل مربع طول كل ضلع من أضلاعه ١٢٠٠ ياردة وكانت مساحة الأرض التي حددها هذا المربع ٣٤٠ فداناً منها نحو ٧٠ فداناً بنى عليها جوهر القصر الكبير وخمسة وثلاثين فداناً للبيستان السكافورى ومثلها للميادين والباقي وقدره مائتاً فدان هو الذي وزع على الفرق العسكرية في نحو عشرين خطة بجانب قبصة القاهرة^(٢) ونظراً لأن جوهر كان قد أسرع في حفر أساس القصر بالليل فحدثت فيه انحناءات غير معتدلة ، فلما شاهدها في الصباح لم يعجبه لكنه قال : « قد حفر في ليلة مباركة وساعة سعيدة » وتركه على حاله . وفي اليوم الذي خط فيه جوهر القاهرة أخذت كل قبيلة من القبائل الشيعية التي تألف منها جيشه خطته ، فأتخذت زويلة الخطة المعروفة إلى اليوم ، واختطت جماعة من برقة الحارة البرقية واختطت الروم حارتين البرانية والجوانية بقرب باب النصر^(٣) وكان غرض جوهر من إنشاء القاهرة أن تكون معقلاً حصيناً لرد القرامطة عن مدينة مصر الفسطاط ليقاتلهم من دونها فأدار السور اللبن على معسكرات قواته وأنشأ من داخل السور جامعاً وقصراً واحترق خندقاً من الجهة الشمالية لينع اقتحام جيش القرامطة إلى القاهرة ومصر من ورائها^(٤) أما القصر الذي بناه جوهر فقد أوضح ابن دقاق الغرض الذي رمى إليه جوهر فقال أنه بناه لمولاه حتى يكون هو وأعوانه وجيوشه بمنزل عن عامة الشعب . ويمكن تتبع حدود سور القاهرة المعزية في أكثر أجزائه بكثير من الدقة بفضل المعلومات التي أمدنا بها المقرئ ما عدا ذلك الجزء الواقع بين باب النصر وباب البرقية فليس لدينا أية بيانات عنه ، وقد كانت القاهرة تحد من الشمال بموقع باب النصر والخلاء الممتد أمامه . ومن الجنوب بموقع باب زويلة القريب من موقعه الحالي المواجه للفسطاط ، ومن الجهة الشرقية بموقع باب البرقية والباب المحروق المواجهين للمقطم ، ومن الجهة الغربية بموقع باب سعادة المثل أو المحاذي للخليج أمير المؤمنين بعيداً عنه بنحو ٣٠ متراً .

وقد قيل أنه لما فرغ جوهر من بناء قصر الخليفة وأقام حوله السور ، سمي المدينة في أول الأمر المنصورية تيمناً باسم مدينة المنصورية التي أنشأها خارج القيروان المنصور بالله والد المعز واستمر هذا

-
- (١) نقل بعض المؤرخين كما ذكر المقرئ أن إنشاء القاهرة كان في ٦ جمادى الأولى سنة ٣٥٩ في نفس اليوم الذي اختط فيه جوهر الجامع الأزهر . ولكن معظم المؤرخين وفي مقدمتهم عمدتنا المقرئ نفسه يذكر التاريخ الذي شق فيه الفسطاط (١٧ شعبان ٣٥٨ هـ) ووضع فيه أساس القصر الكبير .
- (٢) الخطط التوفيقية لعلى باشا مبارك ج ٢ ص ٨١
- (٣) الخطط المقرئية طبعة النيل ج ٢ ص ١٧٩
- (٤) الخطط المقرئية طبعة النيل ج ٢ ص ١٧٩

الاسم حتى قدم المعز إلى مصر فأطلق عليها القاهرة^(١) وذلك بعد مرور أربع سنوات على تأسيسها^(٢) ومن الواضح كما أشارت « رايماير »^(٣) في كتابها أننا يمكننا أن نجزم بأن القائد جوهر كانت لديه تعليمات من الخليفة بأن ينشئ مدينة تكون للفسطاط بمثابة المنصورية للقيروان أو بمثابة فرساي لباريس أو وندسور للندن ، ويلاحظ بهذه المناسبة ما ذكره البكري من أن بابين من أبواب المنصورية كان يطلق على أحدها باب زويلة والثاني باب الفتوح ، وقد أطلق هذان الأسمان على بابين من أبواب سور مدينة القاهرة المصرية.

وفي يوم الثلاثاء السادس من شهر رمضان سنة ٣٦٢ هـ . (١٠ يونيو ٩٧٣ م) لما وصل المعز إلى القاهرة على رأس أفراد أسرته تجاهل الفسطاط فلم يشتمها وكانت قد زينت إبتهاجا لقدمه ، ثم قصد القصر الكبير وأمر ببناء مقبرة لدفن أجداده الذين استحضر جثثهم معه في تواييت ، وفي آخر شهر رمضان أقام الصلاة بنفسه بالأزهر وخطب خطبة العيد . وكانت الصلاة قد أقيمت لأول مرة في الجامع الأزهر في يوم الجمعة لست خلون من رمضان سنة ٣٦١ هـ (٢١ يونيو ٩٧٢)^(٤) .

فكان القاهرة المدينة المحصنة لم يقصد جوهر من إنشائها في بادئ الأمر أن تكون قاعدة أو دار خلافة أو منزل ملك ، بل اختطها لتكون سكنا للخليفة وحرمه وجنده وخواصه ومعقل قتال يتحصن به

(١) كتاب اعطاء الحنفاء باخبار بلاط الخلفاء للمقريزي - بيت المقدس - ١٩٠٨

(٢) قيل في سبب تسميتها أن القائد جوهر لما أراد بناء القاهرة أحضر المنجمين وعرفهم أنه يريد عمارة بلد خارج مصر ليقيم فيها الجند وأمرهم لاختيار طالع سعيد لوضع الأساس وطالع لحفر السور وجعلوا بدائر السور قوائم خشب بين كل قائمتين جعل فيها أجراسا وقالوا للعمال اذا تحركت الأجراس فارموا ما بأيديكم من الطين والحجارة فوقوا ينتظرون الوقت الصالح لذلك، فانفق أن غرابا وقع على جبل من الجبال التي فيها الأجراس فتحركت كلها فظن العمال أن المنجمين قد حركوها فألقوا ما بأيديهم من الطين والحجارة وبنوا فصاح المنجمون « الفاهر في الطالع » فمضى ذلك وفاتهم ما قصدوه وقيل أن المريخ كان في الطالع عند ابتداء وضع الأساس وهو قاهر الفلك فسموها القاهرة - الخطط المقريزية ج٢ ص ٣٠٤ .

Beschreibung Agyptens in mittlealter aus den geographischen Werken (٣) der Araber, Leipzig 1903.

(٤) ذكر المقريزي في الخطط (ط بولاق ج٢ ص ٢٧٣) أن ذلك كان في يوم الجمعة لسبب خلون من رمضان وهو خطأ لأن يوم ٧ يواقع يوم السبت كما في التوقيقات الالهامية . وقد عنى المؤرخون بذكر أول صلاة جمعة تقام في أية مدينة اسلامية منذ عهد الفتوح ، وحدث ذلك فعلا في الجامع الأزهر يوم الجمعة لست خلون من رمضان سنة ٣٦١ الموافق ٢١ يونيو ٩٧٢ ، وهذا هو اليوم الذي ينبغي أن يحتفل فيه بعيد القاهرة .

ويلتجىء إليه^(١). فنشأت القاهرة مدينة خاصة للدولة الفاطمية الناشئة واستمرت حيناً بعد قيامها مدينة ملكية عسكرية تشتمل على قصور الخلفاء ومساكن الأمراء ودواوين الحكومة وخزائن المال والسلاح. ثم أصبحت بعد إنشائها بأربعة أعوام عاصمة الخلافة الفاطمية لما انتقل المعز وأسرته من المغرب ونزلوا في القصر الشرقي الكبير، واتخذ الخليفة مصر موطنه، وكان ذلك في يوم الثلاثاء ٦ رمضان ٢٦٢ هـ ١٠ يونيو ٨٧٣م^(٢).

ولم يكن لقاطنى مصر أن يدخلوا « القاهرة » إلا بإذن يسمح لصاحبه بدخول إحدى بوابات القاهرة وكان مفوضو الدول الأجنبية الذين يحضرون الحفلات الرسمية يترجلون عن جيادهم ويستقدمون إلى القصر بين صفين من الجنود على الطريقة البيزنطية — وكانت أسوار القاهرة العالية وأبوابها المحروسة تحجب الخليفة عن أنظار شعبه.

ولكن بمرور بضعة أعوام اتسعت المدينة الناشئة ونمت نمواً كبيراً وبدأت القاهرة حياتها في ظل الخلفاء الفاطميين وتبوءت مكانتها العظيمة برواقها وبهاياتها، ثم اتصلت فيما بعد بمصر الفسطاط وصارتا تؤلفان معاً أكبر المدن الإسلامية في العصور الوسطى.

أسوار القاهرة الفاطمية^(٣)

كانت المدن في أغلب أنحاء العالم في الزمن الماضي تحصن بأسوار تقام حولها لصد هجمات المغيرين عليها. ولهذا فإنه لما أنشأ القائد جوهر مدينة القاهرة حرص على أن يقيم حولها سوراً سميكاً من اللبن وفتح فيه الأبواب الضخام.

(١) الخطط المقرية طبعه النيل ج ٢ ص ١٨٤

(٢) إن تصميم القاهرة الأصلي يوضح تأثر القائد جوهر والمعز بما رأياه في إفريقيا الشمالية من التخطيط الروماني فإنه يمكن التشبيه بين مدينة تمجد الرومانية ومدينة القاهرة من حيث وجود شارعين أساسيين للكارد وماكسيموس والديكومانوس مكسيموس اللذان يقسمان المدينة أحدهما من الشمال إلى الجنوب منتهياً إلى طرق المواصلات للوجهين القبلي والبحري ماراً بالميادين الوسطى التي بها سراى الحاكم وخدمه وجنده وحدائقه بدلاً من المعبد والليسيوم والوديون الروماني. وأما الطريق الثاني فيقسم المدينة من الشرق إلى الغرب أى من باب البرقية إلى باب الوزير وكان ذلك الطريق ينتهى إلى الجامع الأزهر. وليست القاهرة بالمدينة الوحيدة ذات الأسوار العديدة المتعددة (كما سنرى) بل يمكن القول بأن مدينة باريس وعمرها عشرون قرناً قد أعيد تشييد حصونها ست مرات متوالية إلى أن استراحت نهائياً منها.

(٣) رجعنا عند كتابة هذا الفصل إلى مذكرات للمرحوم المؤرخ محمد بك رمزى.

وبعد مضي حوالي القرن من تأسيس القاهرة رأى أمير الجيوش بدر الجمالي ، وكان يومئذ وزيراً للخليفة المستنصر أبو تميم معد أن الناس بنوا خارج السور بسبب اتساع العمران ولا سيما في الجهتين البحرية والقبلية من المدينة فأحاطها بسور وصله بسور جوهر القائد يمينا ويساراً وفتح فيه أبواباً أمام الأبواب القديمة لتكون عوضاً عنها .

ولما زاد العمران بعد ذلك واتسعت حدود المدينة أخذ صلاح الدين من سنة ٥٦٦ هـ / ١١٧٠ م وهو يومئذ وزيراً للخليفة العاضد عبد الله بن يوسف آجر الخلفاء الفاطميين في بناء سور جديد بالحجر بدلا من أسوار المدينة القديمة التي كانت باللبن علي أن يشمل السور الجديد جميع ما زاد على القاهرة في غربها إلى النيل وفي جنوبها إلى مصر القديمة واستبقى أبواب بدر الجمالي لأنها مبنية بالحجر أمثن بناء وأروع .

السور الأول

يستفاد مما ذكره المقرئ في خطه عند الكلام على سور القاهرة^(١) أن القائد جوهر بدأ من عام ٣٥٩ هـ / ٩٧٠ م ببناء السور الذي أنشأه من اللبن على مناخه الذي نزل فيه هو وجنوده حيث القاهرة الآن ثم أداره على القصر والجامع وأدخل في دائرة سور القصر برالعظام وجعل في القاهرة حارات للواصلين صحبته وصحبة مولاة المعز ورتب في القصر جميع ما يحتاج إليه الخلفاء .

ومن جهة تعيين موقع السور وحدوده فانه يستفاد مما ذكره المقرئ عند الكلام على باب النصر وباب الفتوح وباب زويلة القديمين وباب زويلة الحالى وباب البرقية وعلى جامع الحاكم وحارة بهاء الدين وعلى غير ذلك من المباني التي حدثت بين هذا السور وسور بدر الجمالي — يستفاد من كل ذلك أن مدينة القاهرة القديمة التي أنشأها جوهر القائد كانت واقعة بين مباني القاهرة الحالية وكانت محاطة بسور من جهاتها الأربع في المنطقة التي تحدد اليوم من الجهة البحرية بخط يبدأ من رأس حارة الوساعة من جهتها الشرقية حيث كان يبدأ السور البحرى ثم يسير إلى الغرب حتى يتقابل بشارع باب النصر عند نقطة واقعة على بعد عشرين متراً إلى شمال جامع الحاج محمود الحنو المعروف بجامع الشهداء حيث كان يقع في تلك النقطة باب القوس الذي كان بداخل باب النصر ومن هناك يسير السور إلى الغرب حتى يتقابل بشارع المعز لدين الله (شارع باب الفتوح سابقاً) على رأس مدخل شارع بين السيارج حيث كان يقع في تلك النقطة باب القوس الذي كان داخلاً في باب الفتوح ثم يمتد السير في مكان الوجهة البحرية للمباني الواقعة في شارع بين السيارج إلى نهايته الغربية عند نقطة تجاه جامع حسن الأركشي ، وكان السور البحرى لمدينة جوهر ينتهى عند تلك النقطة .

وكان السور الغربى يبدأ من النقطة المذكورة ثم يسير متجهاً إلى الجنوب إلى أن يصل إلى رأس شارع

(١) راجع الخطط المقرئية ج١ ص ٣٧٧

أمير الجيوش الجوانى حيث يقع باب القوس الذى كان بداخل باب القنطرة ثم يسير السور إلى الجنوب في الوجهة الغربية للبنى الواقعة بباب الشعراى البرانى وشارع بين السورين وشارع بين التهدين إلى باب الخوخة على رأس شارع قبو الزينة (وصوابه قبوازينية) ثم يمتد السور بعد ذلك بالوجهة الغربية لمباني شارع جامع البنات إلى أن يلتقى برأس شارع الاستئناف الحالى حيث كانت خوخة الأمير حسين ثم يسير السور جنوباً إلى حيث مبنى محكمة الاستئناف على بعد ٢٠ متراً جنوبى مدخل الاستئناف وعلى بعد عشرة أمتار في شمال الباب الغربى لمحكمة الاستئناف ، وعند تلك النقطة كان يقع باب سعادة وهو آخر السور الغربى لمدينة جوهر .

وكان السور القبلى يبدأ من الكتف القبلى لباب سعادة ثم يسير إلى الشرق إلى شارع المنجلة من الجهة القبلىة ثم يمتد إلى شارع المنجدين من الغرب وبين شارع العز لدين الله (شارع المناخلى سابقاً) من الشرق وكان يقع بابا زويلة القديمان اللذان أنشأها جوهر في السور القبلى تجاه جامع سام بن نوح ومن الجامع المذكور يمتد السور القبلى حتى يصل إلى درب المحروق وإلى هذه النقطة ينتهى السور القبلى .

وكان السور الشرقى يمتد إلى الشمال حيث موقع باب البرقية الأول ثم يمتد من تلك النقطة إلى الشمال حتى يتلاقى بالسور البحرى عند النقطة التى يحددها اليوم برج الظفر تقريباً .

هذه هى مواقع السور الذى أنشأه جوهر القائد حول مدينة القاهرة الأصلية ، وليس لهذا السور أثر اليوم في أية نقطة من جهاته الأربع التى كانت تحيط بالمدينة المذكورة للتحديد الذى ذكرناه .

السور الثانى

يستفاد مما ذكره المقرئى في خططه عند السلام عن أسوار القاهرة في أيام الدولة الفاطمية أن السور الثانى بناه أمير الجيوش بدر الجمالى في سنة ٤٨٠ هـ — ١٠٨٧ م وزاد فيه من الشمال الزيادة التى بين بابى القوس اللذين أنشأهما جوهر القائد في سور القاهرة البحرى وبين السور الحالى الذى فيه باب النصر وباب الفتوح الحالىين ، ثم زاد فيه من الجهة الجنوبية الزيادة التى فيما بين بابى زويلة القديمين اللذين أنشأهما جوهر في سور القاهرة القبلى وبين السور الذى فيه باب زويلة الحالى وجعل بدر الجمالى الأسوار التى أنشأها من اللبن وأقام الأبواب من حجارة .

ويستفاد مما ذكره المقرئى ، عند السلام على باب النصر وباب الفتوح وباب زويلة وعلى جامع الحاكم وعلى حارة بهاء الدين وعلى السور الثالث الآتى ذكره الذى أنشأه صلاح الدين ، يستفاد من كل ذلك أن الزيادة التى برز بها بدر الجمالى في الجهة الشمالية من سور جوهر هى التى تحدد اليوم من الشمال بالسور البحرى — الموجود الآن الذى يبدأ من النقطة التى يشغلها اليوم برج الظفر ثم يسير إلى الغرب إلى أن يصل إلى باب النصر ثم إلى باب الفتوح . وتحدد هذه الزيادة من الغرب بسور كان يمتد إلى الجنوب التى يبدأ منها السور الغربى لمدينة جوهر .

وتحد من الجنوب بسور جوهر وتحد من الشرق بسور من اللبن كان يمتد من النقطة التي في أول الحد الشمالي من الشرق ومنها يسير إلى الجنوب بشكله المتعرج .

وأما الزيادة التي برز بها بدر الجمالى في الجهة الجنوبية من سور جوهر فتحد اليوم من الشمال بسور جوهر ومن الغرب بسور من اللبن ثم يسير إلى الجنوب حيث كان موقع باب الفرج ثم يسير إلى الجنوب حيث ينتهى السور الغربى لهذه الزيادة عند موقع باب الخلق وتحد من الجنوب بسور من اللبن يسير إلى الشرق في مكان الوجهة القبلىة للبنى القاعة بالجهة الشمالية من شارع تحت الربع إلى أن يصل إلى النقطة حيث يقع باب زويلة الحالى ثم يمتد السور إلى الشرق عند مدخل حارة الروم حيث كان موقع خوخة ايدغمش ثم يسير من هذه النقطة إلى جهة الشرق في مكان الوجهة القبلىة للبنى الواقعة بجزء من شارع الدرب الأحمر الواقعة في حارة سعد الله ومنها تمتد إلى حيث ينتهى الحد القبلى عند البرج الذى يتبعه القارىء على السور المين على خريطة القاهرة الحالية وتحد من الشرق بسور القاهرة الحالى .

وأنشأ بدر الجمالى أسواره باللبن ما عدا الجزء الواقع بين بابى الفتوح والنصر فهو بالحجر إلى اليوم . وكذلك الأجزاء الواقعة على جانبي البابين المذكورين وعلى جانبي باب زويلة فهى بالحجر على مسافة ١٢٠ متراً تقريباً من كل جانب ، وقد زال أثر الأسوار التى أنشأها بدر الجمالى باللبن وأقام صلاح الدين في مكانه بعض أجزاء منها أجزاء أخرى بالحجر في سورة الثالث الذى سيأتى ذكره في القاهرة صلاح الدين .

أبواب القاهرة — اهرة

وكان للقاهرة ثمانية أبواب لكل جنب من أجنابها الأربعة بابان . ففي الجنوب باب زويلة وكان بابين في الأصل بتهما قبيلة زويلة من قبائل البربر وكانا عند مسجد ابن البناء وعند الحجارين^(١)

باب الفرج : يمكن تحقيق موقع هذا الباب بالضبط بأنك إذا سرت في حارة الجداوى من ناحية السكرية تقابل على يسارك جامع المؤيد فخام المؤيد فانثناء صغير به ضريح لمن يدعى « سيدى فرج » وهو ليس سوى باب الفرج وفي الجهة البحرية التى يسلك منها إلى عين شمس .

باب النصر : وموضعه الأول بالرجة التى أمام جامع الحاكم قرب المكان الذى يشغله الباب الحالى .

(١) مسجد ابن البناء هو الذى يعرف اليوم باسم زاوية العقسايد بجوار سبيل العقادين بشارع المناخلىة وتسميها العامة زاوية سام بن نوح وقد بنى المسجد المذكور الحاكم بأمر الله ومات ابن البناء سنة ٥٩١ هـ وقد أزيل بابا زويلة الأصلان وبنى أمير الجيوش بدر الجمالى بدلها باب زويلة الكبير القائم إلى اليوم . وتسمية العامة بوابة المتولى حيث كان يجلس فى مدخله متولى حسبة القاهرة — تعليق محمد بك رمزى — النجوم الزاهرة

وقد ذكر المقرئى أنه رأى جزءاً من جانبه المواجه للركن الغربى للمدرسة القاصدية حيث كانت هناك الرجة المذكورة تنصل هذه المدرسة عند البابين للجامع الحاكم^(١)

باب الفتوح : ذكر المقرئى أنه كان لا يزال يوجد فى عصره من باب الفتوح الأول أجزاء من عقده وعضادته اليسرى وبعض أسطر من الكتابة الكوفية . وكانت هذه الأجزاء على رأس حارة بهاء الدين من قبلها دون جدار الجامع الحاكم^(٢)

وكان فى الجهة الشرقية من القاهرة وهى الجهة التى يسلك منها إلى الجبل بابان هما : —

باب القراطين (المحروق) ويمكن تعيين موقع هذا الباب تعييناً أقرب إلى الضبط نظراً لأن موقع الباب الذى حل محله لا يزال معروفاً باسم الباب المحروق^(٣) ويرى الأستاذ كريسويل أن موقع باب القراطين الأول كان على مسافة خمسين ذراعاً من الباب المحروق الحالى^(٤) .

باب البرقية : ليس من السهل تحديد موقع البرقية لأن الفصل الذى بحث فيه المقرئى أبواب القاهرة وقف عند ذكر عنوان باب البرقية ، ومن المحتمل جداً أن موقعه كان شمالى الباب المحروق وبالقرب من الجامع الأزهر وقد نسب إلى جنود برقة ثم عرف بعد بياض الغريب .

أما الجهة الغربية من القاهرة وهى المطلة على الخليج الكبير فقد كان فيها باب سعادة : وهو أول أبواب السور الغربى . وقد عرف باسم سعاد بن حيان غلام المعز لدين الله وأحد قواده . لأنه لما قدم من بلاد المغرب بعد بناء القاهرة نزل بالجيزة وخرج جوهر إلى لقائه وعاد معه إلى القاهرة دخلها من هذا الباب فعرف به وقيل له باب سعادة ، ويحدد موقع هذا الباب بالضبط بالطرف الجنوبى للجانب الغربى من سور القاهرة وبالقرب من الركن الشمالى الشرقى لمحكمة الاستئناف .

باب القنطرة أو الجسر : وقد عرف بذلك الاسم لأن جوهر بنى هناك قنطرة فوق الخليج الذى

(١) محمود أحمد - مجلة الهندسة - ١٩٣٤ ص ٣٣٢

(٢) الخطط المقرئية ج ٢ ص ٢١٠ و ٢١١ - طبعة النيل .

(٣) اطلق على الباب المحروق هذا الاسم بسبب مافعله ٧٠٠ مملوك هربوا من القاهرة عندما علموا بقتل الفارس الأمير اقطاعى فى شعبان ٦٥٢ هـ فى أثناء الليل تركوا منازلهم وتقدموا نحو هذا الباب فوجدوه مغلقاً كما كانت البادة فى ذلك العصر إذ كانت تغلق أبواب مدينة القاهرة فى الليل فأوقدوا النار فى الباب حتى سقط من ذلك الحريق وخرجوا منه ومن ذلك الوقت عرف هذا الباب بالباب المحروق - المقرئى — طبعة النيل ج ٢ ص ٢١٣ .

K. A. C. Creswell : Foundation of Cairo. p. 272.

(٤)

(٥) تعليق محمد رمزى بك بالنجوم الزاهرة ج ٤ ص ٣٩ .

بظاهر القاهرة ليسير عليها إلى المس عند مسير القرامطة إلى مصر (٣٦٠ هـ) وكان موضعه على مدخل شارع أمير الجيوش الجوانى تجاه مدرسة باب الشعرية ، وقد سمي العامة باب القنطرة خطأ باسم باب الشعرية في حين أن ذلك الباب كان قائماً غربى الخليج ببدان العدوى بين شارعى العدوى وسوق الجراية وكانت قنطرة أخرى عند ذلك الباب ذكرها المقرئى باسم قنطرة باب الشعرية وتعرف باسم الحروبى ، والعدوى والحروبى مدفونان في مسجد بجوار موقع الباب المذكور .

الجامع الأزهر

بعد عام من فتح الفاطميين مصر كان جوهر قد أتم إنشاء القاهرة ، فكانت أولى أعماله بناء الجامع الأزهر . وقد أكد المقرئى أن القائد جوهر بدأ عمارته في يوم السبت لست بقين من جمادى الأولى سنة ٣٥٩ هـ / ابريل ٩٧٠ م ولما أتم تشييده بعد عامين فتح للصلاة في شهر رمضان سنة ٣٦١ هـ (٢١ يونيو ٩٧٢ م)^(١) ويعد الأزهر أول عمل معمارى أقامه الفاطميون في مصر لا يزال قائماً لليوم .

بنى الجامع الأزهر في الجنوب الشرقى من المدينة على مقربة من القصر الكبير الذى كان موجوداً حينذاك بين حى الهديم وحى الترك في الجنوب . وكتب جوهر بدائرة القبة في الرواق الأعلى نقشا تاريخه عام ٣٦٠ هـ ، تجد نصه في الحطط المقرئية وقد اندثر هذا النقش^(٢) .

ويعد التخطيط الأسمى الذى أنشئ هذا الجامع عليه من الأمور المعقدة التى لا يمكن الاهتداء إليها . فقد زاد كثير من الخلفاء الفاطميين في بنائه وأعيد تجديد أجزاء كثيرة منه في خلال القرون الماضية كما أضيفت إليه زيادات عدة ويحتوى الجامع على بقية ضئيلة من الأفاريز المشتملة على كتابات كوفية ، تلك التى تعد من مميزات العمارة الفاطمية ، فإن جل أجزاء الحالية تنسب إلى عصر متأخر ، إذ أضاف المستنصر والحافظ في بندان الجامع بعض أجزاءه . ثم قطع عنه الأيوبيون كثيراً مما أوقفه عليه الحاكم ومنع صلاح الدين الخطبة عنه . وكان قايتباى أكثر الناس رعاية للجامع في القرن التاسع . وإنشاء العاضمين لهذا المسجد لا يفسر الإسم الذى أطلق عليه ، فقد قيل أن الأزهر إشارة إلى الزهراء وهو لقب السيدة فاطمة التى سمت باسمها مقصورة في المسجد ، وقال بعضهم إن هذه التسمية نسبة إلى القصور الزاهرة التى بنت حين أنشئت القاهرة ، وقد عرف باسم جامع القاهرة سنين طويلة ، وكان الخليفة العزيز الفاطمى أول من حول الأزهر من مسجد تقام فيه الشعائر الدينية إلى معهد للشيعا تدرس فيه العلوم ويروج فيها المذهب الفاطمى ، كما كان أول من أجرى الأرزاق على طلاب العلم فيه بمن وفدوا من جميع نواحي العالم الإسلامى .

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان ج ١ ص ١٤٩ ، صبح الأعشى للقلقشندي ج ٣ ص ٣٦٤ ،

حسن المحاضرة للسيوطى ، مطبعة الموسوعات ج ٢ ص ١٥٤

(٢) نص هذا النقش : « بما أمر ببنائه عبد الله ووليه أبو تميم معد ، الإمام المعز لدين الله ، أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه وأبنائه الأكرمين ، على يد عبده جوهر الكاتب الصقلى في سنة ٣٦٠ هجرية » (٩٧١ م) .

أخطاط القاهرة

وننتقل الآن إلى ذكر أهم الأحياء التي اشتغلت عليها القاهرة المعزية فنقول : سبق القول أنه في اليوم الذي خط فيه جوهر المدينة الجديدة أخذت كل قبيلة من القبائل التي تألف منها الجيش الفاطمي خطة عرفت باسمها ، وقد كان أهم هذه الخطط أو الحارات ما يأتي : —

١ — حارة الروم : كانت حارتين : وهي التي لم تزل معروفة إلى اليوم بنفس الاسم بقسم الدرب الأحمر ، وحارة الروم الجوانية بقرب باب النصر على يسار الداخل إلى القاهرة ، وقد نسبت إلى الأشراف الجوانيين .

٢ — حارة برجوان : منسوبة إلى برجوان أحد خدمة القصر في أيام العزيز بالله نزار العبيدي ، وصار في أيام الحاكم بأمر الله مدير مملكته حتى قتله في أحد قصوره .

٣ — حارة زويلة : منسوبة إلى زويلة إحدى قبائل البربر التي وفدت على مصر صحبة القائد جوهر وكانت خطة كبيرة .

٤ — حارة الجدرية : وهي طائفة منسوبة إلى جودر خادم عبيد الله المهدي أبو الخلفاء الفاطميين ، وقد سكنها اليهود بدمهم إلى أن بلغ الحاكم أنهم يهزأون بالمسلمين فسد عليهم أبوابها وحرقتهم ليلاً

٥ — حارة الأمراء : بالقرب من باب الزهومة^(١) وقد عرفت فيما بعد باسم درب شمس الدولة توران شاه بن أيوب شقيق السلطان صلاح الدين . وكان بها دار الوزير عباس .

٦ — حارة الديلم : منسوبة إلى الديلم الذين أنوا برفقة « فتكين » غلام المعز بن بويه الديلمي الذي تغلب على الشام في عهد المعز وقاتل جوهر واستنصر بالقرامطة لكنه وقع في أسر العزيز بالله في مدينة الرملة وساقه إلى القاهرة فعامله بالحسنى وأنزله مع أصحابه بهذه الخطة ، وكانت بها دار الصالح طلائع ابن رزيك .

٧ — حارة الباطلية وتعرف بقوم أتوا مع المعز ولما قسم العطاء بين الناس لم يعطهم شيئاً فقالوا « رحنا

(١) باب الزهومة أحد الأبواب الغربية للقصر الكبير وموقعه اليوم الدكاكين الواقعة في أول شارع خان الخليلي على يسار داخله من جهة شارع القمصانجية من شارع بين القصرين — تعليق محمد رمزي : النجوم الزاهرة ج٤ — ص ٣٦ .

نحن في الباطل « فسموا الباطلية^(١) .

٨ — حارة الكافورى : كانت بستانا للأستاذ الملك كافور الإخشيدي ثم صار من بعده للخلفاء المصريين .

٩ — حارة قائد القواد : (درب ملوخية) سكنه في بادىء الأمر حسين بن جوهر القائد للملقب بقائد القواد ثم نسبت هذه الحارة إلى ملوخية أحد فراشى القصر ويعرف هذا الدرب اليوم باسم حارة درب الشوك .

١٠ — حارة المطوف منسوبة إلى الخادم عطوف أحد خدام القصر الفاطمى وتدل على موقعها المنطقة التى يتوسطها اليوم حارة المطوف بالقرب من باب النصر .

١١ — الوزيرية : منسوبة إلى الوزير يعقوب بن كلس وكانت حارة كبيرة .

١٢ — حارة المحمودية : أو المسامدة منسوبة إلى الطائفة المعروفة بالمحمودية التى قدمت أيام العزيز بالله الفاطمى إلى مصر .

ولقد زادت عدد هذه الخطط وتطورت كثير فى أيام الأيوبيين والمماليك مما لا يتسع هذا البحث لشرحه ووصفه مفصلاً^(٢) .

القصور الفاطمية

وصف المقرئى قصور الفواطم فيما لا يقل عن مائتى صفحة ، وقد حفر جوهر أساس القصر الكبير فى ١٧ شعبان ٣٥٨ هـ (٦ يوليو سنة ٩٦٩ م) واستمر العمل فى أقسامه المتعددة عدة سنين واشتمل هذا القصر فى داخله على عدة مناظر وقاعات وقصور صغيرة أهمها هو الذهب والأقيال والظفر والشجرة وقصر الشوك والمزرد والنسيم والبحر والحريم . ولما آلت الخلافة إلى العزيز أضاف إلى القصر قاعة الذهب والديوان الكبير ، وكانت للقصر الكبير وحده تسعة أبواب أهمها وأجلها باب الذهب ثم باب البحر وباب الزمر وباب السعيد وباب قصر الشوك وباب الديلم وباب تربة الزعفران ثم باب الزهومة . وكان باب الذهب تدخل منه القوات العسكرية وجميع أهل الدولة فى يومى الإثنين والخميس لقاعة الذهب . وكان هناك أمام القصر ميدان فسيح تعرض فيه الجنود فى يومى العيدين . أما القصر فقد أمر ببنائه العزيز بالله عام ٤٥٠ هـ ١٠٥٨ م وقد قال المسيجى عنه « لم يكن مثله فى شرق ولا فى غرب » وكانت له عدة أبواب أهمها باب السباط وباب التبانين وباب الزمرد ، وكان يتصل بالقصر الكبير بواسطة نفق تحت الأرض كان ينزل منه الخليفة بتمطياً ظهر بقلته تحيط به فتيات القصر .

(١) يدل على موقعها اليوم شارع وحارة الباطلية فى الجنوب الشرقى للجامع الأزهر .

(٢) تبحث المراجع المفصلة - كالمقرئى وعلى باشا مبارك ورافيس .

ولم يتم بناء القصر الصغير إلا في عام ٤٥٧ هـ ١٠٦٥ م في خلافة المستنصر . وقد شغل موقعه فيما بعد
المارستان الكبير المنصوري إلى جوار حارة برجوان .

وشيد الفاطميون دوراً كثيرة ومناظر جميلة منها دار الضيافة ودار الوزارة الكبرى ودار الغرب
و دار الذهب . وقد بنى دار الوزارة أو (الدار الأفضلية) أمير الجيوش الأفضل بن بدر الجمالي ثم سكنها
أرباب السيوف امرء الجيوش المصرية بالتوالي إلى أن تولى الأيوبيون الحكم في مصر فسكنها السلطان
الملك الصالح وولده (١) .

وفي أيام الحاكم بأمر الله شيدت دار العام (دار الحكمة) بجوار القصر الغربي وقد افتتحت في اليوم
العاشر من جمادى الآخرة سنة ٣٩٥ هـ / ١٠٠٥ م واستمرت تؤدي رسالتها حتى أبطلها الأفضل ابن القائد
بدر الجمالي ، وربما يكون أحسن وصف لقصور القاهرة العزيرة ما جاء في تلك الوثيقة التي تثبت عظمة العصر
الفاطمي وأبته حين زاره رسولا الملك عموري (امريك) سنة ٥٦٢ هـ / ١١٦٧ م ليعقدا معه باسم سيدهما
تحالفاً قوامه أن يدفع الخليفة للصليبيين مائتي الف دينار معجلة ومثلها مؤجلة نظير دفاعهم عن مصر وصدفهم
الأعداء عنها .

وقد وصف غليوم رئيس أساقفة صور مؤرخ الحرب الصليبية زيارة الرسولين الصليبيين وعبر عن
حماهم وإعجابهم بمعظمة مارأوه وروعته ، وقد نقل جستاف شلمبرجيه إلى الفرنسية بعض ما كتبه غليوم في هذا
السدك كما لحص لين بول بعضه في كتابه عن تاريخ مصر وكتابه عن صلاح الدين (٢) .

سار السفراء الفرنج يقودهم الوزير شاور بنفسه إلى قصر له زونق وبهجة عظيمان ، وفيه زخارف أنيقة
نضرة . وكان هؤلاء المبعوثون متأثرين بما حولهم جد التأثير دون أن يتطرق إلى نفوسهم أى خوف أو رهبة
ووجدوا في القصر حراسا عديدين وسار الحراس في طليعة الموكب وسيوفهم مسلولة . وقادوا الفرنج في
ممرات طويلة وضيقة وأقبية حالكة الظلمة لا يستطيع الانسان أن يتبين فيها شيئا . وربما كان المقصود
بذلك بعث الرهبة إلى قلوبهم وزيادة التأثير فيهم . فلما خرجوا إلى النور اعترضتهم أبواب كثيرة متعاقبة .
كان يسهر على كل منها عدد من الحراس المسلمين الذين كانوا ينهضون عند اقتراب شاور ويحيونه باحترام .
ثم وصل الموكب إلى فناء مكشوف تحيط به أروقة ذات أعمدة ، وأرضيته مرصوفة بأنواع من الرخام متعددة
الألوان . وفيها تذهيب خارق العادة بنضارته ومهائه كما كانت ألواح السقف تزينها الزخارف الذهبية .
الجميلة .

(١) الخطط القرظية نقلها عن ابن عبد الظاهر ج ٢ ص ٣٠١ ، ٣٠٢ — طبعة النيل .

(٢) كنوز الفاطميين للدكتور زكي محمد حسن ص ٧١ - ٧٥ .

وكان كل ذلك موقفاً رائعاً وبهياً رائعاً ، بحيث لا يملك أشغل الناس بالآ وأكثرتهم همأ إلا أن يقف للاعجاب به ، وكان في وسط الفناء نافورة يجرى الماء الصافي منها في أنابيب من الذهب والفضة إلى أحواض وقنوات مرصوفة بالرخام . وكانت ترفرف في الفناء أنواع لا حد لها من الطيور الجميلة ذات الألوان المفرطة في الندرة مجالوبة من شتى أنحاء الشرق . ولم يكن أحد يرى هذه الطيور دون أن تصيبه الحيرة والدهشة إعجاباً بها . ودون أن يقول إن الطبيعة كانت تعرج وتلعب حين كونت هذه المخلوقات، ومن هذه الطيور ما كان يلزم النافورة ، ومنها ما كان يظلم بعيداً عنها — كل بحسب طبيعته . وكان لكل منها من الغذاء ما يوافقه .

وهنا استأذن الحراس الذين كانوا يسرون في معية الفرسان الفرنج حتى ذلك الوقت في الرجوع وحل محلهم بعض العظماء من الأمراء المقربين إلى الخليفة نفسه .

وسار هؤلاء الأمراء بالسفيرين الفرنجيين في أفنية أشد جمالاً وإبداعاً ثم إلى حديقة لطيفة غناء لم تكن الحديقة الأولى شيئاً بجانبها . ورأوا في هذه الحديقة أنواعاً من الحيوانات ذوات الأربع غريبة بحيث يتهم المرء بالكذب إذا وصفها أو تحدث عنها — وبحيث لا يستطيع أى مصور أن يتخيل أو أن يحلم بمثل هذه الكائنات العجيبة، فإن العرب لم ير قط مثل هذه الحيوانات ولم يكن يعرفها إلا بما كان يسمع من الأقوال

وبعد أن عبروا أبواباً عديدة أخرى — وساروا في تعاريج كثيرة كانوا يرون فيها أشياء جديدة تزيدهم دهشة وإعجاباً . وصل الفرنج إلى القصر الكبير حيث يقطن — الخليفة . وفاق هذا القصر كل ما رآوه قبل ذلك . وكانت أفنيته تفيض بالمحاربين المسلحين متقلدين أسلحتهم ، وعليهم الزرد والدرع تلمع بالذهب والفضة وعليهم سماء الافتخار بما كانوا يجرسون من الكنوز . وأدخل المبعوثون في قاعة واسعة تقسمها ستارة كبيرة من خيوط الذهب والحرير المختلف الألوان . وعليها رسوم الحيوان والطيور وبعض صور آدمية . وكانت تلمع بما عليها من الياقوت والزمرد والأحجار النفيسة . ولم يكن في هذه القاعة أحد ، لكن شاوور خر را كماً فور دخوله ثم نهض واقفاً ثم قبل الأرض ثانية وخلع السيف الذي كان يلبسه في عنقه ثم خر ساجداً مرة ثالثة في ذلة وخشوع كأنه يسجد لله وارتفعت الجبال نجاةً وانكشفت الستارة الحريرية الذهبية بسرعة البرق كأنها ملاءة خفيفة وظهر الخليفة الطفل (السلطان العاضد) لأعين الفرنج المبعوثين وكان على وجه هذا الأمير نقاب يخفيه تماماً وهو جالس على عرش من الذهب مرصع بالجواهر والأحجار الثمينة.

الفاطميون والقاهرة

لقد كان الخلفاء الفاطميون من أعظم الملوك الذين حكموا مصر ، وكان للمز نفسه حاكماً قادراً أدار بنفسه البلاد بمقدرة نادرة ، وكان زهيراً عادلاً يشرف على القضاء ويقود الجيش الذي اعتمد عليه في الدفاع عن البلاد — والممز هو الذى بنى مرفأً جديداً للسفن في المقس شمال مرفأى الروضة ومصر وبالقرب من ميدان رمسيس ، ولقد ظلت المقس مرفأً القاهرة حتى تحول النيل عن مجراه وظهرت بولاقي . وشاهد الرحالة

« ناصر خسرو » عسدة سفن للمعز في عام ١٠٤٧ م . وكان طول السفينة الواحدة ٢٧٥ قدماً وعرضها ١١٠ أقدام .

ومع أن المعز كان حازماً محباً للعمل نراه ميالاً الى المظاهر الرسمية فكان يذهب في موكب نفخ الحفلة قطع الخليج . وكان يقدق في الإتفاق على كسوة الكعبة في مكة المكرمة ، وكان يهتم لكي تكون القاهرة مدينة ذات نخامة وترف وغنى ، وقد صرفت زوجه مبلغاً كبيراً على مسجدتها في القرافة والذي وضع تصميمه « الحسن بن عبد العزيز الفارسي » وتولى زخرفته الفنانون الذين جاءوا من البصرة وقد عهد على طراز الجامع الأزهر تحيط به الأروقة المزخرفة البديعة . ولم يزل جامع القرافة قائماً إلى أن احترق في السنة التي احترق فيها جامع عمرو بن العاص سنة أربع وستين وخمسمائة عند نزول « امريك » ملك بيت المقدس القاهرة أثناء حصاره لها

وكانت الأموال اللازمة لقصر المعز ولثلاثين ألف من أتباعه وما دعت اليه مظاهر الترف تجبي كضرائب أو أقساط تجتمع في دار الامارة القديمة وكانت مجاورة لمسجد ابن طولون . وقد قال بعض المؤرخين أنه في يوم واحد جمع من مدينة مصر في أسعد مجدها مبلغاً يتفاوت بين ٢٦٠٠٠ جنية و ٦٢٠٠٠٠ جنية وكان التعامل بالعملة الفاطمية وليس بالعملة العباسية .

العزير (٣٦٥ - ٣٨٦ هـ)

ولما توفي المعز بويع ابنه العزير بالخلافة وعين يعقوب بن كلس وزيراً له وقد شاطر العزير أباه صفاته السياسية فلم تضعف من همته مظاهر الترف ، وشيد أسطولا لمحاربة امبراطور « باسيل » واتصر القائد « جوهر » في عدة معارك بالشام وقد عرف عهده في مصر بالسلم والرخاء . وكان مولعاً باقتناء الكتب فجمع منها مجموعة كبيرة خصص لها قاعات في قصره سماها « خزانة الكتب » وبذل الأموال في تشجيع كتابة المؤلفات المهمة في التاريخ والأدب والفقه ، وكانت بعض الكتب بخط المؤلفين أنفسهم كالخليل بن أحمد والطبري^(١)

ومن آثار العزير جامع الحسك الذي أمر ببنائه في شهر رمضان سنة ثمانين وثلاثمائة هجرية . وقد أتم جانباً كبيراً منه في مدة عام وخطب فيه العزير وصلى الجمعة في اليوم الرابع من شهر رمضان عام ٨٣١ هـ . ولما تولى العرش ابنه الحسك أمر وزيره « يعقوب بن كلس » بأن يتم بناء الجامع ويكمل زخرفته ومأذنته . فبدأ عمله في عام ٣٩٣ هـ وقدر للنفقة عليه أربعين ألف دينار وانتهى منه في عام ٤٠٣ هـ وعند انجازه علق على سائر أبوابه أستاراً ديقية عملت له وعلق فيه أربعة تسانير فضية وكثيراً من القناديل الفضية كذلك وفرش أرضه بالسجاد ونصب فيه المنبر .

(١) الدكتور زكي محمد حسن — كنوز الفاطميين ١٩٣٧

جامع الحاكم

عرف أولاً بجامع الخطبة ثم جامع الحاكم وقيل له الجامع الأنور (كالأزهر) ولقد مرت عليه من حوادث الأيام مالاتقل عن حوادث جامع عمرو . فلما احتل الصليبيون القاهرة في سنة ١١٦٧ هـ حولوا جانباً منه إلى كنيسة ، وباستيلاء صلاح الدين على مصر أبطل استخدام الأزهر وجعل جامع الحاكم المسجد الرسمي للدولة .

وفي اليوم الثالث عشر من ذى الحجة عام اثنين وسبعمئة زلزلت أرض مصر والقاهرة فأصيب الجامع الحاكم بسقوط عسدد كثير من بدناته وخربت أعالي مثذنتيه وتصدعت سقوفه وجدرانه ، وفي العام التالي أمر ركن الدين بيبرس الجاشنكير بترميم ما تهدم منه - وإعادة ما سقط من البدنات فأعيدت وأقام سقوفه ورسمه فعاد جديداً .

ولما كتب المؤرخ المقرئى خططه المشهورة في ابتداء القرن التاسع الهجرى كان الجامع مخرباً وسقفه مهشماً وآثار النار والحراب بادية على جدرانه . ومنذ ذلك الحين لم يقف المسجد على قدميه . والفترة السعيدة التي مرت عليه لما أقيمت في بعض أجزائه دار الآثار العربية خلال القرن التاسع عشر . وكانت لا تزال بعض النقوش والكتابات الكوفية ظاهرة على جدرانه تدل على سابق سموه وجمال فنه .

وجامع الحاكم تحفة أثرية نادرة ، ومأذنتاه جددتها أثر زلزال عام ٧٠٢ هـ / بيبرس الجاشنكير قاعدة مربيه تتحول الى شكل مئمن الأضلاع ومنه الى شكل اسطوانى يحترقها سلم لولبى من الداخل على جوانبه طاقات ذات شرفات يستخدمها المؤذن

وقد تولى الحاكم بأمر الله (٣٨٦ - ٤١٤ هـ) الخلافة الفاطمية وعمره إحدى عشر سنة وكان شخصية متناقضة عجيبة أفاضت كتب التاريخ بذكر الكثير عن أحواله وحوادثه . وبما يدهشنا أننا بينما نقرأ عنه كل المتناقضات نراه في جامعه العظيم يراقب زخرفته ونقوشه أو في دار العلم التي أنشأها بجوار القصر الغربى في سنة ٣٩٥ هـ / والتي حمل إليها الكتب من خزائن القصور ووقف عليها أما كن ينفق من ريمها وكان الغرض من دار الحكمة تشجيع الناس على المطالعة والدرس وكانت ندوة يجتمع فيها علماء الدين والعلم والأدب والتاريخ للمناقشة والتبصر في علوم الدنيا والدين .

وبوفاته تولى ابنه الظاهر لإعزاز دين الله أبو الحسن على فأباح مامنه أبوه الحاكم فشرب الخمر وسمح باحتسائها . وكان ضعيف الرأى منصرفاً إلى الله وكثرت في أيامه الفتن العسكرية فلا تحمد فتنة حتى تعقبها أخرى ، وضاعت أبواب الرزق وعزت الأقوات وتفاقم الأمر من شدة الغلاء ، فصاح الناس : « الجوع يا أمير المؤمنين . » لم يصنع بنا هذا أبوك ولا جدك . فآله الله في أمرنا .

ولما توفي الظاهر تولى ابنه المستنصر (٤٢٧ — ٤٨٧ هـ) وكانت سنة عند مبايعته لا تزيد على سبع سنوات . وكانت أحوال البلاد قد هدأت قليلاً كما شهد الرحالة الفارسي ناصر خسرو عند زيارته مصر بين عامي (١٠٤٧ — ١٠٤٩ م) فقد قال ان — الصيارفة وتجار الجواهر تركوا حوانيتهم بدون أن يعلقوا أبوابها في أوجه اللصوص وكان عدد الحوانيت في القاهرة أكثر من عشرين ألفاً كلها ملك الخليفة ، يدر الواحد منها عليه نحو عشرة دنانير شهرياً . وكان يمتلك أيضاً عشرين ألف منزل يتألف الواحد منها من ست طبقات وكان يجار الواحد منها سبعمون جنباً في السنة . وكانت تلك المنازل مشيدة بالحجر ويفصل كل منزل عن الآخر حديقة غناء . ولم يكن للقاهرة أسوارها ، فقد هدم السور القديم الأول وتهدمت أجزاءه ولم يكن قد ابتدئ في بناء السور الثاني (شيد بعد ذلك بأربعين سنة) وكانت تلك البيوت الشاهقة التي وصفها الرحالة مبنية على نسق الاستحكامات ، وكل قصر منها يشبه قلعة مصغرة . وكانت المسافة بين القاهرة ومصر تقدر بميل واحد تناثرت فيها البساتين ومناظر الضواحي وتخمرها مياه النيل في أثناء الفيضان .

وفي أثناء إقامة « ناصر خسرو » اشتد الجفاء بين الأحزاب السياسية . ولكن الوزير القادر اليازوري استطاع كبح جماحها مدة تسع سنوات وجاهد للقضاء على المجاعة التي نشبت أظفارها بمخزنه كميات من الغلال بمخازن يوسف بالقرب من مصر القديمة .

ولقد أبدل الخليفة أربعين وزيراً من وزرائه في مدة تسع سنوات فضاعت هبة الحكومة عند الشعب وكان الحكام الحقيقيون لها هم الجنسد الترك الذين اتفقوا مع البربر وطرردوا الجنود السود من القاهرة . وثبت هؤلاء أقدامهم في بعض نواحي الوجه القبلي فأزعجوا سكانها وحاول البربر أيضاً الاستيلاء على الدلتا فأفسدوا الري ليفتكوا بالفلاحين بينما انفراد الترك بالعاصمة فأتلفوا قصور الخليفة الغناء ونهبوا مجموعاتها الثمينة من الجواهرات النفيسة مقابل متأخرات رواتبهم ، وعندما انتهوا من نهب القصر دخلوا مدافن أجداد الخليفة وأخرجوا منها كل ما وجدوه فيها من التحف ، ثم عمدوا إلى خزانة الكتب فأخرجوا منها آلاف من الكتب في جملتها ٢٤٠٠ مصحفاً . وقيل إن عدد مؤلفاتها كان مائة ألف وأخذ الناس مخلفاتها لإصلاح نعالهم ولإيقاد نيرانهم . ومالم يحرقوه منها سفت عليه الرياح فصار تلالا عرفت بتلال الكتب .

وتصادف أن قصّر النيل في فيضانه مدة خمس سنوات فهدد البلاد بالمجاعة وامتد الجوع إلى سنة ٤٦٤ هـ . وكان أشده سنة ٤٦٣ هـ ثم توالى القلاقل التي اقتضت الإسراف في الحبوب المخزونة وندرت الحنطة وبلغ من الأردب الواحد مائة دينار والقطة ثلاثة دنانير والكلب خمسة دنانير (إذا وجد) ورافق هذا الغلاء وباء مكث سبع سنين . فلم يبق من يزرع ، وأخيراً لما لم يجد الناس حيواناً يقتلوه ليأكلوه اختطفوا بعضهم بعضاً وباع القصابون لحم الانسان ثم جاء الطاعون فكان يمحصد بمنجمله أسرة بعد أسرة . وكان كثير من أعيان البلاد يحاولون أن يرتزقوا من الخدمة في الحمامات العامة واضطر الخليفة في نهاية الأمر بعد أن تحلى عنه رجاله وحاشيته حتى زوجه وبناته وقد هجرته إلى بغداد إلى أن اضطرت الظروف أن يعيش على رغبين تصدقت عليه بهما إبنة عالم . غير أن السنوات السبع كانت على وشك الانتهاء . وقد قاست مصر في أثناءها

مالم تره في أشد عصورها ظلمة ، وكان المستنصر قد التجأ إلى حاكم سوريا الأرمني « بدر الجمالي » فكتب إليه للمجيء بجيشه إلى مصر ليوليه عليها ، فقبل بدر المهجى إليها وكان عبداً رفعت كفاءته الممتازة إلى المناصب السامية فولى إمارة دمشق ثم عكا وكان حينما دعاه المستنصر رجل الساعة .

بدر الجمالي

وصل بدر الجمالي إلى القاهرة في يوم الأربعاء ٢٩ جمادى الأولى سنة ٤٦٧ هـ / ١٠٧٩ م وقابل الخليفة . وفي ليلة من الليالي دعا أمراء البلاد إلى وليمة لهم في منزله وبيت مع أصحابه أن القوم إذا أمسى عليهم الليل فانهم لا بد يحتاجون إلى الخلاء فمن قام منهم قتل . فلبى الأمراء دعوته وظلوا نهارهم عنده وبتوا مطمئنين . وما طلع النهار حتى صارت رءوسهم بين يديه واستولى أصحابه على دور الأمراء فقبوت شوكتهم وعظم أمره وخلع عليه المستنصر الطيلسان وقد وزارة السيف والقلم وزيد في ألقابه لقب « أمير الجيوش » كافل قضاء المسلمين وهادى دعاة المؤمنين . ولما أعاد النظام إلى نصابه في القاهرة آجبه قاصداً أقاليم القطر ليقضى على فتنها . فأخضع البربر والسودانيين والعرب وعم العدل أنحاء البلاد وعادت الطمأنينة إلى قلوب الفلاحين . فازداد الدخل وشعر الأهليون بالفاهية والرخاء مدة عشرين سنة كاملة . وعادت سطوة الخليفة السياسية والدينية إلى الديار المصرية وعادت مكة إلى مبايعة المستنصر بعد أن قضت خمس سنوات تحطبت للخليفة القائم بأمر الله العباسي في بغداد .

واستفادت القاهرة مدة حكم بدر الجمالي . فمضى قرن على بناء الخليفة العزيز القصر الغربي ومنظرة اللؤلؤة لم يصف إلا الشيء القليل على عمارته . وجاء المستنصر بفضل الإقامة في القصر الذي شيده بالمطرية حيث أقام جوستقا .

وكان أول شيء وجه إليه بدر همته — تحصين القاهرة ضد الغزوات الخارجية أو فتن الجنود الداخلية . وكان سور القاهرة قد تهدم واحتفى أمام نحو المدينة التي ازدادت وزحفت مبانيها خارج أبوابها الثلاثة التي بناها القائد جوهر . فهدم بدر هذه الأبواب وبنها من الحجارة (١٠٨٧ — ١٠٩١ م) وجعل المدينة تضم مساحة أكبر من الأولى . فمثلاً أخذ حتى الروم في الجنوب إلى داخل السور وكان في خارجه . ثم أقام السور من اللبن وقد زاده صلاح الدين فيما بعد — وزاد عند باب القصر الرجة التي تجاه جامع الحاكم إلى باب النصر وتلك الأبواب الثلاثة لم تتغير إلى يومنا هذا — غير أن باب زويلة خفض قليلاً من أبراجه لكي يتسع لبناء مأذنتي جامع المؤيد في أثناء القرن الخامس عشر ، وتعتبر هذه الأبواب الثلاثة من أعظم آثار العصر الفاطمي . وقد بناها ثلاثة إخوة وقدوا من إيسا المدينة الأرمنية الأصل ، التي عرفها بدر أثناء فتوحاته ، وقيل أن كل أخ منهم بنى باباً .

وفي عام ٤٨٠ هـ / ١٠٨٧ م وسع القاهرة الوزير بدر الجمالي من حديها الشمالي والجنوبي وسع

بالسكن فيها ، فامتد عمران المدينة إلى أطرافها وخارج أسوارها وصار يقال لأبنية القاهرة خارج أسوارها
ظاهر القاهرة . وأنشئت أخطاط جديدة ، بعد أن كانت فضاء تشغله البساتين عدا حدها الشرقي بين السور
وتلال المقطم ، فإن الحاكم بأمر الله أمر أن تلقى أتربة القاهرة خلف السور لمنع السيول من دخول القاهرة ،
فصار منها تلك الكيمان التي عرفت بكيمان البرقية بنهاية شارع الدراسة . تلك التي أزيلت منها كميات
كبيرة في أثناء حكم الثورة ١٩٥٢ .

وتمتعت مصر تحت حكم بدر الجمالي إلى أن توفي في القاهرة وسنه ثمانون سنة بعد حكم دام عشرين سنة
وخلفه ابنه الأفضل وكان فاضلاً حكيماً تدرّب على يد أبيه . وقد تمتع بجميع الألقاب والامتيازات التي كانت لأبيه
أمير الجيوش وظل في منصبه حتى أمر بقتله الخليفة الأمر في عام ١١٢١ وتولى الأمر من بعده ابنه «أبو علي»
في عام ١١٢١ . ولما قتل بدوره وهو في طريقه إلى ميدان لعب الكرة خلفه أحد مماليك الأفضل واسمه
« يانيس » ثم جاء من بعده « بهرام » المسيحي الذي ظل في كرسى الوزارة حتى عام ١١٣٧ م .

وفي خلافة الأمر بأحكام الله (١١٠١ — ١١٣٠) عهد إلى وزيره أنى عبد الله محمد بن فاتك بتعمير
الحرائب والفضاء الذي يقع بين باب زويلة والسيدة نفيسة ، فنودي بالقاهرة بأن من كانت له دار في الحراب
أو مكان يعمره ، ومن عجز عن عمارته يبيعه أو يؤجره من غير نقل شيء من أوقافه ، ومن تأخر بعد
ذلك فلا حق له في شيء منه ولا حكر يلزمه ، فعمرت الحرائب والمنطقة وأصبحت القاهرة لا تتخللها
الحرائب (١) .

ونقلت أوقاف مدينة العسكر ومهدت أرضها ، فصار الفضاء بين السيدة نفيسة إلى كوم الجارح (تلال
زين العابدين) .

الصالح طلائع

قتل الخليفة الأمر في ذي القعدة (٥٢٤ هـ) وهو في طريقه إلى زيارة معشوقته البدوية في جزيرة الروضة
وكان عمره ٣٥ سنة . ومن أعماله التي تذكر له بنائه لمسجد الأقر بين القصرين . وكانت عقوده الداخلية
من الآجر أقيمت على أعمدة من الرخام . وقد نقش على أفرز المسجد بالكوفية إسم الأمر وتاريخ
بنائه ٥١٩ هـ .

وفي أيام الخليفة الفأز بنصر الله قدم ابن زريك والى الأشمونيين بمجموعه إلى القاهرة واستولى على الوزارة
ولقب بالصالح وقام بأمر الدولة إلى أن مات الفأز في عام ٥٥٥ هـ وأقام الصالح بن زريك في الخلافة
العاصد لدين الله ، وقد منحه لقب الملك الصالح . وكان شاعراً مثقفاً وكرماً نياسياً لا زال مسجده قائماً

(١) المقرئى : الخطط ج ٢ ص ٢٠ .

أمام باب زويلة . وقد مات ضحية نساء القصر الآتى أرسلن إليه بعض رجالهن فسكرنوا له في دهاليز القصر وضربوه حتى سقط مغشياً عليه وحمل جريحاً . وكان آخر ما فاه به ندمه على أنه لم يستخلص بيت المقدس من أيدي الفرنجة ونصيحته لابنه أن يحذر « شاور » الحاكم العربى للوجه القبلى . وقد كان الندم والحذر في محلها إذ خلع شاور ابن الملك الصالح واسمه محيى الدين زريك وكان قد استوزره العاضدواستخلف بعده شاور في عام ١٢١٣ م ودخل في السنة نفسها ملك بيت المقدس البلاد المصرية .

وكان جامع الصالح طلائع آخر وأجمل جامع أنشئ في عهد الدولة الفاطمية ووجهته العربية الفاطمية لا نظير لها في جميع مساجد القاهرة من حيث تصميمها ، ويزيد في جمالها تلك العقود الملوئة بزخارف على هيئة مروحة . وبالجامع بقايا زخارف جصية ممتلئة بالكتابات الكوفية وأخشاب منقوشة تدل على مبلغ ما وصل إليه فن الزخرفة من الرقى في ذلك العهد .

ظاهر القاهرة الفاطمية

لقد تسكنا عن أقسام القاهرة الداخلية ومنشئاتها الهامة ونسقف مالحق بالعاصمة المصرية الأصلية مصر بعد القاهرة : فقد كانت القاهرة الفاطمية من الجهة القبلىة (باب زويلة) متصلة بمصر التي امتدت بين الخليج الكبير وجبل المقطم وهذا الامتداد كان قسامين : ما حاذى يمينك إذا خرجت من باب زويلة تريد مصر وما حاذى شمالك إذا خرجت منه نحو الجبل . أما مواضع الأول فاشتمل على تحت الربع والقشاشين وقنطرة باب الحرق وخط قناطر السباع ويدخل في ذلك سوقة عصفور وحارة الحمزين وحارة بنى موس إلى الشارع وبركة الفيل والملاية والممودية إلى الصلىة ومشهد السيدة نفيسة . وكانت تلك الأماكن تعرف بجنان الزهرى وبستان سيف الإسلام وغير ذلك . وأما ما حاذى شمالك فكان جامع الصالح طلائع والندب الأحمر إلى القطائع . وكانت فيما بعد الرملة وبلدان تحت القلعة . وأما جهة القاهرة الغربية التي فيها الخليج الكبير فهي من باب القنطرة إلى المقس ، وما جاور ذلك فاتها كانت بساتين في غربها النيل . وكان ساحل النيل بالمقس حيث جامع أولاد عنان الآن . فيمر في المقس إلى المكان الذي يقال له الجراف ومواقع هذه البساتين أصبحت فيما بعد أراضى اللوق والزهرى وغيرها وكان فيما بين باب سعادة وباب الخوخة وباب الفرج وبين الخليج فضاء لابيان فيه . والمناظر تشرف على ما في غربى الخليج من البساتين التي خلفها النيل . وأما من جهة القاهرة البحرية فكانت قسامين خارج بابى الفتوح والنصر . أما خارج الأول فكانت توجد منظر من مناظر الخلفاء وأمامها بستانان كبيران . ومن غربى هذه المنظر في جانب الخليج الغربى منظر أخرى ، أما خارج باب النصر فكان فيه مصلى العيد ثم فضاء من المصلى إلى الريدانية .

أما جهة القاهرة الشرقية وهي بين السور والجبل فانه كان فضاء ثم أمر الحاكم بأمر الله أن تلتقى أتربة القاهرة من وراء السور ليمنع السيل من دخول القاهرة فصارت منها الأكوام التي عرفت بكيمان البرقية .

مناخ القاهرة

وقد تحدث الطبيب ابن رضوان المصرى الذى عاش بين ٩٨٠ و ١٠٦١ م عن طقس القاهرة ، فقال : ..
 ويلى الفسطاط فى العظم وكثرة الناس ، القاهرة ، وهى فى شمال الفسطاط ، وفى شرقها أيضاً الجبل المقطم ،
 يعوق عنها ريح الصبا (الشمال) والنيل منها أبعد قليلا وجميعها مكشوف للهواء ، وليس ارتفاع الأبنية بها
 كارتفاع الفسطاط لكن دونها كثيرا وأزقتها وشوارعها بالقياس إلى أزقة الفسطاط وشوارعها أنظف وأقل
 وسخا وأبعد عن العفن . وأكثر شرب أهلها من مياه الآبار ، وإذا هبت ريح الجنوب أخذت من بخار
 الفسطاط على القاهرة شيئا كثيرا ، وقرب مياه آبار القاهرة من وجه الأرض مع سخافتها موجب ضرورة
 أن تكون يصل إليها بالرشح من عفونة الكنف شئ ما . وبين القاهرة والفسطاط بطائح تمتلىء من
 رشح الأرض فى أيام فيض النيل ، ويصب بها بعض خرات القاهرة ومياه البطائح هذه رديئة وسخة ..
 ويطرح فى جنوب القاهرة قدر كثير نحو حارة الباطية . وكذلك يطرح فى وسط حارة العيد ، إلا أنه
 إذا تأملنا حال القاهرة كانت بالإضافة إلى الفسطاط أعدل وأجود هواء وأصلح حالا ، لأن أكثر عفوناتهم
 ترمى خارج المدينة ، والبخار ينحل منها أكثر . وكثير أيضا من أهل القاهرة يشرب من ماء النيل وخاصة
 فى أيام دخوله الخليج وهذا الماء يتعفن بعد مروره بالفسطاط واختلاطه بعفوناتها ، وأرقى موضع فى المدينة
 الكبرى هو ما كان من الفسطاط حول الجامع العتيق إلى ما يلى النيل والسواحل . وإلى جانب القاهرة من
 الشمال الخندق وهو فى غور فهو يتغير أبدا لهذا السبب فأما المقس فمجاورته للنيل تجعله أرطب... (١) .

الشرطة فى أيام الفاطميين

لما استتبّت الأحوال للقائد جوهر ، نقل الشرطة العليا إلى القاهرة وبقيت دار الشرطة السفلى بالفسطاط
 وتقلدها « عروبة بن ابراهيم » و « شبل المعوض » وفى أيام هذه الدولة ، كان يجمع أحيانا والى الشرطة
 بين وظيفته ووظيفة الحسبة . فى عام ٢٦٢ هـ / ٩٧٢ م عهد المعز لدين الله إلى الوزير « يعقوب بن كلس »
 بالاشراف على الحراج وجباية الأموال والحسبة والشرطتين (القاهرة والفسطاط) وقد جمع بين وظيفتى
 الشرطتين والحسبة أيضاً « غين » أحد موظفى الحاكم بأمر الله ، فقام بأعبائهما عام ٤٠٢ هـ / ١٠١١ م
 وخلفه فيهما « مظفر الصقلى » الذى عين للشرطتين والحسبة والقاهرة والجزيرة .

وفى أيام الفواطم ، كان اختصاص الشرطة إطفاء الحريق وإغاثة من هدم عليهم منزل ، فى عام ٥٢٨٣ هـ /
 ٩٩٣ م أمر الخليفة العزيز بالله بوضع أزيار مملوءة بالماء أمام الحوانيت لسكافة الحريق فى أى مكان ، وتعين

(١) المقرئى : الخطط .

على الجمالين أن يبيتوا عند باب كل معونة (مركز الشرطة) مع عشرة من الفعلة ومعهم الطوارق وقراب المياه ، على أن تسكفل الحكومة بنفقات عشائهم .

مخلفات الفاطميين وخاتمهم

وعلى مر الأعوام دالت دولة الفاطميين حينما استولى الصليبيون على القاهرة ثم وصل صلاح الدين إلى مصر .

وليس من السهل أن يتصور الإنسان كيف آلت مخلفات الفاطميين إلى الخراب فهي لم تكن شيئاً قليلاً بل كانت في مجموعها مدينة إذا قصرنا القول على القصر الكبير وقصر الذهب ودواوين الحكيم والمناظر الثلاث وقصر الشوك وقصر الزمرد وغيرها من مشتملات القصر الشرقي الكبير . أضف إليه القصر الصغير وقاعته ومناظره ودور العلم والضيافة والمناظر البعثرة في الضواحي وعلى الخليج الكبير وغير ذلك من المساجد والحصون .

ومن الخير أن يلم القارئ بما كان من أمر القصرين والمناظر بعد زوال الدولة الفاطمية بموت آخر خلفائهم العاضد لدين الله (٥٦٧ هـ) . فتمد أبعاد الوزير (صلاح) « قراقوش » جميع الفاطميين عن هذه القصور واستولى عليها السلطان صلاح الدين وتسلم كل ما كان فيها من الخزائن والدواوين والأموال والنقائس واستمر البيع فيما وجد فيها عشر سنين . وأخلى القصور من سكانها وأغلق أبوابها ثم ملكها امرأه وأقطع خواصه كثيراً من دورهم وأتباعهم وباع بعضها ثم قسم القصور فاعطى القصر الكبير للأمراء فسكنوا فيه وأسكن أباه نجم الدين في قصر اللؤلؤة على الخليج وأخليت أمكنة في القصر الغربي سكن فيها الأمير موسكه والأمير أبو الهيجاء السمي .

ولم يفتض وقت طويل على تلك القصور الفيحاء حتى سكنها العامة بعد أن سكنها الخلفاء والأمراء . لكن القاهرة التي وضع أساسها جوهر ظلت تتحول عاما بعد عام حتى أصبحت مدينة كبرى تكثفها الشوارع والأسواق وتتوسطها الحدائق والدور والمساجد والمدارس والحمامات والوكالات — أفاض في وصفها القرظي وابن زولاق — والمسبحي والقضاعي .

المجتمع العامي في أيام الفاطميين

كان إنشاء القائد الفاطمي جوهر الصقلي — الجامع الأزهر — بأمر مولاة المعز لدين الله في عام ٩٧٢ حدثاً له أهميته ، لا بالنسبة لمصر وحدها ، بل للعالم الإسلامي برمه ، وقد ظل الأزهر محل رعاية الفاطميين ومن خلفهم من السلاطين والأمراء ، وعلى الأخص العزيز إذ جعل منه جامعة إسلامية للعالم الإسلامي كله ،

لأسيا حينما اجتاحت الغول بغداد في عام ١٢٥٨ . ولم تنقطع وفود الطلاب ، بل مازالت جموعهم تفسد من مختلف بقاع العالم الاسلامي لتلقى العلم على أساتذة هذه الجامعة الإسلامية الكبرى . وتزخر هذه الجامعة الإسلامية بالطلاب من أنحاء الديار الإسلامية . ثم من الهنود والصينيين . وكل هؤلاء حينما يستكملون دراستهم في الأزهر ، يرتدون إلى بلدانهم وقراهم لإرشاد أهلهم وتعليمهم مطالب الدين الحنيف ونواهيه ، فضلا عما يدرسونه من العلوم الحديثة .

ونتيجة لهذا - كانت للأزهر دواما مكانة عظيمة... هذه المكانة الدينية الكبرى التي كانت تمكنه أحيانا من أن يضطلع بدور سياسي في المشاكل الداخلية والخارجية على السواء .

على أننا لو قلنا البصر في الجانب الفلسفي للإسلام - الجانب الذي يقول عنه مؤرخو الفرنجة وكتابهم أنه الجانب الغامض البعيد الغور - لوجدنا أن مصر قد نهضت بنصيب كبير يستأهل التقدير ، أو على الأقل يتفق وطبيعة البلد الذي يتبدى أن الفلسفة الروحية متوارثة فيه منذ القدم .

لم يخل ميدان العلم البحت من مساهمة العلماء المصريين الذين نبغوا في الطب والفلك والكيمياء وعلم البحار والرياضيات... الخ . ونذكر من هؤلاء أبا كامل شجاع ابن أسلم وعلى بن رضوان وعلى بن يونس وابن الهيثم وعلى بن النفيس ، وغيرهم .

أما شجاع بن أسلم فقد ذاع صيته في علم الجبر في بداية القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) وكتب فيه فزاد على ما خلفه الخوارزمي في كتابه الجبر والمقابلة . وابن يونس الذي اشتهر بالرياضيات والفلك في العصر الفاطمي واخترع الرقاص أو بندول الساعة الدقيقة . وكان لأرصاده الفلكية وبحوثه العلمية أثر هام في علم الفلك ، أما أبو الحسن علي بن رضوان بن علي بن جعفر طبيب القاهرة المشهور فقد ولد في الجزيرة حوالي عام ٩٨٠م وتوفي حوالي ١٠٦١م^(١) . وكان أبوه فرانا ولاقى في تعلمه أهوالا حتى برع في الطب ، وله مخطوطان في الطب بدار الكتب المصرية أحدهما بعنوان « في دفع مضار الأبدان بأرض مصر » . وقد زاول صناعة الطب في القرن الحادي عشر كرئيس للأطباء في عصر الحاكم بأمر الله (٩٩٦ - ١٠٢٠) والظاهر والمستنصر . ولابن رضوان ما يقرب من التسعين بحثا في الطب ، أهمها كتاب الأصول في الطب ، وهو محفوظ بدار الكتب المصرية^(٢) . وعلم ابن رضوان نفسه ولم يتلق الطب عن أستاذ ، ولذلك نجده

(١) عيون الأنباء في طبقات الاطباء لابن أبي أصيبعة - طبعة مولر - القاهرة ١٨٨٢
ج ٢ ص ٩٩ .

(٢) Max meyerhof : Climate and Health in Old Cairo, according to
Ali ibn Radwan .

بحث ألقاه الدكتور ماكس مايرهوف في المؤتمر الطبي الدولي .

يفخر دواما بذلك . وقد تبادل المساجلات والمناقشات الطبية مع ابن بطلان الطبيب النصراني البغدادي (١) .

ومن ازدهر ميدان الطب بهم في مصر على بن النفيس الذي كان رئيس الأطباء في مارستان قلاوون بالقاهرة والمتوفى سنة ٦٨٧ هـ (١٤٨٨) . وقد كان إلى جانب اشتغاله بالطب من البارزين في العلوم الدينية واللغوية والأدبية في عصره . وكتب ابن النفيس شرحا لتشريح ابن سينا ، وصلت إلينا نسخة مخطوطة منه ، وقد وضع من دراستها أن هذا الطبيب المصري اهتدى إلى حقيقة الدورة الدموية الصغرى « دورة الدم من البطين الأيمن في القلب إلى الرئتين ثم إلى البطين الأيسر » قبل أن يكشفها الأوربان ميشيل سرفت (Michel Serfet) سنة ١٥٥٦ وريالدوكولومبو (٢) .

ومن المسلم به عند المشتغلين بالطب وتاريخه أن أمراض العين كانت تعالج في مصر والشام في القرنين السادس والسابع بعد الهجرة (١٢ و ١٣ م) بأسلوب علمي يفوق كل ما كان معروفا حينئذ في سائر بلاد العالم .

أما أبو علي ابن الهيثم (٣) فكان أكبر علماء المسلمين في الطبيعة بل أعظم علمائها في العصور الوسطى ولولاه لما أتيح لعلم البصريات أن يصل إلى ما هو عليه الآن . وقد ترجم كتابه إلى اللاتينية سنة ١٥٧٢ وأخذ عنه علماء أوروبا جميع معلوماتهم ولا سيما في موضوعات انكسار الضوء وتشريح العين وكيفية تكوين الصور على شبكية العين (٤) .

وقد كاد الشرق أن ينسى ابن الهيثم بعد أن وصت كتبه بالزندقة : ويخبرنا أحد تلاميذ الفيلسوف الإسرائيلي ابن ميمون ، وهو الحكميم يوسف السبق ، أنه كان يبغداد تاجر اسمه عبد السلام الجبلي . شهد

(١) لما طالت المناظرات الطبية سافر ابن بطلان من بغداد إلى مصر ليرى مناظره . وأقام بها ثلاث سنوات . واستمرت بينهما المناظرات . ويقول ابن أبي أصيبعة في القارئة بينهما : كان ابن بطلان أعذب لفظا وأكثر ظرفا وأميز في الأدب وما يتعلق به . وكان ابن رضوان أظب وأعلم بالعلوم الحكيم وما يتعلق بها .

(٢) ماكس مايرهوف : مقالة عن ابن النفيس في دائرة المعارف الإسلامية .
(٣) عاش في القاهرة (القرن الخامس الهجري — الحادي عشر الميلادي) ولد في البصرة واشتغل كثيرا بـؤلفات أرسطو وجالينوس . وأكبر كتب ابن الهيثم كتاب المناظر الذي ترجم وهذب باللغة اللاتينية — ولا يعرف من تلاميذه غير واحد يعد من الفلاسفة هو أبو الوفاء مبشر بن فاتك القائد وهو أحد أمراء مصر .

(٤) مقال الأستاذ قدرى حافظ طوقان في كتاب « نواح مجيدة من الثقافة الإسلامية » أخرجته مجلة المتحفظ بالقاهرة .

إحراق كتب أحد الفلاسفة ، وقد أحضرها له خطيب ونصب له منبر ليشرح على إحراقها . فلما وصل إلى كتاب الهيئة لابن الهيثم أشار إلى الدائرة التي مثل بها الفلك ووصفها بأنها الداهية الدهياء ، والنازلة الصماء ، والمصيبة العمياء ، وبعد أن أتم كلامه خرقها وألقاها في النار (١) .

وقد ازدهرت مصر في أيام الفوالم بطائفة من علماء كتابة التاريخ ، وعلى رأسهم المسبحى (٩٧٧-١٠٣٩) وكان من أقطاب الأمراء ورجال الدولة الفاطمية . تولى الوزارة للحاكم بأمر الله ونال حظوة لديه وشغل عدة مناصب هامة أخرى . ألف في تاريخ مصر عدة كتب ، منها تاريخه الكبير المسمى « أخبار مصر » الذى لم يصل إلينا ولكن ذكر ابن خلكان عن رؤية ومعينة أن تاريخه « بلغ ثلاثة عشر ألف ورقة (٢) . وقد كتب أوتيقوس بطريرك الاسكندرية المتوفى عام ٩٢٩ م والمعروف باسم سعيد بن البطريق عدة كتب تاريخية أبرزها كتابه المشهور « نظم الجوهر ، أو التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق » كما صنف عدداً آخر من المؤلفات الطيبة .

ونذكر بين عداد المؤرخين المصريين: القضاعى (٣) والجوانى (٤) وأبو صالح الأرمى (٥) وابن عبد الظاهر صاحب « الروضة البهية الزاهرة والسيرة الظاهرية » (٦) وابن المتوج « مؤلف إيقاظ المتغفل واتعاظ للتأمل (٧) وابن الجيعان المتوفى فى أواخر القرن الثامن واضع كتاب « التحفة السنوية » بأسماء البلاد المصرية . وهو عبارة عن نبت للأقاليم والبلاد المصرية وذكر زماماتها وأنواع أراضيها من رزق وأحباس وغيرها وذلك حتى سنة ٧٧٧ هـ فى أواخر عهد الملك الأشرف . وقد نشرت دار الكتب المصرية هذا الكتاب سنة ١٨٩٨

-
- (١) دى بور : تاريخ الفلسفة فى الاسلام وترجمة محمد عبد الهادى أبو رييدة ص ١٩٤ — ١٩٥ .
- (٢) محمد عبد الله عنان : مصر الاسلامية وتاريخ الخطط المصرية . ص ٣٦ .
- (٣) ولد بمصر فى أواخر القرن الرابع وتوفى بها سنة (٤٥٤ هـ — ١٠٦٣ م) وقد أوفده المستنصر سفيرا إلى تيودورا امبراطورة قسطنطينية (١٠٥٥ م) وألف المختار فى ذكر الخطط والآثار .
- (٤) للجرائى « النقط بعجم ما أشكل من الخطط » وقد اقتبس منه المقرئى فى عدة مواضع غير أنه يصعب أن تستدل بهذا الاقتباس على حقيقة ماخصه الجوانى بالبعث .
- (٥) لأبى صالح مؤلف تناول فيه تاريخ الكنائس والأديار المصرية وأحياء الأقباط والنصارى وتاريخ القديسين والبطاركة وبعض أعمال الدولة وأقطاعاتها وإخراجها — وقد طبع هذا الكتاب فى اكسفورد عام ١٨٦٥ — مصر الاسلامية للدكتور م . ع . عنان ص ٤٠ .
- (٦) هو القاضى عجي الدين بن عبد الظاهر ولد بالقاهرة سنة ٦٢٠ هـ وتوفى بها سنة ٦٩٢ هـ (١٢٢٣ — ١٢٩٢ م) .
- (٧) هو القاضى تاج الدين محمد بن عبد الوهاب بن المتوج (٦٢٩ — ٧٣٠ هـ) (١٢٤١ — ١٣٣٠ م) .

القاهرة فيما كتبه الرحالة ابن حوقل

كان ابن حوقل الجغرافي العربي الذي ترك بغداد سنة ٣٣١هـ / ٩٤٣م جاثلاً مدة تجاوزت ربع القرن في أنحاء العالم الإسلامي ، أول من ذكر في مؤلف عربي شيئاً عن القاهرة ، ولما لم يرض على بنائها إلا سنوات ، والمعروف أنه ألف كتابه المسالك والممالك حوالي ٢٦٧هـ / ٩٧٧م وكانت وفاته حوالي ٩٨١م . قال عن القاهرة :

« وكان خارج مصر (الفسطاط والعسكر) أبنية بناها أحمد بن طولون ليسكنها جنده ، وتعرف بالقطائع ، كبناء بني الأغلب خارج القيروان رقادة ، وقد خربنا جميعاً في وقتنا هذا (أيام المؤلف) ، وأخلف الله عوض القطائع بالقاهرة ، وهي مدينة أوجدها أبو الحسن جوهر فتي أمير المؤمنين ومصباح دولته صلوات الله عليه لجيوشه وحشمه ، وقد ضمت من المحال والأسواق والحمامات والفنادق والقصور المشيدة وعلى جميعها سور منيع رفيع ، وبها ديوان مصر ومسجد جامع حصين نظيف ؟ » وقال في موضع آخر :

« والقاهرة مدينة بناها جوهر الفاطمي . لما فتح مصر وقهر من فيها ، كبيرة حسنة ، بها جامع بهي وقصر السلطان وسطها ، محصنة بأبواب محددة على جادة الشام ، ولا يمكن أحد دخول الفسطاط إلا منها لأنها بين الجبل والنهر .. » .

٢ - ناصر خسرو في القاهرة

(١٠٤٧ - ١٠٥٠)

نتقل إلى الرحالة ناصر خسرو الذي خلف لنا انطباعاته ومشاهداته في أثناء رحلته إلى مصر في أيام الفاطميين . يقول الرحالة :

أول مدينة يصل إليها المسافر من الشام إلى مصر هي القاهرة . وتقع مدينة مصر جنوبها وتسمى القاهرة « المعزية » ويقال للمعسكر « الفسطاط » .

وحين دخل المعز لدين الله مصر ، تقدم له بالطائفة قائد الجيش ، الذي ولاءه خليفة بغداد . ونزل المعز بالجيش في هذا الموضع الذي هو القاهرة اليوم . وقد سمي المعسكر بالقاهرة . لأن ذلك الجيش كان قاهراً وقد أمر المعز بأن لا يتجول أحد من جيشه في المدينة أو يدخل بيت أحد . ثم أمر أن تبني مصر (القاهرة) في هذه الصحراء وأن يشيد كل من أفراد حاشيته بيتاً . وهكذا بنيت المدينة التي قل نظيرها .

وفي القاهرة مالا يقل عن عشرين ألف دكان ، كلها ملك للسلطان وكثير منها يؤجر بعشرة دنانير مغربية في الشهر ، وليس بينها ما تقل أجرته عن دينارين والأربطة والحمامات والأبنية الأخرى كثيرة لا يحدها الحصر ، وكلها ملك للسلطان ، إذ ليس لأحد أن يملك عقاراً أو بيتاً غير المنازل وما يكون قد بناه الفرد لنفسه ، وسمت أن للسلطان ثمانية آلاف بيت في القاهرة ومصر ، وأنه يؤجرها ويحصل أجرتها كل شهر ؛ يؤجرونها للناس برغبتهم ثم يتفاوضون الأجر فلا يجبر شخص على شيء .

ويقع قصر السلطان في وسط القاهرة ، وهو طلق من جميع الجهات ولا يتصل به أي بناء ، وقد مسحه المهندسون فوجدوه مساوياً لمدينة ميفارفين ، وكل ماحوله فضاء ، ويحرسه كل ليلة ألف رجل ، خمسمائة راجل وخمسمائة فارس ، وهم ينفخون البوق ويدقون الطبل من وقت صلاة المغرب ، ويدورون حول القصر حتى الصباح ، ويبدو هذا القصر من خارج المدينة ، لارتفاع أسواره . وقيل أن به اثني عشر ألف خادم مأجور ، ولا يعرف عدد من فيه من النساء والجواري ؟ ؟ إلا أنه يقال أن به ثلاثين ألف آدمي . وهذا القصر يتكون من اثني عشر بناء . وله عشرة أبواب فوق الأرض فضلاً عن أبواب أخرى تحتها وأسماء أبوابه الظاهرة هي : باب الذهب ، باب البحر ، باب السريج ، باب الزهومة ، باب السلام ، باب الزبرجد ، باب العيد ، باب الفتوح ، باب الزلافة ، باب السرية^(١) وتحت الأرض باب يخرج منه السلطان راكباً ،

(١) ذكر المقرئى وتعزى بردى بعض أسماء تلك الأبواب مع اختلاف وقد صحح المرحوم محمد رمزي ناشر النجوم (ج ٤ ص ٣٦ ملحوظة) باب السرية بباب التربة ، وقال أنه يعرف بباب تزبة الزعفران كما جاء في الخطوط وأما باب السريج فليس مذكوراً في السكتابين المذكورين والمرجح أن تكون كلمة السريج تحريفاً لكلمة الريج فهو باب الريج لا السريج وقد ذكر تعزى بردى (ج ٣٥ - ٤٦) أن من أبواب القصر / باب العيد ، باب الزمرد ، باب الذهب ، باب الزهومة ، وباب قصر الشوك .

وهذا الباب على سرداب يؤدي إلى قصر آخر خارج المدينة . ولهذا السرداب الذي يصل على بين القصرين سقف محكم وجدران القصر من الحجر المنحوت بدقة ، تقول انها قُدت من صخر واحد . ويتألف القصر من المناظر والإيوانات العالية وفي داخله دهليز به دكك .

وأركان الدولة والخدم من العبيد السود أو الروم ، والوزير رجل يمتاز عن الجميع بالزهد والورع والأمانة والصدق والعقل .

ولم يكن شرب الخمر مباحا ، أعنى أيام الحاكم بأمر الله الذي حرم على النساء الخروج من بيوتهم وما كان أحد يجفف العنب في بيته لجواز عمل السيكي (نوع من التراب) منه ، ولم يكن أحدهم يجرؤ على شرب الخمر ، ولا كانوا يشربون القمع ، فقد قيل إنه مسكر ، فهو محرم .

وللقاهرة خمسة أبواب : باب النصر ، وباب الفتوح ، وباب القنطرة ، وباب ازويلة ، وباب الخليج ، وليس المدينة قلعة ، ولسكن أبنيتها أفوى وأكثر ارتفاعاً من القلعة ، وكل قصر حصن ، ومعظم العمارات تتألف من خمس أو ست طبقات .

ويجلب ماء الشرب من النيل ، ينقله السقاءون على الجمال ، والآبار القريبة من النيل عذب ماؤها . وأما البعيدة عنه فمأؤه ملح . ويقال إن في القاهرة ومصر اثنين وخمسين ألف حمل يحمل عليها السقاءون الروايا ، وهؤلاء عدا من يحمل الماء على ظهره في الجدر النحاسية أو القرب ، وذلك في الحارات الضيقة التي لا تسير فيها الجمال .

وفي المدينة بساتين وأشجار بين القصور تسقى من ماء الآبار . وفي قصر السلطان بساتين لا نظير لها ، وقد نصبت السواقي لديها ، وغرست الأشجار فوق الأسطح فصدارت منزهات .

وحين كنت هناك أجر منزل مساحته عشرون ذراعاً في إثني عشر ذراعاً بخمسة عشر ديناراً مغرباً في الشهر . والمنزل الذي أقت فيه ، كان أربعة أدوار ، ثلاثة منها مسكونة والرابع خال ، وقد عرض على صاحبه خمسة دنائير مغربية كأجرة شهرية فرفض معتذراً بأنه يلزمه أن يقيم به أحياناً ، ولو أنه لم يحضر مرتين في السنة التي أقتها هناك .

وكانت البيوت من النظافة والبهاء بحيث تقول انها بنيت من الجواهر الثمينة لا من الجص والآجر والحجارة . وهي بعيدة عن بعضها ، فلا تنمو أشجار بيت على سور بيت آخر . ويستطيع كل مالك أن يعمل ما ينبغي لبيته في كل وقت ، من هدم أو إصلاح دون أن يضايق جاره .

ويرى السائر خارج المدينة ناحية الغرب ، ترعة كبيرة تسمى « الخليج » حفرها والد السلطان (١) وله على شاطئها ثلاثمائة قرية . ويبتدىء فم الخليج من مدينة مصر ويعبر بالقاهرة ويدور ماراً أمام قصر

السلطان . وقد شيد على رأسه قصران ، أولهما قصر اللؤلؤة ، وثانيهما «قصر الجوهرة» (١) .

وفي القاهرة أربعة جوامع (مساجد جمعة) الأزهر وجامع النور (الأقر) وجامع الحاكم وجامع المعز . والأخير خارج القاهرة على شاطئ النيل . ويتوجه المصريون نحو مطلع الحمل حين يولون وجوههم شطر القبلة .

وبين مدينتي مصر والقاهرة أقل من ميل ، والأولى في الجنوب والثانية في الشمال ويمر النيل بهما وبساتينهما ويوتهما متصلّة وتتمر المياه الوادي بأجمعه في الصيف كأنه بحر عدا حديقة السلطان لأنها على مرتفع .

وصف فتح الخليج :

حين يبلغ النيل الوفاء ، أى من العاشر شهر يور (أغسطس وسبتمبر) إلى العشرين من ابان (أكتوبر ونوفمبر) ويبلغ ارتفاع الماء عشرين ذراعاً عن مستواه في الشتاء وتكون أفواه الترع والجداول مسدودة في البلاد كلها ، يحضر السلطان راكباً ليفتح النهر الذي يسمى « الخليج » والذي يبدأ قبل مدينة مصر ثم يمر بالقاهرة وهو ملك خاص للسلطان . وفي ذلك اليوم (يوم ركوب السلطان لفتح الخليج) تفتح الخليجان والترع الأخرى في الولايات كلها .

وهذا اليوم أعظم الأعياد في مصر ، ويسمى « عيد ركوب فتح الخليج » .

حينما يقترب هذا الموسم ، ينصب للسلطان على رأس الخليج سرادق عظيم التكليف من الديباج الرومى ، وموشى كله بالذهب ، ومكلم بالجواهر ، ومعد أعظم إعداد ، وهو من الكبر بحيث يتسع ظله لمائة فارس . وأمام هذا السرادق خيمة من البوقلمون وسرادق آخر كبير .

(١) منظره اللؤلؤة وتعرف أيضاً بقصر اللؤلؤة ، تقع قرب باب القنطرة القديم وكان قصرآ من أحسن القصور وأعظمها زخرفة ، وهو أحد المنزهات كان يشرف من شرفه على البستان الكافورى ، ويطل من غربه على الخليج ، وكان غربى الخليج إذ ذاك ليس فيه من المباني شئ ، وإنما كان فيه بساتين عظيمة البركة تعرف ببطن البقرة فيرى الجالس في قصر اللؤلؤة جميع أرض الطبالة وسائر أرض اللوق وما هو من قبيلها ، ويرى بحرى النيل من وراء البساتين . قال ابن ميسر : « هذه المنظره بناها المعز بالله (٣٦٥ - ٣٨٥ / ٩٧٥ - ٩٩٦ م) ولما ولى برجوان الصقلي الوزارة (٩٩٦ - ١٠٢٠) سكن بمنظره اللؤلؤة إلى أن قتل . وفي عام ٤٠٢ / ١٠١١ أمر الحاكم بأمر الله بهدم اللؤلؤة ونهبها وبيع ما فيها وفي أيام الظاهر لاعزاز دين الله (١٠٢٠ - ١٠٣٦) أعيد بناء اللؤلؤة وكانت عادة الخلفاء أن يقيموا بها أيام النيل وقد أقام بهذا القصر نجم الدين والد صلاح الدين بعد وفاة المعز لدين الله آخر الفواطم (١١٧٠ / ١١٧١) .

وقبل الإحتفاء، بثلاثة أيام يدقون الطبل وينفخون البوق ويضربون الكؤوس في الإصطبل ، لتألف الحليل هذه الأصوات .

ويسير في ركاب السلطان عشرة آلاف فارس ، على خيولهم سروج مذهبة وأطواق وألجمة مرصعة ، وجميع لبد السروج من الديقاج الرومى والبوقلون ، نسجت لهذا الغرض خاصة ، فلم تفصل ولم تخط ، وطرزت حواشيها باسم سلطان مصر ، وعلى كل حصان درع أو جوشن ، وعلى قمة السرج خوذة وجميع أنواع الأسلحة الأخرى، وكذلك تسير جمال كثيرة عليها هودج مزينة ، وبغال عمارياتها (هودجها) كاهما مرصعة بالذهب والجواهر ، وموشاة باللؤلؤ . وأن الكلام ليطول إذا ذكرت كل ما يكون في يوم فتح الخليج .

في ذلك اليوم ، يخرج جيش السلطان كله ، فرقة فرقة ، وفوجا فوجا ولكل جماعة إسم وكنية .

فرقة تسمى « الكتامين » وهم من القيروان ، أتوا في خدمة العز لدين الله وقيل أنهم عشرون ألف فارس .

وفرقة تسمى « الباطليين » وهم رجال من المغرب ، دخلوا مصر قبل مجيء السلطان إليها وقيل أنهم خمسة عشر ألف فارس .

وفرقة تسمى « المصامدة » وهم سود من بلاد المصامدة ، قيل أنهم عشرون ألف رجل .

وفرقة تسمى « المشاركة » وهم ترك وعجم . وسبب هذه التسمية أن أصلهم ليس عربياً ، ولو أن معظمهم ولد في مصر ، وقد اشتق اسمهم من الأصل ، قيل أنهم عشرة آلاف رجل وهم ضخام الجثة .

وفرقة تسمى « عبيد الشراء » وهم عبيد مشترون ، قيل انهم ثلاثون ألف رجل .

وفرقة تسمى « البدو » وهم من أهل الحجاز . وكلهم يجيدون حرب الرماح قيل انهم خمسون ألف فارس .

وفرقة تسمى « الاستاذين » كلهم خدم بيض وسود ، اشترؤا للخدمة ، وهم ثلاثون ألف فارس .

وفرقة تسمى « السرائين » وهم مشاة جاءوا من كل ولاية ، ولهم قائد خاص ، يتولى رعايتهم ، وكل منهم يستعمل سلاح ولايته ، وعدد هم عشرة آلاف رجل .

وفرقة تسمى « الزوج » يجارون بالسيف وحده ، قيل انهم ثلاثون ألف رجل .

ونفقة هذا الجيش كله من مال الساطان ، ولكل جندى منه مرتب شهرى على قدر درجته ، ولا يجبر على دفع دينار منها أحد الرعايا أو العمال . ولكن هؤلاء يسمون للخزانة أموال ولايتهم سنة فسنة ، وتصرف

أرزاق الجند من الخزانة في وقت معين ، بحيث لا يرهق وال أو واحد من الرعية بمطالبة الجندية .

وهناك فرقة من أبناء الملوك والأمراء الذين جاءوا مصر من أطراف العالم ولا يعدون من الجيش ، ومن بين هؤلاء أولاد خسرو دهلبي . وقد أتت أمهم معهم ، وأولاد ملوك الكرج (جورجيا) وأبناء ملوك الديلم وأبناء خاقان تركستان .

وكذلك وجد في يوم فتح الخليج طبقات أخرى من الرجال من ذوى الفضل والأدباء والشعراء والفقهاء ولكل منهم أرزاق معينة ، ولا يقل رزق الواحد من أبناء الأمراء عن خمسمائة دينار وقد يبلغ الألفين ، وليس لهم عمل الا أن يذهبوا ليسلموا على الوزير حين يركب ثم يعودون .

والآن نعود إلى حديث فتح الخليج .

وفي اليوم الذى ذهب السلطان فى صباحه لفتح الخليج ، استأجروا عشرة آلاف رجل وأمسك كل واحد منهم إحدى الجنائب التى ذكرتها ، وساروا مائة مائة وأمامهم الموسيقيون ينفخون البوق ويضربون الطبل والمزمار ، وسار خلفهم فوج من الجيش . مشى هؤلاء من قصر السلطان حتى رأس الخليج ، ثم رجعوا . وقد أعطى كل أجير قاذ جنبية ثلاثة دراهم ، وبعد الخيول أتت الجمال وعليها اليهود والمراد . ومن بعدها البغال وعليها العماريات .

وقد ابتعد السلطان عن الجيش والجنائب ، وهو شاب كامل الجسم ، طاهر الصورة من أبناء أمير المؤمنين حسين بن علي بن أبي طالب صلوات الله عليهما كان حليق شعر الرأس ، يركب على بغل ليس فى سرجه أو لجامه حلية ، فليس عليه ذهب أو فضة ، وقد ارتدى قميصاً أبيض ، عليه فوطة فضفاضة ، كالتى تلبس فى بلاد المغرب والتى تسمى فى بلاد العجم « دراعه » وقبل ان اسم هذا القميص « الديبقي » (١) وانه يساوى عشرة آلاف دينار . وكان على رأسه عمامة من لونه ويمسك بيده سوطاً ثميناً . وأمامه ثلاثمائة واجل ديبقى . عليهم ثياب رومية مذهبة وقد حزموا خصورهم ، وأكمامهم واسعة كما يلبس رجال مصر . ومعهم النشايب والسهام وقد عصبوا سيقانهم .

ويسير مع السلطان حامل المظلة ، ركباً حصاناً ؛ وعلى رأسه عمامة مذهبة مرصعة ، وعليها حلة قيمتها عشرة آلاف دينار ذهبى مغربى ؛ والمظلة التى بيده ثمينة جداً ؛ وهى مرصعة ومكالة ؛ وليس مع السلطان

(١) الديبقي نوع من الأقمشة الحريرية المزركشة التى كانت تصنع فى ديبقى وهى بلدة كانت واقعة على بحيرة المنزلة بالقرب من تنيس وموضعها اليوم تل ديبقى فى الشمال الشرقى لقرية صان الحجر (النجوم الزاهرة ج ٤ - ص ٨١) .

فارس غير حامل المظلة^(١) وقد سار أمامه الديلمة وعلى يمينه ويساره جماعة من الخدم؛ يحملون الحجارة ويحرقون العنبر والعود .

والعادة في مصر أن يسجد الرجال للسلطان وأن يدعوا له كلما قرب منهم .

وجاء بعد السلطان الوزير مع قاضي القضاة وفوج كبير من أهل العلم وأركان الدولة وقد ذهب السلطان إلى حيث ضرب الشرع على رأس سد الخليج أي فم النهر وظل تمتطياً البغل تحت السراق مدة ساعة؛ وبعد ذلك سلموه مزارقاً ليضرب به السد، ثم عجل الرجال بهدمه بالمعاول والفؤوس والخاروف، فاساب الماء؛ وقد كان مرتفعاً وجرى دفعة واحدة في الخليج .

وفي هذا اليوم يخرج جميع سكان مصر والقاهرة للتفرج على فتح الخليج؛ وتجري فيه أنواع الألعاب العجيبة .

وكان في أول سفينة نزلت الخليج جماعة من الخرس يسمون بالفارسية «كنك ولال» لعلمهم يتفاءلون بنزولهم ويجري السلطان عليهم صدقاته في هذا اليوم .

وكان للسلطان إحدى وعشرون سفينة، وقد عمل لها حوض خاص قرب القصر في اتساع ميدانين أو ثلاثة؛ وطول كل سفينة منها خمسون ذراعاً وعرضها عشرون ذراعاً وكلها مزينة بالذهب والفضة والجواهر والدياج، ولو وصفتها لسطرت أوراقاً كثيرة وهذه السفن كلها مربوطة في الحوض، معظم الوقت؛ كالبنغال في الاصطبل .

والسلطان حديقة تسمى «عين شمس» على فرسخين من القاهرة وهناك عين ماء عذبة تسمى البستان بها، ويقال ان هذه الحديقة كانت لفرعون . وقد رأيت بها بناية قديمة بها أربع قطع من الحجارة الكبيرة كل قطعة مثل المغارة؛ وطول كل منها ثلاثون ذراعاً وكان للماء يقطر من رؤوسها؛ ولا يدري أحدهم هي . وفي الحديقة شجرة البلسان، ويقال أن آباء هذا السلطان أتوا يذرتها من بلاد المغرب وزرعوها في الحديقة ولا يوجد غيرها في جميع الآفاق وهي غير معروفة في بلاد المغرب . ومع أن لهذه الشجرة حبساً إلا أنه

(١) المظلة التي تحمل على رأس الخليفة عند ركوبه هي تبة على هيئة خيمة على رأس عمود كالمظلة التي يركب بها السلطان (الابن) وكانت اثنتي عشر شوزكا عرض سفلى كل شوزك شبر، وطوله ثلاثة أذرع وثلاث، وآخره من أعلاه دقيق للغاية، بحيث يجتمع الاثنا عشر شوزكا في رأس عمود بدائرة وعمودها قطاربية من الزان ملبسة بأنايب الذهب وفي آخر أنبوبة ثلثي رأس العمود فلسكة بارزة مقدار عرض إبهام تشد آخر الشوازيك في حلقة من ذهب وتنزل رأس الرمح ولها عندهم مكانة جلييلة لعلوها رأس الخليفة وحاملها من أكبر الأمراء وله عندهم التقدّم والرفعة لحمل مايعاوه رأس الخليفة (صباح الأعشى ج ٣ ص ٦٩٤-٤٧٩).

لا يثبت حيثما زرع ؛ وإذا نبت فلا يخرج الزيت منه وهذه الشجرة مثل شجرة الآس ؛ يشذبون غصونها بالنصل حينما يكبر ، ويربطون زجاجة عند موضع كل قطع فيخرج منه الدهن كالصمغ ، وحينما ينفذ ما فيها من دهن تحبف . ويحمل البستانيون غصونها إلى المدينة ويبيعونها ، ولحاؤها ثخين وطعمه كاللوز حين يقشر . وينبت في جزعها أغصان في السنة التالية فيعملون بها كما فعلوا في السنة العابرة .

ولمدينة القاهرة عشر محلات وهم يسمون المحلة حارة وهي حارات . —

برجوان (١) وزويلة (٢) والجودرية (٣) والأمراء (٤) والديالة (٥)

(١) تنسب حارة برجوان إلى الخادم برجوان من خدم القصر أيام العزيز بالله (٣٦٥ — ٤٣٨٦ هـ / ٩٧٥ — ٩٩٦) وكان لبرجوان هذا شأن في أيام الحاكم بأمر الله (٣٨٦ — ٤١١ / ٩٦٦ — ١٠٢٠) ولقب بالواسطة وبعدير الدولة . وكان يتولى أمور مصر والشام والحجاز والغرب . وأمر الحاكم أبا الفضل ريدان بأن يقتله فقتله سنة ٣٩٠ هـ / ١٠٠٠ م . وتقع هذه الحارة اليوم في قسم الجمالية (النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٤٨ .

(٢) زويلة إسم ضاحية في القيروان ، كما أنه إسم بلدة صغيرة بجوار المهديّة التي بناها عبد الله المهدي (٢٩٧ — ٣٢٢ هـ / ٩٠٩ — ٩٣٣ م) وقد سمي المكان باسم القبيلة التي سكنته . وقد سكن أفراد هذه حارة سميت باسمهم — زويلة — في مصر — كانت أكبر حاراتها . وتعرف اليوم باسم حارة اليهود بشارع الموسيقى — (النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٥٢) .

(٣) تنسب إلى جماعة ينسبون إلى جودر خادم المهدي ، كان عددهم ٤٠٠ ، وتقع في دائرة قسم الدرب الأحمر (النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٥١)

(٤) غير اسمها صلاح الدين ، حين سكنها الملك المعظم توران شاه ، بعد مجيئه من الشام وسميت درب شمس الدولة ، نسبة إليه . وتقع بين شارع السكة الجديدة وشارع الحمزاوي الصغير (النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٥٢) .

(٥) تنسب إلى ساكنيها من الديلم الذين هجروا أفتكين المعزى غلام معز الدولة البويهى (٣٤٤ — ٩٥٥ هـ / ٩٧٥ — ١٠٢٠ م) حين قدم أولاده إلى القاهرة ، وكانت تشمل ثلاث حارات ، حارة الكهككين ودرب الأتراك وحوشن قدم ، وكذلك سكن حارة الديلم جماعة من الأمراء والأعيان فأطلق عليهم إسم حارة الأمراء (النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٤٣)

والروم^(١) والباطنية^(٢) وقصر الشوق^(٣) وعيد الشراء^(٤) والمصامدة^(٥)

وصف مائدة السلطان .

يقيم السلطان مأدبة في كل من العيدين . ويأذن بالاستقبال في قصره للخوادم والعوام . وتنصب مائدة الخوادم في حضرته ومائدة العوام في سرايات أخرى . وقد سمعت كثيراً عن هذه المآدب فرغبت في رؤيتها ، رأيت العين ، فذهبت عند أحد كتاب السلطان ، وكنت قد صاحته فتوطدت الصداقة بيننا ، وقلت له : « رأيت مجالس ملوك وسلاطين المعجم مثل السلطان محمود الغزنوي وابنه السلطان مسعود ، وقد كانا ملكين عظيمين ذوي نعمة وجلال ، وأريد أن أرى مجلس أمير المؤمنين » .

فتقل رغبتى إلى الموكل بالستار ، المسمى « صاحب الستر » وقد تفضل هذا فسمح لى بالذهاب ، في آخر رمضان سنة أربعين وأربعمائة هـ (٧ مارس ١٠٤٩ م) وكان المجلس قد أعد لليوم الثاني وهو يوم العيد ، حيث يحضر السلطان بعد الصلاة فيجلس في صدر المائدة .

حين دخلت من باب السراي رأيت عمارات وصفف وإوانات إذا أردت أن أصفها يطول الكتاب ؛ كان هناك إثني عشر جناحاً ، أبنيتها مربعة ، وكلها متصلة بعضها ببعض . وكلما دخلت جناحاً منها وجدته أحسن من سابقه ، ومساحة كل واحد منها مائة ذراع في مائة ؛ عدا واحداً منها كانت مساحته ستين ذراعاً في ستين . كان بهذا الأخير نحت يشغل عرضه بتامه وعلوه أربع أذرع ، وهو مغطى بالذهب من جهاته الثلاث وعليه صور المعطاد والمليدان وغيرها كما أن عليه كتابة جميلة . وكل ما في هذا الحرم من الفرش والطرح من

(١) وهي حارتان ، حارة الروم المشهورة اليوم والتي تقع في قسم الدرب الأحمر وحارة الروم الجوانية تنسب إلى الأشراف الجوانيين . وهي تقع في قسم الجمالية والوراقون يكتبون حارة الروم السفلى وحارة الروم العليا . وعند ما غضب الحاكم بأمر الله على الروم أمر بنهب الحارتين وهدمها (١٧ ذى الحجة ٣٩٩ / ١ أغسطس ١٠٠٩ م) (النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٤٢)

(٢) تقع في الجنوب الشرقي للجامع الأزهر ؛ ويدل على موضعها شارع الباطنية (النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٤٦١)

(٣) قصر شيده الفاطميون ؛ يعرف بهذا الاسم شارع قرب أم الغلام بسيدنا الحسين .

(٤) يظهر أن هذه كانت إحدى حارات حي الحسينية ، نسبة إلى الأشراف الحسينيين ، وهي حارة حامد والمنشية الكبرى والمنشية الصغرى والحارة الكبيرة والحارة الوسطى التي كانت هي لعبيد الشراء والوزيرية والسوق الكبير وبين الحارتين وعيد الشراء فرقة في الجيش (النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٤٥ - ٤٦) .

(٥) المصامدة فرقة في الجيش المصري أيام الفوالم ، وقد سكنوا حارة سميت باسمهم قرب بركة الفيل .

الديباج الرومي والبوقلمون نسجت على قدر كل موضع تشغله . وحول التخت درازين من الذهب المشبك . يفوق حد الوصف ومن خلف التخت ؛ بجانب الحائط ، درجات من الفضة ، وبلغ هذا التخت من العظمة أنى لو قصرت هذا الكتاب كله على وصفه ما استوفيت السلام ، وما كفى .

وقيل أن راتب السكر ، في ذلك اليوم الذى تنصب فيه مائدة السلطان ، خمسون ألف من ؛ وقد رأيت على المائدة شجرة ، أعدت للزينة ، تشبه شجرة الترخ ؛ كل غصونها وأوراقها وثمارها مصنوعة من السكر . ومن تحتها ألف صورة وتمثال مصنوعة كلها من السكر أيضاً .

ومطبخ السلطان خارج القصر ، ويعمل فيه دواماً خمسون غلاماً ، ويصل القصر بالمطبخ طريق تحت الأرض . وجرت العادة في مصر ، أن يحمل إلى دار الشراب السلطانية (شرايحانة) كل يوم ، أربعة عشر جملاً من التلج ؛ وكان لمعظم الأمراء والخوارج راتب يومية من هذا التلج ، ويصرف منه لمن يطلبه من مرضى المدينة وكذلك كل من يطلب من أهلها مشروباً أو دواء من الحرم السلطاني فإنه يعطاه كما أن هناك زيتاً أخرى كزيت الباسان وغيره كان للناس كافة أن يطلبوها فلا تنع عنهم .

سيرة سلطان مصر :

بلغ أمن المصريين واطمئنانهم إلى حكومتهم إلى حد أن البرازين وتجار الجواهر والصارفة لا يغلقون أبواب دكاكينهم ، بل يسدلون عليها الستائر ، ولم يكن أحد يجرؤ على مد يده إلى شيء منها ، يحكى أنه كان بمصر يهودى وافر الثراء يتجر بالجواهر ، وكان مقرباً من السلطان الذى كان يعتمد عليه في شراء ما يريد من الجواهر الكريمة ، فاعتدى عليه الجنود وقتلوه . فلما ارتكبوا هذا الجرم خشوا بطش السلطان ، فركب عشرون ألف فارس منهم وخرجوا إلى الميدان . وهكذا خرج الجيش إلى الصحراء حتى منتصف النهار فخرج إليهم خادم القصر ووقف بباب السراى وقال : « إن السلطان يسأل إذا كنتم مطيعين أم لا ؟ » فصاحوا بصيحة واحدة : « نحن عبيد مطيعون ولكننا أذنبنا » فقال الخادم : يأمركم السلطان بأن تعودوا فعادوا في الحال . .

واسم هذا اليهودى القتل أبو سعيد ، وكان له ابن وأخ . وقيل أنه لا يعرف مدى غناه إلا الله ، فقد كان على سقف داره ثلاثمائة جرة من الفضة زرع في كل منها شجرة ، كأنها حديقة ، وكلها أشجار مثمرة . وقد كتب أخوه ، لما ملكه من الفزع ، رسالة للسلطان يقول فيها « إني أقدم للخزانة مائة ألف دينسار مغربى حالاً » فأمر السلطان بعرض الرسالة على الناس وتمزيقها على الملأ ، وقال : « كونوا آمنين وعودوا إلى بيتكم ، فليس لأحد شأن بكم ، ولسنا بحاجة لسأل أحد » واستأله إليه .

وكان لكل مسجد في جميع المدن والقرى التي نزلت بها ، في الشام إلى القيروان ، نفقات يقدمها وكيل السلطان من زيت السراج والحصير والبوريا وسجاجيد الصلاة ورواتب القوام والفراشين والمؤذنين وغيرهم « وكتب وإلى الشام في بعض السنين إلى السلطان بأن الزيت قليل ثم استأذن في أن يصرف للمساجد الزيت

الحار ، المستخرج من بدور الفجبل واللفت ، فأجيب « إنك مأمور لا وزير ، وليس من الجائز أن تغير أو تبدل في شيء يتعلق ببيت الله » .

ويتقاضى قاضى القضاة ألفى دينار مغربى في الشهر ، ومرتب كل قاضى على قدر مرتبته ، وذلك حتى لا يطمع القضاة في أموال الناس أو يظلمونهم .

والعادة في مصر أن يقرأ مرسوم السلطان في المساجد في منتصف رجب ، وهو : « يا معشر المسلمين ، جل موسم الحج ، وسيجهز مركب السلطان كالمعتاد وسيكون معه الجنود والحيل والجمال والزاد » ، وينادى بذلك في شهر رمضان أيضاً ، ويبدأ الناس في السفر ابتداء من أول ذى القعدة . وينزلون في موضع معين ، ثم يسرون في منتصف هذا الشهر . ويبلغ خرج الجيش الذى يرافق السلطان ألف دينار مغربى في اليوم ، هذا عدداً عشرين ديناراً مرتبة لكل رجل فيه ، ويبلغون مكة في خمسة وعشرين يوماً ويمكثون بها عشرة أيام ، ثم يعودون إلى مصر في خمسة وعشرين يوماً . ونفقانهم في الشهرين سستون ألف دينار مغربى ، عدداً الصلات والمشاهرات وعن الجمال التى تنفق في الطريق .

وقد قرىء على الناس ، سنة تسع وثلاثين وأربعمائة ، للرسوم التالى من سجل السلطان :

« يقول أمير المؤمنين أنه ليس من الخير أن يسافر الحجاج للحجاز هذا العام فإن به قحطاً وضيقاً وقد هلك به خلق كثير وإنى أقول هذا شفقة بالمسلمين » . فلم يسافر الحجاج . وكان السلطان يرسل الكسوة للكعبة كالمعتاد لأنه يرسلها مرتين كل سنة ، فلما سافرت الكسوة مع وفد السلطان ، عن طريق القانم سافرت معهم فخرجت من مصر أول ذى القعدة » .

فبلغنا القانم في الثامن منه ، ومن هناك أفلمت السفينة فبلغنا بعد خمسة عشر يوماً مدينة تسمى الجار في الثامن والعشرين من ذى القعدة^(١) .

(١) ناصر خسرو (ت ٤٥٣ هـ / ١٠٩١ م) : سفرنامه ، ترجمه الى الفرنسية شارل سيفر (باريس) عام ١٨٨١ ، وإلى العربية دكتور يحيى الحشاب بالقاهرة ، وقد نقلنا عنه .

أبو الصلت أمية بالقاهرة

(٤٨٩ هـ - ١٠٩٥/١٠٩٦ م).

وهذا أديب وشاعر كبير ، رحل إلى القاهرة وأمدنا بوصف شامل لمجتمعها العلمي والسياسي .

ولد أبو الصلت أمية بن عبد العزيز في دانية من بلاد الأندلس في سنة ٤٧٠ هـ / ١٠٧٧ م وعزم على زيارة مصر وكان يأمل من وراء رحلته إلى مصر بسطة في العيش . ويبدو أنه ظل دهرًا خاملًا يتعین الفزص ، إلى أن اتبح له أن يتصل بأحد المقربين إلى الوزير الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الجمالي في أيام المستنصر بالله ، وذلك الرجل هو تاج المعالي مختار (١) .

قدم أبو الصلت إلى الاسكندرية في عام ٤٨٩ هـ (١٠٩٥/٩٦) ثم جاء إلى القاهرة واتصل بتاج المعالي ، نخدمه بصناعتي الطب والتنجم ، فأعجب به ، ووصفه بحضرة الأفضل وأثنى عليه ، وكان كاتب الأفضل بنفس عليه ذلك ، ويحشى بأس تاج المعالي ، وحدث أن تتابعت منه السقطات فأدى ذلك إلى أن يقبض عليه الأفضل ويعقله ، فيجد كاتب الأفضل الفرصة سانحة للقضاء على أبي الصلت ، فيختلق له ما يدفع الأفضل إلى أن يلقي به في أحد سجون مصر مدة ثلاث سنين وشهر ؟ بعد الذي دبح فيه من المدائح .

ولما أفرج عنه ضاق أبو الصلت ذرعًا بمصر ، وما لقي فيها من الخيبة والمعت ، فشد رحاله إلى المغرب واستعاد صلته ببيحي بن تميم بن باديس الذي وضع له رسالة يصف له فيها ما عاينه في مصر وما عاناها وهي التي عرفت بالرسالة المصرية ، وتناول فيها .

١ - الوصف البلداني لمصر ونيلها .

٢ - تصوير جمال ربوعها ومعانيها وسكانها ومذاهبهم وأخلاقهم ، وما تحتويه البلاد من الآثار ، ونوء بفعل بعض الأطباء ، ثم ذكر من لقيه بها من الأدباء والظرفاء (٢) وسنقتطف من هذه الرسالة الطريفة ما يتصل بالقاهرة في أيام المستنصر بالله .

(١) عبد السلام هارون : الرسالة المصرية من مخطوط اقتناه العلامة أحمد تيمور بكتبتته الخاصة رقم ٦٠١ أدب . بدار الكتب المصرية وهي المجموعة الأولى من نوادر المخطوطات ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٥١ . وقد نقلنا عن هذه الرسالة ما ذكرناه .

(٢) أنظر ترجمة أبي الصلت في معجم ياقوت (٧ : ٥٢) وابن خلسكان (١ : ٨) وابن أبي أصيبعة (٢ : ٥٢) .

وأنا أبتدىء بذكر هذه البلاد وموقعها في المعمورة ومجرى النيل منها ، وغناؤه فيها ، وأشفع ذلك بنبذ من ذكر أحوال أهلها في أخلاقهم ، وسيرهم وعاداتهم ، وما يتصل بذلك وينجر معه ، ويجيء بسببه ، ويدخل في تضاعيفه ، وها أنذا أخذ في ذلك ، وبالله استعين ، وعليه التوكل .

أرض مصر بأسرها واقعة من المعمورة في قسمي الإقليم الثاني والإقليم الثالث ومعظمها في الثالث .

وحكى المعتنون بأخبارها وتواريخها أن حدها في الطول من مدينة برقة التي في جنوب البحر الرومي ، إلى أيلة من ساحل الخليج من بحر الحبشة والزنج والهند والصين ، ومسافة ذلك قريب من أربعين يوماً .

قالوا — وحدها في العرض مدينة أسوان وما سامتها من الصعيد الأعلى المتاخم لأرض النوبة إلى رشيد وما حاذها من مساقط النيل في البحر الرومي ، ومسافة ذلك قريب من ثلاثين يوماً . ويكتنفها من مبدئها في العرض إلى متنها جبلان (أحدهما في الضفة الشرقية من النيل ، وهو المقطم ، والآخر في الضفة الغربية منه ، والنيل منسرب فيما بينهما ؛ وهما أجردان غير شامخين ؛ يتقاربان جدا في وضعيهما ؛ من لدن مدينة أسوان إلى أن ينتهي إلى الفسطاط ؛ ثم تتسع مسافة ما بينهما وتفرج قليلا ؛ يأخذ المقطم منها مشرقا والآخر مغربا على رواب في في مأخذيها وتعريج في مسلكيهما ؛ فتتسع أرض مصر في الفسطاط إلى ساحل البحر الرومي الذي عليه الفرما وتينيس ودمياط ورشيد والاسكندرية ؛ وهناك تقطع في عرضها الذي هو مسافة ما بين أوغها في الجنوب وأوغها في الغرب والشمال ...

وليس تشتمل أرض مصر بعد الفسطاط الذي هو مقر الملك وكرسى الدولة على مدائن لها قدر في كثرتها ولا فخامتها ؛ لكن أجمل مدائنها وأفخرها ؛ إما الجهة الشمالية من الفسطاط فالاسكندرية وتينيس ودمياط ؛ وإما في الجهة الجنوبية إلى أقصى الصعيد فقوص وقفت . فهذه صفة أرض مصر على الجملة .

وأما النيل فينبوعه من وراء خط الاستواء ، من جبل هناك يعرف بجبل القمر ، فإنه يتبدىء بالتزيد في شهر أبيب ، الذي هو بالرومية يوليو ، والمصريون يقولون : « إذا دخل أبيب ، كان للماء ديب » وعند ابتدائه في التزيد ، تتغير جميع كفياته وتفسد ، والسبب الموجب لذلك مروره بنقائع مياه أجنه يخالطها فيجتلها ، ويستخرجها معه ويستصحبها إلى غير ذلك مما يحتمل .

ثم ذكر أبو الصلت عدة نماذج في شعر نهر النيل ووصفه ، منها ما قاله أبو الحسن محمد بن الوزير في تدرج زيادة الماء أصبماً أصبماً ومنفعة ذلك التدرج .

أرى أبدأ كثيراً من قليل وبدراً في الحقيقة من هلال
فلا تعجب فكل قليل ماء بمصر مسبب لخليج مال

زيادة أصبح في كل يوم زيادة أذرع في حسن حال

فإذا كان في الخامس عشر ذراعاً وزاد من السادس عشر أصبعا واحدة كسر الخليج

ولسكسره يوم معدود ، ومقام مشهود ، ومجتمع غاص ، يحضره العام والخاص . وإذا كسر فتحت الترع ، وهي فوهات الخليجان — ففاض الماء وساح ، وعم النيطان والبطاح وانضم الناس إلى أعلى مساكنهم من الضياع والمنازل ، وهي على أكام وربى لا ينتهي إليها الماء ، ولا يتسلط السيل عليها ، فتعود عند ذلك أرض مصر بأسرها بجرأ غامراً لما بين جليها المكتنفين لها وثبتت على هذه الحال ريثما يبلغ الحد المحدود في مشيئة الرب المعبود ، وأكثر ذلك يحوم حول ثمانية عشر ذراعاً ، ثم يأخذ عائداً إلى منصبه ، إلى مجرى النيل ومسربه ، فينضب أوعما كان من الأرض مشرفاً عالياً ، ويصير فيما كان منها متضامناً فيترك كل قرارة كالدرهم ، ويغادر كل قلمة كالبرد المسهم ، وفي هذا الوقت من السنة تكون أرض مصر أحسن شيء منظرأ ، ولا سيما متزهاتها المشهورة ، ودياراتها المطروقة كالجزيرة ، وبركة الحبش

وما جرى مجراها من المواضع التي يطرقها أهل الخلاعة وينتابها ذوو الأدب والطرب .

واتفق أن خرجنا في مثل هذا الزمان إلى بركة الحبش ، فافتشنا من زهرها أحسن بساط ، واستظلنا من دوحها بأوفي رواق ، وطلمت علينا من زجاجات الأقداح شمس ، في خلج البذور ، ونجوم بالصفاء تنور ، إلى أن جرى ذهب الأصيل على لجين الماء ، ونشبت نار الشفق بفحمة الظلماء ، فقال في ذلك بمضنا :

الله يومى ببركة الحبش	والأفق بين الضياء والعبش
والنيل تحت الرياح مضطرب	كصارم في عيىن مرتمش
قد نسجتها يد التمام لنا	فنعن من نسجها على فرش
ونحن فى روضة مفوفة	ديج بالنور عطفها ووشى
فعاطنى الراح إن تاركها	من سورة الهم غير متمش
واسقى بالكبار مترعة	فهن أروى لشدة العطش
فأثقل الناس كلهم رجىل	دعاه داعى الصبا فلم يطش

سكان أرض مصر :

وأما سكان أرض مصر فأخلاق من الناس مختلفة الأصناف : من قبط وروم وعرب وبربر وأكراد وديلم وحبشان وأرمن ، وغير ذلك من الأصناف والأجناس على حسب اختلافاتهم ، وقالوا : إن السبب في اختلافهم ، والموجب لاختلافهم ، اختلاط المالكين لها والمتغلبين عليها ، من العمالة واليونانيين والروم

والعرب وغيرهم ، فلهذا اختلطت أنسابهم فأقتصروا من التعريف بأنفسهم على الانتساب إلى مواضعهم ، والالتقاء إلى مساقطهم ومواقمهم .

وحكى جماعة من المؤرخين أنهم كانوا في الزمن السالف عباد أصنام ومدبرى هياكل ، إلى أن ظهر دين النصرانية وغلب على أرض مصر فتنصروا وبقوا على ذلك إلى أن فتحها المسلمون في أيام عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فأسلم بعضهم وبقى بعض على دين النصرانية ، ومذهبهم مذهب اليعاقبة ،

وأما أخلاقهم فالعالم عليهم اتباع الشهوات . والانهاك في اللذات والاشتغال بالترهات ، والتصديق بالمحالات . وضعف المرائر والعزمات ، إلى غير ذلك مما حكاه أبو الحسين على بن رضوان^(١) في ذلك واتنصه وأورده من الأمور الطبيعية وموجبة وكفى به حكا منصفاً وشاهداً عدلاً .

وحكى الوصفى في كتابه الذى ألفه في أخبار مصر أن أهلها في الزمن السابق كانوا يعتقدون أن هذا العالم ، الذى هو عالم الكون والفساد أقام رهة من الدهور خالياً من نوع الإنسان . عامراً بأنواع آخر غير الانسان ، وأن تلك الأنواع مختلفة على خلق فاذا وهيات شاذة ، ثم حدث نوع الانسان فزاع تلك الأنواع فغلبها واستولى عليها ، وأقنى أكثرها قتلاً ، وشرد مابقى منها إلى القفار ، وأن تلك المشردة هي الفيالان والسعالى وغير ذلك ، مما حكاه من اعتقاداتهم المستحيلة ، وتصوراتهم الفاسدة . وترهاتهم النافرة ، إلا أنه يظهر من أمرهم أنه كان فيهم طائفة من ذوى المعارف والعلوم ، خصوصاً بعلم الهندسة والنجوم . ويدل على ذلك ما خلفوه من الأشغال البديعة المعجزة ، كالأهرام والبرابي ، فأنها من الآثار التى حيرت الأذهان الثاقبة واستعجزت الأفكار الراجحة ، وتركت لها شغلا بالتعجب منها ، والتفكير فيها .

وأى شيء أعجب وأغرب بعد مقدرات الله ومصنوعاته ، من القدرة على بناء جسم من أعظم الحجارة ، مربع القاعدة ؛ مخروط الشكل ؛ ارتفاع عموده ثلاثمائة ذراع ونحو سبعة عشر ذراعاً ؛ يحيط به أربعة سطوح مثلثات متساويات الأضلاع ؛ طول كل ضلع منها أربعائة ذراع وستون ذراعاً ؛ وهو مع هذا العظم من أحكام الصنعة وإتقانها ؛ في غاية من حسن التقدير بحيث لم يتأثر أبداً بعصف الرياح وهطل السحاب وزعزعة الزلازل ؛ وهذه صفة كل واحد من الهرمين المحاذيين للفسطاط من الجانب الغربى ؛ على ما شاهدناه منهما : وهما اللذان أراد أبو الطيب المتنبى بقوله : —

أين الذى بنى الهرمان من بنيانه ما قومه ؛ ما يومه ؛ ما المصرع
كنا نظن دياره مملوءة ذهباً فمات وكل دار بلقع
تختلف الآثار عن أربابها حيناً ويدركها الحراب فتتبع

(١) هو الطبيب المصرى المشهور ، راجع الفصل الأول .

. وافق أن خرجنا يوماً إليهما ؛ فلما أطفنا بهما واستدرنا حولهما أكثر تعجبنا منهما ؛ فتعاطينا القول فيهما .

وزعم قوم أن الأهرام قبور ملوك عظام ؛ آثروا أن يتميزوا بها على سائر الملوك بعد مماتهم ؛ كما عجزوا عنهم في حياتهم وتوخوا أن يبقى ذكرهم بسببها على تطاول الدهور وتراخي العصور .

ولما وصل الخليفة المأمون إلى مصر أمر بنقبتها ؛ فنقب أحد الهرمين المحاذين للفسطاط بعد جهد شديد ؛ وعناء طويل ؛ فوجدوا داخله مهاوى ومراقى يهول أمرها ويعسر السلوك فيها ؛ ووجدوا في أعلاها بيتاً مكعباً ، طول كل من أضلاعه نحو من ثمانية أذرع ؛ وفي وسطه حوض رخام مطبق ؛ فلما كشف غطاؤه لم يجدوا فيه غير رمة بالية ؛ قد أنت عليها العصور الخالية ؛ فعند ذلك أمر المأمون بالكف عن نقب مناسواه ويقال أن النفقة على نقبه كانت عظيمة والمؤونة شديدة .

ورأينا سطوح كل واحد من هذين الهرمين مخطوطة من أعلاها إلى أسفلها بسطوط متضائقة متوازية ؛ من كتابة بانها ؛ لا تعرف اليوم أحرفها ، ولا تفهم معانيها وبالجملة الأمر فيها عجيب .

وكذلك أمر البرابي ؛ كبريا الخميم ؛ وبربا سمود ، وبربا دندره . فان فيها من الإحكام وجودة الشبكل وحسن التصوير . ما يدل على أن عمارة ذوق عقول راجحة وأنه قد كانت لهم بالحكمة عناية بالغة . لاسيما بصناعتي الهندسة والنجوم .

والملك بمصر من قديم الزمان بمدينة منف ؛ وهي في غربي النيل ؛ على مسافة اثني عشر ميلاً من الفسطاط ولما بنى الاسكندر مدينة الاسكندرية منذ نحو ألف سنة وأربعمائة سنة وأربعين سنة ؛ رغب الناس في عمارتها وكانت دار العلم ؛ ومقر الحكمة ؛ إلى أن تغلب عليها المسلمون في خلافة عمر بن الخطاب رضوان الله عليه ؛ واختط عمرو بن العاص مدينته المعروفة (بالفسطاط) فانصرف أهل مصر وغيرهم من العرب والعجم إلى سكنها ؛ فصارت قاعدة ديار مصر ومركزها إلى وقتنا هذا .

فيقال أن من قدماء أهل العلم بها هرمس الثالث ؛ وكان فيلسوفاً جوالاً في البلاد ؛ طوفاً في المدائن ؛ عالم بنصبتها ؛ وطوالها وطبائع أهلها ؛ وله تصانيف جليلة مفيدة في فنون من الحكمة .

ومنهم ديوفنطس صاحب المقالات الموضوعة في علم العدد وخواصه على طريق الجبر والمقابلة . ومنهم الاسكندراني صنف كتاب الأفلاك وكتاب القانون في تقويم الكواكب . ومنهم روسم صاحب التصانيف في الكيمياء ومنهم انقلاءوس الاسكندري وأصحابه . الذين اختصروا كتب جالينوس في صناعة الطب . وألفوها على طريقة المسألة والجواب .

ومنهم واليس صاحب الكتاب المعروف بالبريدج الرومي ، المصنف في المواليذ وما يتقدمها من المدخل إلى علم أحكام النجوم ، ويقال أنه الذي استخرج بطول التحري ومواصلة العناء ، جدود المصريين .

فهؤلاء هم المشهورون من أهل الحكمة بمصر في ذلك الزمان ، وأما زماننا هذا فقد دثر منها كل عالم وأحى رسمه ، وجهل اسمه ، ولم يبق إلا رعاغ وغثاء وجهلة دشناء ، وعمامة عمياء ، وجلهم أهل رعاثة . ولهم خبرة في الكيد والمكر ، وفيهم بالفطرة قوة عليه وتلطف فيه وهداية إليه ، لما في أخلاقهم من الملق والسياسة التي أربوا فيها على كل من تقدم وتأخر ، وخصوا بالإفراط فيها دون جميع الأمم ؛ حتى صار أمرهم في ذلك مشهوراً والتثل بهم مضروباً .

وأما حال المنتسبين إلى العلم منهم فأنا ذاكر منها ما وقفت عليه ؛ وكشفت بالحنة عنه ؛ كنت في أول جاوسى بها شديد العناية بكتب جالينوس وبقراط ؛ باحثاً عن مشاكلها ؛ فاحصاً عن مستغلقها ، غرست كل الحرص ، وجهدت كل الجهد على أن أجد من أهل هذه الصناعة من أستفيد منه وأستزيد بهذا كرتة ، وأقدح خاطري بمفاوضته ، فلم أجد غير نوم طبع الله على قلوبهم وأعمى أبصارهم ، وطمس أفهامهم وحال بين الحكمة وبينهم

ومن ظريف ما سمعته أنه كان بمصر منذ عهد قريب رجل ملازم للبارستان يستدعى للمرضى كما تستدعى الأطباء ، فيدخل على المريض فيحكى له حكايات مضحكة وخرافات مسلية ، ويخرج لها وجوهاً مضحكة ؛ وكان مع ذلك لطيفاً في إضحاكه وبه خبيراً ، وعليه قديراً ، فإذا انشرح صدر المريض ، وعادت إليه قوته تركه وانصرف ، فان احتاج إلى معاودة المريض عادته إلى أن يبرأ ، أو يكون منه ما شاء الله .

فليت أطباء عصرنا هذا بأسرهم قدروا على مثل هذا العلاج الذى لا مضرة فيه ولا غائلة له ، بل أمره على الليلهين ، ونقيه ظاهر بين ، كيف لا وهو ينشط النفس ويبسط الحرارة الغريزية ، ويقوى القوى الطبيعية ، ويقوى البدن على دفع الأخلاط الردية المؤذية والفضول ؛ مع الاستظهار بحفظ الأصول . وأكثر أطباءها الميرزين . نصارى ويهود .

وايس فيها من النجمين إلا أبو الحسن على بن النضر المعروف بالأديب رضى الله عنه ، من أهل صعيد مصر الأعلى ، فإنه من الأفاضل الأعيان العدودين من حسنات هذا الزمان .

وأما الطائفة المغلدة التي حظها من المعارف القشور دون اللبوب ، والظواهر دون البواطن ، والأشباح دون الأرواح ، فأمثل من بها منهم الآن رجل يعرف برزق الله النحاس ، فإن له في فروع هذه الصناعة بعض دربة وتجربة ، وتجرباتها بعض خبرة ، وهو أكبر النجمين بها وكبيرهم الذى علمهم ، وأميرهم الذى يلودون به ، فجميعهم إليه منسوب ، وفي جريدته مكتوب ، وبفضله مترف ، ومن بجره مغترف ، وهو شيخ مطبوع يتطالب ويتخالع .

والمصريون أكثر الناس استعمالاً لأحكام النجوم وتصديقاً لها وتمويلها عليها وشغفاً بها وسكوناً إليها ، حتى أنه قد بلغ من زيادة أمرهم في ذلك إلى أن لا يتحرك واحد منهم حركة من الحركات الجزئية التي

لا تحصر فنونها ولا تحصل أجزاءها وأنحازها ، ولا تضبط جبهاتها ، ولا تقيد غاياتها ، ولا تعد ضروبها إلا في طوابع يختارونها ونصب يعتمدونها .

ولقد شهدت يوماً رجلاً من الواقدين في أتون الحمام ، يسأل رزق الله المذكور عن ساعة حميدة لقص أظفاره ، فتعجبت من سمو همته على خساسة قدره ووضاعة مهنته .

وأما الآن فإني ذاكر من لقيته من أدبائها وظرفائها ، وفضلائها في الأدب وعلمائها .

وأولاهم بالتقديم ؛ وأحقهم بالخط الأوفر من التنظيم « القاضى أبو الحسن على بن المستنصر » المعروف بالأديب ، ذو الأدب الجم والعلم الواسع ؛ والفضل البارع ، وله في سائر أجزاء الحكمة اليد الطولى ؛ والرتبة الأولى . وقد كان ورد الفسطاط يلتبس من وزيرها الملقب بالأفضل تصرفاً وخدمة نخاب فيه أمله وضاع رجاؤه وأخفق سعيه . وله في سفرته هذه ، وقد قوى بأسه في بلوغ أمله ونيل بغيته ، وعزم على العبور عن الفسطاط إلى مستقره ، يحض على الزهادة ويحرض على القناعة ويندم الضراعة ويتأسف على إذالة خده وإراقة ماء وجهه .

ومن شعرائها المشهورين أبو الطاهر بن اسماعيل بن محمد المعروف بابن مكنسة ، وهو شاعر كثير التصرف ، قليل التكلف . مفتن في وشى جد القريض وهزله ، وضارب بسهم في رقيقه وجزله .

ومن شعراء المصريين في زماننا هذا أبو مشرف الدجرجاوى وهو منسوب إلى دجرجا ، وهي ضيعة بالصعيد الأعلى .

ومنهم محمود بن ناصر الاسكندرى ، كاتب القاضى بن حديد ، وأبو نصر بن قاسم المعروف بالحداد ، من أهل الاسكندرية ، وأبو القاسم بن رشد المصرى .

آثار الفاطميين

١ - الأزهر

بعد ما وضع جوهر القائد أساس القاهرة شرع في بناء الأزهر في اليوم الرابع والعشرين من شهر جمادى الأولى سنة ٣٥٩ هـ (أبريل ٩٧٠ م) ، وتم بناؤه وفتح للصلاة في يوم الجمعة السابع من شهر رمضان سنة ٣٦١ هـ (يونيو ٩٧٢) . والجامع الأزهر يعتبر أقدم أثر باق للعمارة الفاطمية في مصر . ويمكن القول أن بناء الجامع الأصلي كان يتكون من رواق ذي خمس بلاطات تسير من الشمال إلى الجنوب ، وكان على الجانبين مئبناً وشمالاً ، رواقان من ثلاث بلاطات ، أما في الجهة المقابلة لحائط القبلة فكان بالرواق بلاطة واحدة ، ويتوسط رواق القبلة بلاطة رئيسية ، يسير من الصحن إلى القبلة وتقف البلاطات الخمس على جانبيه بمسافة قليلة . وشيدت قبة في الرواق الأول (من ناحية حائط القبلة) على عمدة المحراب والنبر .

وقد أدخل على بناء الأزهر زيادات كثيرة حتى أصبحت مساحته الآن حوالي ١٢ ألف متر مربع . وأول من زاد في بنائه الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله بن العزيز بالله سنة ٣٨٦ - ٤١١ هـ (٩٩٦ - ١٠٢٠ م) .

وجده المستنصر بالله معد بن الظاهر لإعزاز دين الله (١٠٢٦ - ١٠٩٣) وسار على خطه حفيده المنصور أبو على الأمر بأحكام الله . وإهتم بالجامع السلطان الظاهر بيبرس البندقداري ، فزاد في بنائه ، وأعاد إليه الخطبة التي كان قد أبطلها الأيوبيون .

وفي أعقاب الزلزال العنيف الذي خرب الأزهر (١٣٠٢ / ٣ م) ، قام الأمير سلال بتجديده وإعادة مآهده منه .

وفي سنة ٧٠٩ هـ (١٣٠٩ - ١٣١٠ م) بنى الأمير علاه الدين طيبرس الخازنداري نقيب الجيوش المدرسة الطبرسية التي على عيين الداخل من باب الزينين إلى الباب العمومي البحري للجامع المعروف الآن بباب قايتباي ، وبنى الأمير أقبغا عبد الواحد المدرسة الاقبغاوية سنة ٧٤٠ هـ (١٣٤٠ م) .

وفي عام ٨٠٠ هـ (١٣٩٧ / ٩٨ م) سقطت منارة الجامع ، فأعاد بناءها الظاهر أبو سعيد برقوق وأنفق عليها من ماله الخاص ، غير أن هذه المئذنة لم تدم طويلاً فقد سقطت في ٨١٧ هـ (١٤١٤ / ١٥ م) ثم في عام ٨٢٧ هـ (١٤٢٣ / ٢٤ م) وكان يعاد إصلاحها في كل مرة ،

ويعتبر الملك الأشرف أبو النصر قايتباي (١٤٦٧ - ١٤٩٦ م) المصلح الكبير للأزهر ، فقد أحدث

تجديداً ظاهراً في الجامع ، فأنشأ الباب البحري للجامع سنة ٨٧٣ هـ (١٤٦٨ - ٦٩ م) وشيد المئذنة الرشيقة الباقية إلى اليوم على عيني الباب المذكور ، وتعدت أعماله إلى رواق المغاربة وتورة المياه وعمل السياج (الحرط) الذي يفصل صحن الجامع عن الإيوان الشرقي الكبير ، وقيل أن رواق الأتراك ورواق الشوام من إنشائه أيضاً ، ولا يزال اسم قايتباي على أحد المحاريب وبعض الشبايك .

وهناك إصلاحات أخرى قام بها غير السلطان قايتباي في أيام المماليك الشراكسة . ففي سنة ٩٢٠ هـ (١٥١٤ م) جدد الجامع السلطان الغوري ، فأنشأ به مئذنة ذات رأسين بجوار مئذنة قايتباي ، فجاءت أكثر مآذن الجامع ارتفاعاً وأبدعها شكلاً .

أما إصلاحات الجامع في العصر العثماني فتشتمل على ما يأتي : —

ففي سنة ١٠٠٤ هـ (١٥٩٥ / ٩٦ م) جدد الشريف محمد باشا والي مصر الأزهر ورتب للطلبة والفقراء طعاماً يطبخ كل يوم ، وجدد الأمير اسماعيل القاسمي بن إيواظ (١٧٢٣ م) سقف الجامع وقد أشرف على السقوط وفي سنة ١١٤٨ هـ (١٧٣٥ م) أنشأ الأمير عثمان كتنخدا زاوية العميان وعمر رواق الأتراك ورواق السليمانية الأفغانيين ، وزاد في رواق الشوام .

وفي سنة ١١٦٧ هـ (١٧٥٣ م) قام الأمير عبد الرحمن كتنخدا (١٧٧٦ م) بإصلاحات كبيرة فزاد في سعة الجامع بمقدار النصف تقريباً ، إذ شيد مقصورة وأحسن تأثيثها ، وأقام قبلة للصلاة ، ومنبراً للخطابة وعمل صهريجاً للياه وشيد له قبراً دفن فيه ، وأنشأ باباً عظيماً وهو المشهور باب الصعايدة وبنى بأعلاه مكتباً له قناطر معقودة على أعمدة من الرخام لتعليم الأيتام ، وجعل بداخله رحبة متسعة وصهريجاً عظيماً وسقاية ، وبنى أمام مدفته رواقاً لمجاري الصعايدة النقطعين لطلب العلم ، وبنى بجانب باب الصعايدة مئذنة . ثم أنشأ باباً آخر جهة مطبخ الجامع وهو المعروف باب الشوربة ، وجعل أيضاً عليه مئذنة . وقد جدد المدرسة الطبرسية وجعلها من المدرسة الأقبغاوية المتعاقبة لها من باب الزينين الكبير الذي أنشأه خارجها وهو مؤلف من بابين عظيمين كل باب بمصراعين وجعل على يمينه مئذنة (أزيلت سنة ١٣١٥ هـ) وفوقه مكتب وبداخله ميضأة ، ووراء ذلك درج المنارة ورواق البغداديين والهنود . وقد جاء هذا الباب الكبير وما بداخله من المدرسة الطبرسية والأقبغاوية والأروقة من أجمل المباني وزاد في رواق الشوام ووقف عليه ، وجدد رواق المكين والتكروريين . الخ من أعمال الخير .

وحوالي عام ١٢١٠ هـ (١٧٩٥ م) بنى والي إبراهيم بك رواقاً للشراقة .

وفي سنة ١٢٢٠ هـ (١٨٠٦ م) بنى محمد علي رواقاً للسنارية .

وفي ١٢٧٩ هـ (١٨٦٢ م) جدد السيد أبو بكر راتب رواق الحنيفية والمسكن العلوية لرواق الحنابلة . وفي السنة ذاتها أمر الحدوي إسماعيل بهدم وبناء باب الصعايدة والمكتب الذي يعاوه ، كما أنه أصلح المدرسة الأقبغاوية وأصلح العقود التي تلي باب الشوام .

شاه

وفي عام ١٢٩٦ هـ (١٧٧٨ / ٧٩ م) جدد الخديو توفيق نحو ثلاث المقصورة القديمة مما يلي باب الشوام ، وأصلحت المدرسة الاقباوية التي تحتوى على مكتبة الأزهر .

وفي سنة ١٣١٠ هـ (١٨٩٢ / ٩٣ م) جدد صحن الأزهر وما يحيط به من البوائك ودرزينات المقصورة القديمة ، وأصبح باب الزينين وطرقته والمدرسة الطيرسية والأقباوية ، وأنشئت دار الكسب الأزهرية في المدرستين المذكورتين في عام ١٨٩٦ / ٩٧^(١) .

ومن أهم ما يذكر لإدارة حفظ الآثار العربية التي تشرف على صيانة هذا الأثر الجليل ، أنها كشفت سنة ١٩٣٤ المحراب الأصلي للجامع وكان محتجياً خلف محراب من الخشب يظن أنه عمل في عهد السلطان الظاهر بيبرس البندقدارى فأصلحت الزخارف الجصية للمحراب القديم .

ولالأزهر ثمانية أبواب : ففي الجانب الغربي الخارج إلى ميدان الأزهر بابان : باب الزينين والباب العباسي^(٢) وفي الباب الجنوبي باب المقاربة وباب الشوام وباب الصعايدة وفي الجانب الشمالي باب الجوهريّة ، وفي الجانب الشرقي باب الحرمين وباب الشوربة .

وتقوم فوق أسوار الأزهر وأبوابه خمس مآذن ، ثلاث من داخل باب الزينين مشرفة على صحن الجامع ، إحداها مثذنة الاقباوية ، عن يسار الداخل إلى الصحن واثنان عن يمين الداخل ، مثذنة قايتباي ومثذنة قانصوه العورى ، والمثذنة الرابعة بجانب باب الصعايدة والمثذنة الخامسة باب الشوربة ، وكلتا المنارتين الأخيرتين أنشأها الأمير عبد الرحمن كتحدا .

وحرم الأزهر ينقسم إلى رواقين : —

- ١ — الرواق الكبير وهو القديم ويلى الصحن ويمتد من باب الشوام إلى رواق الشراقة .
- ٢ — الرواق الجديد ويلى الرواق القديم ويرتفع عنه بنحو نصف ذراع ونصل إليه بدرجتين ، وسقف الرواقين من الخشب ، وترتكز الباليات على عمود من الرخام وهي من طرز مختلفة . أما الباليات المحيطة بالصحن فترتكز على أكتاف .

وكان بالأزهر سبع مزاويل: أربع في صحنه وثلاث جهة رواق معمر، وكان للجامع عشرة محاريب أزيل منها أربعة ، ففي الرواق الجديد محرابان . وفي الرواق القديم محراب واحد ويعرف بالقبلة القديمة . وفي متحف الفنون الإسلامية ، المحراب الذى أنشأه الخليفة الأمر سنة ٥١٩ هـ (١١٢٥ م) ولوح الخشب الذى كان يعاوه . وللجامع منبر من الخشب المخروط وهو حديث ، أما المنبر الأصيل القديم فقد نقل إلى جامع الحاكم^(٣) .

(١) راجع وصف الأزهر في تلك الفترة في الخطط التوفيقية ج ٤ ص ١٤ — ٢٦

(٢) أحدثته وزارة الأوقاف في عهد الخديو عباس الثانى

(٣) في مصر الاسلامية . من بحث للأستاذ يوسف مهران ص ١٣٠

٢ - جامع الحاكم بأمر الله

بدأ بناء هذا الجامع بأمر من الخليفة العزيز بالله نزار ثاني الخلفاء الفاطميين بمصر في رمضان ٣٨٠ هـ (١٩٩٠ م) ، وقبل أن يكمل بناؤه صليت فيه الجمعة في ٣ رمضان ٣٨١ هـ (نوفمبر ١٩٩١ م) ، ولما خلف الحاكم بأمر الله أباه العزيز ، أمر بإتمام بنائه (٢٩٣ هـ - ١٠٠٢ / ٣) ، وفي سنة ٤٠١ هـ (١٠١٠ / ١١ م) شيدت القاعدتان الهرميتان حول قاعدتي المئذنتين لتدعيمهما . وقد كمل بناء الجامع وفرش ، وصليت فيه الجمعة في الخامس من رمضان سنة ٤٠٣ هـ (٢٠ مارس ١٠١٣ م) .

وحينما شيد هذا الجامع كان يضم صحناً مكشوفاً يحيط به أروقة مسقوفة ، وفي ناحية المحراب خمسة أروقة تسير عقودها في موازاة جدار القبلة ، وفي كل من الجانبين ثلاثة أروقة تتجه عقودها عمودية على ذلك الجدار ، وفي الجهة البحرية رواقان تسير عقودهما في موازاة حائط المحراب .

ويتجلى جمال الزخارف الفاطمية وروعة الكتابة الكوفية في الإزار الجصي تحت السقف وفي بدني المئذنتين ، وفيما بقي من الشبايك الصغيرة برقة القبة التي تعلو المحراب ، ومع هذا كله فإنه أول جامع بمصر والقاهرة بنى بابه العمومي بارزاً عن الوجهة التي هو بها (١)

وللجامع تسعة أبواب ، خمسة منها في الوجهة ، واثنان في الجدار الشرقي ، وواحد في كل من الجدارين الغربي والقبلي ، أما النوافذ فقد ضاع معظمهما ولم يبق منها إلا اثنان في جدار القبلة على يسار المحراب .

وجامع الحاكم سجل معالمه يضم عناصر زخرفية كثيرة ، لاسيما زخارف المئذنتين ، فقد تفتن الصناع في ابتداع العناصر الزخرفية ، فمن الخط المستقيم ، أخرجوا الميقات والمخمسات والمسدسات والنجوم المتعددة الأضلاع ، ومن الخط المنحني ابتدعوا أشكالاً تنطق بمخدقهم (٢)

ولعل أهم الإصلاحات التي عملت بالجامع هي التي قام بها السيد عمر مكرم نقيب الأشراف (١٨٠٨ م) ، فقد جدد أربعة أروقة بالإيوان الشرقي وجعلها مسجداً للصلاة ، ثم كسا القبلة بالرخام ، ووضع بجوارها منبراً ، غير أن الجامع ما لبث أن تحزب ، فلم يبق منه إلا بعض عقود بالإيوانين القبلي والشرقي .

ولقد بذلت إدارة الآثار مجهوداً عظيماً في إصلاح هذا الجامع وصيانة بعض أجزائه وكشفت محرابه القديم وأعدت بناء القبة القبلية وكشفت وجهته الغربية وإظهار قاعدة المئذنة القبلية والكتابات حول قاعدتها وإصلاح مدخله العمومي وإظهار زخارفه وكتاباته . .

(١) محمود أحمد : دليل موجز لأشهر الآثار العربية ص ٦١

(٢) محمد عبد العزيز مرزوق : مساجد القاهرة قبل عصر المماليك ص ٧٨

٣ - مسجد الجيوشى

يقع هذا المسجد الصغير على حافة جبل المقطم خلف قلعة الجبل ، أمر ببنائه الوزير أمير الجيوش بدر الجمالى سنة ٤٧٨ هـ (١٠٨٥ م) وهو يشتمل على مقبرة . وكان أول مسجد بنى بالحجر بالقاهرة ، مشيد على شكل مستطيل مساحته ١٨ × ١٥ متراً ، وذلك بعد حذف الإضافة الخارجية ، يقع مدخله فى منتصف وجهته الشمالية الغربية ، وبأسفل المئذنة ويؤدى إلى ردهة مسقوفة بقبو نصف أسطوانى ، ويقع إلى جانبها الأيسر حجرة مربعة مسقوفة بقبو نصف أسطوانى تحتوى على خزان ماء ، وعلى الجانب الأيمن ، حجرة أخرى مربعة مفتوحة وبها سلم يؤدى إلى سقف الجامع .

تؤدى الردهة إلى صحن المسجد بواسطة قبو آخر مدبب ومساحة الصحن ٦٤٥ - ٦٠٥ متراً ، وعلى كل من جانبيه غرفة مسقوفة بقبو نصف أسطوانى ، وعلى الضلع الجنوبي الشرقى للصحن توجد وجهة إيوان القبلة ، ذات الثلاثة العقود يؤدى العقد المتوسط إلى ردهة أخرى طويلة ذات عقد متقاطع ، تنتهى بعقد ثلاثى آخر . يؤدى إلى القبلة التى توجد أمام المحراب . والتى يكتنفها من كل جانبها إيوان معقود بعقد متقاطع .

ومحراب المسجد يبلغ ارتفاعه ٣١٥ متراً . يشتمل على زخرفة جصية جميلة ، ويزين القبلة من أسفلها شريط من الكتابة الكوفية المزخرفة يسير حول رأس المربع المقامة عليه القبلة . وتقوم المئذنة فى منتصف الضلع الشمالى . ويبلغ ارتفاعها ٢٠ متراً وترتكب من قاعدة مربعة . تنتهى بقمرنص يعاونه مربع آخر ، فئمن يحمل قبة .

٤ - مسجد الصالح طلائع

يقع هذا المسجد على رأس تقاطع شارع الدرب الأحمر بقصبة رضوان ، أنشأه الصالح طلائع بن رزيك (٤٩٥ - ٥٥٦ هـ) وزير الفائز بنصر الله الخليفة الفاطمى . فكان آخر جامع أنشئ فى عهد الدولة الفاطمية وأجملها ولا سيما من ناحية تصميم وجهته الغربية .

يحيط بصحنه أواوين مرتبة على نسق أواوين المسجد الأقر ، فيتكون إيوان القبلة من ثلاثة أروقة ، ويتكون كل من الأواوين الثلاثة الأخرى من رواق واحد فقط ، وعقود هذه الأروقة محمولة على عمد من الرخام . والمسجد أربع جهات مبنية بالحجر أهمها كما قلنا الوجهة الغربية ، وبوسطها المدخل الرئيسى وقد اقيم أمامه رواق محمول على أربعة عمد رخامية وحليت عقوده بزخارف جميلة ، وقد حلى صدر هذا الرواق وجانباه بزخارف على شكل مروحة ، وتقتش بأفاريزه آيات قرآنية كتبت بالكوفية المزهرة .

أما المنبر الموجود بالجامع فقد صنع بأمر الأمير بكتمر الجوكندار سنة ٦٩٩ هـ (١٢٩٩ م) وكان قد جدد
مئذنته عقب سقوط مئذنته الأصلية بسبب زلزال ٧٠٢ هـ (١٣٠٢ - ١٣٠٣ م).

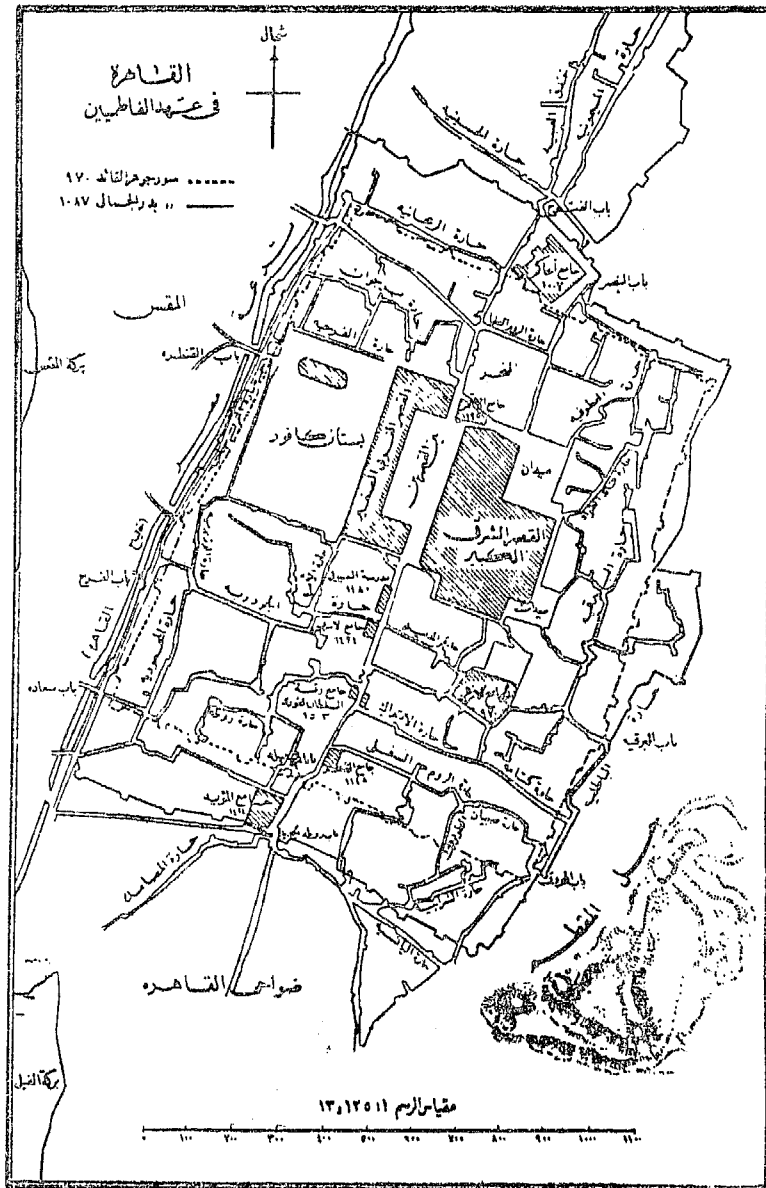
وقد حفظ المسجد كيانه حتى عام ٨٨٢ هـ (١٤٧٧) ، وأخذ يخرب تدريجاً حتى لم يبق منه عام ١٩٢٠
سوى إيوانه الشرقي ، ومن ثم عنت إدارة حفظ الآثار العربية بتجديده ، فأعدت بناء الإيوانات الثلاثة
الغربية والبحرية والقبلية ، وأصلحت المنبر والشبايك الجصية ؛ وتحفظت على الكثير من زخارفه وكتاباته
النادرة بالإيوان الشرقي . . ويمكن القول بأنها أعادته إلى سابق عهده .

٥ - جامع الأقر بالنحاسين

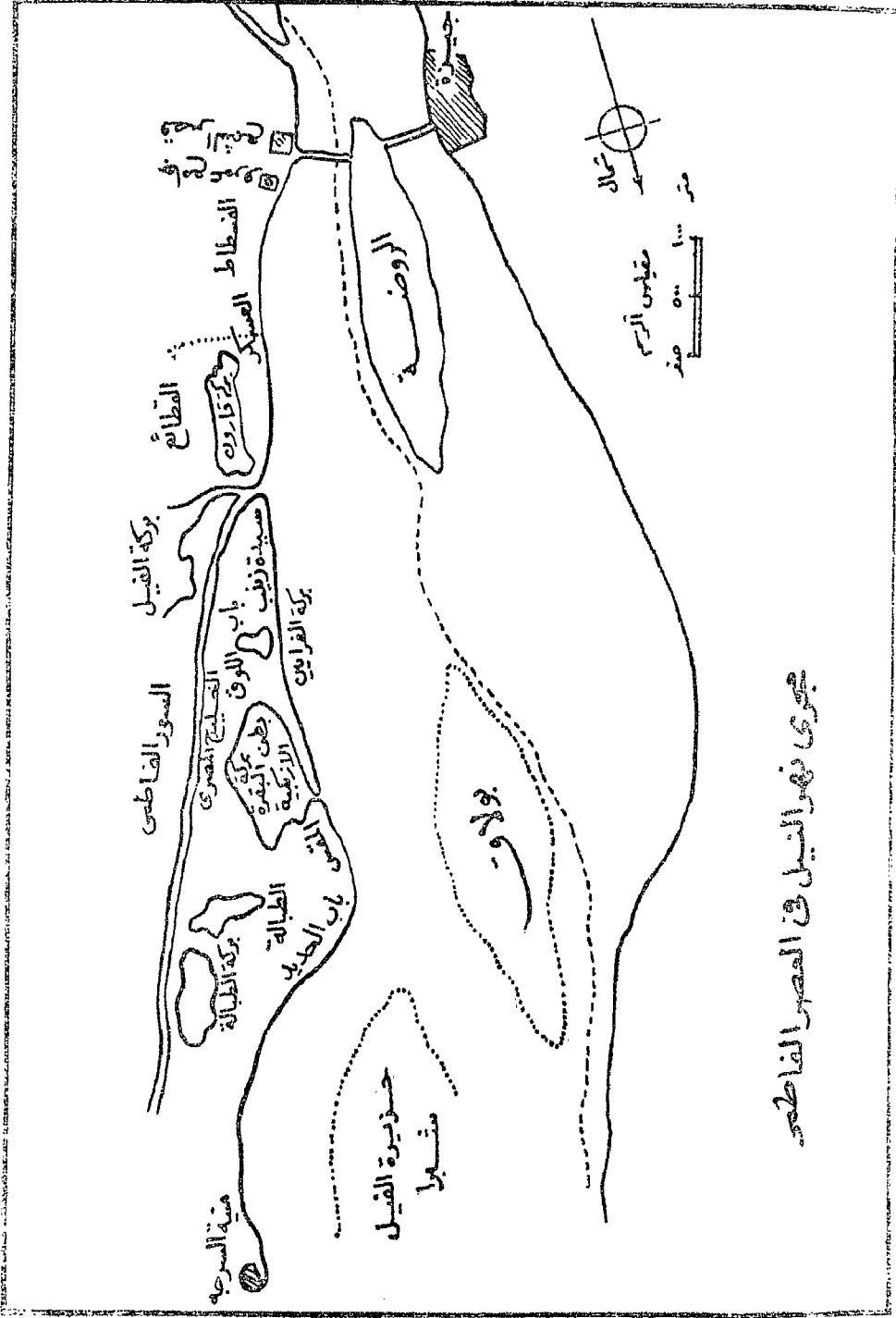
مسجد صغير لكنه تحفة فنية نادرة ! يحيط بمحيطه من جهاته الأربع أروقة مسقوفة ثلاثة منها في ناحية
القبلة، ورواق واحد في كل من الجهات الثلاثة الأخرى . ووجهات هذه الأروقة مكونة من ثلاث عمود
متصلة، يحملها في الزوايا الأربع للصحن دعائم أربعة ؛ وبين الدعائم في كل ناحية عمودان، أما العقود فهي من
النوع المحذب المعروف بالعقد الفارسي .

أنشأه الخليفة الأمر بأحكام الله أبو علي المنصور سنة ٥١٩ هـ (١١٢٥ م) وهذا الجامع من مفاخر
العائر الفاطمية ؛ وتعتبر وجهته الغربية وحيدة في طرازها بما احتوت عليه من القوش والكتابات الكوفية .

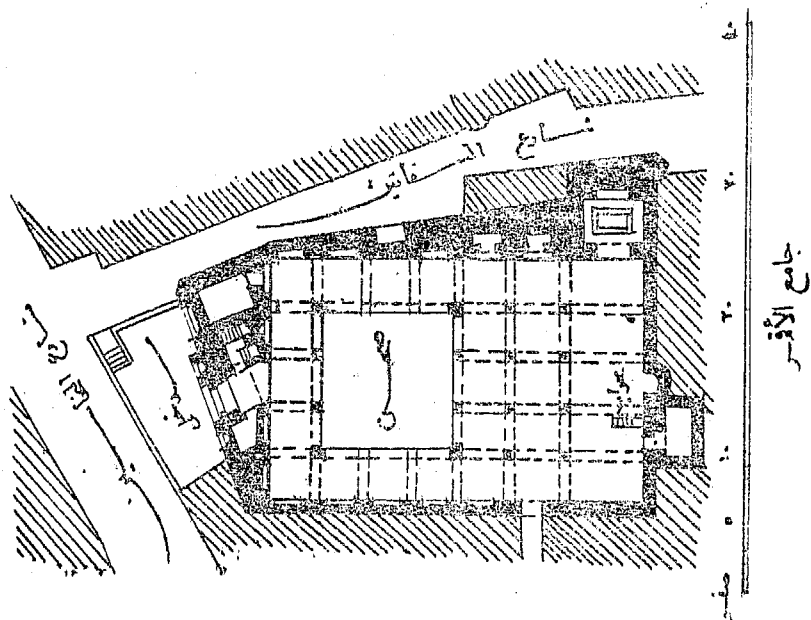
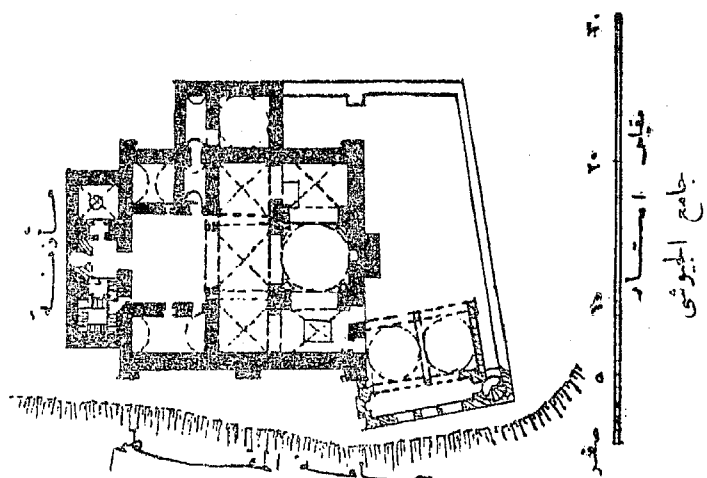
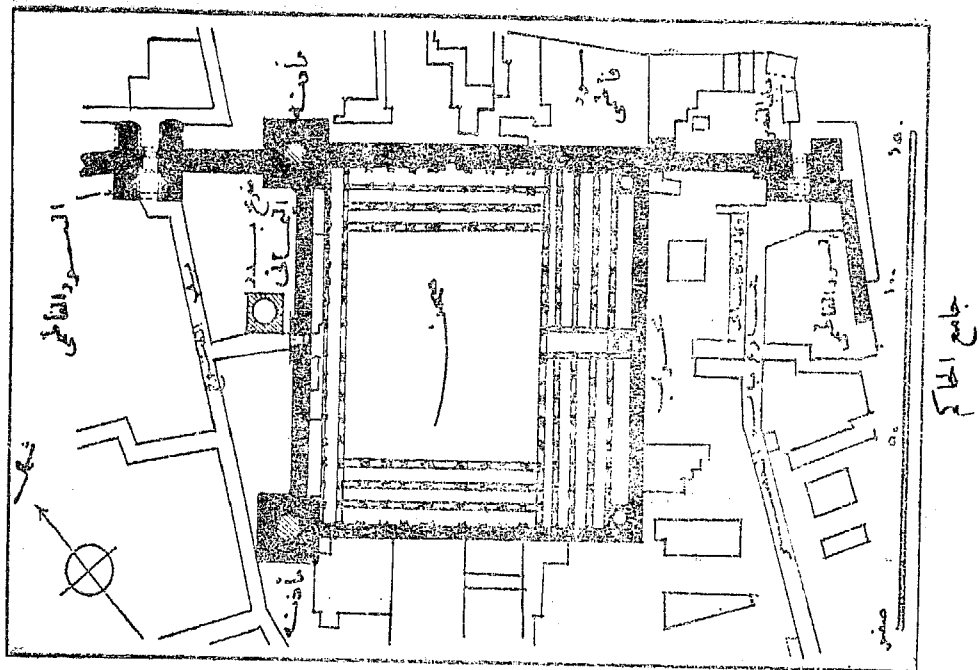
وقد جدد هذا الجامع برفوق سنة ٧٩٩ هـ (١٣٩٦ م) ، ثم عنت بإصلاحه إدارة حفظ الآثار ، فقوت
عمده وعموده، كما أنها تحفظت على زخارفه وكتاباته الجميلة . . .



٢ - القاهرة في عهد الفاطميين



مجموعى نهرو النيل فى العصر الفاطمى



الفصل الثالث

القاهرة في أيام الأيوبيين

ص ١١٦٩ إلى ١٤٥٠

كانت القاهرة في مستهل القرن الثالث عشر مدينة تتميز عن ذلك الممر الملكي الفاطمي ، وأضحت تشغل مساحة أوسع ، فاحتوت على عدد كبير من المباني ذات طابع هندسي مستحدث ، وصارت لها قلعة تشرف عليها فوق جبل المقطم . وقد كان الفضل في هذه الإنجازات لصلاح الدين ، غير أنه لم يعش ليراها تتم أثناء حكمه . ولكي نبث بالتفصيل الأسباب التي أدت إلى فتح مصر على يد ملك بيت المقدس الصليبي ثم طرد الفرنجة بفضل جيوش نور الدين ملك دمشق ، علينا أن نستعين بالتاريخ .

إننا أمام قوتين متعادلتين : الأولى الملكة اللاتينية في بيت المقدس ، والثانية الدولة السلجوقية في دمشق . والاثنان في كفتي ميزان متعادلتين ، فلاستطيع إحداها أن تقهر الأخرى . وكانت مصر مفتاح الموقف ، فلو استطاعت إحدى القوتين الاستيلاء على وادي النيل لكانت السيادة لها .

وكان من الطبيعي أن تتحالف الدولتان المسلمتان في دمشق والقاهرة لتهزم الفرنجة ، لولا اختلاف المذهب الديني بينهما . فقد كانت الأولى سنية والثانية شيعية . ولم تجدد المفاوضات السياسية بينهما نفعاً حتى وصلت الجيوش الصليبية إلى الأراضي المصرية ودخلت القاهرة ، وإذ ذلك تغلبت على نور الدين روح التقوى الدينية فتدخل في الأمر . وكان بدء التدخل نتيجة للنزاع الذي نشأ بين الوزيرين المتنافسين في مصر ، فقام أحدهما وهو ضرغام وطرد منافسه شاور الذي استنجد بنور الدين . وفي الوقت نفسه رأى ضرغام أن يتحد مع ملك بيت المقدس « عموري » وكان هماً قد جمع جموعه واستولى على الأراضي المصرية مطالباً بالجزية التي اعترف بها الفاطميون في أثناء ضعفهم .

وفي عام ١١٦٤ م / ٥٥٩ هـ عاد « شاور » يصحبه جيش سوري يقوده « شيركوه » ومعه ابن أخيه صلاح الدين ، فهزم ضرغام في بليس ، وسارت الجنود الظافرة إلى القاهرة حيث أراد ضرغام أن يصد هجوم شيركوه ، ولكن هذا وشاور كانا قد استوليا بجنودهما على مصر ، وقد كان ضرغام عربياً باسلاً ، له منزلة سامية عند مواطنيه وحارب الصليبيين في غزة وكان قائداً لفرقة البرقية ، إحدى فرق الجيش الفاطمي . وقد أضع كل أموال الوقف لقضاء مآربه السياسية والعسكرية ، فأنقض من حوله أعوانه وتخلي عنه الخليفة وكانت آخره ضرغام على يد شعب القاهرة إذ ثار عليه فقطع رأسه قرب مشهد السيدة نفيسة (وفي رواية أخرى بالقرب من باب زويلة) ، وتم النصر لشاور منافسه ، بينما تركت جثة ضرغام تنهشها الكلاب .

على أن شاور لم يكذب يتخلص من منافسه حتى بدأ يحيك مؤامرة للتخلص من اليهود التي اتفق عليها مع شيركوه ومن معه ، فأرسل إلى عموري ملك بيت المقدس يطلب منه المساعدة لطرد السوريين . وكان هذا لا يستطيع رفض ذلك الطلب ، إذ كان يتطلع إلى امتلاك مصر ، فلما بلغت دعوة شاور اقتنصها فرصة وأيقن من ضم المصريين إليه .

وتطاحن الجيشان بالقرب من بلبيس ثم انتهى الأمر بالصلح ، على أن تخرج الجيوش الصليبية و جيوش شيركوه من مصر . وكان خروج جيش شيركوه من بلبيس في أكتوبر سنة ١١٦٤ م — ٥٥٩ هـ يشبه النصر . وكانت هذه الإغارة الصغيرة من جانب شيركوه ونور الدين فاتحة لاحتلال مصر فيما بعد .

عادت الجنود السلجوقية إلى دمشق بعد أن لسوا مواطن الضعف في الحكم الفاطمي ، وهون قواد الحملة السورية لنور الدين أمر فتح مصر وإعادتها لسلطانهم وبينوا له أهميتها ، وكان السلطان على حذر من تنفيذ مآربه ، ولكنه لما رأى الدسائس دائرة بين عموري وشاور جهز في الحال حملته الثانية على مصر .

ولما علم نور الدين أن الصليبيين ينوون غزو مصر جهز حملته التي وصلت إلى شرق النيل عند أطفيح في أوائل سنة ١١٦٧ م — ٥٦٢ هـ وعبرت إلى البر الغربي من هناك ، وكان جيش عموري قد وصل وانضم إلى جيش شاور .

وبعد حين كان أحد الجيشين عند القسطنطينية وهو جيش مصر وحلفائها الفرنج ، والآخر وهو الجيش السوري عند الجزيرة في البر الغربي . واستولى عموري على القاهرة وأمضى معاهدة مع الخليفة العاضد الذي أقسم على إعطاء الفرنج مائتي ألف دينار عاجلاً ومثلها آجلاً ثمنا لمساعدتهم .

أما « شيركوه » فتقهقر إلى مصر العليا حتى بلغ « البابين » في جنوب النيا ، وهناك حطم الجيش المصري وهزم جيش الفرنج ، ولم يجرؤ « شيركوه » على اللحاق بأعدائه لقلة عدد جنوده . فلما انتهى من معارك الصعيد أرسل صلاح الدين إلى الاسكندرية فثبتت مدة طويلة أمام جنوده وأخيراً وقعت في يده بعد ٧٥ يوماً .

إنتهت الحرب ، وعادت الجيوش إلى سوريا وفلسطين وترك الفرنج مقيماً لهم في القاهرة ، وأبقوا منهم حراساً على أبواب القاهرة وضربوا جزية نحو مائة ألف دينار كل عام ، وتركوا حامية منهم في مسجد الحاكم ثم رحلوا عن مصر وقد عرفوا مواطن الضعف فيها . فلما عادوا إليها بعد نحو سنة من إمضاء المعاهدة كانوا قد وطدوا العزم نهائياً على ضمها إلى أملاكهم .

ولم يلبث المصريون أن عرفوا نيتهم فالتفت جماعة منهم حول الخليفة العاضد وأكثرهم من أعداء شاور ، وأرسلوا إلى نور الدين ليأتي لمساعدة المصريين على أعدائهم ، وكان ينتظر هذه الفرصة ، فأخذ يعيء جيشاً لغزو مصر للمرة الثالثة .

وصل شيركوه وصالح الدين إلى مصر في أوائل يناير سنة ١١٦٩ م — ٥٦٤ هـ ، وكان عموري ملك الفرنج عند وصول جيش نور الدين واقفاً يستنجز شاور وعده في المال المتفق عليه . فلما وصل جيش نور الدين ورأى عموري موقفه الحرج وهو بين شاور من جهة والجيش الإسلامي المغير من جهة أخرى ، لم يستطع البقاء وتخلّى في الحال عن البلاد المصرية عائداً إلى فلسطين . أما « شاور » فحاول استمالة « شيركوه » بالملق والمداهنة فلم يفلح ، وقبض عليه صلاح الدين ثم أمر الخليفة العاضد بقتله وطلب رأسه ، فأطيع أمر الخليفة وتخلصت مصر من رجل داهية لعب دوراً عظيماً في السياسة المصرية في القرن الثاني عشر .

واختار الخليفة العاضد بعد قتل شاور ، القائد أسد الدين شيركوه ليكون وزيراً محمله ولقبه الملك المنصور وجعله أميراً لجيوشه ، غير أنه مات بعد شهرين وخمسة أيام ، فعمد الخليفة إلى اختيار صلاح الدين ليحل محله في الوزارة فتقلدها في عام ١١٦٩ م .

صلاح الدين الأيوبي

أصبح صلاح الدين وزيراً لمصر وأميراً لجيوشها ولقب بالملك الناصر . كان صلاح الدين في منصبه الجديد هذا وزيراً للخليفة العباسي ، وفي الوقت نفسه كان والياً من قبل ملك دمشق السني ، ولذلك كان موقفه حرجاً ومبهماً ؛ ومع هذا استطاع أن يعضى عامين موقفاً في منصبه ، وكأنه كان على علم تام بأن الدولة الفاطمية آيلة إلى الزوال .

واتفق أن مرض العاضد واحتجب في قصره ، فرأى صلاح الدين الفرصة سانحة لإلغاء الخطبة العلوية بمصر وقام بالخطبة للخليفة العباسي رجل أعجمي عرف بالأمر العالم ، فلم يحدث استنكار من الناس ، فأمر صلاح الدين الخطباء جميعاً بأن يلغوا خطبة العاضد ، ففعلوا وتم الانقلاب بدون حادث ولم يعلم العاضد بذلك الانقلاب لاشتداد وطأة مرضه حتى توفي يوم عاشوراء . ولما توفي جلس صلاح الدين للعزاء واستولى على قصر الخلافة وما فيه فحفظه « بهاء الدين قراقوش » وكان قد عينه وزيراً قبل موت العاضد ، ثم ألقى القبض على جميع من بقي من الأسرى الفاطمية واعتقلهم في مكان بعيد عن قصورهم الزاهرة التي وزعها على أمراء جنده وباع بمالك العاضد وعبيده وفرق بعضها بين أرباب دولته — ووضع صلاح الدين يده على المكتبة النفيسة وقد بلغت مجموعتها ١٢٠٠٠٠ كتاباً نفيساً ومنحها لمستشاره العالم القاضي الفاضل . ويقال أن قسماً من هذه المكتبة محفوظ الآن في مكتبة ليدن بهولندا .

قضى صلاح الدين معظم حياته في خارج مصر . ومن الأربع والعشرين سنة ، وهي فترة حكمه ، حاكماً مستقلاً — يدخل فيها الخمس سنوات الأولى التي خضع في أثناءها لنفوذ نور الدين — لم يقض منها سوى ثمانية

أعوام في القاهرة . أما بقية سفي هجده . فإننا نجد منتقلا فيها في الشام وأرض الجزيرة وفلسطين . ولما ترك صلاح الدين القاهرة في ١١ مايو عام ١١٨٢ م / ٥٧٨ هـ واجتمع كبار رجال دولته لوداعه وقف الجميع بالقرب من بركة الحبش وعزفت الموسيقى دور الوداع الأخير . وكان بين الحاضرين معلم لبعض أولاده فأخرج رأسه من بين الصفوف كأنه يودع السلطان وقال البيت المشهور :

تمتع من شميم غرار نجد لما بعد العشية من غرار

فتشاءم صلاح الدين واعتم المجلس وقد صدق ذلك الفأل ، فلم يعد صلاح الدين وغزا أرض البرات وضم إلى دولته سلطنة دمشق بعد موت نور الدين وانتصر انتصاره الحالد في معركة حطين ، وقد ضرب الصليبيين وأعاد بيت المقدس لسلطان المسلمين والمسيحيين ، وأخضع البلاد المقدسة لكلمته واستمر نضاله الطويل ضد الاتحاد المسيحي الأوربي حول عكا وغيرها ، واشتهر اسمه وعرفته أفواه ملايين الناس في أوربا منافسا قويا لريتشارد « قلب الأسد » . وأخيرا بعد هجومه النهائي على يافا وارتماده بالفشل تم صلح الرملة ونص فيه على أن يحتفظ الفرنج بالساحل من عكا إلى يافا ؛ وأن يسمح للحجاج أن يزوروا بيت المقدس ؛ وأن تخرب عسقلان ويكون الساحل من بدايته إلى الجنوب لصلاح الدين .

ومات صلاح الدين في (٢٧ صفر سنة ٥٨٩ / ٤ مارس سنة ١١٩٣ م ودفن في دمشق تاركا دولة إسلامية واحدة تمتد من الدجلة إلى النوبة إلى برقة ، بينما كان الأفرنج محصورين على الساحل في رقعة ضيقة بين عكا ويافا .

إمتداد القاهرة

على الرغم من قصر الفترة التي قضاها صلاح الدين في القاهرة ، لم يترك واحد من حكامها مثل ما خلفه هذا السلطان العظيم من آثار لاتزال باقية ؛ فله وحده تدين عاصمة البلاد بشكائها واتساع نطاقها إلى درجة لا تقل كثيرا عما هي عليه الآن ؛ وأهم تلك المظاهر التي خلفها قلعة الجبل التي كانت من ابتداعه ؛ وهو الذي أدخل إلى مصر التصميم المعمارى المعروف (بالمدرسة) وقد أحدث الكثير من هذه التغييرات في أثناء وجوده في القاهرة ، ونفذ معظمها قواده ورجال دولته وأفراد أسرته الذين كان ينتدبهم للقيام بتلك المشروعات الكبيرة ، بينما كان يجاهد في سبيل الاسلام والمسلمين . وكانت معظم مشروعاته أعمالا دفاعية لحماية البلاد بينما تؤدي من ناحية أخرى الأغراض الدينية . وكانت القلعة من المجموعة الأولى وكذلك سور القاهرة الجديد والسد العظيم .

واكتفى الحكام المصريين الذين سبقوا صلاح الدين ببناء ضاحية أو مقر ملكي يبعد ميلا أو أكثر إلى جهة الشمال بشرق . ومدينة القاهرة الفاطمية وضمت في الأصل لتكون دار الخلافة وقصراً للخليفة وحرمه وجنده وخواصه ، وسكن صلاح الدين القاهرة ، فوجدها خاوية فأباح للعسكريين وكل من استطاع

البناء أن يعمر ماشاء في القاهرة مما خلا من فسطاط مصر ، فأخذ الناس ما كان هناك من أنقاض الدور وغيرها وعمروا بها المنازل في القاهرة وسكنوها ، فسكنها أصحاب السلطان . وهكذا رأينا صلاح الدين ، الرجل الذى جعل من القاهرة عاصمة للبلاد . وأقام في دار الوزارة الكبرى حتى بنيت قلعة الجبل فكان يتردد عليها ، وكذلك فعل ابنه الملك العزيز عثمان وأخوه الملك العادل أبو بكر ، فلما كان الملك الكامل ناصر الدين بن أيوب تحول من دار الوزارة إلى القلعة وسكنها .

رأينا أن صلاح الدين لم ينسج على منوال من سبقوه في الحكم وأقام ضاحية ملكيه على مثال « القعاطع » أو « فرماى » بل عمل شيئاً جديداً ، فقد رأى أن يضم تلك الضواحي ببناء سور حولها ثم يتوجها بقلعته الشهيرة فوق جبل المقطم . وكانت مدينة مصر بعد أن حرقها « شاور » تحاول النهوض من رمادها وبقاياها لتجدد شبابها فوجدت من يأخذ بيدها لينهض بها . كذلك رأى صلاح الدين أن يجمع معها تلك النواحي المبعثرة ضمن الضواحي الحربية ، ويضم إليها ميناء المقس ثم يلتف السور حولها . وقرر أن يكون بناء السور من الحجر وأن يدور الجلى إلى المقس من ناحية الغرب وإلى تلال المقطم من ناحية الجنوب ، ثم يلتف عند بقايا مدينة الفسطاط القديمة حتى يحس النيل تقريباً .

ولم يتم هذا المشروع العظيم لأن صاحبه شغل عنه بمحملاته العسكرية في الشام ، ولا نشك مطلقاً أن وزيره في القاهرة كان مشغولاً عنه أيضاً بتعبئة الرجال المدربين للقتال وتدير المال اللازم لتجهيزهم ، فلم يتم إلا ببناء ما احتاجت إليه الدولة . ومن المحتمل أيضاً أنه أعاد النظر في فكرته أو لمح إليه أحد رجال الدولة بعدم فائدة تشييد سور يضم مدينة محترقة كصر . فيوفر للدولة تلك التكاليف الباهظة التى تقتضيها عدة أميال من الأسوار الحجرية المتينة البناء .

السد العظيم

كان من أهم أعمال صلاح الدين الدفاعية بناء السد العظيم على الضفة الغربية للنيل عند الجزيرة ويعد عن مصر سبعة أميال . وقد وصف الرحالة ابن جبير هذا السد بأنه مشروع عظيم لا يقدم عليه إلا ملك متنور ساهر على أحوال رعيتيه وبلاده ، وقد قال عنه أنه يحتوى على أربعين عقداً من أكبر الأحجام التى شاهدها للتناظر ذات العقود، وكان على امتداد الجسر المرتفع المقابل لمصر بعد ستة أميال منه . ولاشك أن بناء مثل هذا السد كان لسبب عسكري هام فكر فيه صلاح الدين ، فانه لم ينس تاريخ غارات الفاطميين المتوالية على مصر من ناحية الصحراء الليبية حيث كان المغيرون يتقدمون سيرا حتى يصلوا إلى شاطئ النيل بدون أن يقف في سبيلهم ما يعرقلهم من الحصون أو الجسور . ولهذا رأى صلاح الدين أن يتحصن بإقامة هذا السد العظيم ، ويذكر ابن جبير أيضاً أن صلاح الدين خشى هجوماً يقوم به الموحدون بعد أن أخضعوا لسلطانهم المغرب وجنوب الأندلس واستولوا على الجزائر وطرابلس في عام ١١٥٨ ، حتى وصلت سطوتهم إلى حدود مصر من الناحية الغربية بزعامة القائد عبدالمؤمن . فاحتاط صلاح الدين لما قد يحدث من جانبهم .

قلعة صلاح الدين

ولم تكن أسوار صلاح الدين إلا صورة منقحة لأسوار بدر الجمالي ، أما القلعة فكانت فكرة مبتكرة ويحتمل أن يكون الباعث لصلاح الدين على إقامتها بغضه الشديد لخلفاء الفاطميين الشيعة ولقصورهم التي سكنوها ، فقد لانك إذا قلنا أن صلاح الدين على الرغم من قصر مدة إقامته في القاهرة رغب في أن يجعل القلعة مقراً لسكناءه . ولكي نفسر كيف أراد أن يشيدها كقلعة للدفاع ، نعود إلى حملات صلاح الدين في سوريا حيث لا تخلو مدينة سورية من قلعتها . فنظر بعينه العسكرية ورأى حاجة القاهرة إلى قلعة تحميها فتتمت مشيئته .

وهنا نقل ما كتبه عماد الدين كاتب السلطان صلاح الدين قال :

« كان السلطان لما ملك مصر رأى أن مصر والقاهرة لكل واحدة منها سور لا يحميها ، فقال : إن أفردت لكل واحدة سورا احتاجت إلى جند كثير يحميها وإنى أرى أن أدير عليها سوراً واحداً من الشاطئ ، وأمر ببناء قلعة في الوسط عند مسجد سعد الدولة على جبل المقطم » .

اختار السلطان صلاح الدين المكان لاقامة تلك القلعة التي تحمى القاهرة على ارتفاع لا يقل عن ٢٥٠ قدماً ولو أنه كان من ورائها على الجبل مواقع أعلا تحمى موقع القلعة وتشرف عليها بنيرانها فإننا لانسى مكانة الأسلحة الحربية القديمة بجانب الأسلحة الحديثة ، والنتيجة لا تجعلنا نبخس المهندسين العسكريين في القرن الثاني عشر حقهم من الكفاءة والمقدرة في فن العمار ، فان عملهم لا يزال واضحاً للعيان في القرون العشرين .

وأمر صلاح الدين بتنفيذ مشروع بناء القلعة في عام ١١٧٧ وأقام على عمارتها الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدي الخصى أحد أمراءه المخلصين .

ولم ينقض على العمل ست سنوات حتى نقش على الباب المدرج في الجدار الغربي من القلعة ما تقرأه إلى يومنا هذا :

« بسم الله الرحمن الرحيم . أمر بإنشاء هذه القلعة الباهرة المجاورة لمحرسة القاهرة التي جمعت نفعا وتحسينا وسعة على من التجأ إلى ظل ملكه وتحصينا ، مولانا الملك صلاح الدنيا والدين أبو المظفر يوسف ابن أيوب محيي دولة أمير المؤمنين على يد أمير مملكته ومعين دولته قراقوش بن عبد الله المالكي الناصري في سنة تسعة وسبعين وخمسمائة » . (أى في عام ١١٨٣ - ١١٨٤ م) .

ولكي يشيد صلاح الدين القلعة هدم عددا كبيرا من الأهرام الصغيرة التي كانت بالجيزة تجاه مصر وكانت كثيرة العدد ، ونقل ما وجد بها من الحجارة وبني به السور والقلعة وقناطر الجيزة وهدم ما وجده

في موقع البناء من المساجد وأزال القبور . وقام بأكثر أعمال نحت الأحجار الأخرى الفرنج الذين أسرم صلاح الدين في معاركه — ولقد زار السائح الأندلسي ابن جبير القاهرة في عام ١١٨٣ فشهد الأعمال يقوم بها الأخرى الفرنج وكان عددهم وفيرا جدا .

مات صلاح الدين قبل أن ينتهي بناء القلعة فأهمل العمل مدة ، إلى أن كانت سلطنة الملك الكامل محمد ابن الملك العادل ، فأتم بناء القلعة وما يرحب يسكنها حتى ماتت فاستمرت من بعده دار مملكة مصر حتى عام ١٨٥٠ - ولقد طرأت على مبانيها تغييرات وإضافات متعددة ، ولا ترى فيها اليوم من أعمال صلاح الدين الأولى سوى بعض أجزاء السور والأبواب .

لقد كان لبناء القلعة ومد السور حول المدينة أثر كبير على امتداد العمران في القاهرة الأيوبية ، ذلك لأن تركيز الإدارة الحكومية ومصالح الجيش في القلعة جعل القاهرة تنمو ونما جديدا من ناحيتها الجنوبية ، حتى تم الاتصال بينها وبين القسطنطينية والعسكر والقطائع ، وبخاصة بعد إنشاء المدارس الجديدة بالقرب من قبة الإمام الشافعي وجامع عمرو بن العاص . كما أن امتداد السور الجديد إلى النيل من ناحية القاهرة الشمالية جعل من اليسير أن تنمو القاهرة كذلك في هذا الاتجاه ، ولكل هذا ازدهر العمران بالقاهرة الأيوبية وأنشئت في الأحياء الجديدة ، الدور العالية والحمامات الشعبية والأسواق العامة وحاقت الصوفية ...

سور القاهرة

ابتدأ صلاح الدين عمارة السور الثالث للقاهرة سنة ٥٦٦ هـ / ١١٧١ م ، وهو يومئذ وزير الخليفة العاضد لدين الله ، وفي عام ٥٦٩ هـ / ١١٧٤ م انتدب بهاء الدين قراقوش الأسيدي لعمل السور فبناه بالحجارة كما هو عليه الآن ، وأراد أن يجعل على القاهرة ومصر (مصر القديمة) والقلعة سوراً واحداً ، فزاد في سور القاهرة الجزء الممتد من باب القنطرة إلى باب الشعرية ، ومن باب الشعرية إلى باب البحر ، ومن قلعة المقس في نهاية السور البحرى على النيل بجانب جامع المقس ، وانقطع السور من هناك وكان أمله أن يعد السور من النيل إلى أن يتصل بسور مصر (مصر القديمة) ثم زاد في سور القاهرة الجزء الذى يلي باب النصر إلى برج الظفر ، ومن هذا البرج إلى باب البرقية ، ومنه إلى درب بطوط وإلى خارج باب الوزير ليتصل بسور قلعة الجبل ، فانقطع لوفاة صلاح الدين (١) من مكان يقرب الآن من الصوة تحتم القلعة .

وقد ذكر المقرئى أن طول السور المحيط في أيامه بلغ ٢٩٣٠٢ ذراعاً (بذراع العمل) وهو الذراع الهاشمي .

شرع صلاح الدين في سنة ٥٦٦ هـ / ١١٧١ م في بناء السور الغربى لقااهرة على الحافة الشرقية للخليج المصرى في محاذة سور بدر وسور جوهر وعلى بعد قليل منهما إلى جهة الغرب . وأقام صلاح الدين فعلا قطعة من السور الغربى وهى الممتدة من النهاية الغربية لسور بدر الجمالى البحرى ومتجهة نحو الجنوب إلى باب القنطرة الذى انشأه صلاح الدين فى السور الغربى المذكور تجاه باب القوس (وكان يعرف بيساب المراجين) .

ثم رأى أن يزيد فى سور المدينة البحرى ويمده إلى الغرب ثم يبنى سورها الغربى على النيل بدلا من الخليج ، وذلك لكي يدخل فى السور القسم الذى استجد خارج القاهرة فى الجهة الغربية منها بين الخليج والنيل ، ولكي ينفذ هذا المشروع أوقف بناء السور الغربى على الخليج بعد باب القنطرة .

وفى سنة ٥٦٩ هـ / ١١٧٤ م شرع بهاء الدين قراقوش فى مد السور البحرى من باب الشعرية إلى باب البحر بالمس وآمنه فملا ، وأراد أن يبنى السور الغربى للقااهرة على النيل من باب البحر إلى فم الخليج ليوصل سور القاهرة بسور مصر القديمة ، ولكن وفاة صلاح الدين حالت دون ذلك .

وقد اندثر أغلب سور صلاح الدين والباقي منه مبين على خريطة القاهرة الحالية فى الجهات الآتية :

أولا : أن القطعة التى كان قد أنشأها صلاح الدين فى السور الغربى من السور البحرى إلى باب القنطرة فى محاذة الخليج هذه القطعة هدم أغلبها ولم يبق منها إلى وتتنا هذا إلا قطعة طولها ١٢٠ مترا وكانت ممتدة من النهاية الغربية للسور البحرى ثم تسير جنوبا فى محاذة حارة المسطاحى ، ولما فتح شارع الأمير فاروق (شارع الجيش) فى سنة ١٩٣٠ هدمت هذه القطعة ودخلت أرضها فى امتداد الشارع المذكور ولم يبق منها إلا جزء صغير طوله نحو عشرة أمتار وحافظت إدارة حفظ الآثار العربية على هذا الجزء للإرشاد إلى موقع السور القديم .

ثانياً : أن السور البحرى الذى كان ممتدا بين باب الشعرية - الذى يعرف الآن بباب المدوى - وبين باب البحر الذى يعرف الآن بباب الحديد بميدان باب الحديد كان قائماً إلى زمن دخول الفرنسيين مصر سنة ١٧٩٨ - وبعد ذلك اعتدى الأهالى على هذا السور فهدموا معظمه ولم يبق منه إلا بعض أجزاء لاتزال قائمة بلصق المساكن ومبينة على خريطة القاهرة الحالية ، مقطعة من الشرق إلى الغرب إلى قطع من السور ممتدة بين المساكن الواقعة فى المنطقة التى تحدد اليوم من الشمال بسكة القجالة وشارع النجالة ، ومن الجنوب بشوارع بين الحارات والشمبكي والطلبة ، ومن الشرق بميدان المدوى وفى هذا الميدان كان موقع باب الشعرية ويليه إلى جهة الغرب الأجزاء الباقية من السور المذكور .

ثالثاً : السور البحرى الذى فيه باب الفتوح وباب النصر سبق أن تكلمنا عليه فى السور الثانى ، وفى أيام صلاح الدين تجدد بناء بعض الأجزاء بالحجر بدل اللبن كما هو مشاهد إلى اليوم فى السور البحرى .

ولما فتح شارع الجيش (الأمير فاروق سابقا) في سنة ١٩٣٠ أخذ في طريقه جزءاً صغيراً وبذلك أصبح السور ينتهي من الغرب بشارع الأمير فاروق على رأس شارع درب البزاة ، وقد ثبت على طرف السور عند تلك النقطة المشرقة على شارع الجيش لوحة من الرخام مكتوب عليها بالنقش ما يفيد هدم جزء من السور لفتح الشارع المذكور في سنة ١٩٣٠ .

وابتدأ السور البحري في أيام صلاح الدين إلى جهة الشرق حيث موقع برج الظفر ، ولا يزال يوجد من هذه الزيادة جزء من سور القسم الشرقي المجاور لبرج الظفر .

رابعاً : أما السور الشرقي لمدينة القاهرة فلا يزال يوجد منه بعض أجزاء قائمة إلى اليوم ، منها الجزء الذي يمتد من برج الظفر يتجه جنوباً بطول ٤٠٠ متر وبنائه متخرب تولت إدارة حفظ الآثار العربية ترميمه وإصلاحه ، وفي هذا الجزء يقع الباب الجديد ، أحد أبواب القاهرة القديمة ، ومن السور المذكور الجزء الذي يبدأ من برج درب المحروق ويسير إلى الجنوب بطول ٧٦٠ متراً إلى أن ينقطع خلف زاوية الشيخ مرشد بشارع باب الوزير . وهذا الجزء هو أطول الأجزاء القائمة من السور الشرقي ومعظم أجزاء السور سليمة إلى اليوم ، ويتصل هذا السور في نهايته الجنوبية بسور القلعة .

وأما الباقي من السور الشرقي وهو الجزء الذي يمتد من قلعة الجبل إلى سور مدينة مصر فإنه لما تكلم المقرئ عن السور الثالث (ج ١ ص ٣٧٩) قال إن صلاح الدين لم يتهياً له أن يصل سور قلعة الجبل بسور مدينة مصر ، ولكن لما تكلم على أبواب القنطرة الواقعة جنوبي مدينة مصر (ج ١ ص ٣٤٧) قال أن صلاح الدين مد السور من قلعة الجبل إلى باب القنطرة الواقعة جنوبي مدينة مصر ، وهذا دليل على بناء السور في المسافة المذكورة .

وباب القنطرة هذا هو غير باب القنطرة الذي يسمى خطأ باسم باب الشعرية بالقاهرة .

ولما كان صلاح الدين قد اهتم بصفة خاصة ببناء السور الشرقي للقاهرة من برج الظفر إلى القلعة كما اهتم أيضاً ببناء سور مدينة مصر فإني أرجح الرأي الذي ذكره المقرئ فيما يختص بمد السور من قلعة الجبل إلى باب القنطرة أي إلى مدينة مصر ، يؤيد ذلك وجود الحائط (العيون) التي كان يجري من فوقها الماء في المسافة من باب القنطرة إلى سور مدينة مصر وكانت هذه الحائط قبل ذلك من سور القاهرة ، ثم بنى فوقها قناة لنقل الماء من النيل إلى قلعة الجبل .

ويتضح مما ذكر أن كماله السور الشرقي للقاهرة في المسافة ما بين العيون وسور مدينة مصر لا يزال يوجد من آثاره حائط الحجري (العيون) القائمة إلى اليوم من باب القنطرة بالقاهرة إلى تقط تلاقيها بحائط العيون الممتدة إلى مصر القديمة عند الراوية القبليّة الشرقية في جبانة السيدة نفيسة الجديدة .

ويرى القاريء مما ذكرناه نقلاً عن القلقشندي أنه قال : أن السور الذي أنشأه صلاح الدين ما بين

باب البحر والكموم الأحمر برأس منشأة المهرانى التى عند فم الخليج قد سقط . وبالبحث تبين لنا أن هذا السور كان صلاح الدين عازماً على إقامته على شاطئ النيل غربى القاهرة من ميدان باب الحديد إلى فم الخليج المصرى ولكنه لم ينشأ بدليل ما ذكره المقرئى وهو أن صلاح الدين زاد فى سور القاهرة القطعة التى من باب الشعرية إلى باب البحر وبين قلعة المقس فى نهاية السور البحرى على النيل بجانب المقس وانقطع السور من هنالك ، وكان أمه أن يعد السور من المقس إلى أن يتصل بسور مصر القائمة من جهة فم الخليج ولكن هذا الأمل لم يتحقق لوفاة صلاح الدين رحمه الله .

أبواب القاهرة الصلاحية

وننتقل إلى الكلام على الأبواب التى شيدت فى عصر صلاح الدين الأيوبي بالترتيب التالى :

(١) أبواب السور الغربى من الشمال إلى الجنوب (٥٦٤ هـ - ١١٦٩ م) :

١ - باب القنطرة الثانى ويقع على الحافة الشرقية للخليج وعرف بهذا الإسم لوقوعه تجاه القنطرة التى كان القائد جوهى الصقلى قد شيدها على الخليج الكبير فى سنة ٣٦٢ هـ - ٩٧٢ / ٧٣ م . (الخطط المقرئية ج ٢ ص ١٤٧) .

٢ - باب الخوخة وقد شيد فى مواجهة باب الخوخة الفاطمى ، ولا تعرف الظروف التى اختفى فيها هذا الباب ، وكان يقع على مقربة منه مسجد باب الخوخة الذى يعرف اليوم بجامع القاضى يحيى زين الدين .

٣ - باب سعادة وقد عرف باب سعادة الأول (الفاطمى) لنسبته إلى أحد قادة المعز لدين الله الفاطمى سعاد بن حيان .

(ب) أبواب السور الشمالى (٥٧٢ هـ - ١١٧٦ م) :

١ - باب البحر وكان يعرف بباب المقس لوقوعه فى قرية المقس التى كان يقال لها المقسم أو باب البحر لأنه كان يشرف على النيل ، ثم عرف باسم باب الحديد لأنه كان مركباً عليه بوابة من الحديد ، ونسب إليه ميدان باب الحديد ، وكان هذا الباب يقع عند مدخل شارع فم البحر من جهة الميدان المذكور وقد هدم حوالى عام ١٨٤٧ .

٢ - باب الشعرية وكان يقع بين باب البحر والخليج الكبير فى السور الشمالى وقد نسب إلى طائفة من البربر يقال لهم بنو الشعرية (الخطط المقرئية ج ١ ص ٣٨٣) ، وقد رسم هذا الباب على خريطة القاهرة التى وضعها جران بك مدير التنظيم فى عام ١٨٧٤ على رأس سكة باب الشعرية التى تعرف اليوم بسوق

الجراية ؛ وقد أزيل هذا الباب في عام ١٨٨٤ لخلل مبانيه ، وقد عرف في القرن الماضى باسم باب العدوى لوقوعه تجاه جامع العدوى .

(ح) أبواب السور الشرقى (٥٧٢ هـ - ١١٧٦ م) .

١ - الباب الجديد هو أحد أبواب السور الشرقى الصلاحى وقد عرف بهذا الاسم لأنه كان أول باب أنشئ في سور القاهرة من ناحيته الشمالية بعد باب النصر وله بدتتان كبيرتان ، وقد كشفه الأستاذ كرزويل الأثرى المعروف .

٢ - باب البرقية وقد ذكره المقرئى (ج ١ ص ٣٨٠) كما تكلم عنه القلقشندى (صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٥٤) وقد بقى مدة طويلة محتفياً تحت الأتقاض حتى اكتشفه المرحوم على بهجت مدير دار الآثار العربية ولا يزال هذا الباب موجوداً بأكله ومحتفظاً بشكله الأصلى من الأساس إلى الشرفات ، وقد نسب إلى جنود برقة في الجيش الفاطمى ، وقد عرف أيضاً بباب الغريب .

٢ - الباب المحروق وقد بقى منه برجاء ، ذكره المقرئى (ج ١ ص ٣٨٣) والقلقشندى (ج ٣ ص ٣٥٤) وقد عرف قديماً باسم باب القراطين لأنه كان يوجد بجواره سوق المواشى والغنم وكان يجلس عنده القراطون الذين يبيعون القرط وهو البرسيم .

(د) أبواب السور الجنوبى للقاهرة (٥٦٤ هـ - ١١٦٩ م) .

١ - باب الفرج الثانى ولا يعلم متى خرب .

(هـ) أبواب سور القسطنطينية (٥٧٢ هـ - ١١٧٦ م) .

١ - باب القرافة وقد سبق الكلام عنه وما زالت بعض أجزائه باقية .

٢ - باب الصفاء وقد خربه الظاهر بيبرس .

٣ - باب القسطنطينية وما زالت بعض مداميك أبراجه الجانبية باقية .

* * *

لقد زخرت القاهرة في أيام الأيوبيين نتيجة لانتقال مقر الحكومة إلى القلعة وامتداد أسوارها إلى الغرب والجنوب بالدور الضخمة والمنازل الرحيمة والأسواق والحوانق ، وكان غالب مبانيها بالأجر وجوامعها ومدارسها وبيوت رؤسائها مشيدة بالحجر المنحوت ، مفروشة الأرض بالرخام ، وقد جرى تبييض جدرانها بالسكس الناصع البياض ، ورغب الناس في تلية مساكنهم فارتفعت بعض الدور إلى طبقتين وأربع طبقات كاملة بمراقفها . وقد وصف البغدادى الذى زار القاهرة زمن الأيوبيين ما جرى من النشاط في البناء

ووصف مظاهر العناية ببناء المراحيض بالدور وإحكام قنواتها حتى إذا تحزبت الدار ظلت القناة قائمة ، وحرص أرباب الدور على أن يعموا في حفر المراض حتى يصل إلى المساء الجوفي فلا يحتاج إلى الكسح . وقد أشاد البغدادى أيضا في وصف حمامات القاهرة ، فقال إنه لم يشاهد فيما زاره من البلاد أتقن منها وصفاً ، ولا أتم إحكاماً ولا أحسن منظراً . وكان من واجبات محتسب القاهرة الإشراف على الحمامات العامة فيلزم القائمين عليها بغسلها وكسها وتنظيفها وذلك بلاطها ، ويلزمهم أيضاً باشغال البخور فيها كل يوم مرتين .

وقد نقل ابن جبير إلينا صورة اجتماعية حية لقاهرة صلاح الدين ، مما سنقرأه في وصفه ومدى عناية السلطان بالفقراء والغرباء الوافدين إلى القاهرة من سوريا ، والمغرب ، واهتمامه برجال الصوفية الذين خصهم بالحنافاه الصلاحية التي عرفت في زمن الناطميين بدارسميد السعداء ، ورتب لهم الطعام كما قدم للمرضى منهم العلاج ، وقد قال ابن جبير عن رجال الصوفية في مصر أنهم هم الملوك بهذه البلاد ، لأنهم قد كفاهم الله مؤن الدنيا وفضولها وفرغ خاطرهم — لعبادته — من الفكر في أسباب المعاش وأساليب في قصور تذكروهم قصور الجنان وهم على طريقة شريفة وسنة في المعاشرة عجبية^(١)

المدارس الأيوبية في القاهرة

تولى صلاح الدين العرش ؛ ولم تكن في مصر سوى مدرسة بالاسكندرية شيدها الوزير ابن السلال بالاسكندرية في عام ٥٤٦هـ / ١١٥١ م لتدريس الفقه على المذهب السني ، وكان يقوم على التعليم فيها المحافظ السلفي أحد أئمة الفقه والحديث ، وقد أدركه صلاح الدين وكان يذهب إليه بأولاده لسماحه ، ولذلك رأى السلطان بثاقب فكره أن ينشر التعليم الديني السني للقضاء على مذهب الشيعة ، ولذلك نراه ينشئ المدارس الواحدة في أعقاب الأخرى في خطة منظمة مرسومة . وكان أول ما بدأ به تشييده مدرستين على عهد العاضد ، أولاهما مدرسة للشافعية بناها بجوار جامع عمرو بن العاص لتدريس الفقه الشافعي في عام ٥٦٦هـ / ١١٧٠ م وقد عرفت بأسماء كثيرة ، المدرسة الناصرية والمدرسة الشريفة ومدرسة ابن زين التجار الدمشقي أحد أعيان الشافعية ، وقيل إنه كان من أول من درس بهذه المدرسة مدة طويلة ومات في عام ٥٩١هـ / ١١٩٥ م .

والمدرسة الثانية ، مدرسة للمالكية بجوار جامع عمرو وذلك في عام ٥٦٦هـ / ١١٧٠ م ، وعرفت باسم دار الغزل التي هدمها صلاح الدين وعرفت بالمدرسة القمحية ، ثم وقف عليها فيسارية الوراقين وضيفة بالفيوم اشتهرت بنتاج القمح ولذلك نسبت إليه ، ورتب فيها أربعة من المدرسين يشرف كل واحد منهم على عدة طلاب ؛ وكانت أجل مدرسة للفقهاء المالكية .

وبعد وفاة العاضد ، وانتقال السلطة إلى صلاح الدين ، مضى الرجل العظيم في تشييد المدارس ، فبنى

مدرسة للفقهاء الحنفية ، أطلق عليها اسم المدرسة السيوفية ، شيدت ، إذ ذاك بدار الوزير الفاطمي المعروف باسم عباس العبيدي ، وهو ابن أحد الأمراء الفاطميين ، وقد خربت تلك المدرسة ، وحل محلها الآن جامع الشيخ مظهر بشارع المعز لدين الله على يسار الداخل إلى شارع المعز لدين الله من شارع السكة الجديدة .

وشيد صلاح الدين مدرسة الشافعية بجوار تربة الإمام الشافعي وقد حل محلها بعد هدمها في عهد الأمير عبد الرحمن كنتخدًا لمسجد الإمام الشافعي ، وقد قال الإمام السيوطي على تلك المدرسة :

« ينبغي أن يقال لها تاج المدارس ، وهي أعظم مدارس الدنيا على الإطلاق ، اشرفها بجوار الإمام الشافعي ، بناها صلاح الدين في سنة ٥٧٢ هـ - ١١٧٦ / ٧٧ م . فلما كانت سنة ٦٨١ هـ - ١٢٨٢ م ولّى التدريس بها قاضى القضاة تقي الدين محمد بن رزين الحموي ، وكان العالم الكبير نجم الدين ^(١) الحبوشاني ممن درسوا بها فترة طويلة .

وشيد صلاح الدين المدرسة الصلاحية ، أنشأها للشافعية بجوار المشهد الحسيني ، ولم يبق منها شيء الآن ، وقد أصبح موقعها ضمن جامع الحسين في إيوان الشرقى عند المحراب الحالى للجامع .

تلك هي خمس مدارس بناها صلاح الدين في مصر رغم اشتغاله المتواصل في الحروب الكثيرة ضد الغزاة الصليبيين ، ويضاف إليها ما شيده منها بدمشق وبالقُدس . ولقد ذكر ابن خلكان عدد المدارس التي بناها السلطان وقال :

« ولقد فكّرت في نفسى في أمور هذا الرجل ، وقلت إنه سعيد في الدنيا والآخرة ، فإنه فعل في الدنيا هذه الأفعال المشهورة من الفتوحات الكثيرة وغيرها ، ورتب هذه الأوقاف العظيمة ، وليس شيء منها منسوباً إليه في الظاهر ، فإن المدرسة التي بالقرافة ما يسمونها إلا بالشافعية ، والمجاورة للمشهد الحسيني لا يقولون إلا للمشهد ، والخانقاه لا يقولون إلا سعيد السعداء ، والمدرسة الحنفية لا يقولون إلا السيوفية ، والتي بمصر الفسطاط ، لا يقولون إلا مدرسة زين التجار ، والتي بمصر أيضاً مدرسة المالكية ، وهذه صدقة السر على الحقيقة » .

هكذا رأينا أن إنشاء المدارس يرجع إلى صلاح الدين كما يعود إلى أحفاده أيضاً ، ذلك التحويل الذي أحدثته في فن عمارة القاهرة . فإلى عصره كانت الجوامع كلها ذات تخطيط هندسي واحد ، والقرص منها تجمع المسلمين لصلاة الجمعة وسماع خطبتها ، وكان إيوان المحراب أهم أجزاء الجامع وهو الجزء المسقوف منه حيث يصلى المصلون . وعند الازدحام في مناسبة الأعياد كانت الجماهير تستخدم صحن الجامع المكشوف لصلواتهم

(١) لما قدم الرحالة الأندلسي ابن جبير مصر في عام ١١٨٣ ، قصد هذا الشيخ الجليل وزاره في مسكنه وكانت شهرته قد وصلت إلى الأندلس .

وكان الأساتذة يستخدمون البوائك التي تحيط بالصحن لإلقاء تعاليمهم على تلامذتهم ، كما كانت ملجأ للفقراء والسائلين ، فترى أنها لم تكن من أجزاء الجامع الرئيسية المستعملة للعبد . ولما زار ابن جبير مصر كان في القاهرة أربعة جوامع من هذا الطراز ، وهي : الأزهر ، والحاكم ، وابن طولون ، وعمرو ، يضاف إليها جامع الصالح طلائع ، وجامع الأقمر ، ولعدم العناية بهما آل مصيرهما إلى الحراب بعد وفاة مشيئتهما حتى جددتا في الأعوام الأخيرة .

فلما نقل صلاح الدين نظام المدرسة كما رآه في الشام ، أصبحت القاهرة مركزاً في عالم الشرق لأوابد الآثار الفنية الإسلامية . وحسبنا أن نذكر مدارس المماليك : السلطان حسن وبرقوق والناصر ابن قلاوون الخ . فنجدها تختلف اختلافاً بيناً من حيث نظام المساجد التي كانت موجودة ، وبخاصة من الناحية المعمارية وهي لم تسند على الأغراض الدينية كالمساجد الأخرى ولكنها جمعت بين الصلاة والعلم وأخذت طريقتها وشكلها من الناحية المعمارية .

فبدلاً من الصحن العريض المكشوف في وسط الجامع حيث يجتمع المصلون ، أنشئ مربع صغير وكان في أغلب الأحيان مسقوفاً بالخشب ، وأقيمت في وسطه قبة أو منور — وبدلاً من البوائك المحيطة بالعقود رأينا في أركان الجامع أربعة أجنحة مستقلة أو قاعات كبيرة ذات سقف واحد من الأحجار المعقودة ، وأحد هذه الأجنحة والذي يواجه الشرق هو الذي يتكون منه إيوان الصلاة ، وكان أكبر من الثلاثة الأخرى وفيه المحراب ومنصة الخطابة ودكة القراءة ، وكان كل جناح من هذه الأجنحة الأربعة لمذهب من المذاهب الشافعية والمالكية والحنفية والحنبلية ، وفي كل منها اجتمع طلبة كل مذهب يتلقون على علماء الدين قواعد المذاهب الإسلامية ، وفي غالب الأحيان كان الأساتذة والطلبة يسكنون في هذه المدارس في أماكن خصصت لهذا الغرض ، كما وجدت أيضاً قاعات للمكتبة وأخرى للدراسة .

وقد امتد نشاط بناء المدارس الدينية إلى أبناء صلاح الدين وأمرائه ، فشيّد القاضي الفاضل سنة ١١٨٤ المدرسة الفاضلية للشافعية والمالكية ، وأنشأ السلطان العادل المدرسة المادلية ، كما أقام تقي الدين عمر المدرسة المعروفة بمنازل العز أو التقوية للشافعية بجنوبي القسطنطينية ، وقد أقام مدرستين أخرتين بالفيوم ، هذا إلى المدارس الكبرى التي سنتكلم عنها كالكاملية والصالحية .

وعلى هذا النحو زاد عدد المدارس زمن الأيوبيين زيادة ملحوظة ، ففي شارع بين القصرين بالقاهرة كان على جانبيه مدارس في موضع القصر الفاطمي ، وبلغ عدد المدارس بالقاهرة وحدها حوالي سنة ٦٠٠ هـ — ١٢٠٣ / ١٢٠٤م ثلاث عشرة مدرسة ، ثم تضاعف هذا العدد في زمن المماليك ، لاسيما في أحميم وقوص وإسنا وأسيوط وأسوان وبليس والمحلة ودمهور ورشيد .

عود إلى الأحداث

رأينا كيف جعل صلاح الدين مدينة القاهرة عاصمة جديدة بدولة عظيمة ، وحصنها بأعماله الدفاعية وبعثشاته الدينية فترسخت ثقافة العالم الإسلامي . ولا بأس من أن نذكر شيئاً عن أخيه العادل سيف الدين الذي تولى العرش عام ٥٩٦ هـ / ١١٩٩ م بعد وفاة الملك العزيز يوسف ، ثم الملك المنصور . فقد خدم العادل أخاه صلاح الدين بإخلاص مدة ربع قرن ثم تولى أمور الامبراطورية الأيوبية التي حاول أقاربه العديدون تقسيمها ، وانفق مع الفرنجة على الصلح بشرط التنازل لهم عن ثعربن في فلسطين وانسحابهم من مصر ، لكنهم لم يقطعوا عن محاربتة في سوريا ؛ ومع كل هذه المعارك التي خسرها لم تقل شيئاً من هيئته .

لكن لسوء حظ العادل لم تنقذه درايته من النكبة التي حلت بمصر في السنة التالية من حكمه ، فقد ابتليت مصر بانخفاض النيل والطاعون والمجاعة في عامين متواليين ، وقد وصف حوادث السنتين الرحالة عبد اللطيف البغدادي^(١) وكان زور مصر في ذلك الحين لحضور الدروس في الأزهر فقال : « يش الناس من زيادة النيل وارتفعت الأسعار وانحطت البلاد وشعر أهلها بالبلاء وهاجروا من خشية الجوع وتحول أهل القرى إلى أمهات البلاد واشتد بهم الجوع وأصيب كثيرون جداً بالموت وأكلوا الميتات والحيف والكلاب والبعر والأرواث ثم قعدوا على ذلك إلى أن أكلوا صغار بني آدم ، فكثيراً ما يعثر عليهم ومعهم صغار مشويون أو مطبوخون فيأمر صاحب الشرطة بإحراق الفاعل ، من ذلك أن رأيت صغيراً مشوياً في قفة وقد أحضر إلى دار الوالى ومعه رجل وامرأة زعم الناس أنهما أبواه فأمر بإحراقهما ؛ ولقد رأيت امرأة يسحبها الرعاع في السوق وقد ظفروا بها وهي تحمل طفلاً مشوياً تأكل منه وأهل السوق ذاهلون عنها ويقبلون على شئونهم ؛ ولم أر فيهم من يعجب لذلك أو ينكره ، ورأيت قبل ذلك يومين صبياً نحو الرهاق مشوياً وقد أخذ به شابان قاما بقتله وشبهه وأكل بعضه .

« وأحرق بمصر في أيام يسيرة ثلاثون امرأة كل منهن تفر أنها أكلت جماعة فرأيت امرأة قد أحضرت إلى الوالى وفي عنقها طفل مشوى فضربت أكثر من مائتي سوط على أن تفر فلا تحير جواباً بل نجدها قد خرجت عن الطباع البشرية ثم ماتت » .

« وكنت ترى أينما سرت جثث الموتى ملقاة في الطرقات أو البيوت بدون دفن ، وانتشر الطاعون ، وكان متوسط عدد موتاه في الاسكندرية لا يقل عن سبعمائة نفس يومياً ، وكنت تشاهد الذئاب والضباع والنسور

(١) صاحب كتاب الافادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر . وضعه مؤلفه حوالي سنة ١٢٠٠ للميلاد ، وهو يصف أحوال مصر في القرون الوسطى .

تقوم حول الجثث وتلتهمها على مرأى من المارة في المدينة وخارجها وفي طرق القوافل ، فلما نقص عدد السكان انخفض إيجار البيوت إلى سبع أعينها الأصلي .

وجاء « جون دي بريان » على رأس جيش كبير من الصليبيين ، وعسكروا تجاه فرع دمياط الغربي وظلوا في مناوشاتهم مع المصريين ثلاث سنوات (١٢١٨ - ١٢٢١ م) ومن حسن حظ العادل أنه مات في بدء غارتهم خلفه ابنه الملك الكامل (٦١٦ - ٦٣٥ هـ - ١٢١٨ - ١٢٣٧ م) قاوم الصليبيين مدة وكانوا في ذلك الوقت قد شددوا الحصار على دمياط برأ وبحراً ، وكانت سنة شديدة الوطأة على المسلمين . وفي يوم الثلاثاء ٢٥ شعبان سنة ٦١٦ هـ هجم الصليبيون على دمياط فاستولوا عليها وكانت مدة الحصار ١٦ شهراً و٢٢ يوماً فدناها فلما اتصل ذلك بالسلطان الكامل رحل بعد سقوط دمياط بيومين ونزل أمام طلخا لمنع الصليبيين من التقدم داخل القطر . أما الفرنجة فحصبوا دمياط وجعلوا جامعها كنيسة على اسم القديسة مريم وواصلوا سيرهم إلى المنصورة في نحو مائتي ألف من المشاة وعشرة آلاف فارس ، فأمر الكامل بأن ينادى بالمسلمين للجهاد من سائر أنحاء القطر ، فاجتمع أناس لا يقع لعددهم حصر وأتته النجدات من الشام يتقدمها الملك الأشرف موسى بن العادل والملك المعظم عيسى ؛ فلقاهم الملك الكامل وأزلمهم بالمنصورة وتتابع مجيء الملوك حتى بلغ عدد جيوش المسلمين نحو أربعين ألف فارس فحاصروا الصليبيين برأ وبحراً حتى تضعفت قواتهم ففاوضوا الملك الكامل في الصلح ليخرجهم من بلاده ، وعرض عليهم مناطق كبيرة في فلسطين ، وبعد مفاوضات طويلة قبلوا الانسحاب من مصر بدون مقابل ، فسار الصليبيون إلى دمياط وسلموا إلى المسلمين في ١٩ رجب سنة ٦١٨ هـ / ١٢٢٠ م ، ودخل الملك الكامل دمياط بإخوته وعساكره ، وكان يوم دخوله إليها يوم احتفال عظيم ، ثم قصد المنصورة حيث عاش ليلة كانت من أحسن الليالي التي مرت لملك من الملوك . ثم عاد لقر ملكه في القاهرة وانتقل من دار الوزارة التي كانت في ذلك العهد منزلاً للخلفاء وسكن القلعة في الجبل ، وإليه يرجع الفضل في إتمام بنائها وأنشأ بها الدور السلطانية .

وأهم أعماله العظيمة دار الحديث الكاملية التي أنشأها بين القصرين في سنة ٦٢٢ هـ / ١٢٢٤ م وهي ثانی دار عملت للحديث ، فإن أول من بنى داراً للملك العادل نور الدين محمود بن زنكي بدمشق ، وكان أول من تولى تدريس الكاملية الحافظ أبو الخطاب عمر بن الحسين ، ثم أخوه عمر وما برحت في يده أعيان الفقهاء إلى أن كانت الحوادث والحزن منذ سنة ٨٠٦ هـ - ١٤٠٣ م فتلاشت كما تلاشى غيرها ، وكان الكامل يحضر مناقشات العلماء في أدييات أيام الثلاثاء .

ولم يبق من دار الحديث الكاملية اليوم سوى بقايا الإيوان الغربي وقد نقل منها بقايا زخارف جصية بها كتابات بالحظ الكوفي إلى متحف الفن الاسلامي ، ويرى بعض علماء الآثار أنها أقدم نموذج لطراز تخطيطها لمدرسة ذات الإيوانين .

وبعد وفاة الملك الكامل أعلن ابنه الملك العادل الثاني سلطاناً على مصر ، ولم يكن يتجاوز الثانية عشرة ؛ وقد كرهه الأمراء لصغر سنه ، ولانغماسه في الفجور وتبديده أموال الدولة بمشاركته برفقاء السوء . ومنازعات

هذا السلطان كثيرة لا تتسع لها صفحات الكتاب ، ويمكن القول بأن انحلال الدولة الأيوبية بدأ في أيامه ، وانهز الصالح نجم الدين أيوب شقيقه وابن الكامل الفرصة واستطاع عن طريق تدبير المؤامرات والدسائس أن يعمل لحساب نفسه ويضم الناصر يوسف أمير حلب إلى جانبه وكان هذا أصراً على عدم الاعتراف بسلطان مصر العادل الثاني ، وبدلاً عن ذلك وثق علاقته بالسلطان السلجوقي كيخسرو .

وكان الصالح أيوب قد غادر حصن كيفا إلى ابنه توران شاه وانتقل إلى دمشق في ١٢٣٨ وعمل على إحداث الشقاق والفرقة في جيش أخيه العادل الثاني ، فانضم إليه عدد كبير من الأمراء المصريين . وفي أعقاب عدة أحداث في سوريا ومصر ، خلع العادل الثاني وتولى الصالح أيوب الحكم ، وتعرض منذ ذلك الحين لمناورات خطيرة ، وفي سبيل توطيد مركزه قام الصالح بتطهير الجيش من العناصر المتمردة وأحل مكانها طائفة من المماليك الترك الموالين له ، ومع ذلك فإنه لم يطمئن على حياته ، وعزم على ألا يقيم بالقلعة واختار جزيرة الروضة لتكون مقرّاً له . وفي ٢٠ فبراير سنة ١٢٤١ شرع الصالح في بناء قلعة بالروضة ، فزعم بتملكات السكان المقيمين بها ، وأمر بتدمير كل ما بها من الدور والمساكن ، ثم شيد له بها قصرًا وأحاطه بسور ، ثم انتقل السلطان بحريمه ومماليكه بعد الفراغ من البناء ، فأقاموا بهذه الدور الجديدة التي تكلف بناؤها أموالاً طائلة ،

وبالرغم من الانقسام الشديد بين أمراء سوريا ومصر ، فقد توج السلطان أعماله بأن أعطى الصليبيين درساً قاسياً ، فهاجم الجيش المصري طبرية واستولى عليها ، وخرب ما أقامه الصليبيون بها من حصون ، ثم احتل عسقلان ودمر أسوارها (١٢٤٧) . ولما فرغ السلطان كان يمانى مرضاً خطيراً في حنجرتة ، تطلب نقله في محفة إلى القاهرة ، ومع ذلك فإنه لم ينس أن يأمر بإعدام شقيقه العادل الثاني في سجنه (١) .

وصلت حملة لويس التاسع إلى دمياط (يونيو ١٢٤٩) وكان المرض قد اشتد على الصالح ، فلم يستطع أن يقود الجيش ، فعهد بالقيادة إلى وزيره نجر الدين وطلب إليه الإسراع إلى دمياط كما يحول دون نزول الصليبيين إلى البر ، واتخذ الصالح مقر قيادته في أشمون طنح شرق فرع دمياط .

بدأ نزول الصليبيين إلى الشاطئ في ٥ يونيو ١٢٤٩ ، فنشبت معركة حامية على شاطئ البحر لمنعهم من النزول إلى البر على الضفة الغربية من النهر ، غير أن نجر الدين انسحب بجنوده واجتاز جسراً من السفن إلى دمياط ، ولم يلبث أن قرر الرحيل منها بعد أن تبين له أن الأحوال ساءت في دمياط ، وهجر السكان المدينة وتلاههم بعض أفراد الجيش من بني كنانة بعد أن أشعلوا النار في الأسواق ، غير أنهم لم يدمروا الجسر الذي يصل بين ضفتي النيل ، ولم يلبث أن ملكها الصليبيون ، بعد أن تبين لهم خلوها من المقاومة . وهنا

(١) السيد الباز العريبي : مصر في عصر الأيوبيين ، من مجموعة الألف كتاب ، ص ١٣٨ ، مطبعة الكيلاني . القاهرة .

فزع المسلمون لسقوط دمياط وقرر الصالح أن ينتقل إلى موضع بالقرب من المنصورة ، على أن المرض قد اشتد به ويئس رئيس الأطباء من شفائه ، ولم يلبث أن قضى نحبه بالمنصورة (٢٣ نوفمبر ١٢٤٩) .

* * *

لما مات الملك الصالح تواطأت إحدى جواريه (وبعضهم يقول زوجته) واسمها شجرة الدر مع أحد الأمراء ورئيس الحصيان على مبايعة ابنها ، وكتمت أمر موت زوجها ووقفت في جمهور الأمراء والأعيان قائلة « إن السلطان يأمركم أن تبايعوا بعده ابنه الملك المعظم غياث الدين طوران شاه وقد عين الأمير نغر الدين أتابكا لإدارة الأحكام » فبايعه جميع الأمراء وأدارت هي دفة الحكومة وأشرفت على تنظيم الجيش وأصدرت أوامرها إلى القواد والحكام وساسة البلاد بكفاءة عجيبة .

وكان الصليبيون يتمدون قاصدين المنصورة فلما بلغوها حاربوها محاربة قوية ، واستمر القتال بين الفريقين مدة طويلة وكادت الدائرة تدور على المسلمين بقيادة الأمير نغر الدين ، لولا بماليك الملك الصالح فانهم دافعوا دفاعا شديدا ، وانهت المعركة بتقهقر الصليبيين فتعقبهم المصريون حتى أدركوهم غربى فارسكور ، فاستلحموهم وأمنحوهم قتلا ، وأسروا الملك لويس التاسع وكثيرا من ضباطه وكبار رجال جيشه ، كان هذا نصر المنصورة العظيم ضد الغزاة .

وتمكنت شجرة الدر من أن تقبض على زمام الأحكام بتواطئها مع « عز الدين أيك » وكان من أعظم الأمراء والماليك وأقواهم نفوذا . وبهذا التواطؤ لقبت بعصمة الدين أم خليل في ١٠ صفر ٦٤٨ هـ - ولو أن خليل هذا كان ميتا - ونقشت اسمها على النقود « المستعصمة الصالحة ملكة المسلمين والدة للنصور خليل خليفة أمير المؤمنين ، وعينت عز الدين أتابكا لتدبير المملكة وأخذت تتقرب إلى أرباب الدولة ووجهائها ولكن مساعيها لم تأت بفائدة . وأنفذ السوريون إلى الخليفة العباسي من يستفتونه في أمر هذه الملكة فكتب إليهم يقول : « من بغداد لأمرأ مصر : أعلونا إن كان ما بقى عندكم في مصر من الرجال لا يصلح للسلطنة فنحن نرسل لكم من يصلح لها . أما سمعتم في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا أفلح قوم ولوا أمرهم امرأة » .

ولما استمسك بماليك مصر بهذه الفتوى عصوا شجرة الدر ونشأ خصام بين بماليك سوريا وماليك مصر آل إلى وقائع حرية ، تمكن في أثناءها عز الدين أيك من الاستقلال عن صديقه وأكره الأمراء شجرة الدر على الاستقالة فاستقلت . ثم بويغ عز الدين أيك على مصر في سنة ٦٤٧ هـ ولقب بالملك المعز الجانشين التركمانى الصالحى ، وتزوج بشجرة الدر ولم يكن يدرى أن شجرة الدر لا تزال واقفة له بالمرصاد ، فكانت تحول دون كثير من مقاصده ولم يكن يحسر على مقاومتها ، وفي الواقع كانت هي المدبرة الحقيقية لشئون الدولة وأخيرا اشتعلت حسدا لما علمت أن زوجها يسعى للتزوج بابنة بدر الدين لؤلؤ ملك الموصل ، وخافت أن تحمل هذه الزوجة الثانية محلها فواقفت على الكيديه بعد أن تزوج الأميرة .

وفي ذات يوم ضايقته فزل من القلعة وهو غاضب ، فبعثت تتلطف به حتى عاد إلى القلعة فلاقته ، وقامت إليه وقبلت يديه على غير عادة منها وكانت قد اضمرت له السوء ، فدبت له خمسة من الخدم الحصيان الروم وقالت لهم « إذا دخل الحمام فاقتلوه » فلما طلع إلى القلعة اصططح مع شجرة الدر وتراضيا ، ثم دخل الحمام فلما صار هو وشجرة الدر هناك دخل عليه أولئك الخدم وبأيديهم السيوف ققام أيك وقبل يد شجرة الدر واستغاث بها فقالت للخدم اتركوه فأغلظ لها بعض الخدم في القول وقال لها « إن تركناه فلا يبقى عليك ولا علينا » فقتلوه في الحمام خنقا ولم تجسر شجرة الدر على مزاوله الحكم بنفسها خوفا من الإيقاع بها فعرضته زمام الأحكام على أميرين فأبيا . وتولى من بعده ابنه نور الدين وكانت سنة ١٥ عاما . وأقام « أيك » في خلال حكمه بنايات عظيمة وفي جملتها مدرسة عظيمة دعاها المدرسة المعزية نسبة إليه بناها على ضفة النيل في مصر القديمة وربط لها دخلا مخصوصا للنفقة عليها ، وكان أعدل من قام من ملوك المماليك بقلعة الجبل .

أما المنصور فكان أول عمل أقدم عليه أن قبض على قاتلة أبيه بعد ثلاثة أيام من توليه وعهد بها إلى نساء بيته فأمتوها في البرج الأحمر بالقلعة ضربا بالقباقيب على رأسها وطرحوا جثتها في خندق بالقلعة ، وكان ذلك على مرأى من « ضربتها » فأكلت الكلاب نصفها ودفن النصف الباقي في قبورها ، أما المنصور نور الدين فلم يحكم إلا مدة سنتين وفي أيامه هجم « هولاءكو » التتري على بغداد وقتل الخليفة المستعصم بالله وخرّب عاصمته . فلما رأى رجال الدولة هذه الحال بحثوا عن رجل حازم يولوه أمورهم فعزلوا نور الدين وولوا مكانه سيف الدين قطز نائب السلطنة بمصر وأتابك العساكر ، ولما تولى السلطنة لقب بالملك المظفر ، ثم بدأ حكم المماليك البحرية .

المجتمع العلمي في أيام الأيوبيين

أهم ما نلاحظه في ذلك العهد ، ازدهار الصوفية ، وفي طليعة شعرائها — العارف بالله عمر بن علي ابن مرشد ، الحموي الأصل ، المصري المولد والدار والوفاة — بن الفارض^(١) (١١٨١هـ — ١٢٣٥م) وقد مات في الثالثة والخمسين من عمره ووري التراب في سفح المقطم ، وظل شعره — ولا يزال — مرويا يتغنى به محدثو الصوفية ، بل وتوافر على دراسته طائفة من كبار المستشرقين أمثال، فون هامر ، ودماتيو ، ونالينو ، ونيكلسون الذي ترجم الكثير من قصائده إلى الإنجليزية ، وقصيدته الثائية الكبرى تعبر عن صوفية ابن الفارض ومطلما :

نعم بالصبا قلبي صبا لأحبتى فياحبذا ذاك الشذى حين هبت
سرت فأسرت للفؤاد غذية أحاديث جبران العذيب فسرت^(٢)

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان . ج ١ ص ٤٨٣ . شذرات الذهب ج ٢ ص ٧٤١ .

(٢) ديوان ابن الفارض - مطبعة حجازي بالقاهرة . ص ١٦ - ٢٣ .

فيها زهاء سبعمائة وخمسين بيتاً ، وهي ليست من العيون الفريدة في الأدب العربي فحسب ، ولكنها ذات شأن عظيم في دراسة التصوف الإسلامي .

ويصور ابن الفارض في قصيده ما يصوره شعراء الصوفية من حب الله وعشق الخالق في حالات قد يكون فيها توفيق — لا ما يقولونه من « تجلى » أو غيره من التعابير — ويكفي قصيده قيمة أنه يكشف لنا الكثير من غوامض معتقدات الصوفية في ذلك العصر .

ومن كان لهم شأن عظيم من شعراء مصر محمد بن سعيد البوصيري التوفي نحو عام ٦٩٦ هـ (١٢٩٦ م) . وبالرغم من استناد شهرة هذا الشاعر إلى قصيدة واحدة فإنه قد بذل أقرانه^(١) . فمما لا نزاع فيه أن قصيدته بردة المديح المباركة (١٥٩ بيتاً) هي أصلح أعودج للقصيد الديني — الأمر الذي جعلها مادة للترجمة لعدة لغات ، ووضعت على هامشها طائفة من التعليقات . ولعل الأبيات التالية التي تأتي في مطلعها تم عن الروح الدينية المنبعثة في النفوس ومازالت أبياتها تنشد في الجنازات وتكتب في التعاويذ حتى اليوم :

أمن تذكر جيران بندي سلم	مزجت دمعاً جرى من مقلة بدم
أم هبت الريح من تلقاء كاظمة	وأومض البرق في الظلماء من أضم
فما لعينيك إن قلت أكفها همتا	وما لقلبك إن قلت استفق بهم
أيحسب الصب أن الحب منكم	ما بين منسجم منه ومضطرم
لولا الهوى لم ترق دمعاً على طلل	ولا أرقى لذكر البان والعلم
فكيف تنكر جبا بعد ماشهدت	به عليك عدول الذم والسقم

* * *

وتضى عطاء الله الشاذلي مؤسس الطريقة الشاذلية ، الذي ولد في مرا كش غالبية حياته في مصر حيث أدر كته النية في عام ١٢٥٨ م . وفي طليعة شعراء الصوفية المصريين «ابن وفا»^(٢) الذي استهل حياته في القاهرة (عام ١٢٥٧ م) . كما يتسنى أن نذكر في هذا السياق أيضاً مؤلفاً صوفياً هو الشعراني أو الشعراوي

(١) كان من تلاميذ أبي العباس اللرسي في التصوف . راجت قصائده رواجاً كبيراً بين الشعب وخاصة البردة والهمزية لأنهما تتفقان ومشاعر الجمهور وميله إلى الابتهاال وتجاوبان مطالب نفسه .

(٢) هو العلامة العارف بالله محمد بن أحمد بن محمد بن النجم محمد فتح الدين أبو الفتح الاسكندري الأصل القاهري المولد المالكي الشاذلي . ولد تقريباً في سنة ٧٩٠ هـ بالقاهرة ومات بالروضة ٨٥٢ هـ - الضوء اللامع

ج ٤ ص ٢٢٧ - ٢٣٨ .

الذى ولد في قلقشندة - قرية جده لأمه ، ثم انتقل بعد أربعين يوماً إلى قرية أبيه ساقية أبي شعرة من أعمال المنوفية واليه انتسب^(١) . وما ينبغي ذكره أن مؤلفاته تربو على الخمسين ، بعضها في تاريخ حياة بعض كبار الصوفية .

وقد بلغ الصوفية أوج عزمهم في مصر أيام صلاح الدين الأيوبي وخلفائه ، كما يشهد بذلك العدد الوفير من البيوت التي شيدت لهم والتي تعرف باسم الخوانك . وعلى رأسها الخانكاه الصلاحية التي فتحها صلاح الدين للفقراء الصوفية الذين جاءوا من مختلف البلاد ، ورتب الأوقاف للإعانة عليهم (خطط المقرئ ج ٢ ص ٤١٥ وما بعدها) .

وفضلاً عن هذا ، فقد لاح في سماء الشهرة نفر من كبار كتاب الرسائل وتقر غير قليل من الشعراء الذين ما فتأ الناس يعجبون بدواوينهم . نذكر من بينهم البهاء زهير المتوفى في عام ١٢٥٨ والذي نشرت مجموعة من قصائده مع ترجمة إنجليزية لها بقلم هـ . بالمر المستشرق الكبير في سنة ١٨٧٦^(٢) .

ونذكر من شعراء مصر سراج الدين الوراق (١٢١٨ - ١٢٩٦) وهو شاعر مكثراً ملاً شعره كثيراً من الكتب التي تعرض للنماذج الشعرية ، وقد عمل في الديوان المصري .

(١) هو الإمام العلامة عبد الوهاب بن أحمد بن علي الأنصاري - دخل القاهرة سنة ٩٥١ هـ وتوفي بها سنة ٩٧٣ هـ ودفن بزوايته المعروفة بين السورين - راجع كتاب الشعراء للدكتور توفيق الطويل - وشذرات الذهب ج ٤ ص ٨٠٩ - طبقات الشافعية للشرقاوي - ومعلمة الإسلام ج ٣ ص ٣٢٠ .

(٢) الوزير الشاعر صاحب زهير بن المهلب المولود بوادي نخلة قرب مكة سنة ٥٨١ هـ والمتوفى بالقاهرة سنة ٦٥٦ هـ ودفن بالقرافة الصغرى بالقرب من قبة الإمام الشافعي . راجع ترجمته في وفيات الأعيان لابن خلكان ج ١ ، ص ٢٤٢ - ٢٤٥ ، وفي المنهل الصافي ج ٣ ، ص ٢٠٣ - ٢٠٨ .

القاهرة فيما كتبه عنها الرحالة

١ - ابن جبير (١١٨٣)

كان ابن جبير الرحالة المغربي واحداً من وصفوا لنا الإسكندرية والقاهرة ومدنا أخرى على أيام السلطان صلاح الدين الأيوبي ، وقد ترك لنا وصفاً شيقاً ومتمماً لمجتمعات تلك المدن وعلمائها ومساجدها ومدارسها.

ولد ابن جبير في بلنسية سنة ٥٤٠ هـ (١١٤٥ م) ودرس على أبيه وغيره من علماء الدين في سبته وغرناطة ، ثم دخل في خدمة أبي سعيد بن عبدالمؤمن صاحب غرناطة . وقيل أن هذا الأمير استدعاه يوماً ليؤلف فيه كتاباً وهو في مجلس شرايه ، وحدث أن دفع إليه كأساً من النبيذ ، فاعتذر ابن جبير بأنه ما شرب الخمر قط ، فقال الأمير : والله لتشربن منها سبعة ، فلم يستطع إلا الإذعان وكافأه الأمير بأن قدم إليه القمح سبع مرات أخرى مملوءة بالدنانير وصب ذلك في حجره ، وانصرف ابن جبير ، وعقد العزم في الليلة نفسها على أن يذهب لتأدية فريضة الحج تكفيراً عن ذنبه في شرب النبيذ ، وأنفق تلك الدنانير في سبيل البر ، وباع عقاراً له تزود به .

وترك ابن جبير غرناطة مع صديق اسمه أحمد بن حسام ، يوم الخميس الثامن من شوال سنة ٥٧٨ هـ (٣ فبراير سنة ١١٨٣ م) إلى جزيرة الطريف (الطرف الأغر) وعبر البحر من هناك إلى سبته ، فألقى بها سفينة للجنوبية ، مقلمة إلى الإسكندرية فركبها يوم الخميس ٢٩ شوال (٢٤ فبراير) وسارت السفينة عبر الزقاق (جبل طارق) مساحة شاطئ الأندلس حتى ثغر دانية ، ثم مرت غرباً فمرت بجزيرة ميورقة ومينورقة وسردانية ، وطراً عليها قبالة ساحل سردانية نوء وأمواج كادت تقذف بها إلى حيث أنت ، ثم استطاع ربانها أن يصل بها إلى الشاطئ ، ثم أفلعت المركب إلى صقلية وأرست على شاطئها ، ثم فارقتهما واتجهت غرباً حتى حاذت ساحل جزيرة اقريطش ، واستقرت السفينة أخيراً عند الإسكندرية يوم ٢٩ ذي القعدة (٢٦ مارس ١١٨٣) (١) .

طاف ابن جبير بالإسكندرية ، فزار المنار ، وصلى بالمسجد المشيد في أعلاه ، وشاهده بقايا العمائر البطلموسية والرومانية ، وذكر المدرسة والمارستان المخصصين للقرباء كما لاحظ كثرة المساجد بالإسكندرية بحيث كانت منها الأربعة ، والخمسة في موضع واحد ، وربما كانت مبنية بعضها فوق بعض ، ثم رحل ابن جبير عن الإسكندرية يوم الأحد ٨ ذي الحجة (٣ أبريل ١١٨٣) إلى القاهرة (٢) .

(١) محمد مصطفى زيادة : رحلة ابن جبير ورحلة ابن بطوطة ص ٥٤ القاهرة ١٩٣٩

أنظر أيضاً زكي محمد حسن : الرحالة المسلمون ص ٧٠ - ٨٨ .

(٢) رحلة ابن جبير : تحقيق حسين نصار ، مكتبة مصر ، القاهرة ، ١٩٥٥ .

يقول ابن جبير :

« ... وهى مدينة السلطان الحفيلة المتسمة ، وكان دخولنا فيها إثر صلاة العصر فى يوم الأربعاء ، وهو الحادى عشر من ذى الحجة ٥٧٨ هـ والسادس من أبريل ١١٨٣ عرفنا الله فيها الخير والخيرة ، وتم علينا صنعه الجميل بالوصول إلى الغرض المأمول ، ولا أخلانا من التيسير والتسهيل بعزته وقدرته إنه على ما يشاء قدير ، وفى يوم الأربعاء المذكور أجزنا القسم الثانى من النيل فى مركب معدية أيضاً بموضع يعرف يدجوة ، وكان نزولنا فى مصر بفندق أبى الشناء فى زقاق القناديل بقربى من جامع عمرو بن العاص فى حجرة كبيرة على باب الفندق المذكور .

أقام ابن جبير بالقاهرة أياماً زار فى أثنائها معالمها الرئيسية وآثارها ومدارسها ، تلك التى يقول الرحالة المغربى عنها : —

فأول ما بدأ يذكره منها الآثار والمشاهد الباركة التى يركتها عسكها الله عز وجل . فمن ذلك للشهد العظيم الشأن الذى بمدينة القاهرة حيث رأس الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهما^(١) وهو فى تابوت فضة مدفون تحت الأرض ، قد بنى عليه بئان حفىل يقصر الوصف عنه ولا يحيط الإدراك به ، مجمل بأنواع الديباج ، محفوف بأمثال العمدة الكبار شمعاً أبيض ومنه ما هو دون ذلك قد وضع أكثرها فى أتوار فضة^(٢) خالصة ومنها مذهبة وعلقت عليه قناديل وحف أعلاه كله بأمثال التفافيح^(٣) ذهباً فى مصنع^(٤) شبيه الروضة بقيد الأبصار حسناً وجمالاً فيه من أنواع الرخام المجزع الغريب الصنعة البديع الترصيع ما لا يتخيله التخيلون ولا يلحق أدنى وصفه الواصفون ، والدخل إلى هذه الروضة على مسجد على مثالها فى التأنق والقرابة ، حيطانها كلها رخام على الصفة المذكورة وعن عيين الروضة المذكورة وشمالها بئان من كليهما للدخل إليها ، وهما أيضاً على تلك الصفة يعينها والأستار البديعة الصنعة من الديباج معلقة على الجميع ، ومن أعجب ما شهدناه فى دخولنا إلى هذا المسجد المبارك حجر موضوع فى الجدار الذى يستقبله الداخل شديد السواد والبصيص^(٥) يصف الأشخاص كلها كأنه المرآة الهندسية الحديثة للصقل ، وشاهدنا من استلام الناس للقبر المبارك ، وإحداقهم به ، وانكبابهم عليه ، ومسحهم بالكسوة التى عليه ، وطوافهم حوله مزدحمين داعين بآكين متوسلين إلى الله سبحانه وتعالى ببركة التربة المقدسة ومتضرعين بما يذيب الأكباد ويصدع الجفاد والأمر فيه ومراى الحال أهول ، نعمنا الله ببركة ذلك الشهد الكريم . وإنما وقع الإلماع^(٦) بنبذة من

(١) قيل أنها رأس زيد بن على ابن الحسين . المقرئى ج ٢ ص ٤٣٦

(٢) أتوار جمع تور ، وهو الشمعدان (٣) التفافيح جمع تفاحة ويعنى هنا الكرات .

(٤) المصنع هو القصر أو الحصن (٥) البصيص هو البريق واللمعان .

(٦) الإلماع هو الإشارة .

صفته يستدل على ما وراء ذلك أن لا ينبغي للعاقل أن يتصدى لوصفه لأنه يقف موقف التقصير والعجز . وبالجملة فما أظن في الوجود كله مصنفاً أحفل منه ولا مرأى من البناء أعجب ولا أبداع ، قدس الله العضو الكريم الذي فيه بمنه وكرمه . وفي ليلة اليوم المذكور بدنا بالجبانة المعروفة بالقرافة ، وهي أيضاً إحدى عجائب الدنيا لما تحتوى عليه من مشاهد الأنبياء وأهل البيت والصحابة والتابعين والعلماء والزهاد والأولياء ذوى الكرامات الشهيرة والأنباء الغريبة .

مشاهد الأئمة العلماء الزهاد :

مشهد الإمام الشافعى (رضه) ، وهو من المشاهد العظيمة احتفالاً واتساعاً ، وبني بإزائه مدرسة لم يعمر بهذه البلاد مثلها ، لا أوسع مساحة ولا أحفل بناء يحيل لمن يتطوف عليها أنها بلد مستقل بذاته بإزائها الحمام إلى غير ذلك من مراقبها . والبناء فيها حتى الساعة والنفقة عليها لا تحصى . تولى ذلك بنفسه الشيخ الإمام الزاهد العالم المعروف بنجم الدين الجبوشانى^(١) . وسلطان هذه الجهات صلاح الدين يسمح له بذلك كله ويقول زد احتفالاً وتأنقاً ، وعلينا القيام بمؤنة ذلك كله ، فسبحان الذى جعل صلاح دينه كاسمه ، ولقينا هذا الرجل الجبوشانى المذكور تبركاً بدعائه لأنه قد كان ذكر لنا أمره بالأندلس ، فألفيناه فى مسجده فى القاهرة وفى البيت الذى يسكنه داخل المسجد المذكور ، وهو بيت ضيق الفناء ، فدعا لنا وانصرفنا ، ولم نلق من رجال مصر سواه ... وفى القرافة المذكورة مساجد مبنية ومشاهد معمورة يأوى إليها العرباء والعلماء والصلحاء والفقراء ، والأجر على كل موضع منها متصل من قبل السلطان فى كل شهر والمدارس التى بمصر والقاهرة كذلك . وذكر لنا أن لجامع عمرو بن العاص بمصر من الفاتحة نحو الثلاثين ديناراً مصرية فى كل يوم تنفق فى مصالحه ومرتبات قومه وسدنته وأئمنه والقراء فيه ، وما شاهدناه بالقاهرة أربعة جوامع حافلة البنيان أنيقة الصنعة ، إلى مساجد عدة . وفى أحد الجوامع الخطبة اليوم ، يأخذ الخطيب فيها مأخذ سنى يجمع فيها الدعاء للصحابة (رضهم) وللتابعين ومن سواهم ، ولأمهات المؤمنين زوجات النبي (صلى الله عليه وسلم) ولعمية الكريمين حمزة والعباس (رضهما) ويلطف الوعظ ، ويرقق التذكير حتى تخشع القلوب القاسية ، وتنفجر العيون الجامدة ، ويأتى للخطبة لابساً السواد على رسم العباسية . وصفة لباسه بدة سوداء عليها طيلسان شرب^(٢) أسود وهو الذى يسمى بالمغرب الإحرام وعمامة سوداء متقلداً سيفاً ، وعند صعوده المنبر يضرب بنصل سيفه المنبر فى أول ارتفاعه ضربة يسمع بها الحاضرون كأنها إيدان بالإنصات وفى توسطه أخرى وفى انتهاء صعوده ثالثة ثم يسلم على الحاضرين يميناً وشمالاً ويقف بين رايين سوداوين فيهما تجزيع بياض قد ركزتاً فى أعلى المنبر ، ودعاؤه فى هذا التاريخ للإمام العباسى أبى العباس أحمد الناصر لدين الله بن الإمام محمد الحسن المستضى بالله بن الامام أبى المظفر يوسف المستنجد بالله ، ثم لحج دولته أبى المظفر يوسف

(١) الجبوشانى هو أبو البركات محمد بن الموفق توفى ٥٧٨ هـ

(٢) الشرب نوع من الحرير اشتهر كثير من مدن مصر بنسجه .

ابن أيوب صلاح الدين ، ثم لأخيه ولي عهده أبي بكر سيف الدين^(١) . وشاهدنا أيضاً ببيان القلعة وهو حصن يتصل بالقاهرة حصين النعمة يريد السلطان أن يتخذ موضع سكناه ، ويعد سورة حتى ينتظم بالمدينتين مصر والقاهرة ، والمسخرون في هذا البنيان والمتولون لجميع امتهاناته ومؤنته العظيمة كشمس الرخام ، ونحت الصخور العظام ، ينقر بالماول تقرأ في الصخر عجباً من العجائب الباقية الآثار : الماوج^(٢) الأسارى من الروم وعددهم لا يحصى كثرة ولا سييل أن يمتن في ذلك البنيان أحد سواهم . ومما شاهدناه أيضاً من مفاخر هذا السلطان . المارستان الذي بمدينة القاهرة وهو قصر من القصور الرائقة حسناً واتساعاً أبرزه لهذه الفضيلة تأجراً واحتساباً ، وعين قيعاً من أهل المعرفة وضع لديه خزائن العقاقير ومكنه من استعمال الأشربة وإقامتها على اختلاف أنواعها ووضعت في مقاصر ذلك القصر أسرة يتخذها المرضى مضاجع كاملة الكسبي ، وبين يدي ذلك القيم خدمة يتكفلون بتفقد أحوال المرضى بكرة وعشية فيقابلون من الأغذية والأشربة بما يليق بهم ، وبإزاء الموضع موضع مقطوع للنساء المرضى ولهن أيضاً من يكفلهن ويتصل بالموضعين المذكورين موضع آخر متسع الفناء فيه مقاصير عليها شبايك الحديد اتخذت محابس للجائنين ، ولهم أيضاً من يتفقد في كل يوم أحوالهم ويتألمها بما يصلح لها ، والسلطان يتطلع هذه الأحوال كلها بالبحث والسؤال ، ويؤكد في الاعتناء بها والثابرة عليها غاية التأكيد . وبمصر مارستان آخر على مثل ذلك الرسم بينه وبين مصر والقاهرة ، المسجد الكبير المنسوب إلى أبي العباس أحمد بن طولون وهو من الجوامع العتيقة الأنيقة الصنعة الواسعة البنيان، جعله السلطان مأوى للغرباء من الغاربة يسكنون ويحلون فيه . وأجرى عليهم الأرزاق في كل شهر . ومن أعجب ما حدثنا به أحد المتخصصين منهم ، أن السلطان جعل أحكامهم إليهم ولم يجعل يداً لأحد عليهم ، فقدموا من أنفسهم حاكماً يمثلون أمره ويتحاكمون في طوارئ أمورهم عنده واستصحبوا الدعة والعافية وتفرغوا لعبادة ربهم ، ووجدوا من فضل السلطان أفضل معين على الخير الذي هم بسبيله . وما منها جامع من الجوامع ولا مسجد من المساجد ولا روضة من الروضات المبنية على القبور ولا محرس من المحارس ولا مدرسة من المدارس إلا وفضل السلطان يعم جميع من يأوى إليها ، ويلتزم السكنى فيها تهوئاً عليه في ذلك نفقات بيوت الأموال ، ومن مآثره الكريمة عن اعتنائه بأمور المسلمين كافة ، أنه أمر بعارة محاضر^(٣) لزمها معلمين لكتاب الله عز وجل يعلمون أبناء الفقراء والأيتام خاصة وتجري عليهم الجراية الكافية لهم . ومن مفاخر السلطان صلاح الدين وآثاره الباقية المنفعة للمسلمين ، القناطر التي شرع في بنائها بغربي مصر وعلى مقدار سبعة أميال منها بعد رصيف ابتدئ من حيز النيل بإزاء مصر كأنه جبل ممدود على الأرض تسير فيه مقدار ستة أميال منها بعد حتى تصل بالقنطرة المذكورة وهي نحو الأربعين قوساً من أكبر ما يكون من قسي القناطر ، والقنطرة تصله بالصحراء التي تقضى منها إلى الاسكندرية ، له

(١) الملك العادل .

(٢) الماوج جمع عالج وهو الرجل من العجم .

(٣) المحاضر هنا هي المدارس .

في ذلك تدبير عجيب من تدابير الملوك الحزمة إعداداً لحادثة تطرأ من عدو يدهم جهة نجر الاسكندرية عند فيض النيل وانغمار الارض به وامتناع سلوك العساكر بسببه ، فأعد ذلك مسلكاً في كل وقت ، إن احتيج إلى ذلك . والله يدفع عن حوزة المسلمين كل متوقع ومخذور عنه . ولأهل مصر في شأن هذه القنطرة إنذار من الانذارات الحدثانية^(١) ، يرون أن حدوثها إيدان باستيلاء الموحدين^(٢) عليها وعلى الجهات الشرقية ، والله أعلم بغيه ، لا إله سواه .

الاهرام وأبو الهول :

ومقربة من هذه القنطرة الحديثة — الأهرام — القديمة ، المعجزة البناء ، الغربية المنظر ، المربعة الشكل ، كأنها القباب المضروبة قد قامت في جو السماء ، ولا سيما الاثنان منها فإنهما يفتح الجوهما سمواً ، في سعة الواحد منها من أحد أركانها إلى الركن الثاني ، ثلاث مئة خطوة ، وست وستون خطوة ، قد أقيمت من الصخور العظام المنحوتة . وركبت تركيباً هائلاً ، بديع الاصلاق ، دون أن يتخللها ما يعين على إصاقها ، محدودة الاطراف في رأى العين ، وربما أمكن الصعود إليها على خطر ومشقة ، فتلقى أطرافها المحددة كأوسع ما يكون من الرحاب ، لو رام أهل الأرض نقض بنائها لأعجزهم ذلك . للناس في أمرها اختلاف : فمنهم من يجعلها قبوراً لعاد وبنيه ، ومنهم من يزعم غير ذلك . وبالجملة فلم يعلم شأنها إلا الله عز وجل . ولأحد الكبيرين منها باب يصعد إليه على نحو القامة من الأرض أو أزيد ، ويدخل منه إلى بيت كبير سعته نحو خمسين شبراً . وطوله نحو ذلك . وفي جوف ذلك البيت رخامة طويلة مجوفة ، شبه التي تسميها العامة البيلة^(٣) ، يقال : أنها قبر والله أعلم بحقيقة ذلك . ودون الكبير هرم سعته من الركن الواحد إلى الركن الثاني مئة وأربعون خطوة . ودون هذا الصغير خمسة صغار ، وثلاثة متصلة ، والاثنان على مقربة منها متصلان . وعلى مقربة هذه الاهرام بمقدار غلوة^(٤) صورة غريبة من الحجر ، قد قامت كالصومعة ، على صفة آدمى هائل المنظر ، وجهه إلى الأهرام ، وظهره إلى القبلة مهبط النيل ، تعرف بأبي الهول .

وبمدينة مصر المسجد الجامع المنسوب لعمر بن العاص رضى الله عنه . وله أيضاً بالاسكندرية جامع آخر هو مصلى الجملة للمالكين . وبمدينة مصر آثار من الحراب الذي أحدثه الإحراق الحادث بها ، وقت الفتنة عند انتساح دولة العبيديين^(٥) وذلك سنة أربع وستين وخمس مئة . وأكثرها الآن مستجد والبيان

(١) نسبة إلى حدثان الدهر ، وهي حوادثه وتقلباته .

(٢) للوحدون هم الأسرة التي حكمت المغرب من ٥١٥ — ٦٦٨ هـ واستولت على الأندلس أيضاً .

(٣) البيلة هي حوض النافورة .

(٤) الغلوة هي المدى الذي يذهب به السهم حين يرمى به .

(٥) العبيديون هم الفاطميون .

بها متصل . وهى مدينة كبيرة ، والآثار القديمة حولها ، وعلى مقربة منها ، ظاهرة تدل على عظمة اختطاطها فيما سلف .

الجزيرة والروضة :

وعلى شط نيلها ، مما يلي غربها — والنيل معترض بينها — قرية كبيرة حفيلة البنيان ، تعرف بالجزيرة . لها كل يوم أحد سوق من الأسواق العظيمة ، يجتمع إليها . ويعترض بينها وبين مصر جزيرة فيها مسكن حسان ، وعلاى^(١) مشرقة . وهى مجتمع اللهو والنزهة وبينها وبين خليج من النيل ، يذهب بطولها نحو الميل ، ولها مخرج له . وبهذه الجزيرة مسجد جامع يخطب فيه . ويتصل بهذا الجامع المقياس الذى يعتبر فيه قدر زيادة النيل عند فيضه كل سنة . واستشعار ابتدائه فى شهر يونيو ومعظم انتهائه أغسطس^(٢) وآخره أول شهر أكتوبر . وهذا المقياس عمود رخام أبيض مثنى ، فى موضع ينحصر فيه الماء عند انسيابه إليه ؛ وهو مفصل على اثنتين وعشرين ذراعاً ، مقسمة على أربعة وعشرين قسماً ، تعرف بالأصابع . فإذا انتهى الفيض عندهم إلى أن يستوفى للماء تسع عشرة ذراعاً منغمرة فيه ، فهى الغاية عندهم فى طيب العام . وربما كان الناصر منه أكثر بعموم الفيض . والمتوسط عندهم ما استوفى سبع عشرة ذراعاً ، وهو الأحسن عندهم من الزيادة المذكورة ، والذى يستحق به السلطان خراجه فى بلاد مصر ، ست عشرة ذراعاً فصاعداً ، وعليها يعطى البشارة الذى يراعى الزيادة فى كل يوم . والزيادة فى أقسام الذراع المذكورة ، ويعلم بها مياومة ، حتى تستوفى الغاية التى يقضى بها . وإن قصر عن ست عشرة ذراعاً ، فلا محجى للسلطان^(٣) فى ذلك العام ، ولا خراج .

وذكر لنا أن بالجزيرة المذكورة قبر كعب الأبحار رضى الله عنه ، وفى صدر الجزيرة المذكورة أحجار رخام ، قد صورت فيها التماسيح ، فيقال : إن بسببها لا تظهر التماسيح فيما يلي البلد من النيل ، مقدار ثلاثة أميال علواً وسفلاً . والله أعلم بحقيقة ذلك .

ومن مفاخر هذا السلطان المزلفة^(٤) من الله تعالى ، وآثاره التى أبهاها ذكر آجميلا للدين والدنيا : إزالته رسم الخمس المضروب وظيفة على الحجاج مدة دولة العبيدين . فكان الحجاج يلاقون من الضغط

(١) الملاى جمع عليه ، وهى العرفة فى أعلى الدار .

(٢) أغسطس .

(٣) الحجى : جباية الضرائب .

(٤) القرية .

في استبدائها عتياً مجحفاً ، ويسامون فيها خطة خسف باهظة ، وربما ورد منهم من لا فضل لديه على نفقته ، أو لا نفقة عنده ، فيلزم أداء الضريبة المعلومة ، وكانت سبعة دنانير ونصف دينار ، من الدنانير المصرية ، التي هي خمسة عشر ديناراً مؤمنية على كل رأس . ومن يعجز عن ذلك ، فيتناول بأليم العذاب بعذاب . فكانت كاسمها مفتوحة العين ، وربما اخترع له من أنواع العذاب التعليق من الأثنيين أو غير ذلك من الأمور الشنيعة ، فعوذ بالله من سوء قدره . وكان بجدة أمثال هذا التنكيل وأضعافه ، لمن لم يؤد عكسه « بعذاب » ووصل اسمه غير معلم عليه علامة الأداء . فمحا هذا السلطان هذا الرسم للعين ، ودفع عوضاً منه ما يقوم مقامه من أطعمة وسواها . وكفى الله المؤمنين على يدى هذا السلطان العادل حادثاً عظيماً وخطباً أليماً ، فترتب الشكر له على كل من يعتقد من الناس أن حجج البيت الحرام إحدى القواعد الخمس من الإسلام ، حتى يعم جميع الآفاق ، ويوجب الدعاء له في كل صقع من الأصقاع ، وبقعة من البقاع ، والله وراء مجازاة المحسنين ، وهو جلت قدرته لا يضيع أجر من أحسن عملاً . إلى مكوس كانت في البلاد المصرية وسواها ، ضرائب على كل ما يباع ويشترى مما دق أو جل ، حتى كان يؤدي على شرب ماء النيل المكس ، فضلاً عما سواه : فمحا هذا السلطان هذه البدع اللعينة كلها ، وبسط العدل ، ونشر الأمن . ومن عدل هذا السلطان وتأمينه للسبل ، أن الناس في بلاده لا يخلعون لباس الليل تصرفاً فيما يعينهم ولا يستشعرون لدواده هيبة تثنيم . على مثل ذلك شاهدنا أحوالهم بمصر والاسكندرية حسبما تقدم ذكره .

شهر محرم سنة تسع وسبعين ، عرفنا الله . يمنها وبركاتها .

استهل هلاله ليلة الثلاثاء ، وهو اليوم السادس والعشرون من أبريل ، ونحن بمصر ، يسر الله علينا مراننا .

ثم رحل ابن جبير إلى الصعيد في يوم الأحد السادس من محرم المذكور قاصداً إلى « قوص » ماراً بأسوط وأبوتيج وأخميم . الخ .

٢ - موفق الدين عبد اللطيف البغدادي بالقاهرة

(١١٩٤ - ١٢٠٤)

طبيب عالم ورحالة ، موصلي الأصل بغدادي المولد ، ولد بدار جده في درب الفالوذج ببغداد في سنة ٥٥٧ هـ (١١٦٢ م) حفظ على أبيه القرآن وميثاقاً من الحديث ومختصراً في الفقه وآخر في اللغة . ولما ترعرع أرسله أبوه إلى المدرسة النظامية ليتلقى العلم على شيخ بغدادي اسمه كمال الدين عبدالرحمن الانباري ، لكنه لم يكن قادراً على تفهم أحاديث كمال الدين لصعوبتها عليه ، وأمر هذا الشيخ أن يذهبوا به إلى تلميذه الوجيه الواسطي بالمدرسة الظفرية ، وكانت هي المدرسة التحضيرية للنظامية .

أحب الواسطي تلميذه عبد اللطيف فصار يوجه إليه الكلام والسؤال عند شرح الدروس ، وكان عبد اللطيف يقود شيخه الضير إلى داره ويطلع له في الكتب ويحفظه ما يريد حفظه وبعد ذلك يأخذه إلى شيخه كمال الدين ليشرح له ما حفظ .

ولما تقدم وأنس من نفسه قوة الفهم والحفظ ترك المدرسة الظفرية والتحق بالنظامية ، ولما توفي الشيخ كمال الدين كان عبد اللطيف أتم برنامج المدرسة النظامية . ثم التحق بمدرسة دار الذهب ليدرس الفلسفة والحساب على عميدها ابن فضال ، ولما انتهى مما تأقت نفسه إليه دخل كلية الآداب (مدرسة رباط المأمونية) وكان عميدها ابن الحشاش ، فحضر عليه الحديث . وتصادف أن جاء إلى بغداد من المغرب الشيخ الجليل ابن تاتلي من الملتمين ، وكان عالماً بالرياضيات والكيمياء والفلسفة ، فالتفت حوله شببية ببغداد ، وحضر عليه عبد اللطيف دروسه ، فدرس كتب الغزالي وابن سينا وجابر بن حيان وابن وحشية .

يقول عبد اللطيف في سيرته عن نفسه ، « ولما كان في سنة ٥٨٥ هـ (١١٨٩) حيث لم يبق ببغداد من يأخذ بقلبي ويملا عيني ويحل ما يشكل علي ، دخلت الموصل فلم أجد فيها بغيي ، لكن وجدت الكمال ابن يونس جيداً في الرياضيات والفقه ، متطرفاً من باقي أجزاء الحكمة ، قد استغرق عقله ووقته حب الكيمياء وعملها حتى صار يستخف بكل ما عداها . وعرضت على مناصب فاخترت منها مدرسة ابن مهاجر للمعلقة ودار الحديث التي تحتها ، وأقمت بالموصل سنة في اشتغال دائم متواصل ليلاً ونهاراً ... »

رحل عبد اللطيف من الموصل بعد ما أقام بها سنة كاملة إلى دمشق والتحق بكلية الطب فيها ، ودرس كتب أرسطاليس ومؤلفات جالينوس ، وبعد ذلك تأقت نفسه إلى مصر وكان قصده بها الاجتماع بياسين السباوي ورئيس الأطباء موسى بن ميمون وأبي القاسم الشارعي ، فسافر من دمشق إلى عكا حيث كان معسكر السلطان صلاح الدين الأيوبي وقتها ، وهناك قدم نفسه إلى بهاء الدين بن شداد قاضي عسكر

صلاح الدين فأكرمه ، وأخذه إلى العماد الكاتب ، فلما دخل عليه (العماد) وجده يكتب كتاباً بالثلث إلى الديوان بغير مسودة ، فابتسم العماد وقال :

إن هذا كتاب إلى بلدكم ، ثم أخذه من يده ليقدمه إلى القاضي الفاضل وزير صلاح الدين وهو عبد الرحيم البيهقي .

ولما دخل عبد اللطيف مع العماد الكاتب ، على القاضي الفاضل عبد الرحيم البيهقي رآه يكتب كتاباً بيده وعلى كتابين على كتابين كانا أمامه في وقت واحد وكان يحرك شفطيه وعضلات وجهه على الدوام حرصاً على الكلام ؛ وبعد أن سلم عليه أمره بالجلوس فجلس عبد اللطيف وأخذ القاضي الفاضل يمتحنه ، فسأله عن جواب (إذا) في قوله تعالى : « حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها » ثم سأله عدة أسئلة أخرى ، جاوب عليها عبد اللطيف بما سر منه القاضي الفاضل فأمر له بوظيفة في دمشق ، فقال عبد اللطيف ، أريد السفر إلى مصر ، فأجابه أن السلطان صلاح الدين مشغول القلب بسبب أخذ الإفريج عكاء وقتلهم المسلمين . فقال عبد اللطيف « أريد يامولاي السفر إلى مصر . فأخذ القاضي الفاضل ورقة صغيرة ، وكتب عليها جواب توصية إلى وكيله وهو ابن سناء الملك .

أخذ عبد اللطيف الجواب وسافر إلى القاهرة وبعث به لابن سناء الملك ، فجاءه في الحال إلى الخان الذي نزل فيه ، وقدم له داراً أزيحت عليها ودنانير وغلة ، ثم مضى إلى أرباب الدولة وقال هذا ضيف القاضي الفاضل ، فدرت عليه الهدايا والصلوات من كل جانب حتى أصبح من الثرين ، ثم عرض ابن سناء الملك الوظائف على عبد اللطيف ؛ فاختار منها مسجد لؤلؤ الحاجب الواقع بالقرافة لتدريس الطب والفلسفة والرياضيات ويؤلف كتبه .

ثم رأى عبد اللطيف أن يلتقي بالرجال الذين جاء إلى مصر من أجلهم ، فقصد الشيخ ياسين السياموي فوجده مشعوذاً سحاراً ، ولم ترق أعماله لدى عبد اللطيف . ثم ذهب إلى رئيس الأطباء موسى بن ميمون ، فوجده عالماً متيناً وطيباً قديراً ترجم كتب جالينوس وألف بالعبرانية كتاباً في العقائد ، وقد تردد عليه عبد اللطيف كثيراً وحضر عليه .

وبينا كان عبد اللطيف يلقي دروسه بمدرسة مسجد لؤلؤ الحاجب ، دخل عليه شيخ رث الثياب مهيب الطلعة قام له الطلبة ، ومع ذلك لم يلتفت عبد اللطيف إلى الشيخ ، بل استمر في الدرس إلى آخره ، ثم تقدم إليه إمام المسجد وقال له إن الشيخ القادم عليكم هو أبو القاسم الشارعي ، فتقدم إليه عبد اللطيف وعانقه وقال له : « لأجلك جئت مصر وأخذه معه إلى داره وأكرمه . وكان كثير الاجتماع به ، ووجده . كما تشتهي الأنفس وتلد الأعين ، سيرته سيرة الحكماء المقلاء وكذا صورته » .

أقام عبد اللطيف بمصر وهو موضع إكرام علمائها ورؤسائها ، حتى بلغه أن السلطان صلاح الدين هادن الأفرنج وأنه في القدس ، فسافر إليه بعد أن أخذ معه من مصر مجموعة من أنس الكتب القديمة

ودخل عليه فرآه في مجلس حافل بالعلماء والأمرء ، وكانوا يتحادثون في مختلف العلوم ، وصلاح الدين يسمع قولهم بكل إصغاء ، رآه عبد اللطيف ذات مرة يحمل على كتفه الحجارة والتراب في بناء سور القدس وحفر الخندق حوله ، ويعمل معه القاضي الفاضل مع ضعفه ، والعماد الكاتب وبهاء الدين بن شداد وغيرهم .

وأمر صلاح الدين بتعيين عبد اللطيف أستاذاً بالجامع الأعظم بدمشق ورتب له ثلاثين ديناراً في الشهر ، ولما سافر إلى دمشق ورآه الأفضل بن صلاح الدين وقدر عمله ، رفع ذلك المرتب إلى مائة دينار في الشهر .

وبعد فترة توفي صلاح الدين في سنة ٥٨٩ هـ (١١٩٣) فحزن الشعب عليه وأقام عبد اللطيف في منصبه بدمشق إلى أن جاء العزيز عثمان بن صلاح الدين من مصر بعساكره المصرية وحاصر أخاه الأفضل ، وعند رجوعه إلى القاهرة أخذ معه عبد اللطيف وعينه أستاذاً بالجامع الأزهر لتدريس الطب والفلسفة واستمر على ذلك حتى توفي الملك العزيز في عام ٥٩٥ هـ (١١٩٨ - ٩٩ م) .

استمر عبد اللطيف بالقاهرة إلى ما بعد المجاعة الكبرى التي داهمت مصر وأعقبها ذلك الفناء الكبير ، وحكمها العادل أبو بكر أيوب شقيق صلاح الدين ، وفي تلك الفترة ألف عبد اللطيف كتابه « الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعينة بأرض مصر » وقد ذكر أنه انتهى من تأليفه في سنة ٦٠٠ هـ / ١٢٠٣ م . ويعتبر الكتاب وثيقة هامة لشاهد عيان رأى بعينه أحداث مصر أثناء حكم أسرة الأيوبيين .

رحل إلى القدس وأقام بها مدة وكان يتردد خلالها على الجامع الأقصى وصنف هنالك كتباً كثيرة . وفي عام ٦٠٤ (١٢٠٧ هـ / ٨ م) رحل إلى دمشق ونزل بالمدرسة العزيزية واشتغل بالتدريس وتميز بها في صناعة الطب وصنف فيه كتباً كثيرة . وأخيراً غادرها إلى حلب لبدأ رحلته في الأناضول وأقام بها عدة سنين ثم عاد ثانية إلى حلب وعين شيخاً لمسجدها الجامع ، وقد آتم فيها كتبه ، وعزم على أن يرفها إلى الخليفة العباسي بغداد الناصر لدين الله ، فسافر إلى بغداد بعد غيبة خمس وأربعين سنة يحصل العلم ويخدمه فاستقبله الخليفة بما يليق بقدره وعلمه .

وبينا كان يجهز نفسه لأداء فريضة الحج ، مرض ثم وافته المنية وكان ذلك يوم الأحد ١٢ محرم ٦٢٩ هـ (١٢٣١ م) ودفن بالوردية عند أبيه .

* * *

إن أهم ما وصل إلينا من مؤلفات البغدادي كتاب « الافادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعينة بأرض مصر » ويتضمن هذا الكتاب وصفاً مسهباً لأحوال وادى النيل في نهاية القرن السادس أي حوالي عام ١٢٠٠ (١) ، وقد تنبه عبد اللطيف إلى قيمة الآثار وأهميتها التاريخية وضرورة المحافظة عليها ، ولكنه ذكر في كتابه أن العامة من المصريين في عصره كانوا يخربون الآثار ويكسرون الأصنام ويدخلون

(١) طبعة المجلة الجديدة بالقاهرة (بدون تاريخ) .

إلى المقابر بحسباً عن الكنوز وسعياً وراء الذهب المدفون مع الموتى ، والغريب أن البغدادي استطاع أن يصف آثار مصر وصفاً دقيقاً ، وأن يكتب عن المقابر الأثرية وما فيها من كتابات أثبتت صحتها أبحاث علماء الآثار في العصر الحديث .

قال عبد اللطيف عن الأبنية في مصر :

... وأما أبنيتهم ففيها هندسة بارعة وترتيب في الغاية ، حتى أنهم قلما يتركون مكاناً غفلاً خالياً عن مصلحة ودورهم أقيح ، وغالب سكناتهم في الأعالي ويجعلون منافذ منازلهم تلقاء الشمال والرياح الطيبة ، وقلما تجد منزلاً فيه باذاهيج^(١) وبأذاهيجانهم كبار ، واسطة للريح . عليها تسلط ويحكمونها غاية الإحكام ، حتى أنه يقدم على عمارة الواحد منها مائة دينار إلى خمس مائة وإن كانت باذاهيجات المنازل الصغار يغرم على الواحد منها دينار وأسواقهم وشوارعهم واسعة وأبنيتهم شاهقة ، وبينون بالحجر النحت والطوب الأحمر وهو الآجر ، وشكل طوبهم على نصف طوب العراق .

ويحكمون قنوات المراحيض ، حتى أنه تخرب الدار والقناة قاعة ، ويحفرون الكنف إلى المئين ، فتمر عليها برهة من الدهر طويلة ولا يفتقر إلى كسح ، وإذا أرادوا بناء ربيع أو داراً وقيسارية استحضر المهندس وفوض إليه العمل فيعمد إلى العرصة وهي تل تراب أو نحوه فيقيسها في ذهنه ويرتبها بحسب ما يقترح عليه ثم يعمد إلى جزء من تلك العرصة فيممره ويكمله بحيث ينتفع به على انفراده ويسكن ، ثم يعمد إلى جزء آخر ، ولا يزال كذلك حتى تكمل الجملة بكامل الأجزاء من غير خلل .

وأما حماماتهم ، فلم أشاهد في البلاد أتقن منها وصفاً ولا أتم حكماً ولا أحسن منظراً ومخبراً . فإن أحواضها يسع الواحد منها ما بين راويتين إلى أربع روايا وأكثر من ذلك ، يصب فيها ميزابان حار وبارد وقبل ذلك يصبان في حوض صغير جداً مرتفع ، فإذا اختلطتا فيه جرى منه إلى الحوض الكبير ، وهذا الحوض نحو ربه فوق الأرض وسائرة في عمقها . ينزل إليه المستحم فيستقع فيه . وداخل الحمام مقاصير بأبواب وفي المسلح أيضاً مقاصير لأرباب التخصص حتى لا يختلطوا بالعوام ولا يظهروا على عوراتهم ، وهذا المسلح بمقاصيره حسن القمة مليح البنية ، وفي وسطه بركة مرخمة وعليها أعمدة وقبة ، وجميع ذلك مزوق السقوف مزخرف الجدران مبيضا ، مرخم الأرض بأصناف الرخام مجزع باختلاف ألوانه وترخيم الداخل يكون أبداً أحسن من ترخيم الخارج ، وهو مع ذلك كثير الضياء مرتفع الازراج ، جاماته مختلفة الألوان صافية الأصباغ ، بحيث إذا دخله الإنسان لم يؤثر الخروج منه ، لأنه إذا بالغ بعض الرؤساء أن يتخذوا داراً لسوكة وتباهى في ذلك لم تسكن أحسن منه .

ثم تكلم عبد اللطيف بعد ذلك عن مستوقد الحمام ، فقال إن فيه بيت النار ، وهو فرن فرشت أرضه

(١) الباذاهيج هي الناور العلوية التي تنشأ في سطح الغرف العليا .

بالمح^(١) عليه قبة مفتوحة بحيث يصل إليها لسان النار ويصف على أفاريزها أربع قذور رصاص وتتصل هذه القذور من أعاليها بأنايب فيدخل الماء من مجرى البئر إلى فسقية عظيمة ، ومنها إلى القدر الأولى فيكون بارداً ، ثم يجرى منها إلى القدر الثانية ويكون قد سخن قليلاً ، ومنها إلى الثالثة فيسخن أكثر ثم إلى القدر الرابعة ، فيتناهى في الحرارة ، ثم يخرج من الرابعة إلى مجارى الحمام ، وقد امتدح عبد اللطيف هذه الطريقة في تسخين الماء ، والواقع أنه أعجب بكل ما شاهد في القاهرة من غرائب الأبنية ووسائل الراحة .

ووصف البغدادى أهم الأطعمة في القاهرة ، ورأى القاهريين يطبخون الدجاج بالسكر ويضيفون إليه الفستق أو الجوز أو الحشخاش ويسمونه الفستقية أو الجوزية أو الحشخاشية . أما الحلوى فكثيرة ولهم مهارة في صناعة المربي وسماها الحبيص وأقراص البنفسج والورد وغيره . وذكر أنه بدمياط يأكلون السمك ويطبخون به كل ما يطبخ باللحم عادة ولا سيما مع الأرز .

٣ - ابن سعيد في القاهرة

(٦٤٠ هـ / ١٢٤٣ م)

وصف ابن سعيد مدينة القاهرة في « كتاب النجوم الزاهرة في حلى حضرة القاهرة » من « المغرب » :

هذه المدينة اسمها أعظم منها وكان ينبغي أن تكون في ترتيبها ومبانيها على خلاف ما عاينته ، لأنها مدينة بناها المعز أعظم خلفاء العبيديين ، وكان سلطانه قد عم جميع طول المغرب من أول الديار المصرية إلى البحر المحيط ، وخطب له في البحرين من جزيرة العرب عند القرامطة وفي تلة (؟) وفي المدينة وبلاد اليمن وماجاورها وعلت كلمته . لاسيما وقد عاين مباني أبيه المنصور في مدينة المنصورة التي إلى جانب القيروان ، وكانت من أعظم الدائن ، وعاين المهدي مدينة جده عبيد الله المهدي ، لكن الهمة السلطانية ظاهرة على قصور الخلفاء بالقاهرة ، وهي ناطقة إلى الآن بألسن الآثار .. والمسكان الذي يعرف في القاهرة بين القصرين هو من الترتيب السلطاني ، لأن هناك مساحة متسعة للمعسكر والتفرجين ما بين القصرين . ولو كانت القاهرة كلها كذلك كانت عظيمة القدر كاملة الهمة السلطانية ، ولكن ذلك أن قليل ، ثم تسير منه إلى أن ضيق وتمرفي بمركدر حرج بين الدكاكين ، إذا ازدحت فيه الخيل مع الرجال كان في ذلك ما تضيق منه الصدور وتسخن معه العيون ، ولقد عاينت يوماً وزير الدولة وبين يديه الأمراء وهو في موكب جليل وقد لقي في طريقه عجلة بقر تحمل حجارة وقد سدت جميع الطرق بين الدكاكين ، ووقف الوزير وعظم الازدحام ؛ وكان في موضع طباخين ، والدخان في وجه الوزير وعلى ثيابه ، وقد كاد

(١) الملح في طبيعته حفظ الحرارة .

يهلك المشاة وكادت أهلك في جملتهم . وأكثر دروب القاهرة ضيقة مظلمة وكثيرة التراب والأزبال ،
والمباني عليها من قصب وطين مرتفعة قد ضيقت مسلك الهواء والضوء بينها الخ » .

ولم أر في جميع بلاد المغرب أسوأ حالا منها في ذلك ، ولقد كنت إذا مشيت فيها يضيق صدري
ويدركني وحشة عظيمة حتى أخرج إلى بين القصرين . ومن عيوب القاهرة أنها في أرض النيل الأعظم
ويموت الإنسان فيها عطشاً بعدها عن مجرى النيل لثلا يصادها ويأكل ذيارها ، وإذا احتاج الإنسان
إلى فرجة في نيلها مشى في مسافة بعيدة بظاهرها بين المباني التي خارج السور إلى موضع يعرف بالقس ،
وجوها لا يبرح كدراً بما تثيره الأرجل من التراب الأسود ، وقد قلت فيها حين أكثر رفاقي من الحصى على
العود إليها .

يقولون سافر إلى القاهرة ومالي بها راحة ظاهرة
زحام وضيق وكرب وما تشير بها أرجل السائرة

وعند ما يقبل المسافر عليها يرى سوراً أسود كدراً وجواً منعباً فتقبض نفسه ويفر أنسه ، وأحسن
موضع في ظواهرها للفرجة أرض الطبالة . وأعجبتني في ظاهرها بركة الفيل لأنها دائرة كالبدر والمناظر
فوقها كالنجوم ، وعادة السلطان أن يركب فيها بالليل وتسرج أصحاب المناظر على قدر همتهم وقدرتهم
فيكون بذلك لها منظر عجيب وفيها أقول :

أنظر إلى بركة الفيل التي اكتفت بها المناظر كالأهداب للبصر
فكأنما هي والأبصار ترمقها كواكب قد أداروها على القمر

والقاهرة هي أكثر عمارة واحتراماً وحشمة من الغسقاط لأنها أجل مدارس وأضخم خانات وأعظم
دياراً لسكنى الأمراء فيها ، لأنها المخصوصة بالسلطنة لقرب قلعة الجبل منها . فأمر السلطنة كلها فيها أيسر
وأكثر وبها الطراز وسائر الأشياء التي تزين بها الرجال والنساء .

وما كل أهل القاهرة الدميس والصير والصحناة والبطارخ ولا تصنع النيدة وهي حلاوة القمح إلا بها
وبغيرها من الديار المصرية ، وفيها جوار طبابخات أصل تعليمهن من تصور الخلفاء الفاطميين ، لمن في
الطبخ صناعة عجيبة . وفي القاهرة أزاهير كثيرة وأكثر ما فيها من الثمرات والفواكه والرمان والموز
والتفاح ، وأما الأجاص (السكثري) فقليل غال وكذلك الخوخ ، وفيها الورد والزرع والسريرين
واللينوفر والبنفسج والياسمين والليمون الأخضر والأصفر . وأما العنب والتين فقليل غال ، ولكثرة
ما يعصرون العنب في أرياف النيل لا يصل منه إلا القليل ومع هذا فتراؤه عندهم في نهاية
موسم الغلاء . . .

وقد دخلت في الخليج الذي بين القاهرة ومصر ومعظم عمارته فيما يلي القاهرة ، فرأيت فيه من ذلك العجائب وربما وقع فيه قتل بسبب السكر فيمنع فيه الشرب وذلك في بعض الأحيان ، وهو ضيق ، عليه في الجهتين مناظر كثيرة العمار بعالم الطرب والتهمك والمخالمة حتى أن المحتشمين والرؤساء لا يجيزون العبور به في مركب ، وللسرج في جانبه بالليل منظر فتان ، وفي ذلك أقول :

لا تركبن في خليج مصر إلا إذا أسدل الظلام
 فقد علمت الذي عليه من عالم كلمهم طغام
 يا سيدي لا تسر إليه إلا إذا هوم النيام
 والليل ستر على التصابي عليه من فضله لثام

(١) الخ

(١) ابن سعيد : كتاب المغرب في حلى المغرب ، حققه جماعة من الأساتذة : جامعة القاهرة ، ١٩٥٠ .

آثار الأيوبيين في القاهرة

قلعة الجبل

أهم الآثار الخالدة التي شيدها السلطان صلاح الدين الأيوبي في مصر والشام ، وتنهض القلعة على نشد يتصل بجبل المقطم ، في موضع كانت تشغله فيه قبة سميت بقبة الهواء ، أقام على عمارتها الأمير بهاء الدين قراقوش فشرع في بنائها (٥٧٢ هـ - ١١٧٦ م) ثم توقف العمل فيها فترة من الزمن ، إلى أن كانت سلطنة الملك الكامل محمد بن الملك العادل ، فأتم بناء القلعة وأنشأ بها الدور السلطانية وذلك في عام ٦٠٤ هـ / ١٢٠٧ م ، وقد سكن فيها ثم استمرت من بعد وفاته دار مملكة مصر ، ثم أضيفت إليها أجزاء كثيرة على أيام الأيوبيين والمماليك ومن خلفهم من الحكام .

ويتبين من تخطيط القلعة أنها تتألف من قسمين من الأرض مستقلين ، الشمالي منها يشبه مستطيلاً ذا أبراج بارزة ، ويفصله عن القسم الجنوبي حائط سميك وأبراج ضخمة ويخرج القسم الجنوبي من الشمالي مكوناً معه زاوية قائمة ، وحدود هذا المربع ليست منتظمة . والمعروف عند علماء الآثار أن الجزء الأكبر من القلعة قد تم في سنة ٥٧٩ هـ (١١٨٣ م) ، أما البرفن المحتمل أنها تمت في عام ٥٨٣ هـ (١١٨٧ م) وهو العام الذي أسر في غضونه صلاح الدين كثيراً من الفرنجة اشتغلوا في حفرها وبنائها ، وكان حول القسم الشرقي من القلعة خندق ولا يزال أثره ظاهراً .

وللدخول القلعة بابان . أحدهما الباب الأعظم المواجه للقاهرة ويقال له الباب المدرج ، والباب الثاني باب القرافة يواجه المقطم ، وبين البابين ساحة فسيحة ، ثم كان للقلعة باب ثالث وهو باب السر ويختص بالدخول والخروج منه أكابر الأمراء وخواص الدولة كالوزير وكاتب السر ونحوها .

ويعزى إلى صلاح الدين بناء جدران السور وأبراجه النصف الدائرية ، وينسب إلى الملك العادل بناء الأبراج الثلاثة الكبيرة التي بالجانب القبلي وعلى برج صفطة وبرج العلو و برج قرقيلان ، وكذلك الزيادة التي أضيفت لباب القرافة والجزء الخارجي ببرج الرملة وبرج الحداد والجزء الداخلي ببرج الصحراء والبرج الكبير الذي لم يتبق منه سوى قاعدته ، والبرجان الكبيران المربعان في الركن الشمالي الغربي من السور ، وقد تمت أعمال العادل سنة ٦٠٤ هـ (١٢٠٦/١٢٠٧ م) .

وقد وسعت القلعة في أيام حكم الناصر محمد بن قلاوون وأجبه هذا التوسع إلى الجنوب عندما بدأ بناية الحوش في سنة ٧٣٨ هـ (١٣٣٧/١٣٣٨ م) ، وكانت مساحته أربعة أفدنة كما أنه شيد مسجده .

ويمكن القول أن إصلاح القلعة قد تم على خمسة مراحل :

- ١ - في أيام السلطان برقوق على جرّس الخليلي في ربيع الثاني عام ٧٩١ هـ (١٣٨٩ م)
- ٢ - في أيام السلطان جقمق في ذي القعدة عام ٨٥١ هـ (١٤٤٨ م)
- ٣ - في أيام السلطان قايتباي (١٤٦٧ - ١٤٩٦ م)
- ٤ - في أيام السلطان طومانباي في رمضان عام ٩٠٦ هـ (١٥٠١ م)
- ٥ - في أيام الخديوي اسماعيل في رجب ١٢٨٥ هـ (١٨٦٨ م)

وأعمال الإصلاح هذه ، مثبتة في كتابات منقوشة على جدران القلعة . وترى اليوم على الجدار الذي يقع إلى يمين المدخل الخارجي لباب المدرج^(١) .

قبة الامام الشافعي

جمع الله تعالى للإمام الشافعي من العلوم وكثرة الأتباع ما لم يجمع لأحد قبله . ولد بغزة سنة ١٥٠ هـ (٧٦٧ م) واتصل بالإمام مالك رضي الله عنه بالمدينة ودرس عليه ، ثم استقل عنه وأسس مذهبه المعروف ، وأقام بالمدينة إلى أن توفي مالك . ثم قدم بغداد سنة ١٩٥ هـ (٨١٠/١١ م) فبقي بها سنتين واستمع عليه علماءها ، ثم خرج إلى مكة ومنها عاد إلى بغداد سنة ١٩٨ هـ (٨١٢/١٤ م) فأقام بها شهراً ثم قدم إلى مصر وأقام بها إلى أن توفي سنة ٢٠٤ هـ (٨١٩ م) ودفن بتربة أولاد ابن عبد الحكم .

وفي عام ٥٧٢ هـ (١١٧٦ م) بنى السلطان صلاح الدين الأيوبي تربة الشافعي وأنشأ بجوارها المدرسة الصالحية (الصلاحية) ، وفي سنة ٥٧٤ هـ (١١٧٨ م) فرغ من عمل التابوت الخشبي الذي يعلو تربة الشافعي وهذا التابوت مصنوع من خشب الساج الهندي المقسم إلى حشوات هندسية منقوشة ومكتوب عليها آيات قرآنية ، وترجمة حياة الشافعي واسم الصانع الذي قام بعمله وذلك بالخطين الكوفي ، والنسخ الأيوبي .

ولما توفيت والدة الملك الكامل بن العادل سنة ٦٠٨ هـ (١٢١١ م) شيد الكامل قبة كبيرة ضمت إلى قبر الشافعي وقبر أولاد ابن عبد الحكم وأفراد الأسرة الأيوبية ، ثم أجرى الماء إليها من بركة الحبش ، وكان الفراغ من إنشائها في يوم الأحد ٧ جمادى الأولى سنة ٦٠٨ هـ (١٢١١ م) ثم أنشأ تابوتاً من الخشب فوق تربة والدته لا يقل دقة عن تابوت الشافعي .

(١) دكتور عبد الرحمن زبي : قلعة صلاح الدين وقلاع إسلامية معاصرة ١٩٦٠

وفي سنة ٨٥٥ هـ (١٤٨٠ م) عمر السلطان قايتباي تلك القبة وصحح اتجاه المحراب ، كما جدد الوزرة الرخامية . وفي ١١٨٦ هـ (١٧٧٠ م) جدد الأمير على بك الكبير أعلى القبة وكساها بصفائح الرصاص ووجد نقوشها من الداخل بالذهب والأصباغ وكتب بأفريزها تاريخاً منظوماً .

دار الحديث الكاملية

أنشأها الملك الكامل محمد بن المادل الأيوبي لدراسة الحديث الشريف ، وكان ذلك في عام ٦٢٢ هـ — ١٢٢٥ م ، وهي ثانی مدرسة أقيمت للحديث ، قيل إن الملك نور الدين محمود زنكي ، كان أول من بنى داراً خصها لتلك الدراسة الجليلة ، وقد وقفها الكامل على المشتغلين بالحديث النبوي ثم من بعدهم على الفقهاء الشافعية ، وقد وقف عليها الربيع الذي كان بجوارها على باب الحرتقش المواجه لمسجد الأقرم ، وكان أول من ولى التدريس في الكاملية ، الحافظ أبو الخطاب عمرو عثمان بن الحسن . ثم خربت بسبب الأحداث والمحن التي أصابت البلاد . ولم يبق من تلك الدار الكبرى سوى بقايا إيوان الغربي ، وقد نقل منها بقايا زخارف جصية بها كتابات بالخط الكوفي إلى متحف الفنون الإسلامية ، ويرى بعض علماء الآثار ، أن المدرسة الكاملية أقدم نموذج لطرز تخطيط المدرسة ذات الإيوانين . . ذلك الطراز الذي تطور فيما بعد إلى أربعة إيوانات . . وتقع بقايا الدار الكاملية على الجانب الغربي لسوق النحاسين وإلى الناحية الشمالية لمدرسة وضريح السلطان برقوق .

المدرسة الصمـ الحمية

تنسب إلى منشئها الملك الصالح نجم الدين أيوب الذي وضع أساسها في ١٤ ربيع الأول ٦٤٠ هـ — ١١ سبتمبر ١٢٤٢ م ، وبدأت الدراسة بها في العام التالي (٦٤١ هـ — ١٢٤٣ م) بالرغم من ضخامة بنائها . قامت في خط بين القصرين وكان موضعها القصر الفاطمي الشرقي ، وقد دون تاريخ إنشاء المدرسة في اللوحة التذكارية أعلى بابها وبأسفل المئذنة ، وقد دخل فيها باب الزهومة أحداً أبواب القصر المؤدية إلى المطبخ . وقد رتب السلطان فيها الدروس الدينية للفقهاء المنتمين إلى المذاهب الأربعة ، وأول من درس بها في المقابلة قاضي القضاة شمس الدين أبو بكر .

وكان لا يقل مساحة تلك المدرسة الجليلة عن ستة آلاف متر مربع ، تألفت من بنائين كبيرين ، أحدهما يتجه نحو الجنوب والآخر نحو الشمال ، يتوسطهما المدخل الذي تعلوه المئذنة ، وقد اشتمل كل من البنائين على إيوانين كبيرين ، شرقي وغربي . أما الجانبان الشمالي والقبلي فقد تكون كل منهما من عمد تحمل عقوداً من المحتمل أنها كانت تحمل فوقها غرف الأساتذة والطلاب .

وقد اندثرت إيوانات المدرسة الجنوبية ولم يبق بالمدرسة الشمالية سوى الإيوان الغربي . أما الإيوان الشرقى فقد تهدم معظمه . وهناك بين الإيوانين بقايا عمد وعقود وكان طول وجهة المدرسة حوالي مائة متر ، يتوسطها المدخل المذكور وعليه المئذنة التي تحتفظ بطابعها الأيوبي الأصيل . وهذه الوجهة التي بقي جز كبير منها إلى اليوم ، غنية بالنقوش والكتابات ، وقد بذل الجهد في تجميلها الرائع . فإتنا نرى أعتاب النوافذ والأبواب قد حُبست بأفريز مسنن مزخرف يعاونه عتب آخر حليت صنجه بمحقات أو دوائر مزخرفة وفوقها سطر مكتوب به ألقاب السلطان، ثم عقد آخر يحمل مقرنصة من خمس حطات مستطيل الشكل، كتب فيه تاريخ البناء .

أما المئذنة فلها أهمية خاصة عند المشتغلين بالعمارة الإسلامية ، فهي نموذج فريد للمآذن الأيوبية ، ومكاتها من ناحية التطور المعماري بين مئذنتي ضريح أبي الفضل (١١٥٧ م) ومئذنة جامع بيبس الثاني — وهي تتكون من قاعدة مربعة تنتهي بشرفة منمقة محمولة على كوابيل خشبية ويلوها طابق آخر منمق الشكل وأقل ارتفاعاً من السفلى وبكل جانب تجويف متوج بعقد مدبب طاقيته بها قنوات مشعرة ، وبهذا التجويف فتحة معقودة بمقدذى فصوص ، ويلوها المنطقة الثمينة صفان من المقرنصات ، وفي أعلى القمة توجد قبة ذات استطالة رأسية ومضلعة ، تعرف باسم « البحرة » .

ولقد طغت منذ أعوام الأبدية والحوانيت الوضيعة والتصقت ببناء الوجهة ، فأخفت جزءاً كبيراً من زخارفها الجميلة ، وجبذا لو عني المسئولون بإنقاذ هذا الأثر الأيوبي الجميل مما لحق به أثناء أعوام الإهمال السابقة ، فيعملون على استعادة مجده السالف .

قلعة الروضة

عرفت الجزيرة بالروضة نسبة إلى البستان الذي أنشأه في طرفها البحري الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الجمالي في سنة ٤٩٠ هـ — ١٠٩٦ م . وسماه بالروضة وما برحت جزيرة الروضة متنزها ملكياً وسكناً للناس إلى أن ولى الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل سلطنة مصر (٦٣٧ هـ — ١٢٤٠ م) فأنشأ القلعة بالروضة فعرفت بقلعة القياس وبقلعة الروضة ، وبقلعة الجزيرة وبالقلعة الصالحية وبقلعة جيزة القسطنطينية وبقلعة الجزيرة .

ففي يوم الأربعاء خامس شعبان عام ٦٣٨ هـ (١٢٣٩ م) شرع في حفر أساس القلعة وابتدأ ببنائها في يوم الجمعة سادس عشر ، وهدم كثير من الدور والقصور والمساجد التي كانت بالجزيرة وأدخلت أرضها في نطاق القلعة . فشيّد السلطان فيها مبان كثيرة ، وعمل لها ستين برجاً وأقام بها مسجداً ، وغرس بداخلها أنواعاً شتى من الأشجار ثم شحنها بالسلاح وآلات الحرب وما يحتاج إليه من الغلال والأزواد والأفوات ، وكان الملك الصالح يقف بنفسه ويرتب ما يعمل بها .

وكانت تشغل هذه القلعة مساحة من الأرض لا تقل عن ٦٥ فداناً ، وقد سكن الملك الصالح جزيرة الروضة مع محاليكه البحرية وكان عدتهم ألف مملوك ، وذلك بعد انتقاله من قلعة الجبل ، وقد ذكر المؤرخ ابن واصل أن بناء تلك القلعة استغرق ثلاث سنوات. ولم تزل قلعة الصالحية عامرة حتى انتهت دولة الأيوبيين ، فلما ملك السلطان الملك المعز عز الدين أيك أمر بدمها ليعمر مدرسته العزيزة واقتدى به ذوو الجاه فأخذوا كثيراً من مقوفها وشبايكها وبيع من أخشابها ورخامها أشياء جليلة .

ولما تولى السلطان الظاهر بيبرس العرش ، عني بمارة القلعة ، وأمر الأمير جمال الدين موسى بإعادتها ، فأصلح بعض ما تهدم وأعادها إلى ما كانت عليه ورتب فيها الحاميات .

وطى مر الزمن تخربت القلعة وما كان يحيط بها من المباني الفخمة ، ثم قامت الدور ، وشقت الطرق في حفاياها وانتشرت البساتين فيها .

قبة الصالح نجم الدين الأيوبي

تقع في الجهة البحرية الغربية للمدرسة الصالحية ، أنشأتها الملكة شجرة الدر ونقلت إليها جثة سيدها زوجها الصالح نجم الدين من قلعة الروضة في يوم ٢٧ رجب سنة ٦٤٨ هـ (سبتمبر ١٢٥٣ م) . ومباني القبة تسودها البساطة ، وأهميتها المعمارية تتمثل في تطور المقرنص فيها وزيادة حطائه وتغييرها تغييراً كلياً عن القبة الفاطمية في جميع نواحيها ، ويحيط بربع القبة أعلى الشبايك طراز من الخشب به بقايا كتابات يقرأ منها « بسم الله الرحمن الرحيم » .

قبة الخلفاء العباسيين

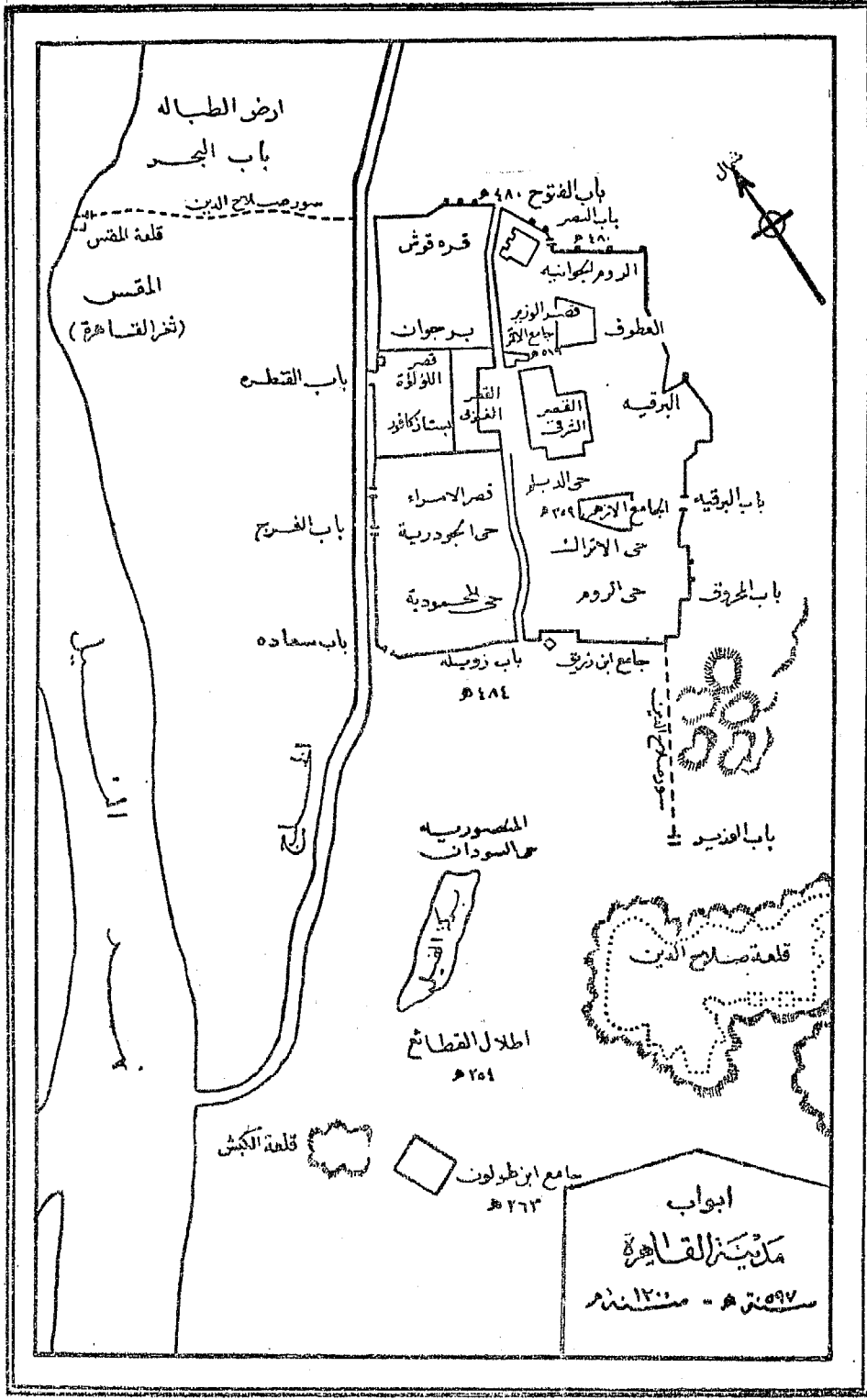
تقع خلف المشهد النفيسى وتضم رفات بعض الخلفاء العباسيين الذين توفوا بمصر وأولاد السلطان الظاهر بيبرس ولا يعرف منشئها . وترجع أهميتها إلى ما تحتويه من الزخارف الجصية والكتابات الكوفية على الجص والخشب . ومن المحتمل أن تكون قد أنشئت حوالي سنة ٦٤٠ هـ (١٢٤٢ م) وتشبه هذه القبة ، قبة شجرة الدر التي تقع بشارع الخليفة تجاه مشهد السيدة رقية وقد شيدها لتدفن فيها . وهى ذات قاعدة مربعة حليت بزخارف جصية على هيئة شبايك عقودها معمارية ذات عقد منكسر وحولها صرر منها ما هو مستدير وبعضها على هيئة معين والزوايا مشطوفة وينتهى الشطف بمقرنص ، ومن المرجح أن شجرة الدر قد أنشأتها أثناء توليتها على مصر عام ٦٤٨ هـ (١٢٥٠ م) ويؤيد ذلك كتابة ألقابها والدعاء لها بطراز القبة بخط نسخى أيوبى (١) .

(١) حسن عبد الوهاب : المارة الإسلامية في العصر الأيوبي ، مجلة المارة ٧ - ٨ عام ١٩٤٠

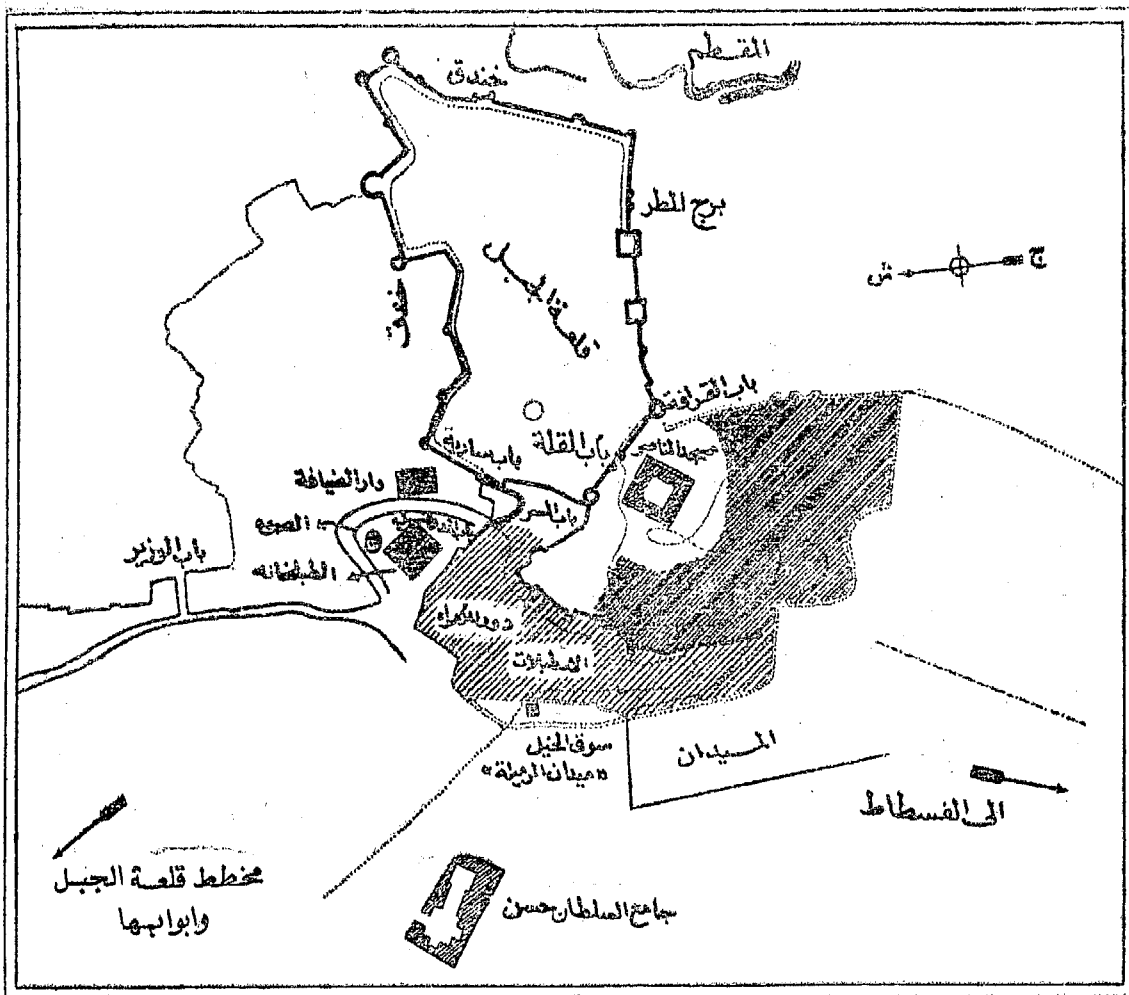
لقد كان عصر الأيوبيين في مصر ، وبخاصة بالقاهرة ، عصرًا ممتازاً بعناصر جديدة في العمارة « مدنية كانت أو حربية » ، وفي ابتكار طراز المدرسة ، وشيوع استعمال الحجر المنحوت في البناء وإدخال التلوين بالرخام ، وفي تطور الزخرفة الجصية واستخدام الزجاج الملون ، ودقة النقش على الخشب ... الخ

ومع أن الآثار الأيوبية الباقية بمصر قليلة ، ولكن مع ذلك ، فقد اشتملت على تفصيلات معمارية هامة ، تعتبر أساساً نسج على منوالها في كثير من الآثار التي أعقبتها . وفيها ظهر على العمائر والألطف الخط النسخي ، الذي اتخذ أساساً للصوص التاريخية ، واستعمل الخط الكوفي بجانبه في كتابة الآيات القرآنية .

وفي زمن الأيوبيين ، انصرف رجال الفن عن رسوم الإنسان والحيوان وأبدعوا في الزخارف النباتية والهندسية ، وقد أفلحوا في هذا الحقل ، حتى أصبحت العناصر الزخرفية التي ابتدعوها طابعاً لفنونهم الرائعة .



أبواب مدينة القاهرة في العصر الأيوبي



محطة قلعة الجبل وأبوابها

الفصل الرابع

الفاخرة في أيام المماليك البحرية

من ١٢٥٠ إلى ١٣٨٢

إن معظم الآثار التي نشاهدها اليوم في القاهرة ، من تراث العصر المملوكي . وقبل أن نتكلم عما طرأ على القاهرة في تلك الأيام ، سنلقى الضوء على أهم أحداث المماليك .

كانوا محاربين شجعان جاهدوا كثيراً ، وقاوموا أشد الغزوات مناعة ، وردوا جحافل هولاكو عاهل المغول وخليفة جنكيزخان . وكان المغول قد زحفوا إلى ربوع آسيا الغربية وردهم المصريون على أعقابهم أربع مرات . وقد لقي قطز أول صدماتهم ، وكان هولاكو هذا قد أرسل رسلة للقاهرة ومعهم رسالة يطلب فيها من المماليك أن يستسلموا . فلم يكن من قطز إلا أن قطع رؤوسهم وعلقها على باب زويلة وسار يتقدم جيوشه حتى وصل إلى الشام . وما كاد الجيشان يلتقيان حتى اتصل بهولاكو خبر موت أبيه منجوخان ، فاضطر إلى العودة وترك جيشه لمقاومة المصريين . فالتقى الجيشان في عين الجالوت ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م ، وانتصر المصريون انتصاراً باهراً وغنموا غنائم كثيرة ، وطهروا البلاد من المغول . وفي أثناء عودة الملك المظفر « قطز » إلى القاهرة تربص له بعض رجاله وقتلوه .

الظاهر بيبرس

(٦٥٨ - ٦٧٦ هـ)

تولى العرش من بعده الظاهر بيبرس البندقداري ، فهزم المغول في بيرة في عام ٦٧١ هـ / ١٢٧٢ م ، ثم تصد الكرك و قتل سبعة آلاف من أعدائه ، واستولى على العرش السلجوقي . وجاء قلاووت من بعده (٦٧٨ - ٦٨٩ هـ) فغزا المغول مرة أخرى في عام ٦٧٩ هـ / ١٢٨٠ م ، وكان قد جمع لجيشه ألوف المماليك من رجال حرسه والتركان والبدو وعرب الفرات والحجاز ، وقد انضم إليه في تلك الحملة صاحب حماة أحد أفراد أسرة صلاح الدين ، وانتصر على أعدائه في موقعة حمص وبذلك حرر الشام مرة أخرى من المغول ، لكنهم عادوا إليها مرة ثانية في أثناء حكم أبيه الناصر محمد فجرد اليهم في عام ٧٠٠ هـ / ١٣٠٠ م جيشاً جراراً وأسرع إليهم في حمص فتهتمر الناصر ، ثم جمع رجاله ودارت الحرب بين الفريقين فغلب المصريون

بادىء الأمر ثم ارتدوا على صفوف الأعداء كالسيل ففرقوا جموعهم وتطهرت الشام منهم وعرفت هذه المعركة بمرج الصفر ، وكان من الأمراء الذين أظهروا بسالة فائقة في تلك المعركة بيبرس الجاشنكير الذى أصبح فيما بعد سلطاناً ثم عاد الملك الناصر إلى القاهرة ظافراً ودخلها من باب النصر باحتفال عظيم ، وقد سبقه الرسل يحملون أنباء انتصاراته وتنافس الأمراء في إقامة الزينات الفخمة على جانبي الطريق ، وحرم أهل الصناعات من عمل أى شىء خلا ما تعلق منها بالاحتفاء بالنصر ، وفرشت الطرقات بالطنافس ، فلما وصل السلطان أظهر سروره بما فعله الأمراء وعرض أسرى المغول المسكبين بالأغلال .

لم يكن المغول هم الذين ذاقوا وحدهم مرارة الفشل ، فقد أعلن بيبرس الحرب المقدسة لمدة عشر سنوات في فلسطين حيث تحالف الفرنجة مع المغول ، فاستولى على قيسارية وأرسوف في عام ٦٤٣ هـ / ١٢٦٥ م ، وأدل أسراهم الذين ساقهم إلى القاهرة ، فقد عرضهم بأعلامهم المنكسة ، ثم صمم بيبرس على طرد الصليبيين من تلك البلاد نهائياً ، فاستولى على يافا في عام ٦٦٦ هـ وسامت بلقورت وانطاكيا عاصمة سوريا الشمالية التي أحرقها ، وبالتدرج استولى على حصون الصليبيين وقلاعهم في بغراس وصافيتا . الخ ، ثم قصد مكة ماراً بحلب وزار قبر ابراهيم الخليل وبيت المقدس ، ثم عاد إلى مصر ، وقد أتم عمله العسكري والديني معاً ، واستولى الأسطول المصرى على قبرص .

وقبل وفاة بيبرس كانت أوامره تطاع من ساحل الفرات إلى جنوب بلاد العرب حتى شلال النيل الرابع ، وكانت المدن المقدسة مكة* والمدينة وبيت المقدس في قبضته ، ووضع يده على سواكن وعيذاب على البحر الأحمر ، وخضع له عرب الصحراء وبرايرة الشمال ومغول الفولجا ، وأصبح خانهم حليفاً له ، وأرسل ابنته للزواج منه ، وتبادل مفوضيه مع إمبراطور بيزنطية الذى رم مسجداً في الأستانة ، واتصلت تجارة المصريين بصقلية وأسبانيا وفرنسا . ثم أنه عمل على إعادة الخلافة العباسية التي قضى عليها المغول عام ١٢٥٨ م واستقدم الإمام أحمد ابن الخليفة الظاهر العباسى في موكب عظيم ، وأعلنه خليفة المسلمين وأسكنه قصرأ عظيماً بالقلعة ، وظل الخليفة العباسى يستظل تحت سماء مصر حتى استولى العثمانيون على البلاد عام (١٥١٧ م) .

إن الظاهر بيبرس من أخذ الممالك البحرية أثراً ، فقد كان قائداً ماهراً وسياسياً ذكياً ومصلحاً ، بعيد النظر وإدارياً عادلاً . كان يشرف على أمور البلاد بنشاط ويراقب عماله رقابة شديدة ، وقد قضى أكثر سنى حكمه في ميادين القتال خارج مصر . وكان ينتظر فرصة وجوده في مصر فيعمل على إصلاحها وتحسين عاصمتها . وبني في عام ٦٦١ هـ / ١٢٦٣ م دار العدل القديمة تحت القلعة ، وصار يجلس بها ليعرض العساكر في يومى الاثنين والخميس ، وكان ينظر في أمر المظلومين بنفسه ، فإذا كان لأحد مظلمة أتى إليه وشكا للسلطان ، وقد عمر المدارس وأصلح المساجد وبني مسجده العظيم المعروف بجامع الظاهر ، وحفر خليج الاسكندرية القديم ، وجدد الجامع الأزهر وأعاد اليه الخطبة . ومن آثاره قاطر الباع التي أنشأها قرب ميدان السيدة زينب على الخليج ، وحفر الترع وأنشأ الطرق وحصن الاسكندرية وأعاد للأسطول المصرى سابق أيامه ، فبنى أربعين سفينة حربية ، واحتفظ بجيش منظم عدده ١٢٠٠٠ جندي ، وكانت حكومته

محترمة وعادلة ، واستطاع التغلب على مجاعة سنة ٦٦٣ هـ / ١٢٦٥ م ، ومنع شرب الخمر وتدخين الحشيش ونهض بأحوال البلاد الصحية ، وكان محباً لركوب الخيل ورمى النبال يعضى فيها نهاره ويقضى ليله في العمل ، وأنشأ ميداناً دعاه ميدان القبق للعب وكان يحث الناس على لعب الرمح ورمى النشاب وغيرها من الألعاب الحربية ، وكان يقوم بنفقات جميع هذه الأعمال بدون عسف أو إرهاق ، ولا غرو فإنه كان محبوباً من رعيته بعد أن رأوه الحاكم العادل والقائد الشجاع ، وتذكره العامة الى اليوم في القصة الشعبية المشهورة .

وفي أيام الظاهر بيبرس كرفح أصحاب الماهات ومفتلواها ، فقد أمر السلطان في سنة ٦٦٤ هـ / ١٢٦٥ م بجمع أصحاب الماهات فجمعهم بخان السبيل بالحسينية ثم نقلوهم إلى الفيوم ، وأفردت لهم بلدة تغل للصرف عليهم غير أنهم لم يستقروا بها وتفرقوا وعاد كثير منهم إلى القاهرة (١) .

ويعتبر بيبرس المؤسس الحقيقي لقوة المماليك والمنظم لسياستهم في إدارة الحكومة . ومنذ قاد بيبرس ممالكة البحرية في معركة المنصورة (١٢٥٠ م) وتغلب على «لويس» ملك فرنسا سميت مكانته فمنحه السلطان حق الإشراف على الجيش ، ثم استولى على العرش وكان بلاطه مثلاً للنظام وحسن الرونق لمن تولى العرش بعده . فقد جمع السلطان في حاشيته كبار ضباطه ورجال دولته وموظفي حاشيته . ومن أصحاب تلك الوظائف والى -- وأتابك المسافر (قائد الجيش) وقائد الحرس وأمير السلاح وأمير الجياد وحامل الكأس وأمير الخزانة وأمير الصيد وأمير الصولجان وأمراء الطبول ، وكان يتبع هؤلاء أربعون من الجند لهم فرقة موسيقى مؤلفة من ستة عشر عازفاً ، وكانت الحاشية تجمع عدداً وفيراً من الحصان والأمناء والكتاب وأطباء القصور والقضاة والفقهاء وغيرهم ، وكان السلطان يوزع على هؤلاء الأمراء إقطاعات واسعة ويمنحهم الهبات العظيمة والمرتبات الضخمة .

وكان لكبار رجال القصر وضباط الجيش المقام الأول في الدولة وهم الذين يجيء ذكرهم بعد السلطان ، لذلك كان كل واحد منهم يستطيع أن يخلف السلطان بعد وفاته إذا تغلب على منافسيه .

غير أن عصر المماليك كان يمتاز بكثرة المشاحنات والمشاغبات الداخلية ، وكانت حوادث السلب والنهب ملهامة المماليك وأتباعهم يلجأون إليها كضرب من ضروب الألعاب الرياضية المسلية . يصوبون سهامهم وحراهم من نوافذ دورهم على أعدائهم في المنازل المقابلة أو على السائرين في الطرقات ، فتبتدى المعركة وتسمع حوافر خيلهم ووقع أسلحتهم وأنين جرحاهم ، فيسرع أصحاب المتاجر إلى إغلاق أبواب حوانيتهم والهرب بحياتهم خلف أبوابها الضخمة .

القاهرة في أيام الظاهر بيبرس

اتسعت مساحة القاهرة وبنى الظاهر وعمر بقلعة الجبل دار الذهب ، وبرجة الجبارج قبة عظيمة محمولة على إثني عشر عموداً من الرخام الملون ، وصور فيها سائر حاشيته وأمرائه على هيئتهم ، وعمر بالقلعة أيضاً طبقتين مطلتين على رجة الجامع (هدمه الملك الناصر محمد بن قلاوون وأدخله في الجامع الذي أنشأه سنة ٧١٨ هـ) وأنشأ برج الزاوية المجاورة لباب القلعة (الباب الدرج) ، وأخرج منه رواشن ، وبنى عليه قبة وزخرف سقفها . وأنشأ برجبة باب القلعة داراً كبيرة لولده الملك السعيد . وأنشأ دوراً كثيرة بظاهر القاهرة برسم الأمراء ، وأنشأ حماماً بسوق الخيل لولده الملك السعيد ، وأنشأ الجسر الأعظم (بين بركة قارون وبركة الفيل) والقنطرة التي على الخليج (قناطر السباع) وأنشأ الميدان بالبورجى ونقل إليه الخيل بالثمن الزائد من الديار المصرية ، فكانت أجرة نقله ستة عشر ألف دينار ، وأنشأ به المناظر والقاعات والبيوت وجدد جامع الأقمر والجامع الأزهر ، وبنى جامع الكبير بالحسينية وأتفق عليه فرق الألف ألف درهم . وأنشأ قرياً منه زاوية الشيخ خضر وحماماً وطاحوناً وفرناً ، وعمر بالمقياس قبة رقيقة مزخرفة ، وأنشأ عدة جوامع بالديار المصرية ، وجدد قلعة الجزيرة وقلعة العمودين ببرقة وقلعة السويس ، وعمر جسراً بالقليوبية والقناطر على بحر أبي المنجا وقنطرة بنية السرج الخ .

لقد بنى في أيام الملك الظاهر بيبرس بمصر ما لم يبن في أيام الخلفاء الفاطميين ، ولا مسلوك بنى أيوب من الأبنية والرباع والخانات والقواشير والدور والمساجد والحمامات من قريب مسجد التين إلى أسوار القاهرة إلى الخليج ، وأرض الطبالة ، واتصلت العماير إلى باب المقسم (المقس) إلى اللوق إلى البورجى ومن الشارع إلى الكبش وحدرة ابن قبيصة إلى تحت القلعة ومشهد السيدة نفيسة إلى السور القراقوشى (١)

ولم يأخذ المماليك بنظام الحكم الوراثى دائماً فقد تولى خليل سلطنة مصر بعد موت أبيه المنصور قلاوون (٦٨٩ - ٦٩٣ هـ) وتبعه الملك الأشرف محمد الملقب بالملك الناصر للمرة الأولى في عام ٦٩٣ هـ / ١٢٩٣ م ، ثم للمرة الثانية في عام ٦٩٨ هـ / ١٢٩٩ م بعد قتل السلطان حسام الدين لاجين المنصورى ، ولم يلبث أن خلفه بعض الأمراء المماليك ، فترك القاهرة متظاهراً بالحج ، وسار مع رجاله إلى الكرك ، فاستولى عليها وحسن المدينة ثم بعث بالختم السلطانى إلى المماليك ينيئهم بتنازله ويفوضهم تولية من أرادوا ، فبايعوا الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير (٧٠٨ - ٧٠٩ هـ) في ٢٥ رمضان ولقبوه بالملك المظفر ، وفي عهده قدم الصليبيون لغزو دمياط . ومن آثاره في القاهرة خانقاه المعروف بجامع جاشنكير بالجمالية .

وكان الملك الناصر قد ندم على تنازله عن كرسى السلطنة فجعل يترقب الفرصة لاستعادة عرشه ، وكان قد

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٧ ص ١٩٠ - ١٩٣ .

أرسل إلى بعض زعماء المماليك ليدبروا مؤامرة لقلب الجاشنكير ، فنجحوا في عملهم ، فتنازل بيبرس وخرج إلى مصر العليا طامعاً في الاستيلاء عليها ، وفي غداة خروجه من القاهرة دخلها الملك الناصر باحتفال عظيم (٧٠٩ — ٧٤١ هـ / ١٣٠١ — ١٣٤١ م) للمرة الثالثة وكان ذلك في يوم عيد رمضان فزاد العيد بهجة وبويع وبأيمه الأمراء في الإيوان الأشرفي . وقد تولى حكم البلاد واحداً وثلاثين عاماً ، وكان خلفاً له علي ضعف شديد فلم يديروا الحكم إلا إسمياً فقط وقد رأينا أن بيت قلاوون حكم مصر منذ عام ٦٧٨ هـ إلى عام ٨٤٠ هـ (١٢٧٩ — ١٣٨٢ م) باستثناء ست أو سبع سنوات تخللت تلك المدة الطويلة ؛ وكان مؤسس ذلك البيت السلطان قلاوون حاكماً شجاعاً وسياسياً حازماً ومشجعاً كبيراً للتجارة ، وقد وصلت المنتجات المصرية في أيامه إلى الهند والصين ، وعمل ما في طاقته لتنمية التجارة في داخل القطر ، وكان على مثال أبناء جنسه المماليك محباً للبناء . وقد يكون عجيباً أن نرى رجال الحروب يهتمون اهتماماً عظيماً بإحياء العمارة ، فقد أسس بيبرس مدرسته في عام ١٢٦٣ على جزء من أجزاء القصر المسمى بقاعة الفسطاط ، وبني جامعاً خارج باب الفتوح عام (١٢٦٧ — ١٢٦٩ م) وهو الجامع المعروف اليوم بجامع الظاهر ، وبني قلاوون المستشفى الشهيرة بالبيمارستان المنصوري بمحط بين القصرين (شارع النحاسين) وقد بناه خارج جامع ومقبرته ، وكان يحيط ببناء البيمارستان قاعات للدرس — ومكتبة وحمامات وصيدلية . . الخ وكانت هناك فرقة موسيقية للترفيه عن المرضى ، وكان قلاوون يقرأ القرآن الكريم ويربي اليتامى من أولاد الفقراء مجاناً في المدرسة المجاورة للمستشفى ، ولا يزال الناس إلى يومنا هذا يزورون قبر ذلك السلطان الصالح وقبر ابنه الناصر يلتمسون الشفاء .

القاهرة في أيام الناصر محمد بن قلاوون

لقد اتسعت مساحة القاهرة على أيام المماليك البحرية ، فامتدت جهة الشمال عبر الصحراء والشمال الغربي والغرب أيضاً بما طرحه النيل من أرض جاء به الطهي الذي يرد مع فيضان النيل كل سنة . . ولم يترك المماليك قطعة أرض فضاء داخل القاهرة في شمالها أو جنوبها إلا أقاموا فيها الجوامع والمدارس والأضرحة والحمامات والأسبلة والوكالات . كان الاقبال على البناء والتعمير عظيماً ، فقد عم الرخاء في أيام المماليك وتوفر المال في خزائهم بما كانت تعود به التجارة مع الشرق والغرب ، وما كانوا يجيئون عليها من مكوس ، فتنساق السلاطين والأمراء والأعيان في إقامة أنخم المساجد وأروع القصور التي جمعوا فيها التحف النادرة والألطف الجميلة .

ويعتبر عصر السلطان الناصر محمد من أزهى العصور في مصر من الناحية المعمارية ، وكان على صفات خلقية متميزة ، قوى الإرادة مستبداً يسيطر وحده على حكم البلاد ، وكان صغير الجسم أعرجاً . وفي إحدى عينيه مرض لكن أخلاقه القوية وثقافته ونفسيته ونشاطه وذوقه الجميل — كل هذه المزايا جعلت عصره من العصور المهادنة التي أتممت بها مصر . وقد ارتقت حاشيته ومجلس بلاطه عما كانت عليه في أيام أسلافه

ويمكن أن نعتبر الملك الناصر من الشخصيات البارزة أثناء القرون الوسطى .

سار على منوال بيبرس وقلاوون وحالف المغول وتزوج من ابنة أذربك خان (السيدة طالبيه) في سنة ٥٧٢٠ هـ ، وكانت حدود إمبراطوريته تمتد من بير أموس والفرات إلى سواكن وأسوان ، كما أنه ارتبط بعلاقات سياسية لم تحددها تحالفات رسمية مع إمبراطور دولة الروم الشرقية وماك البلغار وملوك الحبشة وبلاد العرب ، وقد زوج بناته لأحد عشر من أبناء الأمراء المصريين ، وكانت حفلة العرس الواحدة تتكلف ثروة وافرة . ولم يكن الناصر سياسياً فقط بل كان شغوفاً بالزراعة والرياضة فكان يدفع للجواد الواحد من أربعمائة إلى ألف جنيه ، وكان ملماً بتاريخ حياته وأعمالها وأعمارها وخصالها ومزاياها . . . الخ وكان في مزرعته ثلاثون ألفاً من رؤوس الغنم وكان محباً للصيد . وقد شاهدته الرحالة ابن بطوطة في عام ٣٢٦ م فوصفه بقوله « خلق نبيل وفضائل سامية » وكان محباً لخير الشعب ، يجلس مرتين في الأسبوع لينظر بنفسه شكاوى الناس ، ونمت ثروة البلاد في أيامه وأزال الضرائب الزائدة على الحاجة وأمر بسح الأراضي الزراعية وكان يعاقب أصحاب مطاحن الغلال وتجار الخبز إذا تجاوزوا في أسعارهم ، وقد حدثت في عام ١٣٢١ م سلسلة من حوادث الاضطهاد ضد النصارى لأن بعض رجال الناصر كانوا يعملون في حفر بركة اسمها « بركة الناصر » بالقرب من قنطرة السابع « غرب حى باب اللوق » فتحولوا بمأولهم وخرّبوا جزءاً من كنيسة الزهور ، وكان الناصر قد أمرهم باحترامها فاندفع الناس نحو الكنيسة بدون علم رجال الأمن وخرّبوها عن آخرها ثم قصدوا كنيسة « سانت ميناء » بالجزء ونهبوها ثم أنهم كرروا العمل بالقرب من السبع سقايات وطرّدوا منها الرهبان وغنموا ماوصلت إليه أيديهم ثم أحرقوها . فلما وصل إلى مسامع السلطان ما حدث أمر جنوده في الحال بكبح جماح الغوغاء . والحفاظ على الكنائس .

لم ينقض شهر على تلك الحركة حتى ابتليت القاهرة بحرائق متوالية ، فكان حادث الحريق يتلو الآخر في كل حى من أحيائها وصعد الناس إلى مآذن المساجد يسألون الله عز وجل المعونة . وبذلت الجهود الجبارة لكبح النيران في أماكنها واستخدم لذلك جميع السقائين تحت إمرة أربعة وعشرين من رجال الأمراء فكانوا ينقلون المياه من الآبار والصحاري والحمامات لكبح النار ، وكنت ترى الشارع الموصل من حى الديلم إلى باب زويلة كأنه نهر يفيض بمائه المتدفق . وقد لوحظ أن أكثر هذه الحرائق موجهة إلى الجوامع ودلت الحرائق على أنها من فعل فاعل ، وذلك من قطع الأقمشة المبتلة بالزيت والقطران والنفط التي عثر عليها وقبض على نصرانى في جامع الظاهر وفي يده كميات من النفط والقطران يحاول إشعالها ثم اعترف بأن تلك الحرائق مدبرة وهى من عمل النصارى انتقاماً لما فعله المسلمون بتخريب كنائسهم ، ولما دعى بطريق القبط لمعرفة رأيه استهجن فعال أبناء طائفته ونهاهم عنها فأعيد إلى بيته معززاً مكرماً بين صفيين من رجال حرس السلطان ، ولولا الجند لا تنقم منه الجمهور الهائج الذى عجب كيف أن بطريق القبط يعود في مثل هذا الحفل العظيم .

واضطر السلطان أن يقاوم الفوضى فأرسل جنوده في جميع أنحاء القاهرة لنشتيت شمل الجماعات بكل

الوسائل ، وقبض في يوم واحد على مائتين من المشايخين بالقرب من النيل، ومثلوا بين يدي السلطان غيرهم بين قطع أيديهم أو شنتهم . وعبثاً حاول الأمراء أن يتوسطوا لهم لتخفيف حكمه، فكان يرفض وساطتهم لكي يكونوا عبرة لغيرهم ، فنصبت المشانق على جانبي الطريق المؤدى من باب زويلة إلى ميدان الرملة وعلق كثير من العجاة من أيديهم — ليكونوا عبرة لغيرهم .

* * *

ولم يسبق أن تمتع البناء أو العمارة بفترة ناجحة مزدهرة كما حدث في أثناء حكم الناصر محمد ، امتاز عهده بالإنتاج الفني السامى ، وتدل المبالغ العظيمة التي صرفها السلطان وأمراؤه على المباني على ما كانت عليه مصر وقتذاك من الغنى والثروة ؛ وقد احتفظ ببعض قطع أثاث الناصر منها مائدة من النحاس المطعم بالفضة في متحف الفنون الإسلامية ، وأهم مبانيه العظيمة الأخرى مدرسة بين القصرين (١٣٠٤ م) المجاورة للبيارستان المشهورة ببابها القوطى الذى جلبه معه أخوه خليل من عكاء ، وكذلك مسجده بالقلمة (١٣١٨ م) وكلا الأثرين يدلان على جمال الذوق، مع أنهما لا ينان الآن على ما كانا عليه من بهاء ورونق تلك الأيام — فإن القبة العظيمة التي اعتلت جامع القلمة سقطت واختفت قطع القاشانى الرشيقة التي كانت تتحلى بها القبة ، واندثر النحاس الذى أحاط بمصلى السلطان «مقصورته» ولا يزال إلى الآن بعض المناور السماوية التي تحيط به على جدران الجامع ولكن ذهب زجاجها الملون البديع ، وتدل بقايا العمدة الجرانيتية العشرة الرخام الدقيق المطعم بالصدف المصوق على حائط الجامع القبلى ، وقليل من الآثار الأخرى على مجده السالف — وأهم ما يسترعى النظر في هذا المسجد مثذنته المغطاة بالبلاط الأخضر ؛ وكان في القلمة هو الأعمدة وهو من أجزاء القصر الأبلق الذى شيده في عهده . وفي أيامه زيدت أجزاء كثيرة في القلمة كما أن مجرى الميرون التي كانت تصل المياه من النيل إلى القلمة من أعمال الناصر وبعضها من أعمال الأيوبيين . وقد شيد الناصر محمد جامعا بجانب مشهد السيدة نفيسة ، وكذلك قبة النصر بالقرب من التل الأحمر وزوايا أخرى ؛ ولما كان الناس في كل عصر على دين ملوكهم فقد تبع الأمراء سنة سلاطينهم في بناء الجوامع والمدارس والمقابر . ولقد رأى الرحالة ابن بطوطة الذى زار القاهرة في عام ١٣٢٥/١٣٢٦ م كيف كان يتنافس أمراء مصر على تحليد أسمائهم فشيّدوا الخوانق والتكايا العظيمة ومنها خانقاه بييرس الجاشنكير ولا تزال باقية ، ويقول ابن بطوطة أنها عجيبة وصيقلتها مجهزة بالمقايير الوفيرة ، وكان المبلغ الذى يصرف يوميا وقد قدره الرحالة بألف دينار مبلغاً ضخماً ، وبلغ عدد المساجد والمدارس التي شيّدت بين عامي (١٣٢٠ — ١٣٦٠ م) أربعين وهذا العدد أكثر من ربع ما شيّد منها منذ فتح العرب مصر حتى أيام القرينى (القرن الخامس عشر) ولا يزال الكثير منها باقياً إلى اليوم وهو صورة رائعة لما كان عليه المماليك من مجد وأبهة . ومن هذه الجوامع — جامع الأمير حسن (٧١٩ هـ — ١٣١٩ م) وجامع ألس (٧٣٠ هـ) وقوسون (٧٣٠ هـ) وبشتاك — (٧٣٦ هـ) والتينغا المردانى (٧٤٠ هـ) وأصل النهانى (٧٤٦) وآق سنقر (٧٤٧) وأرغون الاسماعلى (٨٤٨) ومنجق

(٤٥٠) وشيخون (٧٥٠) ومن المدارس مدرسة سنجر الجاولى (٧٠٣) وأحمد المهندس (٧٢٥) وأقبجا (٧٣٤ هـ) وصرغتمش (٧٥٧ هـ) . ومن الخانات خانقاه قوسون (٧٣٦) وشيخون ٧٥٦ — ويكلل هذه العمائر جامع السلطان حسن — المواجهة للقلمة (٧٥٧ — ٧٦٠ هـ) ، وهو أجمل ما تركه المماليك وأخف مساجدهم الفاهرية .

ولكى نصف مساجد العصر الناصرى يجب أن يفرد سفر خاص . حقيقة أن بعضها قد شمله الحراب إلا أن مخلفاتها تدل على بهائها السابق . ويوجد عدد ليس بالقليل جددت عمارته كجامع آق سنقر وجامع أرغون شاه الاسماعيلى ، فقد جدد الأول ابراهيم أغا فى سنة ١٦٥٢ ووجد الآخر أحد الأمراء . وهذه الجوامع المذكورة تختلف كلها فى تفاصيل الهندسة وزخرفتها المعمارية . وليس من السهل أن يوضع لها وصف شامل واحد . وكل جامع أو مدرسة أو خانقاه مما ذكرتها تستحق وصفاً خاصاً . ولكن قد تتفق كلها فى ظاهرة واحدة لأن الجوامع القديمة تكاد تشترك فى بساطتها الخارجية من حيث الزخرفة . وفى جوامع المماليك ترى اقتباساً من فن مبانيهم التى شيدها فى فلسطين وسوريا ، وهو فن يمتاز بواجهة رائعة — تشمل الطنف والتيجان وغيرها من مميزات الزخرفة المعمارية ، والظاهرة الثانية هى المأذنة أصبحت أرق وأرشق مما كانت عليه ، فتجدها قد شيدت من الحجر المتقن النحت كما أتقن ذوق تصميمها وتراها تتحول من قاعدة مربعة إلى أخرى مثمنة فأسطوانية ، وهى ذات مسحة أخاذة وتزيدها شرفاتها الدائرة حول خصرها فتنة . أما الظاهرة الثالثة فاتخاذ القباب الكبيرة والقباب الصغيرة فوق المحراب أو المدخل — وهذه مزية أخذ بها أكثر مهندسى جوامع العصر الناصرى .

وليس هناك شك فى أن المماليك أجادوا بناء القباب ، واشتملت أكثر مساجدهم ومدارسهم على مقابر مشيدها — وكان القبر فى كثير من الأحيان متصلاً بالبناء الأسمى وقد بدأ فى عصر المماليك مشروع تجميل القاهرة بتلك المنشآت الرائعة الجمال التى لا تزال تسود فن العمارة فى العالم . وأعود ثانية لأقول أنه من ناحية أبنية العصر الناصرى اتخذت الوجهات المتقنة الصنع من حجر النحت غالباً من لونين واستعمل فيها زيادة فى الرونق الرخام الأبيض والأسود وفى أعلى الواجهات ابتكر طراز للكتابة ينتهى بأفريز تسلوه الشرفات ، وفى داخل الجوامع ذوات الإيوانات استعملت عمدة الرخام دعائم دون غيرها وكانت تؤخذ من العمائر القديمة . وأما السقوف فكانت تعمل من الخشب وتنقش العوارض التى تحملها نقشاً جميلاً محلى بالذهب وتعمل وزرات الجدران بالرخام والسكر منسجم للغاية . وما قلناه عن الجوامع يصدق على سائر الأبنية التى لم تبق إلى اليوم كاملة ، ولكن الأجزاء الباقية منها تبين بجلاء ما اتسمت به منذ ستمائة سنة .

القاهرة في أيام أسرة الناصر محمد بن قلاوون

لا شك أن من أهم مراحل تطور القاهرة العمرانية والعمارية في العصر الوسيط ، كانت التي مرت بالحاضرة الإسلامية الكبرى على أيام أسرة قلاوون ، التي استأثرت بحكم البلاد زهاء قرن من عام ١٢٧٩ إلى عام ١٣٨٢ حتى تولى برقوق العرش مؤسساً دولة المماليك البرجية .

وكان الملك الناصر محمد يحب العمارة ، فانه منذ قدم من الكرك إلى أن مات أقبل على (١) البناء المستمر فكان ينفق في كل يوم مدة سنى حكمه ثمانية آلاف درهم ، فاذا رأى منها ما لا يعجبه هدمها كلها وجددها على ما يختاره . واستجد في أيامه عمائر كثيرة منها : حفر خليج الاسكندرية ، حفره في مدة أربعين يوماً ، عمل فيه نحو المائة ألف رجل من النواحي (٧١٠ هـ / ١٣١٠ م) ، وأنشئت عليه قرية جديدة باسم الملك ، وفرح الناس بهذا الخليج فرحاً زائداً .

أنشأ الناصر محمد الميدان (٢) تحت قلعة الجبل وأجرى له المياه وغرس فيه النخل والأشجار ، ولعب فيه بالكرة في كل يوم ثلاثاء مع الأمراء والخاصكية وأولاد الملوك . ثم عمر فوق الميدان القصر الأبلق (٣) وأخرّب البرج الذي كان عمره أخوه الأشرف خليل على الأسطبل وجعل مكانه القصر المذكور (٧١٢ هـ) وعمر فوقه رفرفاً وعمر بجانبه برجا نقل إليه المماليك ، وغير باب النحاس (٤) من قلعة الجبل ووسع دهليزه وعمر في الساحة تجاه الأبواب طباقاً للأمراء الخاصكية ، وغير عمارة الإيوان (٥) مرتين ثم في الثالثة أفره

(١) أبو المحاسن بن تغردى بردى : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ص ١٧٦ - ٢١١ طبعة دار الكتب المصرية . القاهرة ١٣٦١ هـ / ١٩٤٢ .

(٢) ذكر هذا الميدان بأسماء متنوعة ، ميدان القلعة والميدان الأسود أو قره ميدان ومكانه اليوم ميدان صلاح الدين ويقال له المنشية الخطط المقرينية ج ٢ ص ٢٢٨ .

(٣) القصر الأبلق أنشأه الناصر محمد في شعبان سنة ٧١٣ / ١٣١٢ وانتهت عمارته سنة ٧١٤ / ١٣١٤ ، وأنشأ بجواره حديقة وقد اندثر القصر وكان قائماً في الجهة الغربية من القلعة حيث المكان الواقع على بين الداخل من البوابة الوسطى للقلعة إلى الساحة التي بها جامع محمد على .

(٤) كان هذا الباب من أجل أبواب الدور السلطانية بالقلعة (الخطط ج ٢ ص ٢١٢) .

(٥) الإيوان هو الذي عرف بدار العدل أنشأه الملك المنصور قلاوون ثم جده ابنه الملك الأشرف خليل فحرف بالقاعدة الأشرفية ، ثم هدمه الملك الناصر محمد ، وأعاد بناءه في سنة ٧٣٠ هـ / ١٣٢٩ م ، وزاد فيه . مكانه اليوم جامع محمد على بالقلعة .

على ما هو عليه وحمل إليه العمدة الكبير من الصعيد ، فجاء من أعظم المباني اللوكية ، ورتب خدمته بالإيوان ، وعمر بالقلمة أيضاً دوراً للأمرء الذين روجهم لبناته ، وأجرى إليها المياه وعمل بها الحمامات ، وزاد في باب القلمة (١) من القلمة باباً ثانياً . وعمر جامع القلمة (٢) والقاعات السبع (٣) التي تشرف على الميدان لأجل سراريه . وعمر باب القرافة (٤) وكان غالب عمائرهُ بالحجارة خوفاً من الحريق . وعزم على أن يغير باب المدرج (٥) . ويعمل له دركا ، فمات قبل ذلك . وعمر بالقلمة حوش الغنم وحوش البقر وحوش المعزى فأوسع فيها نحو خمسين فدانا .

(١) اندثر هذا الباب ، وكذلك الباب الذي شيد من قبل بنفس الاسم ، وكانا واقعين على مسافة قريبة خلف باب القلمة الحالي وعرف بباب المدافع ، وفي عام ١٢٤٢ هـ / ١٨٢٦ م جدد محمد علي باب القلمة الحالي الذي يعرف اليوم بالبوابة الداخلية وهذه البوابة واقعة بعد البوابة الوسطى وتوصل إلى المتحف الحربي وجامع سيدي سارية .

(٢) هو الجامع القائم اليوم إلى يسار الداخل إلى القلمة قبل الوصول إلى جامع محمد علي ، أنشأه الناصر محمد في عام ٧١٨ هـ / ١٣١٨ م ، وكان في مكانه جامع قديم والمطبخ السلطاني ومخازن الفروشات ، فهدم الجميع ، وأدخلها في الجامع الناصري (المخطط القرظية ج ٢ ص ٢١٢ و ٣٢٥) . وقد صلى فيه عند فراغه في أول رمضان سنة ٧٢٦ . قامت إدارة حفظ الآثار العربية بإصلاح وترميم هذا الجامع في الأربعينات .

(٣) كانت القاعات السبع تشرف على الميدان وباب القرافة ، وقد أسكن فيها الناصر محمد سواريه ومكانها اليوم قصر الجوهرة الواقع في الزاوية الجنوبية الغربية بالقلمة (المخطط القرظية ج ٢ ص ٢١٢) .

(٤) أحد أبواب القلمة (المخطط ج ٢ ص ٢٠٤) وهو خلاف باب القرافة من أبواب القاهرة الخارجية القديمة التي كان يخرج منه أهل القاهرة إلى قرافة الإمام الشافعي . وكان باب القرافة بسور القلمة القبلي بين البرجين المعروفين ببرج المطار وقد سد من الخارج في أيام العثمانيين ، وآثاره من الداخل موجودة وقد كشفت إدارة حفظ الآثار عن دهليزه وأصلحته (النجوم الزاهرة حاشية ٢ ص ١٨١ ج ٩) .

(٥) أقدم أبواب القلمة أنشأه السلطان صلاح الدين الأيوبي في سنة ٥٧٩ / ١١٨٣ م ، ولا يزال باقياً عند يسار الداخل إلى القلمة من بابها العام . (أنظر فصل القاهرة في أيام الأيوبيين) .

وعمر الناصر الخانقاه^(١) بناحية سرياقوس ورتب فيها مائة صوفي لكل منهم الخبز واللحم والطعام والحلوى وسائر ما يحتاج إليه . وقد صارت الخانقاه مدينة عظيمة . وعمر القصور بسرياقوس ، وعمل لها بستاناً حمل إليه الأشجار - من دمشق وغيرها ، فصار بها عامة فواكه الشام . وحفر الخليج الناصري^(٢) خارج القاهرة حتى أوصله بسرياقوس ، وعمر على هذا الخليج عدة قناطر^(٣) وصار بجانب هذا الخليج عدة بساتين وأملاك وعمرت به أرض الطبالة^(٤) بعد خرابها من أيام العادل كما كتبنا . وعمرت جزيرة الفيل وناحية بولاق بعد ما كانت رمالاً ، يرمى منها المالك الشباب ؛ وتلعب الأمراء بها الكرة ؛ فصارت كلها دوراً وقصوراً وجوامع وأسواق وبساتين ، وبلغت البساتين بجزيره النيل في أيامه مائة وخمسين بستاناً بعد ما كانت نحو العشرين بستاناً . واتصلت المائر من ناحية منية السيرج على النيل إلى جامع الخطيرى إلى

(١) ذكر القرزى هذه الخانقاه (الخطط ج ٢ ص ٤٢٢) أنشأها الناصر ، على بعد فرسخ في شمال شرق سرياقوس ، بدأ بمراتها في ٧٢٢ هـ / ١٢٤٣ م ، واحتفل بافتتاحها يوم ٧ جمادى الآخرة سنة ٧٢٥ هـ / ١٣٢٥ م بحضور الناصر ، ورتب لها الأوقاف الكافية ، ثم أقبل الناس على البناء والسكنى بجوارها وشيدوا الدور والحوانيت والخانات والحمامات حتى صارت بلدة كبيرة عرفت باسم خانقاه سرياقوس ، وقد اندثرت خانقاه وكانت واقعة في الفضاء المجاور الآن للجامع الملك الأشرف من الجهة الغربية .

(٢) الخليج الناصري ذكره القرزى (ج ٢ ص ٤٤٥) فقال أن الملك الناصر محمد أمر بحفر خليج من النيل يتصل بالخليج الكبير (القاهرة) لزيادة الماء فيه وكان فيه بموردة البلاط من بستان الحشاش ماراً بأراضى اللوق وبركة قرموط وباب البحر ، ثم أرض الطبالة ، وعندها يصب الخليج ماءه في الخليج الكبير بديء في حفره في أول جمادى الأولى سنة ٧٢٥ هـ / ١٣٢٥ م ، وتم حفره في شهرين . وكان هذا الخليج موجوداً حتى في عام ١٨٠٠ (النجوم الزاهرة ، حاشية محمد رمزي ج ٩ ص ٨٠) .

(٣) بلغ عدد القناطر التي عمرت على الخليج الناصري خمس قناطر هي : قنطرة الفخر وقنطرة قدادار وقنطرة الكتبة (الخطط ج ٢ ص ١٥٠) بخط بركة قرموط وقنطرة باب البحر التي عرفت باسم قنطرة الليمون وقنطرة الدبولى وقد اندثرت وقنطرة الحاجب التي كان يتوصل بها إلى أرض الطبالة التي أنشأها الأمير سيف الدين بكتمر الحاجب سنة ٧٢٥ هـ وعرفت باسم قنطرة البكرية وقد اندثرت .

(٤) كانت أرض الطبالة من أجمل متنزهات القاهرة على جانب الخليج الغربي وموقعها اليوم منطقة السكن التي تحدد من الشمال والغرب بشارع الظاهر ومن الجنوب بشارع الفجالة وسكنها ومن الشرق بشارع بور سعيد . وقد وهب الخليفة المستنصر بالله الفاطمي هذه الأرض إلى مغنيته السماه الطبالة .

حكر ابن الأمير^(١) وزرية قوصون^(٢) وإلى منشأة المهراني^(٣) إلى بركة الحبش. حتى كان الإنسان يتعصب لذلك، فإنه كان قبل ذلك بعدة يسيرة تلالا ورمالا وحلفاء، فصار لا يرى قدر ذراع إلا وفيه بناء. كل ذلك من محبة السلطان للتعظيم. فصار كل واحد في أيامه يفعل ذلك ويتقرب إلى خاطره بهذا الشأن، وصار لهم أيضاً رغبة في ذلك؛ كما قيل: الناس على دين ملوكهم، بل قيل أنه كان إذا سمع بأحد قد أنشأ عمارة بمكان شكره في اللأ وأمد في الباطن بالمال والآلات وغيرها. فعمرت مصر في أيامه وصارت أضاف ما كانت عليه.

وقد عمر في أيام السلطان الناصر محمد القطة (للمنطقة) التي فيما بين قبر الامام الشافعي إلى باب القرافة طولاً وعرضاً بعد ما كانت فضاء لسباق خيل الأمراء والأحفاد والحدام، فكان يحصل هناك أيام السباق اجتماعات جليلة للتفرج على السباق إلى أن بنى السلطان محمد الناصر تربة الأمير بيضا التركاني تربته بعد وفاته عام ٧٠٧ هـ / ١٣٠٧ م، ثم أنشأ الناس فيه ترحم.

(١) ينسب هذا الحكر إلى علاء الدين بن الأثير كاتب السر الذي أنشأ داراً على النيل وبني الناس بجواره فعرف ذلك الخط بحكر ابن الأثير وكان يقع في المنطقة التي تعرف اليوم بمشش الشيخ على وعشش شرکس في الجهة الجنوبية من بولاق وبجدها من الغرب شارع ساحل الغلال حيث كان يجري النيل تحت في ذلك الوقت، ومن الجنوب والشرق شارع فم الترعة البولية بالقاهرة.

(٢) مكان هذه الزرية اليوم الأرض التي عليها دار الآثار المصرية وملحقاتها بشارع مریت باشا بالقاهرة. وأما خط زرية قوصون فكان يشمل المنطقة الواقع فيها دار الآثار المصرية، وثكنات قصر النيل قبل هدمها (محافظة القاهرة، وهيتون ودار جامعة الدول العربية).

(٣) ذكر القريري هذه المنشأة (ج ١ ص ٣٤٥)، فقال: ان موضعها فيما بين النيل والخليج الكبير (المصري) ويعرف موضعها بالكوم الأحمر. ولما أنشأ الوزير صاحب بهاء الدين على الجامع بخط الكوم الأحمر أنشأ الأمير سيف الدين بلبان المهراني داراً وسكنها وبني مسجداً بجوارها فعرفت هذه الخطة به، وقيل لها منشأة المهراني، وأقبل الناس في البناء وأكثروا فيها من المار (الخطط ج ١ ص ٣٤٣ ج ٢ ص ١١٤ و ج ٢ ص ١٣٦) وذكرها ابن اياس في بدائع الزهور ج ٢ ص ٨٠) فقال: أن الأمير شهاب الدين أحمد بن محمود الميني أنشأ قصرًا عظيمًا يطل على النيل بمنشأة المهراني. وعلى العموم فقد كانت المنشأة تقع بين سيالة جزيرة الروضة والخليج المصري بأوله من جهة فم الخليج ومن الجنوب ميدان ومترزه فم الخليج، والحد الشرق بمضه مساكن أقيمت على ذات الخليج بمدرمه وبمضه شارع الخليج المصري (بور سعيد) والحد البحري شارع كوبري محمد علي وشارع بستان الفاضل (م . رمزي)

وعمر الناصر في أيامه الصحراء التي ما بين قلعة الجبل وخارج باب المحروق^(١) إلى تربة الظاهر برقوق ، وأول من عمر فيها الأمير قراسنقر تربته^(٢) وعمر بها حوض السيل يملؤه مسجد ، ثم اقتدى به جماعة من الأمراء والخوندات والأعيان مثل خوند طغاي ، عمرت بها تربتها العظيمة^(٣) ومثل طشتمر حمص أخضر^(٤) الناصري ومثل طشتمر طليعة الناصري وغيرهم . وكان هذا الموضع ساحة عظيمة وبه ميدان القبق^(٥) من عهد الملك الظاهر بيبرس برسم ركوب السلطان وعمل المواكب به برسم سباق الخيل ، فلما عمر قراسنقر تربته عمر الناس بعده حتى صارت الصحراء مدينة عظيمة ، وعمر الملك الناصر أيضاً لماليكة عدة قصور خارج القاهرة وبها .



القصر والدور

نذكر منها قصور الأمير طشتمر الدمشقي بحدرة البقر^(٦) وبلغ مصروفه ثمانمائة ألف درهم . فلما مات

(١) باب المحروق من أبواب القاهرة القديمة في سورها الشرق المشرف على الصحراء بناه صلاح الدين سنة ٥٦٩ هـ / (الخط ج ١ ص ٣٨٣) وقد عرف باسم باب القراطين الذي أحرق أثناء إحدى الثورات وقد خرب هذا الباب ، ومكانه اليوم على رأس درب المحروق داخل شارع النبوية .

(٢) اندثرت هذه التربة وملحقاتها ويتميز تعيين مكانها

(٣) أنشأت هذه التربة الخاتون طغاي والدة الأمير أنوك بن الملك الناصر محمد خارج باب البرقية بالصحراء ، وهناك إلى اليوم خانقاه ، وبها قبة تحتمها تربة خوند طغاي التي أنشأتها حوالي عام ٧٤٥ هـ / ١٣٤٤ ، وهي تقوم على ناصية شارعى خوند طغاي والسلطان أحمد بجبانة المجاورين شرق القاهرة .

(٤) هذه التربة أنشأها الأمير طشتمر سنة ٧٣٥ هـ / ١٣٣٤ م ، ولا تزال موجودة يملوها قبة بشارع السفينى بجبانة المجاورين .

(٥) ويعرف بالميدان الأسود (قره ميدان) وهو اليوم صلاح الدين

(٦) هذا القصر هو بذاته بيت طشتمر الساقى حمص أخضر وكان واقماً في المنطقة التي تحد اليوم من الغرب بشارع الخلية فيما بين زاوية الشيخ عبد الله وبين مدخل شارع الظاهر، ومن الجنوب شارع المظفر ومن الشرق بجارة رفعت وقد أزيل القصر وملحقاته ، وأقيم على أرضه المباني الحديثة .

طلعتهم أنعم به على الأمير طشتمر حصن أخضر فزاد في عمارته، ومنها قصر الأمير بكتمر الساقى (١) على بركة الفيل بالقرب من الكبش، فوصل أساسه أربعين ذراعاً وارتفاعه أربعين ذراعاً فزاد مصروفه على ألف درهم. ومنها الكبش (٢) حيث كان عمارة الملك الصالح نجم الدين أيوب فعمله الملك الناصر سبع قاعات برسم بناته ينزلون فيه للفرجة على ركب السلطان للميدان الكبير (٣)، لم ينحصر ما أنفق فيه لكثرة. ومنها اسطبل الأمير قوصون بسوق الخيل (٤) تحت القلعة تجاه باب السلسلة (٥) وكان أصله اسطبل الأمير سنجر البشقدار ومنقر الطويل. ومنها قصر ربهادر الجوباني (٦) بجوار زاوية البرهان الصالح بالجسر الأعظم تجاه الكبش. ومنها قصر قطلوبغا الفخرى (٧).

(١) ذكر القرينى (ج ٢ ص ٦٨) أنه كان من أعظم مساكن مصر وأجلها قدراً وأحسنها بياناً وموضعه على بركة الفيل تجاه الكبش أنشأه الملك الناصر محمد لسكنى أجل أمراء دولته الأمير بكتمر الساقى وقد بقي هذا القصر قائماً نحو ثلاث مائة سنة ثم هجره الأمراء وخرّب، فبنى في محله الأمير صالح بن القاسم داره المشهورة وبذل الجهد في تنسيقها وتقلبت مع الأيام حتى بنى في مكانها مصنع للسلاح والبارود ثم تحولت مصنفاً فسجناً فكلية فمستشفى.

(٢) تعرف اليوم بقلعة الكبش وتشرف من بحرهما على شارع مراسينا ومنتزه الحوض المرصود بقسم السيدة زينب.

(٣) هو الميدان الناصرى الذى أنشأه الناصر على النيل بأرض بستان الخشاب (الخطط ج ٢ ص ٢٠٠) وكان واقفاً في المنطقة التي تحدد اليوم من الغرب بشارع القصر العالى على النيل، ومن الجنوب شارع والده باشا بأرض القصر العالى ومن الشرق شارع قصر العين ومن الشمال شارع رستم باشا وما في امتداده إلى النيل.

(٤) سوق الخيل كان واقفاً تحت قلعة الجبل في الجهة التي عرفت بالرميلة والآن بالمشية بقسم الخليفة

(٥) يعرف باب السلسلة اليوم بباب العزب بالقامة في جزئها الأسفل ويطل على ميدان صلاح الدين.

(٦) اندثر هذا القصر وكان واقفاً في الجهة الغربية من جامع لاجين اللا لا المعروف بجامع ابن سعيد جفمق بشارع مراسينا بقسم السيدة زينب.

(٧) الراجع أن هذا القصر كان بحارة برجوان بالقرب من جامع زين الدين عبد الباسط بن خليل وقد اندثر.

وقصر الطنبغا المارداني وقصر يلغا اليحاوي^(١) ، وهؤلاء أجبل ما عمر من القصور ، وكانوا في موضع المدرسة الناصرية الحسنية^(٢) أخذها الملك الناصر حسن. وهدمها وعمر مكان ذلك مدرسته المشهورة به . وعمر في أيامه الأمراء عدة دور وقصور منها : دار الأمير أيدغمش أمير أخور^(٣) وقصر بشتك وغيره .

وقد خرب السلطان الناصر ميدان اللوق^(٤) الذي كان عمره الظاهر بيبرس وعمله بستاناً ؛ ثم أنعم السلطان بالبستان المذكور على الأمير قوصون ، فبنى قوصون تجاهه زريته المروفة بزرية قوصون بليانا ووقفه . واقتدى الأمراء بقوصون في العبارة . ثم أخذ قوصون بستان الأمير بهادر رأس نوبة وحكره للناس ومساحته خمسة عشر فدانا فينوه دوراً على الخليج ، فحرف بحكر قوصون وحكر السلطان حول البركة الناصرية^(٥) أراضي البستان (فمروها الناس وسكنوا فيه ، ثم حكر الأمير طغزدمر

(١) استفاد مما ذكره المقرئ في خطه (ج ٢ ص ٧١) أن الملك الناصر محمد بن قلاوون أمر ببناء قصرين أحدهما لسكنى الأمير يلغا اليحاوي والثاني لسكنى الأمير الطنبغا المارداني لزيادة رغبته فيهما وعظيم محبته لهما وليكونا بالقرب من قلعة الجبل ، ففي عام ٧٣٨ هـ / اختار للملك الناصر مكان هذين القصرين بسوق الخيل في الرملة تحت القلعة وأمر بهدم الدور والاسطبلات التي كانت قائمة وقام بتكاليف العبارة من ماله الخاص . وقد بدأ ببناء قصر يلغا اليحاوي فجاء في غاية الفس ، وفي ٧٥٧ هـ هدم السلطان الناصر حسن ابن محمد هذين القصرين وأدخل أرضهما في مدرسته (مسجد السلطان حسن) .

(٢) مسجد ومدرسة السلطان حسن بمحي الخليفة .

(٣) دار الأمير أيدغمش موقعه في الجزء الشرقي من مسجد السلطان حسن وقد اندثر . أما قصر بشتك (الخطط ج ٢ ص ٧٠) ، فكان من جملة القصر الكبير الشرقي مسكن الخلفاء الفواطم آل إلى الأمير بدر الدين بكتاش الفخري ، ثم اشتراه الأمير بشتك من ورثة بكتاش وأضاف إليه قطعة من حقوق بيت المال ثم دار اقطوان الساق ومن الجميع بنى قصران ، كان ارتفاعه أربعون ذراعاً وللواء يجرى من أعلاه وله شبابيك تشرف على شارع القاهرة ، بدأ البناء في سنة ٧٣٥ هـ ، وأتمه في سنة ٧٣٨ هـ وبقاياه لانزال قائمة . (م . رمزي)

(٤) هو الميدان الظاهري .

(٥) كانت بركة الناصرية من جملة جنان الزهري (الخطط ج ٢ ص ١٦٥) حفرها الملك الناصر محمد لما أراد بناء زرية بجانب الجامع الطيرسي على النيل واحتاج في بنائها إلى طين فأمر بنقله من مكان هذه البركة إلى مكان الزرية في سنة ٧٤١ هـ / وبعد نقل الطين من البركة أجرى إليها الماء من جوار الميدان السلطاني الكائن بأرض بستان الخشاب فامتلات بالماء وصارت مساحتها سبعة أفدنة ، فحكر الناس حولها وبنوا الدور الكبيرة . وقد بليت هذه البركة على خريطة القاهرة التي رسمتها البعثة الفرنسية سنة ١٨٥٠ =

الحوى الناصرى بستاناً بجوار الخليج^(١) ومساحته ثلاثون فداناً وبني له قنطرة عرفت به^(٢) ، وعمل هناك حماما وحوانيت أيضاً ، فصار حكراً عظيم الساكن ، ثم حكر الأمير أقبغا عبد الواحد بستاناً بجوار بركة قارون^(٣) ظاهر القاهرة ، فعمره عمارة كبيرة ، وأخذ بقية الأمراء جميع ما كان من البساتين والجينات ظاهر القاهرة وحكروها وحكرت دادة السلطان الملك الناصر الست حدق والست مسكة القهرمانه حكرين عرفا بهما وأنشأت كل واحدة منهما في حكرها جامعاً^(٤) ، فقام به الجمعة ، فزادت الأحكار في أيام الملك الناصر على ستين حكراً ، وبهذا اتصلت العمائر من باب زويلة إلى سد مصر^(٥) بعد ما كانت ساحة عجيبة كل ذلك لما علم الناس من حب السلطان للمهارة .

== باسم بركة سقى نصره أو بركة السقاين ومكانها المنطقة التي يحترقها الآن شارع نصره ويحدها من الشرق شارع عماد الدين (محمد فريد) ومن الغرب شارع مصطفى كامل (الشيخ عبد الله سابقاً) ومن الجنوب شارع الاسماعيلي (راجع الخطط التوفيقية ج ٣ ص ٩٧) ويستنتج محمد رمزي من بحوث على مبارك في خطته أن مكان هذه البركة والتي عرفت أيضاً باسم بركة الشامات وبركة المهدي وبركة قاسم بك أن قصور وزارات المالية والمعارف والحربية وبعض ما يجاورها من المساكن تقوم في مكانها .

(١) ذكر المقرئى هذا الحكر (ج ٢ ص ١١٦) فقال أن مساحته بلغت ثلاثين فدانا ، اشتراه طقزدمر نائب السلطنة بمصر والشمام ، وقلع أخشابه وغرسه ، وأذن للناس في البناء عليه ، فحكروه وأنشأوا به الدور وصار الحكر مسكن الأمراء والأحفاد وبه السوق والحمامات وتقع أرض هذا الحكر على الجانب الغربي من الخليج المصرى ، ومن الغرب شارع الناصرية ومن الجنوب حارة قواوير وعطفة مرزوق ومن الشرق شارع الخليج المصرى (بور سعيد) .

(٢) قنطرة طقزدمر (الخطط ج ٢ ص ١٤٧) ، وكانت على الخليج المصرى بخط المسجد المعلق يتوصل منها إلى بر الخليج الغربى وحكر طقزدمر ، وقد أنشأها الأمير حول عام ١٣٢٩ / ٧٣٠ م ، ثم عرفت باسم قنطرة درب الجمايز ، ولما تم ردم الخليج سنة ١٨٩٨ اختفت القنطرة ، ومكانها اليوم في نقطة واقعة بشارع بور سعيد تجاه مدخل شارع قنطرة درب الجمايز الموصل إلى حارتى السلطان الحنفى والهياتم .

(٣) صحتها بركة الفيل .

(٤) الواقع أن هذين الإسمين هما لسيدة واحدة . الست حدق والست مسكة وهى الشهرة التى عرفت بها الست حدق . والجامع الذى أنشأته بخطه المريس ذكره المقرئى فى الخطط (ج ٢ ص ٣١٣) وكان فى الجانب الغربى للخليج بالقرب من قنطرة السد أنشأته سنة ٧٢٧ هـ / ١٣٣٧ م فى مكان منظره السكره ، وقد اندثر الجامع ولم يبق منه إلا القاعة التى بها ضريح الشيخ محمد المواردى الكائن بعشش اللوردى الواقعة جنوبى محطة السيدة زينب ، أما الجامع الآخر فلا يزال عامراً تقام فيه الشعائر الدينية بسكة سوق مسكة بالقاهرة ، وظاهر من الكتابة النقوشة على بابها أنه أنشئ فى عام ٧٤٠ هـ / ١٣٢٩ م ، وفرغ من بنائه فى سنة ٧٤١ هـ / ١٣٤٠ م كما ذكره المقرئى . (م . رمزي) .

(٥) المقصود قنطرة السد التى كانت على الخليج المصرى فيما بين مصر والقاهرة .

مساجد القاهرة

وعمرت في أيام الناصر محمد بالقاهرة عدة جوامع تقام فيها الخطب زيادة على ثلاثين جامعا ؛ منها :
الجامع الناصري بقلعة الجبل ، جدده وأوسعها ، ومنها الجامع الجديد الناصري^(١) على نيل مصر ، ومنها
جامع الأمير طيبرس الناصري تقيب الجيش على النيل بجوار خانقائه ، وقد اندثر من سنين ثم عمر طيبرس
المذكور مدرسته^(٢) المشهورة به بجوار الجامع الأزهر ، ولما خرب جامعهم المذكور الذي كان على النيل
نقل الصوفية الذين كانوا به إلى المدرسة المذكورة ، ومنها جامع المشهد النفيسي ، ومنها جامع الأمير
بدر الدين محمد التركاني بالقرب من باب البحر ، ثم جامع الأمير كوارى المنصورة بأخر الحسينية وجامع
كريم الدين خلف الميدان . وجامع شرف الدين الجاكي^(٣) بسوقة الريش وجامع الفخر ناظر الجيش^(٤)

(١) اندثر هذا الجامع وقد ذكره المقرئى (ج ٢ ص ٣٠٤) عمره القاضي نضر الدين محمد بن
فضل الله ناظر الجيش باسم الملك الناصر محمد ، شرع في بنائه سنة ٧١١ هـ ، وانتهت عمارته في ٧١٢ هـ وكان
من أكبر الجوامع وكان واقفاً على سيالة جزيرة الروضة قبلى سواقى مجرى الماء القائمة على رأس حائط
الميون التى عند قم الخليج فى المنطقة التى يخرتها اليوم شارع وحارة وعطفة السكر والليمون بمصر القديمة .
(م . رمزى) .

(٢) عمر هذا الجامع الأمير علاء الدين طيبرس الخازندار تقيب الجيوش بشاطئ النيل فى أرض
بستان الخشاب وعمر بجواره خانقاه سنة ٧٠٧ هـ وقد خرب هذا الجامع وكانت الخانقاه باقية لنهاية سنة
١٩٢٦ باسم جامع الطيبرس أو جامع الأربعين بشارع الشيخ بركات بقصر الدوبارة وقد أزلتها وزارة
الأوقاف وأنشأت على أرضها فى عام ١٩٢٨ عمارة للاستغلال واقعة تجاه جامع الشيخ بركات .

(٣) أنشأها علاء الدين طيبرس فى غربى الأزهر مما يلي الجهة البحرية ، تقع على يمين الداخل من
الباب الكبير الغربى للجامع الأزهر المعروف بباب الزينين تجاه المدرسة الاقباوية المجهولة الآن مكتبة
للأزهر الشريف وقا . جددها عبد الرحمن كتنخدا سنة ١١٦٧ هـ / ١٧٥٣ م .

(٤) مكان سوقة الريش اليوم ، القسم الشرقى من سكة المنصورة ويتوسطه زاوية الشيخ محمد بن
محمود الموصلى .

(٥) أنشأ هذا الجامع نضر الدين محمد ناظر الجيش المعروف بالفخر حول سنة ٧٣٠ هـ ومكانه اليوم
جامع معروف باسم الشيخ فرج ، جدده محمد بك طاهر فى سنة ١٢١٨ هـ كما هو موضح فى اللوح المثبت
بأعلى باب المسجد ، يقع بشارع جزيرة بدران من الجهة الغربية من النيل بقسم روض المرج ، وكان النيل
يسيراً قديماً تحت هذا الجامع ولسبب طرح البحر ابتعد الجامع عن النيل .

على النيل فيما بين بولاق وجزيرة النيل ، وجامعاً آخر خلف خص الكيالة ببولاق^(١) . وجامعاً ثالثاً بالروضة^(٢) وجامعاً بناه الأمير حسين بالحكر^(٣) وبني له قنطرة^(٤) على الخليج بالقرب منه ، وجامع الأمير قيدان الرومى^(٥) بقناطر الأوز^(٦) . وجامع دولة شاه محمود الملائى بكوم الريش^(٧) وجامع الأمير ناصر الدين

(١) أنشأه نغر الدين محمد ناظر الجيش حول سنة ٧٣٠ هـ ولا يزال موجوداً باسم جامع أبى الصلاه ببولاق ، جدهه الخواجه نور الدين على حول سنة ٨٩٠ هـ ، وقد عمل في هذا الجامع عدة عمارات آخرها تمت في سنة ١٩٣٥ بعد توسيع مساحته من ٨٤٣ متراً إلى ١٢٦٤ متراً مربعاً .

(٢) أنشأه نغر الدين محمد ناظر الجيش سنة ٧٢٠ هـ (الخطط ج ٢ ص ٣١١) وهو باق ببجيزة الروضة وجدده السلطان قايتباى في عام ٨٨٦ هـ ، وزاد فيه زيادة أخرى في عام ٨٩١ هـ ، ويعرف اليوم بجامع الفخر أو جامع القس أو جامع قايتباى .

(٣) أنشأه الأمير حسين بن أبى بكر سنة ٧١٩ هـ على قطعة من بستان بجوار غيط العدة . ولما مات دفن به (٧٢٩ هـ) ، والجامع قائم اليوم بحارة الأمير حسين من جهة ميدان أحمد ماهر .

(٤) قنطرة الأمير حسين ورد ذكرها في الخطط (ج ٢ ص ١٤٧) وكانت تقع على الخليج الكبير ويتوصل منها إلى بر الخليج العربى حيث جامع الذي أنشأه بحكر النوبى (الحاشية السابقة) وقد أنشئت في أواخر سنة ٧١٩ هـ وبقيت إلى عام ١٨٩٧ حيناً ردم الخليج ومكانها اليوم في الزاوية البحرية الغربية بميدان أحمد ماهر تجاه مدخل حارة الأمير حسين ، وكان للأمير حسين داراً تقع من أجلها خوخة في سور القاهرة الغربى تجاه جامعهم وقنطرتهم المذكورة (محمد رمزى) .

(٥) ذكر المقرئى هذا الجامع (الخطط ج ٢ ص ٣١٢) وكان يقوم خارج القاهرة على الجانب الشرقى للخليج في ظاهر باب الفتوح تجاه أرض البعل .

(٦) مكان قناطر الأوز بشارع بور سعيد تجاه الحارة التى اسميت حارة قنطرة الظاهر انشأها الملك الناصر محمد في سنة ٧٢٥ هـ وكانت هذه القناطر من أجل متنزهات القاهرة أيام وجود الماء في الخليج لالعلى حافته الشرقية من البساتين الجميلة وكان تجاه هذه القنطرة من الغرب منظر البعل وبها عرفت أرض البعل التى هناك وقد بقيت هذه القنطرة حتى عام ١٨٩٧ . هذا وقد شيد السلطان الناصر قنطرة أخرى عرفت بقنطرة الظاهر أو القنطرة الجديدة وكان يتوصل إليها من زقاق الكحل وخط جامع الظاهر (٧٢٥ هـ) وعرفت أيضاً باسم قنطرة الامباني .

(٧) عمره دولة شاه ، وقد اندثر من سنة ٨٠٦ هـ وقد ذكره المقرئى في الخطط (ج ٢ ص ٣٢٥) أمام كوم الريش فبلك بين أرض النيل ومنية السرج من أجل متنزهات القاهرة ، وكان به سوق عامر وجامعان لأحدهما منارة عجيبة وقد خرب كوم الريش سنة ٨٠٦ هـ .

الشمرايشي الحرائي بالقرافة . وجامع الأمير آقوش نائب الكرك بطرف الحسينية بالقرب من الخليج^(١) وجامع الأمير آق سنقر شاه الممائر^(٢) قريبا من الميدان^(٣) . وجامعا خارج باب القرافة^(٤) عمره جماعة من العجم . وجامع التوبة^(٥) ياب البرقية^(٦) عمره مغلطاي أخو الأمير الماس . وجامع بنت الملك

(١) ذكره المقرئ في خطه (ج ٢ ص ٣١٢) باسم جامع نائب الكرك وقد اندثر ، وكان واقعا بشارع رمسيس تجاه مدخل شارع محمود باشا فهمي (شارع المدارس سابقا) بخط السكاكيني .

(٢) ذكره المقرئ في خطه (ج ٢ ص ٣٠٩) وقد أنشئ حول سنة ٧٢٥ هـ ولا يزال موجودا يعرف اليوم بجامع أبو طبل نسبة إلى الشيخ محمد أبو طبل المدفون فيه ووجهته غربية محبوبة بدكاكين وليس ظاهرا منها إلا باب الجامع بشارع المذبح بخط حارة السقاين (محمد رمزي) .

(٣) يرجح محمد رمزي أن هذا الميدان هو ميدان الهاري لأنه أقرب الميادين إلى جامع آق سنقر شاه الممائر . وذكر المقرئ ميدان الهاري في خطه (ج ١ ص ١٩٩) بأنه بالقرب من قناطر السباع في الخليج الغربي من جملة جنان الزهري . أنشأه الملك الناصر محمد بن قلاوون في سنة ٧٢٠ هـ وفي عهد الملك الناصر فرج بن برقوق تلاشى أمر الميدان . وموقع هذا الميدان اليوم في المنطقة التي تحد من الجنوب بشارع للتبتديان (عز العرب) ومن الشرق بشارع الناصرية ومن الشمال شارع جامع الاسماعيلى ومن الغرب شارع نوبار باشا .

(٤) اندثر هذا الجامع وأقيم في مكانه مقابر ضخمة في جبانة جلال الدين السيوطي الواقعة جنوب القلعة خلف السجن .

(٥) صوب محمد رمزي اسم هذا الجامع فجعله جامع البرقية بدلا من التوبة ، ذكره المقرئ في خطه (ج ٢ ص ٣٢٦) عمره مغلطاي الفسخري أخو الأمير الماس الحاجب وكمل في الحرم سنة ٧٣٠ هـ . ولا يزال الجامع موجودا ويعرف بجامع الغريب نسبة إلى الشيخ الغريب المدفون فيه وقد جدده الأمير عبدالرحمن كتحدا في سنة ١١٦٨ هـ كما هو مذكور في اللوح الرخامي المثبت باعلا الباب وكان هناك مشروع لهدم الجامع وبناء آخر بدلا منه .

(٦) باب البرقية أحد أبواب القاهرة في سورها الشرقى ، أنشأه جوهر في عام ٣٥٩ هـ ، وذكره المقرئ في خطه (ج ١ ص ٣٨٠) و (ج ٢ ص ٧٨) وقد كان هناك بابان عرفا باسم باب البرقية أحدهما أنشأه جوهر والثاني أنشأه صلاح الدين في سور القاهرة الشرقى الخارجى ، وقد تكلم عنه القلقشندي (ج ٣ ص ٣٥٤) ولا يزال هذا الباب موجودا إلا أنه مطمور في التراب تحت التل الواقع على يمين الداخل في الطريق المعروفة بقطع المرأة الموصلة من شارع الغريب إلى جبانة المجاورين والعميقى (محمد رمزي — النجوم الزاهرة ج ٩ ص ٢٠٥) .

الظاهر^(١) بالجزيرة المستجدة المعروفة بالوسطانية^(٢) وجامع الأمير الماس الناصرى الحاجب بالقرب من حوض ابن هنس^(٣) بالشارع الأعظم خارج القاهرة . وجامع الأمير سيف الدين قوصون الناصرى^(٤) بالقرب منه أيضا على الشارع وخارج القاهرة . وله أيضا جامع خانقاه^(٥) خارج باب القرافة وجامع^(٦)

(١) أنشئ هذا الجامع حول سنة ٧٢٠ هـ / ١٣٢٠ م، ومكانه اليوم جامع الجزيرة الحالى، وقد تجدد عدة مرات آخرها تجديد الخاصة الملكية بأمر الخديوى اسماعيل فى سنة ١٢١٨ هـ / ١٨٧١ م . وهو عامر بإقامة الشعائر الدينية وواقع على النيل فى حديقة النهر بأرض الجزيرة الكبرى بالقاهرة ، وقد تجدد أخيراً .

(٢) الجزيرة الوسطانية والوسطى هى بذاتها جزيرة أروى التى ذكرها المقرئى (ج ٢ ص ١٨٦) تقع فى وسط النيل بين بولاق وبر القاهرة وجزيرة الروضة وبر الجيزة انحسر عنها الماء حول سنة ٧٠٠ هـ ١٣٠٠ - ١٣٠١ م، وبني فيها الناس الدور والأسواق والجوامع والطواحين وغرسوا فيها البساتين وحفروا فيها الآبار وصارت من متزهات القاهرة ، يحف بها الماء من جميع جهاتها ثم تلاثى منها أغلب ما كان بها فى شراقي سنة ٨٠٦ هـ / ١٤٠٣ م، وقد أوضحت على خريطة القاهرة التى رسمتها الحملة الفرنسية عام ١٨٠٠ باسم جزيرة بولاق وتعرف اليوم باسم الجزيرة أو الجزيرة الكبيرة أو جزيرة الزمالك أو جزيرة للمرص وهى الآن من أحسن المواقع للسكنى بالقاهرة والنزه، وبها نواد رياضية ومستشفيات وفندق البرج والمتحف مختار . الخ . أما الزمالك فهى كلمة تركية معناها المشى التى تنصب من القش أو الغاب لإقامة الجسد . (محمد رمزى) .

(٣) لايزل جامع الماس موجودا بأول شارع الحلية من جهة شارع محمد على (القلعة) بالقاهرة ، وقد أنشئ ٧٣٩ وكفل فى سنة ٧٣٠ هـ / وقامت إدارة حفظ الآثار العربية بعدة اصلاحات انتهت منها فى سنة ١٩١١ (الخطط ج ٢ ص ٣٠٧) .

(٤) جامع قوصون (الخطط ج ٢ ص ٣٠٧) ابتداء عمارته الأمير قوصون فى سنة ٧٣٠ هـ ولم يبق منه اليوم إلا بوابته الشرقية التى بشارع السروجية وبوابته البحرية التى بداخل درب الأغوات وبقايا رخارف وشبابيك جصية بالخائط البحرى وقد أخذ جزء من هذا الجامع أثناء شق شارع محمد على (القلعة) ويسمى العامة هذا الجامع بجامع قيسون .

(٥) يقع هذا الجامع خارج باب القرافة تجاه خانقاه قوصون ويقع تجاهها الآن الجامع المعروف بجامع المسيحية وربما يكون هذا هو جامع قوصون بذاته ، جرده مسيح باشا والى مصر فى سنة ٩٨٤ هـ ، ويعرف أيضاً بجامع الشيخ القرافى المدفون فيه وهو خارج باب القرافة جنوبى سجن النشبة بشارع المسيحية .

(٦) راجع الحاشية رقم ٢ ص ٢٢٣ من الجزء ٨ (النجوم الزاهرة) .

الأمير عز الدين أيدهر الخطيرى بساحل بولاق وجامع^(١) أخى صاروجا بشون القصب^(٢) وجامع الأمير بشتك^(٣) الناصرى على بركة الفيل تجاه خانقاه^(٤) . وجامع الأمير آل ملك بالحسينية^(٥) وجامع الست حدق الدادة فيما بين السد وقناطر السباع . وجامع الست مسكة قريباً من قنطرة آق سنقر^(٦) وجامع الأمير الطنبا الماردانى^(٧) خارج باب زويلة .

(١) ذكره المقرئى باسم جامع صاروجا (ج ٢ ص ٣١٥) ، وقال عنه أنه يطل على الخليج الناصرى بخطه جامع العرب بالقرب من بركة الحاجب التى تعرف ببركة الرطلى انشاء الناصر الدين محمد أخو الأمير صاروجا قيب الجيش عام ٧٣٠ هـ ، وقد اندثر الجامع ، وكان واقفاً بشارع أرض الحرمين قرب تلاقيه بشارع الظاهر حيث كان يمر الخليج الناصرى فى تلك الجهة .

(٢) كانت تقع هذه الشون بأرض الحرمين التى كان بها الجامع المذكور فى الحاشية السابقة .

(٣) عمر هذا الجامع الأمير بشتك وكنى فى سنة ٧٣٦ هـ / ١٣٣٦ م ، وقد جدد فى سنة ١٢٧٧ هـ (الخطط التوفيقية ج ٤ ص ٦٥) ولا يزال هذا الجامع قائماً بشارع درب الجمائز بالقاهرة ويعرف بجامع مصطفى باشا فاضل من وقت أن جدته الأميرة ألفت هانم قادن والدة مصطفى فاضل (١٢٧٧ هـ) .

(٤) ذكرها المقرئى فى خطه (ج ٢ ص ٤١٨) باسم خانقاه بشتك وقد اندثرت ومكانها اليوم سهل الأميرة ألفت هانم قادن ، أنشأت فى سنة ١٢٨٠ هـ بشارع درب الجمائز تجاه جامع بشتك المذكور فى الحاشية السابقة .

(٥) اندثر هذا الجامع وأقيم على أرضه قبور وكان واقفاً بشارع نجم الدين تجاه جامع الخواص من الجهة الشرقية بجبانة باب النصر بالقاهرة انشاء الأمير سيف الدين الحاج آل ملك وكنى ، وأقيمت فيه الخطبة سنة ٧٣٢ هـ . (محمد رمزى) .

(٦) ذكر المقرئى قنطرة آق سنقر (ج ٢ ص ١٤٧) ، فقال أنها كانت على الخليج الكبير يتوصل إليها من خط قبو السكرمانى ومن حارة البديعيين التى تعرف اليوم بالحباية ، وذكر ابن اياس أنها أنشئت حول سنة ٧٢٥ هـ / ١٣٢٥ م ، وقد كانت موجودة حتى عام ١٨٩٨ باسم قنطرة سنقر . وبردتم الخليج المصرى لتخت القنطرة ومكانها اليوم شارع بور سفيد تجاه مدخل شارع قنطرة سنقر الموصل إلى شارع درب الحجر بالقاهرة .

(٧) يقع جامع الطنبا الماردانى فى شارع التبانة بالدرب الأحمر خارج باب زويلة (الخطط ج ٢ ص ٣٠٨) وأقيمت أول خطابة فيه يوم الجمعة ٢٤ رمضان سنة ٧٤٠ هـ (ولا يزال هذا الجامع موجوداً وهو مقصد رجال الفن الإسلامى لمشاهدة جمال زخارفه .

وجامع المظفر^(١) بسوق الجيزة من الحسينية . وجامع جوهر السحرتي^(٢) قريبا من باب الشعرية^(٣) وجامع فتح الدين محمد بن عبد الظاهر بالقرافة^(٤) وغير ذلك من المدارس والمساجد . وهذا كله بمصر .
ومن الجوامع والمدارس التي تعتبر من منشآت عصر الملك الناصر محمد في القاهرة ، ذكر المؤرخ محمد رمزي المماثر الآتية^(٥)

(أ) المدرسة القراستقرية ، أنشأها الأمير قنص الدين قراستقر المصوري نائب السلطنة سنة ٧٠٠ هـ . ومكانها اليوم مدرسة الجالية الابتدائية بشارع الجالية (الخطط ج ٢ ص ٣٨٨) .

(ب) المدرسة السعدية أنشأها الأمير قنص الدين منقر السعدى تقيب المالك السلطانية في سنة ٧١٥ هـ / ١٣١٥ م ولا تزال قائمة إلى اليوم بشارع السيوفية وكانت مستعملة تكية للمولوية (الخطط ج ٢ ص ٢٩٧) .

(ج) المدرسة المهندارية أنشأها الأمير شهاب الدين أحمد بن آقوش العزيزي المهندس تقيب الجيوش في سنة ٧٢٥ هـ / ١٣٢٥ م ، ولا تزال قائمة إلى اليوم باسم جامع المهندار بشارع التبانة بقسم الدرب الأحمر (الخطط ج ٢ ص ٣٩٩) .

(١) ذكره القريري (الخطط ج ٢ ص ٣٢٦) باسم جامع ابن الفلك (مظفر الدين) وهو اليوم الجامع المعروف باسم جامع البيومي بخط الحسينية بالقاهرة ، جدده عثمان أغا في سنة ١١٨٠ هـ كما هو مكتوب بأعلى بابه . وفي سنة ١٩٣٩ أجرت فيه وزارة الأوقاف اصلاحات من الداخل وبه ضم الشيخ علي البيومي .

(٢) ذكره القريري باسم جامع الطواشي (الخطط ج ٢ ص ٣٢٥) وقد أنشأ الطواشي جوهر السحرتي اللالا الصالحى في سنة ٧٤٢ هـ / في عهد الملك الصالح اسماعيل بن الملك الناصر محمد بن قلاوون أى بعد وفاة الناصر بستين ، ولا يزال هذا الجامع موجودا باسم جامع الطواشي بشارع الطواشي بقسم باب الشعرية .

(٣) باب الشعرية أحد أبواب القاهرة في سورها البحرى الذى أنشأ صلاح الدين غربى الخليج المصرى وقد سمي باسم طائفة من البربر يقال لهم بنو الشعرية وكان يقع في ميدان العدوى على رأس سوق الجرابية قبل توسيع الميدان المذكور . وقد أزيل هذا الباب سنة ١٨٨٤ لخلل مبانيه .

(٤) ذكره القريري (الخطط ج ٢ ص ٣٢٤) أنشأه القاضى فتح الدين محمد بن عبد الظاهر ، وأقيمت أول خطبة فيه يوم الجمعة ٢٤ صفر سنة ٦٨٣ هـ وقد اندثر وزالت معالمه وكان واقفاً بجانبة الإمام اللبى بالقرب من تربة الفخر الفارسى خارج القاهرة ، وقد بنى في عهد الملك منصور قلاوون .

(٥) النجوم الزاهرة ج ٩ ص ٣٣٢ - ٣٣٤ .

(د) للدرسة الملكية أنشأها الأمير الحاج سيف الدين آل ملك الجوكندار الناصر في سنة ٧١٩ هـ ، كما هو ثابت بالنقش على بابها ولا تزال قائمة إلى اليوم باسم جامع الجوكندار بشارع أم الغلام بقسم الجمالية وتسميه العامة زاوية حالومة وهو رجل مغربي طالت خدمته بهذا المسجد فعرف به (الخطط ج ٢ ص ٢٩٢)

(هـ) جامع ابن غازي أنشأه نجم الدين بن غازي دلال المالك في سنة ٧٤١ هـ / ١٣٤٠ م ، ومكانه اليوم الجامع المعروف بجامع الشيخ نصر بشارع درب نصر بيولاقي (الخطط ج ٢ ص ٣١٣) .

(و) جامع ابن صارم ، أنشأه محمد بن صارم شيخ يولاقي ، من منشآت عصر الملك الناصر محمد ومكانه اليوم جامع الشيخ عطيه بدرب نصر بيولاقي (الخطط ج ٢ ص ٣٢٥) .

(ز) جامع الشيخ سعود ، أنشأه الشيخ سعود بن محمد بن سالم المياطي في سنة ٧٢٨ هـ / ١٣٢٨ م ولا يزال قائماً إلى اليوم باسم جامع الشيخ سعود بعطفة الشيخ سعود بدرب الإقاعية بقسم باب الشعربة (الخطط ج ٢ ص ١٠٧) .

(ح) جامع فلك الدين فلك شاه وهو منشئه في سنة ٧٢٠ هـ / ١٣٢٠ م كما هو ثابت من النقش في لوح الرخام الموجود بأعلى محراب المسجد ، ولا يزال هذا الجامع موجودا ومروفا باسم جامع الجنيد بشارع الدرب الجديد بقسم السيدة زينب .

مدرسة السلطان حسن

وكمثال واضح لطراز المباني في القرن الرابع عشر ، لا نجد خيراً من ذلك البناء الرائع ، وهو مدرسة وجامع السلطان حسن — فهو يضم مميزات العمارة في العصر الناصري ، وكان السلطان حسن قد اعتلى العرش للمرة الأولى في سنة (٧٤٨ هـ - ١٣٤٧ م) وعزله أمراؤه في عام ٧٥٢ هـ ولكنه استطاع خلع أخيه الصالح واستعاد عرشه عام (٧٥٥ - ٧٦٢ هـ / ١٢٥٤ - ١٣٦١ م) ، ولم يكن محبوباً أو محترماً وعمله الوحيد الطيب الذي تركه بعد موته هو ذلك الجامع العظيم المعروف بجامع السلطان حسن ، وهو أجمل جوامع القاهرة وكان موضعه بيت الأمير يلغا اليحياوى ، وابتدأ السلطان عمارته في سنة سبع وخمسين وسبعمائة وعمله في أكبر قالب وأحسن هندام وأضخم شكل ، لا يعرف في بلاد الإسلام معبد من معابد المسلمين يحكى هذا الجامع . أقيمت العمارة فيه مدة ثلاث سنوات بدون عطلة يوم واحد ، وأرصد لصروفه كل يوم عشرون ألف درهم (ستائة جنيه) ولقد قيل أنه صرف على القالب الذي بنى عليه عقد الإيوان الكبير مائة ألف درهم ، وذراع هذا الإيوان خمس وستون ذراعاً في مثلها ، ويقال إنه أكبر من إيوان كسرى بالدائى في العراق بخمسة أذرع وقبته العظيمة لم يبن بديار مصر والشام والعراق والمغرب واليمن مثلها ، وكذلك المنبر الرخامى الذى لا نظير له والبوابة العظيمة ، وقد عزم السلطان على أن يبنى أربع منائر ، فتمت ثلاث منها إلى أن كان يوم السبت السادس من شهر ربيع الآخر سنة ٧٦٢ هـ فسقطت المنارة القريبة من المدخل فهلك تحتها نحو ثلثمائة نفس ، فأبطل السلطان بناء هذه المنارة ونظيرتها ، ولما سقطت المنارة لهجت عامة مصر والقاهرة بأن ذلك منذر بزوال الدولة ، فقال الشيخ بهاء الدين أبو حامد بن على بن محمد السبكي فى سقوطها .

أبشر فسمدك يا سلطان مصر آتى بشيره بمقال سار كالثل
لأن المنارة لم تسقط لمنقصة لكن لسر خفى قد تبين لى
من تحتها قرىء القرآن فاستمعت فالوجد فى الحال أداها إلى الليل

واتفق أن قتل السلطان بمكيدة دبرها بعض كبار أمرائه بعد سقوط المنارة بثلاثة وثلاثين يوماً ، ومات قبل أن يتم رخام هذا الجامع فأتم قسماً منه بشير الجمدار^(١) .

(١) كشف الأستاذ حسن عبد الوهاب فى نوفمبر عام ١٩٤٤ عن اسم مهندس هذا المسجد ، واسمه محمد بن بليك مكتوبا فى الطراز الجصى بالمدرسة الحنفية — تاريخ المساجد الأثرية ج ١ ص ١٧٦ - ١٨١

ويبلغ ارتفاع جدران هذا المسجد ١١٣ قدماً مبنية بالحجارة المنحوتة الكبيرة الأخوذة من أبقاض الأهرام وتحلى النوافذ العديدة وجهته الممتدة . وأجل مظاهر الجامع طنقه الفخم المسكون من ست محطات ، من المقرنصات واحدة تملو الأخرى ويتوجن جدرانه الشامخة بينما تزين مدخل الجامع تلك النقوش القوية والزخارف الهندسية — والأعمدة ذوات التيجان المقرنصة .

ولا يقل داخل الجامع أبهة ورونقاً عن خارجه ، فالكتابات الكوفية والعربية المنقوشة على الجدران تزيه وتزيده حسناً وجمالاً ، في مقصورة القبر كتبت آية الكرسي بالكوفية على الجدران الأربعة على ألواح الخشب الثمين ، وتملو المقصورة القبة الجديدة ، وهي ليست بقبة الجامع الأصلية . فقد تهدمت في عام ١٦٦٠ ، وكان قد وصفها «بيتروديلافالى» الرحالة لما زار القاهرة عام ١٦٦٦ م .

هذا وأكثر مشكاواته النحاسية ومصايحه الزجاجية المطلية بالبناء لا تزال محفوظة في متحف الفن الإسلامى ، ولا شرع السلطان الملك المؤيد شيخ في عبارة جامعهم بجوار باب زويلة ، اشترى باب الجامع النحاسى ونقله إلى جامعهم عام ٨١٩ هـ — ١٤١٦ م .

وكان هذا الجامع مركز مقاومة ضد قلعة الجبل قلمنا تكون فترة بين زعماء الدولة حتى يصعد إلى سطحه عدة أمراء وغيرهم ويبدأ الرمي منه على القلعة ، فلم يحتمل ذلك الملك الظاهر برقوق وأمر بهدم الدرج الذى كان يصعد منه إلى المنارتين ويصل الإنسان من هذا الدرج إلى السطح الذى كان يرمى منه على القلعة ، وهدمت البسطة العظيمة والدرج الذى كان بجانب هذه البسطة أمام باب الجامع حتى لا يمكن الصعود إليه ، وسد من وراء الباب النحاسى وفتح شباك من شبائك أحد مدارس هذا الجامع الأربعة وامتنع صعود المؤذنين إلى المنارتين وبقي الأذان على درج هذا الباب ، ومع ذلك فقد استمر الجامع مركزاً للنواشات وتبادل الطلقات لفترة طويلة ولا تزال آثار بعض «الجلل» باقية عليه للآن ، وقد ذكر « ستانلى لين بول » أن إحدى مأذنتى الجامع كانت تتصل بسور القلعة بجبل كان يلعب عليه « بهوان أوروبى » تسلية للجواهر التى كانت تعد لمشاهدة مخاطراته — ومع كل ما مر بهذا الجامع الخالد من الحوادث والذكريات والسنين والأيام لم يزد إلا عظمة ووقاراً بالرغم مما ظهر على وجهه من ملامح الشيخوخة — وهو لا يزال أعين وأخف أثر إسلامى خلفه لنا أبناء القرن الرابع عشر .

المدارس المملوكية

ولقد أسس في أنحاء القاهرة على أيام المماليك مدارس كثيرة ، فأنشأ الظاهر بيبرس المدرسة الظاهرية عام ٦٦٢ هـ — ١٢٦٤ ، ورتب بها لتدريس — الشافعية تقي الدين بن رزين ، وللحنفية محب الدين عبد الرحمن ، ولتدريس الحديث الحافظ مشرف الدين الديماطى ، ووقف بها خزانة كتب ، كما بنى بجانبها مكتباً لتعليم أيتام المسلمين وأوقف عليها ربح السلطان خارج باب زويلة (تحت الربيع اليوم) ، وكانت من

أجل مدارس القاهرة ولكن اضطرابات إدارتها وتنازع الحنفية والشافعية وأولاد الظاهر ، أدى إلى ضعفها وفساد أمرها(١) .

المدرسة الظاهرية الجديدة :

أسس الظاهر هذه المدرسة التي تمت عمارتها في رجب سنة ٦٦٨ هـ ، وتولى تدريس الحنفية بها علماء الدين السيراحي ، والشافعية وحيد الدين الرومي والمالكية شرف الدين بن مكين ، والحنابلة صلاح بن الأعمى وكان أستاذ التفسير الشيخ سراج الدين البلقيني(٢)

المدرسة المنصورية :

أنشأها هي والقبة التي تجاهها واليعمارستان ، الملك المنصور قلاوون سنة ٦٨٣ هـ — ١٢٨٤م ، وموقعها داخل باب اليعمارستان بالنحاسين (الآن) ، ورتب بها دروساً للذاهب الأربعة وجعل بالقبة خزانة كتب(٣) .

المدرسة الناصرية :

بدأ بناءها السلطان الملك العادل زين الدين كتبغا المنصوري ، ووضع أساسها ولكنه خلع بعد بدء العمل فيها بقليل ، فلما جاء السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون أعماها ، وكان ذلك في عام ٧٠٣ هـ — ١٣٠٤م قال عنها القرينى إنها من أجل مباني القاهرة ، وبابها من أعجب ما عملته أيدي بني آدم ، فإنه من الرخام الأبيض البديع الفائق الصناعة ، وأول من رتب في تدريسها قاضي القضاة زين الدين المالكي ، وشرف الدين عبد الغنى الحنبلي ، وأحمد بن السروجي الحنفي(٤) ، وصدر الدين محمد المعروف بابن الوكيل الشافعي ، وكان يفرق بها على الطلبة والقراء وسائر أرباب الوظائف بها ، السكر في كل شهر لكل أحد منهم نصيب ، ويفرق عليهم لحوم الأضاحي في كل سنة .

المدرسة الطبرسية :

كانت ملحقة بالأزهر ، أنشأها الأمير علاء الدين طبرس الخازندار نقيب الجيوش وقرر بها درساً

-
- ٠ (١) القرينى : الخطط ج ٤ ص ٢١٨ .
 - ٠ (٢) السيوطي : حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٩٣ .
 - ٠ (٣) القرينى : الخطط ج ٤ ص ٢١٨ — ٢١٩ .
 - ٠ (٤) المصدر نفسه : ج ٤ ص ٢٢١ — ٢٢٢ .

لشافعية ، تأنق في رخامها وتذهب مقوفها حتى جاءت في أبداع زى وأحسن قالب ، وقد بلغت النفقة عليها جملة كثيرة . تم بناؤها عام ٥٧٠٩ هـ — ١٣٠٩ م ، وكان بها خزانة كتب^(١) .

المدرسة الجاولية :

أنشأها الأمير علم الدين سنجر الجاولي سنة ٧٢٣ هـ — ١٣٢٣ م وجعلها لطلاب العلم والصوفية وكان هذا الأمير من علماء الشافعية ، وله في الفقه الشافعي مصنفات^(٢) وهي قرية من جامع ابن طولون .

المدرسة الجمالية :

شيدها الأمير الوزير علاء الدين مغلطاي الجمالي سنة ٥٧٣٠ هـ — ١٣٢٩ — ٣٠ م وجعلها مدرسة للحنفية وخانقاه للصوفية وولى تدريسها ومشيخة للتصوفة . وكان شأن هذه المدرسة كبيراً ولها عدة أوقاف بالقاهرة وظاهرها وفي سورية . وقد تلاشى أمر هذه المدرسة لسوء ولاة أمرها وتخريبهم أوقافها وصارت منزلاً يسكنه أخلاط ممن ينسب إلى الفقه^(٣) .

المدرسة الأقباقوية :

أنشأها الأمير علاء الدين أقبغا عبد الواحد استادار الملك الناصر محمد بن قلاوون سنة ٥٧٤٠ هـ — ١٣٣٩ م وقرر فيها دروس الشافعية والحنفية وجعل فيها عدة من الصوفية ، وكانت ملحقة بالأزهر وعمرها عبد الرحمن كتحدا الذي جدد المدرسة الطيرسية نشأة جديدة وجعلها مع هذه المدرسة المقابلة لها من داخل الباب الكبير الذي أنشأ خارجها .

المدرسة الصرغتمشية :

بناها الأمير سيف الدين صرغتمش الناصري سنة ٧٥٧ هـ — ١٣٥٦ م وخصصها للفقهاء الأحناف ورتب بها دروساً للحديث وهي ملاصقة لجامع بن طولون^(٤)

(١) المقرئى : الخطط ج ٤ ص ٢٢٣ .

(٢) المصدر نفسه . ج ٤ ص ٢٣٨ .

(٣) » . ج ٤ ص ٢٣٨ .

(٤) المقرئى : الخطط ج ٤ ص ٢٥٦ .

مدرسة مسجد السلطان حسن :

وهي من أعظم عمائر القاهرة الإسلامية ، شيدها السلطان حسن بن الناصر محمد في الفترة الثانية من حكمه . بدأت عمارتها سنة ٧٥٧ هـ - ١٣٥٦ م واستمر العمل فيها ثلاث سنوات ولكنها لم تكتمل إلا سنة ٧٦٤ هـ بعد وفاة السلطان حسن بعامين ، وكانت المدرسة للمذاهب الأربعة ، وعمن تولوا التدريس بها العالم الشافعي بهاء الدين السبكي (١) .

المكتبات في عصر المماليك البحرية

ومما يوضح ازدهار الثقافة في هذا العصر ، وجود عدد كبير من المكتبات الملحقة بالمدارس التي أنشأها المماليك . ومن أولى تلك المكتبات ، المكتبة الظاهرية التي ألحقها الظاهر بيبرس بمدرسته بخط بين القصرين سنة ٦١٢ هـ ، وقد اشتملت على أمهات الكتب في شتى العلوم (٢) وكان بجامع الظاهر الكبير خزانة كتب . وقد وقف الشيخ الفقيه يحيى بن عبد الوهاب سنة ٧٢١ هـ كتبه على تلك الخزانة .

وقد كان بالمدرسة المنصورية التي أسسها المنصور قلاوون بخط بين القصرين في سنة ٦٨٣ - ٦٨٤ هـ خزانة كتب جليلة وكان مكانها بالقبة (٣) وقد أمدتها السلطان باصاحف الشريعة وكتب التفسير والحديث والفقه واللغة والطب والأدب والشعر . وقد رتب المنصور لخازن كتبها في كل شهر أربعين درهماً وله خمسة مساعدين ، كما جعل له خدم وقومة وفراشون وبوابون (٤) .

وكان في المدرسة الناصرية بجوار القبة المنصورية خزانة كتب جليلة ، أدركها القرظي وتكلم عنها . وقد زودت المدرسة المنكوتيرية التي أنشأها سيف الدين منكوتير الحسامي بحجارة بهاء الدين بالقاهرة سنة ٦٩٨ هـ بخزانة كتب (٥) . كما احتوت أيضاً المدرسة الطبرسية التي أسسها علاء الدين طبرس تقيب الجيوش في عهد السلطان لاجين سنة ٧٠٩ هـ على خزانة كتب عظيمة (٦) .

(١) القرظي : الخطط ج ٤ ص ١١٧ .

(٢) « الساوك ج ١ ص ٥٠٤ والخطط ج ٢ ص ٣٧٩ .

(٣) « الخطط ج ٢ ص ٣٨٠ ، ٤٠٧ .

(٤) عبد اللطيف ابراهيم : دراسات في الكتب والمكتبات الإسلامية ص ١٨

(٥) القرظي : الخطط ج ٢ ص ٣٨٧ .

(٦) « الخطط ج ٢ ص ٣٨٣ .

واشتملت أيضاً مدرسة سيف الدين آل ملك الجوكندار الناصرى وكانت تجاه داره بخط المشهد الحسينى على خزانة كتب معتبرة^(١) . وقد كان في مدرسة خوندتر الحجازية ابنة السلطان محمد بن قلاوون التى أنشأها سنة ٧٦١ هـ خزانة كتب قيمة عامرة بال المؤلفات في مختلف العلوم — كما أنه كان في مدرسة خوند بركة أم السلطان شعبان وزوجة الأمير العجاى اليوسفى بالتبانة (٧٧١ هـ) مكتبة احتوت على الكتب والمصاحف الشريفة .

وقد زودنا الدكتور عبد اللطيف في كتابه المفيد ببيت طيب اشتمل على هذه المكتبات النفيسة ، فذكر أنه كان في المدرسة الصحابية البهائية التى أنشأها الصاحب بهاء الدين بن حنا سنة ٦٥٤ هـ في زقاق القناديل بمصر القديمة ، خزانة كتب جليلة وربما يرجع الفضل في ذلك إلى قربها من سوق الكتب في تلك المنطقة . أما مدرسة صرغتمش التى أنشأها هذا الأمير سنة ٧٥٧ هـ بجوار جامع ابن طولون فقد زخرت بكتب الفقه الحنفى والحديث والمصاحف . وقد كان بمدرسة السلطان حسن بن قلاوون بخط سوق الخيل بالقامة (٧٥٧ — ٧٦٤ هـ) مكتبة عظيمة احتوت على كتب علم الحديث ومصطلحه وكتب اللغة والنحو^(٢) وقد كانت مكتبة المدرسة الأشرفية التى شيدها السلطان شعبان بن حسين سنة ٧٦٤ هـ وكملت عمارتها في سنة ٧٧٧ هـ ، من أكبر المكتبات المدرسية المملوكية وزخرت بالكتب النفيسة والمصاحف، ولكن هذه المدرسة لم تطل مدة بقائها ، فقد هدمها السلطان فرج بن برقوق ثم شيد مكانها المؤيد شيخ المحمودى البيارستان المؤيد سنة ٨٢١ — ٨٢٣ تحت قلعة الجبل^(٣) .

وقد كان أمناء مكتبات المدارس المملوكية يتقاضون مرتبات متفاوتة تبعاً لمركز الأمين أو الخازن وسمته ومهمته ، ومقدار ما يسهم به من أعمال فنية وإدارة وغيرها في المكتبة ، وتبعاً لمقدار ريع الوقف السنوى ، وقد جاء في كتاب دراسات في الكتب والمكتبات الإسلامية « بيان المرتب الشهرى لبعض أمناء المكتبات المملوكية^(٤) » .

(١) القرىزى : الخطط ج ٢ ص ٣٩٢ .

(٢) وثيقة السلطان حسن . أوقاف ٨٨١ ص ٤٢٦ و ٤٤٢ و ٤٤٥ محكمة ٤٠ و ٤٢ محطة ٦ .

(٣) القرىزى : الخطط ج ٢ ص ٤٠١ ، ٤٠٨ .

(٤) أمين مكتبة السلطان النصور قلاوون — ٤٠ درهم ، أمين مكتبة السلطان محمد بن قلاوون — ٣٠ درهم ، أمين مكتبة الأمير صرغتمش — ٥٠ درهم أمين مكتبة السلطان حسن بن قلاوون — ١٠ دراهم . ص ٨١ .

نحول شاطيء النيل واتساع القاهرة المملوكية

كان شاطيء النيل الشرقى فى العصر الفاطمى يمر تقريباً بشارع عمادالدين (محمد فريد حالياً) قصرية أم دنين حيث جامع أولاد عنان ، فميدان رمسيس فى المكان الذى تقوم عليه محطة كوبرى الليمون ، ثم يسير النيل شمالاً متجهاً إلى الشراية وإلى منية السيرج ، ومنها إلى المكان الذى به اليوم فم الترعة الاسماعيلية .

ولكن حدث فى أواخر حكم الفاطميين أن غرق فى النيل بالقرب من شمالى المقس نهر القاهرة مركب اسمه « الفيل » وترك فى مكانه ، فنراكت فوقه الرمال وسرعان ما ظهرت هناك جزيرة وسط المياه ارتفعت أراضيها تدريجياً ، فعرفت فى ذلك الوقت باسم جزيرة الفيل . ثم اتسعت مساحة الجزيرة ، واتخذت شكلها النهائى عام ٥٧٠ هـ — ١١٧٤ م ، فزرعت فى أيام صلاح الدين الأيوبي وأوقفت أراضيها على المدرسة الصلاحية التى أنشئت إذ ذاك بالقرافة الصغرى بجوار قبر الإمام الشافعى ، واستمرت مساحة هذه الجزيرة فى الزيادة حتى كانت أيام قلاوون ، فأمر بوقف الأرض التى زادت على حدود هذه الجزيرة على بهارستانه المعروف بالنحاسين (١) .

وفى عام ٦٨٠ هـ — ١٢٨٢ م فى عصر قلاوون ظهرت فى النيل الأرض المعروفة الآن باسم بولاق ، ثم طمست السيالة التى كانت واقعة فى الشرق والشمال من جزيرة الفيل ، فانصلت هذه الجزيرة بأرض بولاق وبالشاطيء الشرقى القديم للنيل أمام القاهرة .

بــــــــــــــــولاق

وانتقل شاطيء النيل الشرقى أمام القاهرة فى أثناء حكم المماليك البحرية (الظاهر بيبرس) نتيجة لطرح النيل الخامس ، الذى ظهر حوالى عام ٦٥٢ هـ — ١٢٥٤ م ، فقد طرح النيل أرضاً جديدة اتصلت بالطرح الأول (٦٩ هـ — ٦٨٨ م) الذى حدث فى زمن حكم الدولة الأموية ، وولاية عبد العزيز بن

(١) مكان جزيرة الفيل اليوم هى المنطقة التى يمر فيها شارع شبرا من الجنوب إلى الشمال ، وكان يجرها وقت أن كانت وسط المياه من الغرب النيل حيث يمتد الآن طراد النيل القديم وشارع أبو الفرج ومن الجنوب النيل حيث يقع الآن شارع جزيرة بدران وشارع بركات ومن الشرق والشمال سيالة مياه كانت فاصلة فى ذلك الوقت بين هذه الجزيرة وبين أرض الطباله التى تشمل منطقة محطة كوبرى الليمون والفجالة وبركة الرطلى وبين أرض البعل التى تعرف اليوم بالشراية ومهمشة وبين منية السيرج ، ومنها إلى فم الترعة الاسماعيلية ثم عرفت الجزيرة بالمعهد التركى .

مروان على مصر . اتصل الطرح الخامس أيضاً بالقسم الجنوبي من الطرح الثالث (٥٢٠ هـ - ١١٢٦ م في أيام الدولة الفاطمية) في المسافة الواقعة بين جامع سليمان الفرنساوى الواقع بشارع عمرو بن العاص (كورنيش النيل حالياً) بمصر القديمة وبين النقطة التي يتلاقى فيها شارع عمرو بن العاص بمصر القديمة وبين النقطة التي يتلاقى فيها شارع قصر العيني بشارع اسماعيل باشا سرى بالمنيرة .

ليس هذا فحسب . فقد حدث في أوائل حكم المماليك البحريةية الطرح السادس الذي ظهر حوالى ٦٦٠ هـ - ١٢٦٢ م إذ طرح النيل أرضاً جديدة اتصلت بالطرح الثالث في المسافة الواقعة بين ميدان التحرير وبين النقطة التي يتقابل فيها شارع مارييت باشا بشارع رمسيس (الملكة نازلى سابقاً) .

ولمعد ثانياً إلى الأرض التي عليها اليوم قسم بولاق بأكماله ، فقد ظهرت نتيجة للطرح السابع الذي ظهر حوالى ٦٨٠ هـ - ١٢٨٢ م ، وظلت بولاق تُعمر لمدينة القاهرة منذ ٧١٣ هـ - ١٣١٣ م حتى أيام الوالى سعيد حيناً أنشأ أول خط سكة حديد بين الإسكندرية والقاهرة عام ١٨٥٦ ، فأخذت مكانة بولاق في لأفول ، ولكنها عادت مرة ثانية إلى الصعود حيناً أنشئ الطريق الذى يربطها بالأزبكية في أواخر القرن الثامن عشر ، ثم أخذت بولاق تتسع في عمارتها حتى اتصلت مبانيها بمدينة القاهرة في الثلث الثانى للقرن التاسع عشر .

وفي أيام الناصر محمد بن قلاوون امتد العمران بين باب الخلق والسيدة زينب بعد أن استجد أكثر من ستين حكراً على ضفة الخليج العربية ابتداء من قناطر السباع — (ميدان السيدة زينب) .

وكان لتحويلات شاطئ النيل إلى الغرب في أيام المماليك البحريةية فضل كبير في زيادة رقعة مصر والقاهرة وقد وصف المدينة ابن فضل الله العمري المؤرخ الجغرافى في القرن الرابع عشر بقوله :

« ولم تزل القاهرة في كل وقت تزايد عمارتها وتتجدد معالمها ، خصوصاً بمسح خراب القسطنطينية عام ٥٦٤ هـ - ١١٦٨ م وانتقال أهلها إليها حتى صارت على ما هي عليه في زماننا من القصور العالية والدور الضخمة والمنازل الرحيبة والأسواق الممتدة والمناظر النزهة والجوامع البهجة والمدارس الرائعة والجوامع الفاخرة ، مما لا يسمح بثله في قطر من الأقطار ولا عهد نظيره في مصر من الأمصار (١) .

ومن الطريف أنه في سنة ٧٣٣ هـ - ١٣٢٣ م أمر الناصر محمد بن قلاوون بالقبض على النجمين وتسليمهم إلى والى القاهرة فضربوا وحبسوا (٢) وكان هؤلاء ينصبون على النساء ويغررون بهن .

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٧٠ .

(٢) البداية والنهاية ج ٢٤ ص ١٦١ .

ويعزى إلى هذا السلطان تجميله لبركة الفيل والحفاظ على رونقها ، فانه أمر بإقامة حوائط بطول البركة ليحجب الأجزاء التي لم تعمر من جهة الجسر الأعظم (١) .

وفي أيام الناصر محمد ، أنشأ الأمير آق سنقرشاد المأمّر السلطانية قنطرة سنقر على الخليج الكبير تجاه مدخل شارع قنطرة سنقر الموصل إلى شارع درب الحجر .

أرض اللوق

عرفت بحيط الاسماعيليه وكانت تشمل المنطقة التي تحده اليوم من الشمال بشارع قنطرة الدكة ومن الغرب بشارع رمسيس (الملكة نازلى سابقاً) إلى أوله عند مضخات مصلحة المجارى ، ثم ينعطف الحد إلى قصر النيل ويسير محاذيا للنيل إلى كوبرى النيل (محمد على سابقاً) ومن الجنوب بمستشفى قصر العينى وشارع بستان الفاضل ومن الشرق بشارع بور سعيد (الخليج المصرى سابقاً) فشارع سعد الدين فشارع نوبار باشا إلى أن يتقابل مع شارع الشيخ ريحان ، ثم ينعطف الحد نحو الشرق حتى يتصل بشارع محمد بك فريد (عماد الدين سابقاً) عند نقطة تلاقيه بشارع التحرير (الحديو اسماعيل سابقاً) ثم يستقيم الحد متجهاً إلى الشمال في شارع محمد فريد إلى أن يتقابل مع الحد البحرى عند شارع قنطرة الدكة .

وكان الحد الشرقى لأرض اللوق هو مكان الشاطئ الشرقى للنيل لغاية عام ٦٨٨ م أى أن النيل كان يجرى عند هذا الحد قبل ظهور أرض اللوق (٢) وقد ظهرت اللوق في عهد الدولة الفاطمية والأيوبية كطرح بحر ثم أضيفت إليها طروحات أخرى في أوائل أيام دولة المماليك البحرية (٣) وسميت لوقاً لأنها كانت أرضاً لينة تلاق لوقاً عند زراعتها بعد الفيضان الذى كان يغمرها وتزرع زراعات شتوية أسوة بأراضى الملق في أراضى الحياض .

وقد أنشئ بأرض اللوق ، البساتين والمنشآت مثل منشأة القاضى الفاضل وبستانه ومنشأة ابن ثعلب وبستانه ومنشأة الكتبة وغيرها مما ذكره المقرئى ثم زالت تلك المنشآت وبقيت اللوق أرضاً زراعية إلى عام ٦٦٠ هـ - ١٢٦١ حينما قدم على مصر طائفة من التتر ، فأنزلهم الملك الظاهر بيبرس في دور كان قد

(١) المقرئى : المواعظ والاعتبار ج ٢ ص ١٦٥ .

(٢) محمد رمزى : النجوم الزاهرة .

(٣) فؤاد فرج : القاهرة ج ٣ ص ٤٥٤ - ٤٥٥ .

أمر بإنائها لهم في أراضي اللوق، ومنذ ذلك الحين أصبحت بها عدة أحكار عامرة بالسكان، ثم خربت ونحولت هذه الأراضي إلى أراضي زراعية مرة ثانية وبقيت على ذلك إلى عام ١٨٥٨ ، وفي زمن الخديو إسماعيل بدأ الأهالي فيها بالمهارة والبناء حتى شغلت المنطقة بالدور والقصور وتخللتها الشوارع والميادين ؛ وقد عرفت بخط الاسماعيلية نسبة إلى الخديو اسماعيل .

المجتمع العلمي في أيام المماليك

ازدهرت مصر في أثناء حكم المماليك بطائفة من العلماء الذين خدموا الأمة العربية ، ويقابلنا ابن الحاجب العالم النعوى الشهير^(١) والتوفى عام ١٢٤٨ م . وقد كان مؤلفه « السكافي » في قواعد اللغة العربية مرجع أجيال متعاقبة من الطلاب والتعلمين في المدارس الإسلامية ، بل وتناول العلماء كتابه بالشرح والإيضاح واتمليق عليه .

وكان ابن هشام^(٢) أيضا (١٣٠٨ — ١٣٦٠) ، بالرغم من أنه كان في وقت ما أستاذ دراسات القرآن في القاهرة — من علماء اللغة ، واشتهر في هذا اللون من التأليف ، كما اشتهر فيه مثله بدر الدين الدماميني (١٣٦٢ — ١٤٢٤) ، وهو من مواليد الاسكندرية^(٣) ، وظهر من كتاب النثر العالم الزبيدي (توفى في عام ١٧٩١م) صاحب قاموس تاج العروس ، وقد طلب العلم في مصر حيث قضى الشطر الأكبر من حياته .

وتلقى جلال الدين السيوطي — وهو من أعظم رجالات المسلمين الذين ألفوا المصنفات (دوائر المعارف) من أهالي أسيوط . وقد تولى عدة وظائف عامة في القاهرة ، ثم ركن إلى جزيرة الروضة متقاعداً عن

(١) هو العلامة عثمان بن عمر بن أبي بكر الكردى المالكي النعوى الفقيه ، المعروف بابن الحاجب المولود بعد سنة ٥٧٠ هـ — ١١٧٥ م باسنا والتوفى بالاسكندرية سنة ٦٤٦ هـ . راجع ترجمته في المنهل الصافي ج ٤ ص ٤٤ — ٤٧ .

(٢) هو العلامة عبد الله بن يوسف بن هشام جمال الدين النعوى الحنبلى المولود سنة ٧٠٨ هـ والتوفى سنة ٥٧٦ هـ ، راجع ترجمته في المنهل الصافي ج ٣ ص ٥٥١ .

(٣) هو العلامة المحقق محمد بن أبي بكر القرشى الاسكندري المالكي بدر الدين الدماميني المولود بالاسكندرية سنة ٧٦٣ هـ والتوفى بالهند سنة ٨٢٧ — أو ٨٢٨ . راجع ترجمته في الضوء اللامع ج ٤ ص ٤٢٩ .

العمل حينما أعفى من الوظائف التي كان يتولاها . وعاش السيوطي ستين سنة بين عامي ١٤٤٥ - ١٥٠٥ م ومن الصعب أن نجد علماء من علوم المسلمين لم يجرفه قلم السيوطي بالتأليف والتحرير والتصحيح والإيضاح . وقد ذكر « بروكيلمان » المستشرق الألماني ثلاثمائة وثلاثة وثلاثين مؤلفاً للسيوطي . وقد يكون هذا الثبوت الذي أتى عليه بروكيلمان يفتقر إلى الدقة . بيد أن الشيء الذي لامرته فيه هو أنه لا يوجد مؤلف آخر في العربية له ما للسيوطي من مؤلفات وأبحاث^(١) .

على أننا في مثل هذا الكتاب لا يتسنى لنا أن نقف إزاء كل من تصدر من المصريين في علوم اللغة والشعر أو الطب والكيمياء أو الهندسة والفلك ، لتحدث عن تاريخ حياته ومؤلفاته . فلهذه الليادين مراجعها المستفيضة ، ولكن من الضرورة بمكان أيضاً ألا ندع هذا العرض دون أن نذكر في المامة سريعة ألع الأسماء ؛ وإمله يتيسر منها أن ندرك صورة صحيحة للحياة الفكرية والعلمية في مصر أثناء حكم المماليك .

ها هو ذا العالم العلامة محمد بن موسى بن كمال الدين الدميري الأصل القاهري^(٢) الشافعي - المولود حوالي سنة ٧٤٢ هـ - ١٣٤٤ م بالقاهرة ، توفي سنة ٨٠٨ هـ - ١٤٠٥ م مؤلف الموسوعة العربية الكبرى في علم الحيوان (حياة الحيوان الكبرى) .

والجلداكي - مثله مثل الدميري - قاهري اشتهر بدراساته في علم الكيمياء . وقد توفي قبل مولده الدميري بعامين أي في عام ١٣٤٢ م . والنواجي ١٤٥٥ صاحب مؤلف في التحاليل الطبية^(٣) - وابن سيد الناس ١٣٥٤ م ، واشتهر بسفره في حياة النبي . والجندي ١٣٦٥ م ، وتاج الدين السبكي (١٣٥٥) ، الذي عاصر اثني عشر من السلاطين والمماليك . وهو مصلح مصري اس نواحى الضعف في الحكومة وفي طبقات الأمة لذلك العهد فتصدى لنقدها بصراحة وجرأة تدعوان إلى الإعجاب ، ثم وصف وسائل الإصلاح وهي تدور حول قيام كل بواجبه في دائرة عمله^(٤) .

(١) نذكر في ميدان اللغة طاهر بن بابشاذ الذي تولى ديوان الانشاء في العصر الفاطمي ، وكان إمام عصره في النحو وكذلك بن برى وابن مالك الطائي ، وكان ابن منظور صاحب « لسان العرب » من رجال ديوان الانشاء بمصر في عصر المماليك) .

(٢) راجع ترجمة حياته في الضوء اللامع ج ٦ ص ١٧ .

(٣) هو العلامة محمد بن حسن بن شمس الدين النواجي نسبة لنواج بالقرية المولود بالقاهرة بمدسة ٧٨٥ تقريباً والتوفي سنة ٨٥٩ هـ - راجع ترجمته في الضوء اللامع ج ٤ ص ٥٣٢ - ٥٣٨ .

(٤) ولد السبكي حوالي (٧٢٧ هـ / ١٣٢٦ م) بالقاهرة - راجع كتاب البيت السبكي للأستاذ محمد الصادق حسين (١٩٤٨) .

وبرز من رجال الشريعة على المذهب الحنفي ابن نجيم المصري^(١) . وتوفي عام ١٥٦٣م . والدمرطاشي (ت ١٥٩٥) — ومن الشافعية البلقيني (ت ١٤٠٣)^(٢) وذكريا الأنصاري (ت ١٥٢٠)^(٣) قاضي القضاة الملقب بشيخ الاسلام المولود بسنبكة من الشرقية ، ثم الحفاجي سنة ١٦٥٩ ، الذي اشتهر فوق درايته بالشريعة بعلوم اللغة والشعر^(٤) .

وقد لعبت مصر دورا هاما في تأريخ ناحية من الأدب العربي من المتعذر أن يفكر فيها أديب عربي . وبنوه بها كتاب الغرب في مقدمة مؤلفاتهم في الأدب العربي . هذه الناحية هي الأدب القصصي الحيالي . وأظهر ما كتب فيه هو كتاب « ألف ليلة وليلة » كما توجد مجموعة طيبة أخرى من هذا القصص الروائي لها قيمتها التأليفية . وعللة تقديم كتاب ألف ليلة وليلة عليها هي أن المستشرقين في بلاد الغرب لم يعنوا إلا بترجمة ألف ليلة ، فقد كان في وسعهم بسبب احتوائه على مجموعة من القصص أن يترجموا أجزاء منها تعتبر في حد ذاتها كتابا كاملا — وأشهر هذه القصص : عنتره العنبي — أبو زيد الهلالي — الظاهر بيبرس ، وغيرها .

وكان فن القصص في فترة ما ، من أهم مظاهر الحياة الاجتماعية في مصر . كما يبدو أن الراوية أو القاص الذي يسامر الناس في المقاهي قاصا عليهم تاريخ حياة عنتره ، أو أبي زيد لم يعد له وجود في المدن الكبرى . بيد أن الشيء الذي لا مرأى فيه أنه كان لهذا أثره في خلق جو من كتاب القصة المصرية الصميمة تتبدى بوادرها في صورة طيبة الآن نذكر منهم محمود تيمور والسحار وبا كثير والسباعي ، ونجيب محفوظ .

* * *

قلنا أن مصر والشام كانتا مهد الملمات والمجاميع الاسلامية . فإن معظم الذين ألفوا الكتب الجامعة للوضوعات المختلفة ، كانوا من المصريين أو كانوا من الشاميين في عصر اتحاد البلدين . فالنويري صاحب « نهاية الأرب في فنون الأدب » كان من رجال السلطان الملوكي الناصري محمد بن قلاوون^(٥) وابن فضل الله

(١) راجع ترجمة حياته في شذرات الذهب ج ٤ ص ٥٩٤ .

(٢) راجع ترجمة حياته في الضوء اللامع ج ٣ ص ٨٠٣ .

(٣) راجع ترجمة حياته في الضوء اللامع ج ٢ ص ٤٣٥ .

(٤) شهاب الدين الحفاجي — راجع ترجمته في خلاصة الأثر ج ١ ص ٢٣١ — ٣٤٣ .

(٥) مصري من نويرة (١٢٨٢ — ١٣٢٢) هو أبو العباس شهاب الدين أحمد .

١٣٩

العمرى صاحب « مسالك الأبصار » تولى القضاء بعصر في عصر المماليك (١٣٠١ - ١٥٤٨ م) وقد كان معاصراً للنويرى ، وكتابه في التراجم والتاريخ والجغرافيا مملوء بالفوائد القيمة والمعلومات الواسعة إلى أنافة في التعبير وجمال في الأداء يفوق النويرى وهو يقع في أكثر من عشرين جزءاً لم يخرج منه المطبعة سوى الجزء الأول . ثم أبو العباس أحمد القلقشندي صاحب « صبح الأعشى » كان أيضاً من الموظفين المصريين في ذلك العصر (ت ١٤١٨) . وجلال الدين السيوطى تولى الافتاء بعصر وتوفى في بداية القرن العاشر الهجرى (١١٦٠ م) بعد أن ألف الكتب والرسائل العديدة في التفسير والتاريخ والحديث والفقه وعلوم اللغة . . الخ . وقد مر ذكره .

التساريف

ويقابلنا في حقل كتابة التاريخ المؤرخ الكبير صارم الدين ابراهيم بن محمد بن أيد مر العلائى المعروف بابن دقماق^(١) صاحب « الانتصار لواسطة عقد الأمصار » وقد وصل إلينا أيضاً كتاب « الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين » وجزء من مؤلف آخر هو « نزهة الأنام في تاريخ الاسلام » .

وشهاب الدين الأوحدي (٧٦١ - ٨١١ هـ) (١٣٦٠ - ١٤٠٨ م)^(٢) وابن الداية وابن أبي أصيبعة وابن الراهب القبطى وأباشامة وابن واصل والقفطى وابن شداد ... الخ .

كما وصل إلينا كتاب قوانين الدواوين ، وهو مؤلف يصور قوانين أوامر الدولة المصرية على عهد حكم صلاح الدين الأيوبي . ومؤلفه الأسمد ابن ماني^(٣) . وممن ولدوا في القاهرة أيضاً ابن الفرات مؤلف كتاب « تاريخ الدول والملوك » . ولد عام ١٣٣٤م ، وقد أراد أن يضمّن كتابه التاريخ الإسلامى فبدأ

(١) ولد بالقاهرة سنة ٧٥٠ هـ وتوفى بها سنة ٨٠٩ هـ (١٣٤٩ - ١٤٠٦ م) .

(٢) حسن المحاضرة — ج ٢ ص ٢٦٦ .

(٣) هو أبو المكارم أسعد بن المهذب المصرى القبطى الأصل ناظر دواوين مصر المتوفى بجلب سنة (١٩٠٢ هـ ٦٠٦ م) عن اثنتين وستين سنة . راجع ترجمته في القرينى ج ٢ ص ١٦٠ — وقد طبع كتابه على نفقة الجمعية الزراعية للملكية بإشارة المغفور له الأمير عمر طوسون — وراجعه وحققه الدكتور عزيز سوريال عطية — عام ١٩٤٣ .

من القرن الرابع عشر للميلاد راجعا للوراء ، بيد أنه وصل إلى القرن العاشر فحسب عندما وافاه أجله في عام ١٤٠٦^(١) .

وإذ ذكرنا هؤلاء ، فيتمين أن ثبت بحق ألمع المؤرخين المصريين الذين خلدت مؤلفاتهم التي كتبوها في القرن الخامس عشر (التاسع الهجري) وهي تمد مكتبة مجيدة في التراث المصري الاسلامي . ويعتبر أحمد بن علي المقرئى ألمع جماعته . وكتابه « المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار » يعتبر المرجع افرید لدراسة مصر الاسلامية لجميع المؤرخين . ومن أهم أسفاره :

عقد جواهر الاسفاط من أخبار مدينة الفسطاط - اتماظ الحنفا باخبار الخلفاء - الساوك لمعرفة دول الماوك - اللقنى الكبير - العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة - النزاع والتخاصم فيما بين بنى أمية وبنى هاشم - إغاثة الأمة بكشف الغمة . ويعمل الدكتور زيادة منذ سنوات في اخراج طبعة علمية للسوك .

وقد صمم المقرئى مشروع دائرة معارف من ثمانين مجلدا ليُسجل فيها حياة أعلام المصريين ، بيد أنه لم يكمل منها إلا ستة عشر جزءا فحسب . كما أنه لم يكمل أيضاً مؤلفاً آخر هو كتابه (درر العقود) . وفضلا عن هذا كله فللمقرئى بضعة بحوث في علم الحديث^(٢) .

ومن مؤرخى مصر المعاصرين للمقرئى ، أحمد بن حجر الذى عرفنا من مؤلفاته : فتح البارى في شرح البخارى - المجمع المؤسس والمعمم المفهرس - الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة^(٣) .

وكذلك العيني صاحب (عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان)^(٤) . وابن عريشاه مؤلف « عجائب

(١) لا يزال كتاب ابن الفرات محفوظا في دار الكتب المصرية (رقم ٣١٩٧) - أنظر ترجمته في الضوء اللامع ج ٨ ص ٥١ .

(٢) ولد المقرئى بالقاهرة سنة (٧٦٠ هـ ١٣٦٤ م) بحارة برجوان بقسم الجمالية ، وانكب على الدرس والتحصيل وأظهر نجابة ومقدرة ، ثم التحق بديوان الانشاء بالقلمة حيث ظل يعمل موقعا حتى سنة ١٣٩٨ عندما اختاره السلطان برقوق لوظيفة محتسب القاهرة والوجه البحرى . فتولاها ثم تنحى عنها مرتين في عامين وفى سنة ١٤٠٨ انتقل إلى دمشق للاضطلاع بمنصب كبير ، وتولى التدريس أيضاً ، ورحل إلى عدة بلدان ، وتوفى عام (٨٤٥ هـ - ١٤٤٢ م) راجع ترجمته في الضوء اللامع ج ١ ص ٥٣٢ ، وفى المنهل الصافى ج ١ ص ٢٣٣ ، وفى « المؤرخون في مصر في القرن الخامس عشر الميلادى » للدكتور محمد مصطفى زيادة ص ٣ - ١٧ .

(٣) راجع ترجمة حياته في المصدر السابق ص ١٨ - ٢٠ .

(٤) هذا الكتاب يقع في ٢٣ جزءا ، وهو محفوظ بدار الكتب المصرية رقم ١٥٨٤ معارف ، وقد ولد العيني في الشام ، وجاء إلى مصر ، وعين في أوائل القرن التاسع الهجرى محتسباً للقاهرة والوجه البحرى .

المقدور في أخبار تيمور» (١) . و خليل بن شاهين صاحب « زبدة كشف الممالك و بيان الطرق و المسالك» (٢)
 و أبو المحاسن بن تغرى بردى الذى ألّف عدة أسفار في التاريخ الإسلامى ، نذكر منها :

النجوم الزاهرة في ملوك مصر و القاهرة — المنهل الصافى و المستوفى بعد الوافى — الدليل الشافى على
 المنهل الصافى — مورد اللطافة في ذكر من ولى السلطنة و الخلافة — حوادث الدهور في مدى الأيام و الشهور —
 نزهة الرأى في التاريخ — البحر الزاخر في علم الأوائل و الأواخر — نزهة الألباب في اختلاف الأسماء
 و الألقاب — حلية الصفات في الأسماء و الصناعات — البشارة في تكملة الإشارة — الانتصار للسان التتار —
 الرياضيات و الموسيقى — السكر الفاضح و العطر الفائح (٣) .

و عاصر أبا المحاسن اثنان من مشاهير المؤرخين هما ابن الصيرفى (٤) . و أبو الخير السخاوى (٥) .

و لأولهما : نزهة النفوس و الأبدان في تاريخ الزمان — أنباء الحصر في أبناء العصر — سيرة الأشرف
 قايتباى — الجوهريّة في السيرة النبوية .

و لثانیهما عدة مؤلفات قيمة ، أهمها : التبر المسالوك في ذيل السلوك — ذيل تاريخ دول
 الإسلام — الذيل المتناهى — الذيل على طبقات القراء — المتقى من تاريخ مكة — تلخيص تاريخ

(١) هو أحمد بن عبد الله شهاب الدين المعروف بابن عريشاه ولد سنة (٧٩١ هـ — ١٣٨٩ م) بدمشق
 ورحل منها إلى بلدان عدة . و نزح إلى القاهرة في زمن الملك الظاهر جقمق . و مات عام ٨٥٤ هـ / ١٤٥٠ م
 أنظر جورجى زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ج ٣ ص ١٥٥ — ١٥٦ .

(٢) توفي خليل بن شاهين بالقاهرة عام ١٤٦٩ .

(٣) ولد أبو المحاسن في القاهرة في يناير سنة ١٤١١ م بدار الأمير منجك اليوسفى بحى القلعة الحالى —
 تقلد كثيرا من الوظائف الرفيعة في الدولة المملوكية و نهض بمسئوليات كبيرة منها نيابة دمشق و أنابكية
 العسكر بمصر ، و تزوج السلطان فرج من كبرى بناته فاطمة ، و توفي سنة ١٤٧٠ (راجع ترجمته في كتابه
 النجوم الزاهرة طبعة كاليفورنيا ج ٦ . ص ٤٣٢ — ٤٣٥) .

(٤) ولد ابن الصيرفى بالقاهرة سنة ١٤١٦ و تعلم تعليما سيرا و تعلم لابن حجر المسقلانى ، و اشتغل بالتجارة
 و الخطابة في المساجد و غيرها من الوظائف الصغرى ، و كانت وفاته في يونيو سنة ١٤٩٤ .

(٥) ولد أبو الخير محمد بن عبد الرحمن السخاوى عام ١٤٢٧ بحارة بهاء الدين لصق باب الفتوح القديم
 بالظاهر ، و تعلم لابن حجر المسقلانى و حج مع أبيه و أمه سنة ١٤٥٢ فأقام بمكة بضع سنين و جاور بها ،
 و تنقل بعد ذلك بين مصر و الشام و الحجاز فحج خمس مرات ، و توفي السخاوى بالمدينة سنة ١٤٩٧ .

العين — الاعلان بالتاريخ لمن ذم التاريخ — الضوء اللامع لأهل القرن التاسع — الجواهر والدرر في ترجمة ابن حجر — القول المنبئ في ترجمة ابن عربي .

وكان محمد بن أحمد بن إياس المصرى ، كأبى المحاسن سليل أسرة مملوكية^(١) ترك لنا : بدائع الزهور فى وقائع الدهور — عقود الجمان فى وقائع الزمان — نزهة الأمم فى العجائب والحكم — مرجح الزهور فى وقائع الدهور ، نشق الأزهار فى عجائب الأقطار .

ومن زملاء ابن إياس — المؤرخ جلال الدين عبد الرحمن بن محمد السيوطى الذى كتب فى فنون عدة من أهمها كتب التاريخ الآتية :

حسن المحاضرة بأخبار مصر والقاهرة — تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين — تاريخ السلطان الأشرف قايتباى — بدائع الزهور فى وقائع الدهور — تاريخ أسيوط — الشماريخ فى علم التاريخ — نظم المقبان فى أعيان الأعيان — الملتقط من الدور الكامنة .

والمؤرخ عبد الباسط بن خليل بن شاهين الذى تقدم التعريف به من سلالة أسرة مملوكية ، وقد ولد بملطية بأطراف آسيا الصغرى حيث كان أبوه متولياً نيابتها من قبل السلطان جمقمق . وقد شغف بالسفر وبالتحصيل الواسع ثم استقر أخيراً بالقاهرة ، فنزل بالخطباء الشيخونية وتصفوا واعتبره السخاوى من تلاميذه فى التاريخ . ومن مؤلفاته المعروفة فى التاريخ كتاب « نزهة الأساطين فى من ولى مصر من السلاطين » وكتاب « نيل الأمل » ، وهو تكملة لتاريخ الذهبى ، وكتاب « الروض الباسم فى حوادث العمر والتراجم » وكتاب « تاريخ الأنبياء » . وتوفى عبد الباسط سنة ١٥١٤ بعد مرضه بالسل .

وزميله حسن بن حسين الطولونى المولود فى عام ١٤٣٢ ، مال إلى التاريخ والفقه والأدب والغناء والفروسية ، ونال حظوة لدى السلطان اينال والسلطان قايتباى الذى ولاه نيابة القلعة . فوجده خادماً مخلصاً لقيامه بتحصينها تحصيناً عظيماً . ولابن الطولونى : « كتاب النزهة السنوية فى ذكر الخلفاء والملوك المصرية » . وقد مات عام ١٥٧١ .

وينبغى علينا أن نضيف إلى رجال التاريخ المصريين :

الادفوى (توفى سنة ٧٤٨ هـ — ١٣٤٧ م) ، صاحب الطالع السعيد الجامع لأسماء نجباء الصعيد .

(١) ولد ابن إياس بالقاهرة سنة ١٤٤٨ ، وقد أنجب فى حياته الطويلة (٨٤ سنة) خمسة وعشرين ولداً ما بين ذكور وإناث . عاش عيشة راضية واشتغل بالتأليف فى التاريخ ونظم الشعر والزجل والمواويل والموشحات . وهو معاصر للسيوطى وابن خليل وابن طولون الدمشقى وابن زنبيل الرمال وكانت وفاته فى عام ١٥٢٤ .

والبدر السافر وتحفة المسافر في تراجم مشاهير القرن السابع — والمؤرخ ابن قطلوبغا (توفي سنة ١٨٧٩ هـ ١٤٧٤ م) . والمؤرخ ابن وصيف شاه المصري صاحب « جواهر البحور ووقائع الأمور وعجائب الدهور » وجمال الدين بن واصل الفقيه الفيلسوف المؤرخ صاحب مفرج الكروب في أخبار بني أيوب . والمؤرخ أبو البقاء ابن الجيعان (توفي نحو عام ٩٠١ هـ — ١٤٩٥ م) صاحب القول المستطرف في سفر الملك الأشرف ... وغيرهم .

والمؤرخ ابن زنبيل الرمال كتاب تاريخ أخذ مصر من الجراكسة — والدرة اليتيمة في مصر القديمة — وتحفة الملوك والرغائب لما في البر والبحر من المعجائب والغرائب — وقد توفي بعد سنة ١٥٥٢

مجتمع القاهرة كما وصفه العبدري

وفي أخريات النصف الثاني من القرن الثالث عشر ، زار مصر محمد بن محمد بن علي العبدري ، وهو من علماء العرب^(١) وكان صريحاً فيما كتبه عن القاهرة وعلمائها .

بدأ العبدري بالإسكندرية ، فقال عنها : « الإسكندرية مدينة الحصانة والوثاقة ، وبلد الإشراف اللامع والطلاقة ، وطلاوة النظر وحلاوة المذاقة ... مدينة فسيحة الميدان ، مليحة البنيان ، كأنه لم يقب عنها شخص الإسكندر ، مما ساس فيها من عجائب مبانيها ودبر ، ناهيك بمدينة كلها عجب ، قد ستر حسن أحسن غيرها وحجب ... ثم وصف أهم مبانيها ومنارها الفريد ، وعرج على وصف أحوال أهلها . وذكر عدداً كبيراً من أهل الفضل والعلم الذين لقيهم فيها ، وما سمعه منهم ، أو ما قرأه عليهم^(٢) .

وانتقل العبدري إلى القاهرة ، فقال : ... فوجدناها معيدة المعنى لبعض ما رأينا بها وسمعنا . وكان وصل إليها في أخريات رمضان ، فأتم الشهر بها وصلى مع أهل القاهرة صلاة العيد . ويبدو أنه لم يلق منها ترحاباً « ولم أر منهم يومئذ من صدر منه التأنيس بكلمة » فأثر ذلك في نفسه . ونزل العبدري بالمدرسة الكاملة بالجمالية ، وعنها يقول : وكنت نزلت بالمدرسة الكاملة منها في علو تشرف على السوق ،

(١) عزم العبدري على الرحلة إلى ديار الشرق الإسلامية في عام ٦٨٨ هـ — ١٢٨٩ م وسجل ما رآه في ذهابه وإيابه . ما تزال رحلته مخطوطة ، اختصرها ابن قنفذ صاحب الوفيات . راجع الاعلام للزركلبي ٧ ص ٢٦٠ .

(٢) صلاح الدين المنجد : المشرق في نظر المغاربة والأندلسيين في القرون الوسطى ، بيروت ١٩٦٣ ص ٧٠ — ٨٢ .

فكنت قلما أرقد إلا منغصاً لصياح الباعة ، وهم يبيعون طول الليل ، وقلما يكون طعام الشريف منهم والوضع إلا من السوق ... والطرق غاصة بالخلق ، حتى ترى الماشى فيها ماله هم سوى التحفظ من دوس الدواب إياه ، ولا يمكنه تأمل شيء في السوق لأن الخلق يتدفعون فيها مثل اندفاع السيل ، وقد ضاعت لى بها دابة بسبب الزحام كان عليها شخص راكباً ، فتسكأر عليه الزحام حتى أسقط عنها ، واندفعت في غمار الخلق ، ولم يمكنه التوصل إليها وهو يبصرها ، حتى غابت عنه وكان آخر العهد بها .

وقد ذكر العبدرى بعض الشيوخ الذين رأهم في القاهرة ، فأثنى على عبد المؤمن بن خلف الديماطى الذى نجا وحده من نقده . فقال عنه : « لم أر بهذه المدينة على كثرة الخلق بها أمثله وأقرب إلى الإنسانية وأجمل معاملة من الشيخ ... الحديث بالمدرسة الظاهرية ، وقد سمعت منه أحاديث جملة من سنن الشافعى وقابل ابن دقيق العيد ، فرآه « حبراً كاملاً عالماً يحق له اللقاء ، وبحراً من علم لا تكدره الدلاء ، له تفنن في فنون العلوم ، وتسלט عليها بذهن يرد المجهول إلى المعلوم ، وقلما يلقى له في سمة المعارف نظير ، أو يوجد من يماثله في صحة البحث والتنقير ، وله في البلاد ذكر شهير ، وصيت مستطير ، وخطر خطير ، يضرب في كل فن بسهم مصيب ، ويحظى منه بأوفر نصيب ... فهو الآن قطب مصر وعلمها ، لولا وسوسة تصعبه ، وأخلاق يجل عنها منصبه ، لو كانت لها صورة كانت أشنع الصور ، أو تليت لها سورة كانت أبشع السور ... »

وقد أعجب العبدرى بنهر النيل ، فقال عنه : ... ونيلها من عجائب الدنيا عدوبة واتساعا وغلة وانتفاعا ، وقد وضعت عليه المدائن والقرى ، فصار كسلك انتظم درراً . وشاهد الأهرام ، وزار مشهد الحسين ومشهد السيدة نفيسة وترتبة الإمام الشافعى .

لقد سجل العبدرى في رحلته العيوب وحدها كما رآها ، في حين أغفل الآخرون تسجيلها ، وذكرها ما رآوه من جميل وحسن ! . سامحه الله

القاهرة فيما كتبه عنها الرحالة

ابن بطوطة (١٣٢٦)

لدينا صورة واضحة للمجتمع القاهري رسمها أعظم الرحالة المسلمين وأوفرهم نشاطا واستيعابا للأخبار ، وهذا الرحالة هو شرف الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله المعروف بابن بطوطة .

ولد بطوطة سنة ٧٠٣ هـ (١٢٠٤م) ونشأ في بيت كريم ودرس على منهاج آباءه ، فلقه وتأدب ومارس الشعر أيضاً . وغادر وطنه سنة ٧٢٥ هـ (١٢٢٥م) لأداء فريضة الحج ، ولكنه ظل حول ثمانية وعشرين سنة في أسفار متصلة ، ثم عاد إلى فارس واتصل بسلطانها أبي عنان المريني ، وأعجب هذا السلطان بما كان ابن بطوطة يقصه من أحاديث أسفاره ، فأمر كاتبه محمد بن جزى الكلابي أن يذون ما عليه عليه هذا الرحالة ، فعمل بعد ما أضاف بعض الأسماء إليها ، وقد استعان بما دونه ابن جبير في كتاب رحلته ، ثم سماها « تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار » وفرغ منها سنة ٧٥٧ هـ (١٣٥٦م) (١) .

خرج ابن بطوطة من طنجة في رجب سنة ٧٢٥ هـ (يونيو ١٣٢٥) للحج عن طريق مصر وسنه إذ ذاك اثنان وعشرون سنة ، ثم اتسعت دائرة أغراضه وجولاته ، فظل في رحلته هذه أربعة وعشرين سنة تقريباً ، زار في أثنائها معظم بلاد العالم الاسلامي ، ورجع إلى وطنه سنة ١٣٤٩ ، لكنه لم يقيم بقاس طويلاً بل رحل عنها إلى الأندلس ، ولسطان غرناطة وقتئذ أبو الحجاج يوسف الأول ، وأخذ ينتقل من بلد إلى بلد بالأندلس ، ثم رجع إلى بلده ليقوم برحلة ثالثة إلى بلاد السودان وغربي أفريقيا ،

١ — طبعت رحلة ابن بطوطة في باريس مع ترجمة فرنسية في منتصف القرن التاسع عشر على يد المستشرقين ديفريمرى وسانجنتي وطبعت بالقاهرة طبعتين ، ونشر الأستاذ جب ملخصاً لها بالإنجليزية في سلسلة (Broadway Travellers) سنة ١٩٢٩ ، ثم نشر الرحلة كاملة في عدة أجزاء بعد ترجمتها . ١٩٥٩ — ١٩٦٢ .

فبدأ من فاس سنة ٧٥٣ هـ (١٣٥٢ م) وأوغل في الصحراء الكبرى، ووصل إلى وازار تبتكتو وبعض مدن إقليم الطوارق، وهناك وصله كتاب من عند السلطان أبي عنان يطلب إليه الحضور إلى مراکش، فامتثل ووصل فاس (٧٥٤ هـ - ١٣٥٤ م) فأقام بها حتى وفاته سنة ٧٧٩ هـ (١٣٧٧ م) (١).

ويهمنا هنا أن تقتطف ما يعنيننا من رحلة ابن بطوطة إلى مصر، وبخاصة القاهرة التي أسهب كثيراً في ذكر من قابلهم بها من العلماء، يقول:

«... ثم وصلنا في أول جمادى الأولى (٧٢٦ هـ - ١٣٢٦ م) إلى مدينة الاسكندرية حرسها الله، وهي الثغر المحروس، والقطر للأنوس، المعجبة الشأن، الأصيلة البنيان، بها ما شئت من تحسين وتحصين وما أثر ديناودين، كرمت مغانيها، ولطفت معانيها، وجمعت بين الضخامة والإحكام مبانها، فهي الفريدة تجلي سناها، والحريدة تجلي في حلاها، الزاهية بجملها المغرب، الجامعة لمفترق المحاسن لتوسطها بين المشرق والمغرب، فكل بدية بها اجتلاؤها، وكل طرفة فالها انتهاؤها، وقد وصفها الناس فأطنبوا، وصفوا في عجائبها فأغربوا، وحسب المشرف إلى ذلك ماسطره أبو عبيد في كتاب المسالك (٢)». وقد أسهب ابن بطوطة في وصف الاسكندرية ومارتها وعلماؤها.

خرج ابن بطوطة من مدينة الاسكندرية فوصل قرية تروجه وهي على مسيرة نصف يوم من الاسكندرية بها قاض ووال وناظر، وقد نزل الرحالة بها على رجل فاضل اسمه عبد الوهاب، وأضافه ناظر القرية زين الدين، ثم قصد دمنهور وكان قاضيا في ذلك العهد فخر الدين بن مسكين من فقهاء الشافعية. ورحل إلى مدينة قفة.

وفي اليوم التالي رحل إلى مدينة النصاروية وأميرها كبير القدر يعرف بالسعدى وولده في خدمة ملك الهند، ثم قصد مدينة ايار وهي قديمة البناء كثيرة المساجد ذات حسن زائد، ثم توجه إلى مدينة المحلة الكبيرة، ثم عرج على مدينة البرلس، وقصد بعد ذلك مدينة دمياط؛ ومن طريف ما ذكره ابن بطوطة عنها أنها كانت مسورة، وإذا دخلها أحد لم يكن له سبيل إلى الخروج منها إلا بإذن الوالي، فمن كان في الناس معتبراً أعطاه رجال الإدارة الإذن على ورق مختوم بخاتم الوالي، فيسمح له حراس باب المدينة ببارحتها عند رؤية هذا الخاتم.

(١) أنظر رحلة ابن جبير ورحلة ابن بطوطة للدكتور محمد مصطفى زيادة ١٩٣٩، والرحلة المسدود في المصور الوسطى للدكتور زكي محمد حسن ١٩٤٥.

(٢) كتاب المسالك والممالك لأبي عبيد البكري الأندلسي (١٠٤٠ - ١٠٩٤)

ثم سافر الرحالة إلى فارسكور وهي مدينة على ساحل النيل ونزل بخارجها حيث لحقه فارس جاء من دمياط ، ثم سافر إلى أشمون الرمان وهي مدينة عتيقة كبيرة على النيل ، ثم سافر منها إلى سمنود وهي على النيل حسنة الأسواق وبينها وبين المحلة الكبيرة ثلاثة فراسخ . ومن هذه المدينة ركب ابن بطوطة النيل مصمداً إلى مصر بين مداخن وقرى منتظمة متصل بعضها ببعض ، ولا يفتقر راكب النيل إلى استصحاب الزاد لأنه كلما أراد النزول بالشاطئ نزل للوضوء والصلاة وشراء الزاد وغير ذلك ، ثم وصل إلى مدينة مصر (القاهرة) . فذكر عنها :

«... وصلت إلى مدينة مصر هي أم البلاد وقرارة فرعون ذى الأوتاد ، ذات الأقاليم العريضة والبلاد التنائية في كثرة العمارات للتباهية بالحسن والنضارة ، مجمع الوارد والصادر ، ومحط رحل الضعيف والقادر وبها ماشئت من عالمو جاهل وجاد وهازل وحليم وسفيه ووضيع ونيبه وشريف ومشروف ومنكر ومعروف ، توج موج البحر بسكانها وتسكد تضيق بهم على سعة مكانها وامكانها ، شبها يجد على طول العهد وكوكب تعدلها لا يبرح عن منزل السمد ، قهرت قاهرته الأمم وتمسكت ملوكها نواصي العرب والعجم ، ولها خصوصية النيل التي جل خطرها وأغناها عن أن يستمد القطر قطرها ، وأرضها مسيرة شهر لمجد السير ، كريمة التربة مؤنسة لدوى الغربية . قال ابن جزى وفيها يقول الشاعر :

لعمرك ما مصر بمصر وإنما هي الجنة الدنيا لمن يتبصر
فأولادها الولدان والخور عينها وروضتها الفردوس والنيل كوثر

وفيها يقول ناصر الدين بن ناهض :

شاطئ مصر جنة ما مثلها من بلد
لا سيما منذ زخرفت بديلها للطرد
وللسرياح فوقه سوابغ من زرد
مسرودة^(١) ما مسها داودها بسبرد
سائلة هوأؤها يرعد عارى الجسد
والفلك كالأفلاك بين حادر ومصمد

تمال إن بمصر من السقائين على الجمال اثني عشر ألف سقاء . وأن بها ثلاثين ألف مكار ، وأن بيلها من المراكب ستة وثلاثين ألفاً للسلطان والرعية ، تمر صاعدة إلى الصعيد ومنحدرة إلى الاسكندرية ودمياط بأنواع الخيرات والمرافق ، وعلى ضفة النيل مما يواجه مصر للموضع المعروف بالروضة وهو مكان التزهة والتفرج

(١) مسرودة أى ملسوجة أو مخططة .

وبه البساتين الكثيرة الحسنة، وأهل مصر ذوو طرب وسرور وهو . شاهدت بها مرة فرحة بسبب برء الملك الناصر من كسر أصاب يده ، فزين كل أهل سوق سوقهم وعلقوا بحوائنهم الحلل والحلى وثياب الحرير وبقوا على ذلك أياماً .

(مسجد عمرو بن العاص والمدارس والمارستان والزوايا) :

ومسجد عمرو بن العاص مسجد شريف كبير القدر شهير الذكر تقام فيه الجمعة ، والطريق يعترضه من شرق إلى غرب ، وبشرقه الزاوية حيث كان يدرس الامام أبو عبد الله الشافعي . وأما المدارس بمصر فلا يحيط أحد بحصرها لكثرتها ، وأما للمارستان الذي بين القصرين عند تربة الملك المنصور قلاوون فيعجز الواصف عن محاسنه ، وقد أعد فيه من المرافق والأدوية ما لا يحصر، ويذكر أن مجباه (١) ألف دينار كل يوم ، وأما الزوايا فكثيرة وهم يسمونها الحوانق . والأمراء بمصر يتنافسون في بناء الزوايا ، وكل زاوية بمصر معينة لطائفة من الفقراء وأكثرهم الأعاجم . وهم أهل أدب ومعرفة بطريقة التصوف، ولكل زاوية شيخ وحارس، وترتيب أمورهم عجيب، ومن عوائدهم في الطعام أنه يأتي خادم الزاوية إلى الفقراء صباحاً فيعين له كل واحد ما يشتهي من الطعام ، فإذا اجتمعوا للأكل جمعوا لكل إنسان خبزه ومرقة في إناء على حدة لا يشاركه فيه أحد ، وطعامهم مرتان في اليوم ولهم كسوة الشتاء وكسوة الصيف ومرتب شهري من ثلاثين درهماً للواحد في الشهر إلى عشرين ، ولهم الحلاوة من السكر في كل ليلة الجمعة ، والصابون لغسل أثوابهم والأجرة لدخول الحمام والزيت للاستباح ، وهم أعزب ، وللمتزوجين زوايا على حدة، ومن للمشرط عليهم حضور الصلوات الخمس والمبيت بالزاوية، واجتماعهم بقية داخل الزاوية ، ومن عوائدهم أن يجلس كل واحد منهم على سجادة مختصة به وإذا صلوا صلاة الصبح قرءوا سورة الفتح وسورة الملك وسورة عم ، ثم يؤتى بسخ من القرآن العظيم مجزأة يأخذ كل فقير جزءاً ويحتمون القرآن ويذكرون ، ثم يقرأ القراء على عادة أهل المشرق ، ومثل ذلك يفعلون بعد صلاة العصر، ومن عوائدهم مع القادم أنه يأتي باب الزاوية فيقف به مشدود الوسط وعلى كاهله سجادة ويمناه المكاز ويسراه الابريق ، فيعلم البواب خادم الزاوية بمكانه فيخرج إليه ويسأله من أى البلاد أتى، وأى الزوايا نزل في طريقه ، ومن شيخه، فإذا عرف محجة قوله أدخله الزاوية وفرش له سجاده في موضع يليق به وأراه موضع الطهارة فيجدد الوضوء ويأتي إلى سجاده فيحلق وسطه ويصلي ركعتين. ويصافح الشيخ ومن حضر ويقدم معهم ، ومن عوائدهم أنهم إذا كان يوم الجمعة أخذ الخادم جميع سجاجيدهم فيذهب بها إلى المسجد ويفرشها لهم هنالك ويخرجون مجتمعين ومعهم شيخهم فيأتون المسجد ويصلي كل واحد على سجاده فإذا فرغوا من الصلاة قرءوا القرآن على عادتهم، ثم ينصرفون مجتمعين إلى الزاوية ومعهم شيخهم .

قرافة مصر ومزاراتها :

وانصر القرافة العظيمة الشأن في التبرك بها ، وهم يبنون بالقرافة القباب الحسنة ويحملون عليها الحيطان

(١) مجباه أى جباهه .

فتكون كاللدور وينون بها البيوت ويرتبون القراء يقرأون ليلاً ونهاراً بالأصوات الحسان ، ومنهم من يبني الزاوية والمدرسية إلى جانب التربة ، ويخرجون في كل ليلة جمعة إلى البيت بها بأولادهم ونسأهم ، ويطوفون على المزارات الشهيرة ويخرجون أيضاً إلى البيت بها ليلة النصف من شعبان ويخرج أهل الأسواق يصنوف المأكول . ومن المزارات الشريفة المشهد المقدس العظيم الشأن حيث رأس الحسين بن علي عليهما السلام ، وعليه رباط ضخيم عجيب البناء على أبوابه حلق الفضة وصفاً لها وهو موفى الحق من الاجلال والتعظيم ، ومنها تربة السيدة نفيسة بنت زيد بن علي بن الحسين بن علي عليهم السلام ، وكانت مجابة الدعوة مجتهدة في العبادة ، وهذه التربة أنيقة البناء عليها رباط مقصود . ومنها تربة الإمام أبي عبد الله محمد بن أدريس الشافعي (رضه) وعليها رباط كبير ، ولها جارية ضخمة ، وبها القبة الشهيرة البديعة الاثنيان الحسية البديان للتناهي الاحكام للفرطة السمو وسمتها أزيد من ثلاثين ذراعاً . ويقرأ في مصر من قبور العلماء والصلحاء ما لا يضبطه الحصر وبها عدد جهم من الصحابة وصدور السلف والخلف رضي الله تعالى عنهم .

نيل مصر :

ونيل مصر يفضل أنهار الأرض غدوبة مذاق ، واتساع قطر ، وعظم منفعة ، وللدن والقهرى بضفته منتظمة ليس في العمور مثلها ، ولا يعلم نهر يزرع عليه ما يزرع على النيل وليس في الأرض نهر يسمى بحراً غيره ، قال الله تعالى : « فإذا خفت عليه فألقه في اليم » فسماه يماً وهو البحر ، وفي الحديث الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وصل ليلة الاسراء إلى سدرة المنتهى فإذا في أصلها أربعة أنهار نهران ظاهران ونهران باطنان فسأل عنها جبريل عليه السلام فقال : أما الباطنان ففي الجنة وأما الظاهران فالنيل والفرات ، وفي الحديث أيضاً أن النيل والفرات وسبحان وجيخان كل من أنهار الجنة ، ويجرى النيل من الجنوب إلى الشمال خلافاً لجميع الأنهار . ومن عجائبه أن ابتداء زيادته في شدة الحر عند نقص الاتهار وجموفها وابتداء نقصه حين زيادة الأنهر وفيضاها ، ونهر السند مثله في ذلك ، وأول ابتداء زيادته في حزيران ، وهو يونيه ، فإذا بلغت زيادته ستة عشر ذراعاً تم خراج السلطان فإن زاد ذراعاً كان الحصب في العام والصلاح التام ، فإن بلغ ثمانية عشر ذراعاً أضر بالضياع وأعقب الوباء ، وإن نقص ذراعاً عن ستة عشر نقص خراج السلطان ، وإن نقص ذراعين استسقى الناس وكان الضرر الشديد . والنيل أحد أنهار الدنيا الخمسة الكبار ، وهي النيل والفرات والدجلة وسبحون وجيخون ، وتمثلها أنهار خمسة أيضاً : نهر السند ، ويسمى بنج اب ، ونهر الهند ويسمى الكنك وإليه تخرج الهنود وإذا حرقوا أمواتهم رموا برمادهم فيه ويقولون هو من الجنة ؛ ونهر الجون بالهند أيضاً ، ونهر اتل^(١) بصحراء قفقج وعلى ساحله مدينة السرا^(٢) ، ونهر السرو بأرض الخطا^(٣) ، وعلى ضفته مدينة

(١) هو نهر الفولجا بروسيا

(٢) هو النهر الأصفر بالصين

(٣) الصين الشمالية

خان بالق^(١) ومنها ينحدر إلى مدينة الخنسا^(٢) ثم إلى مدينة الزيتون^(٣) بأرض الصين .
والنيل يفترق بعد مسافة من مصر على ثلاثة أقسام ، ولا يعبر نهر منها إلا في السفن شتاءً وضيافاً ، وأهل
كل بلد لهم خلجان تخرج من النيل فلذا أمد ترعها فاضت على للزارع .

الأهرام والبرابي^(٤).

وهي من العجائب المذكورة على مرالدهور ، وللناس فيها كلام كثير في شأنها وأولسة بنائها ،
ويزعمون^(٥) أن جميع العلوم التي ظهرت قبل الطوفان أخذت عن هرمس الأول الساكن بصعيد مصر الأعلى ،
ويسمى أخوخ ، وهو ادريس عم ، وأنه أول من تسكلم في الحركات الفلكية والجواهر الملووية ، وأول من
بنى الهياكل ومجد الله تعالى فيها ، وأنه أنذر الناس بالطوفان وخاف ذهاب العلم ، ودرس الصنائع ، فبنى الأهرام
والبرابي وصور فيها جميع الصنائع والآلات ورسم العلوم فيها لتبقى مخلدة ، ويقال أن دار العلم والملك بمصر
بمدينة منف وهي على يرد من الفسطاط ، فلما بنيت الاسكندرية انتقل الناس إليها وصارت دار العلم والملك
إلى أن أتى الإسلام فاخط عمرو بن العاص رضى الله عنه مدينة الفسطاط فهي قاعدة مصر إلى هذا العهد .
والأهرام بناء بالحجر الصلد المنحوت ، متناهي السمو ، مستدير متسع الأسفل ضيق الأعلى كالشكل
الخروط ولا أبواب لها ولا تعلم كيفية بنائها ؛ فلما أفضت الخلافة إلى أمير المؤمنين اللأمون أراد هدمها فأشار
عليه بعض مشايخ مصر أن لا يفعل فلج في ذلك ، وأمر أن تفتح من الجانب الشمالى ، فكانوا يوقدون عليها
النار ثم يرشونها بالخل ويرمونها بالنجنيق حتى فتحت الثمة التي بها إلى اليوم ، ووجدوا بازاء النقب مالا أمر
أمير المؤمنين بوزنه فحصر ما أتق في النقب فوجدوها سواء فطال عجبه من ذلك ووجدوا عرض الحائط
عشرين ذراعاً .

سلطان مصر :

وكان سلطان مصر على عهد دخولى إليها الملك الناصر أبو الفتح محمد بن الملك المنصور سيف الدين
قلاوون الصالحى ، وكان قلاوون يعرف بالألبنى لأن الملك الصالح اشتراه بألف دينار ذهباً وأصله من قفجق .
وللملك الناصر رحمه الله السيرة الكريمة والفضائل العظيمة وكفاه شرفاً اتهاؤه لخدمة الحرمين الشريفين
وما يفعله في كل سنة من أفعال البر التي تميم الحجاج ، من الجمال التي تحمل الزاد والماء للمتقطين
والضعفاء ، وتحمل من تأخر أو ضعف عن المشى في الدربين المصرى والشامى ، وبنى زاوية عظيمة بسرياقص

(١) مدينة بكين (٢) مدينة هانغ (٣) مدينة قشيو

(٤) لفظة قبطية أصلها « يرب » ومعناها الهيكل أو للمبد .

(٥) دلت الاكتشافات الحديثة على بطلان هذه المزاعم .

خارج القاهرة ، لكن الزاوية التي بناها مولانا أمير المؤمنين وناصر الدين ، وكهف الفقراء والساكنين ، خليفة الله في أرضه ، القائم من الجهاد بنقله وفرضه أبو عنان أيد الله أمره وأظهره وسنى له الفتح المبين ويسره بخارج حضرته العلية المدينة البيضاء حرسها الله لا نظير لها في المعمور في اتقان الوضع وحسن البناء والنقش في الجص بحيث لا يقدر أهل المشرق على مثله ، وسأني ذكر ما عمره أيده الله من المدارس والمدارس والبرساتات والزوايا ببلاده (حرسها الله وحفظها بدوام ملكه) .

بعض أمراء مصر :

منهم ساقى الملك الناصر وهو الأمير بكتومور وضبط اسمه بضم الباء الموحدة وكاف مسكن وتاء معلومة مضمومة وآخره راء وهو الذي قتله الملك الناصر بالسهم ، ومنهم نائب الملك الناصر أرغون الدوادار وهو الذي بلى بكتومور في المنزلة ، ومنهم طشتمر المعروف بمحمص أخضر ، وكان من خيار الأمراء وله الصدقات الكثيرة على الأيتام من كسوة ونفقة وأجرة لمن يعلمهم القرآن ، وله الإحسان العظيم للحرافيش وهم طائفة كبيرة أهل صلابة وجوه ودعارة ، وسجنه الملك الناصر مرة فاجتمع من الحرافيش آلاف ووقفوا بأسفل القلعة ونادوا بلسان واحد يا أعرج النحس (يعنون الملك الناصر) أخرجه ، فأخرجته من محبسه وسجنه مرة أخرى ، ففعل الأيتام مثل ذلك فأطلقه . ومنهم وزير الملك الناصر ويعرف بالجمالي ؛ يفتح الجيم . ومنهم بدر الدين بن البابه . ومنهم جمال الدين نائب الكرك ، ومنهم قزدمور ، ومنهم بهادور الحجازي ، ومنهم قوصون . وكل هؤلاء يتنافسون في أفعال الخيرات وبناء المساجد والزوايا ، ومنهم ناظر جيش الملك الناصر وكانه القاضي نجر الدين القبطي وكان نصرانياً من القبط فأسلم وحسن إسلامه ، وله المسكرم العظيمة والفضائل التامة ودرجته من أعلى الدرجات عند الملك الناصر ، وله الصدقات الكثيرة والإحسان الجزيل ، ومن عاداته أن يجلس عشى النهار في مجلس له باسطوان (١) داره على النيل ويليهِ المسجد فإذا حضر المغرب صلى في المسجد وعاد إلى مجلسه وأوتى بالطعام ولا يمنع حينذاك أحد من الدخول كائناً من كان فمن كان ذا حاجة تكلم فيها فقضاها له ومن كان طالب صدقة أمر بمالوكاً له يدعى بدر الدين واسمه لؤلؤ بأن يصحبه إلى خارج الدار ، وهناك خازنه معه صرر الدراهم فيمطيه ما قدر له ، ويحضر عنده في ذلك الوقت الفقهاء ويقرأ بين يديه كتاب البخاري ، فإذا صلى العشاء الأخيرة انصرف الناس عنه .

القضاة بمصر في عهد دخولى إليها :

فمنهم قاضي القضاة الشافعية وهو أعلام منزلة وأكبرهم قدراً وإليه ولاية القضاة بمصر وعزلهم وهو القاضي الإمام العالم بدر الدين من جماعة وابنه عز الدين هو الآن متولى ذلك ، ومنهم قاضي القضاة المالكية الإمام الصالح تقي الدين الإخناعي ، ومنهم قاضي القضاة الحنفية الإمام العالم شمس الدين الحريري وكان شديد

(١) يريد به الجهو .

السطوة لا تأخذه في الله لومة لأثم وكانت الأمراء تخافه ، ولقد ذكر لي أن الملك الناصر قال يوماً لجلسائه
إني لا أخاف من أحد إلا من شمس الدين الحريري ، ومنهم قاضي القضاة الحنبلية ولا أعرفه الآن إلا أنه
كان يدعى بعمز الدين .

وكان الملك الناصر رحمه الله يقعد في النظر في اللظام ورفع قصص المشتكين كل يوم اثنين وخميس ويقعد
القضاة الأربعة عن يساره وتقرأ القصص بين يديه ويعين من يسأل صاحب القصة عنها ، وقد سلك مولانا
أمير المؤمنين ناصر الدين أيده الله في ذلك مسلكاً لم يسبق إليه ولا مزيد في المدل والتواضع عليه ، وهو
سؤاله بذاته الكريمة لكل متظلم وعرضه بين يده المستقيمة أياً الله أن يحضرها سواء أدام الله أيامه ، وكان
رسم القضاة المذكورين أن يكون أعلام منزلة في الجالوس قاضي الشافعية ثم قاضي الحنفية ، ثم قاضي المالكية ؛
ثم قاضي الحنبلية ، فلما توفي شمس الدين الحريري وولى مكانه برهان الدين بن عبد الحق الحنفي أشار الأمراء
على الملك الناصر بأن يكون مجلس المالكي فوقه ، وذكروا أن العادة جاءت بذلك قديماً ، إذ كان قاضي
المالكية زين الدين بن مخلوف يلي قاضي الشافعية تقي الدين بن دقيق العيد ، فأمر الملك الناصر بذلك ، فلما
علم به قاضي الحنفية غاب عن شهود المجلس آنفة من ذلك فأنكر الملك الناصر منغيه وعلم ما قصده فأمر
بإحضاره فلما مثل بين يديه أخذ الحاجب بيده وأقده حيث نفذ أمر السلطان بما يلي قاضي المالكية
واستمر حاله على ذلك .

بعض علماء مصر وأعيانها :

فمنهم شمس الدين الأصبهاني إمام الدنيا في العقولات ، ومنهم شرف الدين الزواوي المالكي ، ومنهم برهان
الدين بن بنت الشاذلي نائب قاضي القضاة بجامع الصالح ، ومنهم ركن الدين بن القويح التونسي ، من الأئمة
في العقولات ، ومنهم شمس الدين بن عدلان كبير الشافعية ، ومنهم بهاء الدين بن عقيل، فقيه كبير، ومنهم
أثير الدين أبو حيان محمد بن يوسف بن حيان الغرناطي، وهو أعلمهم بالنحو ، ومنهم الشيخ الصالح بدر الدين
عبد الله المنوفي ، ومنهم برهان الدين الصفاقسي، ومنهم قوام الدين الكرمانى، وكان سكناه بأعلى سطح الجامع
الأزهر وله جماعة من الفقهاء والقراء يلازمونه ويدرس فنون العلم ويفتي في المذاهب ، ولبانه عبادة صوف
خشنة وعمامة صوف سوداء، ومن عاداته أن يذهب بعد صلاة العصر إلى مواضع الفرج والتزهات منفرداً عن
أصحابه ، ومنهم السيد الشريف شمس الدين بن بنت الصاحب تاج الدين بن حناء ، ومنهم شيخ شيوخ الفقهاء
بديار مصر مجد الدين الاقصراني نسبة إلى أقصر من بلاد الروم ، ومسكنه سرياقص ، ومنهم الشيخ جمال
الدين الحوزياني ، والحوزياني على مسيرة ثلاثة أيام من البصرة ، ومنهم تقيب الأشراف بديار مصر السيد الشريف
المعظم بدر الدين الحسيني من كبار الصالحين ، ومنهم وكيل بيت المال المدرس بقية الإمام الشافعي مجد الدين
ابن حرزي ، ومنهم المحتسب بمصر نجم الدين السهوتي من كبار الفقهاء ، وله بمصر رئاسة عظيمة وجاء .

يوم الحمل بمصر :

وهو يوم دوران الحمل يوم مشهود وكيفية ترتيبهم فيه أنه يركب قضاة القضاء الأربعة ووكيل بيت المال والختسب وقد ذكرنا جميعهم ويركب معهم أعلام الفقهاء وأمناء الرؤساء وأرباب الدولة ، ويقصدون جميعاً باب القلعة دار الملك الناصر فيخرج اليهم الحمل على جمل وأمامه الأمير للمين لسفر الحجاز في تلك السنة ومعهم عسكره والسقاؤون على جهالمهم .

ثم كان سفرى من مصر على طريق الصعيد برسم الحجاز الشريف فبت ليلة خروجى بالرباط الذى بناه الصحاح تاج الدين ابن حناء بدير الطين ، وهو رباط عظيم بناه على مناخر عظيمة وآثار كريمة أودعها فيه وهي قطعة من قصعة رسول الله صلى الله عليه وسلم والليل الذى كان يكتحل به ، والأشنى الذى كان يحصف به نعله ومصحف أمير المؤمنين على بن أبى طالب الذى بخط يده رضى الله عنه ، ويقال أن الصحاح اشترى ما ذكرناه من الآثار الكريمة النبوية بمائة ألف درهم ، بنى الرباط وجعل فيه الطعام للوارد والصادر والجرارية لحدام تلك الآثار الشريفة ، ثم خرجت من الرباط المذكور ومررت بمنية القائد وهي بلدة صغيرة على ساحل النيل ، ثم سرت منها إلى مدينة بوش ، وهذه المدينة أكثر بلاد مصر كثائاً ، ومنها يجلب إلى سائر الديار المصرية وإلى إفريقية ، ثم سافرت منها فوصلت إلى مدينة لادلا ، وهذه المدينة كثيرة السكان أيضاً كمثل الذى ذكرنا قبلها ويحمل أيضاً منها إلى ديار مصر وإفريقية ، ثم سافرت منها إلى مدينة يا ، ثم سافرت منها إلى البهيسة ، وهي مدينة كبيرة ، وبساتينها كثيرة ، وتضع بهذه المدينة ثياب الصوف الجيدة ، ومن لقيته بها قاضيها فاضل ، العالم شرف الدين ، وهو كريم النفس ، ولقيت بها الشيخ الصالح أبا بكر العجمي ، ونزلت عنده وأصافى ، ثم سافرت منها إلى مدينة منية ابن خصيب ، وهي مدينة كبيرة المساحة متمعة المساحة مبلية على شاطئ النيل ، حتى لها على بلاد الصعيد التفضيل ، بها المدارس والمشاهد والزوايا والمساجد .

الفاهرة في رحلة البلوى

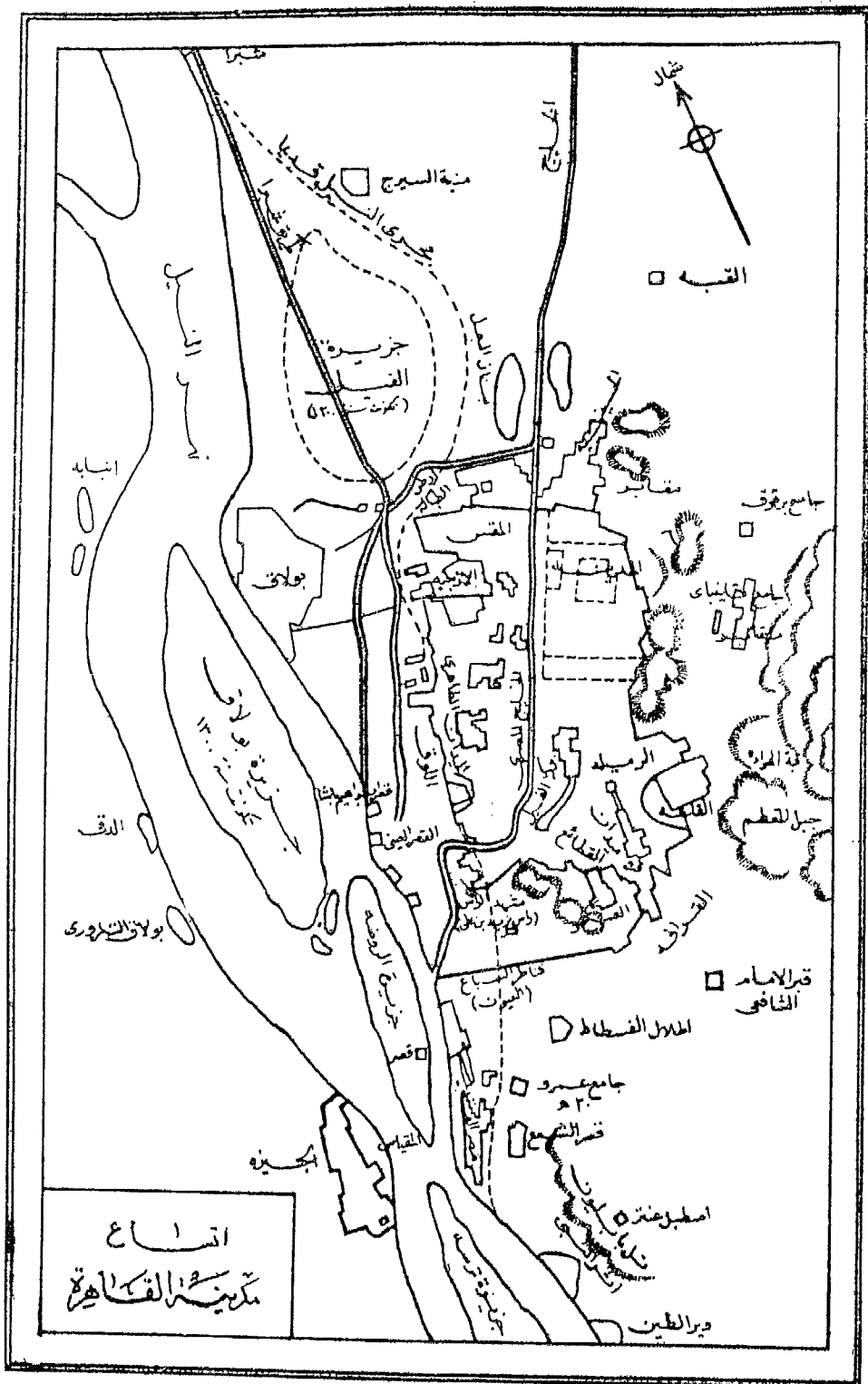
كانت زيارة خالد بن عيسى البلوى إلى مصر^(١) في أيام السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، وكان من كبار القضاة بالأندلس ، رحل إلى الحج ، وصف رحلته المعروفة باسم « تاج الفرق في تحلية أهل المشرق » ، وقد وصف بها مصر ، وتوفى بعد عام ٧٣٦ هـ / ١٣٣٥ - ١٣٣٦ م .

ذكر أنه وصل إلى القاهرة ، فنزل بقرب الجامع الأعظم للشهور بجامع ابن طولون ، وقد أدهشه ما رآه من ازدهار أيام الناصر محمد في مصر ، فوصفها بأنها « أيام أمن وسكون ودعة . . فالسحب ذيل

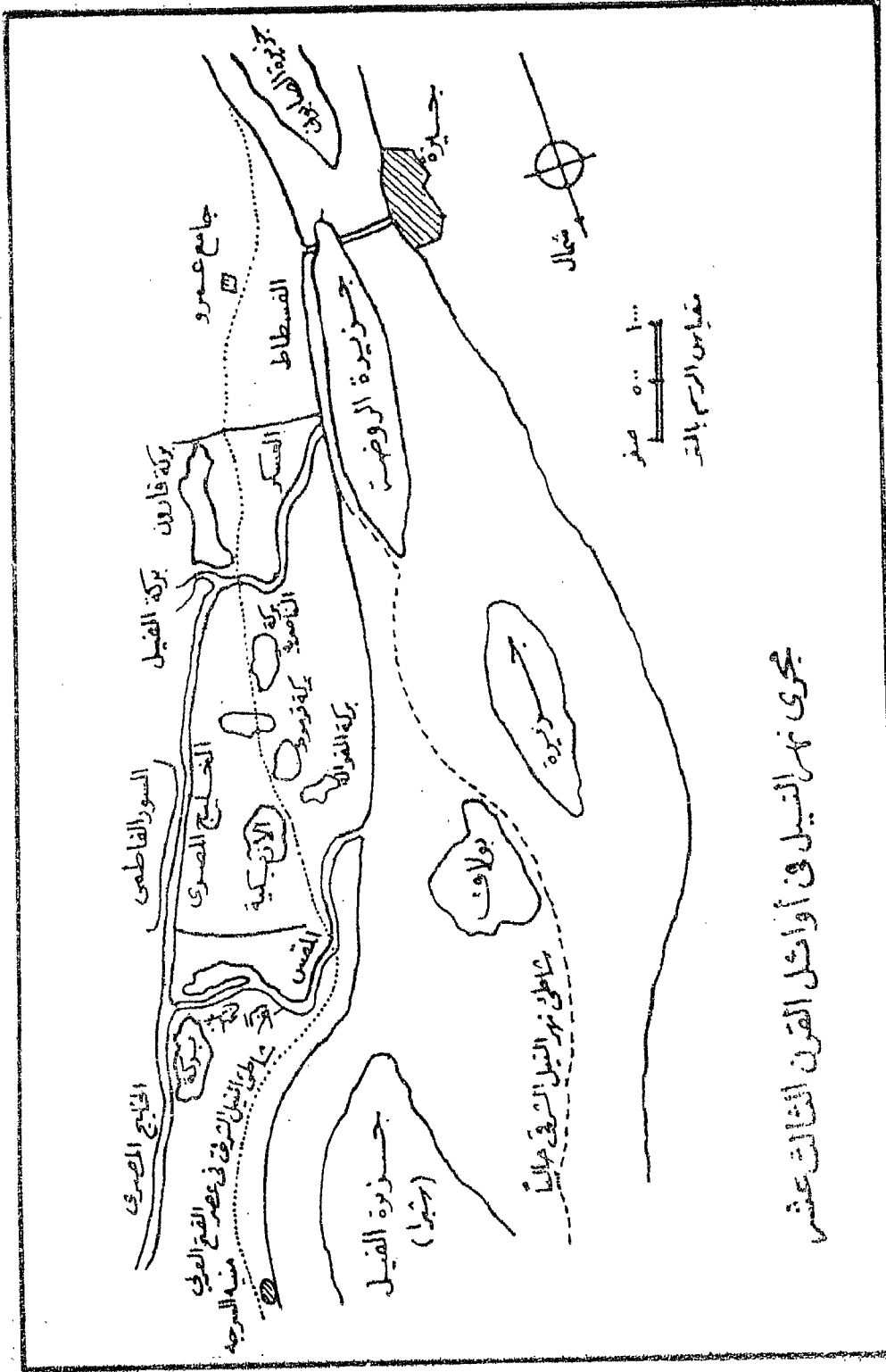
المز ، وانضرب رواق الأمن ، وانسدل ستر العافية ، على الملأ والكافة . قال البلوى : وأخبرني الإمام . . .
 شمس الدين الكركي ، قال : « أحصيت الجمال الداخلة إلى القاهرة بالماء في كل يوم فبلغت إلى مائتي ألف
 جبل ، ما عدا البغال . وأحصى دكاكين السقائين المعدة للسقي بالقاهرة ، فبلغت ستين ألف دكان ، ما عدا
 السقائين الذين بالأكواز والأكواب في الطرق والأسواق وغيرها . وقال عن المارستان : « ولو لم يكن
 للقاهرة ، ما تذكر به إلا المارستان وحده لكفاها ، وهو قصر عظيم من القصور الرائعة حسناً وجمالاً
 واتساعاً ، لم يعهد مثله بقطر من الأقطار أحسن بناء ولا أبداع إنشاء ولا أكمل انتهاء في الحسن والجمال . . .
 ثم يتابع قوله : وأخبرني العالم المؤرخ شمس الدين الكركي أنه يكمل فيه في كل يوم من المرضى الداخلين
 إليه ، والناقلين الخارجين منه أربعة آلاف نفس ، وتارات يزيدون ويتقصون ، ولا يخرج منه كل من يبرأ
 فيه من مرض حتى يعطى متوليه إحساناً إليه ، وإنعاماً عليه : كسوة للباسه ، ودراهم لتفقاته .

وقد وصف البلوى مشاهد القاهرة ، ومسجد رقية وتربة زيد بن الحسين ، والقرافة ، وسرد أسماء
 بعض العلماء الذين رآهم أو قرأ عليهم .

* * *



اتساع مدينة القاهرة في أيام المماليك البحرية



مجرى نهر النيل في أوائل القرن الثالث عشر

مجرى نهر النيل في أوائل القرن الثالث عشر

أهم آثار عصر المماليك البحرية

(٦٤٨ - ٧٨٤ هـ / ١٢٥٠ - ١٣٨٢ م)

التاريخ		اسم الأثر	رقم الأثر
الميلادي	الهجري		
٦٣-١٢٦٢	٦٢-٦٦٠	مدرسة الظاهر بيبرس البندقداري بالتحاسين	٣٧
٦٩-١٢٦٦	٦٧-٦٦٥	جامع السلطان الظاهر بيبرس بالظاهر	١
٨٥-١٢٨٤	٦٨٢	زاوية وخانقاه أيدكين البندقداري بشارع السيوفية	١٤٦
٨٥-١٢٨٤	٨٤-٦٨٢	مدرسة وبيارستان وقبة السلطان قلاوون بالتحاسين	٦٤٣
١٢٨٨	٦٨٧	قبة الأشرف خليل بشارع الأشرف	٢٧٥
١٢٩٠	٦٨٩	« حسام الدين توران طاي	٥٩٠
١٢٩٢	٦٩٢	قصر الين آق (الحسامي) بشارع التبانة	٢٤٩
١٣٠٤-١٢٩٥	٧٠٢-٦٩٥	قبة الناصر محمد ومدرسته بالتحاسين	٤٤
١-١٣٠٠	٧٠٠	مدرسة قراستقر بالجمالية	٣١
٤-١٣٠٢	٧٠٢	مدرسة ومسجد سنجر الجاولي بقلعة الكبش	٢٢١
١٠-١٣٠٦	٩-٧٠٦	خانقاه بيبرس الجاشنكير بالجمالية	٣٢
١٣١٢	٧١٢	قناطر المياه (عصر الناصر محمد بن قلاوون) بيم الخليج	٧٨
١٣١٤	٧١٤	بقايا قصر الناصر محمد بن قلاوون	٥٤٩
١٣١٥	٧١٤	قبة صفي الدين جوهر بالركبية	٢٧٠
٢١-١٣١٥	٢١-٧١٥	مدرسة وقبة سنقر السعدي (حسن صدقة)	٢٦٣
١٣١٩	٧١٩	مسجد الملك الجوكندار بشارع أم الغلام	٢٤
١٣١٩	٧١٩	جامع الأمير حسين بالناصرية	٢٣٢
١٣٢٢	٧٢٢	قبة سنجر المظفر بالسيوفية	٢٦١
٢٥-١٣٢٤	٧٢٥	مسجد أحمد المهندار بالدرب الأحمر	١١٥
١٣٢٦	٧٢٦	مبيل الناصر محمد	٥٦١
١٣٣٠-١٣٢٩	٧٢٠	مدرسة مغلطاي الجمالي بقصر الشوق	٢٦
٣٠-١٣٢٩	٧٣٠	مسجد الأمير الماس بالحلمية	١٣٠
١٣٣٥	٧٣٥	مسجد الناصر محمد بن قلاوون بالقلمة	١٤٣
١٣٣٥	٧٣٥	قبة طشتمر (حمص أخضر) بالقرافة الشرقية	٩٢
١٣٣٦	٧٣٦	مسجد الأمير بشتاك (الباب الداخلي والنارة)	٢٠٥
٢٧-١٣١٧	٣٨-٧١٧	جامع شرف الدين بالجزاوي	١٧٦
١٣٣٧	حوالي ٧٣٨	قصر الأمير يشبك (قوصون)	٢٦٦
٢٩-١٣٣٤	٤٠-٧٣٥	« بشتاك بالتحاسين	٣٤
١٣٤٠-١٣٣٩	٤٠-٧٣٩	مسجد الطنبا السارداني بالتبانة	١٢٠
٤٠-١٣٣٩	٧٤٠	« الست مسكة بالحنفي	٢٥٢

تابع أم آثار عصر المماليك البحرية

التاريخ		اسم الأثر	رقم الأثر
الميلادي	الهجري		
١٣٤١	٧٤٢ قبل	وكالة قوصون باب النصر	١١
١٣٤١	٧٤٢ قبل	مدخل حمام بشتاك بسوق العزى	٢٤٤
٤٥-١٣٤٤	٤٩-٧٤٥	مسجد أصل السلحدار بدرب شعلان	١١٢
١٣٤٦	٧٤٧ قبل	« ايدمر البهلوان بأم الغلام	٢٢
٤٧-١٣٤٦	٤٨-٧٤٧	« أفسنقر ابراهيم أغا مستحفظان بشارع التبانة	١٢٣
١٣٤٧	٨٤٨	« أرغون شاه الاسماعيلى بالناصرية	٢٠٣
١٣٤٧	٧٤٨	مدرسة قطلوبغا الذهبى بسوق العزى	٢٤٢
١٣٦٠ و ١٣٤٨	٧٦١-٧٤٨	قبة ومدرسة تاتار الحجازية بالجالية	٢٦
١٣٤٩	٧٥٠	مسجد منجك اليوسفى بالحطابة بالقلعة	١٣٨
١٣٤٩	٧٥٠	مسجد الأمير شيخو بشارع الصليبية	١٤٧
١٣٥٠	٧٥١	قاعة محب الدين	٥٠
١٣٥٢	٧٥٣	قصر الأمير طاز بالسيوفية	٢٦٧
١٣٥٤	٧٥٥	سبيل الأمير شيخو بالحطابة	١٤٤
١٣٥٥	٧٥٦	خانقاه وقبة الأمير شيخو بشارع الصليبية	١٥٢
١٣٥٦	٧٥٧	مسجد خانقاه نظام الدين بالحطابة	١٤٠
١٣٥٦	٧٥٧	مدرسة سرغتمش بشارع الحضيرى	٢١٨
٦٢-١٣٥٦	٦٤-٧٥٧	مسجد ومدرسة السلطان حسن بشارع القلعة	١٢٣
١٣٥٩	حوالى ٧٦٠	قبة تنكزبغا بالقراة القبلىة	٢٩٨
٦٠-١٣٥٩	٧٦١	مدرسة بشير أغا الجمدار بنور الظلام	٢٦٩
٦٢-١٣٦١	٧٦٢	«مدرسة الأمير مثقال بدرب قمرز	٤٥
١٣٦٢	٧٦٤	قبة الأمير تنكزبغا بالقراة الشرقية	٨٥
٦٤-١٣٦٢	٧٦٥	« الأميرة طولبية »	٨٠
٧٧-١٣٦٦	٧٨-٧٦٨	مدرسة خشقدم الأحمدى بشارع الصليبية	١٥٢
٦٩-١٣٦٨	٧٧٠	مدرسة أم السلطان شعبان بشارع التبانة	١٢٥
١٣٧٠	٧٧١	قبة أفسنقر بقنطرة سقر	٣١٠
١٣٧٠	٧٧٢	مسجد أسنبغا بدرب سعاده	١٨٥
١٣٧٤	٧٧٦ قبل	المدرسة البقرية بحارة عطوف	١٨
١٣٧٣	٧٧٤	مدرسة الجاى اليوسفى بسوق السلاح	١٣١
١٣٨٢	٧٨٢ قبل	قبة الأمير يونس الدوادر بالحطابة	١٣٩
١٣٨٢	٨٤-٧٨٣	« يونس الدوادر (أنس) بالقراة الشرقية	١٥٧
القرن الرابع عشر	القرن الثامن	بوابة درب اللبان بالمهجر (القلعة)	٢٢٥
» » »	» »	بقايا ربيع طنج بالسيوفية	٢٨٧

الفصل الخامس

قاهرة المقرزى

من ١٣٦٤ إلى ١٤٤١

يدين جميع المؤلفين الذين يكتبون عن القاهرة وآثارها القديمة كالساجد والمدارس والوكالات والسبل.. أو أولئك الذين يتبعون تاريخ تطور المدينة المعزية في أيام الفواطم والأيوبيين ودولتي المماليك إلى المؤرخ الخالد الذكر أحمد بن علي المقرزى ، القاهري ، فقد ولد سنة ١٣٦٤ بحارة رجوان بقسم الجمالية ، ويقصد بالحارة هنا الخان أو الوكالة أو العمارة الكبيرة . وقد عرفت هذه الناحية بصخبها وضوضاء الحياة فيها . كفل جده لأمه تعليمه . وكان اسمه ابن الصايغ الحنفي ، وانسكب على التحصيل والتعلم ، وأظهر نجابة ثم درس الفقه بمد انتقاله إلى المذهب الشافعي . وبعد أن أكمل تعليمه ، عمل موقماً بديوان الإنشاء بالقلمة ، فكان يجتاز الشارع الأعظم من داره إلى محل عمله في كل يوم ؛ ثم غدا بعد ذلك قاضياً عند قاضي القضاة الشافعية ، فإماماً لجامع الحاكم ، ومدرساً للحديث بالدرسة المؤيدية . وفي عام ١٣٩٨ اختاره السلطان برقوق لوظيفة محتسب القاهرة والوجه البحري ، فتولاها ثم تنحى عنها مرتين في عامين . وفي ذلك الوقت تزوج المقرزى وأنجب .

تلقب المقرزى في عدة وظائف قضائية في القاهرة ودمشق ، وكانت له حظوة عند الملك الظاهر برقوق ، ثم عند ولده الملك الناصر فرج من بعده ، ثم زهد في الوظائف العامة واستقر في القاهرة ، وتفرغ إلى البحث والكتابة ، وخص مصر وأخبارها وآثارها بأعظم قسط من جهوده وبحوثه ، وكتب في ذلك عدة كتب جليلة .

وهكذا نرى أن العصر الذي عاش فيه المقرزى يمتد من أواخر القرن الرابع عشر إلى أوائل القرن الخامس عشر . وقد عاصر المقرزى من ملوك مصر عشرة متماقبين ، وأدرك مرحلتين كبيرتين في تطور القاهرة والمجتمع المصري ، الأولى : في أواخر القرن ١٤ حينما كانت القاهرة بعد ما أصابها من وباء ، ترتدى ثوباً جديداً من الحياة ، والثانية : بعد المحن التي توالى عليها بين عامي ١٤٠٣ ، ١٤٠٩ ، من وباء وغلاء وشرق ، حيث عادت ثانية تسترد عمرانها وبهاءها . وقد أفاض المقرزى في أخبار هذين العصرين وأحوالهما وآثارهما^(١) ، كما يتضح لنا ذلك فيما دونه في مؤلفاته القيمة .

(١) محمد عبد الله عنان : مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية ، ص ٥٢ — ٥٦

تطور القاهرة

وقاهرة تلك الأيام صورة لتلك المدينة التي يتبع وصفها القارىء في ألف ليلة وليلة . لقد قرأنا وصف القاهرة السلاطين ولكن ليست العاصمة صورة لآثار سلاطينها وحكامها ، فللقاهرة حياتها الأخرى — تلك الحياة الحية التي قاومت المستبدين جيلاً بعد جيل ، فليست القاهرة وفقاً على مساجد ومدارس ومنابر ووكالات الحكام من سلاطين وأمراء ، فإنها في كل عصر قلب الديار النابض ومقر تجارتها ومتمتع أهلها الاجتماعية وصيحت ثقافتها ومنازة دينها .

إننا الآن في القاهرة ، تلك المدينة التي عرفها القريري والتي عاش تحت سماءها ... لم تكن ذلك المقفل الحدود الذي اشتمل على القصور الفاطمية بأسوارها العالية ... فقد امتدت من جميع نواحيها إلا من ناحيتها الشرقية وتمتد عمارتها بوابتها الشماليين وتكونت ضاحية جديدة عرفت بالحسينية^(١) كثرت فيها المساجد والأزوايا والدور وانتشرت مساكنها إلى الغرب حيث كان الفضاء بين سور القاهرة الفاطمي والنيل ، وانحصر النهر وتقلص مأوى عن سور القاهرة فسمح لقطعة من الأرض بالظهور فنشأ ميناء جديد عرف باسم بولاق وبنيت مجموعة من المنازل مكان مجرى النيل القديم (١٣١٣ م) وأقدم الأثرياء على إنشاء القصور والناظر ، وغرسوا حولها البساتين العظيمة ، وانتظمت العمارة في الطول على حافة النيل من منية السرج إلى موردة الخلفاء بجوار الجامع الجديد خارج مصر ، وعمر على حافة النيل الغربية من تجاه الخندق شمالي القاهرة إلى منشأة المهراني ، وقيت هذه المسافة كلها بساتين وأحجاراً عامرة بالدور والأسواق والحمامات والجوامع وغيرها .

ويمكن للباحث الراغب في معرفة تفاصيل امتداد القاهرة أن يقرأ الخطط القريرية بإمعان ، فهي المرجع الفريد حقاً ، لأن مؤلفها معاصر لهذه المرحلة الهامة .

(١) كان هذا الحى في أول الأمر حارة كبيرة واقعة خارج سور القاهرة الشمالي تجاه باب الفتوح والحسينية مسوبة لجماعة الأشراف الحسينيين قدموا من الحجاز واستوطنوا ذلك الخط على أيام الكامل محمد بن العادل وفي رأى آخر في أيام الحاكم بأمر الله . وفي عصر الجراكسة أصبحت الحسينية تتألف من ثماني حارات .

أرض الطبالة

عمرت في شرق بولاق (الظاهر الآن) منطقة جديدة من الأراضي عرفت بأرض الطبالة ، حصرت بين الخليج الناصري والمقس ، وكانت من أحسن المتنزهات يمر النيل من غربها عند ما يندفع من المقس حيث كان جامعها إلى أن ينتهي إلى الموضع الذي عرف بالجرف على جانب الخليج الناصري بالقرب من بركة الرطلى ، وكان منظر هذه المنطقة في أيام الربيع خلاباً جميلاً ، وفيها قال الشاعر المصري سيف الدين على :

إلى طبالة يعزون أرضاً لها من سندس الريحان بسط
رياض كالعرائس حين تجلى بزین وجهها تاج وقرط

ويعزى إطلاق ذلك الإسم عليها إلى الأمير أبي الحارث أرسلان البساسيري عند ما غاضب الخليفة القائم بأمر الله العباسي وخرج من بغداد يريد الإتياء إلى الدولة الفاطمية بالقاهرة ، أمده الخليفة المستنصر بالله حتى استولى على بغداد ، وأخذ قصر الخلافة وأزال دولة العباس فيها وأقام الدولة الفاطمية ، وأرسل كل تحفة وحنائمه النفيسة إلى القاهرة ، فسر الخليفة المستنصر سروراً عظيماً ، وزينت القاهرة والقصور ومدينة مصر والجزيرة ، فوقفت « نسب » طبالة المستنصر وأنشدت تحت القصر وحوها طائفها :

يا بني العباس ردوا ملك الأمير معبد
ملككم ملك معمار والمسواري تسترد

فأعجب المستنصر بها وقال لها « تعنى » فسألت أن تقطع هذه الأرض المجاورة للمقس فأقطعها هذه الأرض ، وقيل لها أرض الطبالة ، وأنشأت هذه الطبالة تربة بالقرافة الكبرى عرفت بتربة « نسب » . وقد عمرت هذه الأراضي ، وبنت بها دوراً وبيوتاً وكانت من ملاح القاهرة وههبتها ، وقد خربت سنة ست وتسعين وستماية عند حدوث الغلاء والوباء في سلطنة الملك العادل وبقيت خراباً إلى ما بعد سنة ٧١١ هـ / ١٣١١ م فشرع الناس في سكنها قليلاً قليلاً ، فلما حفر الملك الناصر محمد بن قلاوون الخليج الناصري سنة ٧٢٥ هـ / ١٣٢٤ م كانت هذه الأرض بيد الأمير بكتمر الحاجب ، فلما زال المهندسون حتى مروا بالخليج من عند الجرف على بركة الطوايين التي عرفت فيما بعد ببركة الرطلى فمروا به من هناك حتى مصب الخليج الكبير . فممر الأمير هناك القنطرة التي عرفت بقنطرة الحاجب عند الخليج الناصري ، وبذلك أعيدت العبارة ثانية إلى أرض الطبالة وصارت بها عدة حارات منها حارة العرب والأكراد . . . الخ ، إلى أن حدث الغلاء في أيام الأشرف شعبان بن حسين فغرب كثيراً من حارات أرض الطبالة وبقيت منها بقية إلى أن اندثرت منذ سنة ١٠٦ هـ / ١٤٠٣ م ، وصارت أكواماً . وكان من أشهر جوامع الطبالة جامع الكيفي الذي شيد على الخليج الكبير في عام ٧٩٠ هـ / ١٣٨٨ م ، وجامع سروج (٧٤٠ هـ / ١٣٣٩ م) بالقرب من بركة الرطلى - وإذا بعدنا

نمو الشرق قليلا ، وجدنا مساجد أخرى شيد منها جامع الملك ٧٣٢ هـ وابن الفلك في حي الحسينية ، وجامع عكوش وابن المغربي ، وخانقاه يونس النوروزى الداوآدار ، وخانقاه ابن غراب (٧٩٨ هـ) وزاوية الجبرى (٦٨٧ هـ) والقلمندرية (٧٢٢ هـ) والحلاطى (٧٣٧ هـ) خارج باب النصر ، ومن هذه المساجد نستطيع أن نعرف على مدى نمو القاهرة من ناحية الشمال .

وكانت القاهرة إذ ذاك تشغل المساحة التى كانت تشغلها حتى أوائل القرن الماضى ، قبل أن تتسع وتمتد وتوجد ضواحيها الحالية التى أنشئت منذ نصف قرن أو أكثر بقليل . وأعتقد أنه لم يكن هناك فرق يذكر بين حال القاهرة خلال القرن الخامس عشر وتلك القاهرة التى أجاد وصفها فوج من الرحالة والمستشرقين الأوربيين، وفي طليعتهم ويلكسون وبورخاردت ولين وجون فلبس وهائى — وهؤلاء أجادوا وصفها أو تصويرها فى مؤلفاتهم أو لوحاتهم الخالدة فى النصف الأول من القرن التاسع عشر — والذين يدققون النظر فى لوحات هؤلاء يتصورون بوضوح تلك القاهرة التى كانت إلى أوائل القرن التاسع عشر تحمل طابع القرون الوسطى .

وكيف يكون منظر القاهرة مختلفاً لذلك الزائر الجديد عند ما يصل إلى الاسكندرية فيركب إحدى السفن لتنقله على ترعة المحمودية ، وبعد أيام يصل إلى ثغر بولاق ومنها يستأجر مطية يصل بها إلى باب الحديد على بعد ميل تقريباً ، فيصل القاهرة من ناحيتها الشمالية الغربية من المدينة .

كان يوجد طريقان رئيسيان يؤديان من بولاق إلى القاهرة — أولهما الشمالى غير منظم ولكنه المرعى العام للتجارة ، وثانيهما الجنوبى ويحجر الزائر على عبور قناتين ليصل إلى الجانب الغربى من حديقة الأزبكية وإذ ذاك يمر بجامع أبو الغلاء على يمينه . وقد رفع الفرنسيون أثناء الاحتلال الفرنسى مستوى الطريق لئلا يعرقه الفيضان ، وحاولوا أن يصلوا به إلى القلعة بطريق مستقيم وواسع ، وهذا المشروع وإن لم ينجح أثناء حكم الفرنسيين إلا أنه تم فيما بعد وعرف باسم شارع فؤاد الأول ، ثم ٢٦ يوليو فى أعقاب ثورة عام ١٩٥٢ .

وقد لعبت القاهرة دوراً عظيماً فى التجارة فكانت ملتقى تجارات الشرق بالغرب ، وعادت على أهلها وتجارها بالأرباح الطائلة ، وكان لابد لهذا النشاط التجارى من أسواق ووكالات وخانات وفنادق — وكانت القاهرة مزدحمة بمثل تلك المنشآت التى ترمى كلها إلى غرض واحد ، فهى عبارة عن مجموعة من البيوت التجارية أو الحوانيت التى تحيط بساحة أوفياء ، وأمام هذه الحوانيت باقيات مسقوفة يضع فيها التجار بضاعتهم الزائدة على حاجة العرض كما يستعملونها ككناً لهم إلى انتهاء مهمتهم ، ومكانا يستخدمونه أيضاً لراحة حيواناتهم ، وأشهر هذه الخانات الباقية إلى يومنا هذا خان الخليلي ، وكان موضعه ضريح القصر الذى فيها قبور الخلفاء الفاطميين ، وقد أنشأه الأمير جهاركس الخليلي أمير الغور (أمير الخيل) الملك الظاهر برقوق وخان الخزاوى أو سوق القماش ، وكالة قايتباى ووجهاتها يعتبران مثليين بديمين لزخرفة النقش فى تلك

الأيام، والأولى بالقرب من جامع الأزهر والثانية بالقرب من السروجية، ولقد كان في القاهرة عند ما وصفها « المستشرق لين بول » عام ١٨٣٥ مائتا وكالة ، لاتزال الآن بقية منها .

خانات القاهرة وفنادقها

وفي أثناء القرن الخامس عشر صارت خانات القاهرة أسواقاً للتجار الذين ازدحمت بتجارهم ، وكان أمراء المالك يدركون الفوائد التي تعود عليهم من بناء الوكالات ، فكان يفخر الأمير إذا شيد وكالة كبيرة تعود عليه كل غرفة من غرفها بإيجار شهري يناسبها ، وكان من أشهر تلك الخانات التي ازدحمت بها القاهرة خان مسرور وهما إثنان أحدهما الكبير على يسار الذي يسلك الطريق من سوق باب الزهومة إلى الجامع الأزهر وكان ساحة يباع فيها الرقيق بعد ما كان موضع المدرسة الكاملة هي سوق الرقيق . وكان مسرور هذا خادماً من خدام القصر واختص بالسلطان صلاح الدين . وقد أدرك المؤرخ القرظي ذلك الخان وهو في غاية العارة وكان ينزل فيه أعيان التجار الشاميين بتجارهم وكان من أجل الخانات وأعظمها ، فما كثرت المحن بحروب بلاد الشام منذ غارة تيمورلنك تلاشت أحوال مصر وقل الثمار وتهدمت عدة أماكن منه .

ومن أسواق القاهرة أيضاً قيسارية جهار كس التي بناها ابن عبد الله نخر الدين أمير المنصور الناصري الصلاحي ، وقد رأى القرظي جماعة من التجار الذين طافوا البلاد يقولون : « لم نر شيئاً في البلاد مثلها في حسنها وعظمتها واحكام بنائها » . وبني بأعلاها مسجداً كبيراً وربماً معلقاً .

وفندق بلال المغني الذي أنشأه الأمير الطواشي حسام الدين بلال المغني أحد خدام الصالح وكان معظماً إلى الغاية يجلس فوق جميع أمراء الدولة ، وكان الملك المنصور قلاوون إذا رآه يقول : « رحم الله أستاذنا الملك الصالح نجم الدين أيوب أنا كنت أحمل خفي هذا الطواشي حسام الدين كما دخل إلى السلطان الملك الصالح حتى يخرج من عنده فأقدمها له » وكان الفندق المذكور يقع بين خط حمام خشبية وحارة العدوية .

وقال القرظي عنه : « لقد كنت أدخل فيه فإذا بدائرة صناديق مصطفة ما بين صغير وكبير فلا يبقى من الفندق غير ساحة صغيرة بوسطه وتشتمل الصناديق من الذهب والفضة ما يجمل وصفه » . وقد تلاشى هذا الفندق حتى أنشأ الأمير الطواشي زين الدين مقبل فندقاً آخر بالقرب منه .

وخان السبيل الذي بناه خارج باب الفتوح الأمير بهاء الدين أبو سعيد قراقوش وزير صلاح الدين وعتيقه لأبناء السبيل والمسافرين بغير أجر . وبه بئر ساقية وحوض — ووكالة قوسون وكان موضعها بين الجامع الحاكمي ودار سعيد السعداء ، وقد بناها الأمير قوسون وجعلها فندقاً كبيراً للتجار بدائرة عدة مخازن واشترط أن لا يؤجر كل مخزن إلا بخمسة دراهم من غير زيادة ، وقد دهش القرظي لما زارها لكثرة ما فيها من أصناف البضائع وازدحام الناس وشدة أصوات العتالين ، وكان يعالونها أرباع تشتمل على

ثلثائة وستين بيتاً أدرکها المقریزی لما كانت عامرة كلها وغد سكنها نحو أربعة آلاف نفس — فلما كانت سنة ١٤٠٣/٥٨٠٦ خرب كثير من هذه البيوت ، وفندق دار التفاح ، وكان تجاه باب زويلة وترد إليه القوا که على اختلاف أصنافها مما يثبت في بساتين ضواحي القاهرة ، ومن التفاح والكمثرى والسفرجل الوارد من الشام . وقد أنشأ هذا الفندق الأمير « طشوزدمر » بعد سنة أربعين وسبعائة ووقفها على خاتناه بالقراقة .
 وخلا ما ذكرنا من الحانات والفنادق كان يوجد خان منكورش (بالقرب من الجامع الأزهر) وكان أحد نوابك السلطان صلاح الدين ، وفندق ابن قریش ووكالة باب الجوانية وفندق طارنطاي (خارج باب البحر ظاهر القس) وكان ينزل فيه تجار الزيت الواردون من الشام ، كان فيه ستة عشر عموداً من الرخام ويملوه ريع كبير .

وكان في القاهرة الكثير من أمثال هذه المباني العظيمة كتب تاريخها المؤرخ المقریزی ، فأفاض في وصف خطط القاهرة القديمة وتطورات المدينة الجغرافية والعمرانية وأحيائها وآثارها ومساجدها ومدارسها وقصورها وبساتينها وميادينها وحماتها وشوارعها وأسواقها ، وصف كل ذلك بأسلوب يغري الإنسان على قراءته بسهولة وبصورة ممتعة بعيدة عن الخيال المنمق . لقد كانت القاهرة المقريزية مدينة رائعة الجمال ضخمة البناء جميلة العمارة متجانسة في كل شيء ، وكانت قصور للمالک القدماء والتي لا تزال آثار بعضها لليوم — كقبایا قصر بشتاك وبوابة دار منجك السلاحدار (٥٧٤٨ هـ) بالقرب من جامع السلطان حسن ، وبعض ممتلكات قايتباي وقصر الأمير مامای الذي بقيت منه تلك الشرفة الرائعة التي نعرفها اليوم ببيت القاضی — كل هذه المنشآت كانت في كامل مجدها حينذاك — وكان يقع قصر بشتاك في أيام المقریزی تجاه الدار اليسرى (وهذه كانت أعدت في أيام الفاطميين للفرننج بخط بين القصرين) وكان يقصد إليه من باب البحر الذي عرف بباب قصر بشتاك تجسأ المدرسة الكاملية وما زال إلى أن اشتراه الأمير بدر الدين بكتاش الفخری المعروف بأمر سلاح وصار ينزل إليه هو والأمير بدر الدين بيسرى عند انصرافهما من الحضرة السلطانية بقلمة الجبل في موكب عظيم ، ويدخل كل منهما داره .

وقد وصف مؤلف الخطط هذه الدور وصفاً جيداً فذكر منها عدداً وفيراً نأتى هنا على أهمها ، دار الأحمدي ودار قراسنقر ودار أمير مسعود ودار نائب السكر ودار بيبرس الحاجب ودار الدوادار ودار الذهب ودار بكتمر ودار الجاولي ودار طولباي ودار البقر ودار طاز ودار صرغتمش ودار بهادر المقدم . . الخ وكان وصفها فيما لا يقل عن الأربعين صفحة . وقد تكلمنا على معظم تلك العمار .

أخطاط القاهرة

وكانت أخطاط القاهرة يفصلها عن بعضها البوابات الخشبية الضخمة التي كانت توصل على سكان الحى بعد غروب الشمس ، وأهم الخطط التي ذكرها المؤرخ الملامة المقریزی خط خان الوراقه وخط باب القنطرة

وخط بين السورين وخط يمتد من باب الكافورى فى العرب إلى باب سعادة ، وكانت بهذا الخط قناطر اللؤلؤة وقناطر دار الذهب وقنطرة العزلة ، وهى بجوار قنطرة الموسيقى وخط الكافورى ، وكان بستاناً قبل بناء القاهرة وخط الحرنفش ، وكان بين حارة برجوان والكافورى ، ويصل الإنسان إليه من بين القصرين وخط باب المارستان وخط بين القصرين ، وقد كان من أعمار أخطاط القاهرة ، وكان فى عصر الدولة الفاطمية فضاء كبيراً يقف فيه عشرة آلاف من الجند المشاة والحيلة — ولما حكمت الدولة الأيوبية صار هذا الموقع سوقاً متذلة ، ثم متنزهاً تمر فيه أعيان الناس ، وكانت تعقد فيه عدة حلقات لقراءة السير والأخبار وإنشاد الأشعار وأنواع اللعب واللهو ، ولما حدثت عن سنة ٨٠٦ هـ / ١٤٠٣ م تلاشى كل هذا .

ومن الخطوط أيضاً خط الحشبية وخط سقينة العداس وخط البندقانيين وخط دار الديباج ، وسمى بهذا الاسم لأن دار الوزير يعقوب بن كلثوم التى جعلتها المدرسة الصالحية ودرب الحريرى والمدرسة السليبية كانت عملت داراً يلسج فيها الديباج والحرير للخلفاء الفاطميين وصارت تعرف بدار الديباج .

أسواق القاهرة

وكان بمدينة مصر والقاهرة وظواهرها من الأسواق شئ كثير جداً والدليل على كثرة عددها أن الذى خرب من الأسواق فيما بين أراضى اللوق إلى باب البحر بالمس اثنتا وخمسون سوقاً أدرك بعضها المقرزى .

وكانت الأسواق تسقف بالحصير أو الخشب وكانت النوافذ والمشريات تطل على السوق بشكل جذاب يستوقف النظر .

ومن أشهر الأسواق التى ذكرها المقرزى فى خططه القصبية، وكانت أعظم أسواق مصر احتوت على مئتي عشر ألف حانوت وامتدت من الحسينية إلى المشهد النفيسى ، ولقد أدرك المقرزى هذه المسافة الممتدة بأسرها ورآها عامرة بالحوانيت غاصة بأنواع المآكل والمشرب والأمتة التى تهيج رؤيتها ، وقد تفرعت على هذه الأسواق أسواق صغيرة أخرى ، أهمها سوق باب الفتوح وسوق حارة برجوان وسوق الشماعين وسوق الدجاجين ، ومن الأسواق أيضاً سوق بين القصرين واعتبرت من أعظم أسواق الدنيا ثم سوق السلاح ، وكانت تمتد بين مدرسة الظاهر بيبرس وبين باب قصر بشتاك وقد جددت بعد الدولة الفاطمية وجعلت لبيع الشباب والزرديات وغير ذلك من آلات السلاح ، وسوق باب الزهومة وسوق اللحامين وسوق الجوخيين وسوق الحلاويين وسوق أمير الجيوش وسوق الصناديقين والحريريين والنعيريين والخراطيين والقرايين ، وغير ذلك من السويقات العديدة .

وقد وصف المقرزى فى كتابه الخالد ٣٧ حارة أوحيا وثلاثين خطاً و٦٥ شارعاً وأورد بها ٢١ زقاقاً

وخوخة و٤٩ رحبة أو ميداناً و٥٠ سوقاً و٣٣ قيسارية و١١ خاناً أو فندقاً أو وكالة و٥٥ فصرأ وداراً
و٤٤ حماماً و١٨ بستاناً و١١ ميداناً للسباق وغيرها .

فمن تلك الحارات ذكر حارة بهاء الدين وبرجوان وزويلة والمحمودية والجودرية والوزيرية
والباطلية والروم والديلم والأنراك والصالحية والبرقيسة والعطوفية وقائد القواد والأمراء والمنصورية
والهلالية والحسينية . . الخ . . ومن الدروب التي ذكرها درب الترك وشمس الدولة وتوران شاه
ودرب ابن طلائع ، ودرب أمير حسن وأرقطاي ، ومن الأزقة طريف منهم ، ومن الخوخ ، أيدغمس
الأزرقى وعسيلة والصالحية وخوخة حسين . ومن الرحاب ، ذكر رحبة باب العيد ، ورحبة قصر الشوك
ورحبة الجامع الأزهر ورحبة البدرى ورحبة أقبغا ورحبة مقبل ورحبة المنصوري ورحبة بيرس وارقطاي
ورحبة باب اللوق والناصرية .

حمامات القاهرة

أما حمامات القاهرة فبلغ عددها أربعة وأربعين وقد ذكر « المسبحى » في تاريخه أن العزيز بالله
نزار بن المعز لدين الله كان أول من بنى الحمامات بالقاهرة ، وذكر القاضى القضاى أنه كان فى
مصر الفسطاط ألف ومائة وسبعون حماماً . قال ابن المتوج أن عدد حمامات مصر فى زمنه بلغ
أكثر من سبعين حماماً وذكر ابن عبد الظاهر أن عدد حمامات القاهرة إلى آخر سنة خمس وثمانين وستماية
قارب من ثمانين حماماً .

وأهم الحمامات التي ورد ذكرها فى خطط المقرئى حمام السيدة العمة وحمام الساباط وحمام أولؤ
وحمام ترو وحمام الذهب وحمام السلطان وحمام خوند وحمام الجيوشى وحمام الرومى وحمام كتبغا الأسدى
وحمام القاضى وحمام الحسام وحمام الصوفية وحمام بشتك . الخ

المدارس

شيدت فى أيام الجراكسة عدة مدارس ، كان فى طبيعتها :

مدرسة ومسجد الظاهر برقوق بالنحاسين .

بناها الملك الظاهر أبو سعيد برقوق أول ملوك الجراكسة وكانت تستخدم كمدرسة وخانقاه . توفى
مئشها قبل إتمامها فأكملها ابنه الناصر فرج سنة ٨١٣ هـ / ١٤١٠م كان ابن « الطولونى » هو الذى
اختط هذه المدرسة .

مدرسة ومسجد الأشرف برسباى .

أنشأها الملك برسباى سنة ٨٢٦ هـ / ٨٢٧ (١٤٢٣/١٤٢٤م) بالخانكاه ولها واجهة كبيرة شرقية تتكون من سبيل وكتاب وباب تجاوره مثذنة . والركن الشرقى البعري للمسجد تربة زوجة الملك الأشرف وابنه .

مدرسة ومسجد جوهر اللالا .

أنشأها الأمير جوهر اللالا الذى كان فى خدمة الأشرف برسباى سنة ٨٢٣ هـ / ١٤٢٩ / ٣٠ م على ربوة عالية بجرى مسجد الرفاعى .

مدرسة ومسجد أبو بكر مزهر بحارة رجوان .

أنشأها أبو بكر بن محمد سنة ٨٨٤ / ٤٨٥ هـ (١٤٧٩ / ١٤٨٠ م) ولها واجهتان خاليتان من الزخارف والباب الشرقى حافل بالزخارف الرخامية والحجرية ، ويماروه مثذنة من ثلاث دورات ، بها كثير من الزخارف ، وداخل المدرسة حافل بشق الصناعات الجميلة ، فالأيوان كسيت جدرانها بوزرة من الرخام ، والمحراب مصنوع من الرخام الدقيق ، كما أن صناعة التجارة على جانب عظيم من الدقة .

مدرسة ومسجد السلطان العورى .

أنشأها العورى بالعورية سنة ٩٠٩ / ٩١٠ هـ — ١٥٠٣ / ١٥٠٤ م ؛ وهى تقابل تربة ويفصل بينهما شارع العورية ويتوصل إليها من سلم يؤدي إلى مدخل فدركاة جميلة مفتوح فى جانبها القبلى باب يوصل إلى طرقة تؤدي إلى صحن المسجد المشتمل على أربعة إيوانات أكبرها الأيوان الشرقى وهذه الأيوانات مغطاة بسقف — جميل فيه نقوش مموهة بالذهب .

المكتبات

رأينا أمراء هذا العصر قد شيدوا الكثير من المساجد والمدارس ، وكانت تلك عامرة بخزانات الكتب العامرة ومنها مدرسة وخانقاه الظاهر برقوق (٧٨٦ — ٧٨٨ هـ) . وكان بالمدرسة المهدوية خزانة كتب ، قال عنها المقرئى « لا يعرف اليوم بديار مصر ولا الشام مثلها » . وقد ظلت هذه المكتبة عامرة حتى أواخر العصر المملوكى واشترط واقفها الأمير جمال الدين محمود أن لا يخرج لأحد منها كتاب إلا أن يكون فى المدرسة ، وبهذه المكتبة جمعت الكتب الإسلامية . وقد تولى خزانة كتب المدرسة المهدوية السراج عمر أيام الأمير جمال الدين ، ولكنه عزل بسبب تفریطه فى كتبها ، كما عزل خازنها عثمان نغر الدين

البكرى سنة ٨٢٦ هـ لنفس السبب ، ثم تولى أمانة هذه المكتبة الشيخ المؤرخ الحافظ بن حجر العسقلاني واستمرت بيده حتى وفاته (١) .

وقد كان بالحانقاه البروقية التي أنشأها السلطان فرج بن برقوق بخارج باب النصر سنة ٨٠١ هـ - ٨١٣ هـ خزانة كتب كبيرة (٢) .

وحيثما شيد الأمير جمال الدين الاستادار مدرسته بالجمالية برجة باب العيد سنة ٨١٠ - ٨١١ هـ جمع لها الكتب واشترى الكثير من مكتبة المدرسة الأشرفية بعد هدمها (٣) .

واحتوت المدرسة المؤيدية التي بناها السلطان المؤيد شيخ الحمودي سنة ٨١٨ - ٨١٩ هـ على مكتبة كبيرة كما اشتملت المدرسة الأشرفية التي بناها أبو النصر برسباي سنة ٨٢٦ - ٨٢٩ هـ على خزانة كتب قيمة زخرت بالكتب الدينية ، وكتب الحديث واللغة والآداب والمصاحف . أما السلطان قايتباي الحمودي فإليه تنسب عدة مكتبات ، ففي مدرسته الكبيرة بقراة الممالك أودع بها خزانة كتب ، كذلك كان في مدرسته بقلعة الكيش . وقد تنافس أمراؤه في بناء المدارس التي أودعوا بها خزانات الكتب ، ومن هؤلاء الأمير يشبك الدوادار الذي كان محباً للعلماء والفقهاء ، يقتنى المصاحف الشريفة والكتب . ولما بنى الأمير أوزبك أنابك الجيش مدرسته الكبيرة في سنة ٨٨٠ هـ عمل فيها خزانة للكتب .

وقد كان بمدرسة السلطان قانصوه الغوري بخط الشرايين خزانة كتب حوت من صنوف المصاحف والكتب الشيء الكثير ، ورتب لها أميناً ثقة يقوم على خدمتها (٤) وقد وصل إلينا بعض نفائس تلك الخزانة ، منها كتاب نفائس المجالس السلطانية في حقائق أسرار القرانية ، وكتاب السكوكب الدرر في مسائل الغوري وكتاب تذكرة الملوك إلى حسن السلوك والحكايات المستطابة في ديوان الصبا « وهكذا يبدو أن تلك المكتبة كانت زاخرة بشتى أنواع المؤلفات . وقد تنافس أمراء الغوري في تأسيس المكتبات ومن هؤلاء : قانئ باي قرا الرماح والأمير خاير بك صاحب الجامع بخط التبانة ، والأمير بيبرس عبد الله الذي عمر مسجداً بخط الجودرية الحق به خزانة كتب .

وكان كثير من السلاطين والأمراء والعلماء مغرمين باقتناء الكتب النفيسة بخطوط مؤلفيها ، وجمع للمصاحف الكريمة التي كتبها مشاهير الخطاطين . ومن هؤلاء المؤرخ أبو الحسن يوسف بن تغري بردي

(١) السخاوي : الضوء اللامع ج ٥ ص ١٤٣

(٢) القرزى : الخطط ج ٣ ص ٤٠٢ و ٢٦٤

(٣) عبد اللطيف ابراهيم : دراسات في الكتب والمكتبات الإسلامية ص ٢٧ - ٢٨

(٤) عبد اللطيف ابراهيم : المصدر السابق ذكره ص ٣٣ - ٣٥

قد أودع في مدفنه بالصحراء خارج باب النصر بالقرب من تربة الأشرف إنال كتبه القيمة وتصانيفه المختلفة ويقفها في خزانة يقيم لها خازناً أميناً ويجعل له سكناً خاصاً به (١).

وكان أمناء المكتبات يتقاضون مرتبات بعضها يعتبر ضئيلاً بالنسبة لواجباتهم ، كان يتقاضى أمين مكتبة السلطان فرج بن برقوق — ٢٠ درهماً وأمين مكتبة الأمير جمال الدين الاستادار ١٠ دراهم ، وأمين مكتبة السلطان برسباي الدقماقي ٢٠٠ درهم يضاف إليها ثلاثة أرطال من الخبز في اليوم ، وأمين مكتبة السلطان قايتباي ٢٠٠ درهم يضاف إليها رطلان من الخبز يومياً ، وأمين مكتبة الأمير أزبك (ططخ) ٣٠٠ درهم وأمين مكتبة السلطان قانصوه الغوري ١٥٠٠ درهم ويخص منه مرتب الفرائش ، وأمين مكتبة الأمير قانباي الرماح ١٦ درهم .

خليجان القاهرة

كان بظاهر القاهرة عدة خليجان أهمها خليج مصر وخليج فم الخور وخليج الذكر وخليج الناصري وخليج قنطرة الفخر . أما خليج مصر فكان بظاهر الفسطاط ويعر غربى القاهرة وهو خليج قديم أهمل عصوراً طويلة حتى أعاد حفره عمرو بن العاص بأمر الخليفة عمر بن الخطاب وقيل له خليج أمير المؤمنين ، وقد حفر في سنة ٢٣ هـ / ٦٤٣ م وفرغ منه في ستة أشهر ، وما برح هذا الخليج منزهاً لأهل القاهرة يعبرون فيه المراكب للزهة إلى أن حفر الملك الناصر محمد بن قلاوون الخليج المعروف بالخليج الناصري وذكر المسبحي أن الحاكم بأمر الله منع في سنة ٤٠١ هـ الركوب في التوارب إلى القاهرة في الخليج وشدد في المنع وسدت أبواب القاهرة التي يوصل منها إلى الخليج وأبواب الطاقات بين الدور التي تشرف على الخليج وكذلك أبواب الدور والخور . وعن الخليج قال القمريزي :

لا تركبن في خليج مصر إلا إذا يدل الظلام
يا سيدي لا تسر إليه إلا إذا هوم النيام
والليل ستر على التصابي عليه من فضله لثام

وخليج فم الخور كان يخرج من النيل ويصب في الخليج الناصري وكان على خليج فم الخور قنطرة كما كان على خليج الذكر الذي حفره كافور الأخشيد مثلها ، وهي قنطرة الدكة التي عرفت أيضاً بقنطرة التركاني .

(١) وثيقة ابن تغرى بردى محكمة ١٤٧ محظفة ٢٣ : انظر مقدمة النجوم الزاهرة ج ١ ص ٩ — ٢٨ السجوى : الضوء اللامع ج ١٠ ص ٣٠٥ — ٣٠٨

أما الخليج الناصري فكان يخرج من النيل ويصب في الخليج الكبير وقد أمر بحفره الملك الناصر محمد بن قلاوون لتمر فيه المراكب إلى ناحية سرياقوس تحمداً ما يحتاج إليه من الغلال وغيرها ، كما أنشأ قصوره وخاناته بتلك الناحية ، وقد بدأ بحفره سنة ٧٢٥ هـ / ١٢٢٤ - ٢٥م ، وجرى الماء فيه بعد شهرين وجرت فيه السفن والغلال وغيرها ، فسر السلطان بذلك ، واشترت الأهالي عدة أراضي غرسوا فيها الأشجار كما أخذوا في العازة على حافتي الخليج فعمروها بين القس وساحل النيل ببولاق ، وكثرت العمار على الخليج حتى اتصلت من أوله بموردة البلاط إلى حيث يصب في الخليج الكبير بأرض الطبالة وتنافس الناس في السكن هناك وأنشأوا الحمامات والمساجد والأسواق وصار هذا الخليج مواطن للفرح ومنازل لهم والقصف إلى أن منعت المراكب منه .

وكان يخرج خليج قنطرة الفخر ابتداء من بولاق إلى حيث كان يصب في الخليج الناصري وقد كانت على تلك الخليجان عدة قناطر منها أربعة عشر قنطرة على الخليج الكبير والخليج الناصري خمس قناطر وعلى كل من الخليجان الأخرى قنطرة .

الخليج المصري

كان الخليج المصري يخرج من النيل جنوبي قصر العيني عند السواقي السبع التي تعد القناطر المقامة بجانبها بالمياه إلى القلعة ، ويعرف اليوم مكان هذه السواقي بقم الخليج . وكان الخليج يسير نحو الشمال الشرق ثم ينعطف إلى الشرق الجنوبي حتى يصل إلى قناطر السباع حيث ميدان السيدة زينب اليوم ، ثم يعود سيره إلى الشمال الشرقي ماراً غربى بركة الفيل ثم غربى درب الجمالين ثم غربى باب الحرق ، ثم يحترق سور القاهرة عند باب الشعربية وهو يعرف اليوم بباب العدوى . ويسير خارج القاهرة إلى جامع الظاهر ببيرس ثم يسير بين المزارع إلى ناحية الزاوية الحمراء والأميرية وسرياقوس والحانكة .

كان يقع إلى غربى الخليج من الشمال أرض الطبالة وهي المنطقة التي تحد اليوم من الشمال بشارع الظاهر فشارع وقف الخربوطلى وامتداده حتى يتقابل بشارع مهمشة ومن الغرب بشارع غمره إلى ميدان باب الحديد (رمسيس) حيث كان يجرى نهر النيل في العصر الفاطمي . ومن الجنوب بشارع الفجالة ، ومن الشرق بشارع الخليج المصري (بور سعيد اليوم) وكانت تقدر مساحة أرض الطبالة بحوالى مائتى فدان كان الخليفة المستنصر بالله قد وهبها إلى السيدة نسب الطبالة فسميت المنطقة باسمها ، وكانت بها بركة الرطلى ويسمى بها الحى المعروف اليوم . وإلى شمالي هذه البركة كان يمر خليج الطوابة الذي كان يعرف أيضاً باسم خليج الغربى وهو الخليج الناصري القديم .

وكان يلى أرض الطبالة خط القس ، وكان يشمل المنطقة التي تحد اليوم من الشرق بشارع بورسعيد

و (الخليج المصري) ومن الشمال بشوارع الطلبة والطواشي والشعبكي وبين الحارات ، ومن الغرب ميدان باب الحديد وشارع رمسيس وشارع عماد الدين ، ومن الجنوب بشارع قنطرة الدكة وشارع القبيلة ودرب التطة وشارع القوطية وشارع سوق الزلط وشارع الخراطين حتى تقابله بشارع الخليج . وأهم عمائر هذه المنطقة جامع أولاد عنان الذي عرف أيضا بجامع المنس .

وإلى جنوب خط المنس كانت أراضي زراعية يعمرها ماء النيل سنوياً ، وكان يتخلف فيها بعد الفيضان بركة عرفت ببركة الأزبكية وإلى الشمال الغربي منها كان يقع حي الصارى بدروبه وأزفته حيث كان يقيم بعض أقباط القاهرة ، وقد نقات إليه البطريركية القبطية في أيام الحملة الفرنسية عام ١٧٩٩ من مقرها بحارة الروم بقسم الدرب الأحمر .

وإلى شرقي بركة الأزبكية كان يقع خط الأفرنج ، وكان يحد من الغرب بالبركة ومن الشرق بالخليج المصري ومن الشمال بخط المنس ، ومن الجنوب بشارع الموسكى وبمقبرة كبيرة كانت تعرف بمقبرة الأزبكية وكان بحوارها جامع أزبك الذي هدم عام ١٨٧٥ ، وكانت أهم معالم حي الأفرنج ، حديقة روسيتى التى يحترق أراضيها اليوم شارع الجيش من جهة ابتدائه عند المتبة الخضراء ، وحول هذه الحديقة الغناء كانت دور قناصل الدول الأوربية ، وأهمها دارقنصل فرنسا ثم دار تياترو القاهرة وهو المسرح الذى أقيم فى أيام الحملة . وكان على شاطئ البركة فندق واجهورن وفندق دوبرج وموقعه اليوم جنوبى نقطة تقاطع شارع الموسكى بشارع الخليج المصري وفندق جاردينو الإيطالى . وكان لهذا الحى أبواب ضخمة تقفل ليلاً .

وكان يقع قصر الألفى بك غربى بركة الأزبكية وقد قتل فيها الجنرال كليبر الفرنسى وأقام فيها محمد على وبويع على الولاية ، وقد تحول قصر الألفى إلى فندق شبرد عام ١٨٣٤ ثم اتصلت بولاق بحى الأزبكية بطريق مهده لوير كبير مهندسى الحملة الفرنسية (١) .

ظل الخليج المصري مستعملاً في إرواء القاهرة وضواحيها قروناً عديدة إلى أن نشأت شركة مياه القاهرة فى عهد الخديو اسماعيل ومدت أنابيب المياه إلى بعض الأحياء فقلقت فائدة الخليج وأصبح مبادء تلقى بها فضلات البيوت المظلة عليه ومياهها القذرة وتحول إلى بؤرة للأمراض . وفى عام ١٨٩٧ تعاونت شركة ترام القاهرة مع الحكومة على ردمه وبد به خط الترام الذى كان يصل ما بين غمره وباب الشعرية والسيدة زينب وشارع مدرسة الطب .

وفى ٢٦ أغسطس سنة ١٩٢٧ صدر مرسوم بتوسيع شارع الخليج إلى ٤٠ متراً بين ميدان السيدة زينب وشارع رمسيس (المللكة نازلى سابقاً) وتم تنفيذ بعض أجزائه حتى عام ١٩٥٤ حينما نشطت بلدية

القاهرة وقد تولى الإشراف عليها قائد الجناح عبد اللطيف البغدادي فأكمل توسيع شارع الخليج من باب الخلق إلى غمرة ، وأزيلت للمباني الخربة التي اعترضت الطريق ، ثم ألغى نهائياً سير عربات الترام . وفي عام ١٩٦٦ أعيد سير عربات الترام لحل أزمة المواصلات ، وفي أعقاب حملة السويس واستيصال بورسعيد ١٩٥٦ سمي شارع الخليج باسم شارع بورسعيد .

قناطر القاهرة

وأهم قناطر الخليج الكبير قنطرة السد وهي التي كان يتوصل بها إلى منشأة المهراني وغيرها من شاطئ الخليج الغربي وقناطر السباع بجانب خط السبع ستايات من جهة الحمراء القصى وجانبها الآخر من جهة جنان ازهرى ، وكان أول من أنشأها الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري ونصب عليها سباعاً من الحجارة فقيل لها قناطر السباع وكانت عالية مرتفعة ، وقد عمها الملك الناصر محمد بن قلاوون وأعاد بناءها بشكل آخر لتنسب إليه، وليست الملك آخر وانتهى منها في سنة ٧٣٥ هـ / ١٣٣٤ م .

وقنطرة عمر شاه وكانت على الخليج ويتوصل منها إلى شاطئ الخليج الغربي وحكر قوسون وقنطرة آق سنقر ويتوصل إليها من خط قبو السكرماني ومن الجانبية إلى شاطئ الخليج الغربي وقنطرة باب الخرق وكان موضعها ساحلا وموردة للسقاين في أيام الفاطميين فلما أنشأ الملك الصالح نجم الدين ميدان السلطاني بأرض اللوق وعمر به المناظر في سنة ٦٣٩ هـ أنشأ هذه القنطرة ليراعها إلى الميدان المذكور وقنطرة الموسكى ويتوصل إليها من باب الخوخة وباب القنطرة ويعرف فوقها إلى بر الخليج الغربي أنشأها الأمير عز الدين موسك قريب صلاح الدين الأيوبي . وقنطرة الأمير حسين وقنطرة باب القنطرة ويعرف فوقها إلى المقس وأرض الطبالة وأول من بناها القائم جوهر وقنطرة باب الشمرية ويسلك إليها من باب الفتوح ويمشى من فوقها إلى أرض الطبالة عرفت فيما بعد بقنطرة الخروبي . والقنطرة الجديدة وقناطر الأوز ويتوصل إليها من الحسينية ، وقناطر بنى وائل التي أنشأها الملك الناصر محمد بن قلاوون في سنة ٧٢٥ هـ ، وعرفت بهذا الإسم لأنه كان يسكن بها عرب بنى وائل ، وقنطرة الأميرية وهي آخر ما على الخليج الكبير من القناطر بضواحي القاهرة بالقرب من المطرية ، وكان منشؤها الملك الناصر أيضاً .

وكانت قنطرة الفخر أول القناطر التي عمرت في الخليج الناصري بجوار موردة البلاط من أراضي بستان الخشاب، وقد أنشأها القاضي فخر الدين ناظر الجيش في سنة ٧٢٥ هـ / ١٣٢٤ م عند انتهاء حفر الخليج الناصري ، وقنطرة قدادار ويتوصل إليها من اللوق إلى شاطئ الخليج الناصري مما يلي القيل — وقنطرة السكتة بخط بركة قرموط، وعرفت بذلك لكثرة ما كان يسكن بالقرب منها من السكتاب وقنطرة باب البحر وتوصل إلى باب اللوق وقنطرة الحاجب وتوصل لأرض الطبالة .

وكانت على خليج فم الحور قنطرة المقس مازال موضعها سداً إلى أن كانت وزارة الصحاح

١٧٣

شمس الدين بن الفرج عبد الله التقي في أيام السلطان الملك الأشرف شعبان بن حسين ، فأنشأ بهذا المسكان تلك القنطرة فمرقت به .

وكانت من أعظم قناطر مصر قناطر بحر أبو المنجا ولا تزال بعض آثارها لليوم أنشأها السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس في سنة ٦٦٥ هـ / ١٢٦٦ م وتولى عمارتها الأمير عز الدين أيك — وقناطر الجيزة وكانت تمد من الأعمال العجيبة في الزمان القديم ، وقد احتوت على نيف وأربعين قنطرة عمرها الأمير قراقوش الأسدي في زمن السلطان صلاح الدين .

برك القاهرة وضواحيها

وكانت بالقاهرة ومصر وضواحيها عدة برك ، أولها بركة الحبش وكانت في ظاهر الفسطاط من قبلها بين الجبل والنيل وقد أحياها وغرسها قصباً أمير مصر قره بن شريك العبسي ، وقد قال أبو الصلت أمية ابن عبد العزيز الأندلسي في وصفه للبركة . . « انفق أن خرجنا في مثل هذا الزمان إلى بركة الحبش واقتربنا من زهرها أحسن بساط واستظلنا من دوحها بأوفى رواق فظلنا نتعاطى من زجاجات الأقداح شمساً في خلع بدور إلى أن جرى ذهب الأصيل على لجين الماء ونشبت نار الشفق بفحمة الظلماء » .

وقد عاين القريري هذه البركة أيام فيض النيل كما شاهدها في أيام التحاريق وفيها قال :

يا بركة الحبش التي يوى بها طول الزمان ميسارك وسعيد
حتى كأنك في البسيطة حبشة وكأن دهرى كله بك عيد
يا ليت شرى هل زمانك عائد فالشوق فيه ميسدى ومعيد

ومن البرك بركة الشعبية وكانت تجاور بركة الحبش من بحريها وانقطع عنها الماء وصارت بساتين ومزارع . وبركة شطا وأصبح موضعها كيهان على يسار من كان يخرج من باب القنطرة بمدينة مصر . وبركة قارون وكان موضعها بين جامع ابن طولون وبين الجسر الأعظم الفاصل بين هذه البركة ، وبركة الفيل وهي من أكبرها .

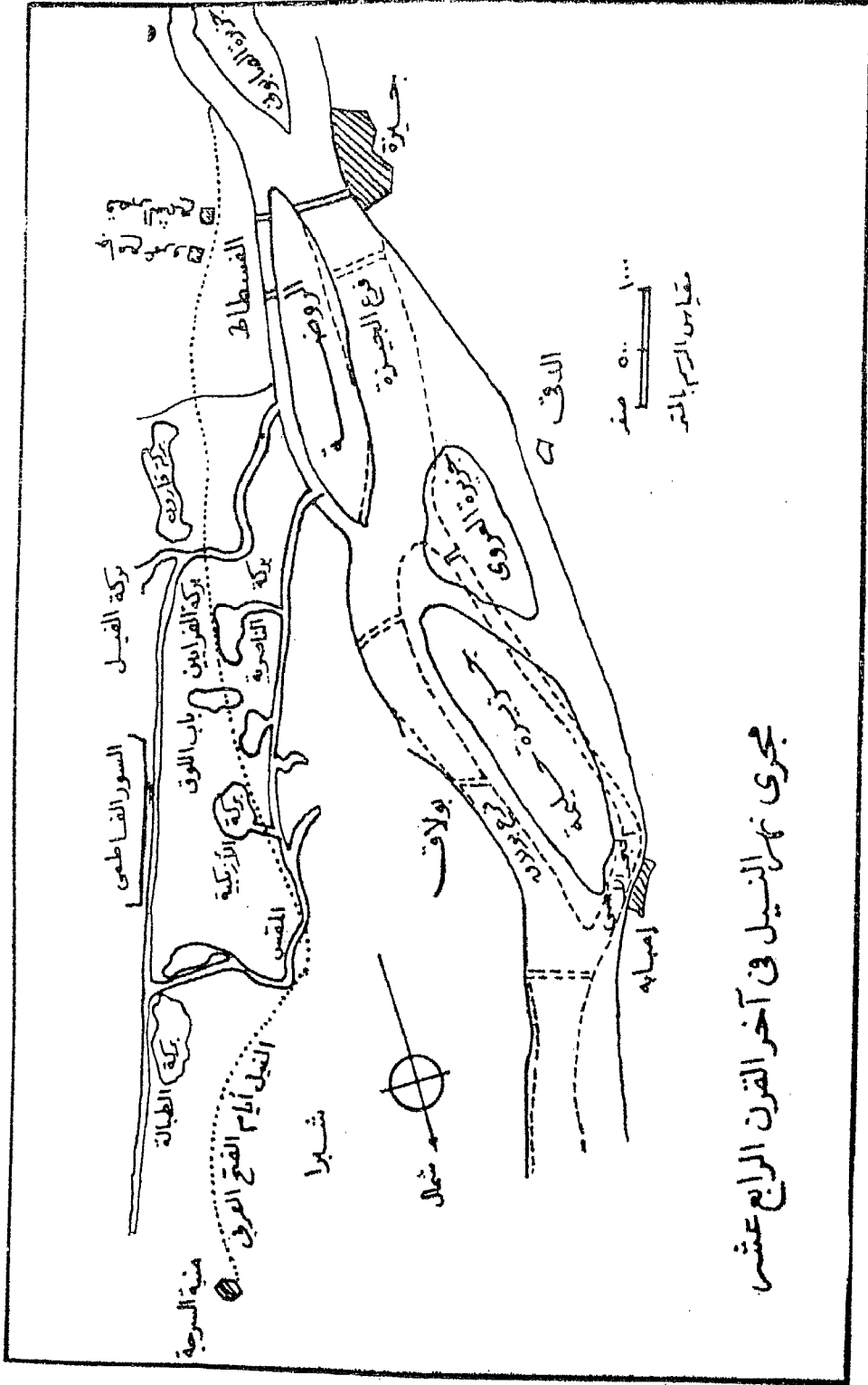
وقال عنها ابن سعيد الرحالة . « وأعجبنى في ظاهر القاهرة بركة الفيل لأنها دائرة كالبدر والمناظر فوقها كالنجوم وعادة السلطان أن يركب فيها بالليل وتسرج أصحاب المناظر على قدر همهم وقدرتهم فيكون لها بذلك منظر عجيب .

وبركة الشفاف وكانت بجوار النوق وجامع الطباخ وعدة مناظر ، منها واحدة للأمير جمال الدين موسى بن يغمور . وبركة السباعين ثم بركة الرطلى ، وكانت داخلة في نطاق أرض الطبالة — وكان في

شرقي هذه البركة زاوية فيها نخيل كثير وفيها شخص كان يصنع الأبطال الحديد التي تزن بها الباعة فسماها الناس ببركة الرطلى .

وبركة بطن البقرة وكانت موجودة بعد أرض الطبالة واللوق . وكانت تجاه دار الذهب ، وبركة جناني وكانت خارج باب الفتوح بالقرب من منظرته وكانت الدور مقامة على حافتها حتى أيام المقرزي . وبركة الحجاج وسميت بذلك الإسم لنزول حجاج إليها عند مسيرهم من القاهرة وعند عودتهم . وبركة قرموط كانت بين اللوق والمقس وقد ردم جزءاً كبيراً منها الملك الناصر محمد بن قلاوون ، وأدرك المقرزي بها دياراً جلية تباهى أربابها في إحكام بنائها وتحسين سقوفها وزخرفتها بالرخام والدهان ، وغرسوا بها الأشجار وأجروا إليها المياه من الآبار ، فكانت تعد من المساكن البديعة للترفة ، ويقول المقرزي عن دورها ما مررت بها قط إلا وتبين لي من كل دار هناك آثار النعم . أما الروائح فتتعالى من المطابخ أو عبير بخور العود أو نفعات الخمر أو صوت غناء أو دق هاون ونحو ذلك مما يبين ترف سكان تلك الديار ورفاهة عيشتهم وغشارة نعمهم ، ثم هي الآن موحشة خراب قد هدمت تلك المنازل وبيعت أبقاضها منذ كانت الحوادث بعد سنة ست وثمانمائة فزالت الطرق وجهلت الأزقة وانكشفت البركة وبقي حولها بساتين خراب . وبركة قراجا وكانت خارج الحسينية قريباً من الخندق وعرفت بالأمير زين الدين قراجا التركاني أحمد أمراء مصر أنعم عليه بالامارة السلطان الناصر محمد بن قلاوون .

والبركة الناصرية وكانت من جملة جنان الزهري فلما خربت الجنان صار موضعها كوم تراب وقد أعاد إليها رونقها الملك الناصر بفضل الأمير بيبرس الحاجب ، فلما امتلأت بالماء صارت مساحتها سبعة أفدنة ، فحسرت الناس ما حولها وبنوا عليها الدور العظيمة وما برح خط البركة الناصرية عامراً إلى أن كانت الحوادث من عام ٨٠٦ هـ / ١٤٠٣ م فشرع الناس في هدم ما عليها من الدور .



مجرى نهالنيل في آخر القرن الرابع عشر

مجرى نهر النيل في آخر القرن الرابع عشر

الفصل السادس

الفاهيرة في أيام المماليك والبحر الكسنة

من ١٣٨٢ إلى ١٥١٧

أنظر إلى بركة الفيل التي اكتنفت بها المناظر كالأهداب للبصر
كأنما هي والأبصار ترمقها كواكب قد أداروها على القمر

جاء بعد الناصر محمد أحفاده الضعفاء محمد بن حاجي (الملك المنصور الخامس) وشعبان بن حسن الأشرف وعلي بن شعبان ، ثم حاجي بن شعبان وكانوا جميعهم ألعيب يحركهم الأمراء الأقوياء ، وظهر من هؤلاء جميعاً قوسون وشيخو وصرغتمش وآخرهم برقوق الذي خلع السلطان حاجي بن شعبان في عام ٧٨٤ هـ (١٣٨٢ م) . وتولى العرش مكانه ، ولقب نفسه بالملك الظاهر ، وهو لقب أعظم من حكم مصر من دولة المماليك البحرية ، وهو ركن الدين بيبرس البندقداري . وتولية العرش زال مبدأ الوراثة المملوكية .

تولى الحكم المماليك البرجية - أو ممالك الحصن لأنهم كانوا يسكنون القلعة منذ قرن ، ويسمونهم أحياناً المماليك الجراكسة نسبة إلى أصل سلاطينهم ، فاتهم من الشعب الجركسي الذين نشأوا في سيبريا ثم هاجروا إلى غربي بحر قزوين وإن كان بعضهم من الترك والآخرين من الروم . وكان سلاطين هذه الأسرة الجديدة تحت رحمة أمراءهم أكثر من سلاطين المماليك البحرية وكان أتباع كل أمير مملوك يمد نفسه مستقلاً عن شئون الدولة ، فيطلقون على قوتهم الأشرفية والمؤيدية والناصرية نسبة إلى أميرهم أو ملكهم . وقد عدوا أنفسهم أحزاباً مستقلة بعد موت أميرهم أو خلعهم ويساهمون كما يرغبون في المارك الدموية وحوادث السلب والنهب . ولم يستطع السلاطين أن يكبحوا جماح ممالكهم كما أنهم عجزوا عن إدارة شئون البلاد بدونهم .

وكانت أخلاق الحكام الجدد على مثال من سبقوهم ، ولم يكن بين « الجراكسة » سلاطين من طراز بيبرس وقلاوون وغيرها من الفاتحين ، كما أنه لم يكن الجراكسة جنوداً بمعنى الكلمة ولكن كانوا لا يعتمدون على الشجاعة فحسب بل على المؤامرة ، والمكيدة ، فثلا السلطان الرومي « خوش قدم » اشتهر بحلمه وجهه لرعيته فكان ينجي الضرايب ويصرفها لمصالحتهم وقد يعتبر أفضل سلاطين الجراكسة .

وبالرغم من القلاقل الداخلية استطاع عمالِك الجراكسة إلى حد ما أن يحافظوا على مكانة مصر بين الممالك المجاورة ، وأن يوسعوا ممتلكاتهم وينشروا تجارتهم ، فقد قاوم « برقوق » تيمورلنك الفاتح التتري ، وكان قد ملاء الأرض بفتوحاته حتى سمع دويها في سورية ، إذ جاء يهدد حدودها ، فنهض إليه برقوق وأوقفه عند حده عام ١٣٩٩م ، ولكن تيمورلنك قبل أخيراً شروطه وعاد من حيث أتى .

وقام سلاطين الجراكسة بعدة معارك على أرض آسيا الصغرى وغزوا قبرس التي اتخذها قرصان البحر مركزاً لأعمالهم وكثيراً ما كانوا يهاجمون الأسطول المصري ، فجهز لهم الملك الأشرف برسباي في عام ١٤٢٦م أسطولاً بناه في بولاق ، ثم أخضع الجزيرة وحمل الملك « جان لوسيان الثالث » على الاعتراف بسلطانه وأداء الجزية ، وكان هذا الملك قد وقع أسيراً في أيدي المصريين في معركة « شروكيتا » وعادوا به مكبلاً إلى مصر ، وأخذوه في موكب إلى القلعة ودفع فديته فنصل البندقية والتجار الأجانب ، ثم ركب في موكب حافل وساروا به بين الشوارع والأسواق بعد أن جعله والياً من قبله . وعقد برسباي مع ملوك الصليبيين - وسلطان آل عمان إذ ذاك مراد بن محمد - معاهدات سلمية دلت على عظم شوكته ، وقال بعض المؤرخين عنه أن برسباي أحق ملوك الجراكسة بالمدح لأنه كان أعلاهم همة وأشدهم عزيمته وأكثرهم دراية بشئون الحكم وقد وصلت الحدود المصرية في عهده إلى ييراموس والفرات .

ولانجد من عجائب الشذوذ في التاريخ الشرقى أغرب من هؤلاء المماليك في الجمع بين التناقضات، فينجد نجدهم عصبة من الأفاقين يبعوا ببيع السلع، ونشأوا أرقاء وأصبحوا سفاحين للدماء ظالمين للعباد، نجد منهم ميلا للفنون والعلوم والأدب والدين . ولقد أظهر هؤلاء المماليك في معيشتهم وعمائرهم ذوقاً سليماً ورفاهية بالغة . فكان برقوق والمؤيد وجقمق وقايتباي مولعين بمجالس العلماء والأدباء ، وكان برسباي على قلة إلمامه باللغة العربية يصغى إلى تاريخ العثمانيين الذي كان يقرؤه له « العيني » ، وكان الظاهر « عمريغا » الرومي عالماً بأصول اللغات والتاريخ والتصوف، وكانوا يؤدون فرائض الدين كاملة ، لا يشربون الخمر ويحجون إلى بيت الله - شيدوا المساجد والمدارس والمستشفيات والمنشآت الدينية . وكان المؤيد مع ضعف نفوذه مسلماً عالماً وموسيقياً بارعاً وشاعراً وخطيباً، بسيط اللبس والمعيشة ، يختلط بالشعب ، كأنه منهم ، شيد عمائر جميلة ، منها جامع المؤيد (١٤٢٠ م) بالقرب من باب زويلة ، وشيد أيضاً البيمارستان المؤيدي (١٤١٨ م) بالقرب من القلعة^(١) ، وبنى برسباي جامع السكير المعروف بالأشرفية (١٤٢٢ م) بالقرب من الموسيقى عند منعطف التورية ، وبنى برقوق (١٣٨٦ م) المدرسة الظاهرية بين القصرين، وشيد جامعاً فيه مقبرته وإن لم يدفن فيها، وله قبتان . وقد مات ولم يكمله فأتمه ابنه فرج في عام ١٤١٠ ، وهذا الجامع يعد بين أهم الجوامع الرائجة الموجودة في القرافة الشرقية، ولكن درتها مسجد وضريح قايتباي (١٤٧٤ م) ، وهو مثال جليل لما وصلت إليه عمارة المماليك، فإن قبته تسمو بنقوشها العربية، ومشدته البديعة التي تناطح السحاب تتحول من مربع فتمش من

(١) لا تزال بقايا هذا البيمارستان قائمة بدير اللبان بحي القلعة .

فدائرة ، وتحتفي زواياها بالمقرنصات، وكذلك إيوانه المرصع بالرخام .. كل هذه النفائس مجتمعة تزيد هذا الأثر قدراً واعتباراً .

السلطان قايتباي :

تولى السلطان قايتباي العرش فسكث على سرير السلطنة ٢٨ عاماً [٨٧٢ - ٩٠١ هـ / ١٤٦١ م] — وكان يملك مملوكاً اشتراه « برسباي » يبلغ خمسة وعشرين جنيهاً . وتحول من خدمة سيد لسيد آخر وصار يترقى من رتبة لرتبة حتى أصبح أتاك الجيوش للظاهر ثم رعا الرومي، وكان الجيش المصري إذ ذاك يكاف الدولة ٣٠٠.٠٠٠ جنية في السنة .

لقد وصم قايتباي بالشح ، ولكن الواقع لا يقر هذا الوصف ، فقد اشتهرت آثاره الخالدة في الشام وبلاد العرب وجميع أنحاء مصر ، مما يدل على أنه صرف مالا كثيراً في تشييد تلك المباني النفيسة — فقد شيد ضريحاً فخماً ضمن مقابر المماليك (١٤٧٢ م) ، ومدرسة بالقرب من جامع ابن طولون (١٤٧٥ م) وتعتبر وكالاته أو خاناته من أجمل النماذج لفن الزخرفة العربية التي لازمت العمارة الإسلامية . وكان قايتباي محباً للأسفار ، فقد رحل إلى سوريا، واقليم الفرات، وطاف بأجزاء مصر، وزار مكة وبيت المقدس، وكان أينما رحل ترك خلفه آثاراً تتحدث عن مكانته . فمن طرق إلى قناطر إلى مساجد إلى مدارس إلى قلاع إلى أسبلة متعددة — ولا يمتاز أي عصر من عصور سلاطين المماليك على عصر قايتباي من حيث الانتاج المعماري إلا إذا استثنينا عصر الناصر محمد بن قلاوون .

وفي أيام الجراكسة وعلى الأخص في عصر قايتباي، أدخلت على فن العمارة تعديلات جديدة ، فقد استعملوا كثيراً الحجر المنحوت وبنية الجدران الداخلية وزخرفوها بنقوش جميلة، وفي داخل الجوامع، وفي واجهاتها كانوا يدخلون النقوش الرائعة والزخارف — مع أن الخط الكوفي كان قد استبدل به من زمن بعيد الخط النسخي وذلك لجماله الزخرفي، وشيدت القصور العظيمة أيضاً .

وكان المهندسون يعنون على الأخص ببناء الأضرحة، وكانوا يعملونها في ركن غير ظاهر من المساجد ، كما كان الحال في عهد المماليك البحريةية ، بل صارت الجزء المهم من الجامع .

ولم تكن الزخرفة الخارجية قبل دولة الجراكسة تمس غير الباب والمئذنة وبعض المرافق الأخرى ، ولكن في عهد السلاطين الجراكسة راق للمهندسين أن يعملوا أبنيتهم شائقة في كل واجهاتها الخارجية فامتازت الآثار التي كثرت في مصر في ذلك العهد بالانتقان جملة وتفصيلاً .

وعم في عصر الجراكسة عمل الزخرفة نقشاً على الحجارة نفسها بدلا من عملها بواسطة الجص ، أو المسلاط كما فعل مهندسو الفاطميين ، ومن جاءوا بعدهم . وإن المنبر الحجري ذا النقش البديع الذي أقامه قايتباي (١٤٨٤ م) في ضريح برقوق يعد في طليعة النماذج الفنية الرائعة التي تفخر بها القاهرة ، من ذلك النوع ، والحجارة فيه تقوم مقام الحشب وهي عبارة عن ألواح

من الحجر أجيد نحتها ونقشها وتركيبها ، فأصبحت قطعة واحدة أخرجت في قالب دقيق الصناعة ، أو قطعة من الدنتلة صنعتها يد أنسة رشيقة ، وكثير من أمثال تلك النقوش الجميلة تعطى جدران السلم والضريح .

وكان قايتباى موفقاً في أعماله وقد فاق جميع زملائه ذوقاً وهندسة ، كما أنه اشتهر بشدة عنايته بالدقائق كاهتمامه بالتفصيلات ، وإن دراسة آثاره كلها تندعو إلى الإعجاب والدهشة ! سواء درسنا نقوش مدرسته القريبة من جامع ابن طولون أو مبانيه الأخرى كالوكالات ، والخانات التي اشتملت هي الأخرى بدورها على حيلة نفيسة من الرسوم المتنوعة ، وتؤيد لنا وكالته بالقرب من الأزهر هذا الرأي بالرغم مما أصابها من الإهمال والحراب ! وتستحق واجتها التي احتفظ بها عناية الذين يرغبون مشاهدة جمال الزخرفة العربية الهندسية وقد استطاع بعض مهندسي الأجانب استخراج طبعات من هذه الحليات المنقوشة ، ووضعوها في متحف فيكتوريا والبرت بلندن ، ولا شك أن البناء الأصلي لتلك الوكالة كان في أيامه نموذجاً لمن المارة التي تعتبر مرجعاً صادقاً للدراسة .

ويمكن اعتبار عصر قايتباى صورة شبيهة لأيام الناصر من ناحية تشييد المباني العظيمة ، ولا تزال مساجد الجراكسة تجذب إليها المماريين والمصورين والزائرين من شتى نواحي العالم ، فضخامتها الباهرة ومآذنها الدقيقة وقبابها المزركشة ومقرنصاتها الكثيرة على المداخل وطمفساتها وزواياها المحلاة وناפורاتها الرخامية وقبلاتها الزاهية — كل ذلك كمال في الذوق وحسن التصميم .

ومن أشهر مباني الأمراء : مسجد أوزبك اليوسفي (١٤٩٥ م) والأمير خيربك (١٥٠٢) . وجامع قاني باي الرماح أميراً خور أيضاً ، وجوامعهم عنوان للنقش الجميل — كذلك تلك الدرة الصغيرة مدرسة القاضي أبو بكر بن مظهر (١٤٨٠ م) التي أعادت تجديد بنائها إدارة حفظ الآثار العربية ، فردت إليها رونقها السالف وألوانها الأصلية ، وكذلك مسجد الأمير جقمز الإسحاقى .

الرحالة الألماني أرنولد فون هارف

يصف القاهرة محمد بن قايتباى

كانت مصر في العصور الوسطى يمر بها الحجاج المسيحيون في طريقهم إلى بيت المقدس . وكان الفارس الألماني أرنولد فون هارف واحداً من هؤلاء الحجاج الأثرياء ، غادر كولونيا في نوفمبر سنة ١٤٩٦ ، بقصد الحج إلى بيت المقدس في رحلة دامت ثلاث سنوات ، زار فيها مصر وبعض بلاد الشرق الأوسط ، ثم عاد إلى بلاده في أكتوبر ١٤٩٨ ، وقد دون ملاحظاته عما شاهده في أثناء رحلته ، حتى أتم كتاباً عنها ، أهداه بعد عودته إلى أمير مقاطعة كولونيا ، ليكون مرجعاً يفيد منه من يسافر بعده من الحجاج إلى

الأماكن المقدسة^(١) وقد طبع هذا الكتاب فيما بعد ببولونيا في سنة ١٨٦٠ .

وصف أرنولد دخول سفينته إلى نهر الاسكندرية ومرورها مخفضة الشراع أمام قلعة قايتباي التي تم بناؤها قبل وصوله بعدة سنوات ، وكيف حياها حراس القلعة بطلقات من المدافع ، أجب عليها ربان السفينة بالمثل ، وبعد ذلك نزل التجار إلى المدينة وأقاموا في فنادق خاصة بتجار البندقية يجرسها للمالك . وبعد أن مكث بضعة أيام ، شاهد فيها آثار الاسكندرية وأسواقها، ركب إلى رشيد ومنها عن طريق النيل إلى القاهرة ، حيث دفع ضريبة أخرى ، وكان عليه أن يقيم في منزل ترجمان المالك . ولم تعجبه الإقامة هناك . ولكنه سرعان ما تعرف على اثنين من أصل ألماني ، أحدهما من مدينة بال والآخر من دانزج ، وساعده الاثنان كثيراً في جولاته بالقاهرة .

واستطاع فون هارف بوساطة صديقيه أن يحصل على تصريح من سلطان مصر في ذلك الوقت الناصر محمد بن قايتباي (١٤٩٦ — ١٤٩٨) ليسافر من مصر إلى فلسطين وسوريا وغيرها من البلاد التي كانت تابعة لمصر . واهتم السلطان بأمره ، فدعاه إلى مقابله ، وتحدث إليه في شئون السياسة الأوربية ، والحروب التي أثارها شارل ملك فرنسا ، وما يتبها له من غزو بلاد الشرق الأوسط . ووصف فون هارف القلعة ، وما شاهده فيها من مبان وقصور ، وقال أنه رأى بها مدرسة للمماليك ، وكان بها خمسمائة مملوك من الفتيه الصغار ، يتدربون على الأعمال العسكرية ، ويتملمون القراءة والكتابة ، ويشرف على تدريبهم اثنان وثلاثون أستاذاً .

وقد ثار آقردى الدوادار على السلطان الناصر محمد بن قايتباي ، وحاول خلعه ليحل مكانه ، ولكنه فشل . وتصادف أن وقعت هذه الثورة أثناء وجود فون هارف بالقاهرة ، وإقامته في منزل ترجمان للمالك ، الذي كان من أنصار الدوادار ، فهاجم المماليك من أتباع السلطان منزل الترجمان ونهبوه ، كما نهبوا متاع أرنولد ، ونجا هذا بنفسه بمد مشقة كبيرة ، وبعد أن أبرز التصاريح التي حصل عليها من السلطان .

ويصف فون هارف الحياة في شوارع القاهرة ، فيقول أنه يوجد بها ٢٤٠٠٠ شارع وحارة ، منها ٢٤ شارعاً رئيسياً طويلاً ، يمتد أحدها من المطرية ويمر بالقلعة ، ولم يصل للوفاة إلى نهايته من الناحية الأخرى ،

(١) Harff, Ritter Arnold von Coln, Die Pilgerfahrt des . durch Italien, (١)
Syrien, Aegypten, Arabien, Aethiopien, Nubien, Palastina, die Turkei, Frankreich
und Spanien... Coln, 1860 .

أنظر أيضاً : محمد مصطفى : السلطان قايتباي كما رآه الرحالة الألماني أرنولد فون هارف . مجلة الهلال ،

ج ٤ المجلد ٦٣ ، أبريل ١٩٥٥ ، ص ٣٢ — ٣٧ .

وأن هذه الشوارع ترش بالماء ثلاث مرات يومياً ، ولشكل شارع بوابتان عند طرفيه ، تغلقان ليلاً وتقف عليها الحراس . وفي كل شارع طبخ ونخبان أو أكثر حسب طول الشارع وحاجة سكانه ، وأن أكثر الناس لا يطبخون في بيوتهم ، بل يشترون ما كلهم من المطابخ العامة والمخابز ، ويبيع الدجاج السلوق أو المحمر في الشوارع ، ويوجد منه الكثير بالقاهرة ، كما أنهم يأكلون الكثير من لحم الضأن والجمال . وتوجد بالقاهرة حمامات كثيرة للرجال وللنساء ، وأرضية هذه الحمامات وجدرانها مكسوة بالرخام ويسخن الماء في غلايات كبيرة ، ثم ينقل بواسطة الأنابيب إلى أحواض رخامية .

وتحدث فون هارف بإسهاب عن كل ما شاهدته ورآه في مصر ، فهو يتكلم عن المساجد والكنائس والشوارع والمدارس والأهرام ومقابر سلاطين المماليك ، وعن الأسواق والمخابز والمطاعم والحمامات وأمان السلع والحاجيات ، وعن العادات والتقاليد والرجال والنساء والزواج والطلاق . وما يلبسه المسلمون والمسيحيون واليهود ، وعن المماليك ونظمتهم وأجورهم وسلاحهم ومعيشتهم وطغيانهم ، وعن الأعياد والمواسم والحدائق . . . فقد بهره كل هذا فوصفه وصفاً مفصلاً . . .

قاهرة الغورى

وأخيراً يتولى العرش السلطان الغورى (١٤٩٩/٨٩٠٦ - ١٥١٦ م) . وكان قوى الإرادة أعاد الأمن إلى نصابه ، وقضى على العسف الذى فشا في القاهرة ، ثم زاد الضرائب دفعة واحدة ، فكان يجلبها من أصحاب مركبات المياه والسفن والجمال واليهود ليكتنز المال في الخزائن . فلما أصلح مالية الدولة بدأ بصرفها في تشييد المباني العامة الكبيرة ، فمن شق ترع إلى فتح طرق إلى إقامة حصون السواحل إلى تدعيم القلعة . ثم أصلح طريق الحجاج إلى مكة وشيد مدرسته في عام (١٥٠٤ / ٨٩٠٨) ومقبرته التى لم يدفن فيها ، وكانت دار المكتبة الزكية وهما مواجهاً لبعضهما في شارع الغورية الذى تغيرت ملامحه كثيراً في الخمسين سنة الأخيرة . وأقام الغورى أيضاً مئذنة الجامع الأزهر ، وشيد جامع المقياس في جزيرة الروضة وسبيل المؤمنين في الرملة وطواحين الهواء في معمر القديمة وجدد بناء عيون المياه الموصلة لقلعة . وكان الغورى مجبلاً في مجلسه كريماً مع الشعراء ميلاً للموسيقين ، وكان محباً للمال يبحث عنه في كل مكان . وأشهر ما يخلد للغورى على صفحات التاريخ مناوآته لأسطول البرتغاليين في البحر الأحمر وهزيمته لهم في عام ١٥١٣ / ٨٩٠٧ م . لسكن حظه السعيد فارقه لما خرج في طليعة جيش مصرى ليصد جيوش العثمانيين الذين توغلوا في البلاد السورية ، فسقط في معركة مرج دابق شهيداً وهزيمته أرجل الخيل ، فقام التولى بالأمور الأشرف طومان باى (١٥١٦ / ٨٩٢٢ م) والتحم بالعثمانيين بالقرب من هليوبوليس شمالى القاهرة فدارت الدائرة عليه وهزيمته للمماليك . وحاول « طومان باى » فيما بعد أن يجمع قواه لقاومة الفاتحين بالقرب من باب النصر فجاهم سليم بهجمة عنيفة في جناحه جعلته يرتد داخل المدينة ، ودار القتال بين المصريين والعمانيين في شوارعها ثم استولى السلطان سليم على القلعة فقبض على « طومان باى » وأمر بشنقه على باب زويلة ودفنت مصر الجزية لآل عثمان .

تلك هي نظرة تاريخية عامة تتصل بالقاهرة في أيام المماليك الجراكسة ، وسنصف الآن ملحق بالمدينة وتطور عمرانها وما استحدث فيها من أخطاط ودور وأسواق ومدارس ، ولا شك أننا ندين إلى المؤرخ المقرئ بتاريخ تلك الفترة من حياة القاهرة . . ومن بعده إلى المؤرخ المصري ابن إياس .

بركة الأزبكية

ومنذ نهاية القرن الخامس عشر إلى القرن التاسع عشر كانت منطقة الأزبكية المحيطة ببركتها من أجمل متنزعات القاهرة ، فقد عني بها الأمير أربك بن ططخ كبير أمراء السلطان قايتباي ، فأزال كيمانها وأعاد حفر البركة وأجرى إليها الماء من الخليج الناصري ، كما أنشأ قصرآ له فعرفت بالأزبكية نسبة إليه . ولما تم عمران المنطقة أنشأها مسجداً كبيراً ألحق به مكتبة نفيسة وأنشأ حوله حماما ووكالة وقياسر للتجارة وقد انتهى من بناء تلك المنشآت حوالي عام ١٤٧٧ ، وكان من نتائج حفر البركة وإقامة رصيف حولها أن رغب سراقا القاهرة في سكنى الأزبكية، فبنوا القصور وغرسوا الحدائق وتبارى الشعراء والأدباء في وصف البركة (١) ، فقال أحدهم: «انها بركة محفوفة بالمفترجات والمناظر تروح إليها النفوس وتقر بها النواظر، فهي بركة أنيقة المنظر صافية الخبر ، أرضها كالمنبر وعرفها كالمسك الأذفر »

ظلت بركة الأزبكية عامرة بالقصور والدور التي يسكنها أعيان مصر ، وألحقوا بها الحدائق وأباحوها للشعب، فكانت فرحة لسكان القاهرة يهرعون إليها في الصيف والربيع ، ينعمون بالنزه حول مياهها والتمتع بمباهجها، وعند جفافها ينعمون بمحضرتها وزهورها وتقام حولها الحفلات، وفي عام ١٧٧٦ شب حريق في أحد الأحياء حول البركة ، أتلّف كثيراً من الدور الكبيرة . غير أن ولاة الأمور حينذاك حتموا سرعة ترميمها فألزموا غير القسادين على التعمير ببيع ما يملكون لمن استطاع التعمير ، وهكذا عمّرت في وقت قصير فلم يحل ميعاد الفيضان الثاني حتى كانت الأزبكية أبهج وأحسن مما كانت عليه (٢) .

أبواب الحارات

بعد أن امتد العمران خارج القاهرة ، وفتحت في أسوارها أبواب جديدة أقيمت على الدروب والحارات أبواب لمنع السرقة ، وكان ذلك نتيجة لتعدد حوادث السرقة في عام ٨٦٤ هـ / ١٤٥٩م ، فاهتم الأغنياء بإقامة

(١) الشيخ شمس الدين محمد بن أبي بكر القادري : غرر الروضة الدكية في وصف محاسن الأزبكية ؟

وانظر : حسن عبدالوهاب : تخطيط القاهرة وتنظيمها منذ نشأتها ص ٤٠ - ٤٢ القاهرة ١٩٥٧

(٢) الجبرتي : عجائب الآثار ج ٢ ص ٢ - ٣

الأبواب على العارات والدروب وعينوا لها البوابين ، فكانت تغلق عقب صلاة العشاء وبعضها كان يعلق عقب الغروب بقليل (١) . وقد ورد ذكر أبواب الدروب والحوخات في عدة حوادث من تاريخ القاهرة نذكر منها على سبيل المثال :

في سنة ٩٠٣ هـ / ١٤٩٧ م أمر والى القاهرة بأن ينادى باسم السلطان بأن سكان الأسواق والعارات يعملون عايداً دروباً ، فامتثلوا لأمره ، وبُنيت بالقاهرة عدة دروب ، منها ماهو على سوق تحت الربع وعلى سوق أحمد بن طولون ، وعلى سوق أمير الجيوش وغير ذلك من الأسواق والعارات ، وذلك بسبب اعتداء اللصوص عليها (٢) وفي سنة ٩٢٢ هـ / ١٥١٦ م أمر الأمير الماس والى الشرطة بالقاهرة بأن يعمر السكان على العارات والأزقة دروباً في أماكن شتى ، فعمروا دروباً في رأس سوق الدريس وفي الحسينية ، وعلى قنطر العاجب وعند المقس (٣) وعدة دروب في أماكن شتى ، وأن يعلقوا على كل دكان قديلاً ، وألا يخرج أحد من الناس من بيته بعد العشاء وذلك اتقاء شر اللصوص وحدوث الحرائق المقتمة .

وحينما كانت تقع اضطرابات كانت تغلق أبواب المدينة وأبواب الدروب والحوخات التي بالعارات (٤) كما حدث في ٢٩ ذى القعدة سنة ٩٢٣ هـ / ١٥١٧ م .

وقد بقيت تلك الأبواب فترة طويلة تؤدي وظيفتها إلى القرن التاسع عشر وحدثنا المؤرخ « الشيخ الجبرتي » عنها كثيراً عند كلامه عن أحداث القاهرة (٥) .

وفي عام ٨٢٤ هـ / ١٤٢١ م منع محتسب القاهرة النساء من النياحة على الأموات ، كما أمر السلطان العورى في شوال سنة ٩١٠ هـ / ١٥٠٤ م بأن ينادى في القاهرة بألا يعمل عزاء بطارات ولا نأحة تنوح على ميت ، ثم أوعز إليه على نأحة عملت عزاء بطارات فقبضوا عليها ولطخوا وجهها بالسواد وعلقوا طاراً في عنقها وأركبوها حماراً وشنعوا عليها في أنحاء القاهرة فأقلع النساء عن تلك التقاليد (٦) .

(١) حسن عبد الوهاب : تخطيط القاهرة وتنظيمها ص ٣٥ — ٣٦

(٢) ابن إياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور ج ٢ ص ٣٣٦

(٣) » » » » » » ج ٣ ص ٣٣

(٤) » » » » » » ج ٣ ص ١٤٢

(٥) الجبرتي : عجائب الآثار ج ٣ ص ٢٩ ، و ٢ و ٠٠

(٦) ابن إياس : ج ٤ ص ٧٦

ومن عونا بطرق القاهرة أثناء حكم الجراكسة الأمير يشبك دوادار الملك الأشرف قايتباي ، فإنه في عام ٨٨٢ هـ / ١٤٧٨م شرع في توسيع الطرق والشوارع والأزقة ، وخاصة الشارع الرئيسي للقاهرة من باب الفتوح إلى باب زويلة وتبييض الدكاكين وواجهات الربوع ، وعهد إلى القاضي فتح الله السوهاجي أحد نواب الشافعية بأن يحكم بهدم ما وضع في الشوارع والأسواق بغير طريق شرعى من أبنية وسقائف ورواشن ومساطب ، واستمر هذا إلى عام ٨٨٣ هـ / ١٤٧٩م حينما أمر بإصلاح وجهات المساجد وطلاء رخامها^(١) ، وكان لتوسيع هذا الطريق الرئيسي وغيره أثر واضح في الكشف عما حجب من واجهات المساجد للطللة على شارع المعز لدين الله .

وقد عين للإشراف على تنفيذ تلك الأعمال ملاحظ للطرق كان يستحث الناس على سرعة إنجاز أعمال الطلاء والبياض ، وكذلك اهتم بتجميل طرق القاهرة السلطان الناصر محمد بن قايتباي ، فقد أمر في سنة ٩٠٤ هـ / ١٤٩٨م بأن ينادى في القاهرة بأن جميع أصحاب الحوانيت التي بالأسواق والشوارع يبيضون واجهاتها ويخرفونها بالدهان ، كما أنه أمر بتبييض وجوه الربوع المطللة على الشوارع^(٢)

أعمال الغورى

من العماير التي أنشأها الغورى في القاهرة المسجد والمدرسة اللتان تحملان اسمه ، والمشذنة التي أقامها في الجامع الأزهر وهي ذات رأسين ، كما أنشأ أيضاً الربع والحوانيت التي كانت بالسوق خلف مسجده ، وبضعة ربوع في خان الخليلي ، كما شيد في باب القنطرة ربعين ودكاكين ، وبني بيتاً لولده في البندقانيين وغالى في زخرفته ، وأنشأ هناك أيضاً رماً ووكالة وأمر بإنشاء الميدان الذي تحت القلعة وجلب إليه الأشجار من الشام ، وأجرى إليه الماء من السواق ، وأنشأ به المناظر والمقعد والمبيت ، وأقام جامعاً خلف الميدان المذكور وجدد معظم عمارة القلعة ، منها الدهيشة وقاعة البيسرية وقاعة الأعمدة وأنشأ المقعد الذي بالحوش ، وجدد أيضاً عمارة المطبخ الذي بالقلعة ، وأنشأ سوقاً للرقيق بالقرب من خان الخليلي ، وجدد عمارة ميدان المهارة الذي كان بالقرب من قناطر السباع ، بناه بالحجر بمد أن كان بالطوب اللبن ، كما جدد عمارة المقياس وبني به قصرآ ومقعداً مطلا على البحر ، وجدد عمارة الجامع الذي هناك وعمارة قنطرة بني وائل والقنطرة الجديدة وقنطرة الحاجب وقنطرة الخروبي وعلاها حتى صارت السفن تمر من تحتها ، وكذلك جدد عمارة قناطر السباع ، وأنشأ بمدينة الطينة على ساحل البحر الأبيض قلعة لطيفة بها أبراج ، كما أصلح طريق العقبة .

وقد قام السلطان الغورى بإنشاء وتجديد كثير من الآثار الإسلامية في مصر وبلاد العرب والشام^(٣) ، فقد شيد في العقبة حصناً منيعاً ، وبني في مكة مارستاناً ورباطاً ، وحفر بئراً جديدة .

(١) ابن إياس : ج ٢ ص ١٧١ - ١٧٧

(٢) » » : ج ١ ص ٣٤٦

(٣) د . محمود رزق سليم : الأشرف قانصوه الغورى . القاهرة ١٩٦٦ .

قاهرة الشرا كسة

كما شاهدها المؤلف الفيلسوف ابن خلدون

١٣٨٢ - ١٤٠٦

حظيت القاهرة بوصول عبد الرحمن بن خلدون إليها في أول ذي القعدة سنة ٧٨٤/نوفمبر ١٣٨٢ ،
فبهرته عظمتها وبهاؤها ، وكما بهرت على مر العصور كل من زارها من أعلام الشرق والمغرب .
لقراً ما كتبه عنها :

«... ولا رحلت من تونس في منتصف شعبان من سنة أربع وثمانين وسبعمائة (١٣٨٢ م) ، أقيمت في
البحر نحواً من أربعين ليلة ، ثم وافينا مرسى الإسكندرية يوم الفطر ، ولمشر ليال من جلوس الملك الظاهر
(برقوق) على التخت ، وأقيمت بالإسكندرية شهراً لتهيئة أسباب الحج ولم يقدر عامئذ ، فانتقلت إلى القاهرة
أول ذي القعدة (٧٨٤) ، فرأيت حاضرة الدنيا ، وبستان العالم ، ومحشر الأمم ، ومدرج الذر من البشر ،
وإيوان الإسلام ، وكرسی الملك ، تلوح القصور والأواوين في جوه ، وتزهر الخوانك والمدارس بأفاهه ،
وتضئ البدور والسكواكب من عليائه ، قدم مثل بشاطيء بحر النيل نهر الجنة ، وموقع مياه السماء يسقيهم
النهل والعلل سيحبه ، ويحجي إليهم الثمرات والحيراث ثجه ، ومررت في سكك المدينة تنص بزحام المارة ،
وأسواقها تزخر بالنعم ، وما زلنا نحدث عن هذا البلد ، وبعد مداه في العمران واتساع الأحوال ، ولقد
اختلفت عبارات من لقيناه من شيوخنا وأصحابنا ، حاجهم وتاجرهم ، بالحديث عنه . وسألت صاحبنا قاضي
الجماعة بفاس ، وكبير العلماء بالمغرب ، أبا عبد الله المقرئ قفلت له :

— كيف هذه القاهرة ؟ فقال : من لم يرها لم يعرف عز الإسلام :

وسألت شيخنا أبا العباس بن أدریس كبير العلماء ببجاية مثل ذلك فقال : كأنما انطلق أهله من
الحساب ، يشير إلى كثرة أمه وأمنهم المواقب .

وخضر صاحبنا قاضي المسكر بفاس ، الفقيه السكاتب أبو القاسم البرجي^(١) بمجلس السلطان أبي عنان ،
بعد تأدية رسالته النبوية إلى الضريح الكريم سنة ست وخمسين وسبعمائة ، وسأله عن القاهرة فقال :

(١) عبد الرحمن بن خلدون (٧٣٢ - ٨٠٨) : التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا .
حققه الأستاذ محمد بن تاويت الطنجي . لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة سنة ١٩٥١ .

— أقول في العبارة عنها على سبيل الإختصار ، ان الذى يتخيله الإنسان ، فأما يراه دون الصورة التى تخيلها ، لاتساع الخيال عن كل محسوس ، إلا القاهرة ، فإنها أوسع من كل ما يتخيل فيها . فأعجب السلطان والحاضرون بذلك .

ولما دخلتها أقيمت أياماً ، وانتال على طلبة العلم بها ، يلتمسون الإفادة مع قلة البضاعة ، ولم يوسعونى عذراً ، فجلست للتدريس بالجامع الأزهر منها .

ثم كان الاتصال بالسلطان ، فأبره اللقاء ، وآنس العربة ، فوفرى الجراية من صدقائه ، شأنه مع أهل العلم ، وانتظرت لحاق أهلى وولدى من تونس ، وقد صدم السلطان هنالك عن السفر ، اغتباطاً بعودى إليه ، فطلبت من السلطان صاحب مصر الشفاعة إليه فى تخليه سيدهم ، فخاطبه فى ذلك فى ١٥ صفر المبارك من سنة ست وثمانين وسبعمائة .

ثم هلك بعض المدرسين بمدرسة القمحية^(١) بمصر ، من وقف سلاح الدين بن أيوب ، فولانى تدريسها مكانه ، وبيننا أنا فى ذلك إذ سخط السلطان على قاضى المالكية « جمال الدين عبد الرحمن بن سليمان ابن خير المالكي » فى دولته لبعض النزعات ، فمزله ، وهو رابع أربعة بعدد المذاهب ، يدعى كحل منهم قاضى القضاة

ويحدثنا ابن خلدون بعد ذلك عما كان من نتائج تقدمه فى حظوة السلطان وفى نيل المناصب سريعاً ، فقد كانت مناصب التدريس والقضاء دائماً مطمع جمهرة الفقهاء والعلماء المحليين ، ولم يكن مما يحسن وقعه لديهم أن يفوز بها الأجانب الوافدون دونهم . وإذا فقد تولى العلامة ابن خلدون منصبه فى جو يشوبه كدر الحصوة والحسد . فلم يمض سوى قليل حتى ظهرت من حوله بوادر الحقد والسعاية . ويقول لنا ابن خلدون فى سبب هذه العاصفة التى ثارت حول توليه القضاء ، كلاماً طويلاً عما كان يسود القضاء المصرى يومئذ من فساد واضطراب ، وعما كان عليه معظم القضاة والمفتين والكتاب والشهود من جهل وفساد فى النعمة^(٢) .

ويقول الأستاذ محمد عبد الله عثمان فى كتابه عن ابن خلدون أن هذا العزل لم يكن إيندانا بسخط السلطان ونقمته ، فقد لبث ابن خلدون فى منصب التدريس بالقمحية ، ولم يمض سوى قليل حتى عينه السلطان أيضاً لتدريس الفقه المالكي بمدرسته الجديدة التى أنشأها فى حى بين القصرين (المدرسة الظاهرية البروقية) . . . ثم اشتغل بالدرس فى المهدين حتى كان موسم الحج عام تسعة وثمانين ، فاعتزم عندئذ أداء الفريضة . وأذن له السلطان وغمره بعطائه وغادر القاهرة فى منتصف شعبان . . . وقصد إلى الحجاز

(١) أنشأها صلاح الدين بجوار تربة الإمام الشافعى .

(٢) محمد عبد الله عثمان : ابن خلدون حياته ، وتراثه الفكرى . القاهرة . ص ٧١ — ٧٢

يطريق البحر ، ثم عاد بعد أداء الفريضة ، بطريق البحر أيضاً حتى القصير ، ثم اخترق الصعيد بطريق النيل ، فوصل القاهرة في جمادى الأولى سنة تسعين (٧٩٠ هـ - ١٣٨٨ م) وقصد السلطان توأ وأخبره بأن دعاه في الأماكن المقدسة ، فتلقاه بالعطف .

ثم خلا كرسى الحديث بمدرسة صرغتمش ، بجوار الجامع الطولوني ، فولاه السلطان إياه بدلاً من تدريس الفقه بالمدرسة السلطانية وجلس للتدريس فيها في المحرم سنة (٧٩١ هـ - ١٣٨٩ م) .

ثم عين ابن خلدون في وظيفة أخرى وهي مشيخة خانقاه بيبرس ، فزادت جراته واتسعت موارده ، ولكن قامت ثورة أطاحت بالسلطان برقوق ، وكان زعيمها الأمير يلبغا الناصري نائب حلب ، الذي أعاد المصالح حاجي السلطان الخاوع إلى العرش ، وقبض على برقوق وأرسله سجيناً إلى الكرك (جمادى الأولى سنة ٧٩١ هـ - ١٣٨٩ م) . ولكن استطاع برقوق بعد مؤامرة أخرى أن يعود إلى القاهرة ظافراً منصوراً ، واسترد عرشه لبضعة أشهر فقط من عزله .

وقد عانى ابن خلدون من جراء هذه الفتنة ، فقدف مناصبه وأرزاقه ، فلما عاد برقوق إلى العرش ردت إليه . ولبت أعواماً ينتطح للبحث والدرس حتى مستهل عام ٧٩٧ هـ - ١٣٩٤ م

ولبت ابن خلدون بعيداً عن منصب القضاء نحو أربعة عشر عاماً ، يجول بينه وبين توليه ذلك الجناح من البلاط الذي كان قد أغرى السلطان بعزله ، فلما ضعف ذلك الحزب ، وانقض رجاله ، رده السلطان إلى منصبه القديم ، وكان ذلك في منتصف رمضان سنة ٨٠١ هـ - مايو عام ١٣٩٨ م على أثر وفاة ناصر الدين التتسي قاضي المالكية ، فاستدعاه السلطان من الفيوم وولاه القضاء للمرة الثانية . ثم توفي السلطان خلفه ابنه الناصر فرج واضطربت الفتن والثورات حيناً . ولما استقر الحال استأذن ابن خلدون في السفر إلى بيت المقدس فأذن له . فسافر وزار أعلامها التاريخية . ثم عاد من رحلته ولحق بركاب السلطان أثر عودته من الشام ودخل معه القاهرة في أواخر رمضان عام ٨٠٢ هـ - ١٤٠٠ م .

وفي المحرم سنة ٨٠٣ هـ - ١٤٠٠ م عزل ابن خلدون من منصب القضاء للمرة الثانية . وكان ذلك نتيجة لسمى من خصوم المؤرخ . ولم يمض وقت طويل على ذلك حتى جاءت الأنباء بأن تيمورلنك قد انقض بجيوشه على الشام واستولى على حلب (ربيع الأول سنة ٨٠٣ هـ - ١٤٠٠ م) . ثم اخترق الشام إلى دمشق . فثارت مصر لهذه الأنباء ، واضطرب البلاط . وهرع الناصر فرج بجيوشه لملاقاة تيمور واصطحب معه القضاة الأربعة وجماعة من الفقهاء والصوفية ومنهم ابن خلدون ، الذي حاول الاعتراض والتخلص ، لولا أن غمره يشبك حاجب السلطان بلين القول وجزيل الإنعام ، وقد أفرد ابن خلدون فصلاً لحوادث هذه الحملة في التعريف ، وقد يكون من أهمها وصفه للمقابلة التي حدثت بينه وبين تيمور والحديث الطويل الذي دار بين الإثنين . وقد انتهز العلامة تلك الفرصة ، فتمرح للماهل الكبير طرفاً من آرائه

ونظرياته الاجتماعية في العصبية والمللك . وقدم ابن خلدون إلى الفأخ هدية هي « مصحف رائع وسجادة أنيقة ونسخة من البردة وأربع علب من حلاوة مصر الفاخرة » ولما قدمها إليه وضع تيمور لنك للمصحف فوق رأسه بعد أن عرف أنه القرآن الكريم ، ثم سأله عن البردة وذاق الحلوى ووزع منها على الحاضرين في مجلسه . . .

ولما سُمَّ ابن خلدون البقاء في دمشق ، ذهب إلى تيمور لنك يستأذنه في العود إلى مصر . فأذن له وطلب إليه في تلك المقابلة أن يقدم إليه بغلة ، إذا استطاع فأهداه المؤرخ إياها ، وبث إليه تيمور منها فيما بعد عقب وصوله إلى مصر . وغادر المؤرخ دمشق في رجب ٨٠٣هـ — ١٤٠١ م . ودممه اللصوص أثناء الطريق فسلبوه ماله ومتاعه ، ولكنه وصل سالمًا إلى القاهرة في أوائل شعبان سنة ٨٠٣هـ / ١٤٠١ م .

ولما استقر ابن خلدون في القاهرة أخذ يسعى للعود إلى منصب القضاء ؛ وكان قد بلغ الرابعة والسبعين يومئذ ، ولكن نفسه الوثابة كانت تتطلع أبدأ إلى النفوذ والجاه بالرغم من دسائس خصومه .

كان قد عين مكانه في قضاء المالكية ، جمال الدين الاقهسي (جمادى الثانية عام ٨٠٣ هـ) فلما عاد المؤرخ عزل هذا القاضي وولى ابن خلدون للمرة الثالثة في أواخر شعبان أو أوائل رمضان ؛ فلبث في منصبه نحو عام يعمل في جو يفيض بالخصومة ، ولكنه لم يحفل كعادته ، واستمر كما كان من القيام بالحق والإعراض عن الأغراض ، فاشتعلت ثانية من حوله الدسائس . وأسفرت الحركة عن عزله مرة أخرى في ١٤ رجب عام ٨٠٤ هـ وولى مكانه جمال الدين البساطي في أواخر رجب ، وكان هذا القاضي ممثل الحزب الذي يناوئ المؤرخ . على أنه لم يمض على ولايته نحو ثلاثة أشهر حتى عزل في أوائل ذى الحجة . وعين ابن خلدون للمرة الرابعة في ١٦ ذى الحجة واستمر في المنصب عاماً وشهرين ، ثم رجعت كفة خصومه فعزل في السابع من ربيع الأول سنة ٨٠٦ هـ ؛ وأعيد البساطي في الشهر نفسه ، ثم عزل في رجب سنة سبع ، وأعيد ابن خلدون للمرة الخامسة في شعبان سنة سبع ، ثم عزل بعد ثلاثة أشهر في ٢٦ ذى القعدة من نفس العام ، وأعيد خصمه القديم جمال الدين الاقهسي فلبث ثلاثة أشهر ، ثم عزل وخلفه جمال الدين التلسي لمدة يومين فقط ، ثم أعيد البساطي في ربيع الأول سنة ٨٠٨ هـ وعزل في شعبان من العام ذاته ، ثم أعيد ابن خلدون للمرة السادسة . فلبث في منصبه بضعة أسابيع فقط . وفي السادس والعشرين من رمضان سنة ثمان وثمانمائة (١٦ مارس ١٤٠٦ م) توفي ابن خلدون ، قاضياً للمالكية ، وقد بلغ الثامنة والسبعين ، ودفن بمقبرة الصوفية خارج باب النصر^(١) وهي يومئذ من مقابر العظماء والعلماء^(٢) .

(١) السخاوى : الضوء اللامع . المجلد الثاني من القسم الثاني — ص ٣٧٠

(٢) محمد عبد الله عنان : ابن خلدون — حياته وتراثه الفكري . ص ٨٩

أم آثار القاهرة في أيام المماليك الجراكسة

(٧٨٤ - ٩٢٣ هـ / ١٣٨٢ - ١٥١٧ م)

التاريخ		اسم الأثر	رقم الأثر
الميلادي	الهجري		
١٣٨٣	٧٨٥	مسجد ايتمش البجاسى بباب الوزير	٢٥٠
٨٦-١٣٨٤	٨٨-٧٨٦	» السلطان برقوق بالنحاسين	١٨٧
٩٣-١٣٩٢	٩٥-٧٩٤	مدرسة اينال اليوسفي بالخيامية	١١٨
١٣٩٥	١٩٧	مسجد الكردى (المدرسة المحمودية) بالخيامية	١١٧
١٣٩٥	٧٩٨	مدرسة مقبل الداودى بالجزاوى	١٧٧
١١-١٤٠٠	١٣-٨٠٣	خاتناه الناصر فرج بن برقوق بالقرافة الشرقية	١٤٩
١٤٠١	٨٠٤	مدرسة الأمير سودون بن زاده بسوق السلاح	١٢٧
١٤٠٨	٨١١	جامع جمال الدين يوسف الاستادار بالجالية	٣٥
١٤٠٨	٨١١	زاوية وسيل فرج بن برقوق بشارع تحت الربع	٢٠٣
١٥٠٥	٩١١-٨١١	مسجد الإمام الليث بقبرة الإمام الشافعى	٢٨٦
١٤١١	٨١٤	مدرسة العيني بشارع الداودارى	١٠٢
١٤١٣	٨١٦	مسجد قايتباى المحمدى بشارع الصليبة	١٥١
٢٠-١٤١٥	٢٣-٨١٨	جامع السلطان المؤيد بشارع السكرية	١٩٠
١٤١٨	٨٢١	مدرسة الأمير عبد الغنى الفخرى بشارع منصور باشا	١٨٤
٢٠-١٤١٨	٢٣-٨٢١	البيارستان المؤيدى بالمحجر	٢٥٧
١٤٢٠	٨٢٣	حمام السلطان المؤيد	٤١٠
١٤٢٠	٨٢٣	مدرسة القاضي عبد الباسط بالخرنقش	٦٠
١٤٢٥	٨٢٩	المدرسة الأشرفية بالأشرفية	١٧٥
٢٧-١٤٢٦	٨٣٠	مسجد جاني بك بالمغربلين	١١٩
١٤٢٧	قبل ٨٣١	قبة جاني بك الأشرفى بالقرافة الشرقية	١٢٢
١٤٣٠	٨٣٣	مسجد جوهر اللالا بدرب اللبان	١٣٤
١٤٣٠	حوالى ٨٣٤	» السويدى بعصر القديعة	٣١٨
١٤٣٢	٨٢٥	خاتناه ومسجد السلطان رساى بالقرافة الشرقية	١٢١
١٤٤٠	٠٤٤	مدرسة تغرى بردى بالصليبة	٢٠٩
٤٢-١٤٤١	٨٤٥	منارة قايتباى الجركسى بالمنشية	١٥٤
٤٢-١٤٤١	٨٤٥	مسجد قراقبا الحسنى بدرب الجامين	٢٠٦

التاريخ		اسم الأثر	رقم الأثر
الميلادي	الهجري		
١٤٤٢	٨٤٦	سبيل الوفائية	٥٥٧
١٤٤٤	٨٤٨	جامع القاضي يحيى زين الدين بين التهدين	١٨٢
١٤٤٦	حوالى ٨٥٠	مسجد الجمالى يوسف بالحزاوى	١٧٨
١٤٤٨-٤٩	٨٥٢-٥٣	» القاضي يحيى بيولاك	٣٤٤
١٤٤٩	٨٥٣	» لاجين السيفى بشارع مراسينا	٢١٧
١٤٥١	٨٥٥	مدرسة جقمق بدرب سعادة	١٨٠
١٤٥١-٥٦	٨٥٥-٦٠	قبة وخانقاه ومدرسة السلطان الأشرف إينال بالقرافة الشرقية	١٥٨
١٤٥٢	٨٥٦	مسجد يحيى زين الدين بالحليانية	٢٠٤
١٤٥٦	حوالى ٨٦٠	قبة برسباى الجاسى بالقرافة الشرقية	١٢٤
١٤٥٦	حوالى ٨٦٠	رباط زوجة السلطان اينال بالخرنفش	٦١
١٤٥٦	٨٦١	حمام اينال .	٥٦٢
١٤٦٠	حوالى ٨٦٥	جامع ابن برد بك بأبى الغلام	٢٥
١٤٦٠	حوالى ٨٦٥	قبة عمر بن الفارض	٦٠١
١٤٦٥	٨٦٩	مدفن جاني بك (نائب جده) بشارع القادرية	١٧١
١٤٦٦	حوالى ٨٧١	قبة عبد الله الكرورى	٢٨٠
١٤٦٦	٨٧١	مسجد ومنازة مغلباى طاز بحارة بنت العمار	٢٠٧
١٤٦٨	قبل ٨٧٣	منزل زينب خاتون بحارة الدوادر	٧٧
» »	قبل ٨٧٣	قبة سودون القصرى بالباطنية	١٠٥
١٤٦٩	٨٧٣	باب قايتباى والمنارة بالجامع الأزهر	٩٧
١٤٧٢	٨٧٦	مسجد ومسبيل تميز الأحمدي	٢١٦
١٤٧٢-٧٤	٨٧٧-٧٩	مسجد وضريح السلطان قايتباى بالقرافة الشرقية	٩٩
١٤٧٤	»	حوض » » » »	١٨٣
»	٨٧٩	مقعد » » » »	١٠١
١٤٧٤-٧٥	حوالى ٨٧٩	قبة الكلشنى بالقرافة الشرقية	١٠٠
١٤٧٤	٨٧٩	ربع قايتباى » »	١٠٤
١٤٧٤	٨٧٩	سبيل »	٤١٢
١٤٧٥	٨٨٠	حوض السلطان قايتباى بقلعة الكيش	٢٢٢
١٤٧٥	٨٨٠	مدرسة قايتباى » »	٢٢٣
١٤٧٧	٨٨١	سبيل وكتاب السلطان قايتباى بالأزهر	٧٦
١٤٧٧	٨٨٢	وكالة السلطان قايتباى بالأزهر	٧٥
١٤٧٨-١٥١٠	٨٨٣-٩١٦	مدرسة وقبة جاني البهلوان بالسروجية	١٢٩
١٤٧٩-٨٠	٨٨٤	» أبو بكر مزهر خان مرجوش	٤٩
١٤٧٩	٨٨٤	سبيل السلطان قايتباى بالصليية	٢٣٤
١٤٨٠-٨١	٨٨٥	وكالة السلطان الأشرف قايتباى باب النصر	

أهم آثار القاهرة في أيام المالك الجراكسة

١٩١

التاريخ		اسم الأثر	رقم الأثر
الهجرى	الميلادى		
٨٦-٨٨٤	١٤٧٩-٨١	قبة الفداوية بالعباسية	•
٨٦-٨٨٥	١٤٨٠-٨١	مسجد و حوض قجاس الاسحاقى بالدرب الأحمر	١١٤
٩٦-٨٨٦	١٤٨١-٩٠	» قايتباى	٥١٩
٨٩٠	١٤٨٥	منزل قايتباى بجارة الماردانى	٢٢٨
حوالى ٨٩٠	١٤٨٥	مسجد السلطان أبى العلاء	٣٤٠
٨٩٩	١٤٩٤	باب قايتباى بالسيدة عائشة (المنشية)	٢٧٨
القرن التاسع	القرن الخامس عشر	باب قايتباى بسويقة العزى	٢٣٥
نهاية » »	أواخر » » »	قبة ازدمر بالقرافة الشرقية	٩٠
٩٠٠	١٤٩٤-٩٥	مدرسة الأمير أربك اليوسفى بشارع أربك	٢١١
قبل ٩٠١	قبل ١٤٩٦	حوض السلطان قايتباى بالأزهر	٧٤
» ٩٠٤	١٤٩٦	مسجد السلطان شاه بغيظ العدة	٢٢٩
٩٠١	١٤٩٦	مقعد الأمير مامى بالنحاسين	٥١
٩٠١	١٤٩٥-٩٦	قبة يعقوب شاه المهمندار بسفح المقطم	٣٠٣
٩٠٤	١٤٩٩	قبة قانصوه أبوسعيد	٣٦٠
٩٠٤	١٤٩٩	» السلطان قانصوه أبوسعيد	١٦٤
٩٠٦	١٥٠١	» طوما نباى بالعباسية	٢
٩٠٨	١٥٠٢	مسجد خير بك بشارع التبانة	٢٤٨
٩٠٨	١٥٠٣	مدرسة قايتباى أمير أخور بالمنشية	١٢٦
٩٠٩-١٠	١٥٠٣-٤	منزل ومقعدوقبة وسيل وكتاب قانصوه الغورى بالغورية	٦٧ و ٦٦
٩٠٩	١٥٠٤	مسجد السلطان قانصوه الغورى بالمنشية	١٤٨
٩٠٩-١٠	١٥٠٤-٥	مدرسة السلطان الغورى بالغورية	١٨٩
٩٠٩-١٠	١٥٠٤-٥	وكالة قانصوه الغورى بشارع التبليطة	٦٤
حوالى ٩١٠	١٥٠٤	قبة الأمير سودون	٢٩٤
٩١١	١٥٠٦	مسجد قايتباى الرماح بالناصرية	٢٥٤
٩١١-١٣	١٥٠٦-٧	مسجد الأمير قرقاش (أمير كبير) بالقرافة الشرقية	١٦٢
٩١٢	١٥٠٦	جامع الدشطوطى بباب الشعرية	١٢
٩١٢-١٤	١٥٠٦-٨	قناطر المياه (عصر الغورى) بغم الخليج	٧٨
٩٠٦-٢٢	١٥٠١-١٦	بقايا قصر الغورى بالصليبة	٣٢٢
٩١٧	١٥١١	باب خان الخليلى بخان الخليلى .	٥٤
٩١٧	١٥١١	» » » » »	٥٦
٩١٧	١٥١١	قبة قرقاش بشارع باب الفتوح	١٧٠
أول القرن العاشر	أول القرن السادس عشر	خان الزرا كشة	٢٥١
أوائل القرن العاشر	القرن السادس عشر	وكالة الجلاية	٤٢٥

الفصل السابع

القاهرة في أيام العثمانيين

من ١٥١٧ إلى ١٨٠٠

نسكى على مصر وسكانها قد خربت أركانها العامرة
وأصبحت بالدل مقهورة من بعد ما كانت هي القاهرة

« بدر الدين الزيتوني »

الأتراك في مصر

لعل تاريخ مصر الإسلامي لا يشمل عصرًا غامضاً كالعصر الذي كانت فيه البلاد ولاية عثمانية بحثة
يحكمها ولاية يرسلهم السلطان العثماني من قبله ، ذلك العصر الذي يبدأ باستيلاء السلطان سليم على مصر عام
١٥١٧ وينتهي بقيام الدولة المصرية الحديثة سنة ١٨٠٥ .

فالصادر التاريخية عن هذا العصر ليست وافرة ، وإن يكن بمض الأدباء المصريين وكتاب الإفرنج قد
دونوا حوادثه ، فإن المؤرخ لا يسمه إلا ملاحظة ما في كتاباتهم من نقص وغموض .

استقر السلطان سليم في مصر ثمانية أشهر إلا أياماً قللاً ، قضى أ كثرها بحى المقياس بالروضة ، ولم
يجلس على سرير الملك بالقلمة ، كما كان يفعل سلاطين الماليك .

وفي يوم الخميس الموافق الثالث والعشرين من شعبان (٩٢٣ هـ / ١٥١٧ م) خرج السلطان سليم من بيت
ابن السلطان قايتباى الذي كان خلف حمام الفارقانى ، واخترق الصليية وصعد إلى الرميلة وخرج من القلمة
بعوكب عظيم يسبقه ملك الأمراء خير بك نائب حلب ، وجان بردى الغزالى نائب الشام وأمام الحرس السلطاني
فرقة موسيقية . وكان السلطان يمتطى ظهر بغلة صفراء عالية ، قيل إنها من بغال السلطان الغورى . وكان
معه فى الموكب يونس باشا والدقتردار وبقية الوزراء والأمراء وأعيان البلاد . وصل الموكب إلى الصوة
فمقبرة الأشرف قايتباى حيث وقف السلطان لقراءة سورة الفاتحة ، واستمر فى سيره حتى وصل إلى وطاق.

(خيمة) بركة الحاج . ولا ندرى لماذا لم يمتشق الموكب السلطانى قلب القاهرة ، وفضل السلطان السير في خارجها وعلى حين فجأة .

بعد ذلك سار الموكب إلى الخانقاه فنزل للاستراحة ، وقيل أن السلطان سليم خرج من مصر وصحبه ألف رجل محملة ذهباً وفضة وتحفاً وسلاحاً وأواني من الخبز والصيني والنحاس ... الخ .

وغادر السلطان سليم عاصمة الديار المصرية دون أن يترك فيها أثراً قائماً يكون تذكراً لفتح مصر أو كقارة عما تركته جيوشه فيها من آثار الحراب والدمار وما سلبها إياه من تحف وصناع وفنانين كان لهم بعد ذلك فضل كبير في إزدهار صناعات عديدة في الامبراطورية العثمانية .

ومهما يكن من شيء فقد كتب المؤرخ المصرى محمد بن أحمد بن إياس في كتابه « بدائع الزهور في وقائع الدهور » فوصف فيه حوادث السنين الأولى للفتح العثمانى حتى سنة ١٥٢٢ م . وألف ابن أبى الفضائل كتابه « تاريخ سلاطين المليك » . كما أن كتاب « عجائب الآثار » للجبرتي مصدر أساسى لتاريخ مصر قبيل الفتح الفرنسى وفي خلاله . ومن المحتمل أن تكون في اللغة التركية كتب صنفها مؤرخو العثمانيين لذلك العصر باللغة التركية عن حكم ولاتهم الدين أوفدهم الخليفة ليحكموا مصر .

وقد زار مصر كثير من الرحالة في عهد العثمانيين ووصفوا أحوالها وآثارها وعادات سكانها في مؤلفاتهم . وفي مقدمة هؤلاء الحسن بن محمد الوزان ، وأوليا جلبي والدكتور القس « ريشارد بوكوك » الذى زار مصر عام ١٧٣٧ م وكتب مؤلفه الضخم « وصف الشرق وبلاد أخرى » وفي نفس ذلك الوقت زار مصر « فرديريك نوردون » الضابط بالبحرية الدنماركية ، وكتب عنها كتاباً ليست له قيمة من الناحية التاريخية . كذلك كتب « دى ماييه » فحصل فرنساً في مصر عام ١٦٩٢ كتاباً نفيساً عن أحوال مصر في أواخر القرن السابع عشر وأول القرن الثامن عشر .

* * *

استولى السلطان سليم على مصر وشرع في تأييد سلطته على البلاد فجعل عليها حاكماً يلقب بالباشا وخشى أن يخرج الباشا على الأستانة ويستقل بمصر ، فاهتدى إلى طريقة تضمن له بقاء البلاد تحت سيطرته . فجعل في مصر ثلاث إدارات كل منها تراقب أعمال الآخرين فلا يخشى من اتحادها وتمرداها . فالقوة الأولى « الباشا » وأهم واجباته إبلاغ الأوامر السلطانية لرجال الحكومة وللشعب ومراقبة تنفيذها ، وكان عليه أن لا يغادر القلمة بأي حال من الأحوال ، والقوة الثانية « الوجاقات الستة » وواجباتها حفظ النظام في القطر المصرى والدفاع عنه وجباية الجراج ، وقد وزع هذه الوجاقات في القاهرة وفي المراكز الرئيسية من القطر ، وكان عددها ستة آلاف خيال وستة آلاف من المشاة .

وكان كل وجاق تحت قيادة « أغا » ينوب عنه في الأستانة ضابط برتبة « سكبان باشى » وهى رتبة

تعاود « العقيد » اليوم .

أما القوة الثالثة فهى المماليك وهم بقايا المماليك البحرية والجراكسة، وواجههم حفظ الموازنة بين الباشا والوجقات لأنهم أعداء لكلا الفريقين ينتصرون للفريق الأضعف ليمنعوا القوى من الاستبداد . وكانت سناجق القطر المصرى وعددها إثنا عشر يحكمها البكوات المنتخبون من أمراء المماليك .

ولقد ظل هؤلاء الأمراء أحساب القوة الفعلية فى البلاد ، وإن كان السلطان هو الذى يعين الباشا ، فقد كان ميسوراً لهم الاتفاق على عزله بما يدبرونه ضده من المؤامرات وبغير ذلك من الوسائل . ومهما يكن من شيء فقد كان الباشا يصل إلى مصر تحف به حاشية مؤلفة من اثني عشر شخصاً فينثر أكياس الذهب يمنة ويسرة فى الأعياد والحفلات ، ولكن ذلك لم يمنع ثورات الجند مما أدى إلى زيادة نفوذ المماليك حتى أصبحوا لا يتقصرهم إلا لقب السلطنة الذى استبدلوه بلقب « شيخ البلد » .

كان كلما تقلص نفوذ الباب العالى قل نفوذ ولاته فى مصر، فيزيد نفوذ البكوات المماليك الذين شيخوا القصور العظيمة على حافة بركة الأزبكية أو بركة النيل وفى الصليبية وفى سوق السلاح . وسكن بالقرب منهم أتباعهم المسلحون الذين كانوا يهجمون على أحياء منافسيهم بإشارة من مولاهم فيسرقونها وينهبونها ويقتلون فى الشوارع ويتقاذفون الرصاص من النوافذ والمشريات . وزاد الطين بلة ذلك العنصر المشاكس الذى تألف من أفراد الأورطيين التركيين أورطة العزب وأورطة الانكشارية ومقرها ثكنات القلعة . وكان قائد الأورطيين من أقوى الأمراء أعواناً ونفوذاً فى القطر ، ولم تختلف أخلاقهما كثيراً عن أخلاق المماليك الأول .

إذن كانت مصر فى عصر العثمانيين لا تزال يحكمها المماليك ولا سيما أن ولاتها الباشوات كانوا دائماً يستبدلون بأوامر الباب العالى . وكانوا يخافون نفوذ زعماء رجال حاميتهم ويخشون بأس بكوات المماليك الأقوياء الذين كانوا يضمون صفوف بعضهم إلى بعض ويكونون شبه إئتلاف فيما بينهم كالقاسمية والفقارية وكانوا ينتهزون الفرص أحياناً للتمارك فى الطرقات أو محاصرة جنود أورطة العزب .

وقد تلبه رجالهم إلى إمكان الاستيلاء على القلعة إذا احتلوا التل الحلفى الذى يشرف عليها . وكثيراً ما تقرأ فى تاريخ الجبرتي أخبار الجنود الذين احتموا فى مساجد ابن طولون والماس والحمودية . الح وأطلقوا كرات المدافع من المآذن المجاورة . وقد وصل العسف والاستبداد إلى حد لا يمكن وصفه، فقد كانت الطرقات تقفر أياماً من المارة . والبيوت يهجم عليها لتنهب ، ولم يكن يجسر إنسان على الذهاب إلى بولاق ومصر القديمة . فإذا مضت تلك الفترة المفزعة أعقبتها فترة أخرى سادتها السكينة وشمها الهدوء ، لماذا ؟ لأن أميراً توريا تغلب على منافسيه فتخلص منهم واستطاع أن يعيد إلى البلاد طمأنينتها . ومن الصعب جداً أن نعتز على أمير من أمراء هذه الطبقة لى تقارنه بأحد أمراء المماليك السابقين الذين جلسوا على عرش دولة قوية . عرش مصر القوية المستقلة الغنية المتحضرة .

الحسن بن محمد الوزان الفاسي

(ليون الأفريقي) في القاهرة

زار مصر في الفترة الأولى للفتح العثماني الرحالة المغربي الحسن بن محمد الوزان (١٤٩٤ - ١٥٥٢) فقدم لنا وصفاً طيباً للقاهرة ، وقد اشتهر الحسن باسم ليون الأفريقي بعد أن وقع في قبضة القرصان الفرنج فأخذوه إلى رومه ثم قيل عنه أنه اعتنق النصرانية بعد انصالة بالبابا ليو العاشر الذي شجعه على الدراسة والبحث . وقد عاش سنين طويلة في رومه وزار في خلالها عدة مدن إيطالية ، ولما مات البابا ، عاد إلى تونس واتخذها مقاماً له حتى وفاته . وكان قد ألف كتابه القيم عن رحلاته التي قام بها في أنحاء أفريقيا ومنها زيارته إلى مصر^(١) ويعتبر هذا الكتاب الذي ترجم إلى عدة لغات من أهم مراجع الباحثين عن السودان المغرب في القرنين السابع عشر والثامن عشر .

وصف القاهرة

تناول الحسن في رحلته وصف مصر بإفاضة ، ولا سيما القاهرة . وبدأ كلامه بوصف موقع مصر وحدودها وطبيعة أرضها . وتكلم بصفة عامة عن شعبها وما قيل من أصوله ، ثم تحدث عن أهم المدن المصرية وجوها وقيضان نيلها .

وصف « بوصير » أول بلدة نزل فيها ، وهي مدينة قديمة تقع على بعد عشرين ميلاً غربى الإسكندرية وكان لها في قديم الزمان سور منيع ، كما كانت تحتوي على عدة مبان جميلة الطراز ، ثم وصف الإسكندرية وأطنب في ماضيها ومدارسها ، ويمتاز حديثه عن القاهرة بالإصالة والدقة ، قال عنها أنها أعظم وأشهر مدن العالم تقع على سهل يمتد من جبل المقطم وعلى بعد حوالي ميلين من نهر النيل ، وتحيطها أسوار ضخمة تكتنفها أبواب من الحديد ، أهمها باب النصر وباب الفتوح وباب زويلة ، وتند أقيمت على جانبيها القصور والدور الكبيرة ، والمدارس والمساجد الشاهقة ، ومن أروعها مسجد الحاكم بأمر الله . وذكر الحسن شارع بين القصرين ووصف حوانيت بائعي المشروبات المحلاة بالسكر ، وأتى على ذكر مدرسة السلطان العورى

The History and Description of Africa. John Pary. Hakluyt Society -1896 (١)

أنظر أيضاً الترجمة الفرنسية .

A.Épaulard : Description de L'Afrique. Paris 1956.

التي كان قد انتهى بناؤها قبيل وصول الرحالة بمدة أعوام . ومر بجوانيت بائعي القماش حيث كانت تباع أنواع من نسيج الموصل وبلبيك ، ووصف مارستان قلاوون وعرج على حى زويلة ، وكان يقطنه حوالى اثنى عشر ألف أسرة ، وهو يبدأ من باب زويلة ويمتد ما يقرب ميلا ونصف إلى جهة الغرب . وعلى مسافة ميل تقريباً في اتجاه الجنوب الغربى يقع حى اللوق ويسكنه بعض العطاء والأعيان . وتقوم مدرسة السلطان حسن وهي عمارة رائعة بالقرب من قلعة المدينة وكان الثوار يلجأون إليها يمتنعون فيها ويرمون مقذوفاتهم على جنود السلطان ويقاومون رجاله حتى يستسلم أحد الطرفين .

أما ضاحية ابن طولون فتقع في شرقي القاهرة وكان هذا الحى فيما مضى وقبل إنشاء القاهرة عاصمة البلاد المصرية ، وقد شيد عليه ابن طولون قصرأ كبيراً ومسجداً ضخماً ، ويزخر هذا الحى بجوانيت التجار وأصحاب الحرف وأكثرهم من المغاربة .

وبحى اللوق يقع مسجد ومدرسة الأمير أربك^(١) وكان من مستشارى أحد السلاطين المماليك ، وقد أطلق على الحى اسم هذا الأمير فصار يعرف باسم الأربكية . وكان الحى أهم موقع بالمدينة يقصده الناس للترفيه عن أنفسهم حيث انتشر اللاعبون والحواة ومدربو الحيوان على تأدية الحركات الضحكة لتسلية الناس ، وحيث اقترش الأرض كثير من « للنجمين » الذين يكشفون الطوالع بواسطة الطير ، وكان على من يرغب أن يقرأ أحدهم له طالمه أن يعطى الطير ما قيمته مليمين ، فيلتقطه الطائر عنقاره ، وبعد أن يودع المبلغ في صندوق صغير ، يلتقط ورقة كتب فيها الطالع ، وقد أراد الحسن أن يعرف طالمه فكان نحساً . وقد اجتمع في واحد من ميادين الحى اللاعبون بأنواع السلاح والنعنون والمنشدون ، ينشدون الأغاني الحماسية عن المارك الدموية التي كانت بين العرب والمصريين .

وذكر الحسن شيئاً عن ضاحية بولاق المطللة على النيل وقال عنها أنها ملتقى تجار القمح والزيت والسكر تزخر بالمساجد والدور والمدارس ، يشاهد بالقرب من ساحلها السفن الشراعية محملة بالمروض وتفرغ بعضها حمولتها وأحياناً يتجمع منها ما لا يقل عن ألف سفينة ، وكان يردحم الثغر بموظفى المكس الذين يقدرون المبالغ التي ينبغي أن تجبى من التجار لحزينة السلطان . وفي القرافة شيدت المباني العديدة والأضرحة والدور وهي تبدو مدينة كبيرة تقع على سفح المقطم وتمتد ما يقرب من الميلىن إلى الشمال ، وقد يصل عدد مبانيها إلى الألفين ، وأكثرها في حالة خربة ، ويقصدها الناس في أيام الجمع لزيارة أضرحة الأولياء الصالحين ، وهم يحملون سلال الطعام لتوزيعها على الفقراء ، وقد تكلم الحسن على كثير من آثار القاهرة ومنها ضريح السيدة نفيسة ومقياس النيل .. الخ . كما ذكر طرائف عن أزياء أهل المدينة رجلا ونساء ، وعن الحرية التي يتمتع بها نساء المدينة . ثم تحدث عن زينتها وأسلوب تجملها . . وانتقل

(١) هو جامع الأمير أربك اليوسفى وكان من رجال دولة الأشرف جنبلط .

إلى وصف طعام أهل القاهرة ، وتكلم الرحالة عن الطوائف الدينية وأصحاب المذاهب المختلفة ، كما أمدنا بثبت المناصب الرئيسية في الحكومة بعد القضاء على دولة السلاطين المماليك في أعقاب دخول سليم الأول إلى مصر (١٥١٧م) ووصف إدارة الحكومة في أيام المماليك الباشوات - الدوادار والأمير الكبير ونائب السلطان والأستادار والحازندار وأمير السلاح ، ثم تكلم عن القوات المسلحة وعن أعمال المحتسب وأمير الحج . الخ وذكر الحسن أشياء كثيرة عن مدينة الجيزة وحى كنيسة المعلقة ، والحانقاه ، وبنى سويف والنيا والقيوم ومنفلوط وأسيوط وأخميم ، كما تكلم عن أهم أديرة الصحراء ، ثم مر بإسنا وأسوان قبل أن يرحل إلى القصر في طريقه إلى مكة ، ثم ركب البحر قاصداً مكة المكرمة .

القاهرة كما شاهدها العياشي

ليس في رحلة عبد الله بن محمد بن أبي بكر العياشي^(١) الذي زار القاهرة سنة ١٠٧٢ هـ (١٦٦١-٦٢م) ، شيء أصيل ، وقد ذكر أنه دخل القاهرة ضحى ، ولم يجد داراً ينزل بها قرب الأزهر ، فاكتفى داراً بعيدة عن الأزهر بمحل البردكية ، وأنه وجد الوباء في القاهرة إلا أنه ضعيف ، وقد نمت الأزهر بأنه « عديم النظر في مساجد الدنيا بأجمعها ، حاشا المساجد الثلاثة .. » .

تحدث عن زيارته لشيخه إبراهيم اليموني ، فقال : « ثم دخلنا لزيارة شيخنا الشيخ إبراهيم اليموني ، ومنزله قرب الجامع ، وقدم لنا طعاماً حسناً ، وكنا جماعة . وهذا خلاف المعتاد من أهل مصر . وإنما يتكلمون بشراب البن الذي يسمونه القهوة . ونحن لا نعرفها ، وليست عندنا بطعام ولا دواء ولا شهوة » .

ومما ذكره في وصف مارآه خارج القلعة ، قال : « وهناك خلق من المصريين يلعبون في سائر الأيام كأنواع المشعوذين وأصحاب القروود ، ومن ضاهمهم من أصحاب اللعب بأنواع الحيوانات كالذب والحجير والتيوس والكلاب » ، ثم يعقب فيقول : « وبالجملة فأهل مصر لهم ذكاء زايد ، وحيل غريبة ، قد سخرت لهم أنواع الحيوانات ، فقليل من أصناف الحيوانات مالا يوجد عندهم مسخراً^(٢) .

* * *

(١) نسبة إلى عياش إحدى قبائل البربر ، وقد توفي عام ١٠٩٠ هـ (١٦٧٩م) . راجع الأعلام للزركلي ج ٤ ص ٢٧٣ .

(٢) الرحلة العياشية : ص ١٢٥ ، ١٢٩ ، ١٣٢ ، ١٥٥ ، (طبعة حجرية بفاس عام ١٣١٦ هـ) .

خير بك

كان « خير بك » أول الولاة الذين ولاهم السلطان سليم على مصر ، وكان من كبار رجال قانصوه العورى ، انضم إلى الأتراك في الشام ، وكان يشغل منصب نائب حلب . وعده السلطان سليم بأن يوليه ولاية مصر جزاء له على معاونته في فتحها وقد بر السلطان بوعدده .

ففي يوم الأحد الموافق السادس والعشرين من شهر شعبان صعد الخائن خير بك إلى قلعة الجبل بموكب عظيم وأمامه بعض رجال العثمانيين ، فاخترق الصليبة في الفجر وأقام بالقلعة ورجب في إصلاحها ليعيد إليها شيئاً من مجدها القديم ، فأرسل في طلب البنائين والنجارين والمبطين ليرموا ما أفسده العثمانيون فيها ، ثم أسند خير بك ولاية القاهرة لرجل تركي كان مملوكاً له اسمه كمشبغا ، كما أسند عدة وظائف لبعض رجاله المخلصين ، أما يونس باشا الذي عينه السلطان سليم نائباً عنه في مصر وكان أعظم وزرائه فقد قتله وتخلص منه .

وفي يوم من الأيام أشيع عقد قران « خير بك » على « خوند مصر » زوجة الظاهر قانصوه . وقد تحققت تلك الأشاعة لما طلعت إلى القلعة قبل شروق الشمس وفي صحبتها جماعة من نساء الأعيان راكبات الحمار . ولكن بعد مضي خمس سنوات على زواجها غضب عليها « خير بك » وأنزلها من القلعة وأمرها بأن تسكن في مدرسته القاعة بباب الوزير ورتب لها في آخر كل شهر ما يكفيها من النفقة . وقيل أن سبب ذلك قدوم زوجته الأولى من الآستانة . وبعد شهر وصلت زوجته فصعدت إلى القلعة ليلاً في محفة على ضوء للشاعل .

كان أهم حوادث القاهرة في أول ولاية خير بك تفاقم أذى العثمانيين للقاهريين ، ومن سيئات أعمالهم سطوهم على حى الأربكية ونزعهم الأبواب والسقوف والشبايك الحديدية ، فكانوا يحملونها على الجمال لبيعها في الأسواق بأبخس الأثمان ، كذلك كانوا ينزعون أخشاب طباق القلعة لاستخدامها في النار المعدة لطهى طعامهم . ولما زاد الأمر تدخل قاضى القضاة واتصل بخير بك فعمل على تهدئة الأحوال وإن لم يكن قد نجح في الوصول إلى ذلك دفعة واحدة ، فأخذ الأمن يستتب شيئاً فشيئاً ، وساعد على ذلك رحيل عدد عظيم من الجنود الانكشارية والدلاة الذين كانوا يصون الأوامر جهاراً ويرتكبون كل محرم علناً وجهاً ، ومالبت أن تخلص خير بك من جزء كبير من الجنود العثمانية .

في أواخر شهر ذى القعدة عام ١٥٢٠ / ١٥٢٠م وصل إلى مصر رسول من الآستانة يحمل نبأ وفاة السلطان سليم وتولية ابنه السلطان سليمان ، فأمر خير بك في اليوم التالى بأن يطوف في القاهرة أربعة من حملة المشاعل ، ينادى اثنان منهما باللغة التركية العباسية الآتية : « ترحموا على الملك المظفر سليم شاه وادعوا بالنصر للملك المظفر سليمان » . .

وفي اليوم التالي وكان يوم الجمعة أمر خير بك بالصلاة على السلطان صلاة الغائب بجامع القلعة وفي سائر جوامع القاهرة والدعاء للسلطان سليمان على المنابر في ذلك اليوم ، ثم أقيمت معالم الزينة في القاهرة ثلاثة أيام لمناسبة ارتقاء السلطان الجديد عرش الدولة العثمانية ، فارتدت الدولة ثياب الفرح ، لاسيما خان الخليلي إذ قام تجاره بتزيينه زينة فاخرة وصار إلى القاهرة الأمير على السكخيا يطوف يوماً عدة مرات يحث الناس على الاكثار من معالم الزينة .

زينت مصر وأضحت بعد حزن في تهان

ممن غدت بعد سليم لسليمان الزمان

وفي يوم الأحد (٢٤ ذى القعدة ٩٣٨ هـ / ١٥٢٢ م) مات خير بك ونمي بالقلعة بعد الظهر وبات تلك الليلة فيها . وفي اليوم التالي غسلت جثته وكفنت وحمل الناس نعشه وصلوا عليه ثم نزلوا به من سلم للدرج وسار في جنازته الجنود العثمانيون وأمرء الجراكسة والقضاة الأربعة الذين التقوا بالوكب عند مدرسة ايتمش بقرب باب الوزير وانتهوا به إلى مدرسته التي أنشأها فدفن مع إخوته . وكانت مدة ولايته على مصر خمس سنين وثلاثة أشهر وسبعة عشر يوماً وخلف أموالاً تقدر بستائة ألف دينار ذهب .

تولى الأمير سنان بك ولاية القاهرة بصفة مؤقتة حتى وصل الوالي الجديد من الأستانة وهو الوزير مصطفى باشا . هبط بولاق وكان في استقباله الأمير سنان المذكور والأمير خير الدين نائب القلعة وبعض الأمراء ، فارتدى خلمة السلطان وامتطى ظهر فرس من الجياد الخاصة وسار موكبه إلى باب البحر ، واستمر إلى باب القنطرة وشق سوق مرجوش مخترقاً القاهرة ، وكان الأمير سنان عن يمينه والأمير جانم الخزاوي عن يساره ، ترتفع له أصوات الدعاء كما تنطلق زغاريد النساء وكان يوماً مشهوداً . ثم وصل الموكب إلى الرملة ودخل إلى الميدان ثم صعد إلى القلعة وتسلم مفاتيح بيت المال .

لم يدم مصطفى باشا في منصبه هذا أكثر من تسعة أشهر وخمسة وعشرين يوماً ، ثم أبدل بأحمد باشا الذي قطعت رأسه وعلق جسده على باب زويلة . ثم أرسل السلطان قاسم باشا ، فإبراهيم باشا ، فسليمان باشا . وكان السلطان راضياً عن هذا الأخير واثماً منه فأبقاه في الولاية تسع سنوات وأحد عشر شهراً حتى استدعاه إلى الأستانة ليسلمه قيادة حملة أعدها لمحاربة فارس والهند . وقد شيد في أثناء حكمه بنايات كثيرة من جملة جامع سارية بالقلعة ، وكان يعرف بجامع سليمان باشا ، وكان أول جامع شيد في مصر على الطراز العثماني .

وقد جاء وصف مدينة القاهرة في عام ١٥٢٦ م في مؤلف الألماني نشر نحو سنة ١٥٧٤ جاء فيه : ان القاهرة مدينة مصر الكبيرة هي التي نسميها كيروس ، ويدعوها العرب بمصر أو مصر ، واقعة في قطعة حسنة مناسبة أي حيث يتبدى الليل بالفرع إلى فروع عديدة فهي شبه سدلليند .

وللمدينة ضوايح كبيرة جداً يحتوى بعضها على ثلاثة آلاف منزل والبعض الآخر على إثني عشر ألف منزل ويقال أن « السكاير » القاهرة تحتوى على نحو ثلاثين ألف منزل وعلى دور كبرى غيرها وللكثيرين من أهلها مساكن كبيرة جداً وفيها قصور وهياكل ضخمة عديدة تدعى (جيوما) جوامع وكثير من المستشفيات والمدارس والحمامات التي يستخدمونها لتقديم الضحايا وفقاً لعاداتهم (١) ووجد في المدينة عدد لا يحصى من المحاكم والمواخير ، وفيها أيضاً مبان كبيرة يجعل منها الوجهاء مدافنهم (أضرحة) ويظن حكام القاهرة الظالمون أنهم يستطيعون أن يكفروا عن ذنوبهم السيئة ببناء بيوت عظيمة قرب أضرحتهم ووقف مبالغ عظيمة عليها للفقراء والحجاج والطلبة والزهاد والنسك .

وقد وجدت الفقرات الآتية في دليل قديم عن مصر (القاهرة) :

« السكاير » مدينة جميلة تبلغ أربعة أضعاف حجم مدينة باريس وفيها كثير من الكنائس المسيحية وشوارعها مزدحمة ازدحاماً عظيماً بالناس وبالخيل والبغال فلا يستطيع أحد أن يمشى بدون أن يعترضه عائق . ويشغل الصناع أمام المنازل في الشوارع وقليل منهم من يطبخون طعامهم في منازلهم لأن هناك بائنين يقدمون جميع الأطعمة في الشوارع مطبوخة أفضل طبخ ويوجد في القاهرة أكثر من ثلاثين ألف طبايح .

وقد أرفق المؤلف الألساني هذا الوصف بخريطة للقاهرة في عصره وبين عليها مجرى النيل وتخلله المدينة ونواحي العمران ومحال التسلية وميادين عرض الخيل .

القاهرة كما وصفها الرحالة الأجانب

وصف القاهرة في العصر التركي نجد في طائفة كبيرة من المراجع العربية والأجنبية ، وفي مقدمة المراجع العربية تاريخ ابن إياس والجبرتي وابن أبي السرور . وفيها يضل الباحث كثيراً لأسباب عدة أهمها ذكر التفاصيل الثانوية عن الحوادث التافهة التي لا يهتم بها القارئ إلا للتسلية، وإن كان لبعض تلك الحوادث أهمية إذ يستطيع أن يرجع إليها المؤرخ فيستنتج منها كثيراً من الحقائق . ومهما يكن من شيء فإنه إن لم يكن قديراً موقفاً فإن كثيراً من الموضوعات الهامة يخفى عليه في ثنايا هذه القصص والذكريات .

أما المراجع الأجنبية فنشتمل على ما كتبه الرحالة الأجانب في أثناء زيارتهم لمصر أو التقارير الوصفية التي كتبها بعض الرجال السياسيين . وأكثر هذه التقارير ليس ممتعاً بحيث يصف بجلاء دخائل الأحوال المصرية أو يصف بوضوح ما كانت عليه البلاد . فأكثر هؤلاء الأجانب متفرجون يشاهدون عن بعد ويثبتون أحكامهم على أساس سطحي ، وعلى كل حال فإن آراء أغلبهم سريعة . غير أن علينا رغم ذلك أن نلمح ما نشر عليه في تلك المؤلفات القديمة، وندقق بين آراء كل منهم لكي نعطي صورة صحيحة للقاهرة في أثناء العصر التركي .

هؤلاء الرحالة الأوربيون ، ولا سيما الذين زاروا مصر في أثناء القرنين السادس عشر والسابع عشر كانوا يذهبون مذاهب شتى في تخيلاتهم وكتاباتهم عن عاصمة البلاد المصرية ، فلما وطأت أقدامهم القاهرة وشاهدوا ما وقع نظرهم عليه خابت آمالهم ودكت صروح أفكارهم ، ولم يستطيعوا أن يأسوا محيط الحياة المصرية . ولعل خير مصدر يعطى صورة جيدة للقاهرة حين استولى العثمانيون على مصر هو كتاب (الحاج الفرنسى) « جريفا أفاجار »^(١) . وكان قد زار القاهرة عام ١٥٣٤ ووصفها في عدة صفحات من كتابه قال :

تقدر مساحة القاهرة بثلاثة أمثال مساحة باريس ، وهي ذات شوارع ضيقة ملتوية وقصيرة ، وأكثرها غير منظم ، ومن هذه الطرقات ما هو مغطى بألواح الخشب أو القماش السميك لشدة حرارة الصيف ، والتي بسببها يقفل أصحاب الحوانيت متاجرهم فتبطل الحركة ويبقى الناس داخل بيوتهم ، وفي أثناء الليل تضاء المدينة بمصابيح يعلقها أصحاب البيوت أمام منازلهم .

وشعب القاهرة خليط من أجناس العالم وأديانه المختلفة ، فمنهم الأتراك والغاربة والعرب والعجم واليهود والمسيحيون واللاتينيون والروم والهنود والأرمن واليعاقبة والنسطوريون ، وبالاختصار فإن حكومة البلاد تسمح لكل هؤلاء بالمعيشة حسب قوانين بلادهم لأن القاهرة مدينة الحرية . . .

وذكر الرحالة « كاريه دى بنو Carhier de Pinon » أن القاهرة أرحب من الأستانة ، وقال « فيرمانل Fermanel » وقد زارها أثناء القرن السابع عشر ، أن القاهرة كانت معادلة لأعظم المدن الأوربية كما أنها أكثر مدن الإمبراطورية العثمانية ازدحاماً ، أما الرحالة « ديلافالى Della Valle » ، فقدراها تقديراً تفوق به الأستانة ورومه وكل البلدان التي شاهدها في أثناء رحلاته . فلما زارها « كوبان Coppin » وصفها بأنها أصغر من باريس وأقل سكاناً على عكس ما ذكره فيما بعد « تيغنو Thévenot » .

وزار مصر في القرن الثامن عشر ثلاثة من الرحالين أجمعوا على أن القاهرة تساوى باريس في المساحة وعدد السكان . وأولهم الطبيب جرانجر وكان قد استهوته القاهرة ، كما وصفها إليه صديقه المسيو « بيلون » فنصل فرنسا في القاهرة وثانيم « لوما سكريبه Le mascrier » وثالثهم « دانفيل Danville » .

ولم تتفق كلمة الرحالة الغربيين على مساحة القاهرة في القرنين السادس عشر والسابع عشر ، فبينما ذكر « هاكلو » في القرن السادس عشر أن دورة القاهرة أى محيطها ٣٣ كيلومتراً ، قال كوربييه دى بنوان طول القاهرة بدون مصر القديمة هو ١١ كيلومتراً وعرضها خمسة كيلومترات ونصف . وذكر « فيرمانل » أنها ٣٦ كيلومتراً في محيطها . وذكر « بوفو Beauvau » أن القاهرة وضواحيها محيطها ستة وخمسون

يخص القاهرة منها أربعون ، حتى إذا وصلنا إلى القرن الثامن عشر وجدنا « بوكوك » و « جرانجو » يقولان أن محيطها لا يزيد عن أربعة عشرة بينا ذكر يروس وبروين أنهما قطعاً بعدها الطولى في ثلاث ساعات مشياً على الأقدام !

ولاشك أن ذلك التناقض في التقدير وتضارب الآراء في الأبعاد ، يجعلنا نعرف الحد الذى يجب أن لا نتجاوزه في الاطمئنان إلى مثل هذه التقديرات والوثوق بصحتها فيما يتعلق بالقاهرة وغيرها من العواصم التى يذهب بعض الرحالة إلى أن فى استطاعتهم إعطاء صورة صحيحة عنها بعد إقامتهم فيها مدداً تتفاوت فى القصر ، فليس كل رحالة يستطيع أن يقدر فى أثناء إقامته القصيرة فى القاهرة ما يجب أن يقوم به الباحث الجغرافى أو المؤرخ الاجتماعى فى شهور وسنوات .

كانت مساحة المناطق المزدهرة الآهلة بالسكان من أحياء القاهرة كبيرة لكنها كانت خداعة أيضاً ، فضيق الشوارع يوم يرتفع مبانيها المقامة على جانبيها مع أنها تكون عادية العلو ، كذلك ندرة مرور الناس فى الطرقات الواسعة أحياناً تجعلنا نتوهم أن المدينة أو الحى خال من السكان . هذه الاعتبارات لم يلتفت إليها أكثر الرحالين .

القاهرة فى أثناء القرن السادس عشر

شهدت القاهرة فى أيام السلاطين المماليك الذين عرفوا تشجيع الفنون والآداب أنواع العماير الجميلة تشيد فى جميع أنحاءها . فلما جاءها الباشوات الأتراك يحملون أوراق تعيينهم من الخليفة العثمانى ليحكموا بلداً لا تربطهم به أى عاطفة من حب الوطن ولا يرون فيه إلا أشبه شىء بمزرعة عليهم أن يحسنوا استغلالها ليكونوا لأنفسهم بعض الثروة كان لذلك عواقب وخيمة على مصر ، فبدأ المزال على وجه القاهرة وما لبث أن تغلب النعاس عليها فنامت نوماً عميقاً . وأهملت وفقدت جاذبيتها الرشيقة ، وأصبحت فى أكثر مبانيها وعمائرها المجيدة التى كانت رمزاً لمصورها الزاهرة ، وظهرت عليها كل عوامل الفساد ، ولكن مع ما لحق القاهرة من تشويه كبير فى أيام العثمانيين رأينا بعض المساجد قد أقيمت وبعض الأسبلة والحمامات والمدارس شيدت ، أقامها بعض الولاة ومشايخ البلد وأعيان المماليك .

وفى سنة (١٥٤٥ هـ - ١٥٣٨ م) عهدت ولاية مصر إلى داود باشا فبقى عليها إحدى عشرة سنة وثمانية أشهر ، وقد تمتع الأهليون فى مدة حكمه بالمدل والطمانينة ، وعند وفاته (٩٥٦ هـ) تولى منصبه على باشا الذى قام بترميم عدة مبان عامة فى القاهرة واستنسخ كل ما ظفر به من الخطوط فجمع مكتبة عظيمة وجاء بعده آخر حكم عليه بالقتل (٩٦٣ هـ - ١٥٥٦ م) .

كان الوالى ينجىء بعد الآخر حتى أمر السلطان سليم الثانى بتقل سنان باشا والى حلب إلى مصر ، فاهتم بتأييد النظام والحفاظ على العمران ، وبنى فى بولاق شارعاً ووكالات وجامعاً لا يزال معروفاً باسمه لليوم .

ولمات خلفه حسين باشا الذي لم يحكم أكثر من سنة وتسعة أشهر، وتبعه مسيح باشا فوجه اهتمامه إلى إبطال السرقات، وبلغ عدد قتلاه من اللصوص عشرة آلاف، ومن آثاره مسجد عظيم في ضواحي القرافة عرف باسمه، وقد خرب الآن، وتولى بعده واليان خاملان .

تولى عويس باشا حكومة مصر سنة ٩٩٤ هـ - ١٥٨٦ م، وأراد تدريب الجنود فقصوه وهجموا عليه في الديوان وأهانوه ونهبوا بيته، وفي جملة ما نهبوه ساعة كبيرة تعرف منها الأيام، وقاموا بثورة في جميع أنحاء القطر، وأخيراً استقال من ولاية مصر (٩٩٩ هـ - ١٥٩١ م) وخلفه خادم حافظ أحمد باشا الذي شيد في بولاق وكالتين وعدة قيساريات وبيوت خصص ريعها لعمل الخير، وتبعه الكردي باشا وكان مجيداً لمساعدته للفقراء ورعايته للأدباء، وخلفه السيد محمد باشا، ومن أهم أعماله أنه أعاد بناء الجامع الأزهر ورمم المشهد الحسيني . وفي أيامه قامت ثورة عسكرية فشل في إخضاعها وانتهت باستبداله بخضر باشا في عام (١٠٠٦ هـ - ١٥٩٨ م) وولى مكانه على باشا السلحدار وكان يكرم الجند، سفاكاً للدماء لم يكن يخرج في موكبه إلى المدينة أو ضواحيها حتى يقتل عشرة أشخاص على الأقل تحت حوافر جياده . وفي أيامه حدثت مجاعة وعم الخراب فترك القاهرة فراراً من العاقبة واستخلف على الحكومة « يبرى بك » وبوفاته انتخب السناجق الأمير « عثمان بك » ليقوم مقامه حتى عين الباب العالي إبراهيم باشا فثار عليه الجند، وقتلوه وحملوا رأسه مع أحد أعوانه، وطافوا بهما شوارع المدينة إلى أن علقوها على باب زويله . ثم أرسلت الأستانة محمد باشا الكورجى فاستطاع بيقظته معاقبة الثأرين، وقتل منهم نحو مائتي رجل .

القاهرة في أوائل القرن السابع عشر

وفي سنة ١٠٢٢ هـ - ١٦١٣ م أرسل السلطان عشرة آلاف جندي إلى اليمن إجابة لطلب حاكمهم لإخماد ثورة شبت هناك . أرسل هؤلاء الجنود عن طريق مصر، وكان قد أصدر أمراً إلى الوالي بإمدادهم بالمؤونة وبوسائل النقل في داخل البلاد وإيفاد الحملة إلى اليمن . فلما أرسل محمد باشا الملعب بالصوفي لضباطهم ليدفعوا أثمان ما اشتروه، ادعوا أنهم جاءوا ليقيموا في مصر، وقد راققت لهم الميشة فيها ولم يدعنوا لأوامره بالسفر واحتلوا بالقوة الحى المجاور لباب النصر وباب الفتوح، وطردها أصحاب البيوت منها إلى الشوارع وأقاموا التاريس في أبواب الحى وأقفوا باب النصر وثبتوا المدافع في برجها . فاضطر الباشا إلى الذهاب إليهم ومحاصرتهم بالقوة، وكادت تذهب وسائله أدراج الرياح حتى تمكن أحد أمرائه وهو عابدين بك من الدخول إلى صهرج مياه فارغ لإحدى المدارس المجاورة المعروفة بالجانبلاطية وسلط على الثوار نيرانه وهم داخل استحكاماتهم ففوجئوا وساموا، ولكن ذهب كل محاولة لمعاينة رؤوس الثورة سدى، وتسلسوا تقوادم وأمروا بمغادرة البلاد، فسافروا .

بعد قليل عزل محمد باشا الصوفي فاعتزل في قبة العادلية ولم يرجعها إلا بعد أن علم بوصول خلفه أحمد باشا الدفتردار (١٠٢٤ هـ - ١٦٥١ م) الذي جاء إلى القاهرة ودخلها بموكب حافل، وبينما هو في موكبه

بالمدينة رماه بعض الناس بحجر من سطح بيت فأصيب لسكنه لم يؤذنه فضبط الفاعل واعترف بذنبه وقتل في ذلك المكان .

وتبعه سلسلة من الولاة الأتراك من بينهم الوزير « فرغلي مصطفى » و « جعفر باشا » و « مصطفى باشا » فلم تدم ولايتهم أكثر من بضعة أشهر ، ثم يرم باشا ، فوسى باشا ، والوالى حسين الالدالى ، وأيوب باشا وغيرهم ممن لم يكن لهم نفوذ ما ، وأخيراً آلت القوة إلى المماليك البكوات الذين كانوا يمدون أنفسهم من أبناء البلاد وليسوا كبشوات الأتراك إذ أتوا مصر كان همهم اكتساب الثروة قبل أن يأتهم الأمر بالعزل .

وفي أيام الوالى مقصود باشا ١٠٥٢ هـ — ١٦٤٢ م ، قاومت مصر وباء الطاعون ، فقد ظهر في بولاق في أوائل شعبان ١٠٥٢ هـ . وبعد ذلك امتد إلى القاهرة ولم يكن يسمع إلا بالوفيات المتتابعة ، وكانت الجثث تنقل بالعشرات دفعة واحدة فيمر في الطريق الواحدة أحياناً ثلاثون أو أربعون جنازة ، وقد روى ابن أبى السرور وهو من مؤرخى ذلك العهد أن جملة من صلى عليهم من المتوفين في الجوامع الخمسة الرئيسية في القاهرة ألفتان وتسعمائة وستون في خلال ثلاثة أشهر ، وصار الناس في آخر الأمر يدفنون موتاهم بلا صلاة وعدد هؤلاء لا يقل عن عدد الذين صلى عليهم . أما خارج القاهرة فلم يكن الوباء أقل فتسكا ، وقيل أن مائتين وثلاثين قرية أصبحت خراباً لإصابة سكانها جميعاً بذلك الداء . وقدر المؤرخ شمس الدين عدد موتى الوباء من أصحاب الحوانيت وعمال الوكالات بالقاهرة بستمائة وثلاثين ألف نفس غير الذين ماتوا في أماكن أخرى ، وبارغم من أن في هذا التقدير مبالغه ظاهرة إلا أنه يدل دلالة واضحة على فتك الوباء بسكان القاهرة في تلك السنة .

الرحالة دى تيفنو

زار السكاتب الرحالة « جان دى تيفنو » القاهرة بين سنتى ١٦٥٦ و ١٦٥٨ م وذكر عنها في كتابه عن سياحاته في بلاد الشرق ما يسمح لنا بتكوين فكرة عما كانت عليه القاهرة في سنة ١٦٥٦ أى منذ نحو ثلثمائة سنة تقريباً .

أراد « دى تيفنو » أن يقيس طول القاهرة وعرضها وحجمها فركب حماراً ودار حول المدينة والقلمة فقطع تلك المسافة في ساعتين وربع ساعة ، وفضلا عن ذلك فإنه سار من أول الخليج إلى آخره مشياً على القدمين ليعرف امتداد المدينة فقال أن طولها بلغ مائة وخمسة آلاف خطوة ، وجعل كل خطوة قدمين ونصف قدم ، وأنه رأى حول المدينة بعض أماكن غير مأهولة وركباً متعددة تحيط بها منازل كبيرة .

ومعظم الذين قالوا أن القاهرة أكبر من باريس (ومنهم أحد الرحالة الألمان الذى قال أن القاهرة

تبلغ أربعة أضعاف باريس) ضموا إليها مصر القديمة وبولاق ، وقال «دى تيفنو» في ذلك الصدد أنه إذا جاز ذلك فيجب أن تضم إلى باريس القرى المجاورة لها لأن مصر القديمة كانت منفصلة عن القاهرة الجديدة وكان حى بولاق ضاحية ذات حقول خضراء .

وأشار « دى تيفنو » إلى حى القاهرة بالقرب من الطريق المؤدية إلى بولاق أسماه (الأزبكية) وذكر أن المساء كان يظل فيه نحو أربعة أو خمسة أشهر كل سنة وبعد ذلك تزرع أرضه ، وكانت حوله تصور جميلة للبكتوات والكبراء البلاد يقيمون فيها من وقت إلى آخر بضعة أيام طلباً للراحة وإن كان «دى تيفنو» لم يذهب إلى أن التساهرة كانت أكبر من « باريس » في ذلك الوقت ، فقد قال أن الأولى كانت تفوق الأخيرة في عدد السكان ، وقال أيضاً أن الشوارع كانت مزدحمة في كل وقت بالناس وكانت منازل الفقراء عامرة بالنساء والأطفال ، وأنه عند ماجرف الطاعون مائتى ألف نسمة من سكانها لم يكده أحد بقرر أن عدد السكان قد نقص .

وكتب كثير من الرحالة أنه لم يكن للقاهرة سور ، ولكن «دى تيفنو» قال انها كانت محاطة بجدران جميلة جداً وكثيفة ومشيدة بمحجارة ورأى هذه الحجارة بيضاء ناصعة الجمال كأنها بنيت من عهد قريب . وكان في تلك الجدران فتحات مزخرفة وأبراج لا يبعد أحدها عن الآخر أكثر من مائة خطوة ، ويمكن أن يمتد فيها كثير من الرجال ، كانت الجدران عالية جداً لكن بعضها كان مطموراً بين الأقباض وكانت الطرقات قصيرة وضيقة وإذا استثنى شارع البازار (بالقرب من خان الخليلي) والخليج الكبير الذى كان يحف ثلاثة أشهر كل سنة فلا يكاد يوجد شارع كبير في القاهرة ، إذ لم يكن فيها سوى أزقة وعطفات . وكانت المنازل تبنى بدون أن يراعى في بنائها تخطيط المدينة . فلم تكن هناك لأحة للتنظيم مثلاً ، وكان كل إنسان ، يبنى بيته حيث رغب وكما شاء ذوق مهندسه دون أن يكثر بحط الشارع أو استقامته ، ويظهر أن « دى تيفنو » حاول إحصاء عدد أحياء القاهرة فلم يستطع ولم يذكر سوى أن كل حى احتوى على عدة شوارع ويحرسه رجلان ربط كل منهما إلى الآخر بسلسلة لكي لا يسير كل منهما في جهة ، وكان الرجال الذين عهدت إليهم هذه المهمة يقدمون عليها عن طيب خاطر لأنهم كانوا يقبضون أجرة حسنة . وكانت السلاسل تقفل بأقفال تحفظ مفاتيحها عند وكيل رئيس الحى ، فيفتحها أو يقفلها بواسطة أحد أتباعه ، وكان بالقاهرة عدد كبير من الجوامع العظيمة الفخمة البناء ذات الأفنية والأبواب الجميلة والتي تعلوها المآذن العالية المشوقة القد . وكانت المنازل بالقاهرة مؤلفة من عدة أدوار ولها أسطح مسطحة ، كان منظرها من الخارج قبيحاً ولكن داخلها كان مزيناً أجمل زينة بالألوان الذهبية والزرقة لا سيما بيوت البكتوات والكبراء ، إذ كانت دورهم تحوى على مخادع بدعة وقاعات كبيرة مرصوفة بالرخام ومزخرفة بالذهب ، فيها الحدائق التى تتدفق فيها المياه وتندفع نوافيرها إلى علو شاهق ، وكانت جميع الأقفال والمفاتيح من الخشب حتى أقفال أبواب المدينة ومفاتيحها تيسهل فتحها بدون المفاتيح . وكان من أجمل شوارع القاهرة شارع البازار الذى كان يقام فيه سوق كل أيام الاثنين والخميس ، وفي نهاية ذلك الشارع كان شارع قصير عريض اسمه خان الخليلي وهو يحوى على جانبه مخازن للبضائع الحريرية ، ويتصل به خان كبير يحتوي

على فناء واسع كان يباع فيه الأرقاء البيض رجالاً ونساءً . أما الرقيق الأسود من الجنسين فكان يباع في خان آخر على مقربة منه . وعلى مسافة غير بعيدة بعد خان الخليلي كان المستشفى أو المارستان وجامع متصل به من أكبر جوامع القاهرة ، وفي هذه النواحي أيضاً كانت مصانع السجاد وكان يشتغل فيها عدد عظيم من الناس بينهم كثيرون من الأولاد وكانوا يصنعون السجاجيد الجميلة التي ترسل إلى الآستانة وأوروبا . وكانت مصر القديمة الواقعة على بعد نحو كيلومترين من القاهرة على شاطئ النيل في حالة خراب ، على أنه كان لا يزال باقياً فيها كثير من الأبنية الجميلة من أهمها كنيسة أبو سرجة ودير مارجرس . وكان في مصر القديمة مجرى المياه الذي كان ينقل فيه الماء من النيل إلى القلعة . وفي أعلاه ثمانى سواق تديرها الجواميس ، ترفع الماء وتصبه في حوض كبير يجري منه إلى القلعة .

قلعة القلعة — اهرة

وكانت القلعة أشهر مكان في القاهرة تشرف عليها ، ولها مركز هام يعزز نفوذ حكام مصر ، وقد تدمر في ذلك العهد أكبر قسم من مبانيها لكن بقيت فيها بعض الأبنية الصغيرة الجميلة احتوت على ردهات رجة . وكانت قاعة يوسف بأعمدها الثلاثين من حجارة طيبة قد أصيبت بأضرار جسيمة ولكن نقوش جدرانها الذهبية كانت باقية . وبقرتها قاعة يوسف التي كانت مصابة بأضرار أكثر من سابقها ، فلم يكن باقياً منها سوى إثني عشر عموداً وكانت في القلعة أيضاً قاعة كبيرة جيدة البناء يعمل فيها ستار الكعبة ويرسل سنوياً لمكة باحتفال عظيم . وكانت القلعة تحت إمرة أغا الإنكشارية الذي يقيم فيها ، وإلى جانب القلعة قصر الباشا يفصل بينهما جدار ، وكان قصرًا جميلاً جداً يشرف على منظر جميل من مناظر القاهرة وأرباضها ، وكان أجمل مافي القصر الديوان الكبير وقد علق على جدرانه عشرة تروس من الخشب مثقوبة بطعنت رماح . قيل أن السلطان مراد وكان قوياً يحسن الرماية أصابها برمح دفعة واحدة ثم أرسلها مع الرمح إلى مصر ليظهر للمصريين قوته . وقد أثار منظر القلعة دهشة « دى تيفنو » وقال في كتابه : أنه لم يرقط في العالم كله أجمل وأضخم من أبنيتها وأمنع منها .

وتاريخ القلعة في عصر العثمانيين مملوء بالحوادث الجسام ، وقد ذكر العلامة « كازافوفا » كثيراً من أحوالها في عهد الباشوات منذ استولى السلطان سليم على مصر ، وقال ابن إياس :

ولما أقام ابن عثمان بالقلعة ربط الجنود في الحوش إلى باب القلعة عند الأبواب الكبيرة وباب الجامع الذي بالقلعة وقد صار زبل الخيل هناك كالكيهان ، وخرب أكثر الأماكن التي بها فلك رخامها ونزل به في المراكب وتوجهوا به إلى استنبول .

وذكر المؤرخ المصري « الجبerty » وأيده القنصل الفرنسي « دى مايبه » أن اسماعيل باشا الترى (١١١١ — ١١١٦ هـ) قام بإصلاحات كثيرة في مباني القلعة لاسمياً في زاويتها الجنوبية الغربية حيث

سكن الباشوات . ومن مآثره أيضاً أنه عمر الأربعين الذى بجوار باب قرة ميدان وأنشأ فيه جامعاً ، وأنشأ فيما بينها وبين بستان العورى حماماً فسيحاً بالرخام الملون ، وجسد البستان المذكور وغرس فيه الأشجار، ورسم قاعة العورى التى بالبستان وبني صهرجاً بداخل القلعة .

وكان من عجائب القاهرة حوض المشاق ، وهو يضاوى الشكل مصنوع من قطعة واحدة من الرخام الأسود طولها ستة أقدام وعلوه ثلاثة أقدام وعلى ظاهره كتابة دقيقة بالهيروغليفية، ويقص بعض الأهالى قصصاً عديدة عن هذا الحوض ويعتقدون فيه اعتقادات خرافية كثيرة، وهناك تفاصيل كثيرة ذكرها «دى تيفنو» يمكن جمعها وسردها لرسم صورة واضحة جلية لما كانت عليه قاهرة البكوات منذ ثلثمائة عام . وهذه الصورة تختلف اختلافاً عظيماً عن صورة قاهرة اليوم لاسيما فى القسم الواقع بين الخليج (شارع بورسعيد) والقلعة وباب الفتوح ، فعند ما نحترق القاهرة من باب زويلة إلى الشمال سائرين فى شارع السكرية فالخردجية حتى جامع الحاكم ونرجع من باب النصر من طريق الجمالية فى الأزهر، نجد أنفسنا بين آثار العصور الماضية ذات الروعة والجمال والفن ولاسيما تلك الأبواب التى مرت بها الأجيال جيلاً بعد جيل فهمي الآن نحدثنا عما شاهدته من عظمة ماضية ومجد غابر .

فانسلب والفنصل ديماييه

جاء بعد الرحالة « دى تيفنو » فى عهد الباشا التركى ابراهيم رحالة آخر اسمه « فانسلب » (Vausleb) زار مصر عام ١٦٧٢ م وكان يقيم فى مصر السيوى دى ماييه فنصل فرنسا فى القاهرة ، وكان عمره يقرب من الثلاثين عاماً حين جاء إلى مصر يمثل الملك لويس حيث قضى فى مهمته ستة عشر عاماً وكان مغرمًا بالمعاديات الشرقية والأبحاث المصرية وتعلم اللغة العربية وألف كتابه القيم فى وصف مصر عام ١٧٣٥ .

وفى أثناء وجوده بمصر هبت فى القاهرة عاصفة شديدة ١١٠٥ هـ / ١٦٩٤ م فظن الناس أن الساعة قد أوشكت وأن يوم القيامة قد دنا واطلم الجو من التراب الكثيف وكان الناس فى صلاة الجمعة فى رمضان وسقطت المركب التى على منارة جامع ابن طولون وأصيب جزء منه بأصداع وهدمت دور كثيرة .

وفى العام الأخير من القرن السابع عشر توفى المؤرخ شمس الدين من مشاهير علماء مصر الأقباط ، وقد كتب عدة مؤلفات علاوة على ما كتبه فى تاريخ مصر مما يعتبر مرجعاً لحوادث ذلك العصر ، ونحن نقتطف هنا شيئاً مما كتبه دى ماييه الفنصل الفرنسى عن القاهرة فنذكر أن الذى كان يشغل منصب الوالى حينئذ هو اسماعيل باشا بينما كان نفوذ شيخ البلد (حاكم القاهرة) يتزايد يوماً بعد يوم . وكانت هناك أسرتان تتنازعا السلطة هما الفخارية والتماسية . وقد كتب « دى ماييه » فى كتابه بحثاً طويلاً عن الكنيسة المصرية وعلاقتها مع الحبشة ، وذكر أن عدد سكان القاهرة بلغ إذ ذك نصف مليون نفس ، لكن الطاعون والجحاجة أتتصتا منه عدداً كبيراً .

وقد توالى على مصر من سنة ١٠٦٢ إلى ١١١٩ هـ إثنان وعشرون والياً . وفي سنة ١١١٩ هـ / ١٧٠٧ م في أيام أسلطان أحمد ، تولى أمور مصر حسن باشا وكانت مشيخة البلد في يد قاسم عيواظ بك ، وبوفائه تولى مشيخة البلد من بعده ابنه اسماعيل بك فظل فيها ست عشرة سنة تقلب في أثنائها على مصر عدة باشوات كانوا لا حول لهم أو شأن ، وانتهى أمره بأن قتل بيد أحد عماليك « ذى الفقار بك » فكانت نهاية مشيخته عام ١١٣٦ هـ / ١٧٢٣ م .

ومن الحوادث التي ذكرها القنصل الفرنسي وأيدها المؤرخ الجبرتي ما حدث في الأزهر عام (١١٢٠ هـ / ١٧٠٩ م) بعد وفاة شيخه الشيخ محمد النشرتي ، فقد وقعت بعد موته فتنة بالأزهر بسبب المشيخة والتدريس بالأقبغاوية ، وانقسم الأزهريون قسمين : فرقة تريد الشيخ أحمد النفاوى ، وأخرى تريد الشيخ عبد الباقي القليني ، ولم يكن حاضراً بمصر ، فتصدر الشيخ أحمد النفاوى للتدريس بالأقبغاوية فمنعه طلبتها ، وحضر القليني فتمصبله جماعة النشرتي . وحضر جماعة النفاوى إلى الجامع ليلا ومعهم البنادق وصوبوها على المسجد وأخرجوا جماعة القليني وكسروا باب الأقبغاوية وأجلسوا النفاوى مكان النشرتي ، فهجمت جماعة القليني على الجامع وقتلوا أبوابه ، ونصار بوامع جماعة النفاوى ، وقتلوا منهم نحو عشرة أشخاص ونهبت خزائنه وتحطمت القناديل . وأخيراً حضر الوالى فأخرج القتلى وفرق الطلبة ولم يبق بالجامع أحد . وفي اليوم التالى صعد النفاوى إلى ديوان القلعة ومعه كشف بأسماء القتلى ، فلم يلتفت الباشا إلى دعواه وأمره بلزوم بيته ، وأمر بنى الشيخ أحمد شنن من الزعماء إلى بلده واستقر القليني في المشيخة .

قصة واعظ

وذكر الجبرتي بين حوادث عام (١١٢٣ هـ / ١٧١١ م) أن رجلاً رومياً واعظاً جلس يعظ الناس بجامع المؤيد وازدحم عليه المسجد وأكثرهم من الأتراك ثم انتقل من موضوعه إلى مايفعله أهل مصر بأضرحة الأولياء وإيقاد الشموع والقناديل عليها وشنع على ذلك وذكر أنه لا يجوز بناء القباب على الأضرحة والتسكيا ويجب هدمها ، فلما سمع رجاله بذلك خرجوا بعد صلاة التراويح ووقفوا بالنبايت والأسلحة فهرب الذين وقفوا بالباب قائمين : « أين الأولياء » وذهب بعض الناس إلى علماء الأزهر وأخبروهم بما حدث فأفتى الشيخ النفاوى والشيخ أحمد الخليلي بأن كرامات الأولياء لا تنقطع بالموت وأن على الحاكم زجره عن ذلك وأخذ بعضهم تلك الفتوى ودفعها للواعظ وهو في مجلس وعظه . فلما قرأها غضب ، وقال : « أيها الناس إن علماء بلدكم أفتوا بغير ما ذكرت لكم وأود أن أباحثهم في مجلس قاضى العسكر ، فهل منكم من يساعده على ذلك وينصر الحق ؟ فقالوا له : « نحن معك لا نفارقك » فنزل عن الكرسي ، واجتمع به نحو ألف نفس ومر بهم من وسط القاهرة إلى أن دخل بيت القاضى قرب العصر فزعج القاضى وسألهم عن مرادهم ، فقدموا له الفتوى وطلبوا منه إحضار المفتين والبحث معهم . فقال القاضى : « اصرفوا هذا الجمع ونسمع دعاكم » فقالوا ما تقول في هذه الفتوى ؟ قال : « هي باطلة » . فطلبوا منه أن يكتب لهم حجة

يظلمها . فقال إن الوقت قد ضاق والشهود قد ذهبوا إلى منازلهم . وخرج المترجم وقال لهم ذلك فضربوه واخفى القاضى بحريته .

وفي وقت الظهر اجتمع الناس بالمؤيد لسماع الواعظ على عادتهم ، فلم يحضر لهم الواعظ ، فسألوا عن المانع لحضوره فقال بعضهم : أظن أن القاضى قد منعه من الوعظ فقال رجل منهم : أيها الناس من أراد أن ينصر الحق فليقم معي . فتبعه الجهم الغفير ، فمضى بهم إلى مجلس القاضى . فلما رأهم القاضى ومن في المحكمة طارت عقولهم من الخوف وفر الشهود ولم يبق إلا القاضى فدخلوا عليه . وقالوا له أين شيخنا « فقال لا أدرى » فقالوا له : « قم فاركب معنا إلى الديوان (القلعة) لنكلم الباشا في هذا الأمر ونسأله أن يحضر لنا أخصامنا الذين قضاوا بقتل شيخنا وتباحث معهم ، فإن ثبتت دعواهم نجوا من أيدينا وإلا قتلناهم » . فركب القاضى معهم مكرهاً ، وتبعوه من خلفه وأمامه إلى أن طلوعوا إلى الديوان فسأله الباشا عن سبب حضوره في غير وقته فقال . « أنظر إلى هؤلاء الذين ملأوا الديوان والحوش فهم الذين أتوا بي » وعرفه عن قصتهم وما وقع منهم بالأمس . وأنهم ضربوا المترجم وأتوا اليوم وأركبوه قهراً . فأرسل الباشا إلى كتبخدا الانكشارية وكتبخدا العزب وقال لهما . « اسألا هؤلاء عن مرادهم » .

فسألوهم ، فقالوا : « نريد إحضار نفر اوى والحليفي ليجلسا مع شيخنا » فأعطاهم الباشا مهلة ، ونزلوا إلى جامع المؤيد وأتوا بالواعظ وأصعدوه على الكرسى ، فصار يعظهم ويحرضهم على اجتماعهم في الغد بالمؤيد ليذهبوا جميعاً إلى القاضى وحضهم على الانتصار للدين واقتروا على ذلك .

ثم جمع والى الأمراء السناسق والأغاوات قواد الأورط في بيت الدفتردار وأجمعوا على أن ينفوا الواعظ من القاهرة .

لم يظهر الواعظ بعد ذلك اليوم ، وقيل أنه قتل . فنامت الفتنة ، وفي ذلك قال الشيخ حسن الحجازى :

مصر قد حل بها واعظ عن منيع صدق قد أعرض

فأساء الظن بسادات أحكام الدين بهم تنهض

القاهرة بين الأميرين شركس وذى الفقار

(١٧١٩ — ١٧٣٠)

استطاع الأمير شركس محمد بدهائه أن يتفق مع والى راغب باشا بعد قتله الأمير اسماعيل ، وتولى حكم البلاد وشيد قصرآ جميلاً وقلد رجاله أهم مناصب الحكم في مصر ، وقد قاست القاهرة في أيامه كثيراً من حوادث مماليسه واعتداداتهم وسرقاتهم ، فقد اعتدوا على الحمامات العامة في أثناء الأوقات المخصصة للسيدات

والأطفال، واختطفوا ملابسهم وأظهروهن عرايا على قارعة الطريق ، ولم تنته تلك الحوادث حتى عزل الوالى فاتح مع أحد البكوات واسمه ذو الفقار ، وألف الإثنان حزبا لم يلبث طويلا حتى فشلت أغراضه .

جاء بمسده الوالى الجديد ، فجمع حوله فريقا من أعداء شركس وسلحهم بالبنادق والمدافع وحاصروا قصره، وكان يحتفى معه داخله ليف من رجال حزبه المخلصين ، فتبادل الفريقان النيران مدة طويلة ، وفي نهاية الأمر تمكن الأمير شركس من الهرب تاركا وراءه قصره وما احتواه من الرياش الفخمة والأثاث الثمين لأيدى الناهبين الناقين عليه الذين قبضوا على أعوانه ونكلوا بهم تنكيلا .

لم يرض عام على هذه المأساة الحزينة حتى ظهر الأمير شركس ثانية ، فكأن الحوادث لم تنته بعد وبطله لا يزال يئمل دوره وإن كان قد اختفى قليلا خلف الستار ؛ وكان بعد هزيمته عام ١٧٢٦ قد ولى وجهه شطر طرابلس الغرب فاستقبله واليها بإجلال واحترام . وسهل له جمع أربعائة مغربي من المرتزقة قام بهم في أوائل عام ١٧٢٨ قاصداً الصعيد حيث ألف جيشاً منهم ومن بعض الناقين على ذى الفقار من أعدائه السابقين ، واشتعلت نيران الحرب الأهلية بين الفريقين . وكان ذو الفقار قد جمع ثلاثة آلاف من أشياعه القاهريين ووضهم تحت قيادة عثمان بك ، فانتصر عليهم الأمير شركس، وقتل قائدا القوة ، ولكنه لم يستطع دخول القاهرة بالرغم من هذا النجاح .

في ذلك الحين قام في القاهرة منافسان من البكوات ، كلاهما يريد اغتصاب القاهرة من الآخر ، فاتهن شركس هذه الفرصة واشترك في الميدان ، ولم يطل الأمر حتى استولى ذو الفقار على المدينة وهلك المنافسان . وفي إحدى الليالى كان اثنان من بكوات الممالك هما يوسف بك وسليمان أبو دفة على رأس ثلاثين من الشجعان ينجحون في المرور بين بوابات قصر ذى الفقار وينجحونه . وكان هذا قد أمر قبيل مؤامرة هذين البكواتين بتجريد قوة بقيادة على بك ، ومع حيلة شركس لتلك المفاجأة ، فسد هجمت على رجاله وأقنهم . وحاول شركس أن يعبر النيل فأصيب جواده برصاصة، ولم يستطع أن ينجو بنفسه . وعقب المعركة كان ينتقل فلاحان بين جثث القتلى لاختلاس ما تقع عليه أيديهما من الغنائم فوق نظرها عليه لما حاولا انتزاع زرده . وفي ذلك الحين لمح أحد الممالك، فعرفه في الحال من خاتم أصبعه فقدموه للقائد على بك، فأمر بضرب عنقه ولحده باحترام وأخذ رأسه وقدمها للوالى ليعيها إلى الخليفة . ودخل على بك مدينة القاهرة ظافراً وفي ركبته الممالك والحشم والأتباع وأمامهم الموسيقيون يعزفون بطبولهم وزمورهم ويدقون الصاجات النحاسية.

مشيخة عثمان بك

ابتدأت بعد ذلك مشيخة عثمان بك، فاشتهر بعدله وحزمه وحسن تدبيره ، وكان يلازمه في مجالسه العالم الفاضل حسن الجبرتى والد المؤرخ العلامة عبد الرحمن الجبرتى ، وفي أيامه هدأت القاهرة قليلا . ومع ذلك لم يستطع النجاة من مكائد ذوى المطامع، وفي مقدمتهم الأميران ابراهيم كتخدا الانكشارية، ورضوان كتخدا

العزب وأولها من طائفة القرغلية ، وثانيها من طائفة الجلفية ، وقد تزوج إبراهيم من ابنة محمد البارودي أحد تجار القاهرة الأغنياء فاستفاد من مالها الكثير وارتفع شأنه حتى ارتقى إلى رتبة البكوية لتقربه من بيت شيخ البلد . وتشاء الصدفة أن يرتقى صديقه رضوان في ذلك الوقت ، فيعرف اسم رضوان بك ، فاتحد الإثنين قلباً وقالباً وتوليا أمور القاهرة فيما بينهما .

فلما رأى عثمان بك عو مكانة هذين المنافسين الجديدين ، ضم إليه ثلاثة أحزاب حزب إبراهيم بك قطامش وحزب علي بك الدمياطى وحزب علي بك الطويل ، وشاورهم في الأمر فأقروا قتلها ، ولكن لم يطل أمر تحالف عثمان معهم ، فقد أبعدهن مصر بحيلة وكيله فوصل سوريا ومنها إلى الاستانة . واستمر إبراهيم بك قطامش إلى النهاية مع خمسة بكوات من حزبه فتحصنوا في قصره للمقاومة . فلما علم بذلك الوالى اتصل بالأميرين إبراهيم ورضوان ، فأخذ كل منهما وجاقه وقصدا قصر قطامش وصبوا نيران بنادقها نحو القصر فقوامتها قوة قطامش عدة ساعات ، واستمرت النيران متبادلة بين الفريقين حتى أقبأ الليل واستطاعت جماعة قطامش أن تنجو بنفسها فولت الأدبار قاصدة الوجه القبلى .

القاهرة بين الأميرين إبراهيم ورضوان

ومع ذلك لم يصف الجبّ أمام إبراهيم ورضوان فكان في انتظارهما كثير من الحوادث الجسام، وسترى القاهرة وقد تحولت إلى مسرح تمثل عليه المسأى . فلقد صمم الزعميان على إبادة فئة البكوات الباقية وانفقا على ذلك مع الوالى « كيور أحمد » ، واستعانوا بالمؤامرة وبالمسال . فقتلوا على بك الدمياطى بيد وكيله سليمان، ثم أمر الأميران إبراهيم ورضوان بقفل جميع منافذ القلعة ، وجعل الحرس على بابى الانكشارية والعزب من جنودها المخلصين . وابتدأت المذبحة الرهيبة فكانت الجثث تلقى من النوافذ والدرج وسالت الدماء في جميع نواحي القاهرة .

وكانت مؤامرة ناجحة ، تخلصت القاهرة في أثرها من مكائد الأحزاب وأنانية رجالها ، وأصبحت تحت رحمة اثنين من الأمراء الأقوياء . وسنرى ماتم في القاهرة من أعمالهما .

كان لكل من هذين الأميرين وجهة يتجه إليها في سياسته ، فكان إبراهيم صاحب السلطان وقائد الجيوش ومدبر السياسة، على حين كان رضوان مؤلف القلوب وقبلة القصاد ، وكان الأميران على اختلاف اتجاهيهما متفقين متآلفين قضا في سياستها سبع سنين ونيفا .

هناك على ضفة الخليج المصرى اشترى رضوان داراً كانت بيت التاجر الغنى الشرايى، وهى التى كان بها العمودان اللتقان المعروفة « بثلاثة ولىة » ، وكانت واقعة على بركة الأزبكية . وموضعها اليوم ما بلى حديقة الأزبكية وميدان الأوبرا . وكانت تلك البركة إذ ذاك منزهاً من متزهات القاهرة ، تحيط بها بيوت أعيان التجار والأمراء . فلما اشترها الأمير رضوان بالغ في زخرفتها ، وعمد على قاعها العالية قبايا عجيبة الصنعة

منقوشة بالذهب المحلول واللازورد والزجاج الملون . وكانت الأنوار تسطع في هذه القباب أثناء الليل فيكاد يحطف بهاؤها ورواؤها الأبصار ، وكان للأمير فوق ذلك في الناحية الشمالية الغربية من هذه البركة منظره بديعة تطل من الغرب على الخليج الناصري ، ومن الجنوب على بركة الأزبكية ، ومن الشمال على بركة أخرى استعدها الأمير بتوسيع مجرى الماء في الخليج القاهري مما يلي قنطرة الدكة ، وأنشأ في صدر البركة مجلساً خارجاً ، بمضه على عدة قناطر لطيفة، وبعضه داخل الغيط المعروف بغيط المهديّة . وبوسطه بحيرة تملأ بالماء من أعلى وينصب منها إلى الحوض من أسفل ، ويجرى إلى البستان لسقي الأشجار ، وبني قصرآ آخر بداخل البستان مطالا على الخليج فكان يتنقل في تلك القصور التي نسقها أبدع تنسيق .

وقصارى القول أن تصور رضوان كانت تتألق دائماً بالأنوار الساطعة ويخلع عليها الفن المصرى آيات الروعة والإبداع ، ويجمع في أهبأها رجالات ذلك العصر من الأدباء والعلماء ، فلا غرو أن تفنن الشعراء فى مدح رضوان وفى العمل على الاتصال به ، من هؤلاء عبد الله بن سلامه المعروف بالادكاوى نسبة إلى بلدته التي ولد فيها « ادكو » ومصطفى اللقيمى والسيد السديدى وقاسم التونسى وغيرهم . فقد مدحه هؤلاء جميعاً وأنشأوا فيه المقامات والتوشیحات ، ورأينا الادكاوى يجمع كل ماقاله الشعراء فى هذا الأمير ويتخذ منه مجموعة يسميها « الفوائح الجنانية فى المدائح الرضوانية » ولا يكاد يوجد شاعر فى ذلك العصر لم يتصل بالأمير رضوان . إلا أن الأمير قد أضله ما هو فيه من نعمة ، فترك أمر البلاد واتبع طريق الشهوات وجاهر بالمعاصى ، وقد ذكر الجبرتي انه أصدر أوامره لرجال الأمن بعدم التعرض لأهل المجون فصارت القاهرة ميادين للغزلان ونعما للعشاق .

ظل الأميران يقبضان على دفة الحكم فى البلاد حتى أنعم الأمير إبراهيم برتبة البكوية على أحد رجاله فشق ذلك على إبراهيم بك الشركسى، وعت بينهما الضغائن حتى قتلته بيده فأصبح الأمير رضوان شيخ البلد وحده ، إلى أن ظهر شأن عبد الرحمن كنتخدا الانكشارية فأخذ يعضد بمالك الأمير ويقربهم على أمراء رضوان ونأمروا على اغتيال الأمير رضوان والقضاء على سلطته، فتنبه رضوان لذلك واستولى على القلعة وبعض أبواب أحياء القاهرة وجامع الحمودية وجامع السلطان حسن ، واجتمع إليه أغلب أمرائه وكادت تتم له الغلبة ، لولا أن سعى إليه الأمير عبدالرحمن كنتخدا وأعوانه لإجراء الصلح وطلع بهم إلى الأمير رضوان وخدعوه بكلامهم فحسدت نيته وسلم بنصحهم .

وبعد أن نزل إلى داره فى « قوصون » اغتم أعداؤه الفرصة وبيتوا أمرهم ليلا واستولوا على القلعة وبعض الأبواب بينما كان رضوان آمناً فى بيته فلم يشعر إلا وهم يطلقون عليه المدافع . وكان الحلاق يحلق له رأسه فسقطت الجبل على داره ، فأمر بالاستعداد وطلب من يعتمد عليهم فلم يجد أحداً منهم يقف بجانبه ، فخارب فيهم إلى قرب الظهيرة حتى أصيب فى ساقه برصاصة من مملوكه الصغير « صالح » الذى التجأ إلى خصومه . ولما أصيب رضوان طلب الحيل وخرج من ثقب ثقبه فى جدار بستانه، وخرج قاصداً البساتين فلم يبقه أحدونهبوا داره ، ثم التجأ إلى قرية الشيخ عثمان بالصعيد حيث مات بشرق أولاد يحيى ، ودفن فيها

وعمر رضوان بك باب القلعة بالرميلة وهو الباب المعروف بباب العزب وعمل حوله هاتين البديتين
المعظمين البايتين إلى اليوم بعد أن جددتا .

أسرة الشرايبي

ولم يكن الأمراء وحدهم هم الذين يمتلكون القصور الجميلة في القاهرة ، فقد كان من بين قصور
الازبكية قصر الناجر الغني الشيخ أحمد الشرايبي الذي استطاعت أسرته أن تنجب أمراء وأن يكون لها بمالك
وأن تشتهر بوفرة الغنى وسعة الثراء ، وقد عرف أفرادها كيف يستخدمون أموالهم فيما يفيد . فأهمهم أهل العلم
والأدب وامتلات خزائن كتبهم بالمخطوطات الثمينة النادرة وأشهر كتب المراجع . وكانوا يدفعون أى عمن
لأى كتاب يعرض فى الأسواق إذا لم يكن موجوداً فى مكتبتهم فإذا ازدانت به جعلوه تحت تصرف كل
زائر يقصدهم . وكان الأديب إذا رغب فى كتاب قصدهم وهو لا يشك فى أن سيجده فى مكتبة الشيخ
الشرايبي ، فكانت له الحرية بين استعارته أو امتلاكه إذا أراد من غير أن يسأله أحد إعادته إلى مكانه .
وكان أفراد هذه الأسرة الفاضلة من أشد التمسكين بذهب المالكية ، ويتزوجون من بين أفراد أسرهم ،
وكانوا غاية فى التحفظ ، لا يخرج بناتهم من بيوتهم إلا عند زواجهن ، فتقام لهن حينئذ حفلات حدث عن
عظمتها ولا حرج . . وقد ذكر الجبرتي فى تاريخه الشيء الكثير عن هذه الحفلات فقد كانوا على كثير
من الحذر لا يظهرون بناتهم أمام الناس . كانوا يتهززون فرصة المدعويين فى جامع أزبك (الذى شيده
الأمير المشهور أزبك ططخ ومنه أخذت الازبكية اسماً ، وقد هدم عام ١٨٦٩) اللواجه لبيتهم فآخذون
العروس ، ويسرعون بها إلى زوجها السعيد ، ويقصدون بيتها العامر الجديد تحت حراسة أعوانهم من المالك
والعبيد ، ثم تطلق الصواريخ ويتقاذف الناس المشاعل بين التهليل والقناء .

الحياة العقلية

وعناية هذه الأسرة باقتناء كتب العلوم والدين والآداب المختلفة ، تلقى ضوءاً ساطعاً نسترشد به عن
حال التربية والتعليم فى تلك الأيام . فلقد أنشئت المكتبات العديدة فى القاهرة فى أيام المالك الأولى .
وبستطاع الإسلام بمفكرة تامة عن الحالة الذهنية خلال القرنين السابع والثامن عشر عند ما نقرأ «عجائب
الآثار فى التراجم والأخبار» للمؤرخ العلامة عيسد الرحمن الجبرتي . فقد ذكر الكثيرين من الشعراء
والأدباء والعلماء الذين عاشوا فى عصره . وأورد فى تاريخه بالجزء الأول مناقشة حدث بين الوالى
أحمد باشا والشيخ عبد الله الشبراوى شيخ الجامع الأزهر فى عام ١١٦٣ هـ / ١٧٥٠ م وكان الباشا من
أرباب الفضائل ميالاً للعلوم الرياضية، فلما وصل إلى مصر واستقر بالقلعة وقابله كبار العلماء فى ذلك الوقت،
وهم: الشيخ سالم النراوى، والشيخ سامان المنصورى، والشيخ عبد الله الشبراوى تكلم معهم وناقشهم، ثم حدثهم
فى الرياضيات فأحجموا وقالوا: « لا نعرف هذه العلوم » .

فتعجب وسكت، وكانت للشيخ عبدالله الشبراوى وظيفة الخطابة بمجامع سارية بالقاهرة يطلع إليه كل يوم جمعة ويدخل عند الباشا ويتحدث معه ساعة ، وربما تغذى معه ثم يخرج إلى المسجد ، وفي ذات يوم قال له الباشا :

ونقل ما جاء بتاريخ الجبرتي من حديث هذا الباشا :

« عندنا بالديار الرومية أن مصر منبع الفضائل والعلوم وكنت في غاية الشوق إلى المجيء إليها ، فلما جئتها وجدتها كما قيل: تسمع بالمعدي خير من أن تراه . فقال له الشيخ « هي يامولانا كما سمعتم موطن العلوم والمعارف » ، فقال وأين هي وأتم أعظم علماءها ، وقد سألتكم عن مطلوبى من العلوم ، فلم أجد عنكم منها شيئاً ، وغاية تحصيلكم الفقه والمعقول والوسائل ونبذتم المقاصد ، فقال له : نحن لسنا أعظم علماءها وإنما نحن للتصدرون لخدمة الناس وقضاء حوائجهم عند أرباب الدولة والحكام وغالب أهل الأزهر لا يشتغلون بشيء من العلوم الرياضية إلا بقدر الحاجة الموصلة إلى علم الفرائض والمواريث كعلم الحساب ، فقال له : « وعلم الوقت كذلك من العلوم الشرعية ، بل هو من شروط صحة العبادة ، كالعلم بدخول الوقت واستقبال القبلة وأوقات الصوم والأهلة وغير ذلك ، فقال نعم معرفة ذلك من فروض الكفاية إذا قام به البعض سقط عن الباقين ، وهذه العلوم تحتاج إلى لوازم وشروط وآلات وصناعات وأمور ذوقية كرفة الطبيعة وحسن الوضع والخط والرسم والتشكيل والأمور العطاردية ، وأهل الأزهر بخلاف ذلك غالبهم الفقراء وأخلاق مجتمعة من القرى والآفاق فتندر فيهم القابلية لذلك . فقال وأين البعض ؟ فقال : موجودون في بيوتهم يسمى إليهم» . ثم أخبره عن والد الشيخ الجبرتي ، وعرفه عنه وأطنب في ذكره فقال : « ألتس منكم ارساله عنسدى »

فقال : « يا مولانا إنه عظيم القدر ليس هو تهت أمرى »

فقال : « وكيف الطريق إلى حضوره »

قال : « تكتبون له رسالة مع بعض خواصكم فلا يسعه الامتناع » ففعل ذلك وطلع اليه ولبي دعوته وسر برؤياه وواصله بالبر والإكرام ولازم المطالعة عليه مدة ولايته ، وكان يقول : « لو لم أغنم من مصر الا اجتماعى بهذا الأستاذ لكفانى » .

واتفق للوالى أنه لم يوفق فى حل مسألة من المسائل ، فاشتغل ذهنه وتبحر فكره إلى أن حضر إليه الأستاذ فى الميعاد ، فأطلعه على ذلك وعن السبب فى عدم المطابقة ، فكشف له علة ذلك . فلما انجلى وجهها على مرآة عقله كاد يطير فرحاً وحلف أن يقبل يده ، ثم أحضر له فروة من ملبوسه السمور باعها (والد الجبرتي) بثمانمائة دينار ، وكان يشتغل برسم اللزاول على ألواح كبيرة من الرخام صناعة وحفراً بالأزميل ، وكان ينقش عليها آياتاً من الشعر المناسبة ومنها :

مزولة متفلسة نظيرها لا يوجد راسمها حاسبها

هذا الوزير الأمجد تاريخها اتقنها وزير مصر أحمد

ونصب واحدة بالجامع الأزهر في ركن الصحن على يسار الداخل، وأخرى بسطح جامع الإمام الشافعي وأخرى بمشهد السادات الوفائية .

ويمكن أن يستنتج مما ذكره الجبرتي أن دراسات العلوم لم تكن عميقة بل سطحية بعكس دراسة العلوم الدينية التي كانت أعمق ، والواقع أن ذلك كان في أغلب الأحيان ظاهرة من ظواهر الحياة العقلية في مصر الإسلامية ، ومن عجائب حوادث ذلك العصر أن أشجع بين الناس بمصر أن القيامة ستقوم يوم الجمعة في السادس والعشرين من ذى الحجة (١١٤٧ هـ / ١٧٣٤ م) فودع الناس بعضهم بعضاً ، وكان يقول الإنسان لرفيقه بقي من عمرنا يومان ، وخرج الكثيرون من الناس إلى الحقول والمتنزهات قائلين لبعضهم البعض : « دعونا نودع الدنيا قبل أن تقوم القيامة » . وطلع أهل الجزيرة نساء ورجالا للاغتسل في النيل . ومن الناس من علاه الحزن وداخله الهم والوهم ومنهم من صار يتوب من ذنوبه ويدعو ويتهل ويصلى ، وكثرت فيهم المرح والمزج إلى يوم الجمعة المحدد ليوم القيامة فلم يقع شيء . ومضى يوم الجمعة وأصبح يوم السبت ، وهم يقولون فلان العالم قال إن سيدي أحمد البدوي والدسوقي والشافعي تشفعوا في ذلك ، وقبل الله شفاعتهم فيرد عليه الآخر : « اللهم انقنا بهم فإننا يا أخى لم نشبع من الدنيا . . » .

الرحالتان بوكوك ونوردن

وفي أثناء ولاية أمير أخور مصطفى أغا (١١٥٠ هـ / ١٧٣٧ م) زار مصر الرحالة الإنجليزي القس ريشارد بوكوك وكتب مؤلفه النفيس « رحلة للشرق وبلاد أخرى » في سفرين كبيرين . جاء هذا القس العالم عن طريق الاسكندرية ، وقصد رشيد لزيارة البطريرك « كوسماس » ، وتعرف إلى كبار المسالمين ورجال الكنيسة الرومانية الكاثوليكية من رهبان الفرنسيسكان ، وكانت بعثتهم الدينية تحت رعاية الإنجليزي ، وزار الرحالة مدينة المحلة الكبرى ، ثم قصد القاهرة . وقضى فيها أياماً لدراسة أحوال أهلها وأسوارها وآثارها ، وزار الفيوم وعاد منها إلى النيل فركب سفينة لمشاهدة بلاد الوجه القبلي وآثاره .

وفي نفس العام (١٧٣٧ م) جاء مصر الرحالة « فردريك نوردن » من ضباط البحرية الدنماركية بأمر ملك الدنمارك وكتب عن رحلته كتابه « رحلة إلى مصر وبلاد النوبة » في ثلاثة أجزاء ، ويعد مؤلفه من أهم ما كتب في الرحلات وأدقها وأوفها ، وله ما حقي مصور فيه بعض اللوحات لمدينة الاسكندرية والميناء الشرقية وقلعة قايتباي وقلعة أبو قير ورشيد والبحيرة ومصر القديمة ، وغير ذلك من بلاد مصر وأقاليمها الهامة .

وفي عام (١١٥٦ هـ / ١٧٤٣ م) شهدت القاهرة والياً جديداً هو « محمد الديقجي » ، وكان يريد القيام بجملة اصلاحية . فتمنع التدخين وكان يرسل كبير ضباطه على رأس الجند لتصطف في طرقات القاهرة لتفتيش المسارة والقبض على المدخين أو الذين يحملون الدخان ، ولانزال أشد العقاب بمن يضبطونه متلبساً بالجريمة ، لكن لم تطل مدة إقامة هذا الوالي واستدعى للأستانة . وجاء من بعده « راغب محمد » ، ثم الوالي

العالم أحمد باشا الوزير الكبير (١٧٤٨ م) الذى ذكره في عدة مناسبات المؤرخ الجليل الشيخ عبد الرحمن الجبرتي .

قاهرة على بك الكبير

(١٧٥٥ - ١٧٧٢ م)

قدر لقاهرة تلك الأيام أن ترى عجيباً بعد عجب : فإذا كنت من أحياء ذلك العهد وأتيج لك أن تركب متن طائرة تحاق بك في جو صعيد مصر ، إذن رأيت في أنحائه وميض نار يشتمل لهيها وفتناً قد تقاوم شرها . .

فحكاهم القاهرة يريدون أن يسيطروا على الأرياف ، وحكام الأرياف يريدون أن يحتفظوا باستقلالهم الإدارى يستمعون بما حصلوا عليه من أموال وخيرات . وبين هؤلاء الحكام معارك لا يخدم لها هيب . فاذا سار التاجر بأسطوله النبلى المحمل بخيرات الله من ناحية إلى أخرى وجب عليه دفع الأتاوة إلى شيوخ قطاع الطرق والانهبت عروضه ، وكان هؤلاء طائفة أخرى مستقلة عن كل الطوائف ، احترفت السلب وأيقنت أساليه وتفننت فيه وحصلت منه على الثروات الطائلة .

فى ذلك الجوال الحائق ظهر على بك الكبير كبقية أمراء هذا العصر مملوكا وكان واحداً من بين ألفى مملوك للأمر إبراهيم لكن كتب له أن يكوى ذا شأن عظيم فى تاريخ مصر . عاش منذ نعومة أظفاره بين مؤامرات الحياة تطيح برؤوس الأمراء . عاش مملوكاً جزءاً كبيراً من حياته ، امتاز بأساليب القسوة والعدو، وكان مملوكاً أكثر ذكاه وأشد صلابة وأكبر أطماعاً من غيره . كان يحبه مولاه فجعله حامل سيفه وكان الحظ يحالفه ويطيعه . صحب سيده مع قافلته إلى بلاد النبي صلى الله عليه وسلم بعد أن رقاها كاشفاً فسار فى طليعة الركب، وبينما كانت القافلة تسير التقت بها عصابة من قطاع الطرق، ققاومهم على بقلب ثابت ودحرم فلما عاد الأمير إبراهيم إلى القاهرة عزم على مكافأة على برتبة « بك » لكن صغر سنه ودسياسة أحد رؤساء المماليك حالادون ذلك . واستمر القدر يخدم علماً حتى تسلم مشيخة البلد فى القاهرة (١١٧٧ هـ / ١٧٦٣ م) وتمثلت فيه صفات الملك فاستطاع أن يستخلص لنفسه حكم مصر ، وبدأ يتخلص تدريجياً من مزاحمة زعماء المماليك المشاغبين ورقى أتباعه المخلصين ، وكان أعزهم لديه واحد منهم اسمه محمد . قلده البسكوية ثم لقب بأبى الذهب، وسرى أنه لم يكن مثلاً حسناً لعرفان الجميل بل أن فضل سيده عليه لم يزد إلا كفراناً بنعمته ا

ويضيق بنا المقام لو أردنا أن نثبت هنا ما حدث فى أيام مصر أثناء سيادة على بك الكبير ، لكننا لا يسعنا إلا التنويه بإعلانه استقلال البلاد عن الدولة العثمانية . فقد اتهم فرصة انشغال الدولة العثمانية بحربها مع الروس (١٧٦٨) وأعلن استقلاله وبدأ ينظم دولته الجديدة فى جميع مراقبها وعين على ماليها مدير الجمرى القديم المعلم « رزق القبطى » ونظم التجارة الخارجية والمواصلات ، واستتمت البلاد فى عهده بالأمن

وبشيء من الطمأنينة لم تستمتع بهما في عهد غيره ، وإنما في البلاد نوع من الشعور الوطني إذ رأيت حاكمها العظيم يقطع صلته بالدولة العثمانية (١٧٦٩) ويجعل مصر مركزاً ممتازاً بين الدول .

وفي أيام علي بك الكبير مر بالقاهرة الرحالة الإنجليزي « جيمس بروس » في طريقه إلى « اثيوبيا » وقد تقابل مع المعلم رزق الذي كان من المتبحرين في علم الفلك ، فأفاد الرحالة من علمه كثيراً . ولما جاء إلى القاهرة أرسل الرحالة إلى المعلم رزق هدية ثمينة اعترافاً بجميله ، ولكنه أعادها إليه وبصحبها هدية منه وأعطى رسوله كتاباً دعا فيه الرحالة إلى زيارته في بيته بعد الاستراحة من عناء رحلته لكي يطلعه على عدده وآلاته الفلكية . ثم نال اذناً من علي بك الكبير لكي يقوم برحلته وهو في أمان واطمئنان ، وقد أشار عليه المعلم رزق بأن يقضى أيامه في القاهرة ضيفاً في حى قلعة بابلون ، وأوصى البطريرك بأن تهيأ له بعض الغرف ، وبعد أيام استأنف الرحالة رحلته النيلية إلى الأقصر ، ومنها أخذ طريقه إلى القصير فأثيوبيا عن طريق البحر الأحمر ، ولما عاد بعد انتهاء رحلته لم يجد علي بك إذ انتقل الحكم إلى ملوكه أبي الذهب .

أبو الذهب في القاهرة

إن قصة المعارك التي دارت بين علي بك الكبير ومحمد بك أبو الذهب طويلة وليست في متناول هذا الكتاب ، ولكنها تدل على ما كانت عليه أخلاق أبي الذهب من نكران الجميل والمكر والدهاء . تبادل علي بك في ارسال التجريدات العسكرية للقضاء على منافسيه في الشام والحدود ، وأخيراً تحصن مع جيشه الباقي عند دير البساتين الذي استولى عليه من الأقباط وجمله حصناً حربياً وبني المعقل والحصون من نهاية ذلك الدير الكائن على شاطئ النيل حتى سفح المقطم ، ووضع المدافع الكبيرة في ذلك الحط الكبير الطويل بين تلك الاستحكامات القوية ، ومع كل تلك الاستعدادات الحربية فإن أبا الذهب جاء لمحاربتة وتغلب عليه وهزم جيوشه التي خانها أغلبها وانضمت إلى جيوش أبي الذهب .

دخل أبو الذهب القاهرة دخول الفاتح المنتصر دون أن يضطر لعمل حربي لأن الأهالي وعدداً كبيراً من الأمراء والمماليك كانوا من أعوانه ، ولكن مع سnoch تلك الفرصة لأبي الذهب وامتلاكه البلاد بهذه السهولة فإن أول أعماله كانت سلب دير البساتين واضرام النار فيه .

ولا شك أن علي بك الكبير من بين شخصيات أواخر القرن الثامن عشر ، لكن اشتغاله بالسياسة والحروب التي استأزمتها محاولته للاستقلال بمصر لم يجعله قادراً على تخليد اسمه بما يتركه العظماء عادة بعد وفاتهم من الآثار ، ومع ذلك فإنه أمر بتجديد خشب قبة مسجد الإمام الشافعي بالقاهرة ، وجدد نقوشها من الداخل بالذهب واللازورد وطلاها بالألوان الزاهية . وقد ضمن النقوش برقة القبة تاريخاً شعرياً منظوماً مكتوباً بالحط النسخ الجميل ، يبدأ بالبسملة وبعض الآيات الكريمة ، ثم عبارة تنص على ما قام به من التجديد وتاريخ ذلك في عام ١١٨٦ هـ / ١٧٧٢ م . وعلاوة على ذلك فقد هدم الميضأة التي كان قد شيدها عبد الرحمن كتحداً ، وبني أخرى مستطيلة متسمة حولها صنابير المياه ومقاعد الراحة المستديرة .

وشيد على بك قصرآ بالأزبكية داخل درب الشيخ عبد الحق السنباطى ، فى المسكان الذى تشغله دار الأوبرا ، ولا يزال الشارع القريب منها يسمى باسم همارع سيدى عبد الحق السنباطى ، وكان القصر يطل على بركة الأزبكية ، الحلق به حوش وساقية وطاحون وسكنته من بعده الست نفيسة متولדתه .

وأنشأ قيسارية كبيرة قرب شاطيء النيل ببولاق قريباً من وكالة الحطب تحت ربع الحرنوب ، وبني خاناً تعالوه مساكن بخارجه حوانيت وشونة غلال على شاطيء النيل ويتوسط الجميع مسجد . وكان ذلك فى عام ١٧٧١ ، وقد انتهى العمل فيها بعد وفاة على بك (١) .

ولما توفى على بك ١١٨٧ هـ ١٧٧٣ م عقب هزيمته ، دفن بالقراقة الصغرى قرب الإمام الشافعى ، وتوجد مقبرته الرخامية إلى اليوم وحولها بعض النقوش والكتابات بخط واضح ، والمعروف أن أبا الذهب هو الذى أمر بعمل المقبرة .

* * *

دخل أبو الذهب القاهرة منتصراً ولكنه لم ينعم طويلاً بثمار نصره إذ توفى ودفن بجامعه الذى شيده أمام الأزهر وكان خاتمة الجوامع العظيمة التى أنشئت فى القاهرة فى عهد حكم الباشوات الأتراك .

ولقد تمتعت مصر فى أيام أبى الذهب بمهد من الرخاء والطمأنينة ، وترك له الباب العالى الأمور تجرى كما يريد ، وفى أواخر عام (١١٨٧ هـ / ١٧٧٤ م) شرع أبو الذهب فى بناء مدرسته تجاه الجامع الأزهر وكان محلها رباغ متخربة فاشتراها من أصحابها وهدمها وأمر ببنائها وهى على طراز جامع سنان ببولاق . ولما تم البناء فرشت بالحصر ومن فوقها البسط حتى فرجات الشبايك وقرر فيها التدريس على المذاهب الحنفية والمالكية والشافعية ورتب للمشايخ المرتبات المناسبة . وفى يوم افتتاح المسجد صلى الأمير الجمعة فى (شعبان ١١٨٨ هـ) . ولما انقضت الصلاة أحضرت الخلع والفراوى ، فألبس الشيخ الصعدي والشيخ الراشدى الخطيب والمفتين الثلاثة فراوى سمور وباقي المدرسين فراوى بيضاء ووزع فى ذلك اليوم على الخدمة والمؤذنين الذهب والهدايا . ومن آثار عهده أيضاً سبيل السلطان مصطفى بالسيدة زينب وجامع الهياثم وبيت الست حفيظة (سامى البارودى فيما بعد) بباب الخلق ووكالة أبى الذهب بالصناديق وسبيل محمد أبى الذهب بشارع التبليطة وسبيل الشيخ الطاهر بالخرديجة وقصر المسافرخانة بقصر الشوق . (١١٩٣ هـ / ١٧٧٩) .

عمارة عبد الرحمن كتبخدا

كان الأمير عبد الرحمن بن حسن جاويش كتبخدا مصر (محافظة لها) في عام ١١٦١ هـ / ١٧٤٤ م : وكان مغرمًا بالبناء فأنشأ ووجد كثيرًا من المساجد والأسبلة والأضرحة . .

وليس من شك في أن عبد الرحمن كتبخدا يعتبر في مقدمة الساعين في تجميل القاهرة وتعميرها ، وكان صاحب نفوذ عظيم قبل أيام على بك الكبير . وقد ورث عبد الرحمن ميوله الفنية عن أبيه الذي استطاع أن يشيد مما جمعه من ثروة لا بأس بها مدرسة ومسجدًا ونافورة بالقرب من بركة الأزبكية . وفي يوم افتتاحها ملأ حوضًا كبيرًا وكل ما وصلت إليه يده من الأواني بالشراب ليسقى الأهالي ، وبنى أيضاً مدرسة للعميان في الأزهر ومدشآت خيرية أخرى ...

أما ابنه عبد الرحمن فقد بزّه في هذا المضمار إذ جمع في أكثر مبانيه بين الجمال والفن ، ويتجلى ذلك في سبيله الرائع الواقع في ملتقى شارعى النحاسين والجمالية والمعروف بإسمه حتى اليوم . له ثلاث جهات وبالدهور الأرضى منه الكتاب . وأنشأ عند باب الفتوح مسجداً وصهرنجياً وكتاباً . وأنشأ بالقرب من قراة الأزبكية سقاية وحوضاً لسقى الدواب وكتاباً . وزاد في مقصورة الجامع الأزهر مقدار النصف طولاً وعرضاً اشتملت على خمسين عموداً من الرخام تحمل مثلها من البوائك المرتفعة المتسعة المشيدة من الحجر المنحوت وبنى به محراباً جديداً وأقام له منبراً وأنشأ له باباً عظيماً جهة حارة كتامة وبنى بأعلاه مكتباً بقناطر مفعودة على أعمدة من الرخام لتعليم الأيتام من أطفال المسلمين القرآن . وبنى المدرسة الطيرسية وجعلها مع مدرسة الاقباوية المقابلة لها من داخل الباب الكبير من أحسن المباني ضخامة وعظمة . كما أنه بنى المشهد الحسينى وأنشأ عند باب البرقية المعروف بالغريب جامعاً وصهرنجياً وحوضاً وسقاية ومكتباً . وشيد جامعاً بمجهة الأزبكية ومكتباً وحوضاً وميضأة وساقية ومنارة . وبنى مشهد السيده زينب بقناطر السباع ، ومشهد السيدة سكينه بخط الخليفة ، والمشهد المعروف بالسيدة عائشة بالقرب من باب القرافة ، والسيدة فاطمة والسيدة رقية ، وعمر المدرسة السيوفية ووجد المسارستان المنصوري وغير ذلك من المساجد والأسبلة والقناطر والجسور التي شيدها خارج القاهرة .

ومن عمارة عبد الرحمن كتبخدا دار سكنه بحارة عابدين ، وكانت من الدور العظيمة المحكمة الوضع والاتقان ، لم تماثلها دار بمصر في حسنها وزخرفة مجالسها وما بها من النقوش والرخام والقاشاني والذهب المعوه وأنواع الأصباغ وغرس بها بستاناً بديعاً بداخله قاعدة متسعة مربعة الأركان بوسطها نافورة مفروشة بالرخام وأرضها مركبة على أعمدة من الرخام الأبيض . وبلغ عدد المساجد التي أنشأها ووجددها وأقيمت فيها الخطبة والجمعة والجماعة ثمانية عشر مسجداً ، يضاف إليها الزوايا والأسبلة والسقايات والمكاتب والأحواض والقناطر .

عظم شأن عبد الرحمن حتى بدأ أمر « على بك الكبير » يستفحل، فأخرجه منفيًا إلى الحجاز وذلك في أوائل ذي القعدة (١١٧٨ هـ) فأقام بالحجاز اثني عشر سنة حتى أحضره يوسف بك أمير الحج في (١٧ صفر سنة ١١٩٠) بعد أن استولى عليه العي والمهرم فدخل إلى بيته مريضاً، فأقام فيه أحد عشر يوماً ومات ودفن بالمدفن الذي أعده لنفسه بجوار باب الصعايدة بالأزهر عند باب القبلية وسار في جنازته العلماء والأساتذة والطلبة وجميع الذين استفادوا من خيراته .

سونيني وسافاري

بعد مرور عشر سنوات على مجيء الرحالة الإنجليزي « بروس » أوفدت الحكومة الفرنسية الميسو سونيني فيما بين عامي (١٧٧٧ هـ و ١٧٨٠ م) للوقوف على الأحوال السياسية والعلمية التي احتاجتها حكومة الملك لويس السادس عشر لوضع خططها في الاستيلاء على مصر . تلك الخطة التي لم تتحقق إلا على يد نابليون حين غزا مصر سنة ١٧٩٨ على رأس حملته المشهورة . ولقد كان سونيني باحثاً وعالمياً إنما كانت طبيعته لا تتفق مع مهمته التي جاء من أجلها إلى مصر . فكان يصدق كل ما يقال له وما يسمعه ممن اختلط بهم في أثناء رحلاته ولو كان ما قيل ضد المصريين أنفسهم أو المماليك . ولقد قضى معظم سني رحلاته في رشيد حيث قامت جالية كبيرة العدد من الأجانب . وذكر « سونيني » في كتابه الذي طبع على نفقة الحكومة الفرنسية بعنوان : « رحلة في مصر العليا والوجه البحري » إن شوارع القاهرة كانت أقدر شوارع رآها في جميع البلدان التي شاهدها ، وأنه إذا سار أحد المماليك أو رجال الدين أو الموظفين في الطريق تحتم على الأهلين السائرين سواء أكانوا من الوطنيين أو الأوربيين أن يفسحوا له الطريق ويقفوا في أماكنهم ويضعوا أيديهم اليمنى على صدورهم تحية الاجلال والخضوع يظلموا وقوفاً حتى يغيب عن أبصارهم . وإذا قصر أحدهم في تأدية هذه التحية عوقب في الحال فيحاط بستة من القواصين ويوسعونه في الحال ضرباً مؤلماً بعصمهم الطويلة .

ويستطيع القارئ أن يلمح صورة للقاهرة وقد استعدت لاستقبال أحد الولاة الأتراك الذين وفدوا عليها للحكم باسم الخليفة من خلال ما كتبه « سافاري » وقد وصف حفلة استقبال شاهدها في المسد التي قضاها في مصر بين عامي (١٧٧٧ و ١٧٧٩ م) قال :

عند ما يصل الباشا الجديد إلى الاسكندرية يبلغ الديوان نبأ وصوله فيرسل شيخ البلد (زعيم المماليك) وفداً من أكفأ البكوات لاستقباله والحفاوة به فيقدمون له الهدايا ويظهرون له الطاعة، وفي خلال مقابلتهم يتحسسون ويستطلعون نيته وأسراره مما يتسقطونه من أقواله وأقوال حاشيته ويتعرفون الأمور التي جاء بها من الأستانة ، فإذا رأوا أنه لا يوافق أهواءهم أرسلوا بذلك رسولا إلى شيخ البلد في القاهرة ، فيعقد الديوان ويبلغ الباشا أنهم لا يريدونه ، ثم يرسل إلى الباب العالي بأن الباشا الجديد جاء بنيات عدائية تؤول إلى حدوث الفتنة بين رعاياه المخلصين ويطلبون استدعاءه ، فلا يرفض البساب العالي طلبهم . أما إذا آنس

الرسك من الباشا أن لاخيفة منه فإنهم يدعونهم إلى القاهرة ، فيركبه الوفد سفينة ضخمة وينحدرون في معيته تحيط به السفن المزينة بالأعلام وفيها الطبول والزمور ، ويتقدم الباشا هذا الأسطول على ظهر سفينة تختال في سيرها تصحبهم السفن التي تلقاهم في النيل إلى أن يصلوا إلى بولاق ، وهناك ترسو السفن وينتدب شيخ البلد بعض السناجق لاستقبال الباشا في الميناء أو يستقبله بنفسه فيهنئه أمراء الممالك بالقدوم ويقدم له أغا الانكشارية (محافظ القاهرة) مفاتيح القلعة ويدعوه إلى الإقامة فيها .

قال سافارى : « وقد شاهدت بعيني وصول الباشا ودخوله المدينة في موكب وزينته . رأيت الموكب تتقدمه فصائل الجنود المشاة يسرون صفيين وموسيقاهم أمامهم وأعلامهم خفاقة فوق رؤوسهم ، يليهم الفرسان وعددهم من خمسة آلاف إلى ستة آلاف فارس يسرون بنظام حسن ويحملون الرماح الطويلة ترينهم ملابسهم الفضيضة اللامعة وشواربهم الكبيرة فنكسهم منظرأ حريباً يبعث الروعة في النفوس . يلي هؤلاء البكوات مرتدين الملابس البديعة وحولهم حاشيتهم من الممالك يمتطون صهوات الجياد العربية الأصيلة وعليها غواش موشاة بالذهب والفضة . ورأيت أعنة خيول الأمراء مرصعة باللؤلؤ والأحجار الكريمة وعلى خيولهم السرج تتلألأ من الذهب . وكل « بيك » يسير في الموكب على هذه الصفة . كانت جيادهم مجتمعة غاية في الرونق والفخامة زينها جمال الفرسان وشكل ملابسهم وحسن استوائهم على متون جيادهم ، يليهم الباشا يسير الهوننا تتقدمه كوكبة من مائتي فارس وفرقة موسيقيين وأمامه أربعة جياد يقودها أربعة من السواس عليها غواشها موشاة بالذهب مرصعة بالأحجار الكريمة . وكان الباشا متمطياً جواداً كريماً وقد وضع على عمامته ريشة من قطع الماس الكبيرة يتوهج سناها في أشعة الشمس . رأيت في هذا الموكب صورة من مظاهر الأبهة الشرقية التي كانت تحيط ملوك آسيا وسلاطينها عندما يظهرن للجهاير . بدأ الموكب في الساعة الثامنة صباحاً واستمر إلى الظهر وفي اليوم التالي جمع الباشا الديوان بالقلعة ودعا البكوات إلى حضوره وجلس على منصة فكأنه السلطان على عرشه . وتلاكخياه (وكيه) كتاب الباب العالي . فطأ السناجق (البكوات) احتراماً لولى الأمر وأمره وتمهدوا بتنفيذ ما لا يعارض امتيازاتهم .

وبعد انقضاء الديوان أهدى الباشا إلى شيخ البلد كرك سمور فاخراً وجواداً مطهما وخلع على كل « بيك » قباء (قفطاناً) وبذلك تمت حفلة تنصيب الباشا الذي لا يستطيع بعد تلك الحفلة العظيمة أن يخرج من القلعة إلا بإذن من شيخ البلد ! » .

ولا يبعد أن يكون هذا الوصف هو الذي أعد لاستقبال إسماعيل باشا الذي عين لولاية مصر عام (١١٩٢ هـ — ١٧٧٨ م) . وذلك في أثناء الفترة التي قضاها « سافارى » في القاهرة وكان على مشيختها إما إسماعيل بك أو إبراهيم بك . . .

القاهرة بين البكوات إسماعيل ومراد وإبراهيم

مات أبو الذهب فتولى الأمر بعده البكوات الثلاثة إسماعيل ومراد وإبراهيم، وكانوا من محاليلك على بك نغانوه وخرجوا عليه . وكان أولهم يحكم مصر في أثناء فتوحات أبي الذهب في الشام ، وثانيهم تولى قيادة الجيش المصرى بعد وفاة أبي الذهب . وكان إبراهيم بك حاكماً للقاهرة . ولم تمر الأيام على اتحادهم حتى انقسموا فريقين فاستعد إسماعيل لمقاومة زميله ومناظره على مشيخة البلد، واستطاع أن يتفقد مهام الأمور متدرجاً بكل وسائل الشدة والحشونة مستنداً إلى نفوذ الوالى . ومع جبروته كان منافسوه المماليلك يتهنزون الفرص لمقاومته ومحاربهه للتخلص منه ، فأفلحوا في إبعاده عن مصر إذ فر مع أتباعه إلى الشام وبذلك خلا الجو لمراد بك وإبراهيم بك . وانقسم أمراء مصر إلى جماعتين : جماعة قيل لهم المحمدية نسبة إلى محمد بك أبي الذهب، وقسم يسمى العلوية نسبة لعلى بك الكبير . وقد كان هذا الإقسام سبباً في قن وحروب ومكائد . وأحس العلوية من مراد بك الصدر ، فتجمعوا وتحصنوا في حوش الشرقاوى ، وأقاموا التاريس في جهة باب زويلة وباب الحرق والسروجية . أما إبراهيم بك فقد تحصن بالقلعة وصوب مدافعه على أحياء العلوية اثنين وعشرين يوماً ، بينما كان جنوده يهجمون على أتباعهم في الحارات والدروب فغربوها . فاضطر العلويون للفرار إلى الشرقية فتبعهم أعداؤهم وأفنؤهم عن آخرهم إلا القليلين .

وساد السكون، وأقر الصلح على أن يعطى إسماعيل بك أخيم وأعمالها، ووزعت على بعض أتباعه مناطق لا يتعدونها . ولكن بعد قليل انتقض الصلح، وعادت الأمور إلى سابق مجراها وازداد الموقف تعقداً بما أحدثته المنافسة بين الزعيمين إبراهيم ومراد ووقفت جيوش كل منهما أمام الأخرى بالمرصاد . جموع مراد في الجزيرة وجموع إبراهيم بك في مصر القديمة . واستمرت الحال عشرين يوماً بين قصف المدافع وأزيز الطلقات، واشتد البلاء بالأهالى حتى عقد الصلح بين الأميرين . نفضى أمراء حزب إسماعيل عاقبة هذا الصلح وهاجروا من مصر فسبقتهم جموع إبراهيم ومراد وجماعة من العزب من خلف الجبل وقطعوا الطريق عليهم، وقتلوا منهم عدداً كبيراً جداً، ولما عادوا استولوا على أملاكهم وأموالهم وأولادهم . وبالتخلص من إسماعيل بك عاد النفور ثانية بين الزعيمين حتى سعى بينهم بعض المشايخ والأمراء ، واصطلحاً ثانية !

وكانت سنة ١١٩٩ هـ من أسوأ السنين التى عرقتها مصر، فانتشر وباء الطاعون وانخفض النيل وانقطعت الطرق، وخربت أقاليم بأسرها وانتشر الفلاحون في القاهرة بنسائهم وأولادهم يضحجون من الجوع ويأكلون ما يتساقط في الطرقات من قشر البطيخ وأوراق الشجر . واشتد الكرب حتى أكلوا الميتة من الحيل والحير والجمال بينما كان الأمراء كعادتهم ينهبون المدينة ورجالهم يسطون على الأرياف كأنهم لا يشاهدون أمامهم تلك الكوارث التى تفتت الأكياد . وكثرت حوادث الإعتداء على الأوربيين، فأرسلت الدولة العثمانية عام ١٢٠٠ هـ حسن باشا القبطان على رأس جيش عثماني جاء عن طريق البحر أفنى به عدداً كبيراً من قوات المماليلك في رشيد والرحمانية . ودخل القاهرة ونزل في بيت إبراهيم بك عند قصر العينى على

شاطيء النيل وعكف على إصلاح الإدارة . ثم استقدم إسماعيل بك وزميله حسن بك الجداوى من الصعيد فأرسلهما في جيش بقيادة عابدين باشا ودرويش باشا قائدى الحملة العثمانية التي جاءت مصر عن طريق البر للقضاء على مراد بك وأتباعه في الصعيد فهزموهم وظلوا يتبعونهم إلى الشلالات ، ثم عادت الجنود العثمانية منصوره إلى القاهرة .

في تلك الفترة تقلد ولاية مصر عابدين باشا ، وانتهت مهمة حسن باشا القبطان . لكنه قبل مبارحته القاهرة ، أقام عليها إسماعيل باشا شيخاً للبلد . فعهد هذا إلى صديقه القديم حسن بك الجداوى بامارة الحج ، واتفقا معاً على اقتسام الإيراد . ثم أكمل إسماعيل بك بناء قصره وشيد مقعداً ضخماً لم يكن له مثيل في مقاعد بيوت الأمراء (١) .

وفي عام ١٧٩٢ م وفد على مصر وباء الطاعون ، وكان شديد الوطأة بلغ عدد موته نحو الألف في اليوم الواحد في القاهرة وحدها وتقلد حكومتها في يوم واحد ثلاثة حكام وفي كل بيت إسماعيل بك . وقد أصيب بالبواب وتوفي . فتنازع على مشيخة البلد حسن بك الجداوى وعلى بك الدفتردار واتفقا فيما بينهما على تأمير « عثمان بك طبل » فسكن بيت سيده وتولى مشيخة البلد أياماً قلائل ثم سلمها لخصومه . وفي تلك السنة خلف محمد باشا عزت الوالى إسماعيل التونسى . فاستدعى ابراهيم بك ومراد بك فدخلا القاهرة في (١٢٠٥ هـ ١٧٩٢ م) وفر حسن بك الجداوى إلى الصعيد واستلم الإثنان أزمة الأمور بالتناوب أحدهما مشيخة البلد وثانيهما اامارة الحج .

وفي تلك السنة أشيع بين الناس انه في ليلة السابع والعشرين من شهر جمادى الأولى في نصف الليل ستحدث زلزلة قوية تستمر سبع ساعات . فلما كانت الليلة المذكورة خرج أكثر الناس إلى الصحراء وإلى الأماكن الفسيحة مثل بركة الازبكية وبركة الفيل وغيرها ونزلوا في السفن وباتوا ينتظرون إلى الصباح . فلم تحدث زلزلة وأصبحوا وهم يتضحكون على بعضهم ؟

وذات يوم غيمت السماء غيماً كثيفاً وهطلت أمطار غزيرة مصحوبة برعد شديد الصوت وبرق متتابع قوى اللعمان واستمر طول ليلة الجمعة الخامس من شهر صفر فسقطت الدور القديمة على ساكنيها ونزلت السيول من ناحية الجبل الأحمر فملأت الصحراء وخارج باب النصر وامتدت إلى جهة الجمالية وجامع الحاكم على مسافات بعيدة في الحارات المجاورة وخرب بسبب المياه أكثر خطط الحسينية وصادف ذلك اليوم دخول الحجاج إلى القاهرة فأفسد مواكبهم وجرف السيل سراقق أمير الحجاج وخيام الأمراء والكبراء . وامتلات الوكالات بالمياه وهدمت مئات القبور وتحول خارج باب النصر إلى بركة تمتدة كبيرة .

(١) ذكر الجبرتي أن إسماعيل بك شيد في طره على شاطيء النيل قلعة ، وجعل بها مساكن ومخازن وأبراجاً وأبنية أخرى تمتد من القلعة إلى الجبل . .

القاهرة بين الأميرين ابراهيم ومراد

في أيام سطوة إبراهيم ومراد الأولى استأذن «سليم أغا» مستحفظان منهما في فتح الباب الكبير للجامع السلطان حسن المواجه لسوق السلاح وهدم الحوانيت التي أنشئت بأسفله ، وكان قد سد احدى وخمسين سنة بسبب المعركة التي قتل فيها أحد عشر أميراً من أمراء محمد بك الدقتردار (١١٤٩ هـ) فأذنا له بما أراد . فقصد بنفسه إلى الجامع راكباً ومعه العمال والصناع وفتح بابه المسدود وصنع له باباً جديداً وبني له درجات واسعة ومصاطب وأحضر نظاره وأمرهم بالصرف عليه ، وكان يأتي كل يوم لمباشرة العمل بنفسه وأصاح ما تهدم من أجزائه ونظف جدرانها ورخامها وأعاد إليه سابق رونقه وبهائه .

على أننا لم نقف على شيء من آثار مراد بك أو زمياله إلا ما وصفه بعض الكتاب الأوربيين عن قصورها الجميلة . فقد قدم إلى القاهرة «فيغان دينون» بعد استيلاء الفرنسيين عليها عن طريق رشيد ، وألف كتاباً عن رحلته وصف فيه ما كان في « قصر مراد بك » بالجيزة وصفاً بليغاً بما فيه من طرقات وبساتين وأثاث . وكان القصر يشغل مساحة كبيرة من الأراضي التي تحتلها اليوم حدائق الحيوان والقصور الجميلة المواجهة لها . وقل أن يجد المرء مفتخرة لهذا العصر فهو في الواقع فترة من تاريخ مصر لم تسجل لها حسنات تستحق الذكر ، بل كانت اضطراباتهم وقلقلها أكبر محمد للحوادث التي أدت إلى نجاح الحملة الفرنسية .

كانت مصر مزروعة تقدم للأميرين ما شاءت أهواؤهما من مال وخيرات ، وكان أتباعهما يمرحون في المدن والأسواق ويدخلون الحوانيت والوكالات وينهبون ويسرقون ويخطفون ثم يقتلون ويمرحون ويولون الأدبار . إن تاريخ تلك الحقبة في الزمان وصمة سوداء في تاريخ هؤلاء المماليك الذين أتاحت لهم أسوأ الأقدار التصرف في أمور مصر والتسلط على حكم أبنائها .

فلقد تتابعت حوادث الخراب حتى مات كثيرون من الجوع ليلاً ونهاراً في الطرقات ، بينما كانا وحدهما يسعدان ويمرحان بالنعم . وفي تاريخ الجبرتي بين حوادث عام (١٢٠٦ هـ / ١٧٩٢ م) وصف حفلة زواج ابنة ابراهيم بك « عديلة هانم » بالأمير أحمد ابراهيم بك المعروف بالوالي أمير الحج سابقاً ، وأنه عمر لها بيتاً خاصاً بجوار بيت الشيخ السادات وأسرف أبوها في جهازها وشراء الخلى والجواهر وغيرها من الأواني الفضية والذهبية . وأقام ليالى الأفراح بركة الفيل حيث نصبوا أمام بيوت الزعماء الصواري الكبيرة والملاهي وأصحاب الألعاب ، وقد دعا ابراهيم بك الأعيان والأمراء والتجار وقدموا للعروسين أئمن الهدايا . كما دعا أيضاً « الباشا » فزل من القلعة وأهدى للعروس جواهر ومصاغات نفيسة . وأقيمت حفلة العرس في رابع المحرم وخرجت العروس من بيت أبيها في عربة عجيبة الشكل وسار أمامها الكشاف والأمراء .

وبعد انتهاء الأفراح بمباهجها وأغانيتها خرج الأميران مراد و ابراهيم من القاهرة مع بعض أمرائها إلى جهة العادلية حيث أقاموا مدة ، ومنها قصد « مراد بك » ناحية أبي زعل، وقصيد ابراهيم بك وجماعته ناحية

الجزيرة . وفي أثناء خروجهما نهب أتباعهما ما صادفوه من الدواب وهجموا على الوكالات التي بياب الشعيرة وأخذوا ما عثروا عليه من الجمال والحمير . ولما وصل مراد بك إلى أبي زعبل نهب عرب الصوالمحة في خيامهم واستولى على أغنامهم وقتل منهم نحو خمسة وعشرين شخصاً ، ثم قبض على مشايخ أبي زعبل وحبسهم وفرض عليهم غرامة أحد عشر ألف ريال .

وفي أيام مشيخة الأميرين حضر الصدر الأعظم يوسف باشا للاسكندرية متوجهاً إلى الحجاز ، فعنى الأمراء باستقباله . ولما وصل إلى القاهرة ، أعد له قصر العيني وذهب الأميران مراد وإبراهيم للقائه في موكب عظيم نخلع عليهما خلعاً ثميناً وقدم لهما جوادين هدية . كذلك ذهب إليه الوالي مسلماً عليه وعاد إلى القلعة . وعين لحراسته عبد الرحمن بك الإبراهيمي ، وخصص له البيت المواجه لقصر العيني . وبعد أيام سعد يوسف باشا إلى القلعة في موكب كبير وعاد إلى قصره محملاً بالهدايا التي قدمها إليه الزعمان ، وكانت خمسمائة أردب قمح ومائة أردب أرز وأقمشة هندية . ولما انتهت زيارته سافر إلى السويس ليبحر منها إلى جدة .

في الوقت الذي كانت فيه مظالم الأمراء تنو إلى كان مراد بك يشيد قصره العظيم في الجزيرة ، وقد وصفه وصفاً بليغاً الكاتب الفرنسي « فيفان دينون » في كتابه كما سبق ذكره .

وقد ذكر المسيو « مارسل » المستشرق ، ومدير المطبعة التي أنشأها نابليون إلى مصر ، أن مراد بك فرض ضريبة كبيرة على اليهود ، ولما كانت ثقيلة لا تحتمل عبئها تلك الطائفة ، اجتمع زعمائهم وتداولوا في الأمر وقر رأيهم على ارسال جبرين للاجتماع بمراد بك وإقناعه بأن عمرو بن العاص لما شيد جامعهم دفن في أرضه كنزاً عظيماً ، فرفع مراد الضريبة وأمر في اليوم الثاني بترميم الجامع . وكان غرضه الحقيقي التنقيب عن هذا الكنز الموهوم . ولما تهدم الجامع ولم يجد شيئاً اضطر إلى إعادة بناء الجامع وصرف عليه أموالاً عظيمة فأقام معظم عمده وشيد منارتين ، وجدد جميع سقفه بالحشب وبيض جدرانها ، فتم على أحسن صورة ، وصلت به الجمعة في آخر رمضان سنة ١٢١٢ هـ ، وحضرها الأمراء والأعيان والفقهاء . وبأعلا قبلته الرخامية لوح مكتوب فيه أبيات من الشعر منها :

أنظر لمسجد عمرو بعد ما درست رسومه صار يحكي الكوكب الزاهي

نعم الوزير الذي لله جسده مير اللواء مراد الأمر الناهي

وعلى أحد أبواب الجامع العربية اسم مراد بك بتاريخ ١٢١١ هـ وستة أبيات من الشعر منها :

أحيا لنا ربنا بيتاً لطاعته وكان من قبل مصباحاً بها فطفي

وانقض بنيانه والمسلمون غدوا من أجله قاصرين الباع في أسف

العلم والعلماء في العصر العثماني

كان الأزهر المعهد الوحيد الذي تدرس فيه العلوم ولولاه لانطفأت آخر شعلة للعلم في مصر . ولقد ظلت الآداب العربية إلى عهد السلاطين البحرية والجراكسة حافظة مكاتها التي كانت لها من قبل . وإليهم عاد الفضل في انقاذ آداب اللغة العربية من غزوات المغول التي كادت تقضي على العلوم والآداب العربية في الشرق وكانت مصر ملجأ الناطقين بالضاد ممن فروا أمام التتار في العراق وفارس وسوريا وخراسان ، واستظلت العلوم والآداب برعاية الملوك والسلاطين في مصر وبنخ فيها طائفة من فطاحل الشعراء والأدباء والعلماء كالبوصري صاحب البردة ، والسراج ، والوراق ، وابن نباتة المصري ، والقلقشندي صاحب صبح الأعشى والأبشهي صاحب المستطرف ، وابن منظور صاحب لسان العرب وابن هشام النحوي ، وشمس الدين السخاوي صاحب الضوء اللامع ، وابن خلكان المؤرخ صاحب وفيات الأعيان ، والعيني المؤرخ والمحدث ، وابن دقاق والمقرزي صاحب الخطوط وأبو الفداء الجغرافي المؤرخ والذهبي والنويري صاحب نهاية الأرب وابن تفرى بردى صاحب النجوم الزاهرة وجلال الدين السيوطي والدميري وابن إياس المؤرخ الذي أدرك الفتح العثماني ، وأرخ له . واستضافت مصر في ذلك العصر جماعة من أئمة العلم والفلسفة في الشرق ، كالإمام ابن تيمية ، وفيلسوف المؤرخين ابن خلدون . (١)

أما في عهد الولاة العثمانيين والبكوات المماليك فقد اضمحلت الآداب العربية ونحمت القرائح . وأصبحت القاهرة بعد أن كانت مدينة خليفة المسلمين ، وعاصمة دولة مستقلة ومشعل الشرق العربي ، عاصمة لولاية تابعة للأستانة وصارت مخاطبات السلاطين والولاة باللغة التركية بعد أن كانت العربية لسان الحكومة حتى نهاية دولة السلاطين والجراكسة ، واندثرت المدارس التي كانت زاهرة في عصور الفاطميين والأيوبيين وخلفائهم السلاطين البحرية والجراكسة ، وتبددت خزانات الكتب التي أنشأها الفاطميون والمماليك ولم يبق منها إلا بعض المكتبات الملحقة بالمساجد ، ككتبة الأزهر التي احتوت إلى عهد الحملة الفرنسية على نحو ٣٣٠٠٠٠ مجلد . وآلت بعض المدارس الفخمة والمباني العظيمة إلى زوايا صغيرة تغلق في أغلب الأيام ، كما أن بعضها قد زال وصارت زرائب أو أحواشاً يسكنها البائسون .

وقصارى القول أن العلوم والآداب انحطت كثيراً في العهد العثماني ، فلم ينبغ فيه إلا عدد قليل جداً من علماء الدين والأدباء ، بل اننا لانسكاب نرى من يستحق الذكر منهم ، سوى شهاب الدين الحفاجي ، والسيد محمد مرتضى الزبيدي العالم اللغوي المشهور صاحب تاج العروس في شرح جواهر القاموس . وعبد الرحمن الجبرقي المؤرخ المشهور ، ولو تأملت في تراجم من ذكرهم الجبرقي في تاريخه من علماء ذلك الحين ، لا رأيت منهم من يصح عده عالماً ناهياً في الفلسفة أو العلوم أو الآداب . واقتصر التدريس في الأزهر على العلوم

(١) د . محمود رزق سليم : عصر سلاطين المماليك ، عدة أجزاء ، القاهرة .

الفقهية والسانية ، وبطل تعليم العلوم العقلية والرياضية والطبيعية التي كان يدرسها أسلافهم . وانحط أسلوب الكتابة حتى قرب من العامية واضمطت روح البلاغة ، ولم يبق في متناول الجمهور من آثار الآداب العربية سوى قصص أبي زيد الهلالي وعنترة والزناتي خليفة . وتضاءلت مكانة الشعر والأدب إلى الحد الذي أصبحت تطلق فيه كلمة « شاعر » على جماعة يجلسون في القهوات ويلقون على مسامع الجماهير قصص أبي زيد والظاهر بيرس ، وينشدونها على نغمات الرباب ، ومع ذلك فقد ترك لنا هؤلاء تراثاً طيباً من الفن الشعبي .

القاهرة خلال الحكم العثماني

هذه هي القاهرة في أثناء الاحتلال العثماني ، فهل امتدت مساحتها وازداد عمراتها ؟ انا نجد جواباً سلبياً على هذا السؤال . فقد تدهورت القاهرة وخربت في أثناء حكم العثمانيين . وعلى كل حال فإن نظرة واحدة إلى خريطة تخطيطية للقاهرة عند ما دخلها نابليون ، وأخرى تمثلها في أوائل الاحتلال التركي لكفيلة بإقناعنا بأن سنة النمو والارتقاء لم تعرفها هذه المدينة في عهد العثمانيين .

دخل الأتراك مصر فوجدوا لها عاصمة زاهية مجيدة احتلت لنفسها مركزاً سامياً بين عواصم الدول الشرقية والغربية ، فكانت مكانة القاهرة لا تقل عن مكانة الأستانة . ولم يكن قدم مر عليها أكثر من ستة قرون منذ أنشأها جوهر . وشاهد الأتراك مدينة تزدهم بالقصور والمعالم والمساجد والوكالات والمدارس ، فكان من المنتظر أن يزيدوا وينشئوا فيها لكي تصبح جوهره امبراطورينهم العظيمة ، لكنهم أهملوها ففقدت تدريجياً هيبتها الأولى .

أنشأ الفاطميون القاهرة وجملوا بابتكاراتهم في فنون العمارة ، وجاء الأيوبيون فحسبوا بالأبواب والأسوار القوية وجملوا عاصمة جديدة بملكهم الواسع ، حتى إذا جلس على عرش الدولة سلاطين المماليك البحرية ، فالمماليك الجراكسة ، رأيناهم يتنافسون في تجميلها ورفع شأنها ، وأصبحت عاصمة زاهرة للعالم الإسلامي ، ومقر خليفة المسلمين .

ولكي نحلل بإيضاح عوامل الخراب التي شوهدت آثارها بالقاهرة قبيل دخول الفرنسيين ، نتبع الساحل الأجنبي الذي وصل على ظهر السفينة النيلية إلى ميناء بولاق التي تمت بدون انتظام أمام الزوارق والسفن التي كانت ترسو أمامها . كانت بولاق تمتد أربعة كيلومترات طولاً بدون عمق يذكر ، تشبه مدينة صغيرة معزولة احتوت في أواخر القرن الثامن عشر على مالا يزيد عن أربعة آلاف بيت وعشرين ألفاً من السكان ، واشتملت على عدد كبير من الوكالات والشون والحانات والحمامات والأسواق ، تتوسطها بعض المناظر الجميلة والحسنة الغناء وتلال من المواد التي ينفر الذوق السليم منها والمقابر المبعثرة . ولقد تمتعت بولاق بنعم الرخاء في أثناء منتصف القرن الثامن عشر أيام ولاية علي بك الكبير فكانت مقصد الخاصة وملتقى الأحياب يذهبون إليها للنزهة والترفيه بعيداً عن غبرة القاهرة . ولكن لم يتسع لعل بك الوقت لكي يتم

ما بدأ به من مشروعاته العمرانية في تلك الجهة ، فقد شغل بحروبه في سوريا وبلاد العرب ، واستمرت أعمال الحفر والأقناض تعوق نواحيها وتعرقل تقدمها مدة ليست بالقصيرة .

وحول بولاق من الجهة المقابلة للنهر افترشت الحقول الخضراء المنوعة وهي تكسو أخصب بقاع وادي النيل تعطيها مياه الفيضان بحمال ودعة .

وابتدأ من بولاق طريقان يؤديان إلى القاهرة : الطريق الأولى زرعت على جانبيه أشجار اللبخ والنخيل وكان ينتهى أمام باب الحديد حيث كانت ترى إذ ذاك بقايا ميناء المقس القديم .

أما الطريق الثانية وهي أقصر من الأولى ، فسكانت خلواً من الأشجار ينتهى بسالكها إلى الازبكية . وكانت تطل عليها من الجانبين الحوانيت والبيوت المساهولة بالسكان . واجتمعت على قارعة الطريق جموع الحواة والمشمودون يسلون زياتهم في القاهرة بينا يغنى الشعراء على الرباب والدف أو الناي .

بعد أن يقطع السائح ما يترب من الألف وخمسمائة متر يجحد نفسه أمام حدود القاهرة الأصلية . .
قاهرة الفاطميين ، فيجتاز القناة الغربية مستأنفاً السير فيما يشبه ضاحية المدينة ، ثم يقابل سوراً شاهقاً أمام بوابة ضخمة يحميها خندق متوسط العمق ثم يسير في شارع ضيق مزدخجماً قاصداً حتى الافرنج . ويصل هذا الشارع بين بركة الازبكية والخليج ، وعند نهايته تجده مسدوداً ببوابة حديدية لها حراس أقوياء . وكانت اضطرابات تلك الفترة ترغم أجانب القاهرة على أن يتجمعوا في ذلك الحى حول قنصل فرنسا يسألكهم ومتاجرهم ليأمنوا شر الغوغاء أو الجند عند مطالبتهم بمؤخرات مرتباتهم . وكان أهم شوارع القاهرة شارع الموسيقى وبالقرب منه قنطرة بذلك الإسم، شيدها عز الدين موسك أحد قواد صلاح الدين . وكان حتى الافرنج موطناً لعظم السياح الأوربيين والرحالة الذين جاءوا إلى مصر لزيارتها . وكان ذلك الحى من القاهرة في أيام الفيضان من أجل مناطق القاهرة تشرف منافذ بيوته على المياه من كل جهة ، وكانت حسداً لله عامرة بأشجار الفاكهة وبالرياحين والزهور . فإذا أقبل فيضان النيل تحوات البساتين إلى بركة جميلة تهادى عليها الزوارق الحسناء بنحفة ورشاقة ، يزيدا ملاحه أغاني النوتى تحت ضوء القمر للنمش . حتى لكأن القاهرة في ذلك الوقت (البندقية) عروس إلدريأتى . وأشرفت على البركة من جوانبها الثلاثة قصور العماليك والأغنياء ذات البواكى والأعمدة المعقودة والمخصرات المتقنة . وكانت تقوم على الجانب الرابع من ميدان الازبكية بعض بقايا قصر زوجة قايتباى حتى أوائل القرن الثامن عشر . واختلفت خلف هذا الاطار الجميل مجموعة قبحة من الخرائب والمدافن وطاحونة مهدامة وصهرج كبير وساقية وسبيل مياه وأقناض . وعلى الجانب البحرى من الميدان ، قام الحى القبطى ببيوته وشوارعه الضيقة ومنمظفاته المظلمة .

وفي عام ١٧٧٤ شب حريق خرب جانباً كبيراً من الأحياء المحيطة بالازبكية . فاتهز الأغنياء تلك الفرصة واشتروا ممتلكات الفقراء الذين لم يقدروا على إعادة البناء ، وبدأ أصحاب الأموال يشيدون البيوت

الوجيبة التي قامت على أنقاض بيوت الفقراء . ومن ذلك اليوم بدأت أناقاة بركة الأزبكية وتغنى بحسبها الفاتن ومنظرها البديع الشعراء والأدباء والرحالة من الأفرنج .

وإذا عبر السائح الخليج الناصري التقى بحى اليهود . يحده شرقاً، بين القصرين، وغرباً، حى الأفرنج، وشمالاً بقايا سور القاهرة حيث بوابتا الفتوح والنصر يتوسطهما جامع الحاكم . وعلى مقربة من الباب الأول مقبرة باب النصر . وقد هددت تلك الناحية سيول الأمطار الغزيرة التي تساقطت على تلال المقطم فهدمت بيوت الفقراء .

وفيا وراء السور القاهري من الشمال شيد فقراء المالك طائفة كبيرة من البيوت التي انصقت بالسور فاختلفت معاملة في تلك الجهة . وتكون بالتدريج حى الحسينية ، وما كاد ينمو حتى وصل الأتراك إلى مصر فخرّبوه تقريباً . ولكن بعد مضي زمن عمر الحى مرة أخرى . ومما ساعده على النهوض إشرافه على الخليج من جانبه الغربى وكثرة البساتين التي أنشئت على بركة الرطلى . ولم يبق جامع الظاهر خارجاً عن حدود المدينة ، فقد امتدت إليه العمارات وبدا على ذلك الحى طابع استقراطى .

هذا التوسع كان في غربى الحسينية . أما في شرقها فكانت لاتزال المساكن الوضيعة باقية بالقرب من مدافن باب النصر وبجانها تلال القاذورات المتركة منذ أجيال .

لم يصب قلب القاهرة تطور أو تغيير ، فقد ظل على ما هو عليه حتى أواسط القرن التاسع عشر ، ولم يعكر صفو ساكنيه سوى معارك الجند والمالِك بين الفينة والفينة . وكان أصحاب الحوانيت والوكالات اعتادوا هذه الحال . فكانوا إذا رأوا طلائع الحركات العدائية تتقدم نحو الحى ، أغلقوا أبواب متاجرهم على أن تظل موصدة حتى تزول العاصفة وتعود الأمور إلى نصابها .

وإذا تابع السائح مسيره للجنوب عابراً باب زويلة تاركاً خلفه مسجد المؤيد ، سار في قصبة رضوان . وامتدادها إلى الغرباين فيمدان الرميلة أو انحرّف إلى باب سعادة قاصداً حى باب اللوق .

والظاهر أنّ حى باب اللوق لم يصبه ما أصاب الأحياء الأخرى من التخريب والدمار . كانت تحيط به من شماله جملة برك ومن جنوبه مدافن ومن شرقه مجموعة من المروج وبركة الفرايين . واشتمل هذا الحى في وسطه على ميدان واسع يطل عليه قصر الأمير يشيك ومدرسته التي عرفت باسمه ، كما شيدت بعض المراقص وبيوت اللهو وأما كن يجتمع فيها أهل الشعوذة . وكان حى باب اللوق يشبه جزيرة مستطيلة معزولة عن المناطق المتعددة القرية منها وامتاز بحيوية أهله وكثرة عددهم .

أما جنوبى حى بولاق فكان المسار فيه يسير بين المقابر والمزارع ، وعلى يساره امتداد المدينة محاذياً للخليج الكبير ماراً بين بركتي السقايين وأبى ثمة . فإذا اجتاز قناطر السباع رأى الخليج قد التف نحو الغرب متخذاً مجراه إلى الحقول التي لا تبعد كثيراً عن قصر العيني . وكان هذا القصر منذ أربعمائة عام

مقرأ فحماً لسيدة ، ثم أضيف إلى بنائه الأصيل مسجد . ثم شيد مدفن للعيني ، واستخدمه الأتراك عند وصولهم لمصر قصرأ أقام فيه من كانوا يمرون بالقاهرة . وفي القرنين السابع عشر والثامن عشر ، ازدحم حى السيدة زينب بالسكان وكان يحده الخليج من الغرب وبركة الفيل من الشرق وأطلال الأتربة والأنقاض من الجنوب .

بركة الفيل :

واستجبت منطقة بين بركة الفيل والقلعة . . حى ابن طولون . مركزها جامع ابن طولون القائم على جبل يشكر . وكانت تسلوأ كجاة كلما ازدادت الأتقاض والقيت بقايا الخرائب . وبالنسبة لأهمية أكامات جبل يشكر من الناحية العسكرية فى ذلك الوقت أصبحت ملتقى الطوائف السياسية ووكراً لاجتماعاتهم . وكان أغلب سكان تلك الجهة من الفقراء ومعظمهم من سلالة الطوائف الشركسية وقدماء الأتراك . وبالاختصار فإن هذا الحى فى مجموعه لم يتغير إلا قليلاً عن حاله التى كانت عليه منذ القرون الوسطى . إذا استثنينا بعض الجهات القريبة من القلعة وجامع السلطان حسن ، فقد اختفى سكانها الأغنياء بعد أن أفرغتهم حركات المشاغبين المستمرة . وفى ذلك الحى بميدان الرملة وحول جامع السلطان حسن وقره ميدان قامت الحوانيت الفقيرة تستند على جدران القلعة أو جامع السلطان حسن . كما كان يقصدها التجار المتنقلون الذين يدفعون أمامهم عربات الأيدى . وتوالى الأيام تحولت منازل الأغنياء إلى أحواش سكنها الرعاع . أما أغنياء الحى ، فقد هجروه إلى منطقة بركة الفيل ، أو الأزبكية اللتين أصبحتا المقرين المفضلين لدى الأمراء والخاصة .

وفى ذلك الزمن كانت القلعة دائماً مدينة قائمة بذاتها تتمتع بعزلة مستقلة ، لها مساجدها وميادينها وبيوتها وحماماتها ومقابرها . فيها بيت المال ومأوى الباشوات وفرقة العزب ورجال الانكشارية . هذه القلعة المنيفة التى بلغت مابلغته من المجد والشرف فى أثناء حكم سلاطين المماليك ، ثم بدأت تفقد بالتدريج مكانتها الأولى . . . نتيجة لإهمال حكامها من الولاة الأتراك الذين كانوا لا يستقرون بالبلاد مدة حتى تصلهم أوامر الباب العالى بالعودة أو بتقلد ولاية أخرى من ولايات الامبراطورية العثمانية . وفى غالب الأحيان كانوا يتسلمون أوامر العزل أو فصل الرأس فلم يكذبتهى القرن الخامس عشر حتى آلت أكثر منشآت قلعة الجبل إلى الخراب . ولما زار « سافارى » القلعة فى أثناء القرن الثامن عشر قال عنها : أنها لا تتألف إلا من خرائب وأنقاض ، ولم يبق منها سوى بعض أماكن قليلة صالحة للسكن . وكانت تقام فى القلعة المهرجانات الرسمية لاستقبال الولاة ، أو حفلات الاعياد القومية والدينية ، كغرة شهر رمضان ، والمولد النبوى ، ووفاء النيل .

كان الوالى العثمانى يحتفل بزيادة النيل جرياً على العادة التى ألفتها البلاد ، فيبدأ الموكب الرسمى من القلعة فى صبيحة يوم الاحتفال وينزل مع حاشيته إلى بولاق حيث تلتظره سفينة مزينة أعدت له ولسناجقه وأمرائه أمام دار صناعة السفن ، فينزل هناك بها ، ويقطع فى مقدمة السفن تدبمه سفائن السناجق ، وتطابق

٢٣١

المدافع حتى يصل إلى المقياس بالروضة . وهنالك يقف هناك يوماً أو اثنين حتى ينتهى الإحتفال وتعمل العرائس النفيسة ، ويقام من مظاهر اللهم الشئ الكثير .

وفي اليوم الذى يريد فيه الوالى فتح السيد سماًطاً قبل شروق الشمس للسناجق وللجاويشية المتفرقة وغيرهم من الجند ويشترك فى الحفلة قاضى مصر . وبعد الانتهاء يخلع الوالى الخلع على كاشف الجيزة (مديرها) وشيخ عرب الجيزة وحاكم القاهرة وبولاق ومصر القديمة وأمين الشون وحاجى باشا وأمين البحرين وناظر الحسبة وغيرهم . ثم ينزل مع قاضى المسكر والسناجق فى السفن النيلية إلى أن يصل للسد ، ثم يصعد إلى القلعة فى احتفال شائق .

وإلى الطرف الجنوبي من قره ميدان وإلى الشرق من مجرى العيون المشهورة ، كانت تقوم إحدى بوابات القاهرة المؤدية إلى « القرافة » . وكان إلى شمال القلعة طريق مترب يؤدي إلى حى باب الوزير ومنه إلى مدينة الأموات .

* * *

آثار القاهرة العثمانية وفنونها

قلما تتجاوز بحوث أكثر المشتغلين بدراسة العمارة الإسلامية فى القاهرة العصر المملوكى ، فهم يعتبرون أن معظم الآثار التى شيدها العثمانيون فى مصر غير جديرة بالعبارة ، ومن هؤلاء من يقول بأن طراز تلك المشيدات لا يخرج عن طراز أبنيتهم فى استانبول . فهى من هذه الناحية « عثمانية » بحسب ليس عمه كبير علاقة بينها وبين الطرز الفنية التى نشأت على ضفاف النيل . وأكبر ظنى أن فى الفكرتين شيئاً من المبالغة .

ومما لا شك فيه أننا إذا نظرنا إلى بعض مباني القاهرة التى يرجع تاريخها إلى عصر الانتقال بين حكم المماليك وفتح العثمانيين ، وجدنا أموراً جديدة طرأت على طراز العمارة التى كانت شائعة إذ ذاك . فهى ليست بعثمانية من ناحية الشخصية ، كما أنها لا تعد تافهة من الناحية الفنية . ولدينا من أمثلة المباني التى تعتبر نماذج بارزة للعمارة فى العصر المذكور مسجد خيربك ، ومسجد أمير أخور ومسجد بييرس الخياط .

وإذا قلنا أن سلاطين المماليك كانوا حقيقة قساة سفاحي دماء ، فنحن لانستطيع أن ننكر أنهم كانوا غزاة أقوياء ، لهم بلاط من زهرة الأمراء المقربين يقلدونهم فى شجاعتهم ، ويشملون مثلهم الآداب والفنون برعاية سامية وعناية كبيرة ، فلما انتهت دولتهم وضاع استقلال مصر ، صار حكمها إلى ولاية كان يبعث بهم سلطان

العثمانيين لا يحملون أكثر من لقب « باشا » ليست لهم صولة ولا قوة ، يمزلون ويستبدلون بكلمة منه ، لا ينظرون إلى خير البلاد بمقدار ما ينظرون إلى خير أنفسهم .

ويذهب كثير من المؤرخين إلى أن العثمانيين لما فتحوا مصر ودخلوا القاهرة عملوا على تدهور فنون العمارة القاهرية ، مع أن الحقيقة التي يدركها كل مطلع على التاريخ المصرى ، دلت على أن الأيام الأخيرة للحكم المملوكى كانت قد أصابها جراثيم التدهور والانحطاط ، والآثار التاريخية خير دليل نستشهد به على ذلك .

جاء العثمانيون وقد حملوا معهم أساليب جديدة في فن العمارة ، وعلى الأخص عمارة المساجد وكان أهم شيء في الوضع الجديد اتخاذ القباب والأفنية ذات الأروقة المستمدة من بناء الكنائس في الفن البيزنطى وأول ما نلاحظه في التصميم العثمانى ذلك النهو الذى تعطيه قبة يحيط بها نصفا قبتين أو أربعة أنصاف منها . ثم تلك المئذنة المشوكة الرفيعة ذات الشكل الأسطوانى المنتهى بمخروط . وهذا الطراز الجديد المخالف لتقاليد العمارة القديمة اختص به العصر العثمانى في مصر فأصبح من أهم مميزاته ، وأصبحت القباب تتخذ في وسط المساجد بعد أن كانت اشارة الأضرحة والمقابر في الزمن السابق . وقاما تجددت فيها آثار دقة الصناعة المهدودة في أيام المماليك الجراكسة . وما نجده من أبنية فيها بعض الإبداع والإبتقان إنما يرجع إلى القرن الأول من حكم الأتراك في مصر مثل سبيل خسرو باشا بالنحاسين ومن بعد هذا العصر أخذت الأساليب المعمارية في الاحتضار .

* * *

شيد في القاهرة في أثناء الفتح العثمانى كثير من المساجد . أولها مسجد خير بك الذى دفن فيه بجمه باب الوزير . وكانت أرضية هذا المسجد مرتفعة نحو ثلاثة أمتار ومفروشة بالرخام الملون . ومسجد سارية بالقلعة ومسجد المحمودية وجامع السنانية ببولاق ، ومدرسة المسكة صافية ، ومسجد البردينى الذى يزدان بفسيفسائه البديعة ، وصدفه النمق ، وميناء الزرقاء والخضراء . وأسقفه المزوقة التى تعيد إلى ذاكرتنا ما كانت عليه الصناعة في أيام قايتباى ، وزجاجة الفاخر ومشربياته الجميلة . كذلك مسجد الفكهانى الذى جسده أحمد الحروبولى (١١٤٧ هـ) . وأخيراً جامع أبى الذهب الذى شيد على طراز جامع السنانية . وقد جسده العثمانيون أضرحة كثيرة ومساجد قديمة بجامع عمرو بمصر القديمة ، أو ضريح الشافعى ، وسيدنا الحسين والسيدة نفيسة ، وأصلحوا أيضاً عدة نواح في القلعة . وتوالت أعمال الإصلاح في الأزهر ، فقد أصلح الوالى القلعة . وتوالت أعمال الإصلاح في الأزهر ، فقد أصلح الوالى سيد محمد (١٠٠٤ هـ / ١٥٩٦ م) أروقه ودهنها باللون الأخضر . وجاء الدفتردار حسن ، فبنى رواقاً للطلبة اليمنيين ، ومحراباً صغيراً كما جدد أرضيته . وفى عام (١١٣٦ هـ) أعيد دهان أسقفه . وبنى محمد أبو الذهب أروقة جديدة لكل من المفق الشافعى والمالكي والحنفى . ثم أعاد الوالى إسمايل التونسى دهان جذرانه (١٢٠٣ هـ / ١٧٨٨ م) .

وكانت أهم أعمال التجديد بالأزهر ، تلك التي قام بها عثمان كتخدا القزدجلى ، فقد أنشأ رواق العميان .
 ووسع عبد الرحمن كتخدا المدرستين القديمتين الطيرسية والأبغاوية ، وأقام خمسين عاموداً من الرخام لحمل
 العقود وأقام أيضاً محراباً ومنبراً ومدرسة وصهرنجاً ومسكناً ومحلاً لدراسة الفقراء القادمين من الصعيد
 وشيد مثذنة ، كما شيد ضريحاً له أقام عليه قبة عظيمة . وكانت أعماله الحيرية تسير دائماً بجانب أعماله في
 البناء ، يوزع الصدقات والهدس والقمح على الفقراء ويقم لهم المطاعم ويقدم لهم الأكل بالجان . ولا شك أن
 عبد الرحمن كتخدا كان أكبر مصلح للعائر في تلك الفترة . فقد شيد أو جدد ثمانية عشر مسجداً وأقام
 الزوايا والمدارس والأسبلة والصهاريج والبيوت والأسواق وأوقف على تلك المنشآت أوقفاً هامة .

على أننا لا نشاهد في ذلك العصر الآثار البديعة الخاصة بالأضرحة . تلك للمشيدات التي امتاز بها العصر
 المملوكي السابق بقباها الجميلة المغطاة بالنقوش المزركشة الرفيعة . وتلك الكتابات المنقوشة على أفاريزها .
 فإن المقابر العثمانية تنسم بالبساطة . والنوع الوحيد الذي ظل كاملاً سليماً في تصميمه هو السيل الكتاب .
 ففي أسفل البناء وجدت حنفيات الشرب بصهرنجها ، وفي أعلاه مدرسة لحفظ القرآن وتعليم مبادئ القراءة
 والكتابة وشيد من هذا النوع عدد كبير . ولكننا نلاحظ أن السيل كان في العهد السابق يلحق بالمدرسة
 في زاوية من زوايا البناء . أما في تلك الفترة فقد أصبح قائماً بنفسه ومستديراً في تصميمه مع ما يتجلى فيها
 من ذوق في صناعة الرخام والنحاس ، وتحمل تلك الأسبلة أجمل معاني الإحسان والقوى . وفي الفترة
 عشرا من تلك الأسبلة ، منها سبيل خسرو باشا المواجه للجامع قلاوون ، وسبيل عبد الرحمن كتخدا الذي
 لا يبعد عنه كثيراً .

وكثر في العصر العثماني بناء تسكيا الدراويش والأسواق والوكالات ، وشيد أغنياء القرن الثامن عشر
 كثيراً من البيوت والقصور الأنيقة وجواسق التزهة على شاطئ النيل أو على الخليج المصري . وكانت بركة
 الأزبكية وبركة الفيصل تحيط بها القصور الفخمة ، ولقد وصف الجبرتي في تاريخه المشهور تلك البيوت
 وزخرفتها ورسومها ومجالسها . كما أن قصور المالك التي كانت لا تزال قائمة في أيام الاحتلال العثماني جذبت
 أنظار الرحالة الذين شاهدوها .

وإذا كان العصر العثماني قد سادته الروح الدينية ، فمن الطبيعي أن تصحب ذلك عناية بالمؤسسات الدينية .
 ومن الخطأ أن تهم الباشوات الأتراك بأنهم تعمدوا إهمال آثار القاهرة من مساجد ومقابر ووكالات وغيرها .
 فلم يبلغ معاصروهم من الفنانين والصناع مكانة رفيعة من البراعة . تعادل ما وصل إليه أسلافهم .

وإن كانت مباني العصر العثماني ذات عمارة تترك في مجموعها أثراً جميلاً في النفس يشهد بما في تلك
 الأبنية من تآلف وما يسودها من مسحة فنية ، فإن هناك شيئاً يقلل من جمال هذا الأثر ، ذلك هو ما في
 الزخارف التركية من عيوب ملموسة ، بينما لعبت الزخارف في العصر السابق دوراً كبيراً كان لها أكبر عامل
 في جمال الطراز وفخامة المهارة . على أن الزخارف المعمارية في عصر الأتراك كانت كثيرة ولكنها متأخرة .

فلم نمد نجد ما يشبه زخارف أيام قايتباى ولم تكن الكتابة المنقوشة مهذبة ، بل كادت أن تكون بدائية ليس لها طابع تنفرد به .

وكانت آثار القاهرة والبلاد هدفاً للهانة وعرضة للتخريب . فانهارت قبة الإيوان الكبير للجامع الناصر محمد بن قلاوون المشيد داخل سور القلعة (١٥١٢) ووقعت مئذنة جامع السلطان حسن (١٦٥٧ م) كما تخربت قبة الجامع المذكور (١٦٦٠م) وهبت زوبعة شديدة خربت مئذنة جامع ابن طولون (١٦٩٤ م) كما أتلقت المياه أساس جامع الحاكم (١٧٩١ م) . ولكن كل هذه الأضرار لم تكن شيئاً يذكر بجانب الخرائب التي أحدثتها الحروب والفتن ، وعوامل التلف التي جلبتها روح الإنتقام . وكثيراً ما اقتلع القوم قصوراً من أسسها للانتفاع بموادها في تشييد مباني أخرى !

لقد ذكرنا أن السلطان سليم نهب كثيراً من نفائس مدينة القاهرة واستولى على كل الشمعدانات الفضية التي كانت بمسجد السيدة زينب ، ونقل كميات عظيمة من الرخام الذي احتوته قصور القلعة إلى ميناء بولاق لينقلها إلى الآستانة . وفي عام ١٠٧٦ هـ ضرب جامع المؤيد بالمدافع ثم أصلح فيما بعد .

وكان طلبة الأزهر كثيرى المشاغبات طالبا ثاروا... في عام (١١٢٠ هـ / ١٧٠٨ م) ثارت ثورتهم وكسروا أحد أبواب الأزهر احتجاجاً على تعيين أحد الأساتذة بالرغم منهم ! وفي سنة ١٧٩٦ م هدم أحد المشايخ المدرسة الملاصقة لجامع سنان ببولاق واستخدم عمدها وحجارتها المنحوتة لبناء فندق خاص ! وجدد اسماعيل بك في عام ١٧٩١ م عمارة منزله بمواد أخذها من أنقاض مسجد كان يقع على فم الخليج . وفي العام المذكور قام شيخ آخر ودمر قصرآ لعبد الرحمن كتحدا وباع مواده الأولية . وفي ذلك العهد استخدمت مساجد كثيرة كمخازن للبضائع أو ورشاً للغزل أو مصانع لنسج الأقمشة . ومن تلك المساجد مسجد ابن طولون الذي استخدمه محمد بك أبو الذهب ورشة للغزل .

عمارة القســـــــــــــــــاهرة العثمانية

قلنا أن طراز العمارة العثمانية تسرب إلى مصر قبل الفتح التركي بقليل بدليل أن تصميم رسم مسجد السلطان العورى (١٥٠١ هـ / ١٥١٦ م) ومسجد خير بك وطراز القباب المتعامدة التي تغطي سقف المسجد العورى والإيوان المتوسط لمدرسة قايتباى (١٥٠٣) والعقود الرئيسية لمسجد خير بك . كل هذه المنشآت تثبت لنا أن الأساليب العثمانية لفن البناء كانت قد تسربت إلى مصر قبل الاحتلال العثماني . وقد عرفت المئذنة الأسطوانية في مصر قبيل الاحتلال العثماني فإن إحدى مآذن بيت المقدس التي شيدت في عام ١٣٦٧ م قد أقيمت على نسق المآذن المستديرة في شمال الشام واقتبست من المآذن السلجوقية ، كما شاهد القاهريون مئذنة جامع محمود الكردي مشيدة على ذلك الطراز منذ عام ١٣٩٥ م ، وهو الجامع الكائن في آخر قسبة رضوان في أول الخيامية .

٢٣٥

حاول العثمانيون أن يدخلوا على القاهرة تصميبتهم وأساليبهم وبعض حلياتهم الزخرفية الجديدة ، غير أنه لم يكن من السهل أن يغير المهندسون والمعماريون تغييراً كلياً ما كان لديهم من طرز معمارية وأساليب فنية وكان من الصعب عليهم أن يروا مسحة أجنبية تسود فنونهم وصناعاتهم التي ورثوها عن آباءهم وأجدادهم الذين عاشوا في زمن المالك .

وبالرغم من تصميم المدرسة الذي أدخله السلطان صلاح الدين في مصر ، فقد كان المسجد ذو الإيوانات هو التصميم المألوف حتى القرن الخامس عشر . وقد احتفظ العصر العثماني بجملة أمثلة باقية من هذا التصميم ولو أن ذلك الطراز أصابه الفساد في هندسته الأصلية . وأوضح ما نلاحظه من هذا التدهور الفني نجده في جامع آق سنقر الفارقاني (١٦٧٠ م) فهو ورة ضئيلة إذا قابلناه بما كان عليه الفن القاهري في أيامه الزاهرة .

أما جامع عثمان كتنخدا (١١٤٧ هـ / ١٧٣٤ م) فنلاحظ فيه إنسجاماً منظماً جداً . يتألف إيوانه الرئيسي من ثلاثة صفوف في كل منها أربعة عمد موازية لحائط القبلة أما الإيوانات الجانبية والإيوان الشمالي فتألف من بلاطة واحدة (رواق) ولا توجد الدكة بالقرب من نهاية الإيوان الرئيسي كما هو الحال في مساجد العصر المملوكي فإنها أصبحت توضع في الإيوان الشمالي معادلة للحراب . ولما كانت عمد الإيوان الشمالي والعمودان الخارجان في الصف الأول من الإيوان الرئيسي من العمدة الجرانيتية القديمة عالية جداً عن الأعمدة الأخرى . فقد أصبحت عقودها المشيدة فوقها أقل حجماً من العقود المنشأة على العمدة الأخرى .

وشيدت عدة مدارس في العصر التركي ، كان تصميمها بعيداً عن الجمال ، فقد شيدت مدرسة الدشطوطي في السنة التالية للفتح العثماني . وكانت صليبية الشكل بنى على طرازها المهندس فيما بعد مسجد محب الدين أبو الطيب (١٥٢٨) وهو يقع على بنة السالك من الخرقتش . ذو إيوانين باقنين إلى اليوم وصحنه مفروش بالرخام الملون ومنبره دقيق الصنع مرصع بالعاج والأبنوس . ولم يبق من هذا الجامع سوى إيوانه فقط .

فإذا انتقلنا إلى مساجد عبد اللطيف قرافي « وقالطاي » والهياتم وهي من مشيدات القرن الثامن عشر شاهدنا اختلافات أخرى . ففي المسجد الأول نرى أن الإيوانين الجنوبي والشمالي يشغلان معظم البناء ويفصلهما عن بعضهما رواق علوى في وسطه منور سماوى ، وفي المسجد الثانى نلاحظ أن الإيوان الرئيسي أقل اتساعاً من البلاطة الوسطى . بينما نرى أن الرواق العلوى المقابل يؤدي مقام الدهليز وترتكز القناطر فوق عمود متوسط ثم لا نشاهد إيوانات جانبية فإنها لا وجود لها في هذا الطراز .

ولا يختلف كثيراً طراز مسجد الهياتم (١٧٧٧ هـ / ١٧٦٤ م) ، عن طراز المسجدين السابقين ، إلا أننا نرى أربعة أعمدة متجمعة تقوم مقام العمود الواحد السابق وطرازه من ناحية عامة ، يشبه المصلى بمسجد برسباى في مقابر الخلفاء . وفي جامع حسن باشا طاهر (١٨٢٣) نجد المنور أمام الحراب يشغل المكان الذي كان للقباب في المساجد ذات الأروقة ، ويشتمل على ثلاثة أروقة كما كان الحال في مساجد العصور السابقة .

وهناك مساجد أخرى من الصعب أن نحكم بتبعيتها لأي طراز معين ، فمسجد البرديني مثلاً يختلف شكل الاختلاف عن أي مسجد آخر بنى في عصره أو قبله .

ويمكن القول أن الطرز التي أدخلها العثمانيون في مصر يمكن تقسيمها إلى أربعة أقسام هي :

- (١) طراز الأناضول وأصله بيزنطي ، ومن أمثلة هذا الطراز جامع سليمان باشا وجامع الملكة صفية .
- (٢) طراز القباب والإيوانات كالكنائس القديمة ، ولا سيما ماشيد منها في ديار بكر في القرن السابع . ومن أمثلة هذا الطراز جامع سنان الذي شيده حوالى عام ١٥٧١م) وجامع أبي الذهب (١٧٧٣ م) وهو صورة مطابقة للجامع الأول .
- (٣) طراز الآستانة : وقد نقله العثمانيون من آسيا الصغرى وشيد على طرازه جامع محمد علي في القلعة .
- (٤) طراز الصحن بدون القباب . ومن أمثله جامع المحمودية أمام باب العزب بالقلعة وجامع محمود محرم والقسم الذي أعاد تشييده الخديو عباس بجامع الأزهر .

ومن المظاهر المهارية التي تطورت على أثر دخول العثمانيين ما نشاهده في بعض المآذن والقباب ، وإن كنا نرى بعض المآذن التي شيدت في عصر العثمانيين قد احتفظت بطابعها المملوكي كمشدنة جامع البرديني مثلاً التي إذا نظرنا إليها حسبناها لأول وهلة من عصر قايتباي ، وعلى كل حال فإن المشدنة الغالبة في المارة المصرية في العصر التركي هي مشدنة رفيعة ممشوقة على نسق مآذن الآستانة التي أخذها الأتراك عن السلجوقيين ، يهيئ بمسواها الأسطوانى طنفان أو ثلاثة ويعاوها مخروط كما هو الحال في أبراج الكنائس الأرمنية .

ولا نشهد في عصر الأتراك تلك الأضرحة الكبيرة التي كانت في العصر المملوكي . فالضريح العثماني يمتاز ببساطته ، ولا زالت القاهرة تحتفظ ببعض أمثلة من هذه الأضرحة . كضريح مصطفى أغا جالق في مقبرة للماليك . ويرجع عهده إلى القرن السابع عشر وضريح عثمان بك قزدغلي بشارع الإمام الليث (١٧٦٧م) .

ولا شك في أن المآذن والقباب والعقود والعمد والطنف العثمانية قد غيرت في مظاهر القاهرة من ناحيتها المهارية وذهبت بشيء من شكلها المملوكي . كما أن الزخرفة العثمانية كانت أحياناً تيميل إلى الوفرة والغزارة كما شوهدت في أيام قايتباي السعيدة . ولا تقل الزخرفة بالقاشانى عما كانت عليه في البلاد العثمانية نفسها وإن كانت القاهرة قد عرفت القاشانى من قبل .

والحراب العثماني بحلياته الرخامية صورة صادقة لحراب العصر المملوكي، ونظرة إلى محراب مساجد سليمان وحب الدين بن الطيب وسنان باشا ومحمد أبي الذهب تؤيد صحة هذا الرأي .

السبيل الكتاب

ومن المباني التي لحقها بعض التطور على أثر دخول العثمانيين البلاد المصرية « السبيل الكتاب » فقد كان هذا إلى أواخر القرن الرابع عشر ملحقاً بإحدى المدارس أو يشغل ركناً من أركان الجامع . ولكننا نجده في العصر العثماني قد أصبح بناء مستقلاً . كان في بادئ أيامه مربع الواجهة تزينه من ناحيته أو من نواحيه الثلاث النوافذ النحاسية الجميلة ، يستطيع أن يمد السار يده منها ليشرب ماءها الصافي من حوضها الرخامي الناصع البياض . وكان الصعود إلى المدرسة بواسطة سلم يقود إلى أعلا المكان فيجد الداخل نفسه في غرفة الدراسة، تتصل بشرفة واسعة متجددة الهواء أقيمت حولها الأعمدة ، تتوسطها قطع المنريات الأنيقة وتحت الأعمدة توجد الكوابيل الخشبية المزخرفة .

كان هذا الطراز السبيل العثماني الذي أدخل إلى القاهرة في أول أيام حكم الأتراك ، وعلى نسقه شيدت أسبلة عدة ، أهمها سبيل خسرو باشا (١٥٣٥ م) أمام ضريح الملك الصالح أيوب وسبيل القزلاز (١٦١٩ م) وسبيل حسين كتحدا وشاهين أغا وعبد الباقي وحسن كتحدا ، وسبيل عبد الرحمن كتحدا .

وفي أثناء القرنين الثامن عشر ، والتاسع عشر استدارت واجهة السبيل وأصبحت تشتمل على تقويضات تملو شبابيك السبيل . وصارت له قاعدة تلف حوله بدرجات من المرمر النفيس ، وعلى هذا الطراز شيد سبيل أم عباس بالقرب من جامع و خانقاه شيخو وسبيل رقية دودو . أما سبيل سليمان أغا حنفي (١٩٧١) فينفرد بطابع هندسته ، وهو يختلف عن بقية الأسبلة الأخرى إذ نجده ملحقاً بالضريح كجزء من البناء نفسه .

على أننا لا نستطيع أن نستطرد في وصف مميزات العمارة المصرية في عهد العثمانيين ، فإن لهذا الموضوع كتبه الفياضة بالوصف والإيضاح . ولعلنا نرى في المستقبل القريب كتاباً بالعربية يبحث في تطور العمارة والفنون الإسلامية المصرية في عصورها المختلفة ، فإلى القاهرة كانت في يوم من الأيام ملتقى المماريين والأثريين ومخط رحال أهل الفن . وقد كان لها من أيامها المحيطة عمارة نعتز بها ، تمتعت بالعظمة والجلال في أيام ازدهارها ثم أصابها الفتور والهزال . وأصبحت الآن وليس لها عمارة مستقلة تباهى بها الممارات الأخرى . فممارتها خليط بين الممارات الإيطالية والألمانية والإنجليزية . ولو سار العثمانيون على وتيرة أسلافهم الممالك في الإنشاء والتعمير لكانت القاهرة اليوم تباهى بطابعها الشرقي . لكن العثمانيين لم يباؤوا بثروتنا البنائية . وبنوا لأنفسهم فقط .

الدور في القاهرة العثمانية

دار محمد بن الحاج سالم الجزار

(المروف بمنزل الكريدلية)

تألف هذه الارب من بيتين ، هما بيت محمد بن الحاج سالم ، وبيت السيدة آمنة بنت سالم ، ويقعان شرق جامع ابن طولون ، فيمر بينهما دهليز يوصل إلى الباب الشرقي لهذا الجامع . فالبيت الأول وهو الذي الآن باسم بيت الكريدلية يقع إلى يمين الداخل من هذا الدهليز إلى باب الجامع ، بينما يقع البيت الثاني إلى يساره. ولكن البيتين متصلان بممر أو «ساباط» فوق هذا الدهليز محمول على عقد ، وبيت الكريدلية يرجع إلى سنة ١٠٤١ هـ / ١٦٣١ م ، وقد أنشأه الحاج محمد بن المرحوم الحاج سالم بن المرحوم الحاج جلام الجزار ، كما ذكر في شريط من الكتابة بسقف المقعد ، وفي ركنه الشرقي القبلي سبيل ذو سقف به زخارف جميلة متعددة الألوان ، والباب الرئيسي لهذا البيت إلى يمين الداخل في الدهليز ، ويؤدي هذا الباب إلى « صفة » تبدأ عندها « طرقة » ذات سقف معقود تسير إلى اليسار وتنتهي إلى فناء الدار .

ويمتاز فناء بيت الكريدلية بيمض الأساليب المعمارية الطريفة ، ولا سيما بروز الطابق الأول على خرجة من ثلاث حطات من المقرنصات فضلا عن تنوع عقود الأبواب ، ثم النوافذ الجميلة المصنوعة من الخشب والجبص ، ومقعد بيت الكريدلية في الجنب القبلي تطل على الفناء بمقدين محمولين على عمود من الرخام ويتصل المقعد « التخبوش » بقاعة كبيرة تطل على الواجهة القبلية للدار كما تطل على الفناء ، وتؤدي إلى غرفة . صغيرة تطل على الواجهة الشرقية ، ثم إلى قاعة كبيرة تطل على فناء الدار وعلى الوجهتين البحرية والغربية . وفي هذه القاعة الأخيرة سقف غني بالزخارف الجميلة ، وفيه أفرز من الكتابة قوامه ، أبيات من قصيدة البردة ، كما أن فيها مشربيات جميلة (١) .

أما بيت آمنة بنت سالم فإن بعض الأساليب والزخارف المعمارية في بابه تدل على أنه يرجع إلى عصر السلطان قايتباي (١٤٦٨ هـ / ١٤٩٥ م) ولعله آل بعد ذلك إلى صاحب بيت الكريدلية ، وأهم مشتملات هذا البيت قاعة كبيرة ذات إيوانين ، بينهما جزء أوصفة منخفضة قليلا (الدرقاعة) . وفي عام ١٩٢٨ م نزعتمصلحة التنظيم ملكية هذين البيتين وأرادت هدمهما تنفيذاً لمشروع التوسيع حول جامع ابن طولون ، ولكن لجنة حفظ الآثار العربية اعترضت على ذلك ، واستطاعت أن تتسلمها ثم بدأت في تجديددهما وإصلاح ما فيهما ليصبحا من أبداع الأمثلة القاعة لطراز العمارة في العصر العثماني . وأتيح لهذين البيتين

(١) دليل موجز لأشهر الآثار العربية بالقاهرة . ص - ١٩٧ - ٢٠١ ورقم هذا الأثر ٢٣١ .

أن يعود إليهما ما كان لهما من روعة وجمال ، حين تقدم الميجور جاير أندرسون سنة ١٩٢٥ وكان من بين الضباط الإنجليز الذين خدموا الحكومتين المصرية والإنجليزية في وادي النيل ، إلى اللجنة طالباً أن يسكن هذين البيتين على أن يقوم بتأنيتهما على الطراز العربي ، ويعرض فيهما مجموعته الأثرية النفيسة ، وعلى أن يصبح الأثاث والتحف النفيسة ملكاً للأمة المصرية بعد وفاته أو حين يغادر مصر نهائياً .

وأقبل الضابط على تنظيم البيتين في همة لا تعرف الكلل وذوق فني وخبرة في الفنون ، وأتفق الأموال الطائلة في شراء الأثاث والألطف من البيوت الأثرية ومن أسواق العاديات في مصر وغيرها من البلدان . وأصبح بيت الكريديلية من معالم القاهرة الجميلة . كما أضاف إلى ذلك كله مكتبة عامرة بالكتب النفيسة على مصر ولا سيما وصف الرحالة لها (١) .

دار جمال الدين الذهبي

بجارية خشقدم

شيد هذا البيت جمال الدين الذهبي كبير التجار بمصر في عام ١٠٤٧هـ / ١٦٣٧م كما دون على طراز سقف القاعد ، ويشرف على فناء البيت اللطيف مقعد ذو عقدتين متكئين على عمود من الرخام . ومن الجهة الشرقية تطل القاعة الكبرى ذات الإيوانين اللذين تتوسطهما درقاعة مغطاة بقبة صغيرة من الحشب . وأسفل جدران القاعة مكسية بوزرة جميلة من الرخام البديع الصنع الملون ، وبها جزء على هيئة محراب ، وبالإيوان البحري مشربيات ، وبصدر القاعة مشربية لطيفة تطل على الشارع ، تعلوها شبايك صغيرة من الجص وقطع الزجاج الملون . وسقفا القاعة والمقعد مهيان بالدهان ومزوقين بالذهب وأرضية القاعة مغطاة بالرخام .

ويدل تخطيط هذا البيت الأنيق على براعة مهندسه . وبوسط الفناء نافورة من الرخام تقف إليه من منزل آخر .

دار الشيخ عبد الوهاب الطبلاوي^(٢)

المعروف بببيت السحيمي (١٦٤٨ - ١٧٩٦)

يقع هذا البيت بشارع الدرب الأصفر بالجمالية، وقد أنشأه الشيخ عبد الوهاب الطبلاوي في سنة ١٠٥٨هـ

(١) دكتور زكي محمد حسن : بيت الكريديلية ، مقال نشر في مجلة الثقافة .

(٢) رقم هذا الأثر ٣٣٩٩

(١٦٤٨م) وقد دون هذا التاريخ على طراز خشبي جميل في أحد جدران البيت . ويتكون من قسمين أحدهما قبلي ، والآخر بحري .

أما القبلي فقد أنشأه الشيخ عبد الوهاب سنة ١٦٤٨ م وأهم ما يشتمل عليه هذا الجزء ، القاعة التي على عيين الداخل والمشملة على إيوانين بينهما درقاعة أرضيتها مفروشة بالرخام المختلف الألوان ، وعلى يسار الداخل قاعة أرضيتها من الرخام وعلى بابها تاريخ تجديدها .

وأما القسم الآخر ، وهو البحري فقد أنشأه الحاج إسماعيل بن الحاج إسماعيل شلبي عام (١٢١١هـ) ١٧٩٦ — ٩٧م وأدمجه في القسم الأول وجعل منهما بيتاً واحداً .

وهذا القسم أهم وأكبر من القسم الأول ، فهو يشتمل على قاعة بحرية شرقية تماؤها غرفة كبيرة ، ويقابل هذه القاعة قاعة أخرى غربية بوسطها فسقية من الرخام وبها نافورة تعد من أجمل ما صنع من نوعها . وأمام القاعة ردهة يتوسطها سقفا «شخشيخة» حديثة . ويكتنف هذه القاعة من جانبيها البحري والقبلي سلمان يؤديان إلى الطابق العلوي للبيت ، وتعتبر العرفة البحرية الكبرى الراكبة على تحتبوش محمول على عمود من الرخام أخفم حجر المنزل ، وهي مكونة من إيوانين تتوسطهما درقاعة والجزء السفلي من جدرانها مكسى بالقاشاني المتوع . وللبيت درجات أخرى تؤدي إلى بقية الغرف ، وبالركن البحري الشرقي للحديقة طاحونة وساقية .

دار محمود محرم

تعرف أيضاً بدار الضيافة (المسافر خانة) وتقع بين دربي المسمط والطلباوي بحي الجمالية ، ش يدها الحاج محمود بن محرم في سنة ١١٩٣ هـ (١٧٧٩) وأتمها وزخرفها فأصبحت من أجمل دور القاهرة في القرن الثامن عشر ، وقد تعاطى التجارة واشتهر ذكره وعرف بالصدق والأمانة وأجبه الأمراء المصريون ، وتداخل معهم بعقل وذكاء وحسن سياسة .

وفي عام ١٧٨٤ زوج ولده أحمد وأقام له الأفراح التي دعا إليها الأكارب والأعيان والتجار ، وأسكنه معه في داره . وفي سنة ١٧٩٢ عمر مسجداً بجوار بيته على رأس درب المسمط ووقف عليه أوقافاً ورتب فيه التدريس . وفي السنة التالية حج ، وفي أثناء عودته مع الحجاج مرض بالحمى .

وللدار ثلاثة أبواب ، إثنان في درب المسمط أحدهما الباب العام والثالث في درب الطلباوي . فالباب العام يؤدي إلى دركاة (دهليز) يوصل إلى صحن كبير مكشوف ، به على اليمين قاعة تجوى إيوانين ودرقاعة صدرها صفة كانت توضع فيها النارجيلات والطمشوت والأباريق ... الخ . وبه في الجهة الغربية باب يؤدي

٢٤١

إلى سلم وبجواره باب آخر يؤدي إلى فضاء ربما كان في الأصل من الحديقة ، ويتبعه غرف ومرتفعات للدار،
وبه من الجهة القبلىة « التختبوش » بعموده الرخامى البديع الحامل للعتب الحشبي المنقوش والذي كان فوقه
مشربية جميلة من الخرط وقد استبدلت بشبابيك « شيشة » .

والجنب الشرقى للصحن به ثلاثة أبواب . الأيسر يؤدي إلى سلم يصعد منه إلى العرف العليا وبخاصة إلى
الجنب الشرقى حيث ولد اسماعيل خديوى مصر الأسبق ، والأوسط يؤدي إلى قاعة « الأنس » نقش تاريخها
على العتب سنة ١١٩٣ هـ وهذا نصه :

الألمن هذى روضة الحسن والهنأ وجنة فردوس السرور المقيم
تفوق على الجوزا بحسن جمالها وبهجة منشيها الجواد الحكيم
وأقسم داعى الخط فيها مؤرخاً لقاعة أنس وسط دار النعم

والباب الأيمن أكثر زخرفة من سابقه ومصراعه من خشب معشق آية في البها: والرونق ، وقد نقش
على عتبة الرخام ما يأتى :

شاد الملا قاعة من حسن رونقها أضفى الدير من جملة الخدم
على قواعد حفظ الله قائمة وقد غدت بمزيد الأمن كالخرم
في بيت عزلك العليا تؤرخه بشراك فيه بطول العمر والنعم

ويؤدي هذا الباب إلى رحبة توصل إلى قاعة المجد وهى القاعة الكبرى القبلىة الخاصة باستقبال التجار
وغيرهم وإلى أما كن أخرى ، ويعلو الباب عتبة نقش عليها :

لك ياذا العزيز قاعة حسن هى فى مصر جنة القاعات
صانعا الله من حسود ودامت بك مأوى العلياء والذات
من يشاهد إشراقها قال أرخ أنها قاعة من الجنسات

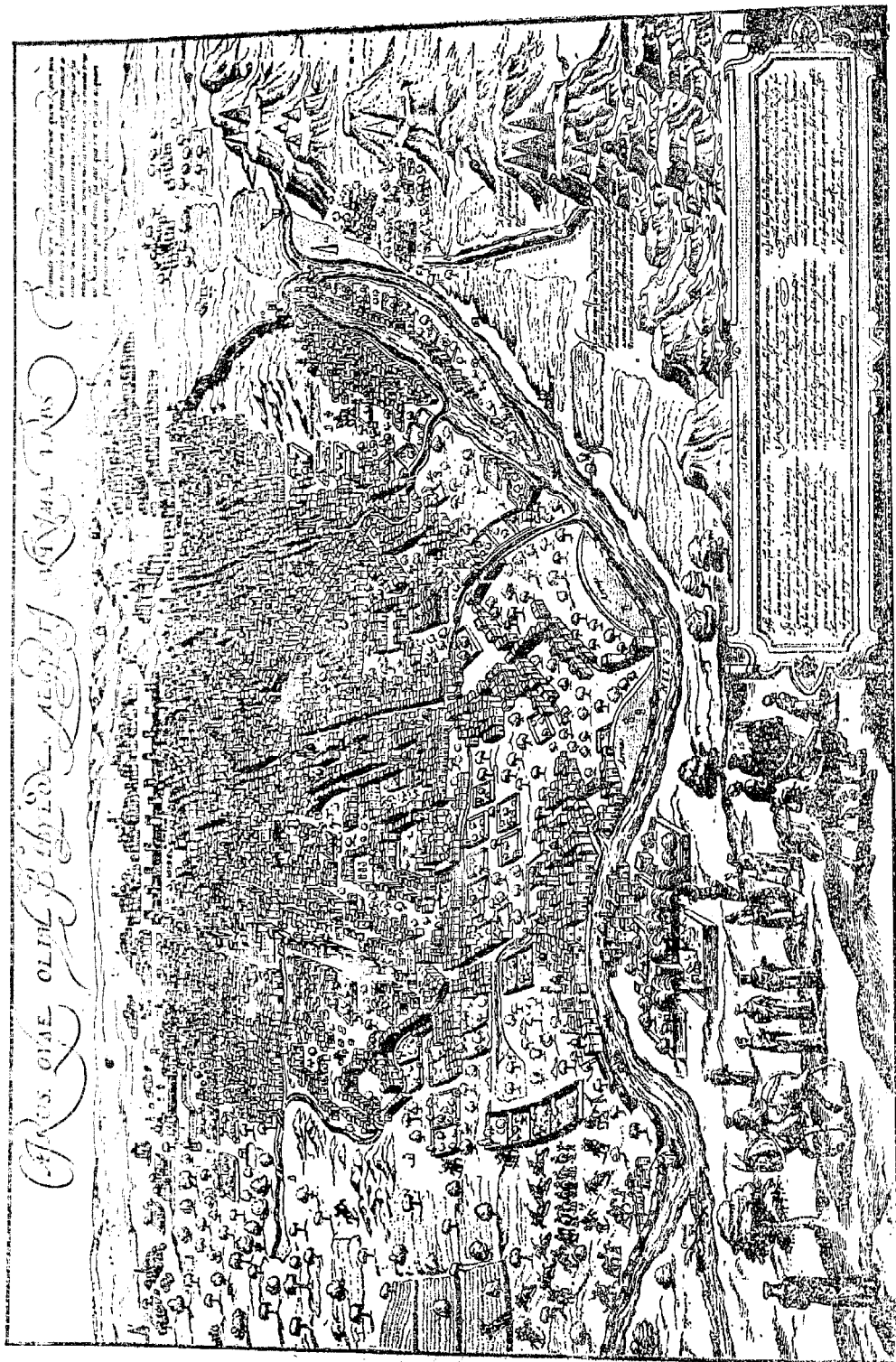
وتحتوى قاعة المجد على ثلاثة أو اوين بينها دور قاعة ، فالإيوان المقابل للداخل به شرايح خشب خرط
دقيق ، والإيوان الأيسر به خزانة خشب جميلة الصنع وبأرض الدور قاعة نافورة جميلة من فسيفساء رخام ،
أما السقف فمن الخشب ويوجد بدائر القاعة طراز من الخشب مكتوب عليه بالخط الثالث الجميل تاريخ الانشاء
فى قصيدة مكونة من ٢٦ بيتاً أولها .

هذه زهة لها المجد شيد وعلى غيرها لها الله أيد
وبأسماء ذى الجلال تعالي وبآياته لها الحفظ يسند ... الخ

وبالدور العلوى فى هذه الدار قاعة الاسعاد وتحوى إيوانين ودور قاعة بينهما ، فالايوان الأيسر يشرف على درب السمط من مشربية من الخشب المخروط الدقيق الصنع وبجانبيه خزانات فوقها طراز دائر حول القاعة كلها ، وبالدور قاعة باب يوصل إلى طرقة بها حمام وفريزة وقد كتب على الطراز قصائد متنوعة .

والقاعة القبلىة بهذا الطابق هى التى ولد بها الخديو اسماعيل فى ١٦ رجب سنة ١٢٤٤هـ (٢٢ يناير ١٨٢٩) وبهذه الغرفة خزانة بمصراعين بينهما مصراع يؤدي إلى سلم على اليمين وإلى حجرة صغيرة تتصل بأخرى ضيقة بها باب يؤدي إلى القاعة الشرقية الكبرى العليا وإذا صعد الزائر من السلم يجد نفسه فى قاعة صغيرة تحوى إيواناً واحداً ودور قاعة بها مشربية جميلة ، وهذه تؤدي إلى قاعة كبيرة لا تقل أهمية عن القاعات الأخرى (١) .

وينسب إلى هذا العصر بعض دور أخرى ، رأينا أن نذكرها فى الفصل التالى ، وذلك لارتباطها بالأحداث المتعلقة بثورات القاهرة ضد الفرنسيين .



خريطة للقاهرة نشرت في مؤلف ألماني حوالي عام 1٥٧٤ (أوائل العصر العثماني)

آثار العصر العثماني

(٩٢٣ / ١٢١٩ هـ - ١٥١٧ / ١٨٥٦ م)

التاريخ		اسم الأثر	رقم الأثر
الميلادي	الهجري		
٢٤-١٥١٩	٣١-٩٢٦	باب وتكية وقبة الككشني	٣٣٢
١٥٢٢	٩٢٩	زاوية حسن الرومي بالحجر	٢٥٨
١٥٢٨	٩٣٥	مسجد سليمان باشا (سارية الجبل) بالقلمة	١٤٢
١٥٣٥	٩٤٢	سبيل وكتاب خيمرو باشا بالنحاسين	٥٢
١٥٣٨	٩٤٥	قبة جاهين الخالوتي بسفح المقطم	٢١٢
١٥٤٠	٩٤٧	منزل آمنة بنت سالم	٥٦٩
١٥٤١	٩٤٨	وكالة سليمان باشا	٥٣٩
١٥٤٣	٩٥٠	تكية السلمانية بالسروجية	٢٢٥
١٥٤٨	٩٥٥	مسجد داود باشا	٤٧٢
١٥٦٨	٩٧٥	» الحمودية بالمنشية	١٣٥
١٥٦٨	حوالي ٩٧٥	قبة عبد الوهاب الشعرائي بشارع الشعرائي	٥٩
١٥٧١	٩٧٥-٩٧٩	مسجد سنان باشا ببولاق	٣٤٩
١٥٧٥	٩٨٣	» نور الدين (مسيح باشا) بمرب اليسار	١٦٠
١٥٧٨	٩٨٦	جامع مراد باشا بالموسكي	١٨١
القرن السادس عشر	القرن العاشر	سبيل يوسف الكردي بدرب الجماميز	٢١٣
» » »	» »	منزل وقف الحاج عبد الرحمن الفاشي	٣٥٥
١٦١٠	١٠١٩	مسجد الملكة صفية بالداودية	٢٠٠
٢٩-١٦١٦	٣٨-١٠٩٢٥	» البرديني	٢٠١
١٦١٨	١٠٢٨	سبيل وكتاب القزلار بالسيوفية	٢٦٥
١٦٢٥	١٠٣٥	مسجد يوسف أغا الحيني بشارع درب الجماميز	١٩٦
١٦٣٠	١٠٤٠	سبيل مصطفى سنان بسوق السلاح	٢٤٦
١٦٣٠	١٠٤٠	» وكتاب وقف قيطاس	١٦
١٦٣١	قبل ١٠٤١	مسجد عابدين بك (الفتح)	٥٨٧
١٦٣١	١٠٤١	منزل وسبيل الكريدلية ببر الوطاويط	٣٢١
١٦٣٢	١٠٤٢	سبيل وكتاب خليل المقاطعجي بالدرب الأحمر	٧١
١٦٣٢	١٠٤٢	» سليمان جاويش بباب الشعرية	١٦٧
١٦٣٧	١٠٤٧	» وكالة جمال الدين الذهبي	٤١١

آثار العصر العثماني

التاريخ		اسم الأثر	رقم الأثر
الميلادي	الهجري		
١٦٣٧	١٠٤٧	منزل جمال الدين الذهبي بحارة خوشقدم	٧٢
٤٠-١٦٣٩	٥٠-١٠٤٩	سبيل إبراهيم أغا مستحفظان بشارع التبانة	٢٣٨
١٧٩٦-١٦٤٨	١٢١١-١٠٥٨	منزل السحيمي بالدرب الأصفر	٣٣٩
١٦٥٠	١٠٦٠	زاوية رضوان بك	٣٦٥
١٦٥٠	١٠٦٠	مقعد « » بالحيامية	٢٠٨
١٦٥٢	١٠٦٢	منازل وقف إبراهيم أغا	٥٩٥
١٦٥٢	١٠٦٢	منزل وقف « »	٦١٩
١٦٥٢	١٠٦٢	« » « » « » (مستحفظان)	٦١٣
١٦٥٥	١٠٦٦	مسجد سيدي عقبة	٥٣٥
١٦٥٧	١٠٦٨	سبيل اسماعيل مغاوي بالقرب من مسجد الحسين	٥٧
١٧٥٤-١٦٥٩	١١٦٨-١٠٧٠	منزل وقف السادات	٤٦٣
١٦٦٠	١٠٧١	مسجد عابدي بك	٥٢٤
٨٠٩-١٦٦٢	١٢٢٤-١٠٧٣	رباط الآثار بأثر النبي	٣٢٠
١٦٦٤	١٠٧٤	منزل وقف الست ومسيلة	٤٤٥
١٦٦٩	١٠٨٠	مسجد آق سقر الفرقاني بحارة السيدة فاطمة النبوية	١٩٣
١٦٧٣	١٠٨٤	سبيل وكتاب أوده باشي بحارة البيضة	١٧
١٦٧٣	١٠٨٤	« » وقف اوده باشي	٥٩١
١٦٧٣	١٠٨٤	واجهة منزل ووكالة اوده باشي بالجمالية	١٩
١٦٧٧	١٠٨٨	سبيل وكتاب علي أغا دار السعادة بالسوقية	٢٦٨
١٦٨٠	١٠٩١	مسجد ذو الفقار بك	٤١٥
١٦٨٣	١٠٩٤	سبيل مصطفى جوربجي مستحفظان	٥٥٣
القرن السابع عشر	القرن الحادي عشر	منازل وقف رضوان بك	٤٠٦
» » »	» » »	« » « » « »	٤٠٧
» » »	» » »	وكالة بازرة	٣٩٨
١٦٩٤	١١٠٦	سبيل إبراهيم شوربجي	٣٦٣
١٦٩٤	١١٠٦	« » وكتاب حسن أغا كوكليان بسوقية العزى	٢٤٣
١٦٩٤	١١٠٦	وكالة ومبيل عباس أغا	٣٩٦
١٦٩٧	١١٠٩	مسجد أحمد كتخدا العزب بالقاعة	١٤٥
١٦٩٨	١١١٠	« » مصطفى جوربجي ميرزا بيولاقي	٣٤٣
١٦٩٩	١١١١	سبيل وكتاب أحمد سليم	٤٦١

آثار العصر العباسي

رقم الأثر	اسم الأثر	التاريخ	
		الهجري	الميلادي
٤٠٥	سبيل وكتاب حسن كاتب عزبان	١١١٣	١٧٠١
٣٧٧	مسجد الحاج محمد باشا	١١١٣	١٧٠١
١٩٧	سبيل وكتاب علي بكر الدياتي بدر سعادة	١١٢٢	١٧١٠
٧٧	منزل زينب خاتون بحارة الدوادر	١١٢٥	١٧١٣
٤٧١	« وقف مصطفى جعفر السلحدار	١١٢٥	١٧١٣
٥٠٨	سبيل ابراهيم المانسترلي	١١٢٦	١٧١٤
٢٣٢	« موصل	١١٢٧	١٧١٥
٢٢٩	« وكتاب محمد مصطفى المحاسبجي بالداودية	١١٢٩	١٧١٦
٣٠٩	« بشير أغا	١١٣١	١٧١٨
١٥٠	« محمد كتنخدا بشارع التبانة	١١٣١	١٧١٨
٤٥٢	« الأمير عبد الله	١١٣٢	١٧١٩
٦٣	منزل وقف الشعراني بالخرنفس	١١٣٨	١٧٢٥
٤٤٦	« عبد الرحمن الهراوي	١١٤٤	١٧٣١
٦١٠	مسجد الكردي	١١٤٥	١٧٣٢
٢٦٤	« عثمان كتنخدا بشارع عابدين	١١٤٧	١٧٣٤
١٠٩	جامع الفسكهاي بالقادين	١١٤٨	١٧٣٥
٣١٣	سبيل وكتاب الست صالحه بدر الجمالين	١١٥٤	١٧٤١
٤٠	« الشيخ مظهر (ومسجده) بالخرديج	١١٥٧	١٧٤٤
٢١	« عبد الرحمن كتنخدا في بين القصرين	١١٥٧	١٧٤٤
٢٢٦	« ابراهيم خلوصي بعطفة الليمون بالسروجية	١١٥٩	١٧٤٦
٣٨٣	تربة رضوان بك	١١٦٢	١٧٤٩
٣٠٨	تكية وسبيل السلطان محمود بالجبانة	١١٦٤	١٧٥٠
٤٢٨	المدرسة الكاملية	١١٦٦	١٧٥٢
٣٣١	سبيل ابراهيم بك الكبير بالداودية	١١٦٧	١٧٥٣
٥٥٥	باب العزب	١١٦٨	١٧٥٤
٣٨٧	سبيل وكتاب ومدفن رضوان أغا الرزاز	١١٦٨	١٧٥٤
٤٤٨	مسجد عبد الرحمن كتنخدا	١١٦٨	١٧٥٤
٣١٤	سبيل وكتاب السلطان مصطفى بالسيدة زينب	١١٧٣	١٧٥٩
٤١٤	مسجد الخاوتي	١١٧٣	١٧٥٩
٣٧٦	« سبيل الأمير خليل	١١٧٤	١٧٦١

آثار العصر العثماني

التاريخ		اسم الأثر	رقم الأثر
الميلادي	الهجري		
	١١٧٥	مسجد السيدة عائشة النبوية	٣٧٨
١٧٦٢	١١٧٧	« الأمير يوسف جوربجي (جامع الهياثم بالحنفي) »	٢٥٩
١٧٦٣	١١٨٠	تربة عثمان بك القازدوغلي بالركية	٢٧١
١٧٦٦	١١٨٤	مسجد أحمد العزبان ؟	٦٠٠
١٧٧٠	١١٨٦	سبيل يوسف بك بشارع السيوفية	٢٦٢
١٧٧٢	١١٨٧	تربتا علي بك الكبير واسماعيل بك الكبير	٣٨٥
١٧٧٣	١١٨٨	جامع محمد بك أبو الذهب أمام الأزهر	٩٨
١٧٧٤	١١٨٨	سبيل وحوض محمد بك أبو الذهب بشارع التبليطة	٦٢
١٧٧٤	١١٩٠	منزل علي كتبخدا (الربماعة)	٥٤٠
١٧٧٦	١١٩٢	قاعة ومقعد أحمد كتبخدا الرزاز بسوق العزى	٢٣٥
١٧٧٨	١١٩٣-١٢٠٣	المسافر خانة بقصر الشوق بالجمالية درب المسط	٢٠
٨٨-١٧٧٩	١١٩٤	حمام الملاطيلي	٥٩٢
١٧٨٠	١١٩٩	مسجد السادات الوفاية	٦٠٨
١٧٨٤	القرن الثامن عشر	حمام السكرية	٥٩٦
» » »	» » »	» الطملي	٥٦٤
» » »	» » »	سبيل وحوض عبد الرحمن كتبخدا بالحطابة	٢٦٠
» » »	» » »	وكالة الصناديقية	٤٢٣
» » »	» » »	» وكالة بدوية بنت شاهين	٦١٥
» » »	» » »	منزل علي لبيب	٤٩٧
» » »	» » »	» وقف العروسي والعريان بسوق الزلط	١٦٥
١٨٩٢	١٢٠٧	جامع محمود محرم بركة باب العبد بالجمالية	٣٠
١٢٩٤	١٢٠٩	منزل ابراهيم كتبخدا السناري بجارة مونيح بالسيدة زينب	٢٨٣
١٨٠٢	١٢١٧	» حسين كتبخدا شين	٥٦٨
١٨٠٥	١٢٢٠	مسجد زين العابدين	٥٩٩
١٨٠٨	١٢٢٣	سراي محمد علي بشبرا	٦٠٢
١٨٠٨	١٢٢٣	مجرى مياه (محمد علي باشا)	٠٠٠
١٨٠٩	١٢٢٤	مسجد حسن باشا طاهر ببركة الفيل	٢١٠
١٨١٠	١٢٢٥	قلعة محمد علي	٤٥٥
١٨١٢	١٢٢٧	دار الضرب	٦٠٦

آثار العصر العثماني

التاريخ		اسم الأثر	رقم الأثر
الميلادي	المعجری		
١٨١٤	١٢٢٩	قصر الجوهرة والعدل	٥٠٥
١٨١٤	١٢٢٩	مسجد جوهر الكعبي	٦١١
١٨١٧	قبل ١٢٣٣	مدفن أحمد باشا طاهر	٥٦٥
١٨٢٠	١٢٣٦	سبيل محمد علي بالعقادين	٤٠١
١٨٢٧	١٢٤٣	قصر الحرم	٦١٢
١٨٢٨	١٢٤٤	دار المحفوظات	٦٠٥
١٨٢٧	١٢٤٤	سبيل محمد علي بالنحاسين	٤٠٢
١٨٢٧	١٢٥٣	وكالة السلحدار	٦٠٤
١٨٣٩	١٢٥٥	مسجد وسبيل وكتاب سليمان أغا السلحدار	٣٨٢
٤٨-١٨٤٥	٦٥-١٢٦١	جامع الجوهري	٤٦٢
١٨٤٨	١٢٦٥	مسجد محمد علي الكبير	٥٠٣
١٨٥٦	١٢٧٢	سبيل وكتاب وقف الحرمين	٤٣٣
القرن التاسع عشر	القرن الثالث عشر	حمام العدوى	٥٦٧

الفصل الثامن

القاهرة في أيام الحملة الفرنسية

من ١٧٩٨ إلى ١٨٠١

تقدم الآن صورة للقاهرة حين قدم إلى مصر نابليون بونابرت على رأس حملته . فقد كانت تمتد حدودها الشمالية بين الحسينية وباب الحديد ، وجنوباً بين القلعة إلى باب عرب اليسار إلى باب السيدة عائشة إلى جامع السيدة نفيسة فباب طولون فباب البغالة فباب السيدة زينب . وشرقاً من القلعة فباب الوزير فالترب فباب الحسينية . وغرباً من باب الحديد إلى الأزبكية فباب اللوق فباب الشيخ ربحان فالناصرية فباب السيدة زينب . وكان موقع القاهرة يبعد أكثر من ألف متر عن شاطئ النيل الشرقي وبينها وبينه مزارع . وكانت بولاق تمتد من ضواحي العاصمة كما كانت مصر القديمة . وكانت الطريق بين الناصرية ومصر القديمة مقفرة من المساكن ليس بها إلا مزارع وحدائق . وقد قامت على شاطئ النيل الشرقي بعض مبان قديمة كتصر إبراهيم بك (قصر العيني) تجاه الروضة وبجواره بيت لمحمد كاشف الأرنؤوطى وعلى شماله بيت لمصطفى بك وكان جامع الظاهر خارج عمران القاهرة .

لقد اتفق أكثر الرحالة الذين جاءوا إلى مصر في تلك الفترة على أن شوارع القاهرة كانت ضيقة كثيرة التعاريج ، وكان أطولها الشارع الموصل بين باب الحسينية إلى باب السيدة نفيسة وطوله أربعة آلاف وستائة وأربعة عشر متراً . ولم يكن بالقاهرة سوى أربعة ميادين فسيحة : ميدان قره ميدان تحت القلعة ، وميدان الرميلة المجاور لقره ميدان يفصلهما باب اسمه باب قره ميدان ، وميدان بركة الفيل ، وميدان الأزبكية ويسمى بركة الأزبكية .

وقدر العلماء الفرنسيون مساحات الأحياء المسكونة في القاهرة وبولاق ومصر القديمة بنائمائة هكتار أى أقل من ربع باريس في القرن الثامن عشر . ولما وصلت الحملة الفرنسية كانت البيوت الشاهقة قد تقلص عددها وانحطت هندستها وبدت على عمارتها مظاهر الفاقة ، وتعذر النقل بين أحياء القاهرة وطلعت مؤامرات الاستبداد ، فأهملت مرافق البلاد الاقتصادية وقفدت القاهرة حيويتها . وأصبحت أحياء باب الخلق والأزهر والحنفي والموسكى والسيدة زينب تبدو فيها مظاهر البؤس البشع ، مما أثر في نفوس الرحالة «تيفنو» و«سونيني» و«فولني» وأما من الناحية الفنية فإن عصر الأزدهار الذى نعمت به في عهد السلاطين المماليك كان قد

ولى وعنى أثره — ولم تكن ملامح الفن قد اندثرت تماماً فكانت لا تزال بقاياها موجودة في تلك المباني التي خلفها الأتراك كسبيل خسرو باشا وبيت جمال الدين الذهبي وبعض المساجد المملوكية .

أما قاهرة المقرزى ، وكانت عروس الشرق — تلك التي وصفها في خططه الخالدة بما احتوت عليه من رحاب ومنتزهات وقصور للخلفاء والأمراء وغيرها من المناظر والمدارس والمساجد ودور الكتب فلم يبق منها إلا القليل . ومع ذلك فقد احتفظت القاهرة بصورتها الشرقية الجميلة لما احتوت عليه من الوكالات والحمامات والأسبلة والمساجد وبعض العماير الجميلة .

وكان ميدان الأزبكية أو بركة الأزبكية كما كانوا يسمونها ، أجمل الميادين الأربعة تحيط بها القصور البديعة يسكنها الأمراء والأعيان . وفي أيام الفيضان تمتلئ بياه النيل فتصير لجة من الماء يتنزه فيها الناس بالزوارق في النهار والمساء والليل . وتوقد المصابيح من البيوت المطللة عليها ، فيسكون منظر البركة من أبهى المناظر ولا سيما في الليالي القمرية .

وكانت المدينة في حالة سيئة من الإهمال وعدم العناية بالمرافق الصحية . وقد كتب الجنرال « ديوى » أحد قوادنا بليون ، وكان قد عين حاكماً للقاهرة إلى صديق له يقول « المدينة بغیضة جداً ، قذارة شوارعها لا تتحمل ورائحتها كريهة وأهلها ييطشون . وأكاد للآن لا أعرف المدينة التي تكبر باريس حجماً إنما تختلف عنها من جميع الوجوه » .

ولقد دفع هذا البؤس رجال الحملة الفرنسية إلى العمل على تخليص القاهرة من طاعون يكتسبها . فأمر نابليون بإنشاء محاجر صحية بجزيرة بولاق . كما أمر بإقامة مستشفى عسكري في قصر مراد بك بالجيزة ثم عدل عنه ونقله إلى قصر إبراهيم بك تجاه الروضة . وأنشأ لجنة لإدارة الشؤون الصحية في القاهرة ومصر القديمة وبولاق ، فوضعت اللوائح لنظافة المدينة . وطالبت باضاعة قناديل بالطرق والأسواق بحيث يكون على كل دار قنديل وعلى كل ثلاثة دكاكين قنديل وأن يداوم الأهالي على الكسكس والرش وتنظيف الطرق من القاذورات ونبه عليهم بمنع دفن الموتى بالمقابر القريبة من المساكن كمقابر الأزبكية والرويعي ، وأن يدفنوا موتاهم بالمقابر البعيدة ، وفي حالة الدفن يجب العناية بالحفر ، وطالبت اللجنة أيضاً بنشر الثياب والأمتعة بالأسطح عدة أيام وتبخير المنازل بالمطهرات اجتناباً للطاعون .

نابليون في القاهرة

بعد أن انتصر نابليون على المهاليك في معركة امبابية ، سار في طليعة جنوده إلى الجيزة واتخذ قصر مراد بك معسكراً له وقد استولى على مصنع ذخيرته الذي أنشأه بالجيزة . وفي مساء اليوم احتلت قوة من الجيش الفرنسي جزيرة الروضة . وفي مساء اليوم التالي دخل الجنرال « ديوى » القاهرة على رأس قوة من الجند

فلم يلق بها مقاومة وعسكر ليلا في بيت إبراهيم بك . فكانت هذه القوة طليعة الجيش المحتل . وفي ٢٣ يوليو ١٧٩٨ تبعها بقية الفرق فاحتلت القلعة والمدينة وضواحيها وأصبحت العاصمة المصرية في قبضة امبراطور فرنسا .

دخل نابليون القاهرة يوم ٢٤ يوليو ١٧٩٨ فسكت فيها حتى رحل إلى سورية في اليوم العاشر من فبراير ١٧٩٩ . وفي تلك الفترة لم يغب عن القاهرة سوى مرتين : المرة الأولى في أثناء مطاردته لإبراهيم بك ، والمرة الثانية لما قصد سيناء مع بعثة من رجاله العسكريين والعلماء لاستكشافها وقد جعل نابليون سكنه ومقر رئاسة الجيش العامة في قصر محمد بك الألفي بالأزبكية .

قصر محمد بك الألفي

كان هذا القصر يخطط الساكت الذي لم يكبد يتم تشييده وتأسيسه حتى فوجئت مصر بحملة نابليون ، فكان الألفي قد بناه لامبراطور فرنسا . وكان يتألف من ثلاث مربعات كبيرة من البساتي الجميلة تفصل كل منها عن الآخر الحدائق الغناء . وكانت واجهة القصر الرئيسية تشرف على النيل . ويظهر أن نابليون لم يشأ في بادئ الأمر أن يعدل كثيراً في مبنى هذا القصر لكي يصير مطابقاً لحاجته . لكنه طلب أخيراً في فبراير ١٧٩٨ من الجنرال « كافاريللي » كبير مهندسيه العسكريين أن يدرس تشييد سلم قليل الكلفة لا يتجاوز نقاش إقامته ألف وخمسة مائة فرنك . وكان الدور الأول من القصر يشتمل على بهو فاخر جداً أقام فيه نابليون الاحتفال بعيد الجمهورية الفرنسية حيث أعد وليمة دعا إليها مائة وخمسين مدعواً . وفي طرف هذا الصالون البديع كان يوجد الديوان المستطيل . وكانت جدرانها عارية من الزخرفة والنقش على الطريقة التركية . ولكنها زينت فيما بعد باللوحات الفنية الأنيقة التي أبدع فيها النقاشون والرسامون الفرنسيون ، فكانت ترى صور مشاهير الشيوخ يعمل على إخراجها « دوتتر » و « ريجو » وغيرهم من مشاهير الفنانين الذين صحبوا الحملة .

وقد تغالى الفرنسيون في بدء الاحتلال في الاعتداء على ممتلكات الأهالي ومن فيها من القاطنين المهادين وذكري الجبوتي الكثير من ذلك ، فقد وضعوا أيديهم على قصر الأمير حسن كاشف جركس بالناصرة (١) . ونهب الغوغاء قصرى الأميرين إبراهيم بك ومراد بك بخطط قوصون وأحرقوا أجزاء منهما . ومن ذلك أيضاً أن جماعة من الجنود الفرنسيين بصحبة مترجم ومهندس قصدوا بيت رضوان كاشف بياب الشعرية فانزعجت زوجته لمباغتهم لها وكانت قد دفعت من قبل للخزينة العسكرية ألف وثلاثمائة ريال ولصقت الايصال على باب دارها لتبعد المطالبين عنها ولتطمئن على حياتها . فلما حضر إليها الجند لتفتيش بيتها صدتهم قائلة أن

(١) راجع وصف هذا القصر في ذيل الفصل .

ليس عندها أسلحة أو ملابس للمالك . فلم يقتنعوا بقولها وصعدوا إلى الدور العلوى وفتحوا مخبأه فوجدوا فيه أنواع الأسلحة والذخيرة والملابس ، كما عثروا على دراهم كثيرة مخبأة فأخذوا كل ما وجدوه وقبضوا على السيدة وجواربها فأقن عندهم ثلاثة أيام ونهبوا ما وجدوه بالدار من أثاث ورياش وقرروا عليها أربعة آلاف ريال أخرى دفعتها السيدة فأطلقوا سراحها ورجعت إلى دارها .

ووزع نابليون قصور أمراء الممالك وكبار الأعيان على كبار قواد جيشه ، فسكن الجنرال « ديوى » قصر إبراهيم بك في بركة الفيل . وقد كتب في خطاب أرسله لوالديه يقول :

« أسكن في أجمل قصور القاهرة » . . .

وسكن الجنرال « كاناريلى » وزميله الجنرال « ديوى » في بادىء الأمر بيتاً يطل على الأزبكية . ولم يتسع ذلك البيت لحاجتهما فغادراه إلى بيت رحب كان يمتلكه الأمير رضوان . . . له ردهات رحبة وإيونات واسعة ونافورات جميلة وأحواض من المرمر البديع ودرج عريض وحديقة غناء . وسكن العالم الكيماوى « برتوليه » وكان يلى العالم « لافوازيه » في شهرته بيت يحيى كاشف الكبير بحارة عابدين (١) . أما « جور » واثنان من مترجمى الحملة فكان نصيبهم أحد قصور مراد بك الفخمة واستولت بعض فرق المشاة على بعض البيوت المطلة على الأزبكية وحوالها إلى ثكنات كما تقتضى الحاجات العسكرية . أما الخيالة فاحتلت إحدى وكالات الأرز في بولاق .

وبعد أن انهزم الفرنسيون في معركة أبى قير أمروا بإقصاء كثيرين من أصحاب البيوت عن بيوتهم بحجة حاجتهم إليها كما هدموا كثيراً من المباني والآثار والمساجد لتحصين القاهرة كما سنوضح ذلك .

قال الجبترى في هذا الصدد : وفي شهر ربيع الثانى سنة ١٢١٣ [١٧٩٨] أمروا سكان القلعة بالخروج من منازلهم والنزول إلى المدينة للسكن فيها ، وأصعدوا إلى القلعة مدافع ركزوها بمدة مواضع وهدموا بها أبنية كثيرة وشرعوا فى بناء حيطان وكرانك وأسوار وهدموا أبنية عالية وأعلوا مواضع منخفضة وغيروا معالم القلعة وأبدلوا محاسنها ومحوها ما كان بها من معالم السلاطين وآثار العظماء . وما كان فى الأبواب العظام من الأسلحة والدرق والبلط . . . الخ » .

نابليون يتوود إلى القاهريين

وسارت جنباً إلى جنب مع سياسة الحزم والشدة التى اتبعها نابليون مع المصريين سياسة أخرى، هى التقرب إليهم عن طريق احترام تقاليدهم والاشتراف فى أعيادهم فأمر مثلاً بالاحتفال بوفاء النيل . وقام نابليون ورؤساء

(١) راجع وصف هذا البيت فى ذيل الفصل .

الجيوش الذين معه وكبخيا القاهرة والباشا وجميع أعضاء ديوان مصر والقاضى وأغوات الانكشارية فى الساعة السادسة من صباح يوم ١٧ أغسطس سنة ١٧٩٨ ، وتوجهوا إلى المقياس وقد اجتمع هناك فوق التلال المجاورة ألوف الناس، كما وقفت جماهير غفيرة على ساحل النيل والخليج وركبوا السفن وهى مزينة بأجمل الزينات . وكانت الجنود مصطفة بنظام ، وحين وصل الموكب إلى المقياس أطلقت المدافع وعزفت الموسيقى العسكرية والأفرنجية والآلات العربية بالألحان اللطيفة وبدى العمل فى قطع الجسر حتى فتح ، فاندفع ماء النيل بقوة وبشدة وثر نابليون على الناس النقاد الصغرة وقطعاً من الذهب على أول سفينة دخلت من الخليج وأنعم بجملة إنعامات على بعض الكبراء ثم عاد إلى بيته بالأزبكية . ودام الاحتفال بوفاء النيل سنوياً أثناء الأعوام الثلاثة التى أقامها الفرنسيون فى البلاد .

وكان يوم ٢٠ أغسطس عام ١٧٩٨ يوم ذكرى ميلاد النبى سيدنا محمد (ﷺ) . فانهز بونابرت هذه الفرصة لتوطيد سلطته على أساس احترام تقاليد الأمة المصرية . فأصدر أوامره بأن يحتفل بهذا العيد فى القاهرة فى مظهر أبهى وأنعم بما كان لمهرجان وفاء النيل ليكتسب ثقة زعماء الشعب ويتودد إليهم . ولذى يبلغ مراده عنى العناية كلها بأن يكون الاحتفال جامعاً بين الأبهة الأوربية والعظمة الشرقية فأمر بتوزيع الأموال والعطايا على الأسر الفقيرة وأن يسير فى الاحتفال (رجال الأشار) وطوائف الأذكار وأرباب الطرق الصوفية وجوقات الموسيقى وكوكبات الجند، وأن تقام الزينات وتطلق الألعاب النارية والصواريخ وأن تعد الموائد الفخمة وعليها مالد وطاب من صنوف الأطعمة .

بعد ذلك طلع نابليون على الناس فى بذلة فخمة على الطراز الشرقى (جبة وقفطان) وعلى رأسه العمامة وتوجه على هذه الصورة مع الضباط الكبار وأركان حربه إلى الجامع الكبير وكان فيه لفيق من المشايخ فأخذ مجلسه بينهم على وسائل صغيرة طرحت فى الأرض ويدها مرسلتان إلى صدره مثلهم واستمع معهم تلاوة القصة النبوية وكان نابليون فى أثناء تلاوتها يهتز كما يهتزون ويميل برأسه كما يميلون . فدهش الحاضرون فى الجامع بما بدا عليه من الخشوع وانصرف نابليون مع الذين كانوا معه من الضباط على مرأى من الجماهير المهتدة قاصدين بيت السيد خليل البكرى لتقديم مراسم التبريك والتهانى . فذهب إليه وعلى رأسه الأعلام النبوية ومن حوله جموع الشعب ومهلبين منشدين الأناشيد ، ثم جلس بجوار المنشدين وهو يشاركهم فى التلاوة والندبات وأظهر أناة وصبراً فى شهود حفلة الذكر من بدئها إلى تمامها ، ثم مدت موائد الطعام وكان عددها يربو على عشرين مائدة رتبت على الطريقة الشرقية فى بهو كبير . وكانوا يجلسون على وسائل وحول كل مائدة خمسة أو ستة أشخاص وجلس نابليون بجوار السيد البكرى إلى إحدى هذه الموائد وتفرق كبار القواد حول الموائد الأخرى يأكلون مع القوم .

واشتركت الفرقة الموسيقية العسكرية الفرنسية فى الاحتفال ، وأطلق الفرنسيون الألعاب النارية فى الجيو فكانت حفلة شائقة بلغت منتهى العظمة والجلال .

القاهرة الثائرة

سبت ثورتان دامتان في أثناء الاحتلال الفرنسي : الثورة الأولى قبل سفر نابليون إلى سوريا والثورة الثانية في أثناء تولية كليبر . وكانت كل ثورة بدورها تقضى على عدة أحياء . فلما اشتعلت الثورة الأولى بحى الأزهر قضى الفرنسيون على أهم أجزائه وهرب معظم ساكنيه . ولما نشبت الثانية في بولاق تخربت عدة نواح كاملة اشتملت على عدد كبير من البيوت المطللة على ضفة النيل كما هدم الجانب الشرقى المطل على حديقة الأزبكية وبعض جهات بركة الرطلى .

قضت الضرورة العسكرية بإزالة عدد كبير من المباني وشق الشوارع الواسعة والميادين ، كما تم في ميدان الرميلة ومصر العتيقة والجيزة وشبرا ، وذلك لتنظيم مخازن المؤن وتوفير السكنات للجند وتسهيل المواصلات بين أنحاء العاصمة وضواحيها . وكانت تلك الأعمال العمرانية الفجائية تشمر العامة بأنهم يفقدون مخلفات أجدادهم العزيزة. ويظهر أن القاهرة كان قد كتب لها أن ترى المصائب تنوالى عليها ، فلم تنج من مصائب الاحتلال العثماني حتى وقعت تحت نيران الفرنسيين ، ولم تسكد تتخلص من تلك النكبة حتى وصل إليها العثمانيون والانجليز عام (١٨٠١ م) فاختل الأمن مرة أخرى وعاد الاضطراب وعمت الاعتداءات وانتشر قطاع الطرق من اللصوص والبدو على جانبي طريق بولاق ، فلم يأمن المارة على أرواحهم وتعطلت قوافل التجارة الداخلية ومجر أهل الريف قراهم هرباً من مظالم حكاهم وفضلوا الالتجاء إلى القاهرة حتى إذا عين محمد على والياً استطاع تهدئة الحال وقضى على صلف المالك كما تحلص من زعمائهم بقسوة .

كانت القاهرة حتى عام ١٨٠٢ مسرحاً دامياً للمارك والفضى والهياج . فهنا فصيلة من الجند ثائرة لأنها لم تتسلم مرتباتها ، وهناك فرقة أخرى هجمت على بيوت الأغنياء والخاصة للخطف والنهب . ولا تسكاد الأسواق تفتح أبواب حوانيتها لعرض متاجرها حتى تفاجأ بشرذمة من ممالك بعض البكوات الذين ينتقمون لأمر آخر ، وفي ناحية أخرى من المدينة كانت الأمراض والأوبئة تسرى بنشاط قتلقي بضعاياها المساكين في الطرقات وعلى أسطح البيوت والأطلال وتبعثر جثث الموتى في كل مكان .

وشاهد رحالة تلك الآونة ومنهم « كلارك » و « هنريك » و « ويتان » تلك المصائب بأعينهم ودونوا مشاهداتهم في كتب رحلاتهم. وقد بقيت الأزبكية وبركة الفيل عشرات السنين أكواماً تميمية من الأتقاض واتخذها الفقراء ملاجئ أقاموا بين أتقاضها بعد أن كانت قصوراً للعظمة والجاه . كذلك كانت الجيزة والروضة ومصر القديمة . فصدق على القاهرة ما قاله عنها الرحالة الأسباني على العباسي :

« سادها الحراب واتخذتها اللصوص وقطاع الطرق أوكاراً للغنائم والمنهوبات » .

ثورة القاهرة الأولى

تهيات أسباب ثورة القاهرة الأولى باعتقال الفرنسيين للسيد محمد كريم حاكم الاسكندرية والحكم عليه بالاعدام ونفذ الحكم عليه رمياً بالرصاص في ميدان الرميطة في السادس من سبتمبر ١٧٩٨ ، يضاف إلى هذا تفنن الفرنسيين في ابتزاز الأموال ومصادرة الممتلكات بمختلف الوسائل ، فمن ذلك أنهم لم يكونوا يأذنون لنساء المماليك بالبقاء في بيوتهن إلا بعد دفع ضريبة كبيرة ، وبلغ مجموع ما فرضه الفرنسيون على السيدة نفيسة زوجة مراد بك عن نفسها وعن نساء المماليك أتباع زوجها ستائة ألف فرنك فاضطرت في سبيل دفع هذه الغرامة الفادحة أن تتنازل عن حليها وجواهرها ومنها ساعة مرصعة بالجواهر كان قد أهداها لها القنصل « مجالون » باسم الجمهورية الفرنسية تقديراً لخدماتها . فكان اضطرابها للنزول عن هذه الهدية الفرنسية احتجاجاً شريفاً منها . أما الضرائب التي فرضها نابليون على التجار المصريين لا سيما تجار القاهرة فكانت ثقيلة جداً إذ كان على تجار المنسوجات بالقاهرة أن يدفعوا ستين ألف ريال تقديراً وأربعين ألف ريال (ملابس وأحذية) للجنود . وعلى تجار البن والبهارات مائتي ألف ريال ، وعلى الأقباط الذين يحصلون ضرائب الأقاليم مائة ألف ريال وهكذا مما كانت لا تحتمله الأحوال الاقتصادية في تلك الأيام .

وأخرج الفرنسيون صدور القاهريين بإخراج الكثيرين من أصحاب البيوت من مساكنهم بحجة حاجتهم إليها وهدمهم الكثير من المباني والآثار والمساجد لتحسين القاهرة .

فلم يكن عجباً أن اختلعت الدعوة إلى الثورة بأذان المؤذنين الذين دعوا إلى الله وإلى الثورة على مآذن المساجد صباح مساء . فبلغ هياج النفوس أعده وكان الشعب في انتظار حادثة واحدة لينفجر بركان هياجه . وتألفت في الأزهر لجنة لتدير الثورة وتنشر دعوتها وتنظم صفوفها (١) .

* * *

في اليوم الواحد والعشرين من شهر أكتوبر سنة ١٧٩٨ كانت القاهرة في حالة لم يألفها شعبها من قبل الخطباء في كل مكان يشعلون الحماسة في قلوب الأهالي . والأسلحة تظهر في أيدي العامة في الطرقات والميادين والفلاحون أهل الضواحي يقبلون إلى القاهرة للاشتراك في الثورة وقد علت صيحات السخط على الفرنسيين وأقام الثأرون للتاريخ والموانع على منافذ الطرقات المؤدية إليها ، فأصبح من المستحيل أن تقتحمها المشاة قبل أن تقوم المدفعية بأعمالها الابتدائية الحربية .

على أن الجنرال دييوى حاكم القاهرة العسكري لم يقدر في بادئ الأمر خطورة الحالة حق قدرها . فإكتفى بإرسال بعض داوريات من الجنود ، لكنه لم يلبث أن وقف على جلية الأمر . فعزم على مواجهة الثورة بنفسه وخرج مع ياوره ومرجه ليتعرف أسباب الهياج . وأصدر أوامره إلى الجنود الرابطة

(١) عبد الرحمن الزافعى : تاريخ الحركة القومية .

بيركة الفيل بأن تتأهب للقتال . ومعنى في كتيبة من الفرسان من بيته بيركة الفيل قاصداً مركز الهياج .
ققصد الموسيقى واتجه إلى شارع العورية وأراد الذهاب إلى بيت القاضي . لكن الشوارع ازدحمت بالجموع
فكان يتنقل بصعوبة وابتدأت تنساقط الأحجار عليه من النوافذ . وبينما كان في طريقه إلى الأزهر جاء
إلى نجدته أحد الأروام المتطوعين (برطولوى الرومى) في شردمة من رجاله وأطلق الرصاص على الجموع
فكانت تلك الرصاصة كافية لتشعل حمية الثأرين . فانهالوا على الفرنسيين ضرباً بالعصى ورجماً بالأحجار
وطعنا بالرمح فجرح ديبوى وياوره وقتل بعض أفراد كتيبته .

أدرك القائد العام خطورة الموقف وأغضبه انتصار الثأرين على عدد كبير من الجند وهجومهم بعد ذلك
على مقر فرقة المهندسين العسكريين ببيت مصطفى كاشف بالدرب الأحمر . فأمر الجنرال « دومرتان »
قائد المدفعية أن يركب المدافع على أسكت المقطم إلى شرق القلعة لتعاون مدافع القلعة في إطلاق قنابلها
على الجامع الأزهر . وأمر نابليون بتعيين الجنرال « بون » قائد القاهرة خلفاً للجنرال « ديبوى » كما
أمر بوضع المدافع على منافذ الشوارع المهمة .

وفي اليوم الثانى والعشرين بينما كان الثأرون مجتمعين فى الأزهر ، قذفت أول قنبلة من المدافع التسعة
على ربي المقطم فانفجرت فى المسجد وكانت هذه القنبلة نذيراً بابتداء ضرب المدينة بالمدافع وأخذت آلاف
القنابل تنهال على الأزهر وتترامى فى الأحياء المجاورة له وأوشك الجامع أن يتداعى من شدة الضرب
فتدفن تحت أنقاضه الجماهير الحاشدة فيه وأصبح الحى المجاور للأزهر صورة من الخراب . ومات تحت
أنقاضه آلاف من السكان الآمنين وكانت الجهات القريبة من الأزهر كشوارع العورية والصناديقية مسرحاً
لهذه المشاهد الفظيمة .

... وأخيراً تغلبت قوة الحديد والنار على مقاومة الشعب المجرد من السلاح ، واستهدف سكان القاهرة
بعد إخماد الثورة لأشد ضروب الانتقام . وبلغ عدد الضحايا من المصريين بين ٢٠٠٠ و ٥٠٠٠ وبلغت خسارة
الفرنسيين ٢٠٠ قتيلاً منهم جماعة من العلماء العسكريين .

ووصف الجبرتي مأساة الأزهر فقال « ثم دخلوا إلى الجامع الأزهر وهم راكبون الخيل وبينهم المشاة
وتفرقوا بصحنه ومقصورته وربطوا خيولهم بقبلته وعانوا بالأروقة والحارات وكسروا القناديل والسهارات
وهشموا خزائن الطلبة والمجاورين والكتبة ونهبوا ما وجدوه من المتاع والأواني والقصاص والودائع
والخزائن بالخزانات ودشتوا الكتب والمصاحف وعلى الأرض طرحوها وبأرجلهم ونعالهم داسوها وكسروا
أوانيها وألقوها بصحنه ونواحيه وكل ما صادفوه به عروه (لتفتيشه) .

لم تقف مظالم الفرنسيين عند ذلك الحد فقد كانت التعليلات التى أصدرها الجنرال « برتبيه » رئيس أركان
الحرب تنطوى على الصرامة والقسوة، ومن أوامره إلى الجنرال « بون » بتاريخ ٢٣ أكتوبر:
« يهدم الجامع الأكبر ليلاً إذا أمكن وترفع الحواجز والأبواب التى كانت تسد الشوارع » .

لقد جاوزت أعمال الفرنسيين الغرض من إخماد الثورة إلى الانتقام والإرهاب . واعترف المؤلفون الفرنسيون بأن إعدام كثير من المتهمين في الثورة تم سرا في القلعة من غير محاكمة . وأمر نابليون الجنرال « برتنيه » أن يصدر تعليماته « بقطع رؤوس جميع الأسرى الذين أخذوا معهم أسنحة وترسل جثثهم إلى شاطئ النيل فيا بين بولاق ومصر القديمة وإغراقها » وكان من بين القتلى كثير من النساء ! وأعدم ستة علماء من مشايخ الأزهر ولم تنفع فيهم شفاعاة أحد . جرى بهم في صباح يوم ٤ نوفمبر إلى انقلعة مخفورين بشرذمة من الجنود وتلى عليهم حكم الإعدام رمياً بالرصاص ، وتولى تنفيذ الحكم فيهم « برطولوى الرومى » ثم ألقوا بجثثهم خلف سور القلعة !

وكان من نتائج الثورة أن أبطل نابليون اجتماع الديوان عقاباً لسكان القاهرة وعنى بتحسين المدينة .

القاهرة معسكر كبير

اعترف نابليون في مذكراته التي أملاها على الجنرال « برتران » في جزيرة سنت هيلانة ، أن ترمم القلعة استوجب هدم كثير من البيوت القريبة منها . وقد ساور سكان القاهرة قلق شديد عندما رأوا الضباط المهندسين يتولون الهدم . ولما كانت شوارع القاهرة وأحيائها مفصولة بمدد كبير من الأبواب الكبيرة ، رأى القائد العام أن تلك الأبواب الثقيلة تعطل انتقال الجنود في أحوال الفتنة والثورات ، فأمر بدمها وبدى يهدم جزء كبير من خط الحسينية وخارج باب الفتوح والنصر وخرّب مسجد الجبلاطية المجاور للباب المذكور ورمم الفرنسيون سور المدينة وأوصلوا بعضه ببعض البناء ورفعوا بعض أجزائه وزادوا في تحصين أبراجه . كما أقاموا التاريس والأسلاك الشائكة وسدوا باب الفتوح بالبناء وكذلك باب البرقية والباب المحروق وأقاموا المعقل في أهم طرفات القاهرة وأصلحوا قلعة الجبل وزادوها مناعة . وهدموا مسجد القسى والكزرونى بالروضة وآخر بامبابية وجامعاً كان مجاوراً لقلعة الدكة فضلاً عن سلسلة القلاع التي أحاطوا بها القاهرة وأهمها طابية « ديبوى » التي أقيمت على راية قرب القلعة للإشراف على حى الأزهر ، وقد عرفت باسم قلعة العريب . وطابية « سلكوفسكى » التي أنشأوها في جامع الظاهر ، واتخذوا منذته مرصداً للاستكشاف . وطابية « كامان » بالقرب من قنطرة الليمون وطابية « مزيرور » في حى طولون وطابية النصر فوق تل المقارب قريباً من دار الجمع العلمى ، وعرفت باسم طابية قاسم بك . وقد بلغ عدد القلاع التي أنشأها الفرنسيون في خلال الاحتلال الفرنسى تسع عشرة قلعة ذكرها السيو « جومار » .

وحصن نابليون جزيرة الروضة فوضع بطاريات من المدفعية في كل طرف من طرفيها وجعل من القياس شبه قلعة . وحصن شاطئ النيل مقابل الجزيرة لحماية الملاحة النيلية ، وجعل فم المجرأة طابية حصينة سميت طابية المجرأة (أو السبع سواقي) وجعل قصر إبراهيم بك (قصر العيني) مستنقياً عسكرياً حصيناً يسع ألف مريض وجريح ، وألحق به البيت الذى كان بمجواره ، وقد عرف وقتئذ بيت محمد كاشف الأرناءوطى وجعله مخزناً ومصنعاً لفرقة المهندسة .

ولما بدأت الحال تهدأ ، أخذ بونا بارت في تنفيذ برنامجه بالقاهرة . فانتزح فرصة الهدوء التي خيمت على المدينة وأمر بردم بعض الجهات المحيطة ببركة الأزبكية والأماكن المواجهة للمقابلة لسكنه ، فجعلوها رحبة متسعة وهدموا الدور المقابلة لها من الجهة الأخرى وما خلفها من الحدائق ، فقطعوا أشجارها واستقرت أنقاضها فصارت طريقاً معبداً إلى قنطرة المغربى التي جردها الفرنسيون . وكانت قد آلت إلى السقوط وبنوا جسراً ممتداً من الأزبكية إلى بولاق حيث ينقسم إلى قسمين : قسم إلى طريق أبي العلاء وقسم إلى جهة التبانة وساحل النيل ، وحفروا إلى جاني ذلك الجسر من مبدئه إلى نهايته خندقين وغرسوا بجانبه أشجاراً وسيبانياً كما أحدثوا طريقاً أخرى فيما بين باب الحديد وباب العدوى عند المكان المعروف بالشيخ شعيب ، وقطعوا جانباً كبيراً من التل المجاور لقنطرة الحاجب وردموا في طريقهم قطعة من خليج بركة الرطلى وهدموا الأبنية التي بين باب الحديد والرحبة وكانوا يدفعون للعالم أجورهم « وبنوا أماكن للارصاد الفلكية والرياضيات والنقش والرسم والتصوير في حارة الناصرية حيث الدرب الجديد ورموا ما فيه من بيوت الأمراء واستخدموها لتلك الغاية ، وجعلوا بيت حسن كاشف جركس في تلك الحطة مكتبة للمطالعة يحضرها كل من يرغب في أوقات معينة من النهار ، وكان إذا دخلها أحد الوطنيين رحبوا به » ومن الشوارع التي جاءها الإصلاح على أيدي الفرنسيين شارع الفجالة الذي كان يسير فيه وقد أصبح ممتداً من باب الحديد إلى باب العدوى ، ومهدوا طريقاً مستقيماً غرسوا على جانبيه الأشجار من الأزبكية إلى بولاق يبلغ طوله ١٢٠٠ متر يبدأ من قنطرة المغربى ويتجه إلى بولاق رأساً ويتفرع بقرب بولاق إلى فرعين الأول: إلى طريق أبي العلاء والثانى إلى التبانة وساحل النيل .

وذكر الجبرتي بين حوادث شهر جمادى الثانية سنة ١٢١٣ هـ أنهم أحدثوا بغيط النوبى المجاور للأزبكية أبنية على هيئة مخصوصة يجتمع بها النساء والرجال للهو والحلاعة في أوقات مخصوصة ، وجعلوا على كل من يدخل إليها قدرأ من النقود يدفعه أو يكون مأذوناً ويده ورقة ، وقد سماه الفرنسيون « كازينو تيفولى » .

وأقام الفرنسيون مسرحاً لتمثيل الروايات ، تم إنشاؤه في عهد الجنرال « مينو » وهو الذى سماه الجبرتي « كمرى » والقصود « كوميدى » وقد وصفه بقوله . وفي شعبان سنة ١٢١٥ هـ كمل السكان الذى أنشأوه بالأزبكية عند المكان المعروف بباب الهواء وهو المسمى بلغتهم بالكمرى ، وهو محل يجتمعون به كل عشرة ليال ليلة واحدة يتفرجون على ملاعب يلعبها جماعة منهم بقصد التسلية والملاهي مقدار أربع ساعات من الليل وذلك بلغتهم ولا يدخل أحد إليه إلا بورقة معلومة وهيئة مخصوصة !

وكان من أهم أعمال الفرنسيين في القاهرة أنهم أقاموا جسراً من السفن يصل بين قصر العيق والروضة وجسراً آخر كبيراً من الروضة إلى الجزيرة ، وقد أعجبوا بحمال جزيرة الروضة وحسن موقعها حتى فكر نابليون في جعلها مقراً للجالية الفرنسية ، وأن ينشئ فيها مدينة فرنسية ، ولكن مشروعه لم ينفذ . وكذلك وضع الجنرال « مينو » تخطيطاً لمدينة ينشئها بها لكن لم تنفذ فكرته أيضاً .

نابليون يودع القاهرة

انتهت حملة بوناپرت إلى سوريا بالفشل أمام عكاء فعاد إلى مصر . وفي يوم الجمعة ١٤ يونيو عام ١٧٩٩ أعدت السلطة الفرنسية لاستقباله احتفالا كبيرا دعت إليه أعضاء الديوان والأعيان والوجاقية وغيرهم ، وقرعت الطبول في نواحي المدينة وحضر قواد الجيش وكبار موظفي الحكومة والأعيان إلى ميدان الأزبكية بدار القيادة العامة ، ثم انتقلوا جميعاً لاستقبال نابليون خارج المدينة وللإشتراك في موكبه العظيم . فقابلهم نابليون وأهداه الشيخ خليل البسكري جواداً مطهراً يقوده المملوك رستم الذي اصطفاه نابليون واستصعبه في رحيله إلى فرنسا وصار خادمه الأمين . وأهداه المعلم جرجس الجوهري هجينين جميلين عليهما سرجان بديعان ، ودخل نابليون القاهرة من باب النصر مخترقاً شوارع المدينة حتى وصل إلى ميدان الأزبكية بين قصف المدافع وقرع الطبول . وروى « الجبتي » أن للوكب استمر خمس ساعات متوالية في شوارع القاهرة إلى أن وصل إلى الأزبكية .

ولم تسكد الجند تستريح من أهوال الحرب الشامية حتى جاءت أنباء حملة عثمانية لإخراج الفرنسيين من مصر . فأمر نابليون بإعداد حملة تسير إلى الإسكندرية ، وكان الأتراك قد احتلوا قلعة أبي قير (١٧ يوليو ١٧٩٩) واستطاع الفرنسيون أن يدحروا القوات العثمانية فحاصروهم في القلعة المذكورة حتى انتهت ذخائرهم واحتلواها في اليوم الثاني من أغسطس ، وقد اعتبر الفرنسيون معركة أبي قير البرية فوزاً كبيراً انتهى له فأقاموا الحفلات في القاهرة ثلاثة أيام ، ثم عاد نابليون إلى القاهرة في يوم ١١ أغسطس ١٧٩٩ ونزل بدار الألفي بك بالأزبكية وكان في ركابه جماعة من أسرى الجيش التركي ، فأمر باستعراضهم في ميدان الأزبكية ثم ساروا بهم في شوارع القاهرة للتأثير في نفسية الجماهير وإقناعهم بفوزهم في معركة أبي قير .

ولم يلبث نابليون إلا قليلاً حتى وردت له من فرنسا رسائل تلح في عودته إليها نظراً لاضطراب الأحوال السياسية في أوروبا . فنظم الحامية الفرنسية في البلاد المصرية ، وأسرع إلى مغادرة القاهرة نهائياً في ١٨ أغسطس ١٧٩٩ بتسليم شديد بعد أن تسلم الجنرال كليبر حكم البلاد .

عودة العثمانيين إلى القاهرة

حاولت حملة عثمانية أخرى إخراج الفرنسيين من مصر فهاجمتها من شواطئها الشمالية بأسطول كبير . لكن يقظة الفرنسيين لم تتح لهم سوى الهزيمة في معركة عزبة البرج بالقرب من دمياط . وكان ذلك في أول نوفمبر ١٧٩٩ وبالرغم من استعداد كليبر الحربي وتقوئه على الأتراك كان مقتنعاً بضرورة الصلح ويوجب إنهاء حالة الحرب التي كانت تركيا تستعد لها بإرسال جيش كبير بقيادة الصدر الأعظم يوسف

باشا ضيا . وعقدت معاهدة العريش وأهم نصوصها جلاء الفرنسيين عن مصر . ولكن نقض الإنجليز حلفاء الأتراك تلك المعاهدة بالرغم عن استعداد كليبر للجلاء النهائي ، وبعد أن وصل مندوب من الحكومة العثمانية لتولى إدارة البلاد .

رأى كليبر أن نقض الإنجليز لمعاهدة العريش بالرغم من اشتراكهم في مفاوضاتها إنذار للحرب فأخذ يستعد لقتال الجيش العثماني . وكانت معظم قواته قد اصطفت للمعركة في سهل القبة، فطلب إلى الصدر الأعظم الانسحاب إلى الحدود الشامية ، فلما لم يفعل ابتداء تحركه في صبيحة يوم ٢٠ مارس قاصداً مواقع جيش ناصيف باشا في المطرية .

استطاعت قوة من فرسان هذا الجيش ومشاته الانفصال عنه واتجهت إلى القاهرة بقيادة ناصيف باشا فدخلتها في الوقت الذي كانت نيران المعركة مستمرة في المطرية وعين شمس . ولما علم كليبر بذلك كلف أحد قواده بتتبعها خوفاً من أن تقطع خط الرجعة على الجيش الفرنسي .

انتصر كليبر على الأتراك بسهولة وتفهم الجيش العثماني شمالاً دون انتظام بعد أن تكبد خسائر جسيمة وتمكن القائد العثماني من الانسحاب من ميدان القتال مع بعض قواته بعد القوات العثمانية التي قصدت إليها بقيادة ناصيف باشا بصحبة عثمان بك كتحدا الدولة وجماعة من كبار رجال المماليك .

ولا شك في أن عودة العثمانيين إلى القاهرة في مثل تلك الظروف شجعت روح الثورة في نفوس الشعب . وبدأ التعريض إلى قتال الفرنسيين يتجدد في مختلف البلاد ولا سيما القاهرة . وهكذا لم يكفد يخرج الجنرال كليبر ظافراً من معركة عين شمس حتى واجه في القاهرة ثورة جديدة أعظم وأشد من ثورتها الأولى .

ثورة القاهرة الثانية

« ٢٠ مارس — ٢١ أبريل ١٨٠٠ »

سبت نيران الثورة في القاهرة يوم ٢٠ مارس بزعمارة السيد عمر مكرم تقيب الأشراف والسيد أحمد المحروقي كبير التجار والشيخ الجوهري (١) .

فلم يكفد يسمع سكان القاهرة قصف المدافع في ميدان معركة عين شمس حتى بدأت الثورة في حى بولاق فأقام أهلها حول الحى الموانع والمتاريس واقتمعوا مخازن القلالم والودائع التي للفرنسيين ، وكان يتزعم

(١) رجعتنا في كتابة هذا الفصل إلى كتاب الحركة القومية للأستاذ المؤرخ عبد الرحمن الزاوي .

٢٦١

ثورة بولاق الحاج مصطفى البشتيلي . حمل الثوار ما وصلت إليه أيديهم من السيوف والبنادق والرماح والعصى واتجهوا بمجموعهم صوب قلعة قنطرة الليمون (قلعة كامان) لانتحامها ، ولكن حامية القلعة ردت هجومهم بنيران المدافع فأعاد الثوار صفوفهم واستأنفوا الهجوم ، فأرسل الجنرال « فردييه » مدداً من الجنود إلى الحامية فشتتوا شمل الثائرين بنيران المدافع والبنادق ، وقتل في هذا الهجوم ثلثمائة من الثوار .

ثار الأهالي في الأحياء الأخرى للمدينة ، فاتجهوا إلى معسكر القيادة العامة بأثريكية (بيت الألقى بك) فتلقى الثائرين الجنرال « فيراتفو » بنار شديدة فردهم على أعقابهم واحتلوا بعض المنازل المجاورة للميدان لإطلاق النار على المعسكر . فأقامت الجنود الفرنسية متاريس من جذوع النخيل للدفاع عن معسكرهم ، ثم كرر الثوار هجومهم فثبت لهم الجنود وكان نطاق الثورة قد اتسع وغامرت فيها طبقات الشعب فأراد الجنرال « فريان » إعادة النظام في القاهرة لكنه لم يستطع اقتحام الشوارع لكثرة متاريسها ومنازلها المحصنة . فقد أقام الثوار المتاريس على أبواب المدينة وفي معظم أحيائها كباب اللوق وناحية المدايع والحجر والشيخ ريشان والأنصيرية وقصر العيني وقناطر السباع وسوق السلاح وباب النصر وباب الحديد وباب انقراة وباب البرقية والسويقة والرويعي . وكانت المتاريس منيعة جداً بلغ علوبعضها اثني عشر قدماً . وأنشأ الثوار في أربع وعشرين ساعة معملاً للبارود في بيت قائد أغا بالحرفش وأنشأوا معملاً لإصلاح الأسلحة والمدافع وآخر لصنع القنابل وصب المدافع جمعوا له الحديد من المساجد والحوانيت وتطوع الصانع للعمل فيه . وأخذوا يجمعون القنابل التي تتساقط من المدافع الفرنسية في الشوارع لاستعمالها قذائف جديدة . وتطوع الأهالي لإمداد الثوار بالخصام وتوزيعه وباشر السيد الحروي وبقاى التجار مايلزم لها من النفقات .

عسودة كليبر

وصل الجنرال كليبر يوم ٢٧ مارس بعد أن ترك حاميات من الجنود في الصالحية والمدن الأخرى ، فوجد نار الثورة تضطرم في أحياء القاهرة وشاهد في بولاق ومصر القديعة حصون الثوار ووجد جميع الوكالات والمخازن التي على النيل قد تحولت إلى شبه قلاع احتلها الثوار وصارت الملاحه في النيل تحت رحمتهم . فأدرك خطر الموقف ، ورأى أن أخذ الثائرين بالقوة المسلحة قد لا يؤدي إلى إخماد الثورة لاستبسال الثوار في المقاومة وتحصنهم وراء المتاريس المنيعة فضلاً على توزيع وحدات جيشه في أنحاء الوجه البحرى .

تبين له أن المبادرة إلى مهاجمة الثوار بقوة الحديد والنار مجازفة لا تؤمن عواقبها ورأى من الحكمة أن يأخذهم بالمأطلة ويستخدم الزمن في بذر الشقاق بين صفوفهم . على أنه من جهة أخرى أخذ في فترة الانتظار يعد المعدات لجمع الثائرين ويحصن القلاع ويقم الاستحكامات ويركب المدافع ويعد المواد اللتهبة التي يهزم على استخدامها لإحراق القاهرة .

أفلحت فكرة كليبر وبدأ المالك والأتراك يلثون سلاحهم وأخذ مراد بك يفاوض الجنرال كليبر للاتفاق مع الفرنسيين تمهيداً لمواجهة الثورة والتغلب عليها .

وبهذه السياسة أخضع كليبر الوجه البحري ثم اتفق مع مراد بك بينما كانت المدافع الفرنسية تعطر سكان القاهرة وابلا من قنابلها . وقبل مراد بك أن يحكم الصعيد تحت حماية فرنسا واشترك مع أعداء البلاد في مأساة إحراق القاهرة بما قدمه للقائد العام من الأخطاب !!

ولما وصلت فرقة الجنرال « ريليه » من الحدود الشرقية عسكرت أمام القاهرة واحتلت الآكام المشرفة على المدينة من قلعة « كامان » إلى قلعة « سلكوفسكي » (جامع الظاهر) ومنه إلى قلعة المقطم فأحاطت المدينة شمالا وشرقا . وابتدأ الهجوم على مواقع الثوار ليلة ٤ أبريل فاقلمت متاريسهم واقتحمت منازلهم وأضرمت النار في المباني التي كانت تعوق تقدم الجند . واستطاعت أن تسند ميسرتها إلى سور القاهرة القديم وميمينتها إلى مواقع الفرنسيين في ميدان الأزبكية . واشتد القتال حول المواقع التي احتلها الفرنسيون واستردها الثوار المرة بعد المرة . ولكن تمكن الفرنسيون في المرة الثالثة من تثبيت أقدامهم فيها وظلت المناوشات بين الفريقين إلى اليوم العاشر من إبريل .

وفي اليوم الثاني عشر أجلى الفرنسيون الثوار عن كوم أبي الريش بين جامع الظاهر والمسكر العام بالأزبكية . وكانت نقطة ارتكاز هامة للثوار واقتحمت قوة المنازل المحيطة ببركة الرطلى وأضرمت فيها النار واستبقت بعض المنازل الصالحة للتحصين فيها . وكان الثوار يحتلون بيت فرقة الهندسة بميدان الأزبكية فضربه الجنود بالمدافع واحتلوه بعد جلاء الثوار والعثمانيين . فامتنع الثوار في بيت آخر بالقرب من بيت فرقة الهندسة عرف ببيت أحمد أغا شويكار . وركبوا مدفعاً في حديقة منزل السيد البكري وأخذوا يطلقون النار على الفرنسيين حتى أصابوا المدفع المركب في حديقة البكري وأتلفوه ، فأنحصر الثوار في بيت أحمد أغا وظلوا فيه حتى اليوم الثامن عشر لما دس الفرنسيون نغماً تحت جدران البيت ونسفوه ، فاحترق كل من فيه . ثم استأنفت القوات الهجوم على أحياء المدينة هجوماً عاماً من الناصرية . وباب اللوق والمدابع والعبالة وكوم أبي الريش وباب الشعرية ، فوطسد الفرنسيون مراكزهم وضيقوا على الثوار ، فاشتد الضيق بالأهالي وبدأت فكرة الصلح لوضع حد لمأساة القتل .

ولكن كانت هناك مأساة أخرى . ففي اليوم الرابع عشر أُنذر الجنرال كليبر العاصمة بالتسليم ، ولما لم يعبأ الثوار بالإنذار هجمت الجنود الفرنسية صبيحة اليوم الخامس عشر على حي بولاق وأمطروا وابلا من القنابل على حصون الثوارين ففتحت فيها ثغرات كبيرة اندفق منها الجنود إلى شوارع الحي ، وأضرمت النار في كل البيوت فاشتعلت فيها وامتدت إلى مباني الحي من مخازن ووكالات فالتهمت . ودمرت ذلك الحي الكبير الذي كان ميناء القاهرة وهدمت الدور على سكانها فبادت أسرته كاملة تحت الأتقاض وكانت مأساة محزنة . وانتقم الفرنسيون من أهالي بولاق انتقاماً مروعاً بعدما استبسلوا في الدفاع عن منطقتهم

بشجاعة نادرة ، وكانت الدماء تسيل أنهاراً في الشوارع وثمّولت تلك المدينة الباسلة إلى خرائب وأطلال وظلت النار تلتهمها ثمانية أيام .

طلب الأهالي التسليم في نهاية الأمر ، لكن الفرنسيين لم يكتفوا بما حصل ببولاق ففرضوا على أهلها ومتاجرها غرامة جسيمة قيمتها ٥٠٠ ألف ريال . وفرضوا أيضاً تسليم المدافع والدخائر الموجودة في ترسانة بولاق وما في المخازن من أخشاب وغلّال وشعير وأرز وعدس ، وأن يسلموا أربعمائة بندقية ومائتي طنجة وقبض الفرنسيون على الحاج مصطفى البشتيلي رئيس الثوار وطلبوا من أتباعه أن يقتلوه لأنه السبب في حلّ بهم فضرب بالعصى حتى مات .

واستمر الفرنسيون يسرفون في ارتكاب الفظائع لإخماد بقايا الثورة ، واتبعوا وسيلة إضرام الدرق في الأحياء الآهلة بالسكان فأحدثت الحرائق تخريباً فظيماً في القاهرة واحتترقت أحياء برمتها والتهمت النار خط الأزبكية وخط الساكت والفوالة والرويعي وبولاق وبركة الرطلي وما جاورها وباب ، البحر والخروبي والمدوي إلى باب الشعرية ، فأصبح منظر القاهرة بعد ما حلّ بها مفرعاً يملأ القلوب حزناً وأسى .

وأخيراً أبرمت معاهدة التسليم بعد ثورة دامت ثلاثة وثلاثين يوماً . وأخذ الأتراك والمهاليك يعدون معدات الرحيل وسار معهم زعماء الثورة من المصريين أمثال السيد عمر مكرم تقيب الأشراف والسيد أحمد المحروقي كبير التجار . وعادت السلطة إلى الفرنسيين واحتفل كبير بانتصاره في مهرجان عظيم .

الجنرال كليبر والحلي

في ١٤ يونيو ١٨٠٠ دعى كليبر إلى غداء عند أركان حربه الجنرال « داماس » في منزله بالقرب من ديوان الجيش بالأزبكية ، وخرج بعد تناول الطعام هو والسيو « بروتين » مهندس الحملة يتحشيان في رواق موصل بين بيت الجنرال « داماس » والديوان نحو الساعة الثانية بعد الظهر . وفي أثناء حديثهما وثب رجل من نهاية الرواق وفي يده خنجر طعن به صدر الجنرال كليبر فنادى الحرس وهجم « بروتين » على الرجل فنال منه مثل ما نال كليبر فسقط « بروتين » على الأرض ثم تركه الرجل وعاد إلى كليبر وطعنه ثانية وثالثة حتى أجهز عليه ، ولما سمع ضجة فر إلى حديقة بالقرب من ذلك المسكان واختبأ وراء الحائط ، فلما أتى الخفر لم يروا إلا رجلين يتخبطان في دماهما فملاهما إلى البيت وأتوا لها بالطبيب . فمات كليبر بعد قليل وظل « بروتين » تحت المعالجة .

قبض على الجاني وكان اسمه سليمان الحلي وحكم عليه بالموت على الخازوق ، وكذلك أعدم شركاؤه الأربعة الذين اتضح لهم أنهم محرضوه .

تولى القيادة العامة بعد كليبر « الجنرال مينوز » الذي تظاهر بالإسلام ودعا نفسه عبد الله . وفي أيامه

زاد ارتياب الفرنسيين في الأزهر، فلما رأى علماءه ذلك عرضوا على « مينو » إقفاله مؤقتاً ، فأقفلت أبوابه (محرم ١٢١٥ هـ / ٢١ يونيو م ١٨٠٠ م) وظل مقفلاً فترة طويلة .

الانتقام من هروس الشرق

استمر الفرنسيون في سياسة الهدم والتخريب من أجل أغراضهم الحربية . فقد أخذوا يتممون بناء القلاع التي كان الجنرال كلير قد شرع في إنشائها . وهدموا كثيراً من البيوت والعمارات، إما لأخذ أخشابها وأدوات البناء منها واستخدامها في بناء القلاع والحصون، وإما لكشف الجهات التي شرعوا في إقامة الحصون فيها، كما هدموا بيوتاً أخرى لبيع أخشابها وأثاثها وقوداً . فدمرت خطط بأكملها كالحسينية والحروي (بعصر القديمة) وبركة جناق (بياب الشمرية) وبركة الفيل وكشفوا سور القاهرة القديم من باب النصر إلى باب الحديد وحصنوا أبوابه وأقاموا حولها الأسلاك الشائكة وسدوا باب الفتوح بالبناء وكذلك باب البرقية وباب المحروق .

ومن العمارات التي هدموها جامع الجنبلاطية بياب النصر وعدة مبان بالحطابة وباب الوزير وهدموا أعلى المدرسة النظامية والجامع المعروف بالسبع سلاطين وجامع الجركسي وجامع خوند بركة خارج باب البرقية وكذلك أبنية باب القرافة ومدارسها ومساجدها والقباب والمدافن الكائنة تحت القلعة وجعلوا من جامع الرومي حانة يحتسون فيها الخمر، كما هدموا جزءاً من جامع عثمان كتخدا القزدغلي وجامع خيربك بالقرب من بركة الفيل وجامع البنهاوي والطراطوشي والعدوي وجامع عبد الرحمن كتخدا المقابل لباب الفتوح ، ولم يبق منه في أيامهم إلا بعض الجدران .

وهدموا مصاطب الحوانيت واقتلموا أحجارها وعللوا ذلك برغبتهم في توسيع الطرقات والأزقة لمرور العربات وغرضهم الحقيقي منع الناس من اتخاذها متاريس في حالة قيام الثورة ، وهدموا كذلك المصاطب في أحياء كاملة ، كالصليبية وقناطر السباع ودرب الجميز ودرب سعادة وباب الخلق فما يليه إلى باب الشمرية . فاشتد الضيق بأصحاب الحوانيت لأنهم اضطروا بعد هدم مصاطبهم أن ينزلوا داخل حوانيتهم فصارت أشبه بالسجون، ولو طال بهم الحال لهدموا مصاطب العقادين والعمورية والصاغة والنحاسين إلى آخر باب النصر وباب الفتوح .

وهدموا القباب والمدافن الكائنة بالقرافة المجاورة للقلعة خوفاً من تحصين المقاتلين بها، وأزالوا جانباً كبيراً من جبل المقطم بالبارود من الجهة المحاذية للقلعة خوفاً من تمكن الأهالي منها والرمي على القلعة .

وصادروا الأخشاب فقطعوا الأشجار والنخيل من جميع حدائق بساتين القاهرة وبولاق وقصر العيني والروضة ومنصر القديمة وخارج الحسينية وبركة الرطلي وأرض الطبالة وبساتين الخليج ، وكذلك عملوا في

الأقاليم، وأخذوا أيضاً أخشاب السفن مع شدة الحاجة إليها للنقل، فتمذر إنشاء سفن جديدة وتعطلت المواصلات وصعب النقل وارتفعت أجور الشحن .

وفي تلك السنة زاد النيل زيادة مفرطة لم يعرف لها مثيل من قبل ففرقت الأراضي وحوصرت البلاد وتعطلت الطرق ، فصارت الأرض كلها لجة ماء وهدمت الدور القائمة على الشواطئ . وجرى الماء في ناحية من جهة الناصرية ، وطلغ من بركة الفيل إلى درب الشمسي وطريق قنطرة عمر شاه .

رحيل الفرنسيين ووصول الإنجليز

انتهت أيام الفرنسيين في مصر على يد « مينو » فقد هزمه الإنجليز في معركة « كانوب » (٢١ مارس ١٨٠١) بعد أن خسروا نحو ألف وخمسة مائة من القتلى وألف من الجرحى وقعد الإنجليز نحو ألف وخمسة مائة من القتلى ، ولهذا المعركة (ويسمونها الإنجليز معركة الاسكندرية) في تاريخهم الحربى منزلة ممتازة . وقدمه هذا النصر للإنجليز الاستيلاء على رشيد مع الجيش التركى (ذى الحجة ١٢١٥ هـ / ابريل سنة ١٨٠١ م)

بدأ الجيش الانجليزى التركى يزحف على القاهرة وحدثت عدة ممارك في الطريق من أهمها معركة الرحمانية (٩ مايو ١٨٠١) . وقد ذكر الجبرى نبأ احتلالها في حوادث شهر محرم سنة ١٢١٦ هـ . وفي خلال تلك المدة استولى الأتراك على دمياط بعد انسحاب الفرنسيين منها ، كما أحلوا قلعة عزبة البرج وقنطرة البرلس . وبدأ الفرنسيون ينفذون خطة الدفاع عن القاهرة ، ففكر الجنرال بليار في الاستنجاد بمجيب فرنسا مراد بك . ولم يكده هذا يرسل له الامداد من رجاله حتى أدركته المنية وتوفى وهو في طريقه إلى مصر فدفن بسوهاج (١٢١٥ هـ / ١٨٠١ م) .

وصل الإنجليز إلى امبابية بعد أربعين يوماً من وصولهم إلى الرحمانية ، واحتشدت القوات الإنجليزية على الشاطئ الأيسر للنيل، وقوات يوسف باشا على الشاطئ الأيمن، وأقام الإنجليز جسراً من القوارب شديداً لاتصال الجيشين فبلغت قواتهما في ذلك الحين نحو ٤٠٠٠٠ من المقاتلين بينما كان الجيش الفرنسى بالقاهرة لا يزيد عن عشرة آلاف مقاتل على الأكثر موزعين على خط طويل يمتد من العيزة إلى حدود قاهرة شرقاً وشمالاً ومن مصر القديمة إلى بولاق .

وأخيراً اجتمع مجلس حربى بقيادة الجنرال « بليار » في القلعة فشرح موقف الجيش الفرنسى وكان ميالاً إلى التسليم وعارضه بعض أعضاء المجلس . لكن المفاوضات انتهت بين الفريقين على جلاء الجيش الفرنسى عن القاهرة وقلاعها وقلاع بولاق والعيزة وعن جميع الجهات التى تحتلها الجيوش الفرنسية في الأراضي المصرية ، وحدد للجلاء عن القاهرة وبولاق اثنا عشر يوماً ، وأن يتم الجلاء في أقرب وقت ممكن بحيث لا يزيد عن خمسين يوماً من يوم التصديق على الاتفاقية .

أخلى الفرنسيون قلعة المقطم وباقي القلاع والحصون والتمارين، وانتقلوا إلى الروضة وقصر العيني والجيزة استعداداً لنزولهم في السفن التي أعدت لنقلهم بالنيل إلى رشيد ودخلت العثمانيون المدينة . وفي (٤ ربيع الأول ١٢١٦ هـ / ١٤ يوليو ١٨٠١ م) أخلى الفرنسيون قصر العيني والروضة والجيزة وأقلعت سفنهم وعددها ثلثمائة إلى رشيد . وبذلك تم جلاؤهم عن القاهرة وضواحيها وأخذوا معهم رفات الجنرال كليبر وساروا من رشيد إلى أبي قير، وأبحرت بهم السفن في أوائل أغسطس سنة ١٨٠١ إلى فرنسا .

ولما جلا الفرنسيون آلت السلطة الفعلية في القاهرة إلى قواد الجيش التركي والإنجليزى ، أما في الاسكندرية فكان الجنرال « مينو » لا يزال قابضاً على ناصية الحال، فاضطر إلى الاتفاق على شروط الجلاء يوم ٣١ أغسطس سنة ١٨٠١ ، وبدأ في تسليم قلاع الاسكندرية وحصونها ثم رحل عنها يوم ١٨ أكتوبر سنة ١٨٠١ .

وهكذا بعد احتلال ثلاثة أعوام وشهرين طويت صحيفة الاحتلال الفرنسى . وبدأت تتنازع السلطة في مصر ثلاثة قوات : الأتراك والانجليز والمماليك . وظهرت قوة رابعة على مسرح النضال السياسى وهى قوة الشعب المصرى .

* * *

تقلد خسرو باشا ولاية مصر فكان أول عثمانى عين بعد جلاء الفرنسيين . وبدأ الجيش الإنجليزى يلسحب من معسكراته ، فسلم الجيزة إلى خسرو باشا في مايو ١٨٠٦ ولم يبق من الجيش الإنجليزى في مصر سوى القوة المرابطة بالاسكندرية فظلت بها حتى أبرم صلح اميان (١٨٠٢) فتم جلاء الإنجليز .

قاهرة المجمع المصرى

أقام الجيش الفرنسى في مصر نحو ثلاث سنوات ، كان في أثناءها ضعفاً تقيلاً على البلاد ، وقد يقال أنه دفع ثمناً باهظاً في سبيل حملته . وإذا كنا لا نذكر الحملة الفرنسية واحتلالها لبلادنا الجميلة إلا بالكراهية ، إلا أننا نذكر شيئاً واحداً أفادت منه البلاد . هذا هو المجمع العلمى المصرى الذى أسسه نابليون بعد دخوله القاهرة وكان عضواً فيه ومعه أولئك العلماء الأدباء وكبار القواد والضباط ممن لهم باع في العلوم والآداب . أنشأ نابليون هذا المجمع عقب وصول نبأ كارثة الأسطول الفرنسى في أبي قير وعهد إلى سبعة من العلماء من أقطاب لجنة العلوم والفنون وقواد الجيش اختيار أعضائه وهؤلاء السبعة هم العلماء : مونتج وبرتوليه وجوفروا سان هيلير وكوستاز والطبيب ديجيت والجنرالين كافاريللى وأندريوسى .

أصدر نابليون أمره بإنشاء هذا المجمع في ٢٢ أغسطس سنة ١٧٩٧ . وقد تألف من ستة وثلاثين عضواً موزعين على أربعة أقسام هى : الرياضيات والطبيعات والاقتصاد السياسى والآداب والفنون . واختار

العالمان مونتج وبرتوليه والجنرال كافاريللي قصر حسن كاشف شركس بالناصرية ليكون مقر الهيئة المجمع، وألقوا به القصور المجاورة له التي شيدها الممالك، وخصصت لسكن الأعضاء وبعثة العلوم والفنون، كقصر قاسم بك وبيت إبراهيم كتخدا السنارى، وبيت أمير الحج . وكانت سراى حسن كاشف من أجمل قصور الممالك في القاهرة (ومكانها الآن المدرسة السنية بالناصرية) وصفها الجبرتي خلال كلامه عن حسن كاشف فقال : « انه عمر الدار العظيمة بالناصرية وصرف عليها أموالا عظيمة وقبل بياضها وصل الفرنسيون إلى مصر فسكنها الفلاسكيون والدبرون وأهل الحكمة والمهندسون ، فلذلك صينت من الخراب ، كما وقع لغيرها من الدور » . وذكرها المسيو « جوفرواسان هيلير » أحد الأعضاء في رسائله المنشورة بكتابه رسائل من مصر وظهر مما كتبه عنها أنها كانت غاية في الفخامة ، فقد كتب بتاريخ ٣٠ أغسطس سنة ١٧٩٨ ، رسالة إلى العلامة « كوفيه » قال : عدت من المجمع العلمي بالقاهرة وهو يتألف من قصرين من قصور البسكوات (حسن كاشف وقاسم بك) وبيتين من بيوت الأغنياء . وهذه الدور المتجاورة يسكنها العلماء والفنانون وفيها من وسائل الفخامة مالا يقل عن اللوفر . وانا لنجد فيها من أسباب الراحة أكثر مما في اللوفر وبجوارها حديقة فسيحة يبلغ مساحتها نحو ٣٥ فدانا جيدة الغراس خصصها للزراعة . أما قاعة جلسات المجمع فإنها مزدانة بأجمل مافي قصور الممالك من الأثاث، وكان هذا القصر الجميل أول مقر لنواة المتحف المصري إذ أودعت فيه بعض الموميات وحجر رشيد الذي اكتشفه الكابتن بوشار .

وقد بذل أعضاء المجمع المصري جهوداً كبيرة في خدمة العلم والفن وكانوا دائمى النشاط مجدين مثابرين . فقد أخرجوا الكتاب النفيس الذي يعتبر إلى اليوم في مقدمة المراجع الثمينة في الشؤون المصرية . . وهو كتاب وصف مصر . (Description de L'Egypte) ذلك المؤلف الفخيم الذي يعد بحق عنواناً صريحاً يشهد بكفاءة علماء الحملة الفرنسية .

صورة عامة للقاهرة

تلك كانت صورة القاهرة حينما غادرها الفرنسيون . . ونحن نستدل من خريطة القاهرة التي قام برسمها علماء الحملة الفرنسية فيما بين ١٧٩٩ — ١٨٠١ أن القاهرة كانت حينذاك مكونة من ثلاث مدن تكاد أن تكون منفصلة عن بعضها بالمزارع والتلال وهي : بولاق ، والقاهرة ، ومصر القديمة .

كانت بولاق ثغر القاهرة على النيل وتبعد عنها حوالي كيلو متر ، وقد نهض المسيو لويير كبير مهندسى الطرق والكبارى في عهد الحملة بتمهيد طريق أبي الملاء (شارع ٢٦ يوليو الآن) وغرس الأشجار على جانبيه ، وكان هذا الطريق يصل بين بولاق والأزبكية بعد مروره فوق قنطرة المغربى التي كانت تقوم فوق خليج الطوابة (الخليج الناصرى القديم) وكان هذا الخليج يخرج من النيل بالقرب من موردة البلاط عند كوبرى محمد على (النيل) شمالى قصر العيني ، ويصب في الخليج الكبير في نهاية أرض الطابة ، على المنطقه المعروفة اليوم بمنطقة كوبرى الليمون والفجالة وبركة الرطلى . وكان على هذا الخليج قناطر أخرى منها قنطرة البكرية ، وقنطرة الليمون (حيث محطة كوبرى الليمون) وقنطرة الدكة (حيث ميدان قنطرة الدكة) ، وقنطرة الدايق (بشارع جامع جر كس) وغيرها من القناطر .

وكان هذا الخليج في زمن الفيضان يتصل ببركة الأزبكية وبركة الشيخ قمر وبركة الفراعين (ميدان عابدين) وبركة السقاين .

أما القاهرة الوسطى فكانت عامرة بمئات المساجد والمدارس ، وأهم عمارتها قلعة الجبل حيث كانت تصور الباشوات والولاة في العصر العثماني ، وأهمها الديوان وكان عدد سكان القلعة لا يقل عن ثلاثين ألفاً .

ويتضح من تلك الخريطة التي رسمت حوالي عام ١٨٠٠ أن عرض مجرى النيل في منطقة القاهرة كان ضعف عرضه الحالي تقريباً ، وكان الشاطئء العربي للنيل واقماً تحت الأماكن التالية :

بمد مروره على الجزيرة كان يسير شمالاً مائلاً إلى الغرب قليلاً ، ثم يمر تحت بولاق الدكرور فالدقي فامبابه .

أما المدينة الثالثة وهي مصر القديمة فكانت عامرة بكنائس القبط وجامع عمرو .

بعض دور القاهرة

ونتقل الآن إلى بعض ما عرف عن دور القاهرة التي اتصلت بأهم الأحداث المعاصرة أو التي كانت ذات مكانة فنية مرموقة ...

دار الملطيلي

تعرف هذه الدار باسم ناظرها على لبيب وبدار الفنانين ، وتقع خلف مسجد قاني باي أمير أخور في حارة درب اللبان بالمشية . أنشأها السيد الشريف عمر الملطيلي وشقيقه إبراهيم في أواخر القرن الثامن عشر . لها واجهة تشرف على درب اللبان ، حليت يارزات محمولة على كواويل وبها اللشربيات الجميلة . ويشرف على الحوش الأول مقعد صغير يشتمل على بارزة ذات ثلاث قناطر ودرازين ورفرف من خشب الحُرط . ويملو باب المقعد شبك من خشب الحُرط الدقيق به شكل قنديل .

ونشاهد على جدران حجرات الدار العلبا رسوماً شعبية تمثل مباني وبساتين يلاحظ أمثالها في الدور القاهرية التي بنيت في القرن الثامن عشر . وقد وقع اختيار بعض رجال الفن الأجانب والمصريين على هذه الدار فاستأجروا غرفها وجعلوها مرادهم ، وفيها تدرج وتخرج عدد كبير من كبار الرسامين المصريين وما زالت الدار تزخر بصفوة منهم .

ولدرب اللبان باب يلاصق باب تسكية تقى الدين البساطامي التي تقع في صدر الحارة وقد خصصت منذ

القرن الثالث عشر لفقراء الأعجماء ونالت رعاية الملك الناصر محمد بن قلاوون ، ثم الملك الظاهر أبو سعيد جقمق . ويرجع باب التسمية الحالي إلى سنة ٨٤٧ هـ / ١٤٤٣ م . أما باب درب البنان فيرجع إلى منشآت القرن الرابع عشر وهو باب جميل به تطعيم بالرخام وعقوده متنوعة (١) .

دار إبراهيم كتبخدا السنارى بالسيدة زينب

(حوالى ١٢٠٩ هـ — ١٧٩٤ م)

كان إبراهيم السنارى من أهالى دقنة وكان بواباً بالنصورة ثم أقام بالصعيد ، ولنبأته اتصل بالأمير مصطفى بك الكبير وتعلم اللغة التركية ثم اتصل بالأمير مراد بك وتقرب منه وأرى وأصبح من أعيان القاهرة ، وقد انتهى من تشييد هذه الدار قبيل وصول الفرنسيين إلى القاهرة . وقد توفي سنة ١٢١٦ هـ / ١٨٠١ ودفن بالاسكندرية .

ولهذه الدار وجهة ساذجة لا يوجد بها ما يسترعى النظر سوى بابها والمشربية الكبيرة التى مملوءة . وتدخل إلى فناء الدار ماراً بمجاز سقفه مقبى . وبالجنب القبلى للفناء تحتيوش ومقعد بابها مشحون بالرخام وسله يؤدي إلى بابين : الأيمن يوصل إلى غرف الدار ثم القاعة الكبيرة والحمام . والباب الأيسر يؤدي إلى المقعد والجناح الشرقى للدار . ويوجد فى هذا الجناح در قاعة تتوسطها نافورة .

وقد هدم جزء من الدار وتشغل هذا الجزء اليوم حديقته صغيرة : وقد أقام فى الدار أثناء الحملة الفرنسية (١٧٩٨ — ١٨٠١ م) بعض مصورى الحملة وعلمائها ، ومنهم ريجو الرسام المشهور ومالوس ولانسكرية وتيراج وجولو ، وبها عملت البحوث والرسوم التى نشرت فى كتاب « وصف مصر » .

وشغل الدار المؤرخ جلياردوبك فيما بين ١٩١٧ و ١٩٢٦ م ، وأقام بها متحفاً باسم بونايرت ثم أغلق بعد وفاته (٢) .

وكان بالقاهرة أثناء القرنين الثامن عشر والتاسع عشر عدة قصور ودور خربت وزال أثرها ، ومن هذه الدور :

(١) حسن عبد الوهاب : جامع السلطان حسن وما حوله ، رقم ٥٦ فى المكتبة الثقافية ، ص ٤٦ ، ٤٧ .

(٢) فى المجلد الأول الخاص بالصور من كتاب « وصف مصر » ، توجد اللوحات الخاصة بدار السنارى أرقامها ٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩ .

دار حسين كاشف جركس بالناصرية

كان هذا القصر من أجمل قصور الممالك في القاهرة ومكانه اليوم المدرسة السنية بالناصرية^(١) وصفها الشيخ المؤرخ الجبرتي خلال حديثه عن حسن كاشف فقال : « إنه عمر الدار العظيمة بالناصرية ، وصرف عليها أموالاً عظيمة ، وقبل بياضها وصل الفرنسيون إلى مصر فسكنها الفلكيون والمديرون وأهل الحكمة والمهندسون ، فلذلك صينت من الحراب كما وقع لغيرها من الدور » وما يذكر أن المجمع العلمي عقد أولى جلساته في هذه الدار .

وقد زار عبد الرحمن الجبرتي الدور التي عمل فيها المجمع العلمي ووصفها وصفاً دقيقاً . وقال عن مكتبة المجمع التي كانت في هذه الدار « بأن فيها جملة كبيرة من كتبهم . وعليها خزان ومباشرون يحفظونها ويحضرونها للطلبة ومن يريد المراجعة . . . ولقد ذهبت إليهم مراراً وأطلعوني على ذلك^(٢) فمن جملة ما رأيت كتاب كبير يشتمل على سيرة النبي ﷺ ومصورون به صورته الشريفة على قدر مبلغ علمهم واجتهادهم وهو قائم على قدميه ناظراً إلى السماء ويده اليمنى السيف وفي اليسرى الكتاب وحوله الصحابة رضى الله عنهم بأيديهم السيوف . . . ولديهم كثير من الكتب الإسلامية مترجم بلغتهم . ورأيت عندهم كتاب الشفاء للقاضي عياض والبردة للبوصيري . . الخ وقد تكلم أيضاً عن قسم الفلك وقسم الرسم والتصوير وقسم الهندسة والطب والكيمياء وغيره .

وما قيل عن هذه الدار أنها كانت تشغل مساحة كبيرة في جنوب غربى القاهرة يحف بها الخليج من كل الجهات — ولم يبق من هذا القصر أى أثر . ومن الوصف الملخص فى كتاب وصف مصر عرفنا أنه كان يفصله عن الحديقة ممر مصنوعة جوانبه من النباتات الخفيفة. وقد مثلت فى القصر جميع عناصر الدور المصرية — دهليز مقبى ، تحشوش تعلوه ميده تقوم على عامود من الرخام . وكان لمقعد القصر ثلاث حنيات (أقواس) ويصل إليه المرء بدرج مستقيم له باب أنيق البناء .

وللقصر منظرة كبيرة لها ثلاثة إيوانات — يطل إيوانها الأوسط على الحديقة الكبرى . وتتوسط الدرقاعة نافورة . وتعلو الإيوانات الثلاثة التي تحيط الدرقاعة قبة صغيرة ذات نوافذ تزيد المكان بهاء وروعة . وتغطى الجدران والرفوف والدواليب المصنوعة من الخشب المشغول برشاقة وفن عجيبين .

(١) كتاب « وصف مصر — E M — المجلد الأول — من اللوحة ٥٤ — ٦٠ .

(٢) الجبرتي : عجائب الآثار ج ٣ ص ٣٤ — ٣٥ . طبعة بولاق .

قصر قاسم كاشف (أبو سيف)

وها هو ذا قصر آخر ، قد زال من القاهرة ، ومن حسن الحظ أن كتاب «وصف مصر» احتوى على لوحة تبين التخبوش والفناء ويرى فيها المقعد وبابه والشرقة (Loggia) ، وكان هذا القصر على مقربة من قصر حسن كاشف ، وتفصلهما عن بعض حارة صغيرة . وكان المجمع المصرى يضم هذا القصر وقصرى حسن كاشف وإبراهيم السنارى .

وقد أنشأ هذا الأمير بقصره حديقة أجرى فيها مياه النيل بطريقة مبتكرة وشق فيها طرقاً ممهدة وغرس فيها الأشجار والنخيل ، وجعل هذه الحديقة طبقات يماو بعضها بعضاً والمياه تصعد إلى أعلاها من طريق أنابيب خاصة وعند كل مصب لهذه المياه أقام مكاناً للجائوس . وقد أباح قاسم بك دخول هذه الحديقة لمن يشاء ، وسماها « حديقة الصمصاف والآس ، لمن يريد الحظ والائتناس » . . . وتقس ذلك على لوحة من الرخام ، رفعها على جذع شجرة على مدخل الحديقة .

قصر إبراهيم بك

وكان لهذا الأمير قصران أحدهما فى بركة الفيل وقد سكنه الجنرال ديوى ، أما قصره الآخر فهو قصر العبنى .

قصر مراد بك بالجيزة

وكان لهذا الأمير قصر كبير فى الجيزة ، رأى نابليون فى بادىء الأمر أن يجعل منه مستشفى عسكرياً ثم عدل عن هذه الفكرة ونقل المستشفى إلى قصر إبراهيم بك (قصر العبنى) تجاه الروضة ثم اتخذ القائد قصر مراد بك معسكراً له . وقد وصف « فيمان دينون » الذى قدم إلى القاهرة بعد استيلاء الفرنسيين عليها ، فى كتابه ما احتواه قصر مراد بك بالجيزة وصفاً بليغاً ، من طرقات وبساتين وممرشات .

بيت الشيخ الأمير

وبيت الشيخ الأمير ، من هيئة كبار العلماء المصريين ، لم يبق منه أثر اليوم وهو من مباني القرن السابع عشر . رسمه المصور بريز دافن فى كتابه « الفن العربى من آثار القاهرة » ، وقد ظهر عام ١٨٧٨ . وقد احتوى على ثلاث لوج بيت الشيخ الأمير إحداهما للفناء الداخلى ، وثانيها للمقعد والأبواب المحيطة به

والأشغال الخشبية واللوحه الأخيرة للكسيات . وقد ورد في هذا الكتاب ذكركلدارى رضوان بك واسماعيل بك .

دار يحيى الكاهن

وسكن الجنرال « كافاريللى » وزميله الجنرال « ديتروى » فى بادىء الأمر بيتاً يطل على الأزبكية . ولم يتسع ذلك البيت لحاجتهما فغادراه إلى بيت رحب كان يتلكه الأمير رضوان... له ردهات رحبة وإبوانات واسعة وناقورات جميلة وأحواض من المرمر البديع ودرج عريض وحديقة غناء . وسكن العالم السكياوى برتوليه — وكان يلى العالم لافوازيه فى شهرته — بيت يحيى كاشف الكبير بحى عابدين .

دار عثمان بك الأشقر

أنشئت أول مطبعة عربية فرنسية بالقاهرة فى أيام بونايرت ، خلال الحملة الفرنسية . وقد عهد بإدارتها إلى المسيو مارسل المستشرق ، أحد أعضاء لجنة العلوم والفنون . وكانت تسمى مطبعة جيش الشرق فى مستهل الأمر . ولما نقلت من الاسكندرية إلى القاهرة أمر بتسميتها المطبعة الأهلية . واتخذ لها دار عثمان بك الأشقر بالأزبكية على مقربة من بيت الألفى بك الذى سكنه نابليون . ثم نقلت إلى الجيزة أثناء ثورة القاهرة الثانية ثم إلى القلعة حتى جلا الفرنسيون عن مصر (١٨٠١) — فاستصحبوها معهم ، ولم تمد الطباعة إلى مصر إلا فى عهد محمد على .

ومما يؤسف له غاية الأسف أن فقدت معالم معظم القصور والدور التى كانت تزين القاهرة أثناء إقامة الحملة الفرنسية فى مصر . ولولا ماسجله الرسامون ورجال الآثار فى لوحات مؤلف « وصف مصر » الذى نشر فيما بين عامى ١٨٠٩ و ١٨٢٨ ، وكتاب « دى كوست » — الذى ظهر فيما بين ١٨٣٧ و ١٨٣٩ ، وكتاب « بريندافن » (١٨٧٨) لما كنا قد عرفنا تلك المآثر الجميلة .

دار السيد سعودى

وكان لهذا الفقيه بيت كبير على بركة الأزبكية ، غرس فيه حديقة اشتملت على القضاطر والبوائك ، وأباح دخولها للناس ، فكان يجتمع فيها الناس من جميع الطبقات . وفيها مقاهى وياعون وفكهاينة ومنافى وغير ذلك . وتقف عندها المراكب والقوارب ، وقد اشترى الأمير محمد الألفى هذا القصر وأضاف إليه غيره .

دار الشيخ عبد الله الشرفاوى

كان الشيخ عبد الله الشرفاوى من أعظم علماء عصره ، تولى مشيخة الأزهر ، واختاره نابليون رئيساً للديوان الكبير الذى أنشأه ليعاونه فى حكم البلاد . وكانت له دار عظيمة بناها على بركة الأزبكية وأنفق عليها أموالاً كثيرة ، وقد جمع فيها التحف النفيسة والكتب النادرة التى عنى بتجليدها .

دار الشيخ محمد المهدي

وكان لهذا العالم الجليل دار كبيرة اشتراها بناحية اللوسكى وتطل على الخليج ، وكانت بها قاعات فسيحة ، كسيت جدرانها وأرضها بالرخام الملون والقيشاني وتطل على بستان عظيم . واشترى الشيخ المهدي فى آخر عمره داراً فى الكمكيين ، ثم أخذ فى توسيعها وتجديدها ، وكانت إلى جوارها زاوية قديمة بها مدافن ، فهدمها وأدخلها فى داره ، وأخرج عظام الموتى من قبورهم فنقلوها إلى قراة المجاورين . وبقي فى مكان الزاوية والقبور مساكن لزوجاته .

وقد تولى المهدي مشيخة الأزهر ، ثم مات فى سن الخامسة والسبعين ولم يؤلف كتاباً ولا رسالة ، على الرغم من ذكائه وحسن استعداده . فقد إنشغل بجمع المال وجهه للدنيا^(١) .

دار السادات

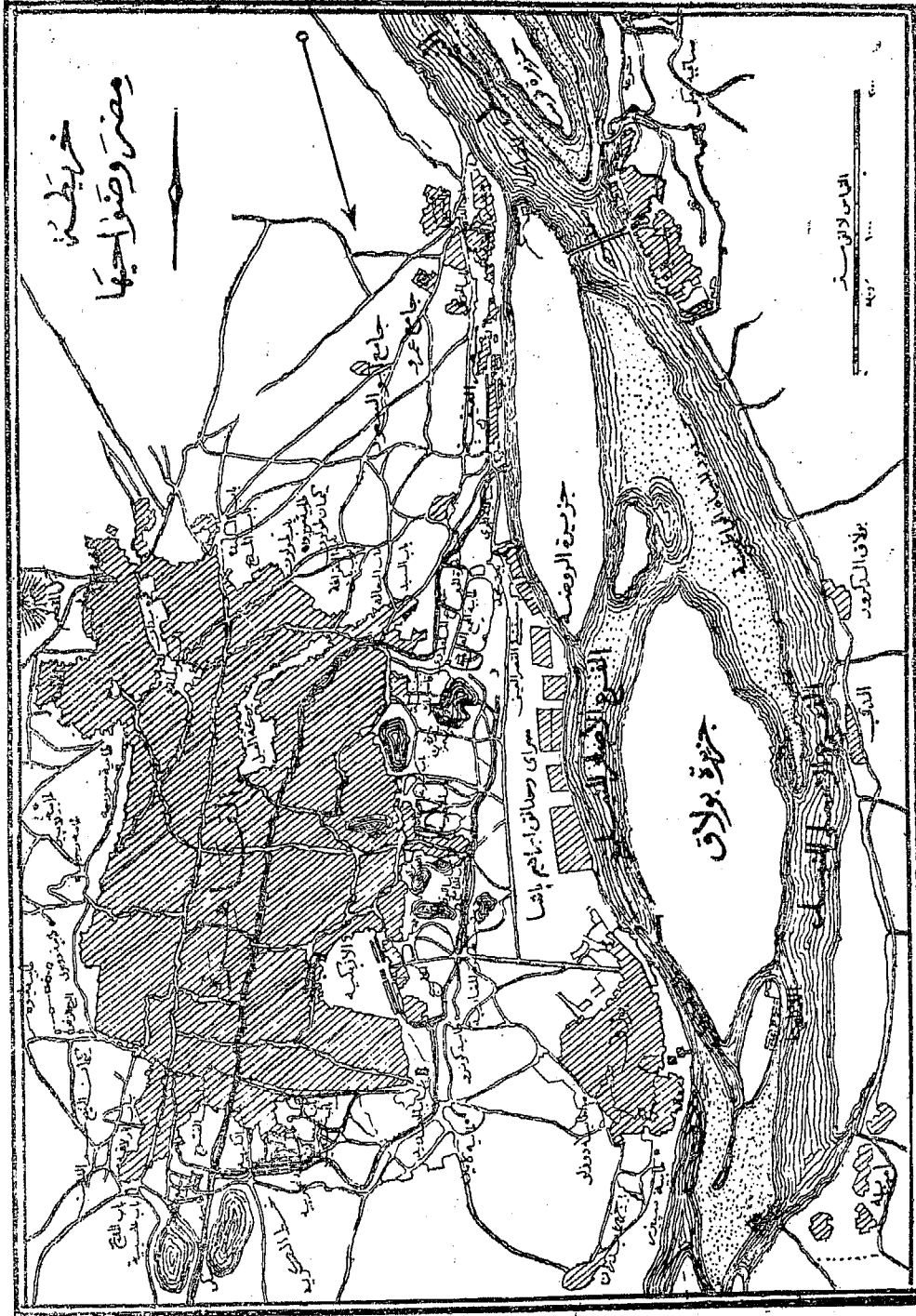
استطاع بوساطة والى محمد باشا العزنى أن ينال قدراً من المال ، أمرت له به الدولة من الخزينة ، لينفقه فى إصلاح بعض زوايا أسلافه ، فلما شرع فى عمارتها ، أدخل فيها قبوراً ومدافن لم تسكن فيها ، وبالغ فى زخرفتها وقشها بالذهب وأنواع الرخام الملون والعمد الفاخرة ، وأنشأ حولها مساكن ومخاضع لإقامة حريمه .

ثم أنشأ داراً أخرى ، جعل فيها رواشن وسواقي وبستاناً عامراً بأنواع الشجر ، وأدخل فيه بيوتاً لبعض الأمراء كانت متخربة . وكانت لبعض أبناء البكرى دار عظيمة وبستان فسيح ، قهرم على بيعه البستان له بثمان مئتين وأضافه إلى بستانه . ثم أقام حائطاً كبيراً حجب النور والهواء عن بيت البكرى حتى باع له البيت أيضاً بثمان مئتين .

وقد أفنى الشيخ السادات غالب عمره ، كما قال عنه الجبرتي ، فى تحصيل الدنيا وتنظيم الرفاهية ، واحتشاء كل مرغوب للنفس ، وشراء الجوارى والماليك والعييد والخصيان والتأنيق فى المآكل والشارب والملابس^(٢) .

(١) محمود الشرفاوى : مصر فى القرن الثامن عشر ج ١ ص ١٤٨ . القاهرة ١٩٥٦ .

(٢) محمود الشرفاوى : مصر فى القرن الثامن عشر ج ٢ ص ١٥٥ - ١٥٦ .



خريطة مصر ووضواحيها في أوائل القرن التاسع عشر

الفصل التاسع

القاهرة في أيام

عبد الرحمن الجبرتي

لانسكل صورة القاهرة في نهاية القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ، دون الحديث عن مجتمع القاهرة على أيام المؤرخ الشيخ عبد الرحمن الجبرتي، صاحب «عجائب الآثار في التراجم والأخبار» ، فقد شاهد أحداث القاهرة منذ أخريات القرن الثامن عشر إلى الربع الأول من القرن الذي يليه ، وقد دون لنا تلك الأحداث ، متعمراً الصدق والدقة ومتوخياً الحق . لم يكن يتحيز لطائفة أو لدولة أو لأي إنسان مهما عظم نفوذه . وإنك لتستطيع أن تتحقق نزاهة الجبرتي من مطالعة كتابه وإيمان النظر فيه ، وبخاصة في تراجمه ، فإنك تراه يورد الحقائق غير متأثر بجاه من يكتب عنهم ، ذا كراً لكل منهم ماله وما عليه . وإن كنا نلاحظ أحياناً ميله إلى بعض الأمراء والماليك .

ولا شك في أن «عجائب الآثار» تعتبر وثيقة فريدة ونادرة ، يعول عليها لمعرفة تاريخ مصر السياسي وحوادثها وتراجم رجالاتها وحالتها الإجتماعية في القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر . فلم يكتب مؤرخ آخر مثل ما كتبه الجبرتي بمثل إسبابه وتحقيقه . ولولا لغابت عنا حوادث مصر في ذلك العهد الطويل ، وإن كان رجال الحملة الفرنسية قد دونوا ما شهدوه من الحوادث خلال الفترة الوجيزة التي مكثوها في مصر .

ويعتبر كتاب الجبرتي مرجعاً أميناً لمن يريد الكتابة في خطط القاهرة في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر . فنحن نستطيع أن نتصور معالم القاهرة في أيام الجبرتي ، ونعرف ما أقيم فيها خلال عصره من مساجد ومعاهد وقصور وبساتين ، وما استجد في بعض أحياء القاهرة في أثناء حكم الفرنسيين مما تتطلبه الأغراض العسكرية من تدمير وإزالة ، أو تشويه وبناء .

واننا لنستمد من تاريخ الجبرتي وكما يسميه الفرنسيون «يوميات عبد الرحمن» أصدق الصور عن خطط القاهرة القديمة . وهي الصورة الفاصلة بين القاهرة الماليك في أثناء العصور الوسطى ، وقاهرة الخديو إسماعيل في منتصف القرن التاسع عشر .

وقد ترجم «عجائب الآثار» للفرنسية مرتين الأولى بقلم «كاردان» مترجم القنصلية الفرنسية بمصر وطبعت

عام ١٨٣٨، والثانية وهى ترجمة وافية قامت بها نخبة من الأدباء المصريين برئاسة المرحوم شفيق بك منصور يكن، وظهرت فى تسعة أجزاء من سنة ١٨٨٨ إلى سنة ١٨٩٦ . . .

كان الشيخ حسن الجبترى والده مؤرخنا عبد الرحمن من العلماء المومنين^(١) له ثلاثة منازل بالقاهرة ، أحدها بالابزازية على شاطئ النيل ، والثانى تجاه جامع مرزا جوربجى ببولاق، والثالث فى خطة الصناديقية قرب الجامع الأزهر^(٢) .

ويغلب على الظن أن الشيخ حسن كان يسكن أيام القبط فى بولاق ، إشفاقاً على أولاده من غبار الحى الأزهرى ، لأن منزله فى الابزازية على ساحل النيل يرتفع عشرين درجة عن مستوى الماء حيث حرارة الجو لطيفة .

ولد عبد الرحمن الجبترى فى سنة ١١٦٧ هـ / ١٧٥٤ م بالقاهرة ، ثم أرسله أبوه وهو طفل إلى مدرسة السنانية ، القرية من منزل الأسرة بالصناديقية ليحفظ فيها القرآن ، ولما أتم حفظه فى سن الحادية عشرة ، رغب الشيخ عبد الرحمن العوشى إلى أبيه أن يلحقه برواق الشام ، فسلمه إليه ليجاور ويتلقى العلم عليه .

وكان ميدان لهو عبد الرحمن وهو فى حوالى السابعة يمتد من خان الصاغة إلى بيت القاضى فالمشهد الحسينى فباب زويلة وما يتفرع من العورية من خطط وحارات وعطفات ، ولا شك أنه كان يصحب أباه إلى المساجد التى تؤدى فيها فريضة الصلاة أيام الجمع والأعياد .

وذكر لنا عبد الرحمن أنه صحب أباه فى ليلة المولد النبوى الشريف لسنة ١١٧٧ هـ / ١٧٦٣ م إلى منزل السادة الوفائية ، فتكرم الشيخ أبو الامداد إسماعيل ، فكفى عبد الرحمن أبا العزم .

ورأى الوالد فى سنة ١١٨٢ هـ أن يسارع إلى تزويج عبد الرحمن وهو إذ ذاك فى الرابعة عشرة ، وقد أرخ الشيخ عبد الله الإدكارى هذا الزواج بأيات بعث بها إلى الشيخ حسن الجبترى وبيت التاريخ قوله :

(١) آل إلى الشيخ حسن الجبترى من وقف جدة والده زينب الجوينية وبما وقفته عليه جدته لأبيه الحاجة مريم بنت الشيخ محمد المنزلى الأنصارى عقارات أهمها وكالة الصناديقية والحوانيت المجاورة لها وأملاك أخرى بالعورية ومرجوش ومنزل بجوار المدرسة الاقباقوية بالأزهر ، فضلاً عن ذلك فقد كانت زوجه ابنة رمضان جلبي (المعروف بالحشاب) من أسرة تملك عقارات عديدة فى بولاق ، منها وكالة السكتان وربماً وحوانيت تجاه جامع الزردكاش وبيتاً كبيراً بساحل النيل ومنزلاً تجاه جامع مرزا الجوربجى ، ولا بد أن حصه زوجته كانت ذات بال ، فشاركها فى قسم كبير من هذه العقارات . . .

(٢) خليل شيبوب . عبد الرحمن الجبترى ، من كتب سلسلة إقرأ رقم ٧٠ ، دار المعارف ، القاهرة . . .

والحال قد أرخته شمسها زفت لبدرک

(١١٨٢)

وظل عبد الرحمن يتردد على حلقات الشيوخ في الأزهر بعد ذلك ، ثم عصى إلى بيته فيلقاه أبوه متحدثاً إليه في التاريخ وأحداث عصره ، وكان عبد الرحمن يفيد من علم زائري أبيه وأدهم وحسن توجيههم ، فتكثرت الملائق بينه وبين الأمراء خاصة .

وبقي حاله كذلك حتى دخلت سنة ١١٨٨ هـ ، حينما بلغ الشيخ حسن السابعة والسبعين ، وفي ١٨ محرم أصيب بالهيمية الصفراوية ، ولم يلبث إلا اثني عشر يوماً حتى توفاه الله في غرة صفر من تلك السنة . ودفن بتربة الصحراء بجوار الشمس السابلي والخطيب الثريبي رحمهم الله جميعاً . وكان عبد الرحمن في سن الثانية والعشرين . وقد ترك له والده ثروة ضخمة ، منها بيوت في بولاق والصنادقية ومصر القديمة وأرضاً له بالقرب من كفر الزيات في بلدة ابيار وأوقافاً أخرى كبيرة .

وانتقل عبد الرحمن إلى بولاق ، ولم ينعم هذا الانتقال من المثابة على الحضور إلى الأزهر والاشتراك في الحلقات . وفي العام التالي ، أي في الأيام الأولى من سنة ١١٨٩ هـ برح عبد الرحمن ، القاهرة في رحلة إلى طنطا وكفر الزيات وزار ابيار ، ثم سلك طريق النيل إلى فوه ورشيد . وبعد أيام سافر إلى ادكو حيث تقعد أوقاف الجبرية ، وهي مسجد عظيم على البحيرة محبوسة عليه عدة أماكن وقيعان وأنوال حياكة وبساتين نخيل كثيرة ، ثم رحل إلى أبي قير والاسكندرية حيث اجتمع بالشيخ المسيري عالم الاسكندرية وشيخها الأكبر (١) .

ورحل بعد ذلك إلى دمياط ومر بالنصورة ، ثم عاد الجبرتي إلى القاهرة وعاد سيرته الأولى ، يحضر حلقات التدريس في الأزهر . وفي سنة ١١٩٠ هـ أجازته شيخه عبدربه المزيزي ، كما أجازته أيضاً أكثر الأسيخ في الفقه واللغة . وما عثم أن صار يعقد حلقات التدريس مثل أشياخه ، فأصبح دارساً ومدرساً .

وذكر الجبرتي أنه أجرى عمارة في بيت الصنادقية ، بدأها في سنة ١١٩١ وأكملها في سنة ١١٩٢ هـ . وأنشأ الشيخ مصطفى الصاوي في ذلك قصيدة نقشها الجبرتي في مجلسه من البيت ، قال فيها :

مكان على التقوى تأسس معجده	وفي سور التوفيق والهدى سوره
ومجلس أنس كل ما فيه مشرق	ومقعد صدق قد تسمى جوره
بناء يروق العين حسن جماله	ورونقه يشفى الصدور صدوره
ومن معجده بانيه تزايد بهجة	وقالده من دور المعالي تحوره

وبيت التاريخ قوله :

ودام به سعد السمود مؤرخاً حمى العز بالمولى الجبرتي نوره
(١١٩٢)

وقد طرز الجبرتي هذا الشعر على قطعة من الحرير علقها بصدر المجلس ، وضمن بهذه الدار تعدد زيارات شيخه وأستاذه السيد محمد مرتضى الزبيدي واخوانه الأشياخ والطلبة . . وسار سيرة أبيه فجعل مصيفه بولاق ومشتاه بالصنادقية .

وكانت هذه الدار تقع إلى يمين السالك في الحطة من جهة الأزهر على بعد خطوات من مدرسة السنانية قبل خان الجلابة ، فرسم لها الجبرتي باباً شارعاً على الحطة ينفذ إلى مدخل قصر تقوم إلى يمينه مصطبة من الحجر ، ثم ينفذ منه باب يفتح على رحبة مربعة واسعة غرس في وسطها حديقة ، وشاد إلى يمين الرحبة أقبية منها اصطبل للدواب وهري للغلل ومطبخ كبير به فاصل تركم فيه الأحطاب والفحم ، وحفر بئر بجانبه وبني بصدر الرحبة وعند منعطفها الأيسر حجرات بعضها يسكن الخدم وبعضها للضيوف ، وواحدة منها واسعة للطلبة وانقاد حلقات التدريس ، وبجانب باب هذه الحجرة سلم قليل الدرج يصعد إلى الطبقة العليا مفضياً إلى ممشى يدور بالطبقة كلها مشرفاً على الرحبة عقوداً تنتظمها عمد من الرخام الملون ، ونسق حول الممشى غرفاً شتى وجعل العقد الداخل ليواناً يرتفع درجتين ، ويقوم على بائكتين بدلا من واحدة ، وتأنق في تنظيمه فزين سماءه وجدرانه بالحشب المحفور والمبخور وأنواع القاشاني الملون ، وأقام حوله خزانتين فيهما الآنية الفاخرة ورفع فيه أرائك ثمينة وكسا أرضه بالسجاجيد نائراً عليها الطراريج الحريرية وسماه : « مجلس العقد الداخل » وجعل له بابين ملبسين بالأصداق والنحاس البراق ، أحدهما يفضى إلى القاعة الكبرى التي يجلس فيها كبار الزائرين . وقد عقد روشنا في سماءها تموج حوله ألوان زاهية صافية ونوع فيها السجاجيد والقاعد والأرائك وحشد فيها التحف المنثورة في الأركان والملقة على الجدران وأضاءها بأنواع الثريات المفضة بالبلور والشعاعد الوهاجة واقفن في زخرفتها وفرشها . وأما الباب الآخر فيفضى إلى خزانة الكتب وغرف النساء والأطفال ، وعلق في عقود الدار وأقبيتها المصاييح المبلورة والقناديل الفضية المختلفة الأشكال والأنواع ، وكسا الزوايا والأركان والرحاب بصنوف الرياش العالي والأثاث الثمين ، وأنفق عليه مالا جما حتى استتمها (١) .

وسكن الجبرتي فترة من الزمن في بيت يطل على بركة الرطلي ، وكانت كما يقول : « يسكنها أهل الرفاهية من أهل البلد ، لطيب هوائها وانكشاف الريح البحرية ، وليس في برها الاخر سوى الأشجار والمزارع ، وتمبرها المراكب والسفائن » .

وفى أواخر سنة ١١٩٥ هـ تزوج الجبرتي مرة أخرى ، تزوج ربيبة صديقه على عبد اللهدرويهي الرومي ،

برغبة منه ، وكان « وجيه الطلعة ، سليم الطوية ، ينف على التسعين ولم يسقط له سن ، ويكسر اللوزة بأسنانه » . وكان مثقفاً غزير الإطلاع (١) .

ولما قدمت الحملة الفرنسية إلى مصر في صفر من سنة ١٢١٣ هـ / ١٧٩٨ م ترك القاهرة إلى مزرعته في ابيار ، ثم عاد إليها بعد قليل ، عند ما أرسل العلماء باغارة نابليون ، إليه وإلى غيره ممن هاجروا ، ليمودوا . ولما أُلّف القائد « مينو » قائد الجيش الفرنسى بعد سفر نابليون ، الديوان الثالث اختير الجبرتي عضواً فيه .

وهكذا كان كتاب الشيخ الجبرتي من أهم مراجع العصر الذى عاش فيه ، بل نستطيع القول بأنه أهم المراجع الوطنية كلها .

وقد أصيب الجبرتي في آخر حياته بمحنة قاسية ، ففي صباح الثامن والعشرين من رمضان سنة ١٢٣٧ هـ / ١٩ يونيو ١٨٢٢ م . كان ابنه خليل عائداً من قصر محمد على في شبرا بعد صلاة الفجر ، فخرج عليه جماعة أخذوا يضربونه حتى قضا عليه وخنقوه ، ثم ربطوه برجل حماره . فلما أصبح الصبح عرفه الناس . وقد أصيب الجبرتي بموت ابنه وهو بين المرض والكبر والضيق بنازلة شديدة حطمت حياته ، فترك الكتابة والتأليف وانقطع عن القراءة ، وألح عليه الحزن وأكثر من البكاء حتى ذهب بصره ، وبقي في داره مريضاً حزيناً أعمى ، حتى مات في سنة ١٢٤١ هـ / ١٨٢٥ م ، وأعقب بنتاً عاشت مغمورة من بعده وولداً . ودفن بتربة الصحراء إلى جانب أسلافه .

وبعد موت الجبرتي احترق منزل الصناديقية وأكلت النار مكتبة الجبرتي ، فلم يبق لها من أثر وضاعت كرايس تاريخه بعد عام ١٢٣٦ هـ / ١٨٢١ م .

قاهرة الجبرتي

لم يكن بالقاهرة في تلك الأيام تنظيم خاص لشوارعها ، فكانت تجد بعض البيوت خارجاً عن حدود الطريق العام ، وترى البعض الآخر داخلاً ، كما ترى نيوتاً لها مشربيات قريبة من مستوى الطريق وأخرى لا ترى له منافذ . ومن شيد عمارة ورأى أمام منزله فضاء أدخل منه في المنزل ما أحب بلا قيد . وكذا الشوارع لم تزد سعة عن الحارات . ولم يكن للحكومة (إذا صح القول بأنه كان هناك في ذلك العصر شيء جدير بهذا الاسم) إعتناء بأمر النظافة أو الصحة ، فكانت تلتقي القاذورات أمام المنازل وعلى مداخل الأزقة . وما تبقى من أفاض الهدم من الأتربة والأحجار يلتقى به بالقرب من أبواب المدينة ، فتصير تلالاً

حتى إذا نسفتها الرياح تكونت منها فوق البلد سحابة تراب كريمة الرائحة تنقل معها شق الملل والأمراض . وكانت مقابر الموتى في وسط المدينة كمقبرة السيدة زينب ، وكان كثيرون من الناس يدفنون موتاهم داخل بيوتهم وفي المساجد وفي المدارس .

انقسمت القاهرة إلى بضعة أحياء تجارية ، فكان يباع في الجمالية واردات الشام والحجاز وحضر موت ، ويباع في الحجازوى الجوخ والحريير وما يزد إليه من الهند وأوربا ، وامتاز خان الخليلى بتجارة البلاد التركية . وكانت للقاهرة أسواق وقتية فمنها ما يكون في يوم معين كسوق الجمعة والإثنين والخميس . ومنها ما يكون كل يوم بعد العصر كسوق العصر ، وكانت تلك الأسواق تنتقل من مكان إلى آخر حسب ما يراه الحاكم . واجتمع أصحاب الحرف الصغيرة والمشعوذون كالحواة والقرادين بميدان الرملة التي تحولت بمبانيه الفاخرة إلى أكواخ وحيشان وأخصاص . واستحوذ كل إنسان على ما استطاع من أرض تلك الجهة حتى المساجد والمدارس ، وبنوا حول المساجد مبان قذرة شوهت محاسنها . وكذا ضيقوا واسع أرض الميدان وسوق السلاح ، فكان المار بتلك الجهات يخطو على القاذورات ويمر بين أقوام لا أخلاق لهم . وانحطت صناعات القاهرة ، فكنت لا تشاهد غير الحرف الوضيعة يقوم بها صناع فقراء يحاولون العيش بصعوبة في حوائيتهم .

وإذا رغبت الوقوف على صورة للقاهرة في تلك الآونة ، فلا ترى إلا أبنية مخربة وأسواراً وأبواباً مهدمة . وإذا قادتك قدمك إلى الحسينية فلا تشاهد غير تلال وكهان وأطلال . تلمح الشقاء في كل مكان وميدان حتى امتد إلى عابدين والداودية والقريبة والخليفة . أما جهات المدايح وباب اللوق فلا تسلم عما احتوت عليه من المياه الآسنة والروائح الكريهة .

وخلاصة القول أن القاهرة وصلت إلى حال تمسح حال في العمارة والتجارة والصناعة ، فأصبحت المدارس خاوية ، ولجأ الفقراء إلى سكنى المساجد . وإذا هبت الريح لا ترى إلا غباراً يبيت على البيوت فيسترها ساعات طويلة حتى تهدأ الحال . وكان يوجد على حافة النيل الشرقية بعض مبان كقصر العيني وبيت محمد كاشف قبليه ، وبيت محمد بك الألفى بحريه — معمل القصر العالى وغيرها — وامتدت مبان قليلة إلى جزيرة العبيط مكان ميدان التحرير الآن ، وكان الوصول إليها من بوابة أزيلت ، كانت تجاور غيظ قاصم بك الذى عرف فيما بعد بحديقة وهي باشا .

ولما عادت القاهرة إلى حكم العثمانيين وشيخ البلد بعد انسحاب الفرنسيين ، كانت مخربة تنعق على أنقاضها البوم ، واستأنف الألبانيون ورعاع الأزوام والأرمن حوادثهم ، وعمت كوارث القتل والحطف والنهب وعاد الممالك إلى رذائلهم ومفاسدهم . بينما جنود حامية القاهرة لا يسكتون عن المطالبة بمؤخرات مرتباتهم . فهجموا على بيت الدقردار (بيت محمد بك الألفى القديم) وبيت المحروقى (بيت الشيخ البكرى) فصبوا ألوانهم عليهم مدافع القلعة وخرب حتى الأتربكية ونهب الرعاع ما فيه ، وأقيمت المناريس عند رأس اللوراقين

والعقادين والمشهد الحسيني . ووُزع الجنود بمجامع أربك وبيت الدفتردار وبيت محمد علي وكوم الشيخ سلامة . ونشبت الحرب بين العثمانيين والألبانيين بالقاهرة وبولاق والقصر العيني، وانهمزم الوالي خسرو باشا بقواته فانتحى ناحية جزيرة بدران ومنها توجه إلى المنصورة فدمياط .

وفي مساء يوم ما باتت القاهرة في قبضة طاهر باشا قائد الجنود الألبانيين الذي شغل منصب الولاية . فطلب إلى المشايخ وكبار العلماء ورؤساء الوجاقات أن يختاروا من يشغل منصب الولاية الذي خلا فأعلنوه باختياره « قائمًا » حتى يصل له إعلان الولاية أو يعين وال آخر .

واستمرت المظالم كمادتها ، وأطلق طاهر باشا لجنوده الألبانيين عنان السلب والنهب وتوقيع الغرامات الفادحة على التجار ، وقام الجنود الانكشارية يطالبون برواتبهم المتأخرة أسوة بالألبانيين .

فلما كان يوم ٢٦ مايو سنة ١٨٠٣ ذهب رهط من الأنكشارية يبلغ عددهم نحو ٢٥٠ بأسلحتهم إلى طاهر باشا وعلى رأسهم اثنان من رؤسائهم ، فدخلا عليه وكلاه في الشكوى من تأخير دفع الرواتب فاتتهما ورفض أن يسمع شكواهما ، واشتد الجدل بينهما فجرد أحدهما سيفه وضرب طاهر باشا فقطع رأسه ورميا جثته من النافذة وأحرقوا داره ونهبوها وكانت أيام حكمه قليلة . قال الجبرتي « ولو طال عمره أكثر من ذلك لأهلك الحرث والنسل » .

عادت السلطة مؤقتاً إلى الأنكشارية ، فولوا أحمد باشا والي المدينة المنورة على ولاية مصر . وفي ذلك الحين كانت قوات المماليك وجنود محمد علي على أبواب القاهرة .

يوم وليلة

جاهر محمد علي بتحالفه مع المماليك ، واجتمع بابراهيم بك في الجزيرة ، وأفهمه أنه يؤيده ، وأنه أولى الناس بولاية مصر ، فدخل محمد علي وإبراهيم بك وعثمان بك البرديسي ، وباقي زعماء ممالك القاهرة متحالفين وطردهوا أحمد باشا فكانت مدة ولايته يوماً وليلة .

بدأت سلطة محمد علي تظهر في الميدان ، ونادى المنادون في القاهرة « بالأمان حسب مارسم إبراهيم بك حاكم الولاية وأفندينا محمد علي » فكان هذا النداء في شوارع القاهرة إعلاناً باقتسام السلطة بين إبراهيم بك ومحمد علي .

اتفق محمد علي وإبراهيم والبرديسي على التخلص من الأتراك فحاصر أتباعهم قلعة جامع الظاهر وكان الأنكشارية يقيمون بها حتى أخرجوهم منها ونزعوا أسلحتهم وطردهم من القاهرة ونادوا بتحذير الناس من إيوائهم .

بالخ محمد علي في التودد إلى المماليك فسلمهم قلعة القاهرة ، واتفق وإياهم على تجريد حملة على دمياط للقضاء على سلطة الوالي خسرو باشا الذي كان لا يزال محتماً بها ، وحملة أخرى للقضاء على الحامية العثمانية في رشيد . فنجحت الحملتان وقبض على خسرو باشا وأرسل إلى القاهرة سجيناً ، وابتهج المماليك لهذا النصر ونادى إبراهيم بك بنفسه « قاتلوا مصر » .

فلما علمت الحكومة العثمانية بعزل خسرو باشا وعودة نفوذ المماليك عازمت على استرداد سلطتها ، فعميت على باشا الجزائر والياً مصر ، وأرسلت معه قوة من ألف جندي . فبقى في الاسكندرية إلى أواخر سنة ١٨٠٣ ، ثم قصد القاهرة ليتقلد منصب الولاية بناء على دعوة من الأمراء المماليك متظاهرين فيها بالرغبة في الوفاق . لكن هذه الدعوة كانت له شركاً نصبوه للفتك به ، فلما وصل إلى « شلقان » التقت به جماعة من أمراء المماليك وجنودهم ، وهنا أبلغوه أنهم ينعونهم من دخول القاهرة وأركبوه صحبة جماعة منهم لحراسته للذهاب به إلى حدود سورية ، ولم يكتفوا بذلك بل أغروا به حراسه فقتلوه في الطريق .

لم يبق أمام محمد علي إلا قوة المماليك فبدأ يعمل على التخلص منها ، وتهدياً لتلك الغاية ترك لزعماء المماليك ولا سيما البرديسي السلطة ظاهراً ، حتى يحملهم تبعه الحكم ومساوئه ، ويحملهم هدفاً لسخط الشعب وتبعة المسئولية أمام الباب العالي .

محمد بك الألفي

كان هناك زعيم آخر من زعماء المماليك هو « محمد بك الألفي » وقد رحل إلى إنجلترا وقت جلاء الحملة الإنجليزية (١٨٠١) لمفاوضة حكومتها في عودة المماليك إلى الحكم ، ثم عاد لمصر ، ولوقدر له النجاح في مسعاه لتغيير وجه التاريخ المصري الحديث .

علم محمد علي بعودة الألفي إلى مصر فأوجس في نفسه خيفة لأنه كان يحسب للألفي حساباً كبيراً ويعده أقوى خصومه ، لكن الحظ ساعده بأن سخر له عثمان بك البرديسي ليخلصه من خصمه ، فأنفذ رجاله للقبض على الألفي بك وقتله . وكاد الألفي يقع في الشرك لولا اختفائه وفراره ، فنجوا بنفسه وذهب إلى الصعيد لتكوين حزب يناصره . لكن انقسام المماليك كان من الأسباب المعجلة بزوال دولتهم .

وفي مارس ١٨٠٤ عزم البرديسي على فرض ضريبة جديدة على الأهالي وأخذ عمال الحكومة يعاونهم جنود المماليك يجوبون أحياء المدينة لجمعها . فاشتد سخط الشعب واحتشد جماعات مستنكرين تلك المظالم وامتنعوا عن دفعها ، وخرج الناس من بيوتهم يضجون وهم يحملون الرايات والدفوف والطبول ويستمتطرون اللعنات على الأحكام ، وكانت غالب صيحاتهم منصبة على حكام المماليك فأخذت جموعهم تنادي :

« إيش تأخذ من تفليسي يا برديسي ا » وأغلق التجار وكالاتهم وحواليتهم ، واتجهت جموع الناقلين

إلى الأزهر لمقاومة المشايخ والاحتجاج على الضريبة الجديدة ، فقام هؤلاء يطلبون من أمراء المماليك الغاءها .

لقد نفخ في بوق الثورة ! وأخذت روحها تنتقل من حى إلى حى حتى عمت أحياء القاهرة .. فاضطرب عثمان بك البرديسى أمام رؤية الشعب الثائر وهو يستولى على الميادين والشوارع . وخشى محمد على أن تصيب الثورة جنوده فيادر إلى « كشف » المماليك أمام الشعب وجعلهم وحدهم هدفاً لغضبه، وجاهر بانضمامه إلى العلماء والمشايخ . ونزل إلى الطرقات واختلط بالجماهير وقابل علماء الأزهر وتهددهم بأن يبذل نفوذه لرفع هذه الضريبة وأوصى جنوده بأن يحترموا الشعب ، فاختلطوا هم أيضاً بالناس وأعلنوا عدم رضائهم عن الضرائب وجأهروا بأنهم يطالبون بروتهم من الحكومة لان الأهالى !

كسب محمد على بهذه السياسة عطف الشعب وثقة زعمائه ، وبدأ الناس ينظرون إليه كرجل يحب خير الشعب . بل بدأ محمد على يأخذ مظهر رجل الساعة المنتظر لتخليص البلاد من تلك القوضى الشاملة .

أما عثمان بك البرديسى، فقد قابل تلك الثورة بالغرسة والكبرياء ، ونقم على المصريين الذين لم يعتدلوا لأوامر المماليك ، بينما انتهز محمد على فرصة غضب الشعب على المماليك وثورته عليهم وتوزيع جنود المماليك في الأقاليم ، فأمر جنوده بمهاجمة المماليك الموجودين بالقاهرة وحاصروا بيت إبراهيم بك بركة القيس وبيت عثمان بك البرديسى بالناصرة وبيوت باقى المماليك فى أنحاء العاصمة ، واستمر الحصار إلى اليوم التالى .

رأى المماليك أنفسهم حياى قوتين ! ثورة الأهالى من جهة ، وجنود محمد على من جهة أخرى ، فلم يجحدوا سبيلا للنجاة سوى الفرار من القاهرة . وكان أول الفارين البرديسى بك ثم إبراهيم بك . ولما علم جنود المماليك الذين احتلوا القلعة بفرار زعيمهم أخلوها ونزلوا من باب الجبل ولحقوا برجالهم . فاستلم جنود محمد على القلعة .

قصد محمد على القلعة لمقابلة خسرو باشا الوالى القديم وكان سجيناً منذ ثمانية أشهر ليعيده إلى ولايته ، فنزل به إلى المدينة معلناً أنه صاحب الولاية فى البلاد . فازداد الشعب تعلقاً بمحمد على لما رأى فيه من عدم الرغبة فى تولى الحكم . لكنه لم يبق طويلا وعزل ، وعين من بعده خورشيد باشا .

نجح المماليك فى جمع شملهم وعادوا للحيزة بقيادة البرديسى وإبراهيم بك لفتح القاهرة ، واستمرت الحرب سجالاتا بين المماليك وجنود الوالى ومحمد على عدة أشهر حتى ارتدوا عن القاهرة منسحبين إلى الصعيد .

بدأ خورشيد يدبر الوسائل للتخلص من محمد على ، وقد رأى أمامه شخصية جبارة تطغى على نفوذه فاستصدر من الأستانة فرماناً بهودة محمد على وجنوده إلى بلادهم . فلما وصل الفرمان إلى القاهرة أدرك محمد على سر تلك المكيدة ، وتظاهر بالإذعان وأعد عدته للرحيل ، ولكن العلماء حين عرفوا ذلك طلبوا إلى محمد على البقاء بمصر لمسا عهدوه فيه من الاستقامة .

اهتزت القاهرة لنبا هذا الرحيل وأقفلت الأسواق ، وكاد جبل الأمن يضطرب ، وأخيراً قبل محمد على

طلب العلماء وأعلن بقاءه إرضاء للرأى العام . فلما تحقق خورشيد من عدول محمد على عن السفر، أدرك أن مكيدته قد أخفقت واضطر للإذعان مؤقتاً للأمر الواقع . فأصدر أمره إلى محمد على بمحاربة المماليك في الصعيد ليتخلص منه ، وأرسل إلى الحكومة العثمانية يطلب أن تمدّه بامدادات قوية فأوفدت إليه جيشاً من الدلاة . فلما وصل إلى محمد على نبأ هذه القوة عجل بالعودة إلى القاهرة قبل أن ترسخ قدم الدلاة في البلاد .

ثورة القــــــــــــــــاهرة

فرض خورشيد باشا في شهر مايو سنة ١٨٠٤ ضريبة على أرباب الحرف والصناعات ، فضجوا منها وأفلوا حوانيتهم، وحضروا إلى الجامع الأزهر يشكون أمرهم إلى العلماء ، فراحافظ ورئيس الشرطة في الأسواق ينادون بالأمان وفتح الحوانيت ، فلم يفتح منها إلا القليل . واشتد هياج الناس، واحتشدت جموع الصناع وأرباب الحرف والجمهير بالجامع الأزهر ومعهم الطبول ، وصعد الكثيرون منهم إلى المآذن يصرخون حتى سمع الوالى وهو بالقلمة دوى صياحهم ، وأخيراً اضطر خورشيد إلى رفع الضرائب وأعلن إبطالها ونادى المنادون بذلك فاطمأن الناس وتفرقوا .

وكان جيش الدلاة الذى جلبه خورشيد باشا من أردأ عناصر الجيوش العثمانية ، فقد أخذوا يعيشون في الأرض فساداً ، وقال عنهم الجبترى الذى شاهد أفعالهم وهو ينتقل بين أنحاء القاهرة ليعود إلى بيته ويسجل في تاريخه النفيس ما كان يراه كل يوم .

« ودخلوا بيوت الناس بمصر وبولاق وأخرجوا منها أهلها وسكنوها، وكانوا إذا سكنوا داراً أخرجوها وكسروا أخشابها وأحرقوها لوقودهم ، فإذا صارت خراباً تركوها وطلبوا غيرها ففعلوا بها كذلك وهذا دأبهم من حين قدومهم إلى مصر حتى عم الخراب سائر الضواحي، وخصوصاً بيوت الأمراء والأعيان وباقي دور بركة الفيل وما حولها من بيوت الأكار وقصورهم » .

وكان خورشيد يرى أنه لا يهدأ له بال حتى يتخلص من خصمه محمد على . وبينما كان يستعد لذلك عاد محمد على إلى المنيا مع حسن باشا بجنودها في الصعيد بعد مطاردة المماليك ونجاحهما في مهمتهما .

وكان خورشيد قد أنفذ إليهما قوة من الدلاة لصدّهما عن التقدم بالقرب من طره . ولكن محمد على تمكن بدهائه من اجتياز هذا المقل دون أن يلقي أية مقاومة . فإنه لما اقترب من قلعة طره طلب أن يقابل بعض ضباط الحامية للتحدث إليهم ، فأجابوه إلى طلبه واستطاع بسهولة أن يبسط لهم وجهة نظره فأجمعوا رأيهم على ألا يمرضوا لجيش محمد على وأخلوا له الطريقى .

فواصل سيره حتى بلغ القاهرة ونزل بداره بالأزبكية يوم ١٩ أبريل ١٨٠٥ لبدأ النزال بينه وبين خورشيد بالها وجهاً لوجه .

وفي يوم الأربعاء أول مايو عام ١٨٠٥ اعتدى الجنود الدلاة على أهالي مصر القديمة وأخرجوهم من منازلهم ونهبوها وقتلوا بعض الأهالي الآمنين . فاشتد الهياج وحضر جميع سكانها رجالاً ونساءً إلى جهة الجامع الأزهر، وانتشر خبر الاعتداء بسرعة البرق في المدينة كلها .

فاجتمع العلماء وذهبوا إلى الوالى وخطبوه في وضع حد لفظائع الدلاة . فأصدر الوالى أمراً للجنود بالخروج من بيوت الناس ، وكان هذا الأمر صورياً لأن الجنود لم ينفذوه .

خوطف الوالى ثمانية فطلب مهلة ثلاثة أيام ليرحل الجنود من المدينة ، فلما علم الجنود اشتد ضجيجهم وتضاعف سخطهم وبدأت الثورة تلوح علاماتها في المدينة .

وفي اليوم التالى عمت الثورة أحياء العاصمة واجتمع العلماء بالأزهر وأضربوا عن إلقاء الدروس وأقفلت الحوانيت، واحتشدت الجماهير في الميادين والطرق .

أدرك الوالى خطر الحالة وأرسل وكيله صعبة المحافظ إلى الأزهر لمقابلة العلماء ومفاوضهم لكي يحج الهياج فلم يجدهم بالأزهر ، فذهب إلى بيت الشيخ الشرقاوى وهناك حضر السيد عمر مكرم وزملاؤه فأغلظوا له في الحديث وانصرف على غير جدوى وقصد القلعة . لكن الجماهير لم تتركه يدخل إليها دون أن ترجمه بالأحجار ، ورفض العلماء أن يتدخلوا لإيقاف الهياج، وصمموا على طلب جلاء الدلاة عن القاهرة .

لم يكن سهلاً إجابة هذا الطلب لأن الدلاة كانوا عدة الوالى في القتال . واستمر العلماء مضربين عن إنشاء الدروس وأقفلت الأسواق أكثر من أسبوع وامتنع العلماء عن مقابلة الوالى طوال هذه المدة .

اعتقد خورشيد أنه لن ينجح في مسعاه لإقضاء محمد على عن مصر . فقد ورد فرمان سلطاني بتقليده ولاية جدة . فابتهج خورشيد باشا وأرسل في الحال يستدعيه إلى القلعة ليسلمه براءة التعيين وليخضع عليه خلمة الولاية الجديدة . لكن محمد على أدرك ما في هذا التعيين من الدسيسة وخشى العذر به إذا صعد إلى القلعة . فأرسل ينبئه بأنه مستعد لتلقى أمر التعيين في المدينة في أى منزل يختاره الباشا .

غضب خورشيد من هذا الجواب . فاتفق المشايخ على أن يكون الاجتماع في منزل سعيد أغا في منزل وكيل دار السعادة وصديق محمد على . فرضى خورشيد بهذا الحل مرغماً وذهب في الميعاد (٣ مايو ١٨٠٥) إلى دار سعيد أغا بالأزبكية وأمر بتلاوة فرمان . ولما انتهى الاجتماع خرج خورشيد عائداً إلى القلعة وقابلته الجنود الألبانية والشعب بالهتافات :

« محمد على لا يذهب إلى جدة . لن يغادر القاهرة . نريده هنا لإعادة الأمن واستتباب النظام . يجب أن يكون محافظاً للقاهرة ووالى مصر وليذهب خورشيد لجدة » . .

نظم جنود الألبان أنفسهم واصطفوا بأمر قائدهم أمام الوالى وأحاطوا به ، وامتطى محمد على جواده فى طلبتهم لحراسة خورشيد باشا إلى القلعة . وقد تم كل ذلك بهدوء ليحفظ بنفسه لممثل خليفة المسلمين وقار منصبه .

وانتهت الفترة التى حددها العلماء لجلاء الدلاة عن القاهرة ، يوم السبت ١١ مايو وكان لا يزال باقياً نحو ١٥٠٠ . وعلم زعماء الشعب أنهم ممنعون عن الجلاء حتى تدفع لهم مؤخرات مرتباتهم ولا سبيل لدفعها وخزينة الحكومة خالية .

ففى صباح يوم (١٢ صفر ١٢٢٠ هـ مايو ١٨٠٥ م) اجتمع زعماء الشعب وقاضى مصر والعلماء وفرقة الوجاقاية (الموظفين) والمشايخ أمام دار المحكمة الشرعية الكبرى (بيت القاضى) لإصدار قرارهم وليس فيهم أحد يحمل سلاحاً . وتستطيع أن تتبين نفسية الشعب فى ذلك اليوم الرهيب وتحكم عليها من ندائه « يارب يا متجلى أهلك العثماني » .

وللمرة الأولى كما قال قنصل فرنسا فى تلك الآونة « يقوم الشعب المصرى بتعيين واليه وهذه سابقة عجيبة فى الشرق أجمع » .

اجتمع زعماء الشعب فى دار المحكمة ووافاهم وكلاء الوالى بعد أن طلبهم قاضى المحكمة ، فحضروا وانعقد المجلس ثم عرض الزعماء مطالبهم وسلموا صورتها إلى القاضى ، وقام وكلاء الوالى يبلغونها إلى خورشيد باشا بالقلعة . فلما اطلع عليها رأى أن الحركة خطيرة فأرسل إلى محمد على يستدعيه ومعه السيد عمر مكرم نقيب الأشراف والعلماء إلى القلعة للتشاور معهم . ولكن فطن السيد عمر إلى مقاصد الوالى وخشى غدره فأشار برفض الذهاب إليه .

فلما لم يذهبوا عد امتناعهم عن الذهاب إليه تمرداً ورفض إجابة مطالبهم .

السيد عمر مكرم

اجتمع وكلاء الشعب من العلماء ورؤساء الصناع فى اليوم النالى بدار المحكمة للمداولة ، واحتشدت الجماهير فى فناء المحكمة وحوطها يؤيدون وكلاء عم . واتفقت الكلمة على عزل خورشيد باشا وتعيين محمد على والياً مكانه . وقاموا فى عصر اليوم إلى دار محمد على لتنفيذ قرارهم قائلين له :

« إننا لا نريد هذا الباشا والياً علينا ولا بد من عزله عن الولاية » .

ثم نادى السيد عمر مكرم بالنيابة عنهم قائلاً :

« إننا خلعناه عن الولاية » ، فسأله محمد علي : « ومن تريدونه والياً ؟ »

فأجاب الجميع بصوت واحد : لا نرضى إلا بك وتكون والياً بشروطنا ما تتوسمه فيك من العدالة وحب الخير .

فتردد محمد علي في بادئ الأمر لكي لا يقال عنه أنه المحرض للثورة ، فألح وكلاء الشعب عليه وقالوا جميعاً : « إننا اخترناك برأى الجميع وإجماع الكافة » قبل محمد علي الولاية ، وقام السيد عمر مكرم والشيخ الشرفاوى وألبساه خلعة الولاية .

أبلغ زعماء الشعب قرارهم إلى خورشيد باشا فرفض الإذعان لمطالبهم ، وأخذ يحصن القلعة ويجمع الذخيرة ويستعد لإخماد الثورة . وبدأ الزعماء بدورهم يعدون الوسائل لحصار القلعة لإجبار الوالى على التسليم .

احتشد الثائرون في ميدان الأزبكية ، وعبثاً حاول الزعماء إقناع الوالى بعدالة مطالبهم ، فأخذ السيد عمر يحرض الناس على الاجتماع والاستعداد للقتال بما وصلت إليه أيديهم من العصى والأسلحة . فأقاموا المتاريس والاستحكامات بالقرب من القلعة ، وبلغ عدد الثوار أربعين ألفاً . وكان الفقراء يبيعون ملابسهم أو يستدينون لشراء الأسلحة .

استمر القلق والاضطراب إلى ليلة الجمعة ٢٤ مايو ١٨٠٥ وفي تلك الليلة فيما بين المغرب والعشاء ، خرج جنود الوالى من القلعة للاستيلاء على متاريس الثوار ، فبادل الفريقان إطلاق الرصاص إلى ما بعد العشاء ، ثم ارتد جنود الوالى إلى داخل القلعة . واستمرت الحرب سجالاً حتى نزل عمر بك أحد مستشارى الوالى من القلعة وأشاع بين الجماهير أن خورشيد باشا عزم على النزول من القلعة للتسليم . ولم يكن ذلك إلا خدعة منه ليتزود من الذخيرة ، وفي يوم الاثنين ٢٧ مايو تجدد القتال وشد السيد عمر مكرم في حصار القلعة على رأس الوجاقلية والشعب وأهل خان الخليلي والغاربة . ومن العجب أن الفتور كاد يتسرب إلى الجنود الألبان الذين شاركوا الثوار في القيام على المتاريس وطلبوا مرتباتهم من محمد علي فاستمهلهم حتى يسلم خورشيد باشا . فأبوا ولم يمثلوا وتركوا متاريس القلعة وتفرقوا و أخذ مكانهم جماعة من المصريين .

وكان السيد عمر مكرم حريصاً على نجاح حركته وصيانتها من الفشل ، وقد حدث في مدة الحصار أن حضر أحد قواد الوالى بقواته ورباط بمصر القديمة وأمكنه الاتصال بالقلعة عن طريق الجبل وأن يعد حاميتها بالماون والذخيرة وحاول الاتصال بجنود محمد علي لصفهم عن حركتهم . ثم عزم على مهاجمة متاريس الصليبية في أثناء قيام الوالى بتصويب المدافع على القاهرة . وبينما كانت إحدى قوافل الجمال المحملة بالماون في طريقها إلى القلعة خرج عليها « حجاج الحضري » شيخ طائفة الحضرية وطائفة من أهالى الرميثة فضربوا « الجمالين » وحاربوهم وأخذوا جملهم وتعلبوا عليهم . فلما رأى الوالى ذلك أمر بضرب المدافع على القاهرة

ولا سيما نحو جهة بيت محمد علي وحسن باشا وجهة الأزهر، واستمر الضرب من أول النهار إلى بعد الظهر
فهدمت بعض البيوت القديمة .

استمر القتال بين الشعب والوالي إلى أوائل شهر يوليو عام ١٨٠٥ ، حتى أرسل محمد علي إلى السيد
عمر مكرم مشيراً عليه بإرسال بعض رجاله لنقل مدفع كبير من قلعة قنطرة الليمون وتركيبه على إحدى قمم
المقطم التي تشرف على القلعة لتهديد الوالي وقوته العسكرية فيها . فجمع السيد عمر رجاله وجلب الأبقار لجر
المدفع فأخرجوه من باب البرقية فياب الوزير حتى تم تركيبه في المكان الذي عينه محمد علي . وأخذ الثوار
يضربون القلعة واستمر الضرب متبادلاً بين الفريقين، وبهذه الفكرة أتقذ محمد علي العاصمة من أذى شديد
كاد يلحق بها .

وفي تلك الآونة وصل إلى الاسكندرية « صالح بك » من كبار ضباط الباب العالي قادماً من الأستانة
يحمل فرمان الولاية . وكان الشعب ينتظر وصوله ، ولم يكن للناس حديث سواه .

محمد علي

وصل صالح بك إلى بولاق في العاشر من أغسطس . ففرس في وجوه المستقبلين قارئاً ما يجول في
أفكارهم ، وأعلن الملاء بأن السلطان قد لبي رجاء العلماء، وولى محمد علي قائمقامية القاهرة المحروسة وولاية
مصر واستدعى خورشيد للاسكندرية .

خرج محمد علي وكبار القواد الألبان وطائفة من الجنود والوجاقلية وكثيرون من مشايخ الأزهر وأهالي
بولاق ومصر القديمة وباب الشعرية والحسينية والعطوف والخليفة والرميلة والحطابة والحباله وفي الطليعة
« حجاج الحضري » ويده سيف مسلول وكذلك ابن شعبة شيخ الجزارين ومهم الطبول والزمور .
وكانت المدافع تدوى حتى وصلوا إلى الأزبكية، فنزلوا بيت محمد علي ، وحضر المشايخ والأعيان لقراءة المرسوم
الذي أحضره « صالح بك » بولاية « محمد علي » على مصر وبمزل خورشيد باشا .

في اليوم التالي (١١ ربيع الثاني ١٢٢٠ هـ / ١٩ يوليو ١٨٠٥ م) قصد السيد عمر مكرم
بيت محمد علي في جمع كثير من الجند والأهالي والمغاربة ، والصعايدة والأزناك ، وكانوا
مسلحين ، وبعد انتهاء الزيارة ذهب السيد عمر وحده إلى بيت « صالح بك » للتسليم عليه ،
ثم عاد إلى بيته .

وامتنع رمى القنابل في القلعة كإصدار أمر بوقف نيران مدافع الجبل ، واستمر الحصار حول القلعة منعاً
للمفاجآت حتى أذعن خورشيد باشا وسلم القلعة يوم الاثنين (٩ جمادى الأولى سنة ١٢٢٠ هـ / ٥ أغسطس

١٨٠٥) وأُنزل الوالى السابق حريمه وجنوده وأتباعه ، وغادرها فى اليوم التالى من باب الجبيل إلى باب النصر فجبهة الخروبى فبولاق . وقد ودعه محمد على وعمر بك وصالح بك ، وأقلمت السفينة التى أقلته إلى الاسكندرية ، وأصبح محمد على حاكم البلاد .

وفى اليوم التالى عقب وصول خورشيد إلى الاسكندرية وصلت قوة من المماليك تباعج الأربعمائة فارس بقيادة ستة من زعمائهم ومنهم عثمان بك حسن وشاهين بك المرادى واحمد كاشف سليم وعباس بك ، وعبروا بوابق القنوح والنصر ، ثم ساروا فى كوكبة عظيمة وأمامهم الطبول والرمور والنقرزان ، فاخترقوا ميسادين القصرين حتى وصلوا إلى المدرسة الأشرفية ، وكانوا كلما تقدموا داخل المدينة انضم إليهم أتباعهم حتى أنهم ما كادوا يصلون إلى قلب المدينة حتى كانت قد احتشدت لهم جموع عظيمة . فهجم عليهم الجنود الألبان وحاصروهم من كل جانب فلم يتقدموا ، ولما أرادوا العودة من حيث أتوا وجدوا الشوارع مسدودة فى وجوههم . فقصدوا أبواب المدينة التى دخلوا منها فلما وصلوها كانت مغلقة ، فترجلوا تاركين جيادهم وحاول بعضهم دخول المساجد القريبة للاختفاء فيها . ولجأ آخرون إلى بعض الوكالات والمنازل . ولكن كان هياج الشعب شديداً فلم ينجح منهم أحد ، ومن وقع فى الأسر كان يسلب وينهب ويمرئ من ملابسه ويسحب على وجهه حتى تفصل رأسه عن جسمه ثم تسليخ وتحشى بالثبن . وكان الانتقام فى تلك المرة قاسياً فلقد توقع المماليك نجاحهم فى الانقلاب الجديد ، ولكن عدوهم كان شديداً الوطأة متيقظاً ، فأبادهم ولم ينجح منهم غير القليل إذ وقعوا فى الشرك الذى أتقن حيكه ، ولم يكن هذا الشرك الأخير من نوعه ، فقد كان ينتظرهم شرك آخر

ظنوا أن الفرصة سانحة بعد رحيل خورشيد وجنوده . . وانصرف الأهالى كل إلى داره ، فقاموا بمفاجأتهم وقد أيقنوا أنهم لابد ناجحون ... لكنهم فشلوا .

ثم مات البرديسى ، وبعد أيام مات الألفى مسموماً على يد حريمه ، فخلا الجو ل محمد على وفى أول مارس عام ١٨١١ تمخض من بقايا المماليك حينما دعاهم إلى وليمة القلعة ، ونسكل بهم بقسوة

* * *

تلك كانت القاهرة حتى العشرينات فى القرن التاسع عشر ، مدينة شرقية فى روحها وفى عمارتها وفنها ، وفى مجتمعتها . تحتفظ بملاحمها البارزة من خطط وطرق وعمارات ومبان كثيرة ، بالرغم مما خرب منها على أيام العثمانيين ، أو دمرته مدافع الفرنسيين .

ملحق

ثبت بأسماء من تولوا حكم مصر

٩٦٩ م - ١٥١٧

السنة	الاسم	السنة	الاسم
	المماليك البحرية		الفاطميون
١٢٥٠	شجرة الدر	٩٦٩	العز
١٢٥٠	عز الدين أيك	٩٧٥	العزير
١٢٥٧	المنصور على بن أيك	٩٩٦	الحاكم
١٢٥٩	سيف الدين قطز	١٠٢١	الظاهر
١٢٦٠	الظاهر بيبرس	١٠٣٦	المستنصر
١٢٧٧	بركة خان بن بيبرس	١٠٩٤	المستعلي
١٢٧٩	سلامش بن بيبرس	١١٠١	الأمير
١٢٧٩	المنصور قلاوون	١١٣١	الحافظ
١٢٩٠	خليل بن قلاوون	١١٤٩	الظافر
١٢٩٣	الناصر محمد بن قلاوون	١١٥٤	الفائز
١٢٩٤	زين الدين كتبغا	١١٦٠	العاقد
١٢٩٦	المنصور لاجين		
١٢٩٨	الناصر محمد (للمرة الثانية)		
١٣٠٨	ركن الدين بيبرس	١١٦٩	الناصر صلاح الدين
١٣٠٩	الناصر محمد (للمرة الثالثة)	١١٩٣	العزير بن صلاح الدين
١٣٤١	أبو بكر بن الناصر	١١٩٨	المنصور بن العزير
١٣٤١	علاء الدين بن الناصر	١٢٠٠	العادل بن أيوب
١٣٤٢	شهاب الدين أحمد الناصر	١٢١٨	السكامل بن العادل
١٣٤٢	اسماعيل بن الناصر	١٢٣٨	العادل بن السكامل
١٣٤٥	شعبان بن الناصر	١٢٤٠	الضاح بن السكامل
١٣٤٦	حاجي بن الناصر	١٢٤٩	المعظم بن الضاح
			الأيوبيون

٢٩١

السنة	الاسم	السنة	الاسم
١٤٢١	سيف الدين ططر	١٣٤٧	حسن بن الناصر
١٤٢١	محمد بن ططر	١٣٤٧	صالح بن الناصر
١٤٢٢	الأشرف برسباي	١٣٥٤	حسن بن الناصر (للمرة ٢)
١٤٣٨	يوسف بن برسباي	١٣٦١	محمد بن حاجي
١٤٣٨	سيف الدين جقمق	١٣٦٣	شعبان بن حسين
١٤٥٣	عثمان بن جقمق	١٣٧٦	علي بن شعبان
١٤٥٣	سيف الدين اينال	١٣٨١	حاجي بن شعبان
١٤٦١	أحمد بن اينال		
١٤٦١	خوش قدم		
١٤٦٧	سيف الدين يلباي		
١٤٦٧	تيمور بغا	١٣٨٢	سيف الدين برقوق
١٤٦٨	سيف الدين قايتباي	١٣٩٠	المنصور حاجي الملك
١٤٩٦	محمد بن قايتباي	١٣٩٩	فرج بن برقوق
١٤٩٨	الظاهر قنصوه	١٤٠٥	عبد العزيز بن برقوق
١٥٠٠	الأشرف جنبلات	١٤٠٥	فرج بن برقوق (للمرة الثانية)
١٥٠١	المادل طومان باي	١٤١٢	المستمين الخليفة العباسي
١٥٠١	قنصوه القوري	١٤١٢	المؤيد شيخ
١٥١٦	الأشرف طومان باي	١٤٢١	أحمد بن شيخ

المماليك الجراكسة

مراجع عن القاهرة

١ - الرحلات والمصادر الأصلية

ابن بطوطة : (ت ٧٧٩ هـ / ١٣٧٧) : تحفة النظار في عجائب الأمصار وعجائب الأسفار ،
٣ مجلدات ط باريس ١٨٥٣ ؛ المطبعة الخيرية بالقاهرة ١٣٣٢ هـ / ١٩٠٤ ؛ المطبعة
الأزهرية ١٩٢٦

ابن جبير : (ت ١٢٠٤) : تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار ، نشرها المستشرق رايت
سنة ١٨٥٢ ؛ ودي خوية بليدن ١٩٠٧ ، ط . القاهرة دار الفكر العربي ، حققها
حسين نصار .

ابن حوقل : (ت حوالي ٩٨١) : المسالك والممالك ، دي خوية بليدن .

ابن خلدون : (ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥) : التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً ، نشره وعلق
حواشيه محمد بن تاويت الطنجي ، لجنة التأليف والنشر ١٣٧٠ هـ / ١٩٥١ .

ابن سعيد المغربي : (ت حوالي أواخر القرن ١٣) : كتاب المغرب في حلى الغرب ؛ ط جامعة القاهرة ١٩٥٠
أبو الصلت ، أمية بن عبد العزيز (ت ٤٧٠ هـ / ١٠٧٧) : الرسالة المصرية ، نشرها الأستاذ
عبد السلام هارون من مخطوط رقم ٦٠١ أدب بمكتبة أحمد تيمور ، ط . لجنة التأليف
والنشر عام ١٩٥١

السلوى ، خالد بن عيسى : (القرن الثامن هـ / ١٤٤) تاج المفرق في تحلية علماء المشرق ، مخطوط
رقم ٢٠٢ ؛ ٤٠٠ بدار الكتب المصرية

بنيامين التيطلي الأندلسي : رحلته إلى المشرق (٥٦١ - ٥٦٩ هـ / ١١٦٥ - ١١٧٣) ، ترجمها عن
العبرية عزرا حسداد ونشرها عباس العزاوي ، بغداد ١٣٦٤ هـ / ١٩٤٥ .

الخيارى ، ابراهيم بن عبد الرحمن : (ت ١٠٨٣ هـ / ١٦٧٢) : تحفة الأدياء وسلوة الغرباء
(وتعرف برحلة الخيارى) ؛ مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٥٤٥

عبد اللطيف اليبغدادى (٦٢٩ هـ / ١٢٣١) : الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة
بأرض مصر ، ط أوروبا ، وطبعة موجزة ؛ (المجلة الجديدة) بالقاهرة

٢٩٣

عبد الغنى النابلسى (ت ١١٤٣ هـ / ١٧٣١) : الحقيقة والمجاز في رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز
(حوالى ١١٠٦/١١٠٥ هـ) ، مخطوط رقم ٣٤٤ بدارالكتب المصرية ؛ حققها ونشرها
فون كريم ١٨٥٠

الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة ؛ مخطوط رقم ١٧٦٧ (١٤٨ ورقة) ينسب إلى القرن ١٦ ،
المكتبة الوطنية بباريس .

ليوناردو فرسكو بالدى (ت حوالى القرن ١٤) : رحلته إلى مصر وفلسطين في القرن السابع عشر ،
٥١ ص ، ترجمة بنت بطوطة ، ط بروكاشيا بالاسكندرية . أنظر : المراجع الأجنبية .

ناصر خسرو : (ت ٤٥٣ هـ / ١٠٦١) : سفرنامه ترجمه إلى الفرنسية شارلس شيفر ، باريس ١٨٨١ ؛
وإلى العربية دكتور يحيى الخشاب ، لجنة التأليف والترجمة والنشر . القاهرة ١٩٤٥

المهروى ، أبو الحسن بن أبي بكر (ت ٦١١ هـ / ١٢١٤) : رحلة المهروى ، مخطوط بدارالكتب
المصرية رقم ٣٣ تمت كتابته سنة ٦٠٢ هـ

ابن إياس ، محمد : (ت ١٥٢٤) : بدائع الزهور في وقائع الدهور ، ط بولاق عام ١٣١١ هـ .
ابن تفرى بردى ، أبو المحاسن (ت ١٤٦٩) : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة . طبع ١٢ جزءاً ،
ط دارالكتب المصرية ، حقق بعضها الأستاذ محمد رمزى .

ابن الجيعان ، شرف الدين يحيى (ت ١٤٥١) : التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية ، ط الأهلية
بالقاهرة ١٨٩٨

ابن دقاق ، إبراهيم المصرى (٨٠٩ هـ / ١٤٠٦) : الانتصار لواسطة عقد الأمصار ، ط ١٨٩٦ هـ / ١٣١٤
[بعض الأجزاء]

ابن عبد الحكم : (ت ٨٧١ م) : فتوح مصر والمغرب ، تحقيق عبد المنعم عامر ، لجنة البيان
العربى ١٩٦١

ابن فضل الله العمري (ت ٧٤٩ / ١٣٤٨) : مسالك الأبصار ، طبع منه جزء واحد .
الجبرتي ، عبد الرحمن (ت ١٨٢٥) : عجائب الآثار في التراجم والأخبار ، جزءان ، ط بولاق
عام ١٢٩٧ / ١٨٧٥ ، طبع (١٨٨٩ - ١٨٩٠)

السخاوى ، محمد بن عبد الرحمن (ت ٩٠٢ هـ / ١٤٩٧) : تحفة الأجاب وبغية الطلاب في الخطط
والمزارات والبقاع المباركات (٤٠٧ ص) ، نشره محمود ربيع وحسن قاسم ؛
ط العلوم والآداب ١٣٥٦ هـ / ١٩٣٧

السيوطى ، الحافظ جلال الدين عبد الرحمن (ت ٩١١ هـ / ١٥٠٥) : حسن المحاضرة في أخبار مصر
والقاهرة ، ط الشرقية بالقاهرة ، ١٣٢٧ هـ / ١٩٠٩ .

الشيورى ، عبد الرحمن : نهاية الرتبة في طلب الحسبة ، نشره الدكتور السيد الباز العرينى ، ط لجنة التأليف والنشر ،
١٢٦٥ / ١٩٤٦ .

على مبارك (ت ١٤ نوفمبر ١٨٩٣) : الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ، ومدنها وبلادها القديمة
٢٠ جزءاً في ٥ مجلدات ، ط الأمبرية ببولاق ١٣٠٥ - ١٣٠٦ / ١٨٨٨ ، تناول في
الأجزاء الستة الأولى تاريخ القاهرة المعزية ومقارنة أوضاعها القديمة بأوضاعها
الحالية (١٨٨٥) وخطط القاهرة وشوارعها وحاراتها وجوامعها ومدارسها وأسبقتها الخ

القلقشندى ، شهاب الدين أحمد (ت ٨٢١ هـ / ١٤١٨) : صبح الأعشى في صناعة الإنشاء ، ط دار الكتب
المصرية (١٩١٣ - ١٩١٧)

المقريزى ، تقي الدين أحمد (ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤١) : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، مجلدان ،
ط بولاق ، ١٢٧٠ هـ / ١٨٥٣

— : السلوك في دول السلوك ، حقق الأجزاء الأولى الأستاذ م . مصطفى زيادة ، ط لجنة
التأليف والنشر : القاهرة

النورى : (ت ٧٣٣ هـ / ١٣٣٣) : نهاية الأرب في فنون الأدب ، صدرت جملة أجزاء ، دار
الكتب المصرية (١٩٢٣ - ١٩٦٠)

٢ - مراجع حديثة

حسن إبراهيم حسن : تاريخ عمرو بن العاص ، ط المعارف ١٩٢٦ .

: الفاطميون في مصر وأعمالهم السياسية والدينية بوجه خاص . ط بولاق ١٩٣٢

حسن عبد الوهاب : تخطيط القاهرة وتنظيمها من نشأتها . ط دار النشر للجامعات المصرية ١٩٥٧ .

زكى محمد حسن : الرحالة المسلمون في العصور الوسطى . ط دار المعارف .

: كنوز الفاطميين ، ط دار الكتب ١٩٤٠ .

وهيد الرحمن زكى : في مصر الإسلامية ، ط القنطف ١٩٢٧ .

ستابلي لين بول وترجمة حسن إبراهيم حسن وعلى إبراهيم حسن وإدوار حلم : سيرة القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٠ .

شعاع عيسى إبراهيم : القاهرة ، ط دار الهلال ١٩٥٩ .

على إبراهيم حسن : تاريخ جوهر الصقلي قائد المعز لدين الله الفاطمي ، ط حجازي ١٩٣٣ .

عبدالرحمن الرافعي : تاريخ الحركة القومية . ج ١ ، ٢ ، ٣ . ط القاهرة ، النهضة المصرية ، ١٩٣٠ .

عبد الرحمن زكي : القاهرة ، ج ١ . تاريخ القاهرة إلى نهاية عصر المماليك ، ط حجازي ١٩٣٢ .

ج ٢ القاهرة من العصر العثماني إلى نهاية القرن ١٩ ، ط حجازي ١٩٣٤ .

عبد الرحمن زكي : القاهرة من المعز إلى العصر الحديث ، ط المستقبل ١٩٤٢ .

: في مصر الإسلامية ص ٩٨ ... ١٠٨ ، عواصم مصر الإسلامية ، المتخلف ١٩٢٧ .

: مراجع تاريخ القاهرة منذ إنشائها إلى اليوم . الجمعية الجغرافية المصرية ، ١٩٦٤ .

عبد اللطيف إبراهيم : دراسات في الكتب والمكتبات الإسلامية ، دار مطابع الشعب ، القاهرة ، ١٩٦٢ .

فؤاد فرج : القاهرة ، ثلاثة أجزاء . الأول يشمل تاريخ عواصم مصر القديمة في العصر الفرعوني .

الثاني يشمل تاريخ عواصم مصر الإسلامية قبل القاهرة . الثالث يشمل تاريخ القاهرة

منذ عصر الفوالم حتى عام ١٩٤٥ . ط دار المعارف ١٩٤٦ .

كلوت بك (ترجمة محمد مسعود) : لمحة عامة إلى مصر ، جزءان ، ط أبو الهول القاهرة ، ١٩٣٠ .

محمد رمزي : القاموس الجغرافي للبلاد المصرية ط دار الكتب المصرية ، ١٩٥٦ .

: مذكرة بيان الأغلاط التي وقعت من مصلحة التنظيم في تسمية الشوارع والطرق

بمدينة القاهرة ، بتممة لوزير الأشغال ، ١٩٢٥ .

محمد عبد الله عنان : مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية ، ط دار الكتب المصرية ١٩٣١ .

محمد الشرقاوي : دراسات في تاريخ الجبرتي — مصر في القرن ١٨ ، جزءان ، مكتبة الأنجلو المصرية

١٩٥٦/١٩٥٥ .

محمد عكوش : مصر في عهد الاسلام ، القاهرة ١٩٤١ .

تقولا زيادة : رواد الشرق العربي ، ط المتخلف ١٩٤٣ .

يوسف البهنائي : جامع كرامات الأولياء ، جزءان ، القاهرة ١٩١١ .

٣ — آثار القاهرة وفنونها

لجنة حفظ الآثار العربية : مجموعة محاضرات الجلسات ، وتقارير الأعضاء عن الآثار العربية من سنة

١٨٨٣ إلى ١٩٤٥ من المجلد الأول إلى المجلد ٣٩ . المطبعة الأميرية .

- ابراهيم محمد الجمل : جامع عمرو بن العاص ، كتاب الشعب رقم ٧٥ ص ٧ — ٢٢
- أحمد تيمور : قبر الإمام السيوطي (٢٤ ص) ، ط . السلفية ١٣٤٦ / ١٩٢٧ .
- أحمد فكرى : مساجد القاهرة ومدارسها ، ج ١ (٢٣٦ ص) ، ط دار المعارف ١٩٦١ .
- إدارة حفظ الآثار العربية : نبذة تاريخية عن منطقة القلعة وما بها من آثار لمناسبة زيارة ضيوف مصر في
اليوبيل الفضى لجامعة فؤاد الأول ، ط الأميرية ١٩٥٠ .
- حسن عبد الوهاب : تاريخ المساجد الأثرية ، جزآن : أولهما يشمل المتن (٤٣١ ص) ، وثانيهما يشمل
الرسوم والصور ، ١٨١ ص ، ط دار الکتب ١٩٤٦ .
- : الرسومات الهندسية للعمارة الإسلامية (١٢٣ ص) ، دار الطباعة الحديثة .
- : الآثار الإسلامية بمصر ، مصلحة السياحة ، ط شندلر ١٩٥٥ .
- : بين الآثار الإسلامية (٣٠ ص) ، القاهرة .
- : جامع السلطان حسن وما حوله (١٢١ ص) سلسلة المكتبة الثقافية ، دار القلم ١٩٦٤
- حسن قاسم : المزارات المصرية والآثار الإسلامية في مصر والقاهرة المعزية ، (٦٠ ص) ، مجلة
هدى الإسلام ، ١٣٥٥ / ١٩٣٦ .
- زكى محمد حسن : فنون الإسلام (٦٠٠ ص) مكتبة النهضة المصرية ١٩٤٨ .
- سليمان أحمد الزياتى الحنفى : كنز الجواهر في تاريخ الأزهر .
- السيد محمود عبد العزيز سالم : الفسطاط وجامعها العتيق ، كتاب الشعب ٧٩ ص ٤١ — ٥٧
- : العسكر والقطائع ، كتاب الشعب رقم ٨٨ ، ص ٤٠٥ — ٤١٤ .
- عبد الرحمن زكى : قلعة مصر من صلاح الدين إلى فاروق ، مطبوعات المتحف الحربى بالقاهرة ط الأميرية
١٩٥٠ .
- : قلعة صلاح الدين وقلاع إسلامية أخرى ، (١٨٤ ص) بالصور والحرائط ، ط نهضة
مصر ١٩٦١ .
- عبد الرحيم فودة : الجامع الأزهر ، كتاب الشعب رقم ٧٥ ، ص ٢٤ — ٩٣ .
- على عبدالواحد وافي : لمحة في تاريخ الأزهر ، مطبعة الفتوح ، ١٩٣٦
- : الآثار الإسلامية بمدينة القاهرة مرتبة حسب أرقامها وعصورها التاريخية ،
مصلحة المساحة (١٩٥١) [مرفق بها خريطة] .
- كامل اسماعيل : دراسات أثرية — مسجد أحمد بن طولون (١٦ ص و ٢٣ لوحة) . ط دار الجيل
للطباعة ١٩٦٠ .

٢٩٧

كمال الدين سامح : العمارة الإسلامية في مصر (٣٢٩ ص) مزين بالصور مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٠
عبد الدين الخطيب : تاريخ الأزهر . القاهرة .

محمد عبد العزيز مزروق : مساجد القاهرة قبل عصر المماليك ، ١٢٢ ص ولوحات ط عطايا القاهرة ١٩٤٢ .
محمد عبد الله عنان : تاريخ الجامع الأزهر (٣١٥ ص) مؤسسة الخانجي ١٩٥٨ .

محمد أبو الميoun : الجامع الأزهر (١٥٢ ص) ، ط الأزهر ١٩٤٩ .

محمد أحمد : بيان تاريخي عن مسجد السلطان حسن وشرح مميزاته الفنية (١٠ ص) ، ط وزارة
الأوقاف ١٩٣٥/١٢٥٤ :

: بيان تاريخي عن الجامع الطولوني وشرح مميزاته الفنية (١٩ ص) ط وزارة الأوقاف
١٩٣٥/١٣٥٤ .

: بيان تاريخي عن مشهدي الإمام الشافعي والإمام الليث (١٥ ص) ط وزارة الأوقاف
١٩٣٥/١٣٥٤ .

: دليل موجز لأشهر الآثار العربية بالقاهرة مطبعة بولاق ١٩٣٨ .

جامع عمرو بن العاص بالفسطاط من الناحيتين التاريخية والأثرية (٩٨ ص وصور) ،
ط الأميرية ١٩٣٨ .

: تاريخ العمارة الإسلامية بمصر ، نشوؤها وتطورها وارتقاؤها . أنظر كتاب في ممر
الإسلامية ، ص ٥٦ — ٩٦ .

: موجز تاريخ جوامع أحمد بن طولون والسلطان حسن والسلطان المؤيد ، (١٦ ص)
ط دار الكتب المصرية ١٩٣٩ .

محمد عكوش : تاريخ ووصف الجامع الطولوني (١٣٩ ص و ٢١ لوحة و ١٥ رسم) ط دار الكتب
١٩٢٧/١٣٤٦ .

مصطفى يريم : الجامع الأزهر (٧٦ ص) ، ط التمدن ١٩٠٣/١٣٤١ .

منصور علي رجب : الأزهر بين الماضي والحاضر (٨٨ ص) ، ط المقتطف ١٩٤٦ .
هرتس ، مكس بك ، وترجمة علي بهجت بك : جامع السلطان حسن وبآخره ٢٠ لوحة ، ط بولاق بالقاهرة
١٩٠٢/٥١٣١٩ .

ولفرد جوزف وترجمة محمود أحمد : العمارة العربية بمصر وشرح الميزات البنائية الرئيسية للطراز العربي في
القرنين ١٤ ، ١٥ ، ط الأميرية ١٩٢٣ (٣٦ لوحة بها أشكال نماذج العمارة العربية في
القرنين المذكورين .

يوسف أحمد : جامع سيدنا عمرو بن العاص ، المحاضرة الأولى من المحاضرات الأثرية (١٦٤ ص) ،
ط المعاهد ١٩١٧/١٣٣٥ .

يونس مهران : الجامع الأزهر ، أنظر في مصر الإسلامية ص ١٣٠ — ١٥٢ .

European Sources مراجع أجنبية

- Affagart, Greffin : Relation de Terre Sainte. Edited by J. Chavnon. Paris, V. Lecoffre, 1902.
- Dopp, P. H. « Le Caire Vu par Les voyageurs occidentaux du moyen âge. » Bull. de la Société royale de géographie d'Égypte. Tome XXIII, 117—49; Tome XXIV, 115—62. Cairo, 1930—51 .
- Carro, J.M. : Voyageurs et Ecrivains Français en Égypte. Publications de L'Inst. Fr. A. O. 2 vols. Le Caire, 1932 .
- Leo Africanus (Al- Hassan ibn al- Wazzan). Description de L'Afrique . Translated and edited by A. Epaulard. Paris, A. Maisonneuve, 1956 .
- Piloti, Emmanuel. L'Égypte au Commencement du quinziesme siècle. Edited by P. H. Dopp. Cairo, 1950 .
- Thenaud Jean. Le Voyage d'Otremer . Edited by Charles Schfer. Paris, Ernest Leroux, 1884 .
- Casanova, p. : Reconstruction topographique de la Ville Fustat ou Misr Mem. I. F. A. O. Tome 35. Cairo 1919 .
- Glerget, M. : Le Caire : Etude de géographie urbaine et d'histoire géographique. Le Caire, 1934 .
- Devonshire, R. L. : L'Égypte musulmane. Maison Freres Ed. Paris, 1926 .
- Ebers, G. : Egypt : descriptive, historical and picturesque. 2 vols . London 1880—1883 .
- Fraser, : The City of the Caliphs. 1899 .
- Franz Pasha : Kairo, Leipzig 1903 .
- Hanotaux : Histoire de la Nation Egyptienne. Tome IV. L' Égypte Musulmane par G. Wiet. Paris 1937.
- Hay, R. : Illustrations of Cairo. (drawn by Browne) . Tilt and Bogue, London, 1840 .

۲۹۹

- Jomard, M. : Description de la ville et de la Citadelle du Kaire .
Description de l'Egypte. Tome II. Etat . Moderne. p. 579—778. Paris,
1809—1822. 2 nd edition.
- Lane — Poole, S. : The Story of Cairo. Dent. London 1902 .
- Margollioth, G. : Cairo, Damascus and Jerusalem 1907 .
- Mehren, A. F. : Cåhireh og Keråfat. 2 vols. Kjobehavn 1869—70 .
- Ravaisse, P. : Eseair sur l' histoire et a topographie du Caire d'apres
Maqrizi. Ier fasc. M. 489—80; III fasc. , 83—114. Mem. A. Fran. C .
Cairo 1886 — 89 .
- Reynolds — Ball : The City of the Caliphs, Boston. London 1898 .
- Russell, D. : Medieval Cairo and the Monasteries of Wadi Natrun.
London 1962 .
- Schmeil, M. : Le Caire : sa vie, Son histoire. Son peuple. Le Caire
1949 .
- Salmon, Georges : Etudes sur la topographie du Caire Mem. de l'institut
français d' archeologie orientale, Tome VII. Cairo, 1902 .
- Wiet, Gaston : Cairo: City of Art and Commerce. University of Oklahoma
Press. 1964 .

Islamic Architecture

- Ahmad Isa Bey : Histoire des Bimaristans (hôpitals) à l'époque islamique Cairo 1928 .
- Aly Bahgat & Albert Gabriel : Fouilles d'al — Fostat. pp. 128 . Paris 1921,
- Berchem, MaxVan : Notes d'archéologie arabe. J. Asiatique, 8^{ème} série, Tome XVII, XIX, Paris, 1891.
 : Corpus. Inscip. Arab, (E'gypte, t. 1) Paris. 1894.
- Briggs, M, S : Mohammedan Architecture in Egypt and Palestine pp. 255. Clarendon Press, Oxford 1924 .
- Butler, A. J. : The Ancient Coptic Churches of Egypt. 2 vols.
- Casanova, P. : Histoire et description de la Citadelle du Cairo. Mem. A. M. A. F. C. tome 6. Paris 1897 .
- Comité de Conservation des monuments de l'art arabe. Procès verbaux des séances. 41 vols (1882—1963) Cairo.
- Coste, P. : Architecture arabe et Monuments du Cairo. 1837—39 .
- Creswell, K. A. C. ; A Brief Chronology of the Muslim Monuments of, Egypt. Bull. de l'Institut Français d'Archéologie Orientale, XVI, Cairo 1919 .
 : Early Muslim Architecture. 2 vols. Oxford 1932—40.
 : Archeological Researches at the Citadel of Cairo. Bull. de l'Inst. A. O. F. T. XXII 1924.
 : The Works of Sultan Bibars al-Bunduqdari in Egypt. Bull. de l'inst A. O. F. T. XXVI. Cairo 1926 .
 : La Mosquée de' Amru. Bull. del' Inst. A. O. F. T. XXXII, pp. (12 pls & 16 figs) . Cairo 1931,
 : Muslim Architecture in Egypt. 2 vols. (1952—1959)
- Davies R. O. C. : The Mosques of Cairo. Middle East Publications. Cairo 1940 .

٣٠١

- Devonshire, R. L. : Some Cairo mosques and their Founders, London 1921 .
- : Quatre-vingts Mosquées. Le Caire
- : Rambles in Cairo .
- Fattol, Antoine : Ibn Tulun's Mosque in Cairo. pp. 39 and 80 illus . Beyrouth 1960 .
- Kamel. Othman Ghaleb : Le Mikyas ou Nilomètre de l'île de Rodah. pp. 180 with 46 plates. Le Caire 1951.
- Khan el-khalili : pp. 32 with illus. Cairo Tourist Adm. 1960.
- Lane—Poole, Stanley : The Art of the Saracens in Egypt.
- Mahmoud, Ahmad : Concise guide to the principal Arabic Monuments in Cairo.
- Mahmeud el—Gawhary : Ex—Royal Palaces in Egypt : from Moh. Aly to Farouk. with illus. Caire 1954.
- Mayer, L.A. : The Buildings of Qaytbay, as described in his endowment deed. pp. 96 Text and Index. Probathejn, london 1938.
- Ministry of Wakfs : The Mosques of Egypt, from 21 H. (641) to 1365 H. (1916) 2 vols . with plates. Survey of Egypt. 1949 .
- Pauty, E : Les Palais et les Maisons d'époque musulmane au Caire. with figs & Plates. Le Caire 1932.
- : Les Hammams du Caire. with figs. and plans Le Caire 1933.
- : La Mosquée d'Ibn Toulun et ses environs. pp. 94 with illus. Le Caire.
- Popper, W. : The Cairo Nilometer. University of California Press. 1951.
- Prisse D'Avennes : L'Art Arabe d'après les monuments du Kaire depuis le VIIe. siècle Jusqu'a le fin du XVIIIe. 2 édit. with 34 Pls. and 73 figs and 130 coloured. Morel Paris (1869—1877) .

- Ross, Dennison : The Art of Egypt through the Ages. Chapter on Mualim Architecture by K.A.C. Creswell. London 1931 .
- Sameh, K : The Architectural works of Abdel Rahmen Ketkhuda in Cairo. Thesis, University of Cairo Library. Cairo 1947.
- Tarchi, Ugo : L'Architettura e l'arte musulmane in Egitto e nella Palestina . 18 pp. of text with 166 pls. and 47 figs. Crudo, Torino 1923 .
- Wist, G. & L. Hauteceur : Les Mosquées du Cairo. 2 vols. Paris, Ernest Leroux 1932.

كشاف الأعلام

البوصيري ، محمد ٧٩	أبو الذهب محمد ٢١٧ - ٢١٨	إبراهيم (الأمير) ٢١١ ، ٢١٢ ، ٢١٣
بوقو ٢٠١	٢٢٢ - ٢٢١	٢٨٢ ، ٢٢٤ ، ٢٢٣ - ٢٢٢
بوكوك ، بنشارد ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٤	أبو صالح الأرمي ٣١	إبن إياس (محمد) ١٤٢ ، ١٩٣ ، ٢٢٦
ببرس ، الظاهر ١٠٤	أبو الصلت ، أمية ٤٤ - ٤٩	
تبريقا ١٧٧	أبو المحاسن ، تغرى ١١٢ -	إبن بطوطة ١٤٦ - ١٥٣
تيفنو (الرحلة) ٢٠١ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥	١١٨ - ١٤١	إبن جبير ٨١ - ٨٧
تيموزلك ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٧٩	أحمد ابن طولون ٧٠٦ -	إبن الجيعان ٢٢ ، ١٤٣
١٨٨	أحمد الشرايبي ٢١٣	إبن الحاكم اللغوي ١٣٦
الجبرتي ، عبد الرحمن ٢٠٣ ، ٢٠٤	أحمد المحروقي ٢٦١ ، ٢٦٣	إبن حنبل ١٤٠
٢٠٦ - ٢٠٨ ، ٢١٠ ، ٢١٠	الادفوي ١٤٢	إبن حوقل ٣٣
٢١٢ - ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢١٥	الألفي بك ٢٨٢ - ٢٨٤	إبن خلدون ١٨٥ - ١٨٨
٢١٥ ، ٢٢٦ ، ٢٥٢ ، ٢٦٧	أرنولد فون هارف ١٧٩ - ١٨١	إبن دقاق ١٣٩
١٧٥ - ٢٨٠	أفاجار (جريفأ) ٢٠١	إبن رضوان (الطبيب) ٣٠
الجبرتي ، حسن ٢١٠ ، ٢٧٥ ،	ألماس (الأمير) ١٨٣	إبن زريك ٢٦
٢٧٧	الأيوبيون ٦٠ - ١٠٠	إبن زنبيل الرمال ١٤٣
جيريل بن ناشرة ١	بدر الجمالي ٤ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٦ ،	إبن سعيد المغربي ٢ ، ٣ ، ٩٢ ،
جقمق (السلطان) ١٧٧	٢٥ - ٢٦	٩٤ -
جلال الدين السيوطي ١٣٦ -	بدر الدين بكتاش ١٦٤	إبن سيد الناس ١٣٧
١٣٧ - ١٤٢	بدر الدين البيسري ١٦٤	إبن الصيرفي ١٤١
الجلداكي ١٣٧	بدر الدين الدماميني ١٣٦	إبن عبد الحكم ١
جمال الدين الأقفهسي ١٨٨	البرديسي ٢٨١ - ٢٨٣	إبن عبد الظاهر ٣٢
جوهر القائد ٦ ، ٩ ، ١٦ ،	برسباي ١٧٧ - ١٧٨	إبن المتوج ٣٢
١٧ ، ١٩ ، ٢٢ ، ٢٢	برقوق (السلطان) ١٧٧	إبن ماتي ١٣٩
جهازكس الخليلي ١٦٢	بروس ، جيمس ٢١٧	إبن نجم المصري ١٣٨
الجواني ٣٢	البغدادي ، عبد اللطيف ٨٨ - ٩٢	إبن النفيس ٣١
الحاكم بأمر الله ٢٠	البلاذري ١	إبن هشام ١٢٦
حسام الدين بلال ١٦٢	البلقيني ١٣٨	إبن الهيثم ٣١ ، ٣٢
الحسن بن محمد الوزان ١٩٣ ،	البلوي ، خالد ١٥٣ - ١٥٤	إبن وصيف شاه ١٤٣
١٩٥ - ١٩٧	بليار (جنرال) ٢٦٥	إبن يونس ٣٠
	البهاء زهير ٨٠	أبو الحارث البساسيري ١٦١

- العيني ١٤٠
 الغوري ١٨١ - ١٨٤
 الفاطميون ٩ - ٥٦
 فانسلب (الرحالة) ٢٠٧
 فيفان دينون ٢٢٤ ، ٢٢٥
 القائم بأمر الله (ال خليفة) ١٦١
 قايتباي ١٧٧ - ١٧٨ - ١٧٩
 قراقوش ١٦٣
 القضاء ٣٢
 القلقشندي ٤
 كارييه دي بنو ٢١٠
 كريسويل ٢ ، ٣٠٠ ، ٣٠٢
 كليبر (جنرال) ٢٥٩ - ٢٦٣
 مارسل (للمشترق) ٢٢٥
 محمد بن قايتباي ١٨٠ ، ١٨٤
 محمد بن موسى الدميري ١٣٧
 محمد رمزي ١٢ ، ١٥ ، ١٦
 محمد الصوفي ٢٠٣
 محمد طلي ٢٨١ - ٢٨٩
 محمد كريم ٢٥٥
 محمد مرتضى الزبيدي ٢٢٦ ،
 ٢٧٨
 مراد (الأمير) ٢٢٢ - ٢٢٣ ،
 ٢٢٤
 مروان بن محمد ٥
 المسبجي ١٩ ، ٣٢
 المستنصر بالله ١٦١
 مسرور الخادم ١٦٣
 مصطفي باشا ١٩٩
- شهاب الدين الخفاجي ١٣٨ ،
 ٢٢٦
 الصالح طلائع ٢٦ ، ٢٧
 الصالح نجم الدين أيوب ١٦٣
 صلاح الدين الأيوبي ٤ ، ١٣ ،
 ٦٠ ، ٦٦ ، ١٦٢
 طاهر بن بابشاذ ١٣٧
 طشوزدمر (الأمير) ١٦٤
 طومان باي ١٨١ - ١٨٣
 عابدين بك ٢٠٣
 عبد الباسط بن شاهين ١٤٢
 عبد الله الشبراوي ٤١٣ - ٤١٤
 عبد الرحمن كتهندا ٢١٢ ، ١٩ ،
 ٢٢٠ -
 العبدري ، محمد ١٤٣ - ١٤٤
 عثمان بك ٢١٠
 عديلة هاتم ٢٢٤
 العزيز (ال خليفة) ٢٢
 عطا الله الشاذلي ٧٩ - ٨٠
 علي بك الكبير ٢١٦ ، ٢١٧ ،
 ٢٢٠ ، ٢١٨
 عمر بن الخطاب ١
 عمر بن الفارض ٧٨ - ٧٧
 عمر مكرم (السيد) ٢٦٣ ،
 ٢٨٥ - ٢٨٨
 عمرو بن العاص ١ ، ٢
 عمرو بن قحزم ١
 عويس باشا ٢٠٣
 العياشي عبد الله ١٩٧
- حسن الجداوي ٢٢٣
 حسن الجيجازي ٢٠٩
 حسن الطولوني ١٤٢
 خسرو باشا ٢٦٦
 خمارويه ٧
 خورشيد ٢٨٥ - ٢٨٨
 خير بك (الأمير) ١٩٨ ، ١٩٩
 داوود باشا ٢٠٢
 ذي مايبه ١٩٣ ، ٢٠٧
 ديلاقالي ٢٠١
 راغب باشا ٢٠٩
 رضوان (الأمير) ٢١٠ ، ٢١١
 ٢١٢ ، ٢١٣
 الزبير بن العوام ٢٢١
 زين الدين ، الأمير ١٦٣
 سافاري (الرحالة) ٢٢٠ ، ٢٢
 السبكي ، تاج الدين ١٣٧
 السخاوي ١٤١
 سراج الدين الوراق ٨٠
 سعيد بن البطريق ٣٢
 سليم (السلطان) ١٨١ - ١٨٣
 ١٩٢ - ١٩٤ ، ١٩٨
 سنان (الأمير) ١٩٩
 سونيفي (الرحالة) ٢٢٠
 الشافعي (الإمام) ٨٣ ، ٩٦
 شاور ٤
 شجاع بن أتمل ٣٠
 شركس (الأمير) ٢٠٩ ، ٢١٠
 شريك بن سمى ١
 الشعرائي ٧٩ - ٨
 شمس الدين ٢٠٧

٣٠٥

ناصر خسرو (الرحالة) ٢٤	المالِك الجراكسة ١٧٦ -	معاوية بن حديج ١
٤٣ - ٣٤	١٩١	المزدين الله ٩ - ١٢
الناصر محمد بن قلاوون ١٠٨	النصور قلاوون ١٦٣	المقرزي ١ ، ١٣ ، ١٤٠ ،
١٢٦ -	المؤيد ، شينخو ١٧٧	١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٦
نوردون ، فريدريك ١٩٣ ،	مينو (الجنرال) ٢٥٨ ، ٢٦٣	١٦٧ - ٢٢٦
٢١٥	٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٢٦٦	مقصود باشا ٢٠٤
النوري ١٣٨ ، ٢٢٦	نابليون بونابرت ٢٤٩ - ٢٦٠	المالِك البحرية ١٠٤ - ١٥٨

كشاف الأمكن

جامع الظاهر ٢٥٧	باب القراطين (المروق) ١٦	أبياب الخارات ١٨٢ - ١٨٣
« الأزهر ١١ ، ١٧ ، ٥١ -	« القرافة ٧٠ ، ١١٣	آثار العصر العثماني ٢٤٤ - ٢٤٨
٢٥٦ ، ١٦٣ ، ٥٢	« القنطرة ١٤ ، ١٦	آثار عصر المماليك البحرية ١٥٧
« أبو العلاء ١٦٢	« باب القوس ١٤	١٥٨
« الطنبغا السارداني ١٢٤	باب المروق ١١٦	آثار عصر المماليك الجراكسة
« الأمير المساس ١٢٣	« المدرج ١١٣	١٨٩ - ١٩١
« بشتك ١٢٤	« النحاس ١١٢	أخطاط القاهرة ١٦٤
« بنت الملك الظاهر ١٢٣	« النصر ١٣ - ١٥	أرض الطبالة ١١٤ ، ١٦١ -
« التوبة ١٢٢	بابليون ٢٠١	١٧٠ ، ١٦٣
« الحاكم بأمر الله ١٣ ، ٢٢ ،	بركة الأزبكية ١٧١ ، ١٨٢ ،	أرض اللوق ١٣٥
١٢٣ ، ٢٤ ، ٥٤	٢١١ - ٢١٢ ، ٢٥٠	الأزبكية ١٨٢
جامع جوهر السحرتي ١٢٥	بركة بطن البقرة ١٧٤	أسوار القاهرة ١٢ - ١٥
« دولة شاه ١٢١	« الحبش ١٧٣	أسواق القاهرة ١٦٥ - ١٦٦
« سعود (الشيخ) ١٢٦	« الحجاج ١٧٤	أيوان قلعة الجبل ١١٢
« طبرس ١٢٠	« الرطلي ١٦١ ، ٢٥٨ ، ٢٦٣ ،	باب البحر ١٦٤
« عمرو (العتيق) ٢٠١	٢٦٤	باب البرقية ١٣ ، ٧٠
« نجر الدين محمد ١٢٠	« الشعبية ١٧٣	الباب الجديد ٧٠
« « « (الروضة) ١٢١	« الشقاق ١٧٢	باب الخوخة ١٤ ، ٦٩
« الدين شاه ١٢٦	« الفيل ١١٩ ، ١٢٤	باب زويلة ١٣ ، ١٧٧
« القلعة (الناصر محمد) ١١٣	« الناصرية ١١٨ ، ١٧٤	باب سعادة ١٤ ، ١٥٤ ، ٦٩
« خانقاه قوصون ١٢٣	بولاق ١٣٣ ، ١٦١ ، ١٦٢ ،	باب السلسلة (المزب) ١١٧
« قوصون ١٢٣	١٦٧	باب الشعرائي ١٤ ، ١٧٤ ، ٦٩
« المظفر ١٢٥	بيت الشيخ الأمير ٢٧١	باب الشعرية ١٧ ، ٦٩ ، ١٢٥ ،
« المقياس ١٨١	« حسن كاشف ٢٠٨	٢٦٣
« المؤيد ٢٠٩	« الست حفيظة ٢١٨	باب الصفاء ٧٠
جزيرة الروضه ٢٥٧	بيارستان المؤيد ١٧٧	« الفتوح ١٣ ، ١٦
« الفيل ١٢٣	ثورات القاهرة ٢٥٤ - ٢٦١	« الفرج ١٥ ، ٧٠
الجزيرة الوسطى	جامع ابن غازي ١٢٦	« الفرج (٢) ٧٠
سارات القاهرة ٤٠ - ٤١	« أزبك (الأمير) ٢١٢	« القسطنطين ٧٠

دار العزب ٢٠	خانات القاهرة وفنادقها ١٦٣	حارة الأتراك ١٦٦
» دار الضيافة ٢٠	خانقاه بيبس ١٨٧	حارة الأمراء ١٨
» طاز ١٦٤	» خانقاه الناصر محمد بن قلاوون	» الباطلية ١٨ ، ١٦٦
» سيد السعداء ١٦٣	١١٤	» البرقية ١٦٦
» دار السادات ٢٧٣	خط باب للمارستان ١٦٥	» برجوان ١٦٦
» السيد سمودي ٢٧٢	خط باب القنطرة ١٦٤	» بهاء الدين ١٦٦
» السحيمي ٢٣٩ - ٢٤٠	» بين السورين ١٦٥	» الروم ١٨ ، ٤١ ، ١٦٦
» الضيافة ٢٠	» البندقانيين ١٦٥	» الجودرية ٦٦٦
» عثمان الأشرق ٢٧٢	» خان الوراق ١٦٤	» الديلم ١٨ ، ١٦٦
» قراستقر ١٦٤	» دار الدياج ١٦٥	» زويلة ١٨ ، ١٦٦
» الكريتلية ١٣٨ - ٢٣٩	» الساكت ٢٥١ ، ٢٦٣	» المطوف ١٩ ، ١٦٦
» اللطيل ٢٦٨	» سقيفة المداس ١٦٥	» قائد القواد ١٩
» منجك السلحدار ١٦٤	» الكافوري ١٦٥	» الكافوري ١٩
» الوزارة الكبرى ٢٠	» المقسى ١٧١	» المحمودية ١٩ ، ١٦٦
» يحي الكاشف ١٧٢	» خلجان القاهرة ١٦٩	» الوزيرية ١٩ ، ١٦٦
» الشرقاوى ٢٧٣	» خليج قنطرة البحر ١٧٠	» حكر ابن الأثير ١١٥
» الشيخ المهدي ٢٧٣	» الخليج المصرى ١٧٠ - ١٧٢	» حديقة الأزبكية ١٦٢
» زرية قوصون ١١٥	» الخليج الناصرى ١١٤ -	» حمام بشتك ١٦٦
» سيل حسن كتخدا ٢٣٧	١٦١	» حمام تتر ١٦٦
» حسين كتخدا ٢٣٧	» دار إبراهيم السنارى ٢٦٩	» الرومى ١٦٦
» خسرو ٢٣٧	» الأحمدى ١٦٤	» الساباط ١٦٦
» عبد الرحمن كتخدا ٢٢٧	» أيدغمش ١١٨	» السيدة ١٦٦
» القزلاز ٢٣٧	» جمال الدين الذهبى ٢١٩	» لؤلؤ ١٦٦
» سبيل السلطان مصطفى ٢١٨	» الحديث الكاملية ٧٥ ، ٩٧	» حوض العشاق ٢٠٧
» السد العظيم ٦٤	» حسن كاشف ٢٦٧ ، ٢٧٠	» خان السبيل ١٦٣
» سور القاهرة الأيوبى ٦٦ -	» الحكمة ٢٠	» منسكورش ١٦٤
٦٨	» الذهب ٢٠	
» سور القاهرة القاطمى		

قصر الشوك ١٩
 قصر المزرد ١٩
 قصر النسيم ١٩
 القصور الفاطمية ١٩
 القطائع ٧
 قلعة البرلس ٢٦٥
 قلعة الجبل ٦٥ - ٦٦ ، ٩٥ ،
 ٢٠٦ ، ٩٦
 قلعة الروضة ٩٨ ، ٩٩
 قلعة الكباش ١١٧
 قلعة المقطم ٢٦٦
 قلعة كامان ٢٦١
 قناطر الأوز ١٢١
 قناطر مجرا أبو المنجا ١٧٣
 قناطر الخليج الناصري ١١٤
 قناطر السباع ١٨٤
 قنطرة آق سنقر ١٢٤
 قنطرة السكرية ١٦٧
 قنطرة الأمير حسين ١٢١
 قنطرة باب القنطرة ١٧٢
 قنطرة الدكة ٢٦٧
 قنطرة السد ١٧٢
 قنطرة عمر شاه ١٧٢
 قنطرة الفخر ١٧٢
 قنطرة الليمون ٢٥٧ ، ٢٦٧
 قنطرة اللؤلؤة ٣٦
 قنطرة المدافع ٢٦٧
 قيسارية جهاركس ١٦٣
 ماريستان قلاوون ٢١٩
 مجرى عيون المياه ١٨١
 المجمع المصري ٢٦٦ ، ٢٦٧
 مدرسة / مسجد أبو بكر مزهر
 ١٦٧ ، ١٧٩

القاهرة : تراجع في صفحات
 الكتاب ولا سيما ٩ - ١٦
 ١٠٤ ، ١٠٧ ، ١١١ - ١١١
 ١٥٩ - ١٦٢
 قبة الإمام الشافعي ٩٦
 قبة الخلفاء العباسيين ٩٩ - ١٠٠
 قبة الصالح نجم الدين أيوب ٩٩
 القصبية ١٦٥
 قصر إبراهيم بك ٢٥٧ ، ٢٧١
 القصر الأبلق ١١٢
 قصر الطنبغا المارداني ١١٨
 قصر بشتاك ١٦٤
 قصر بكنمر الساقى ١١٧
 قصر بهادر الجوباني ١١٧
 « طشتمر الساقى ١١٦
 « العيني ٢٦٦
 « قاسم كاشف ٢٧١
 « قطلو بنا الفخرى ١١٧
 « محمد الألفى ٢٥١ ، ٢٥٩
 « مراد بك ٢٢٤ ، ٢٢٥ ،
 ٢٧١ ، ٢٥٠
 « بلبغا اليحياوى ١١٨
 « ماماي (الأمير) ١٦٤
 « يشبك
 قصر الحريم ١٩
 القصر الشرقى ١٢
 القصر الصغير ١٩ - ٢٠
 القصر الكبير ١٩
 قصر الأفيال ١٩
 قصر البحر ١٩
 قصر بهو الذهب ١٩
 قصر الشجرة ١٩

سوق باب الفتوح ١٦٥
 « الجوخيين ١٦٥
 « حارة برجوان ١٦٥
 « الحريريين ١٦٥
 « الخلاويين ١٦٥
 « الدجاجين ١٦٥
 « السلاح ١٦٥
 « الثمانيين ١٦٥
 « الصنادقيين ١٦٥
 « اللجيين ١٦٥
 شاطيء النيل (تحول مجراه)
 ١٣٣
 شارع بين السورين ١٤
 « « التهدين ١٤
 شارع الخليج (بور سعيد)
 ١٧٠ - ١٧١
 شارع الفجالة ٢٥٨
 طاية ديوى ٢٥٧
 طاية سلكوفسكى ٢٥٧
 طاية قاسم بك ٢٥٧
 طاية كامان ٢٥٧
 المسكر ٢٦ ، ٥٠ ، ٣
 القسطنطينية ٢٠١ ، ٢٠٢ - ٢٠٧
 والمقدمة
 فندق ابن قريش ١٦٤
 فندق بلال المنى ١٦٣
 فندق دار التفاح ١٦٤
 فندق طار نطاسى ١٦٤
 القاعات السبع ١١٣

٣٠٩

مشهد ومسجد السيدة زينب ٢١٩	مدرسة / مسجد قلاوون ١٢٩	مدرسة / مسجد برسباي ١٦٧
مشهد ومسجد السيدة سكينة ٢١٩	مدرسة القمجية ١٨٦	مدرسة / مسجد برقوق ١٦٦
مشهد ومسجد السيدة رقية ٢١٩	مدرسة الكاملية ١٦٣	مدرسة / مسجد جوهر اللالا ١٦٧
مشهد ومسجد السيدة عائشة ٢١٩	مدرسة المهندار ١٢٥	مدرسة سنقر السعدى ١٢٥
مشهد ومسجد السيدة نفيسة ٢١٩	مرج دابق ١٨١	مدرسة سيف الدين آل ملك ١٢٦
المقبي ٢١ ، ٢٢ ، ١٦١	السافر خانة ٢١٨ ، ٢٤٠ -	مدرسة السيوفية ٢١٩
مكتبات للمالك البحرية ١٣١	٢٤٢	مدرسة الظاهر ١٢٩
١٣٢ -	مسجد / مدرسة أزبك ١٧٩ ،	المدرسة الصالحية ٩٧
مكتبات المدارس والمساجد ١٦٧ ،	١٩٦	مدرسة صرغتمش ١٣٠ ، ١٨٧
١٦٨ ، ١٨٩	مسجد الأقر ٥٦	مدرسة الطيرسية ١٢٩ ، ١٢٩
مناخ القاهرة ٢٨	مسجد الظاهر برقوق ١٦٦	مدرسة العادل كتبغا ١٢٩
منشأة المهراني ١١٥	مسجد (مشهد) الجيوشي ٥٥	مدرسة علم الدين سنجر ١٣٠
ميدان قلعة الجبل ١١٢	مسجد / مدرسة السلطان حسن	مدرسة علاء الدين مغلطاي ١٣٠
ميدان الناصري ١١٧	١٣١ ، ١٢٨ ، ١٢٧	مدرسة علاء الدين أقبغا ١٣٠
وكالة قايتباي ١٦٢	مسجد الصالح طلائع ٥٦ ، ٥٥	مدرسة / مسجد الغوري
وكالة قوسون ١٦٣	مسجد قاني باي ١٧٩	مدرسة قراستقر ١٢٥

المحتوى

ص ٣ - ٦

للمقدمة :

ص ١ - ٨

الفصل الأول

عواصم مصر الإسلامية قبل القاهرة

الفسطاط - العسكر - القطائع .

ص ٩ - ٥٩

الفصل الثانى

القاهرة فى أيام الفاطميين (٩٦٩ - ١١٦٩)

تأسيس القاهرة . أسوار القاهرة الفاطمية . السور الأول . السور الثانى . أبواب القاهرة . الجامع الأزهر . أخطاط القاهرة . القصور الفاطمية . الفاطميون والقاهرة . العزيز . جامع الحاكم . بدر الجمالى . ظاهر القاهرة الفاطمية . طقس القاهرة . الشرطة . خلفات الفاطميين وخاتمهم . العلم والعلماء فى أيام الفاطميين . القاهرة فيما كتبه الرحالة : ١ - ابن حوقل . ٢ - ناصر خسرو . ٣ - أبو الصلت . آثار الفاطميين : الأزهر . جامع الحاكم بأمر الله . مسجد الجيوشى . مسجد الصالح طلائع . مسجد الأقرم .

ص ٦٠ - ١٠٣

الفصل الثالث

القاهرة فى أيام الأيوبيين (١١٦٩ - ١٢٥٠)

صلاح الدين الأيوبي . امتداد القاهرة . السد العظيم . قلعة صلاح الدين . سور القاهرة . أبواب القاهرة الصلاحية . المدارس الأيوبية . عود إلى الأحداث . التصوف فى أيام الأيوبيين . القاهرة فيما كتبه الرحالة : ابن جبير - عبد اللطيف البغدادي - ابن سعيد . آثار الأيوبيين فى القاهرة : قلعة الجبل . قبة الإمام الشافعى . دار الحديث الكاملية . المدرسة الصلاحية . قلعة الروضة . قبة الخلفاء العباسيين .

ص ١٠٤ - ١٥٨

الفصل الرابع

القاهرة فى أيام المماليك البحريةية (١٢٥٠ - ١٣٨٢)

الظاهر بيبرس . القاهرة فى أيام الظاهر بيبرس . القاهرة فى أيام الناصر محمد بن قلاوون . جامع السلطان

حسن . المدارس المملوكية . المكتبات المملوكية . تحول شاطئ النيل واتساع القاهرة . بولاق . العمد
والعلماء في أيام المماليك . القاهرة فيما كتبه عنها الرحالة : ابن بطوطة . أم آثار المماليك البحرية .

الفصل الخامس

قاهرة المقرئى (١٣٦٤ - ١٤٤١) ص ١٥٩ - ١٧٥

المقرئى . تطور الماهرة . أرض الطبالة . خانات القاهرة وفنادقها . أخطاط القاهرة . أسواق
القاهرة . حمامات القاهرة . المدارس المملوكية . المكتبات . خاجان القاهرة . الخليج المصرى .
قناطر القاهرة . برك القاهرة وضواحيها .

الفصل السادس

ص ١٧٦ - ١٩١

القاهرة في أيام المماليك الجراكسة (١٣٨٢ - ١٥١٧)

عصر قايتباى . الرحالة الألمانى آرنولد فون هارف . بركة الأذربكية . السلطان القورى : القاهرة
فيما كتبه ابن خلدون . أم آثار المماليك الجراكسة في القاهرة .

الفصل السابع

ص ١٩٢ - ٢٤٨

القاهرة في أيام العثمانيين (١٥١٧ - ١٨٠٥)

الحسن بن محمد الوزان في القاهرة - القاهرة كما شاهدها المياشى - خيربك - القاهرة في أثناء
القرن ١٦ - القاهرة في أوائل القرن ١٧ - الرحالة تيفنو - قلعة القاهرة - فانسلب والفنصل
ديمايه - قصة واعظ - القاهرة بين الأميرين شركس وذى الفقار - مشيخة عثمان بك - القاهرة
بين الأميرين إبراهيم ورضوان - أسيرة الشرايبي - الحياة العقلية - الرحالتان بوكوك ونوردن -
قاهرة على بك الكبير - أبو الذهب في القاهرة - عمائر عبد الرحمن كتنخدا - سونيفى وسافارى -
القاهرة بين البكوات إسماعيل ومراد وإبراهيم - القاهرة بين الأميرين إبراهيم ومراد - العلم والعلماء
في مصر العثمانى - القاهرة في خلال الحكم العثمانى - آثار القاهرة العثمانية وفنونها - عمارة القاهرة -
السبيل الكتاب - أشهر الدور في القاهرة - آثار مصر العثمانى وما تبقى منها .

ص

ص ٢٤٩ - ٢٧٣

الفصل الثامن

القااهرة في أيام الحملة الفرنسية (١٧٩٨ - ١٨٠١)

نابليون في القاهرة - قصر محمد بك الألفى - نابليون يتوحد إلى القاهريين - القاهرة النائرة -
 ثورة القاهرة الأولى - القاهرة معسكر كبير - نابليون يودع القاهرة - عودة العثمانيين إلى القاهرة -
 ثورة القاهرة الثانية - عودة كليبر - الجنرال كليبر والحلبى - الانتقام من عروس الشرق - رحيل
 الفرنسيين ووصول الإنجليز - قاهرة المجمع المصرى - صورة عامة للقاهرة - بعض دور القاهرة .

ص ٢٧٤ - ٢٨٩

الفصل التاسع

القااهرة في أيام الجبرتي (١٨٠١ - ١٨٢٥)

قاهرة الجبرتي - يوم وليلة - محمد بك الألفى - ثورة القاهرة - السيد عمر مكرم - محمد على

ص ٢٩٠ - ٢٩١

ملحق

ص ٢٩٢ - ٣٠٢

: العربية والأجنبية .

المراجع

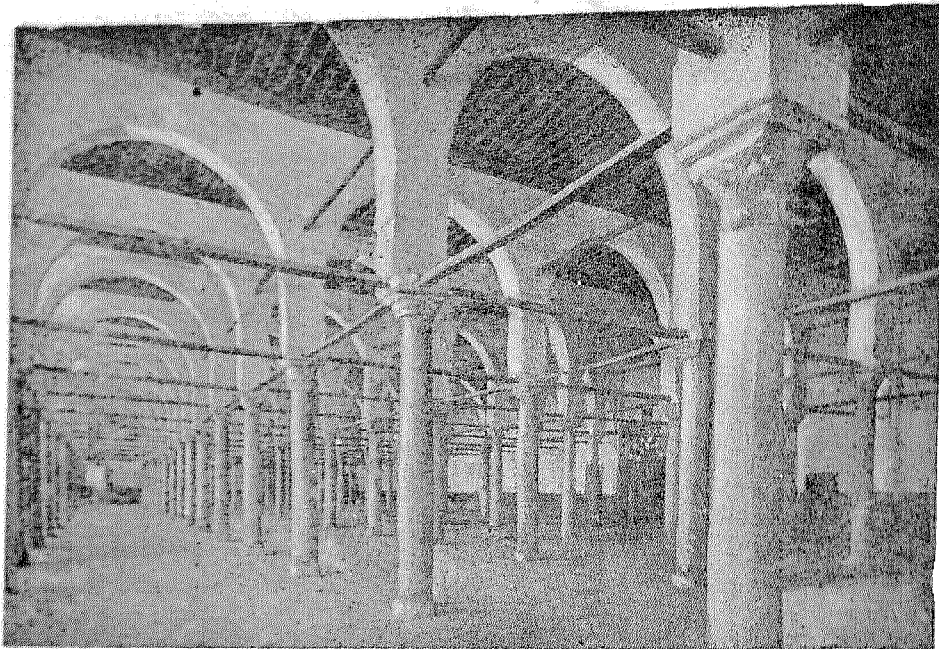
ص ٣٠٣ - ٣٠٩

: الأعلام والأماكن .

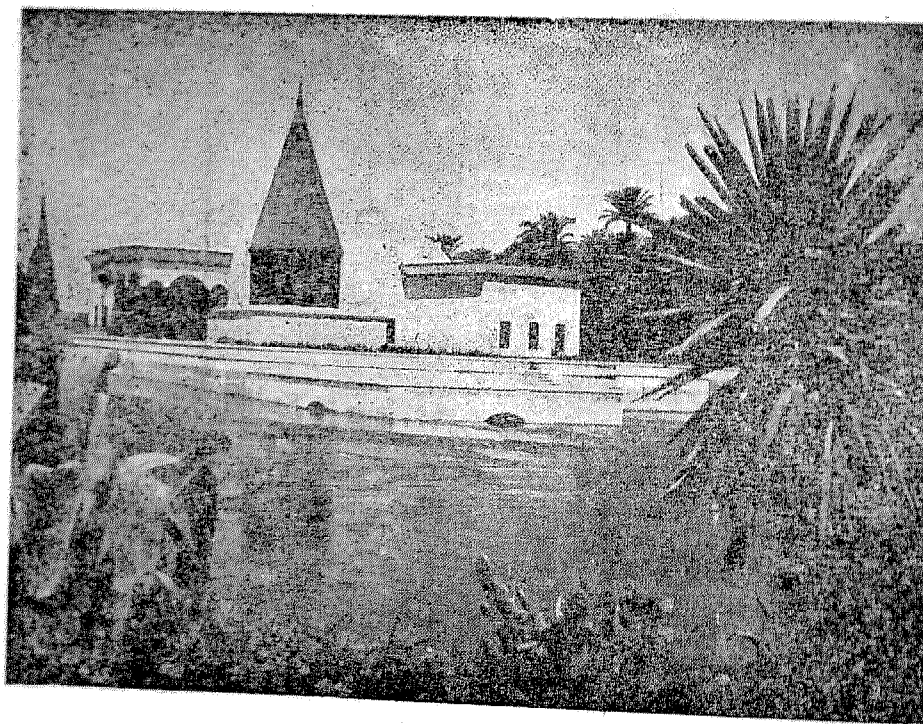
الكشاف

ص ٣١٠ - ٣١٢

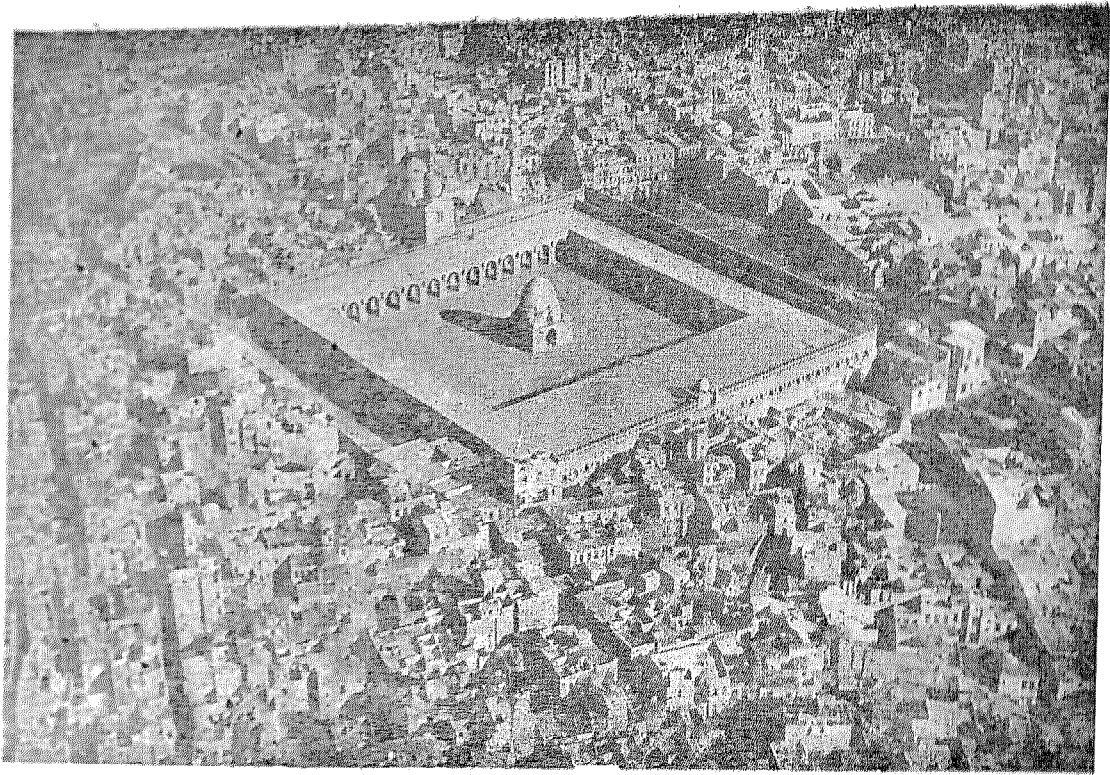
: المحتوى



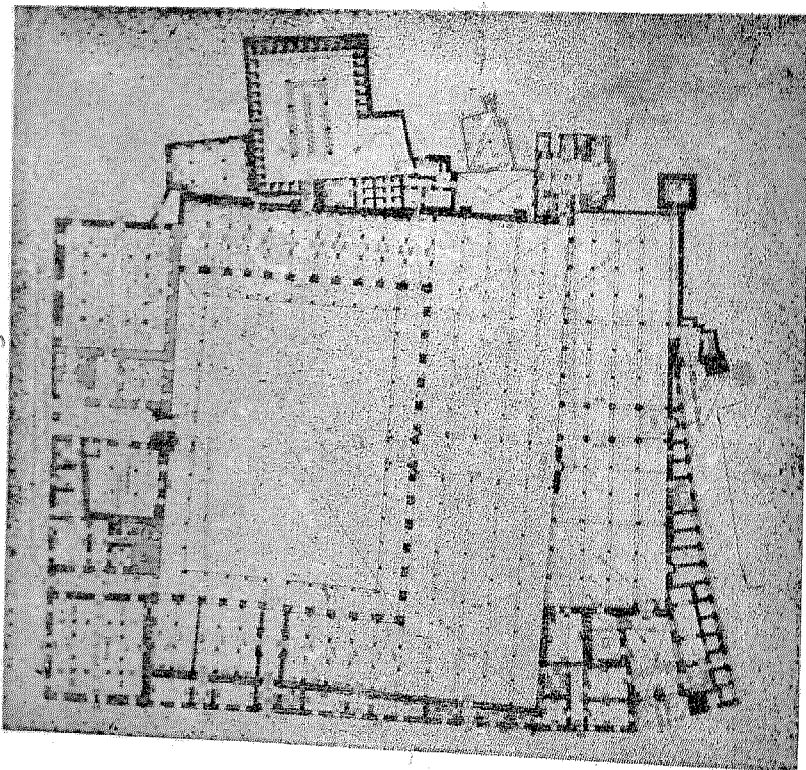
١ — الإيوان الشرقي في جامع عمرو بن العاص بمصر القديمة (٦٤١)



٢ — مقياس النيل بالروضة (١٨٦١م)



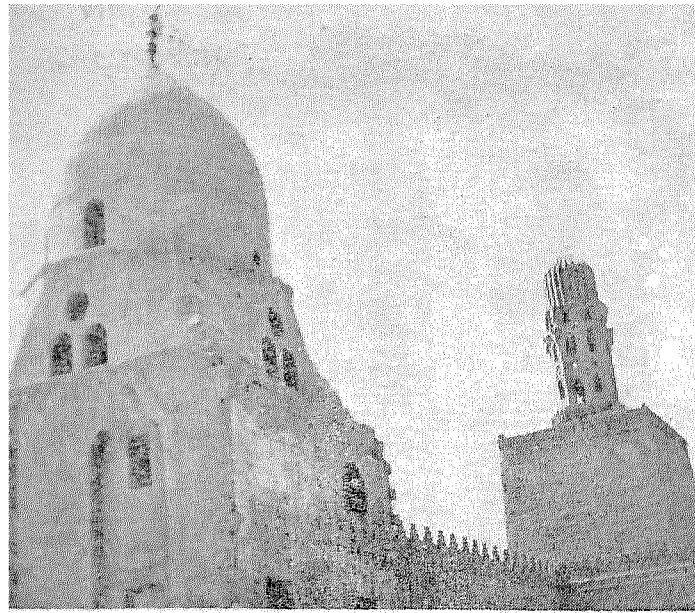
٣ - جامع ابن طولون (٨٧٦ - ٨٧٩)



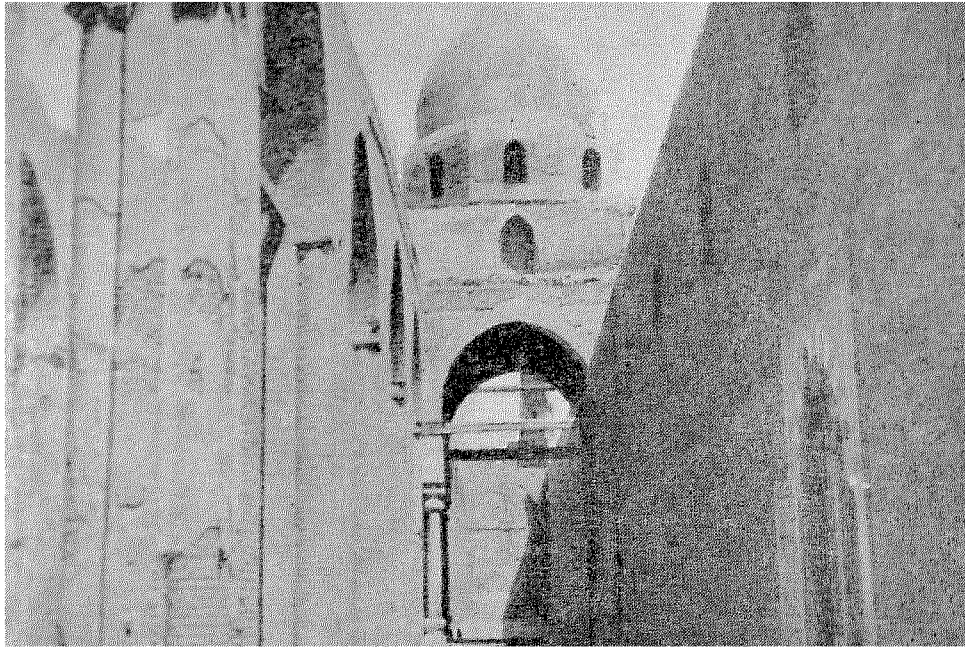
٤ - مسقط أفقي للجامع الأزهر (٩٧٠ - ٩٧٢)



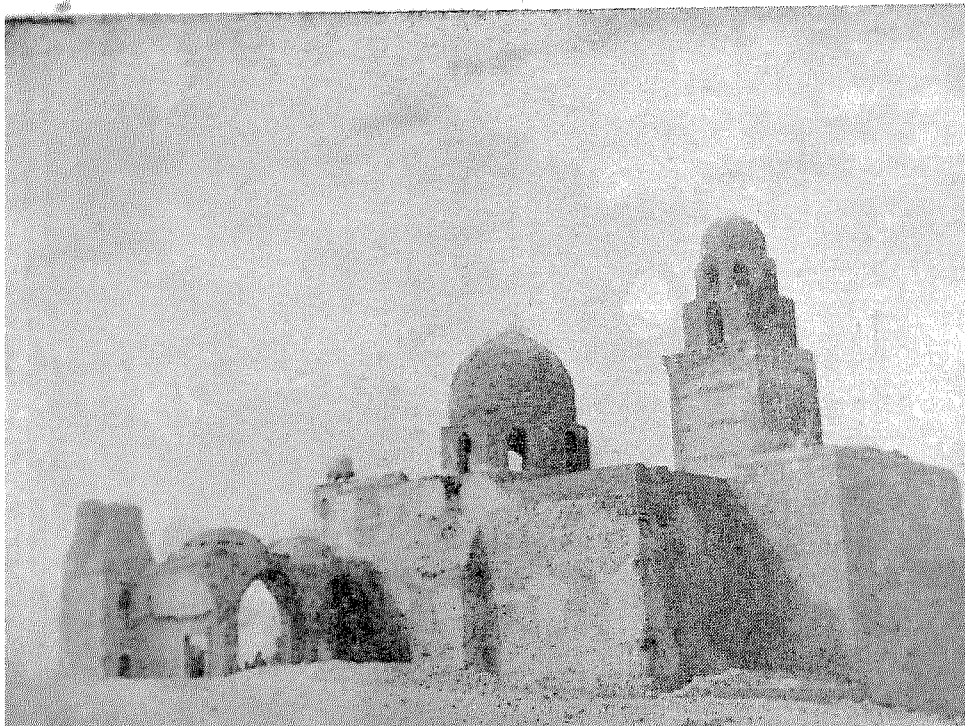
٥ - مئذنة وقبة بالجامع الأزهر



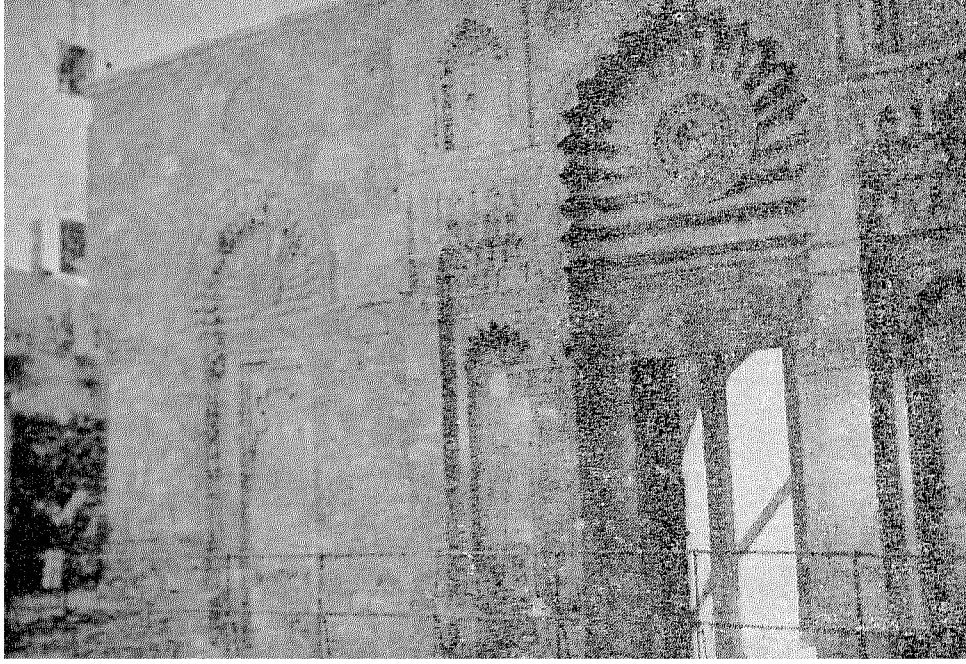
٦ - مئذنة وقبة بجامع الحاكم بأمر الله (٩٩٠ - ١٠١٣)



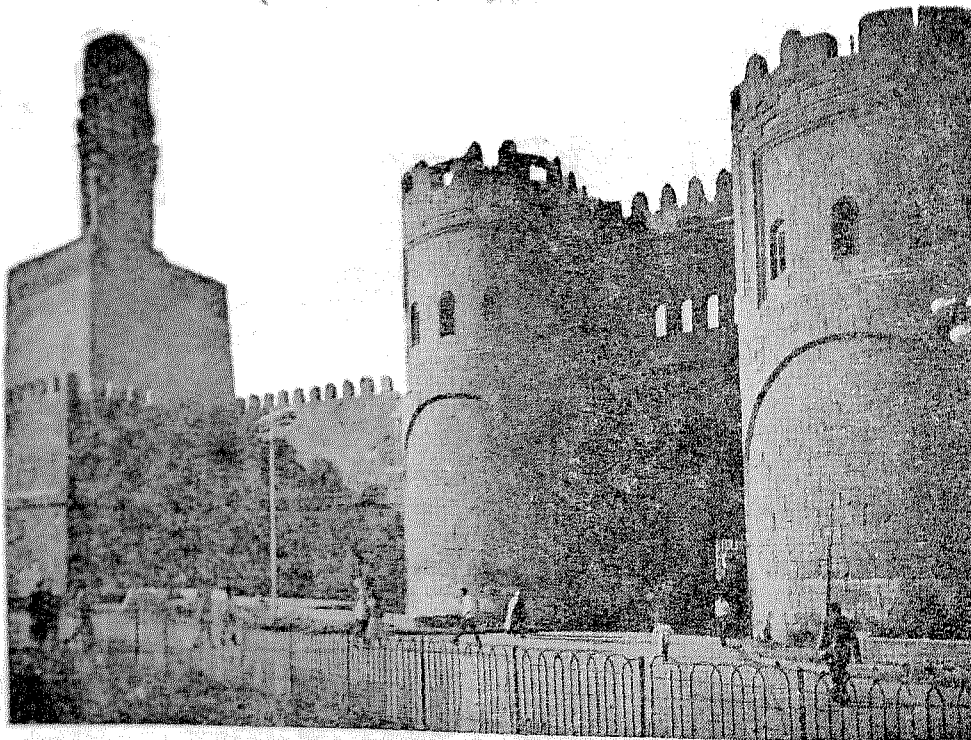
٧ -- جامع الحاكم بأمر الله (٩٩٠ - ١٠١٣)



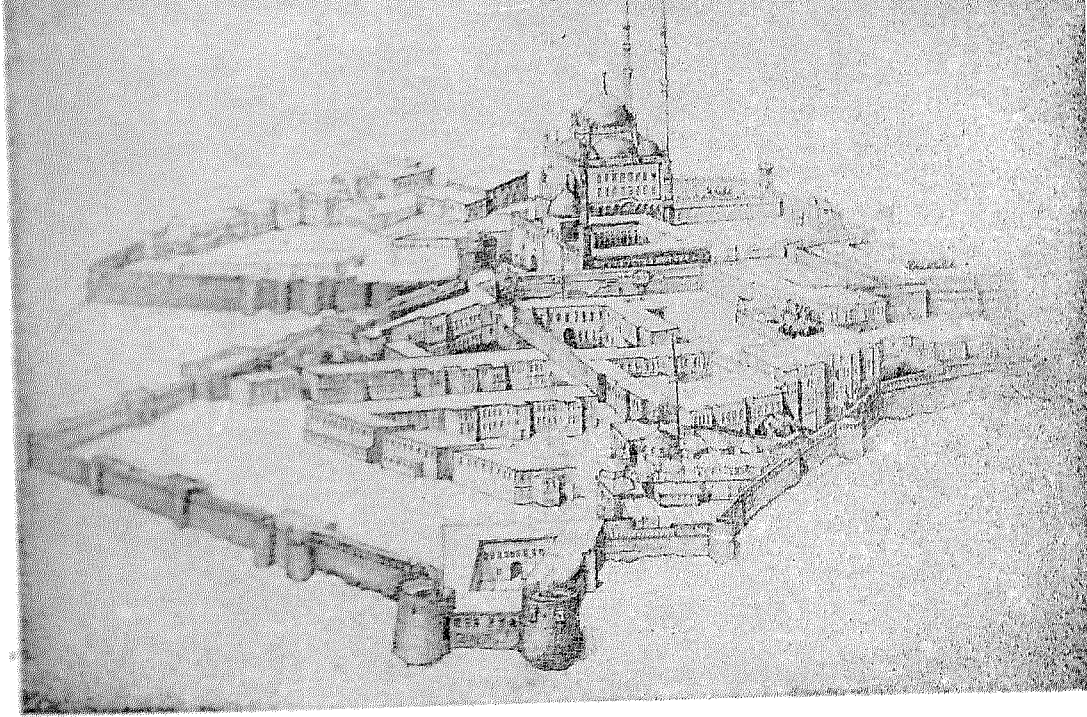
٨ - مسجد بدر إجمالى (الجيوثنى) باعلى جبل المقطم (٥٤٧٨ - ١٠٨٥م)



٩ — مسجد الأقرم بالنحاسين (٥١٩ — ١١٢٥)



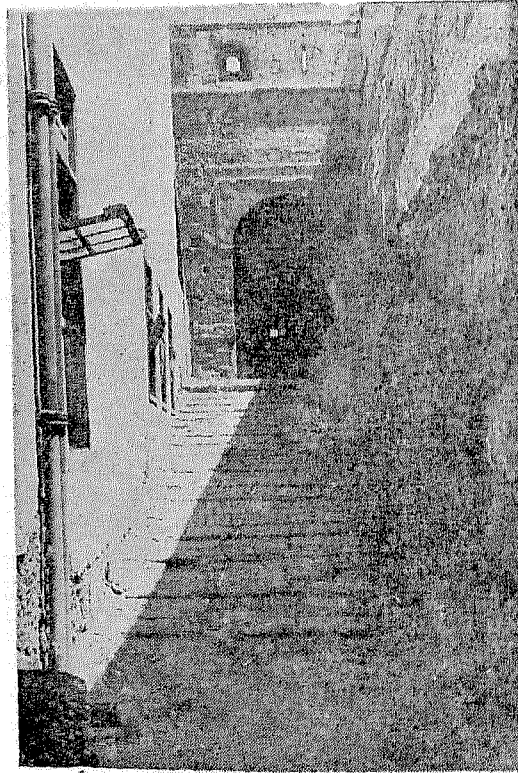
١٠ — باب الفتوح بسور القاهرة الشمالي (١٠٨٧)



١١ — مخطط يوضح التسمين الرئيسين لقلعة صلاح الدين
والمباني الأثرية المتناثرة فيها (١١٨٣ — ١١٨٤)



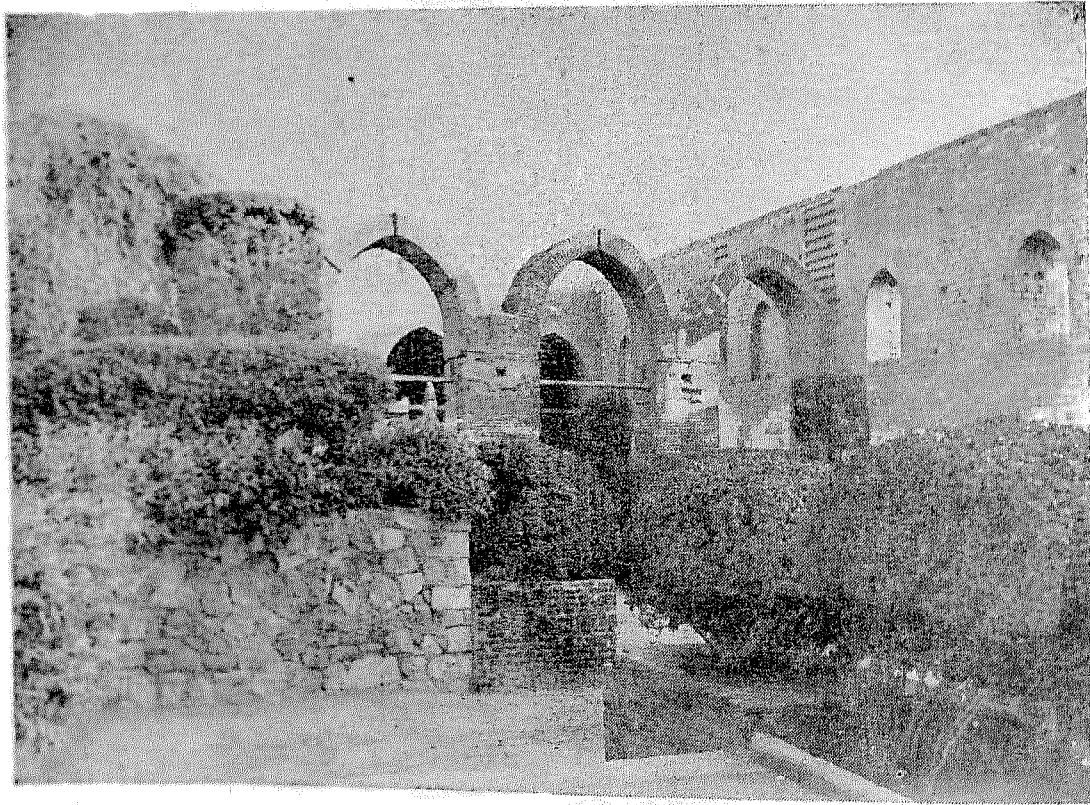
١٣ — مدرسة وضحى السلطان الصالح نجم الدين أيوب
بالتعاسين ٦٢٩ — ٦٤٨ هـ / ١٢٤١ — ١٢٥٠ م



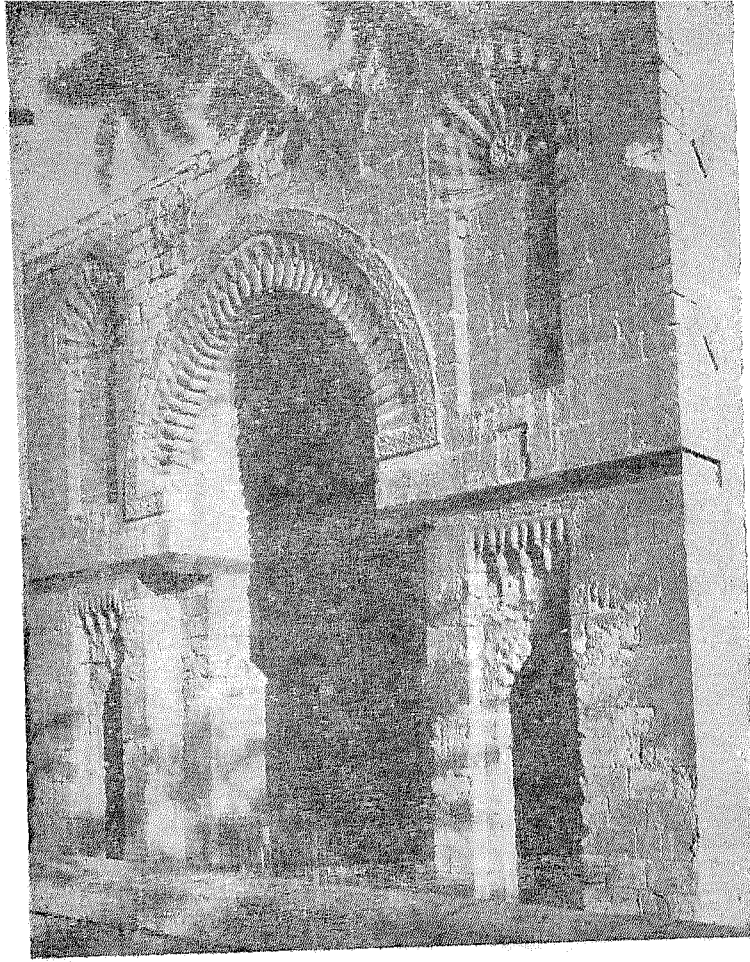
١٢ — الدرج المؤدى إلى باب المدرج القائم
خلف الباب الجديد بالقلعة (١١٨٣ — ١١٨٤)



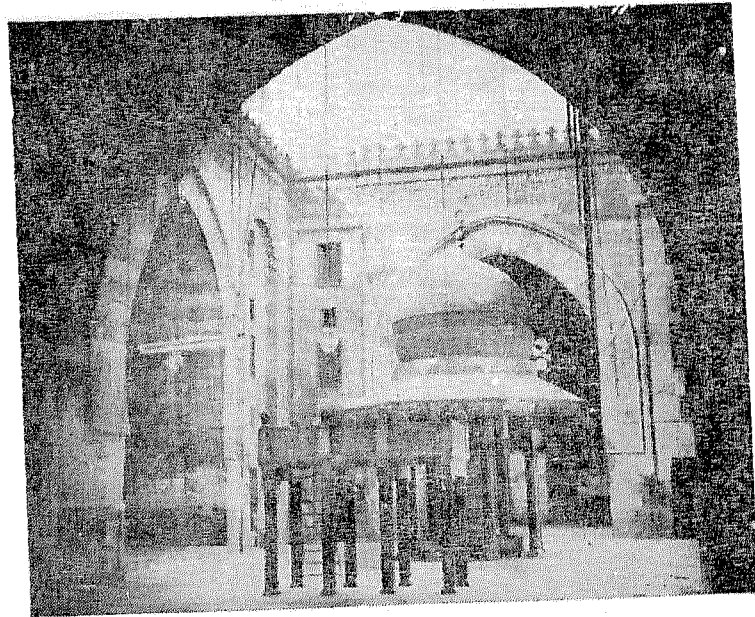
١٤ — كتابات منقوشة ومؤرخة تبين إنشاء وتجديد قلعة الجبل



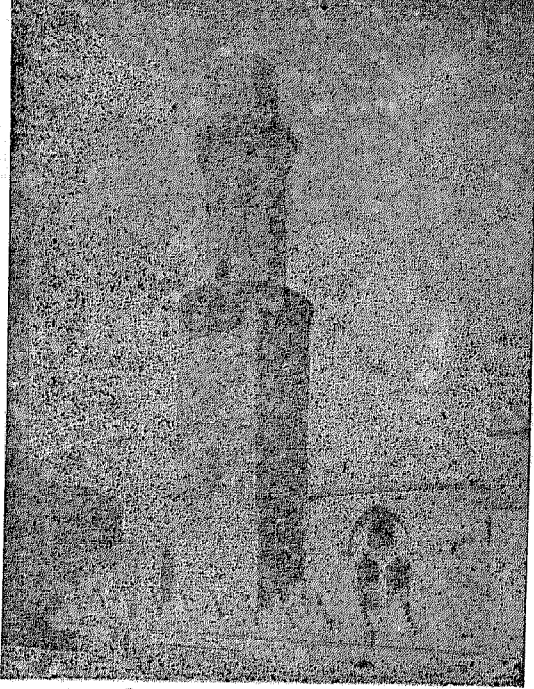
١٥ — مسجد السلطان الظاهر بيبرس بميدان الظاهر (١٢٦٦ — ١٢٦٩)



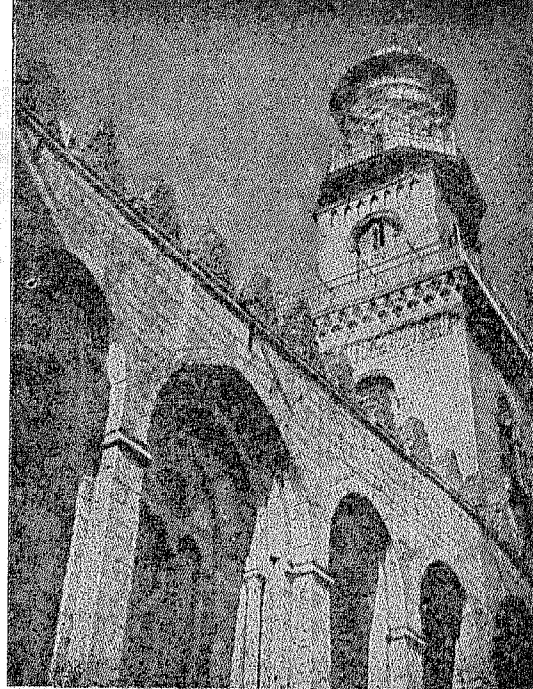
١٦ - الباب العربي لمسجد الظاهر ببيروت بميدان الظاهر (١٢٦٦ - ١٢٦٩)



١٧ - مدرسة السلطان المنصور قلاوون بالتحسين (١٢٨٣ - ١٢٨٤)



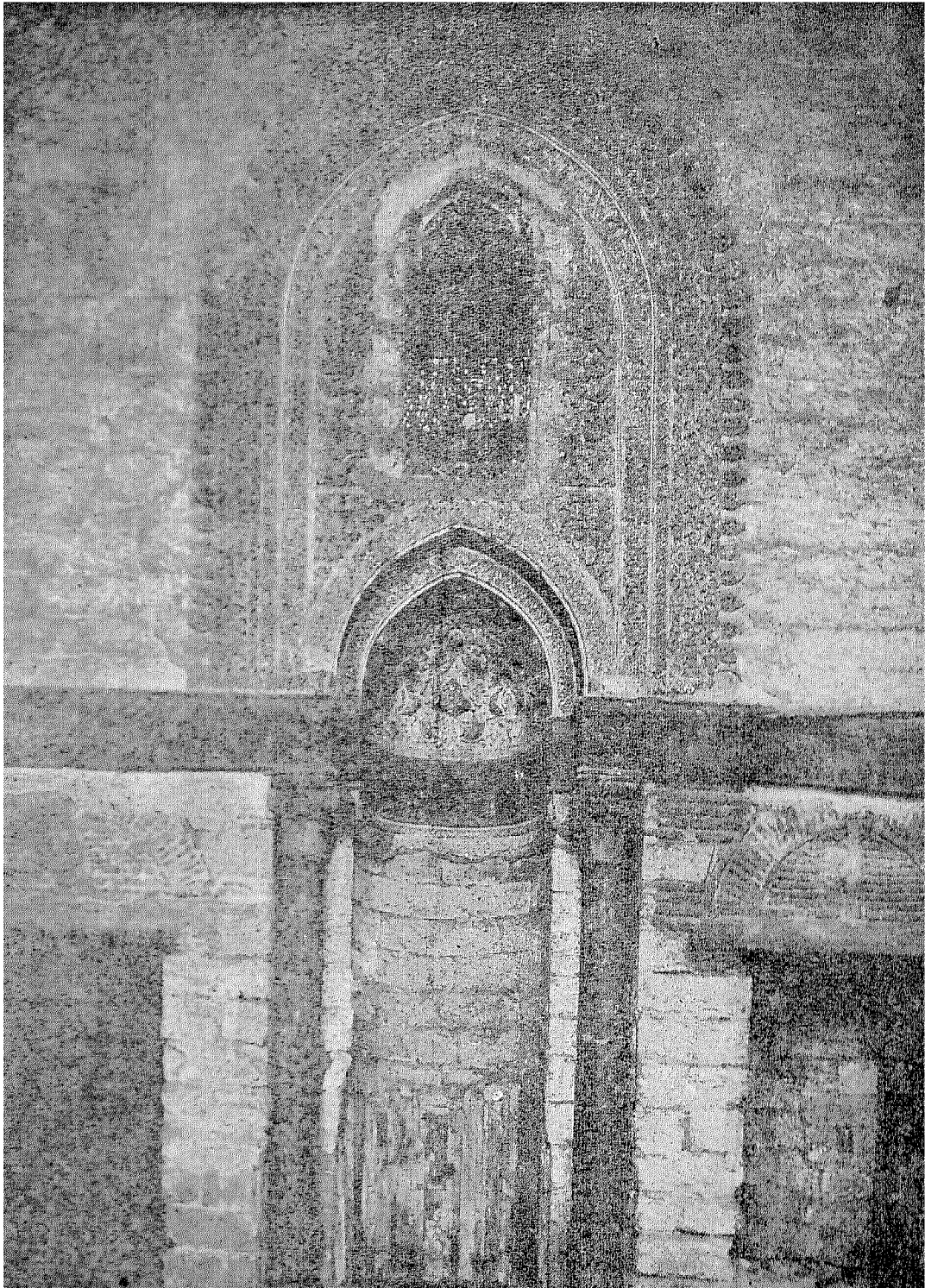
١٩ — مئذنة مسجد الناصر محمد بن قلاوون
بالتحاسين (١٢٩٥ — ١٣٠٤)



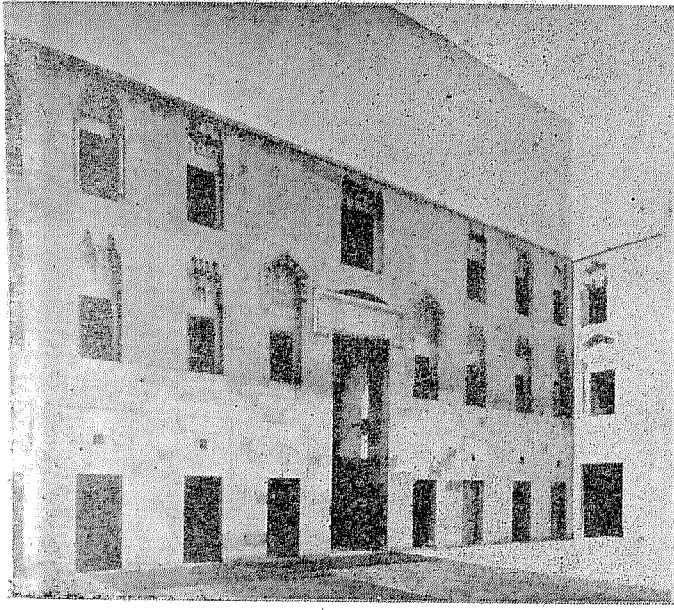
١٨ — مسجد و ضريح السلطان قلاوون
بالتحاسين (١٢٩٥ — ١٣٠٤)



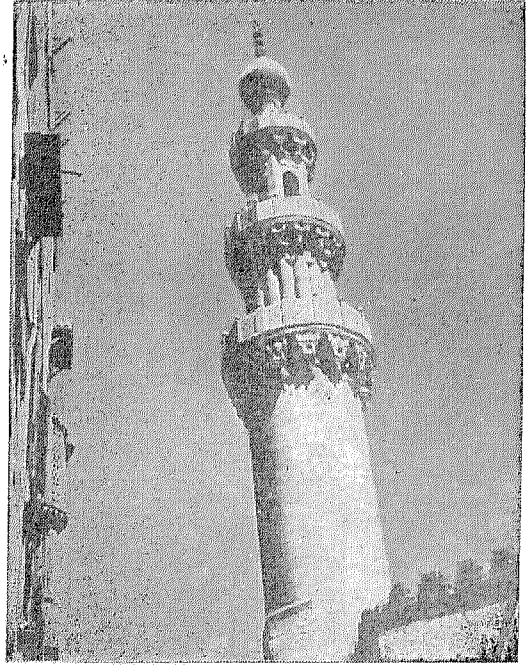
٢٠ — واجهة مسجد الناصر محمد بن قلاوون بالتحاسين (١٢٩٥ — ١٣٠٤)



٢١ — محراب مسجد الناصر محمد بن قلاوون بالنحاسين (١٢٩٥ — ١٣٠٤)



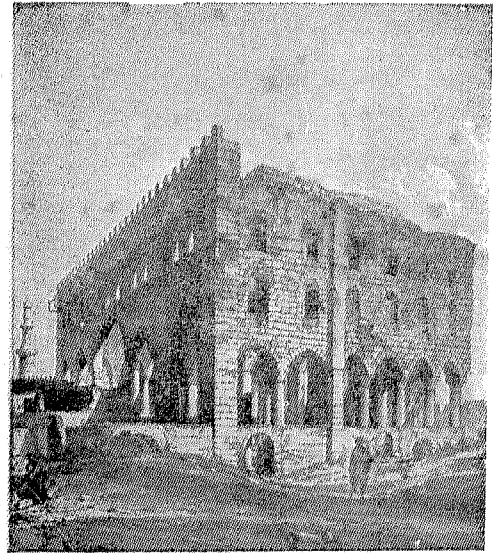
٢٣ — خانقاه و ضريح السلطان بيبرس الجاشنكير
(١٣٠٦ — ١٣٠٩)



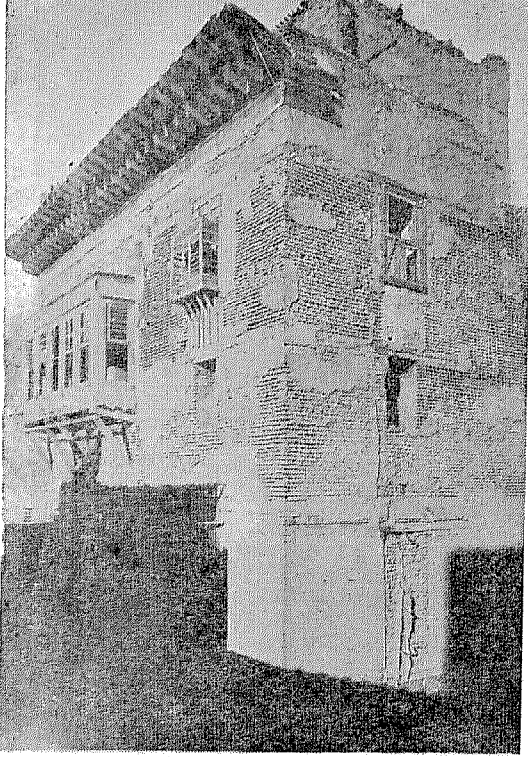
٢٢ — مئذنة آق سنقر (الجامع الأزرق)
(١٣٠٠ — ١٣٠١)



٢٤ — بقايا إيوان الناصر محمد بن قلاوون
بالقائمة (١٣١٤)



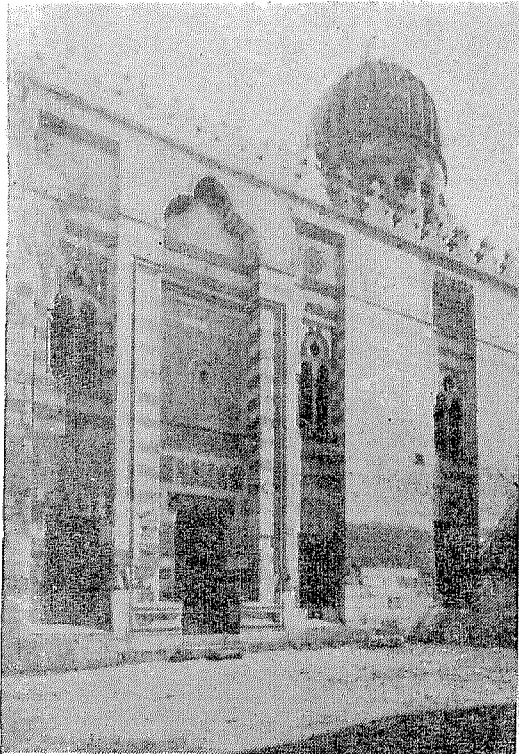
٢٥ — مئذنة و ضريح و مدرسة الأمير سيف
السعدي (حسن صدقته) بالصليبية (١٣١٥)



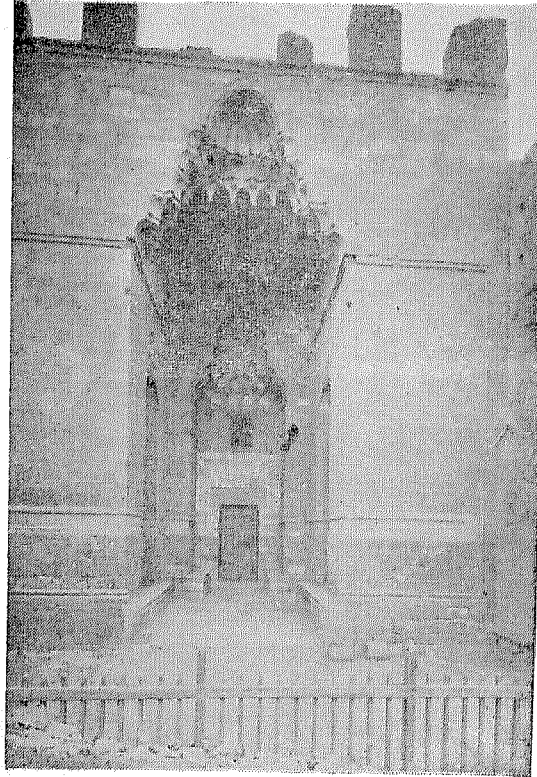
٢٧ - قصر بشتاك بالنحاسين حوالى (١٣٢٤ - ١٣٣٩)



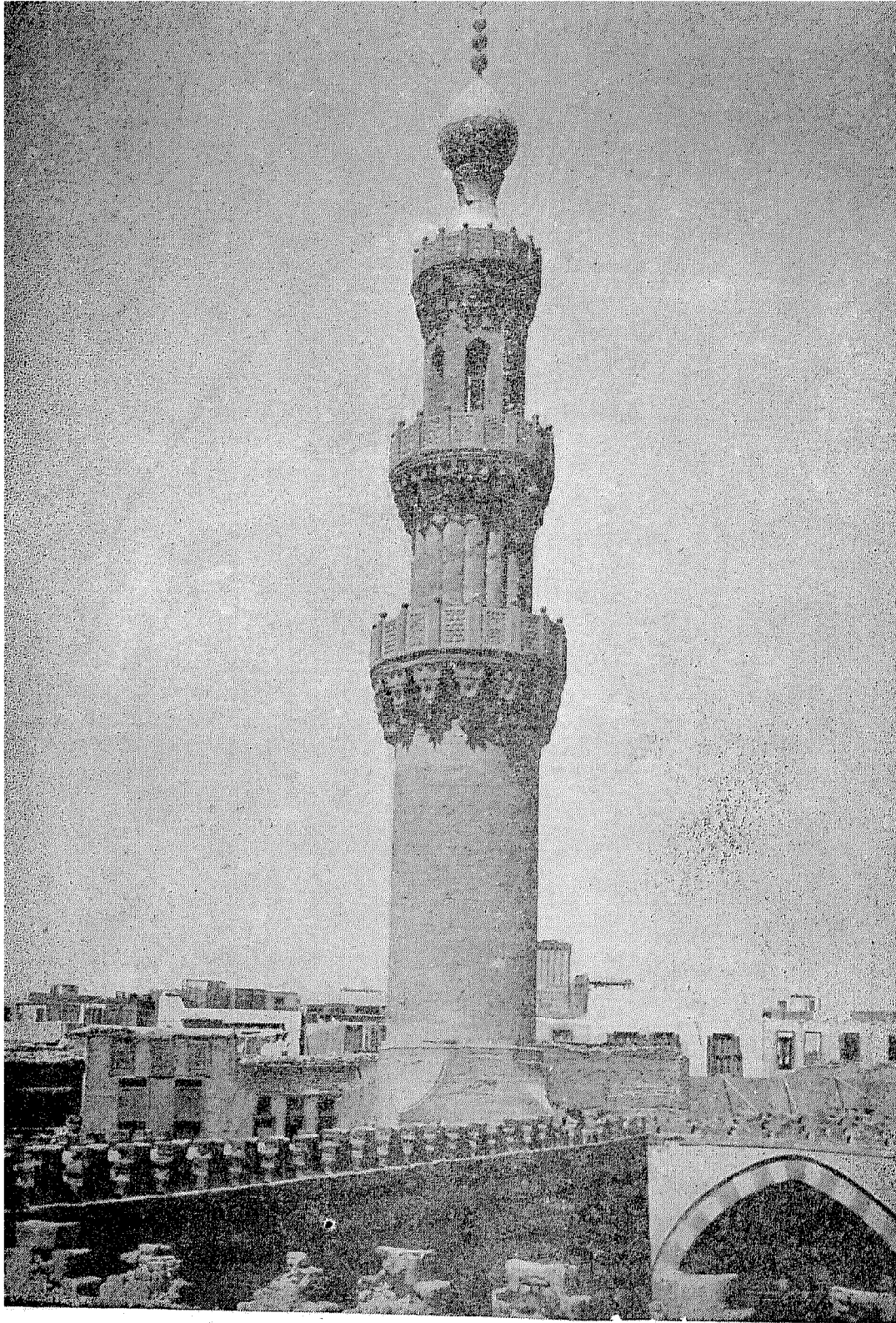
٢٦ - مسجد الأمير الملك الجوقندار (١٣١٩)



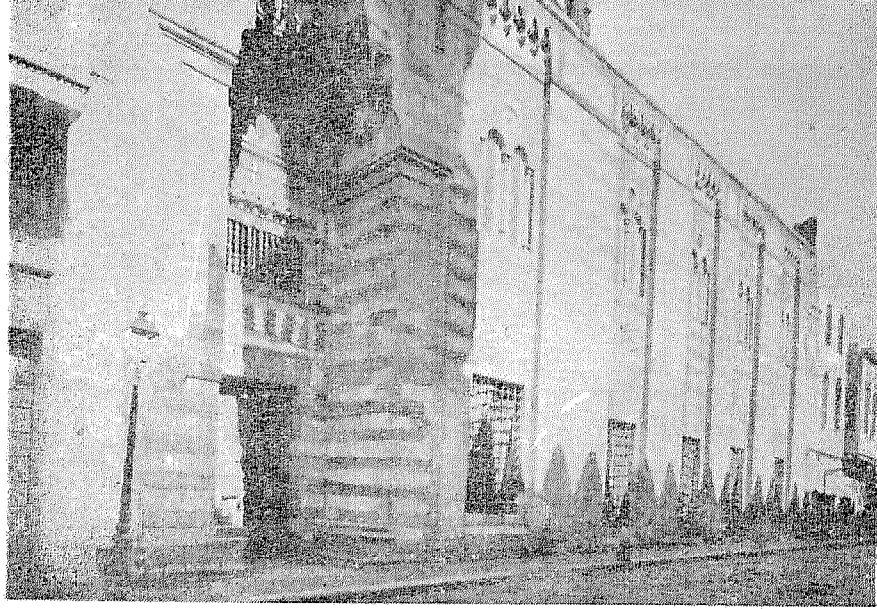
٢٩ - مسجد الامير أصلم البهائى (١٣٤٥)



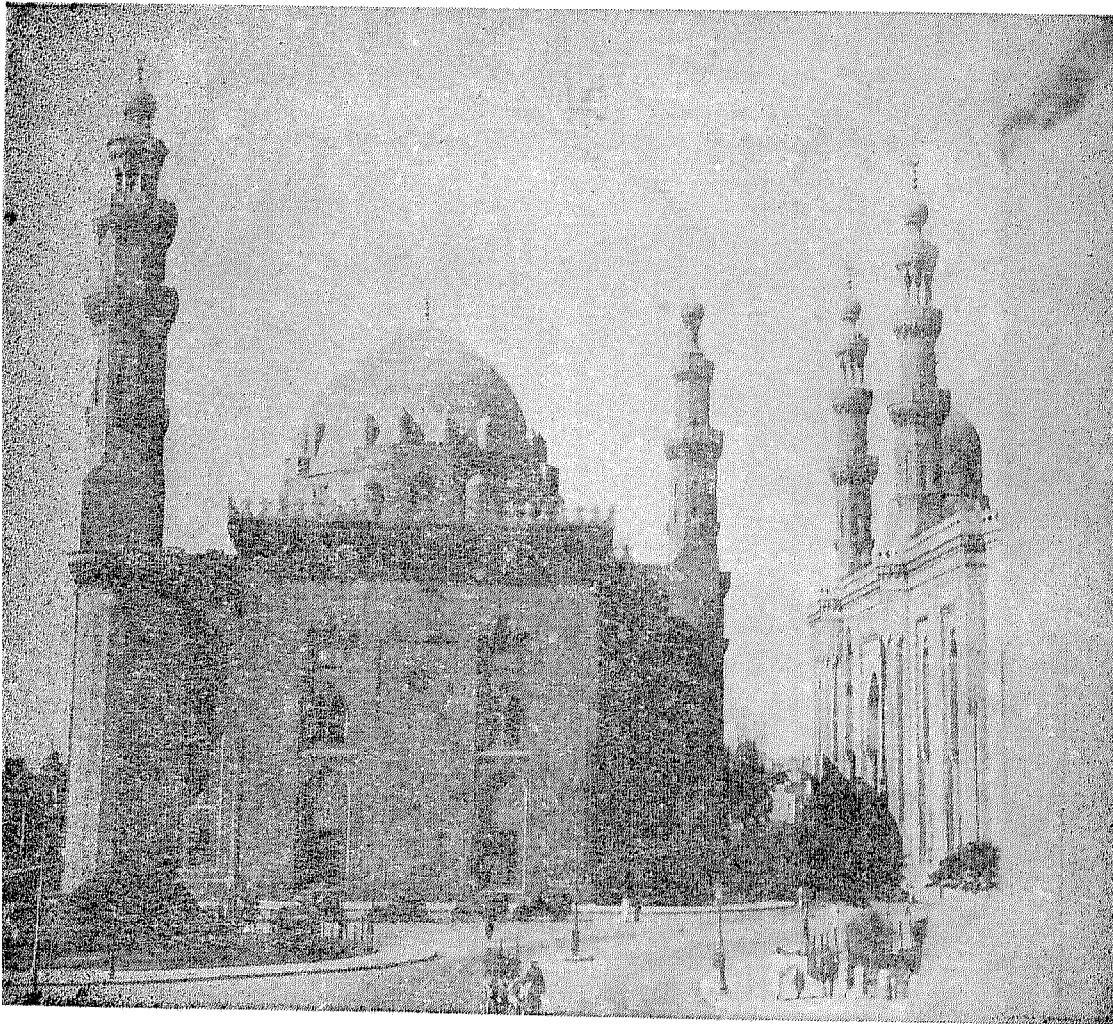
٢٨ - مدخل قصر يشبك بن المهدي قوصون (حوالى ١٣٢٧)



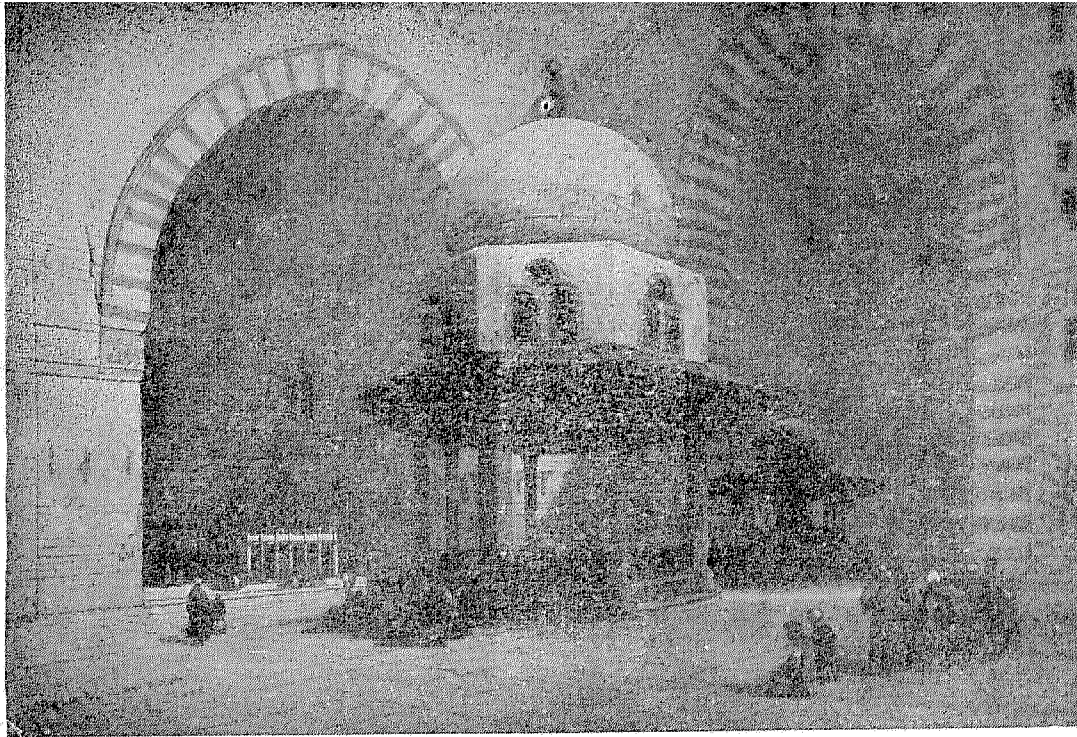
٣٠ — منارة ومئذنة مسجد إبراهيم أغا مستحفظان بالتبانة (١٣٤٦ — ٤٧)



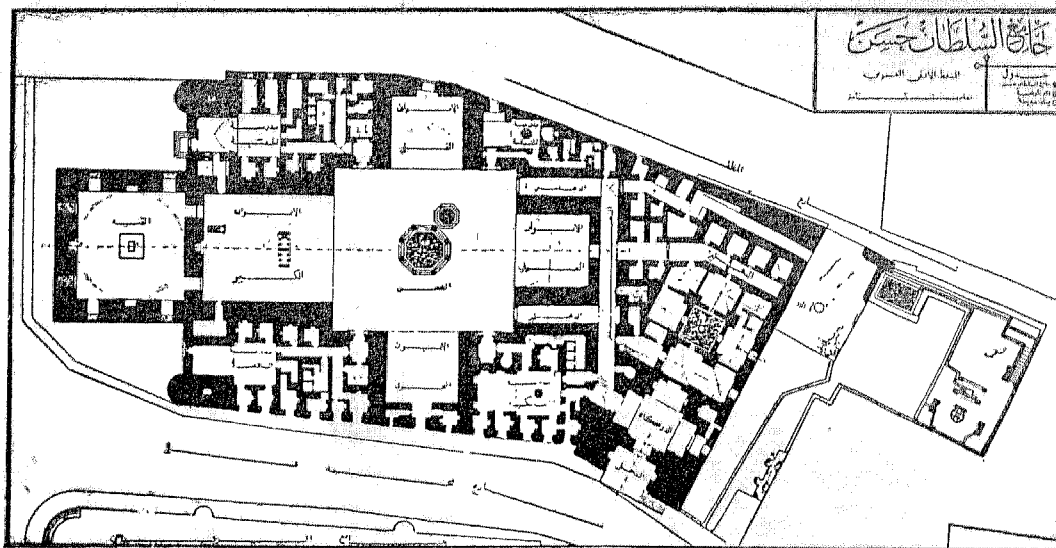
٣١ — مسجد الأمير شيخو بالصليمة (١٣٤٩ — ١٣٥٥)



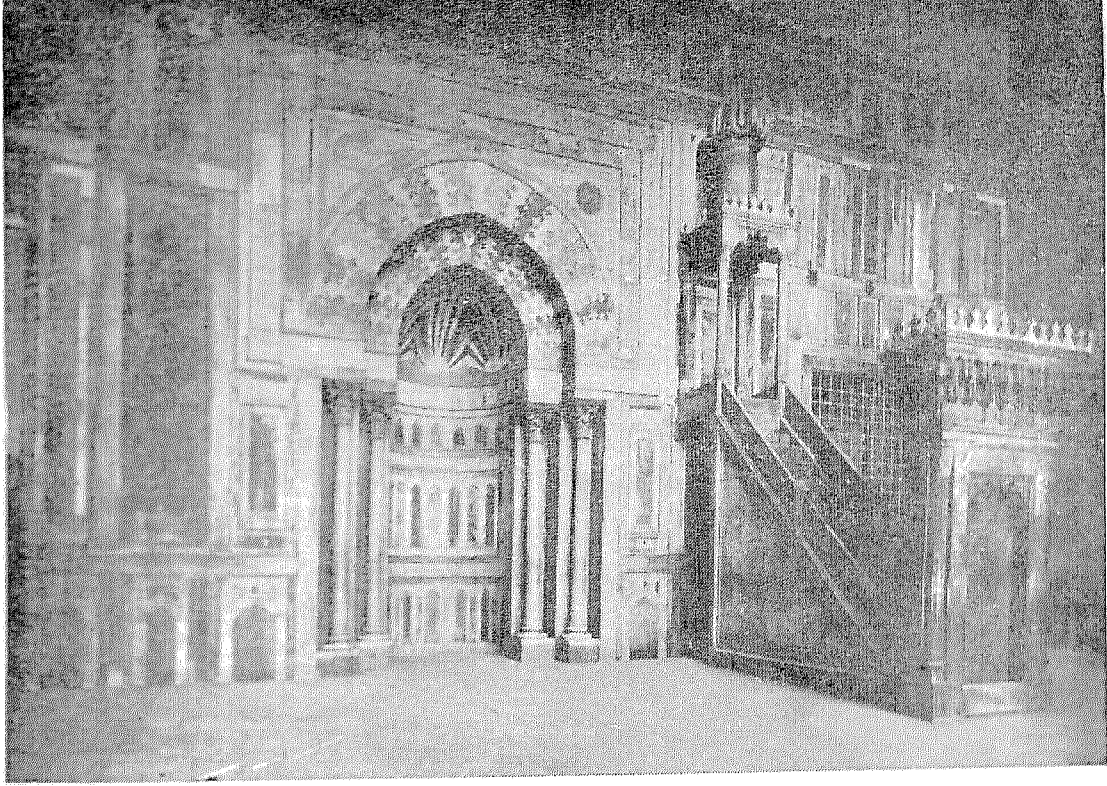
٣٢ — مدرسة ومسجد السلطان حسن الواجبة للقلمة (١٣٥٦ — ١٣٦٢)



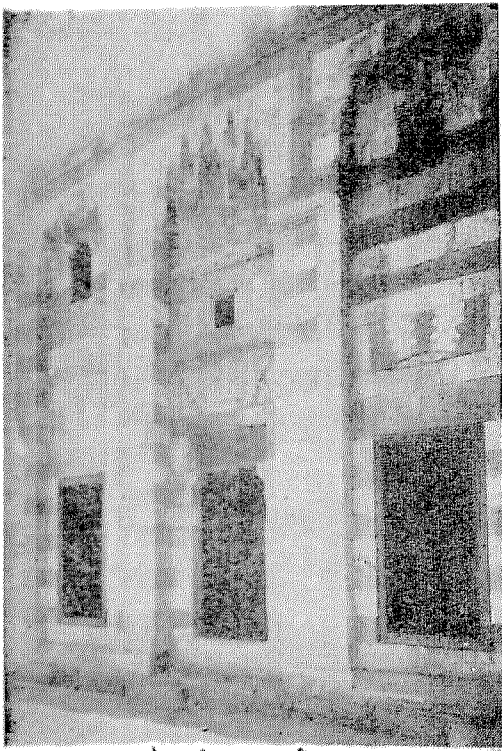
٣٣ - صحن مدرسة / مسجد السلطان حسن (١٢٥٦ - ١٢٦٢)



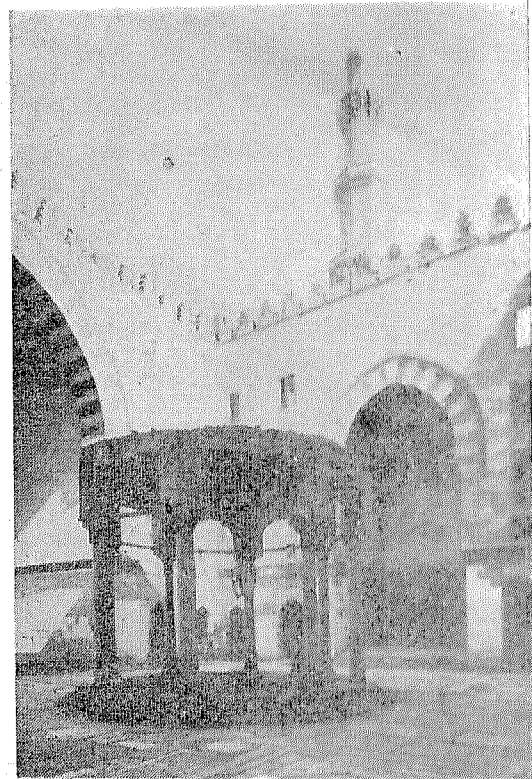
٣٤ - مسقط أفق لمسجد السلطان حسن



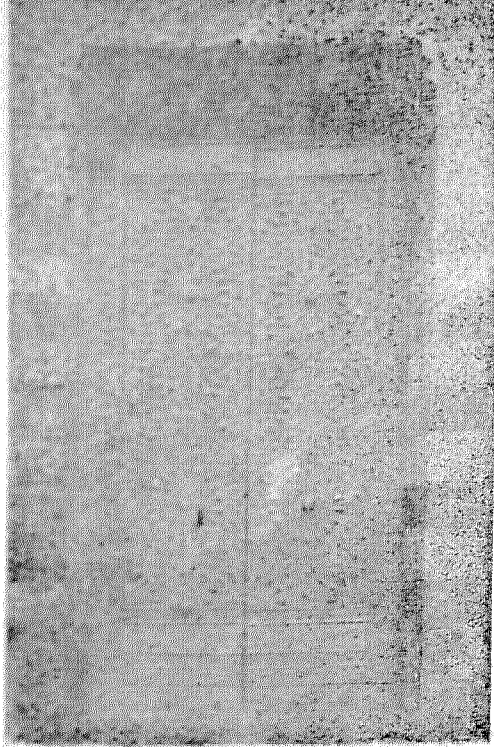
٣٥ - الإيوان الشرقي المشتمل على منبر ومحراب مدرسة السلطان حسن



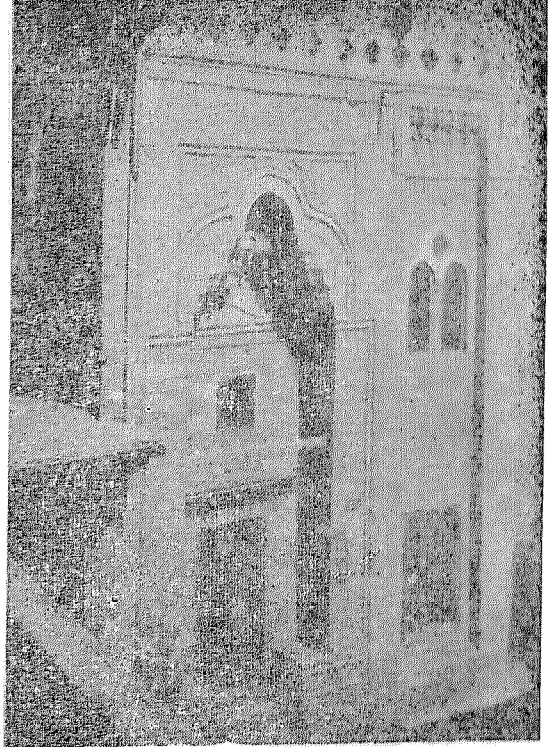
٣٧ - مدرسة الأمير بشير أغا الجدار (١٣٦٠)



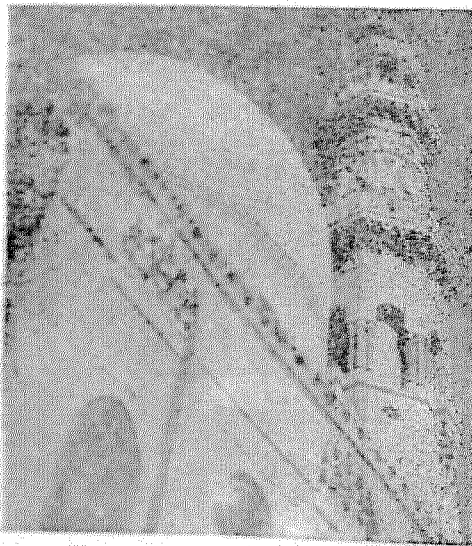
٣٦ - مدرسة وضريح الأمير صرغتمش
بشارع مراسينا (١٣٥٦)



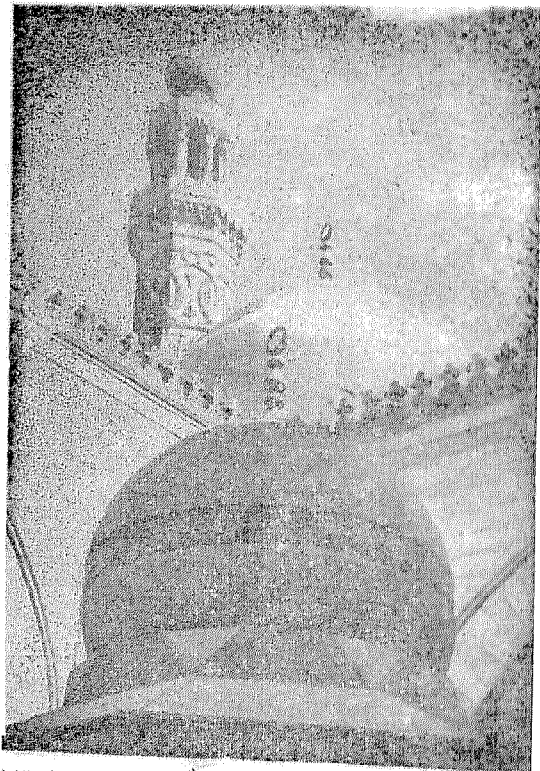
٣٩ - باب مدرسة السلطان إبراهيم باشا
(١٣٨٤ - ١٣٨٦)



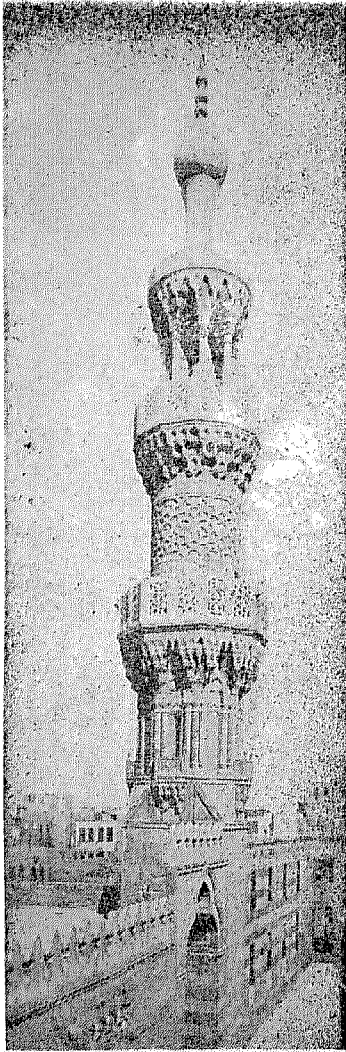
٣٨ - مدرسة وضريح الأمير أيوبش البيجاني
(١٣٨٣)



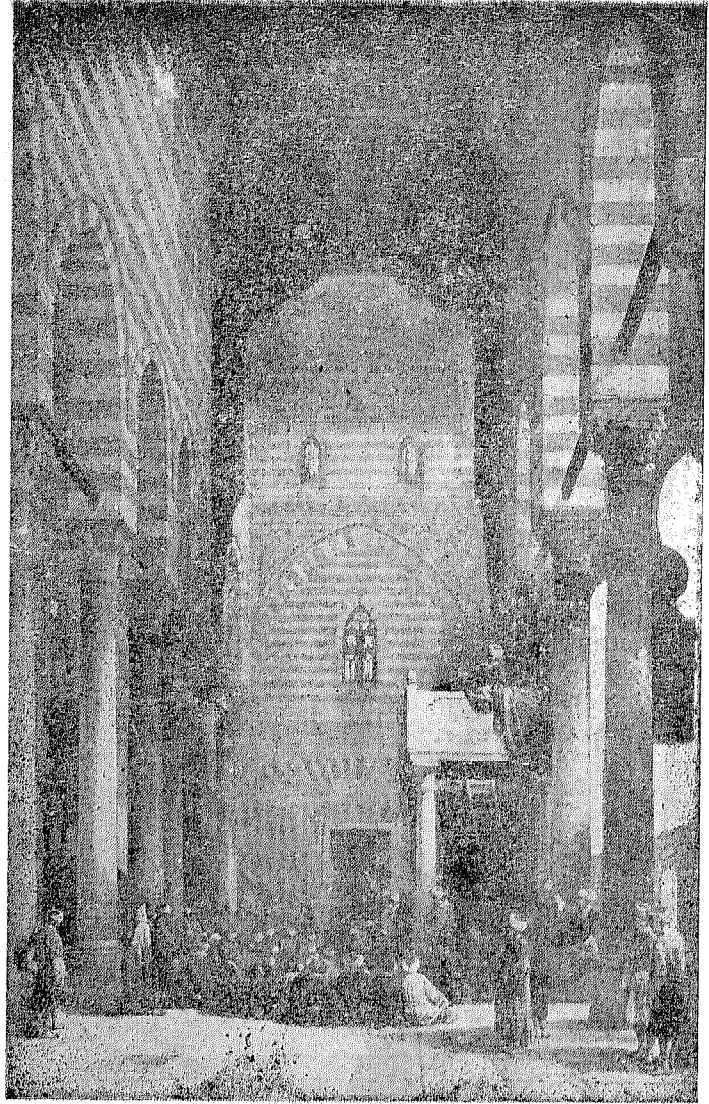
٤١ - مسجد السلطان برفوق من الخارج



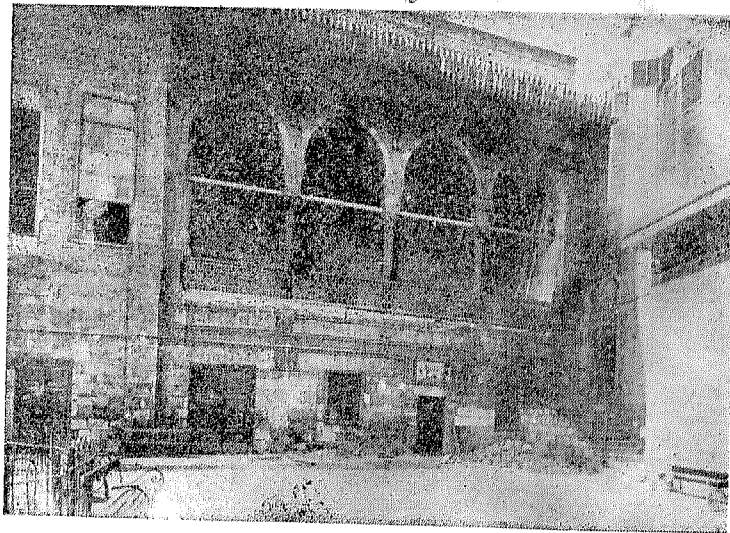
٤٠ - مسجد السلطان برفوق (١٣٨٤ - ١٣٨٦)



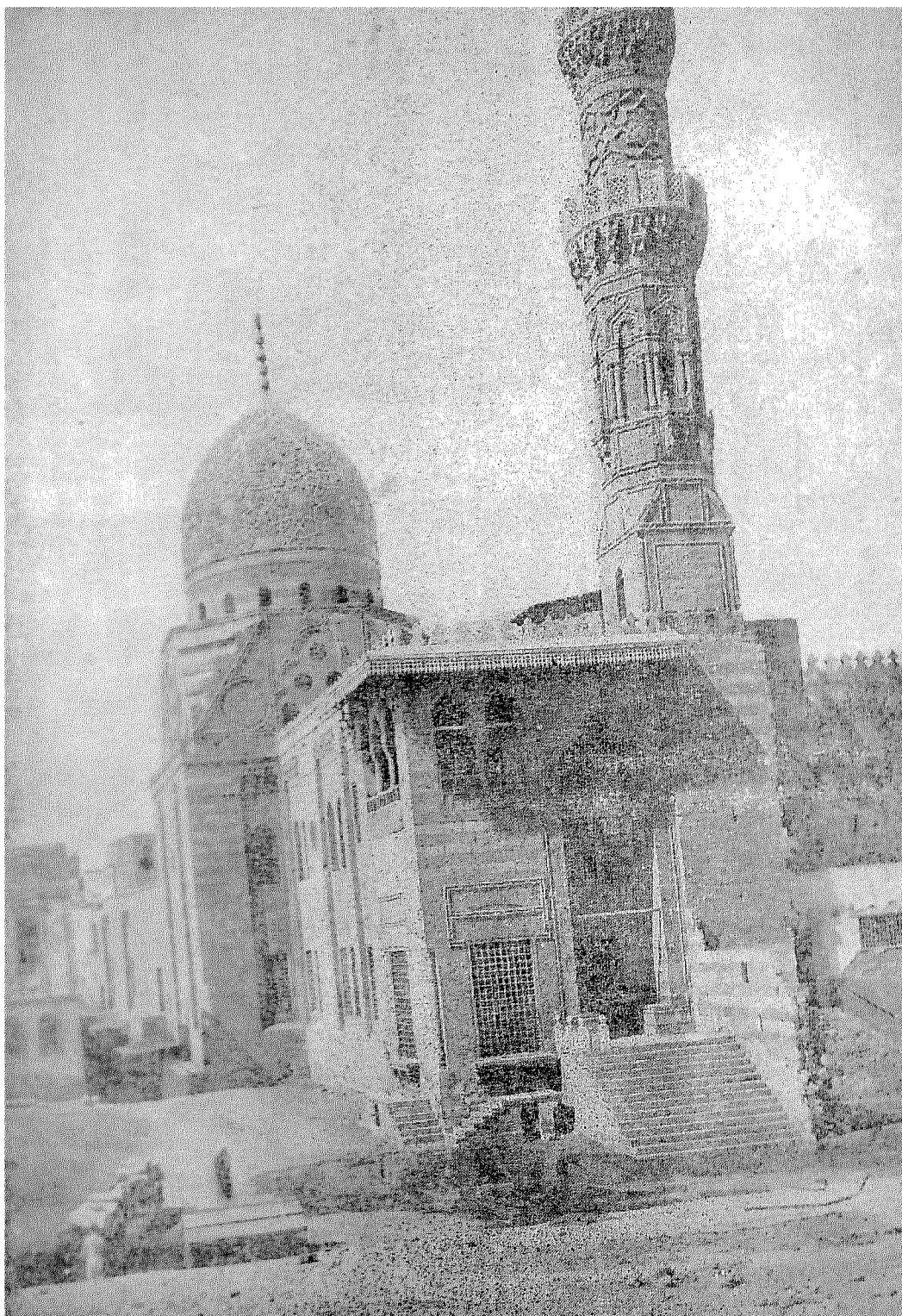
٤٥ — مئذنة أبو بكر مزدهر
بجارية يرجوان (١٤٧٩ — ١٤٨٠)



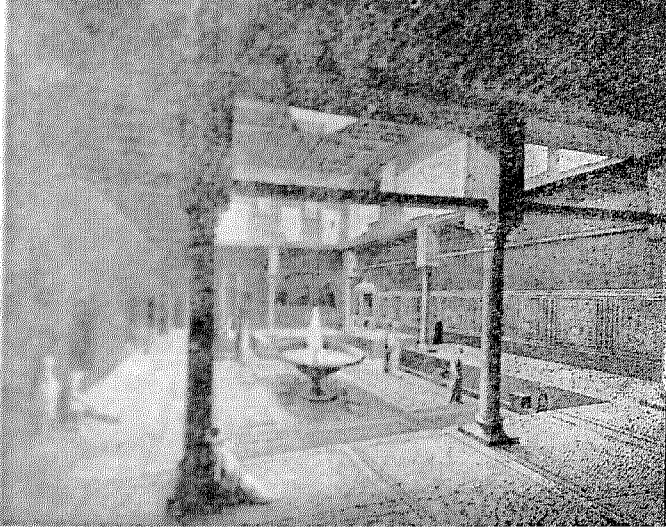
٤٢ — مسجد المؤيد المجاور لباب زويلة (١٤١٥ — ١٤٢٠)



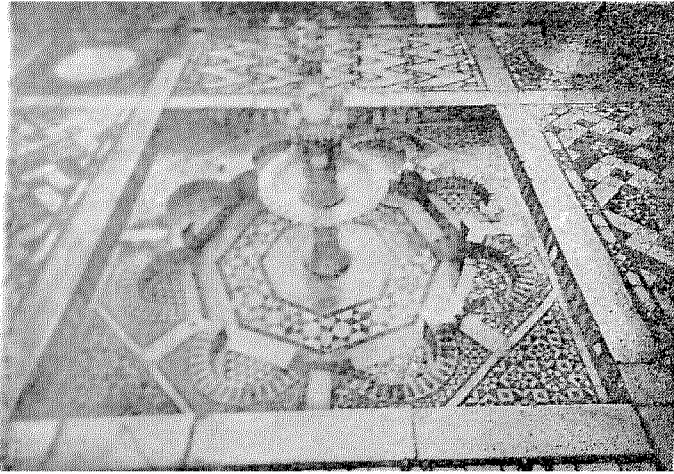
٤٣ — مقعد ماماي بالجالية (بيت القاضي) (١٤١٥ — ١٤٩٨)



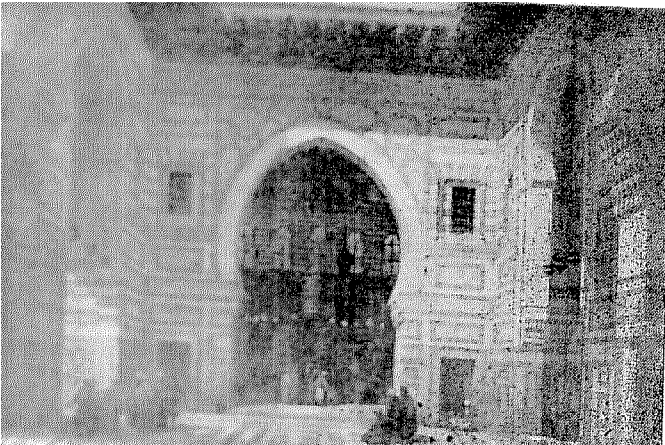
۴۴ — مسجد و ضريح السلطان قایتبای (۱۴۷۲ — ۱۴۷۴)



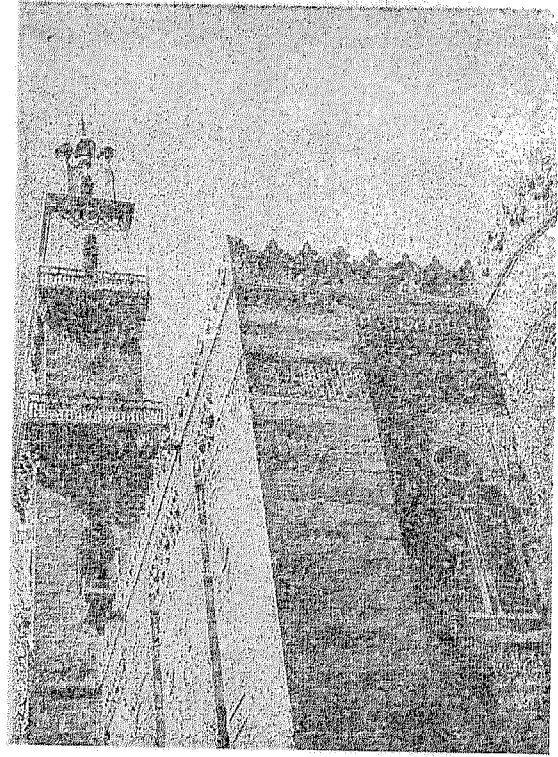
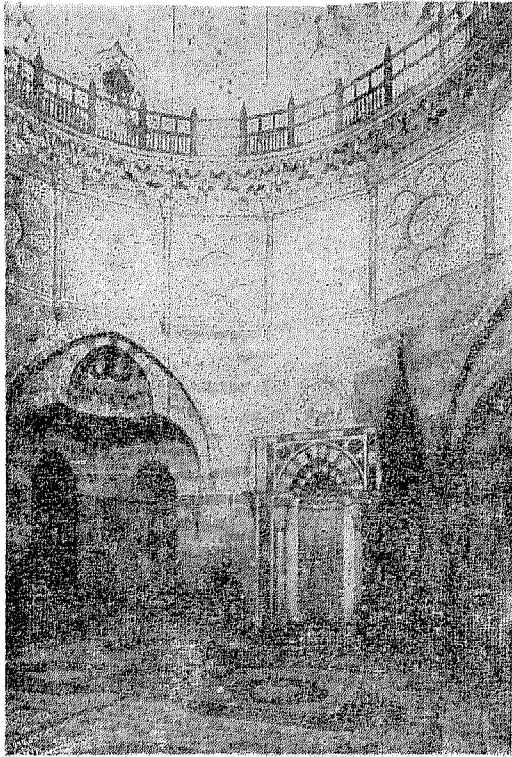
حمام قاهري في عصر المليك



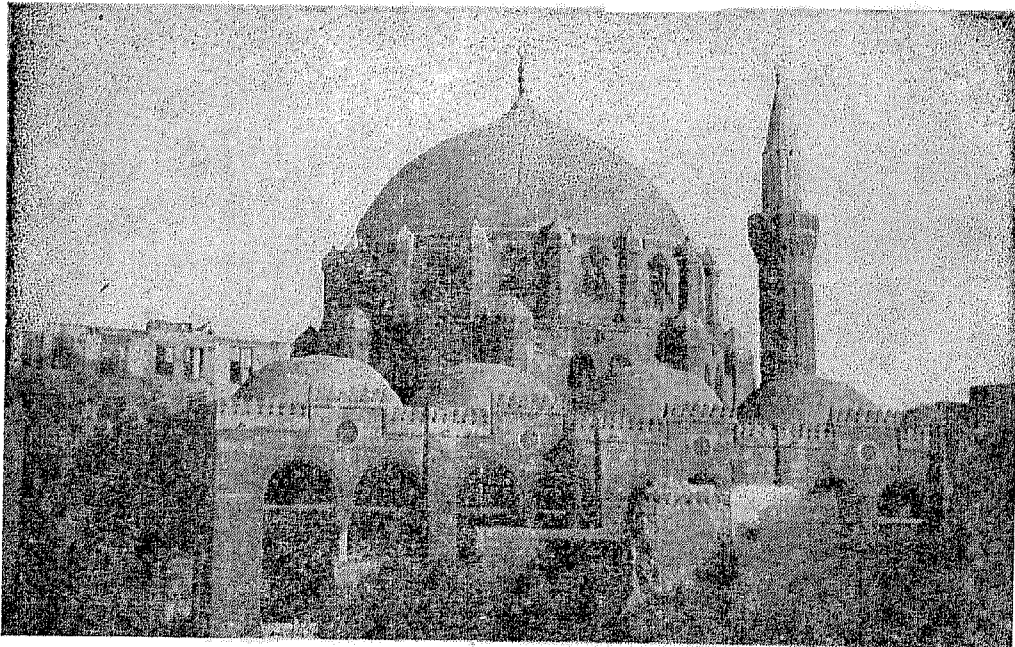
٤٧ - نافورة في أحد منازل
المليك وتوجد اليوم في متحف الفن الإسلامي



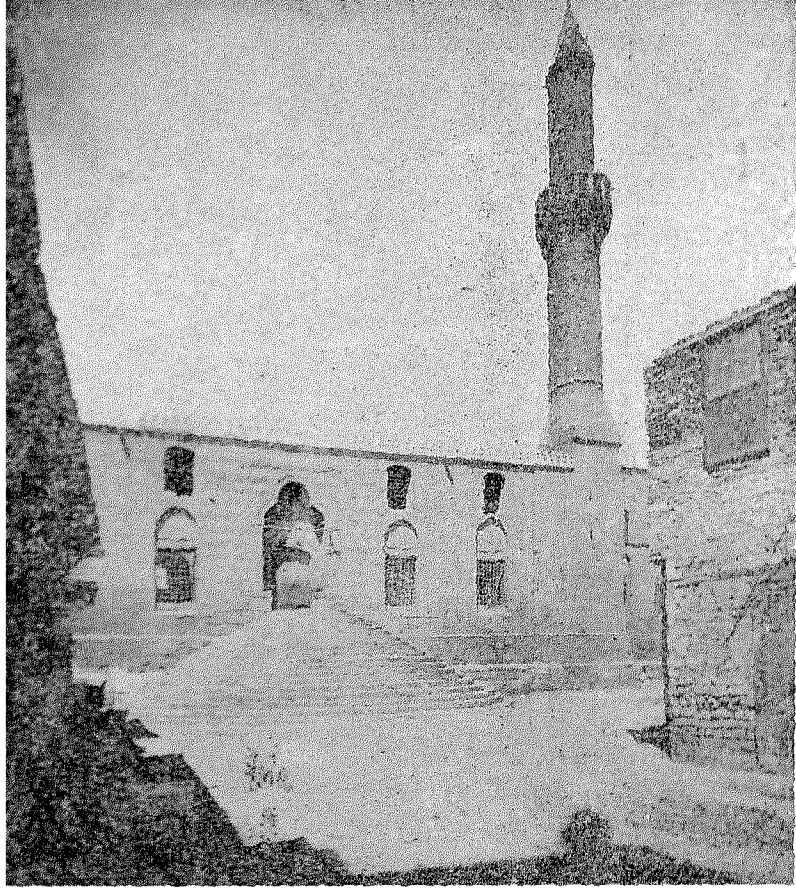
٤٨ - صحن مسجد النوري
بالنورية (١٥٠٤) للرسم روبرتس



٤٩ — مدرسة السلطان الغوري بالغورية (١٥٠٤-١٥٠٥) ٥١ — مسجد سنان باشا بيولاق من الداخل (١٥٧١)



٥٠ — مسجد سنان باشا بيولاق من الخارج (١٥٧١)



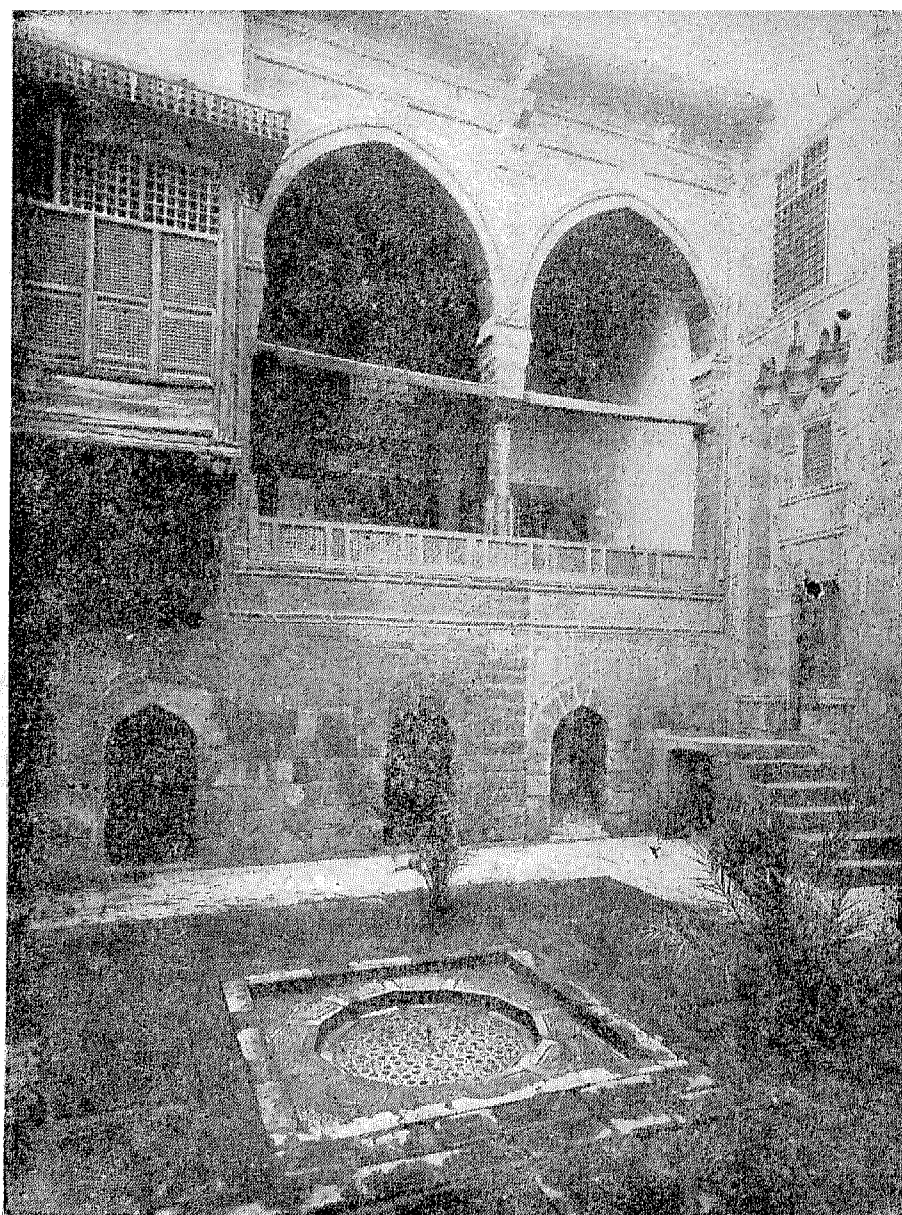
٥٢ - مسجد السيدة صفيية بالداودية (١٦١٠)



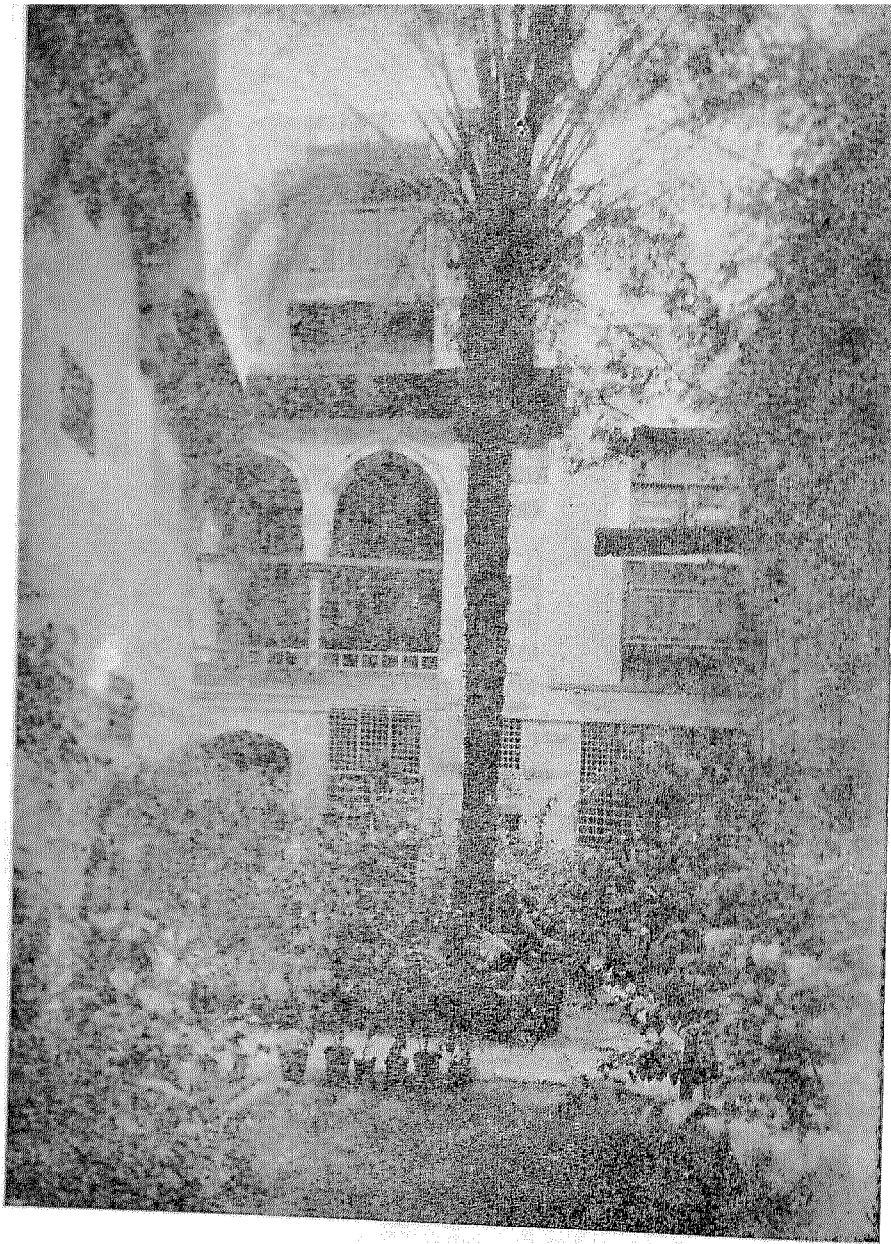
٥٣ - دار الجزائر المعروف بمنزل السكرتيرة الملاصق لمسجد أحمد بن طولون (١٦٣٢)



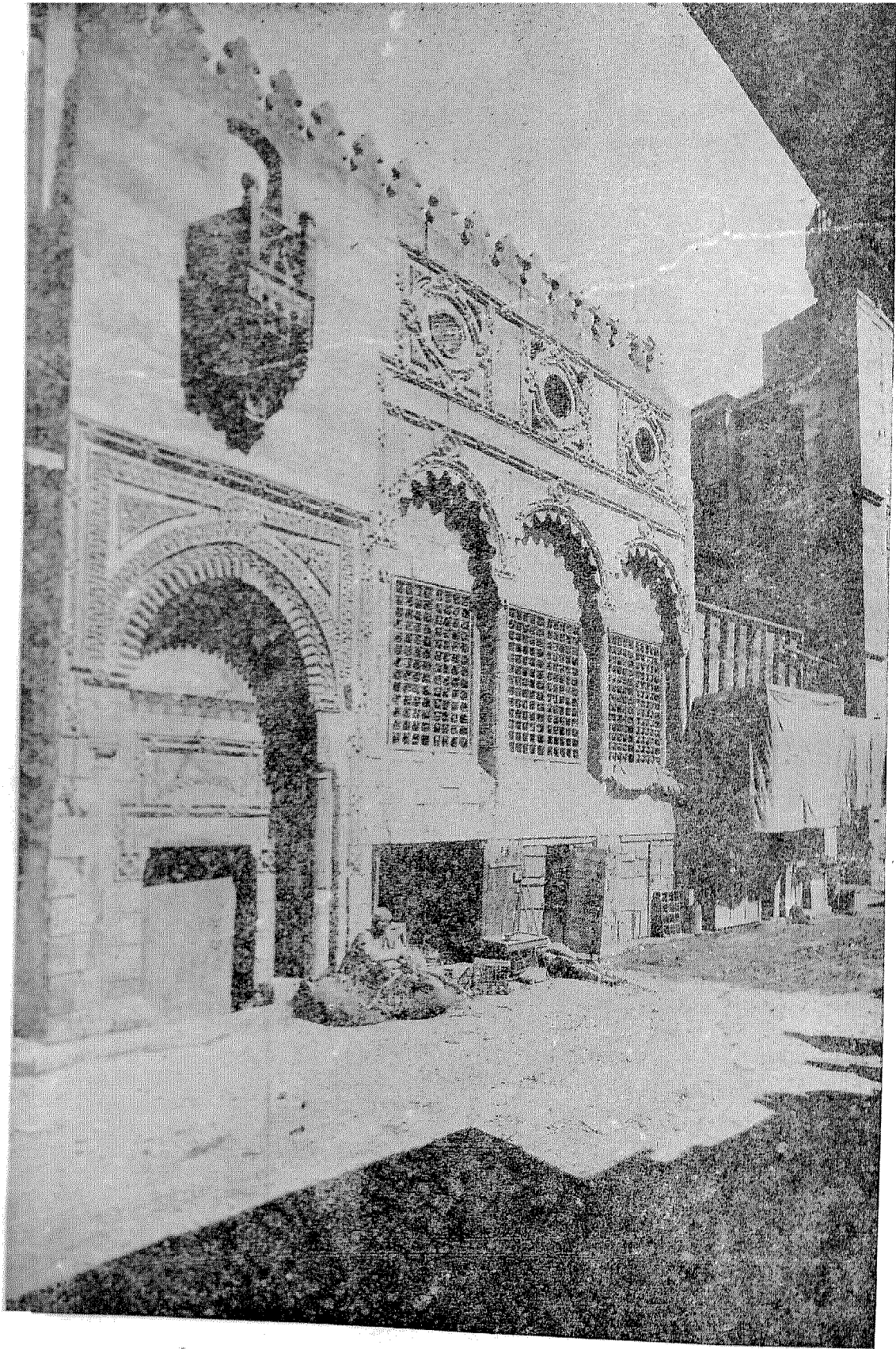
٥٤ - منزله السكرية من الداخل (١٦٣٢)



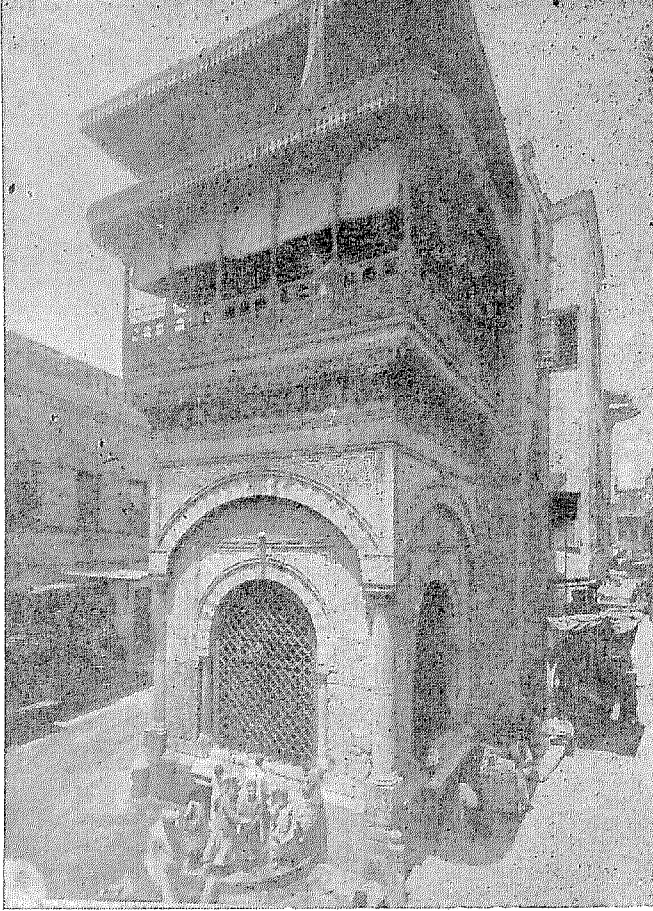
٥٥ — منزل جمال الدين الذهبي (١٦٣٧)



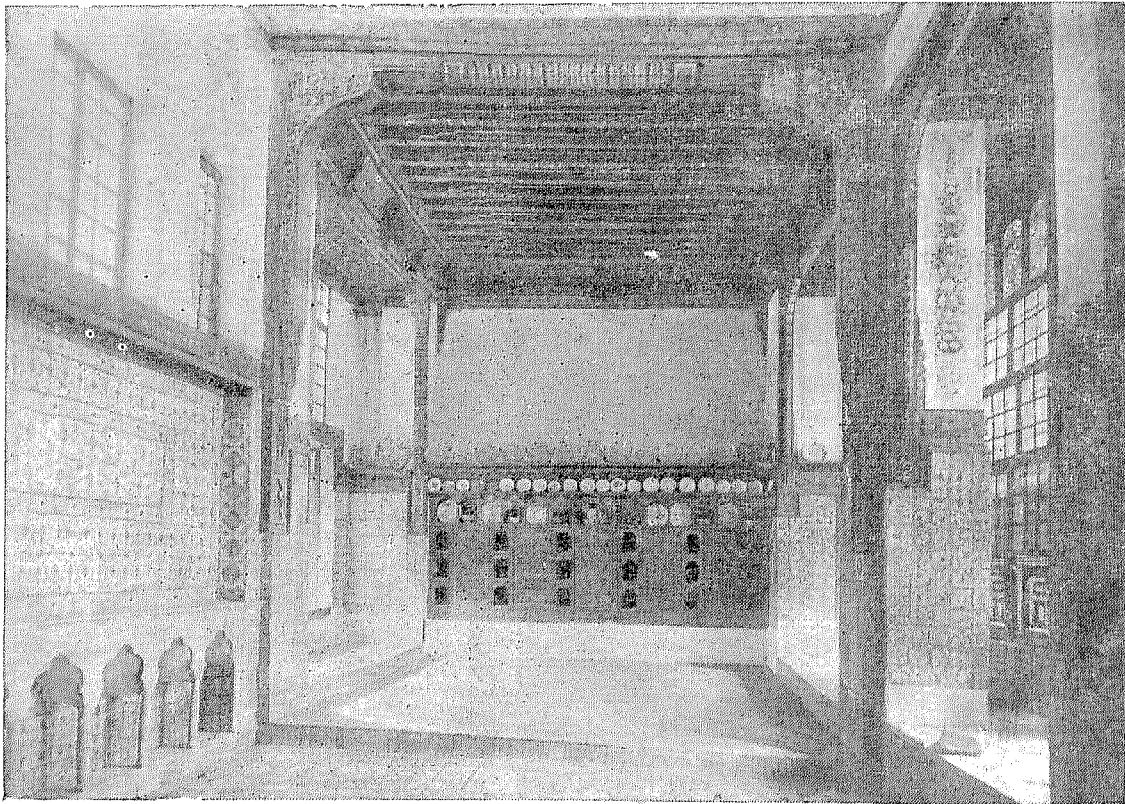
٥٦ — الوجهة التي تطل على فناء دار الطبلاوى
(المعروف بالسحيمي) (١٦٤٨ — ١٧٩٦)



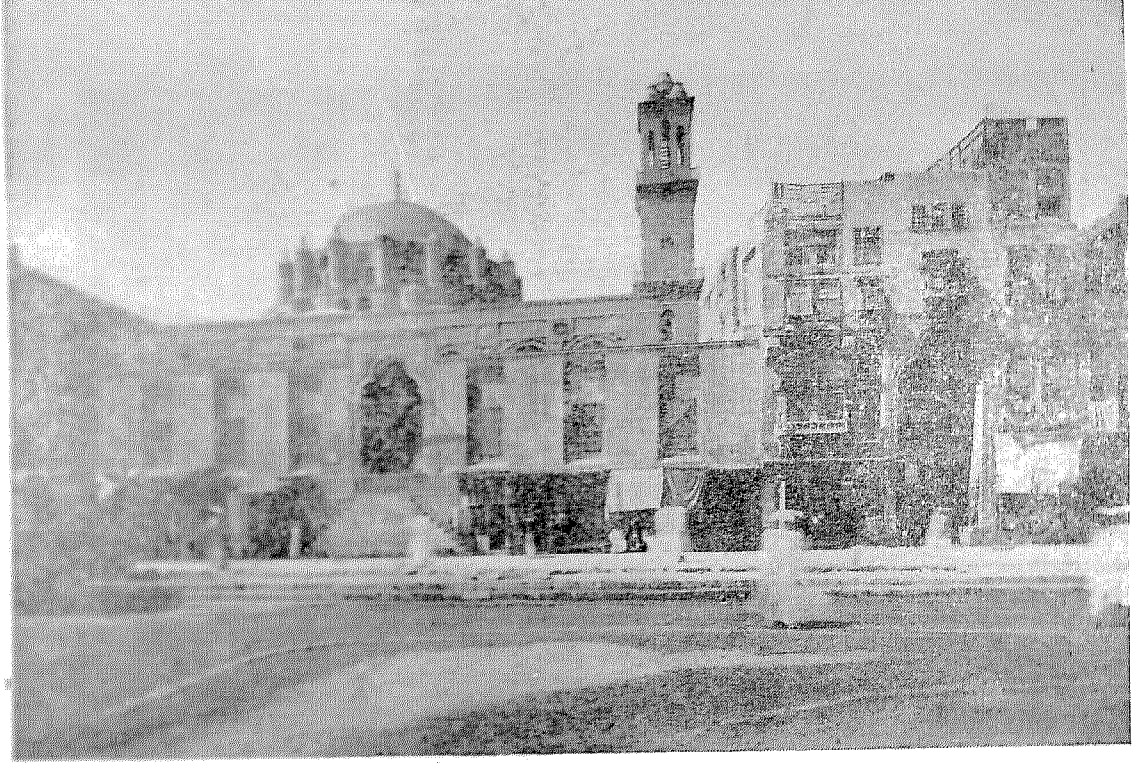
٥٧ — زاوية عبد الرحمن كتخدا بشارع المغربلين (١٧٢٩)



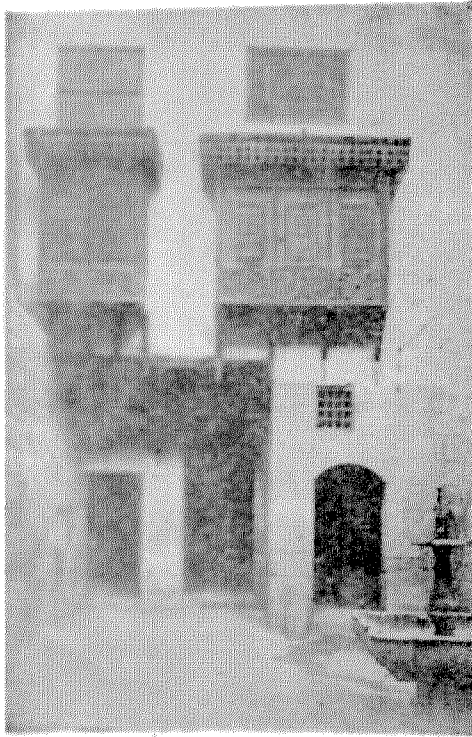
٥٨ — سبيل عبد الرحمن كتخدا
(١٧٤٤)



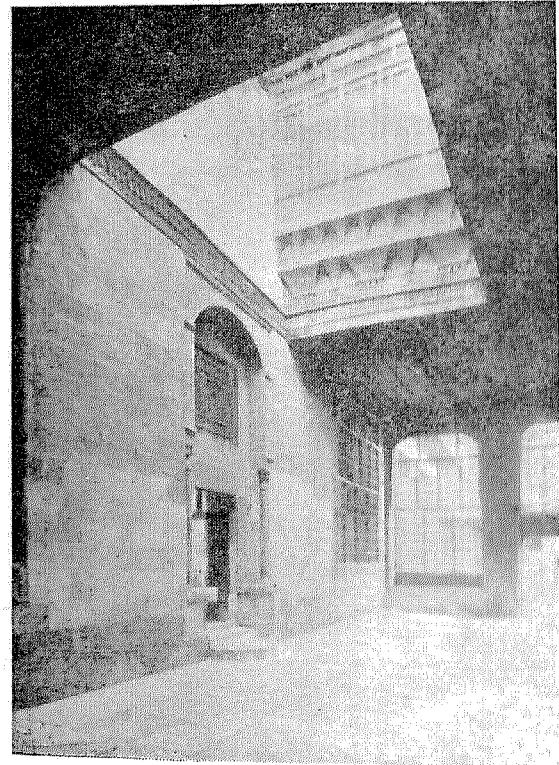
٥٩ — القاعة الكبيرة بمنزل الطباوى (١٦٤٨ - ١٧٩٦)



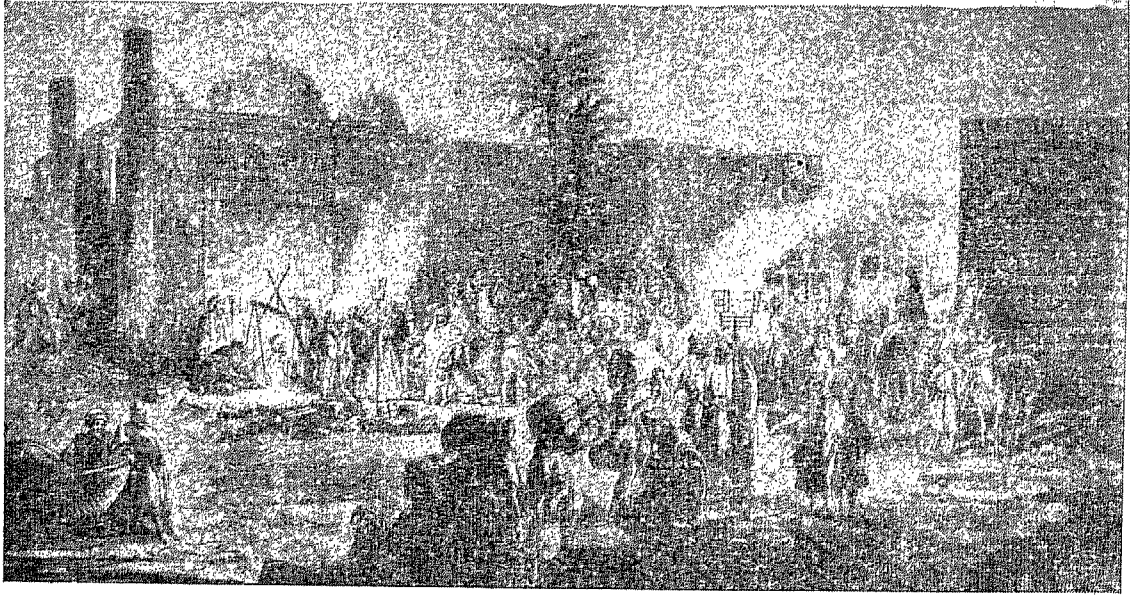
٦٠ - مسجد محمد أبا الذهب المواجه للآزهر (١٧٧٤)



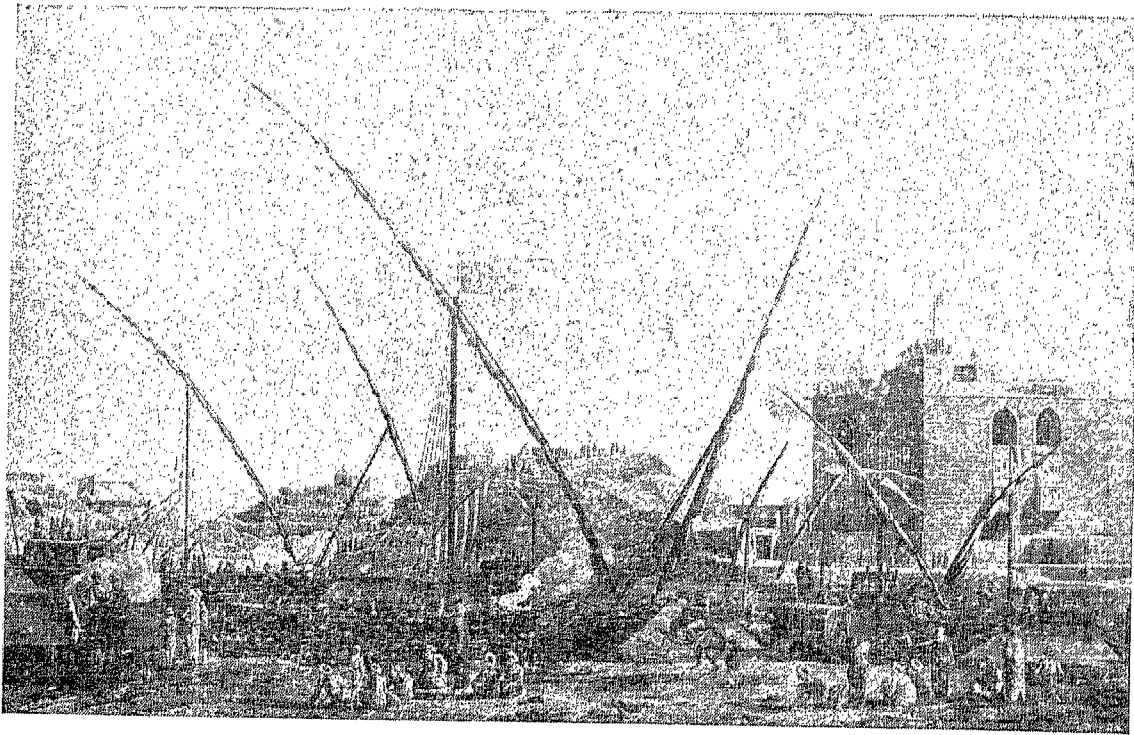
٦٢ - دار السنارى بالسيدة زينب (١٧٩٤)



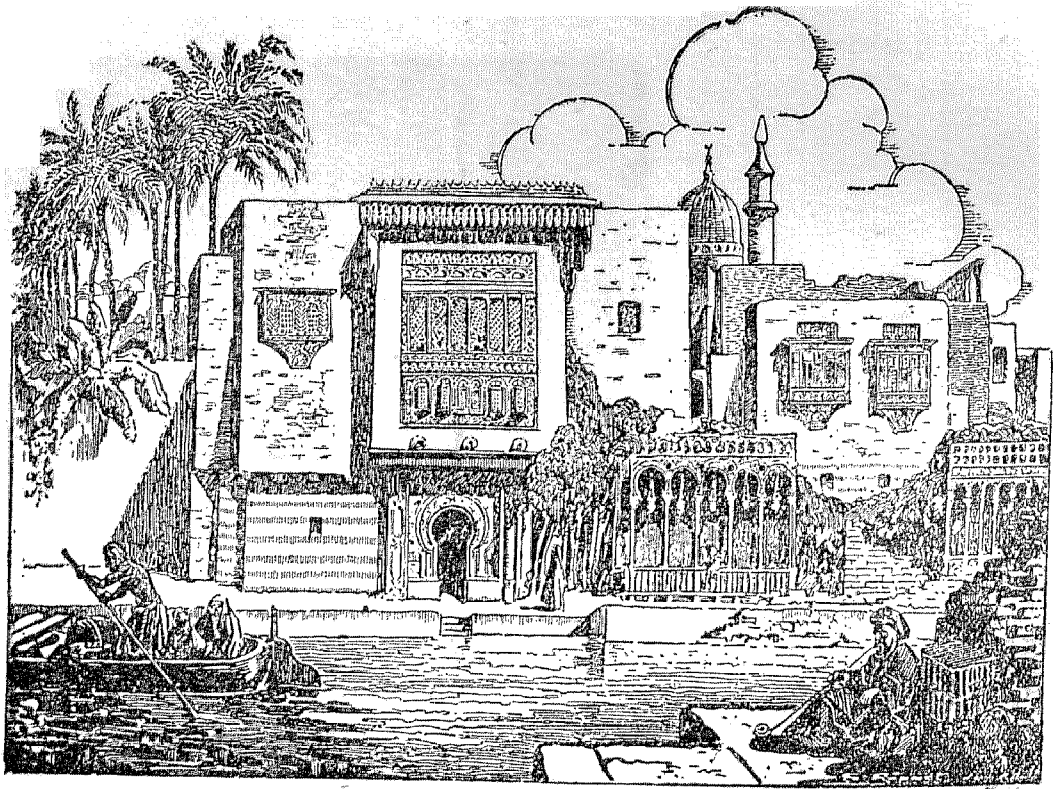
٦١ - دار المسافر خانة (١٧٧٩ - ١٧٨٩)



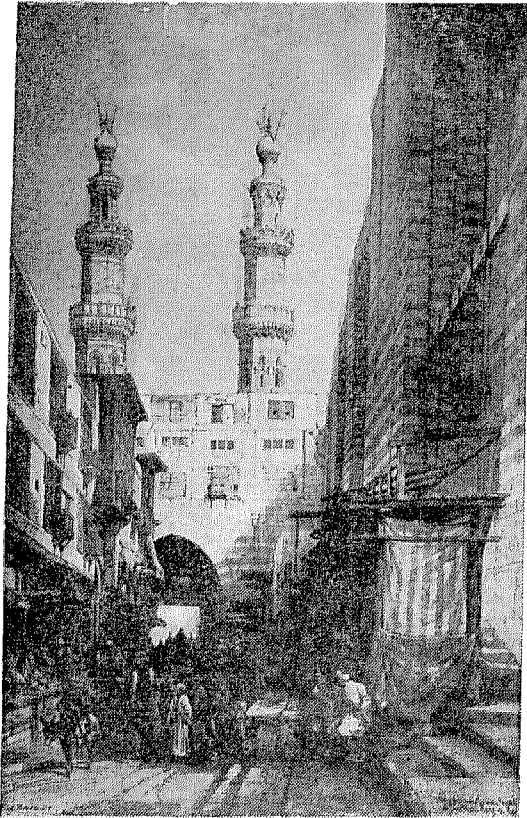
٦٣ — إحدى وكالات القاهرة في بولاق أيام الحملة الفرنسية



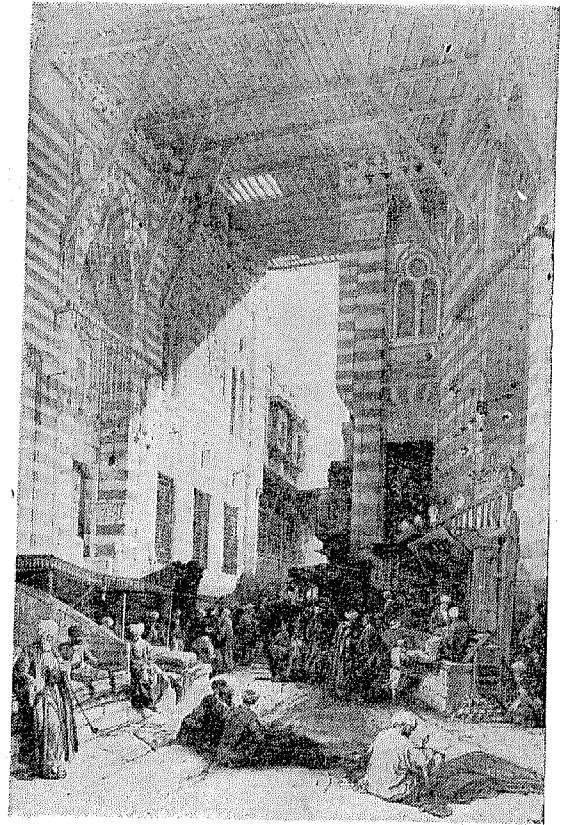
٦٤ — قناطر المياه عند فم الخليج أثناء الاحتفال بقطع السد أيام الحملة الفرنسية



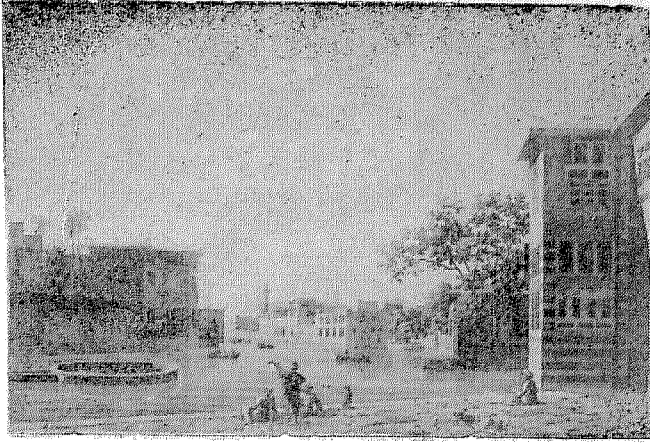
٦٥ - الخليج المصرى وبعض الدور التي كانت تطل عليه



٦٧ - باب زويلة وقصر ضوان للرسم روبرتس في القرن ١٩



٦٦ - سوق الحرير بالغورية للرسم روبرتس في القرن ١٩



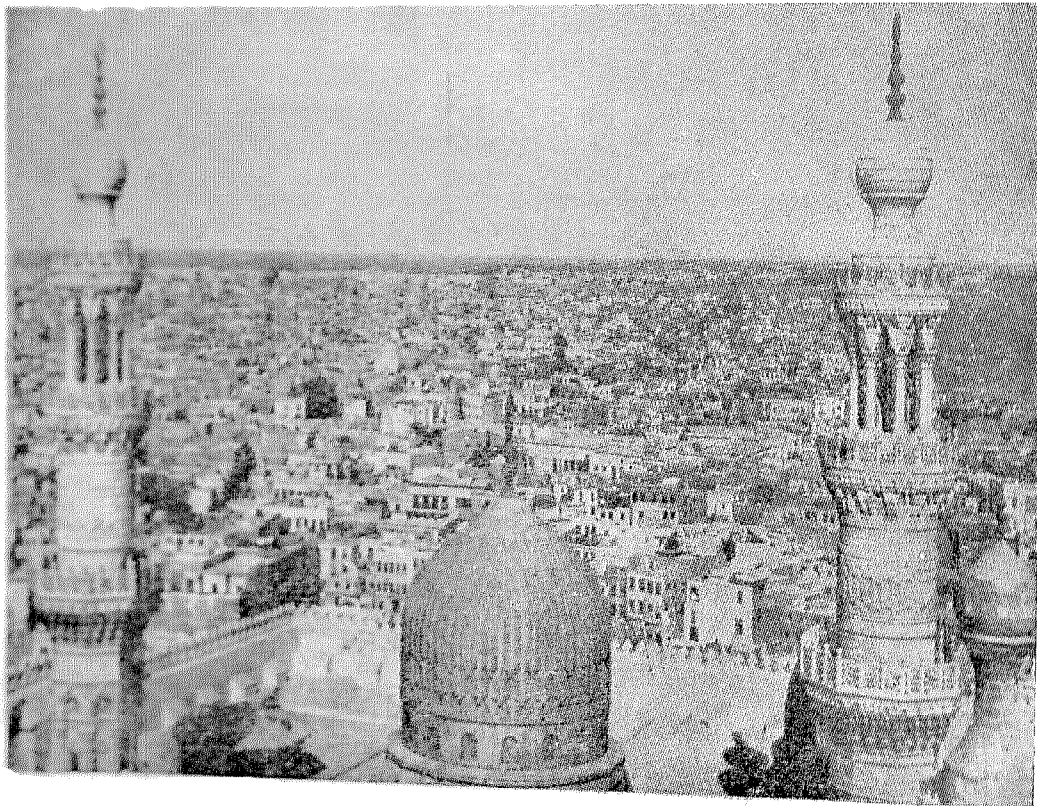
٦٨ — بركة النيل في القرن ١٩



٦٩ — مشهد قتال بين طوائف المماليك
في القاهرة في القرن ١٨



٧٠ — أحد رجال المالك يعاين سيفاً في سوق السلاح



٧١ — منظر عام للقاهرة



التمت ٧٠ قرشاً

مايو ١٩٦٦

دار الطباعة الحديثة
 ١ كسيحة الزيتون - الأزقة شارع النيل
 تليفون ٩٠٨٢١٨ - ٩١٦٩١